شريعة الغاب والخرافة

ربّانيَّةُ الشريعَةِ الإسلاميَّةِ وتراثيَّةُ الشّرَائِعِ اليهُودِيَّة

وأثرُها على فلسطِين.. الأرضِ والإنسان

(دراسة مقارنة)

الدكتور/ عبدُ الله غَالب البَرغُوثِي

دار البرغوثي
للنشر والتوزيع
www.daralbarguothi.com

2022

البرنامج الوطني لدار الكتب الفلسطينية
بطاقة فهرسة أثناء النشر
وزارة الثقافة – الإدارة العامة للمكتبات والمخطوطات
عبد الله البرغوثي
ربّانيَّةُ الشرِيعَةِ الإسلاميَّةِ وتراثيَّةُ الشّرَائِع اليهُودِيَّة، دار البرغوثي للنشر والتوزيع. – غزة: دار البرغوثي، 2022مَ.
(565) ص: 17.5X25 سم
رقم الإيداع: 1740/ 2022

لا يجوز نقل أو نسخ أي شيء من مادّة الكتاب
إلّا بعد الحصول على إذن خطّي من دار النشر

الفهرس

الإهداء 11
شكر وتقدير 13
تقديم د. أحمد نوفل.. 14
تقديم د. أسماء قلاوون 17
تقديم أ. إسماعيل هنية 19
تقديم أ. د. إسماعيل رضوان 22
تقديم أ. سائد الريماوي 24
تقديم أ. د. عماد البرغوثي.. 26
تقديم الشيخ عمر محمد فوره 27
تقديم د. محمود الزهار.. 28
تقديم د. مراد كدير 30
تقديم د. نواف تكروري 37
تقديم د. همام سعيد 41
تقديم د. وسام العريبي 42
التمهيد 45
أسباب اختيار الموضوع.. 50

الدراساتُ السابقة 51
مشكلةُ الدراسةِ وأسئلتُها 53
أهمية الدراسة 54

الفصلُ الأول: خصائصُ الشريعةِ الإسلاميَّة 55
المبحثُ الأولُ: الشريعةُ الإسلامية (ربّانيَّة، عالَميَّة، تكامليَّة) 57
أقسامُ الشريعةِ 59
عالميَّةُ الشريعةِ الإسلاميَّةِ 60
تكاملُ الشريعةِ الإسلاميَّةِ معَ الشرائعِ السَّماويَّةِ السّابقةِ 65
الاتِّفاقُ والاختلافُ بينَ الشرائعِ السَّماويَّة 68
الفرعُ الأوَّلُ- مواضعُ الاتِّفاق 68
الفرعُ الثاني مواضعُ الاختلافِ بين الشرائع 71
الردّ على المشكّكين 74
المبحث الثاني الشريعة الإسلاميّة (خاتمة البدايات) 77
المبحثُ الثالثُ بشريَّةُ الرُّسُلِ وألوهيَّةُ الوحي 82
أولا- بشريّة الرسل 82
ثانيا- ألوهيَّةُ الوَحي 87
رؤيا الأنبياء 89
صفةُ مجيءِ الملَكِ إلى الرسولِ 90
بشائرُ الوحي 91
أثرُ الملَكِ في الرسول 91

الرسلُ والأنبياءُ والفرقُ بينهم 94

وجوبُ الإيمانِ بالرسلِ والأنبياء.. 97

المبحث الرابع: التصديقُ الجازمُ بالرسالاتِ والكتبِ السماويّة........... 104

الرسالات والكتب السماويّة.. 104

التصديق الجازم.. 105

البشريةُ والرسالاتُ والكتبُ السماوية 105

الواجب الشرعي تجاه الكتب والرسالات السماوية.. 108

الفصلُ الثاني: القرآن الكريم والسنة المطهّرة........................ 117

المبحث الأوّل: خصائصُ القرآنِ والسُّنَّةِ، ومكانتُهما في التشريع. 119

القرآن الكريم والسنة النبوية المطهّرة 127

تمايز القرآن الكريم.. 127

قرآنُ الهدى والخير.. 131

المبحثُ الثاني السُّنَّةُ النَّبويَّةُ المطهَّرة 137

شبهاتٌ حولَ القرآنِ والسنة.. 143

القرآن يبيّن القواعدَ، والسنّة تفصّل الأحكام 145

حفظُ اللهِ للقرآنِ يستلزمُ حفظَ السنّة.. 145

أطوار تدوين السنّة 146

جهودُ علماءِ الأمّةِ في خدمةِ السنّةِ وتنقيتها.. 147

اهتمامُ جهابذةِ السنّةِ بالسَّنَدِ والمتنِ معًا 148

موسى –عليه السلام– بعيونٍ ربّانية مسلمة.. 154

موسى رسولًا وطريدًا 167

موسى وبنو يعقوب................................ 181

الفصلُ الثالث: الشرائع اليهودية 193

المبحث الأوّل: الشرائع اليهودية (بشرية، محدودة، متوحشة)................ 195

محدودية شرائع التراث اليهودية................................ 203

علاقة شرائع التراث اليهودية بالشرائع السماوية 208

مفهوم التشريع 209

المبحث الثاني: شرائعُ التراثِ اليهودية (بداية الخاتمة)................ 218

المبحث الثالث: ناموس موسى المكتوب (التوراة)................ 228

ناموس موسى الشفهي (التلمود) 239

الإسماعيليّون هم العرب 249

الفرقان.. ناسخ ناموس موسى................................ 253

الفصلُ الرابع: الصهيونية.. سِفرُ كهنةِ السياسة................ 259

المبحث الأوّل: حقيقةُ الصهيونيةِ ونشأتُها وأهدافُها................ 261

المبحثُ الثاني: الصهيونيةُ أوجهٌ متعدّدةٌ وهدفٌ واحد 275

ماهيّةُ الوجهِ الظاهرِ للصهيونية................................ 275

المؤتمراتُ الصهيونيةُ والمطالب اليهودية 276

المراحلِ التاريخيةِ للمؤتمراتِ الصهيونية العالمية 288

المرحلة الأولى: فترة هرتسل................................ 288

المرحلة الثانية: فترة الصهيونية العملية................................ 289

المرحلة الثالثة: الفترة الواقعة بين وعد بلفور وإقامة الكيان 290

المرحلة الرابعة: المؤتمر بعد قيام إسرائيل................................ 290

استعراضٌ لأهمِّ الحركاتِ الصهيونية 291

الصهيونية الدينية 291

الصهيونية الروحانية................................ 291

الصهيونية الاشتراكية................................ 292

الصهيونية التوفيقية 292

بروتوكولات صهيون................................ 293

المبحث الثالث: فلسطين وجغرافيتها 304

الأسماء العربية لفلسطين 308

المبحث الرابع: الأرض المقدسة... تاريخ ومعارك................ 320

غزوة مؤتة.. 321

غزوة تبوك 321

توليةُ أبي بكر وبعثُ أسامة بن زيد –رضيَ الله عنهما– 324

معركة أجنادين 328

معركة اليرموك 330

فتح بيت المقدس 334

الفصلُ الخامس: الفتح الإسلامي لبيت المقدس 337

المبحث الأول: بيتُ المقدس الاسم والقدسيّة 339

العهدة العمرية.. 343

المبحث الثاني: بيت المقدس... بين الاحتلال والفتح............ 356

بيت المقدس احتلال صليبي... فتحرير إسلاميّ 371

الرواية الإسلامية 382

المبحث الثالث: بيتُ المقدسِ من العثمانيين حتى السقوط 393

بيت المقدس ونهاية الخلافة العثمانية.................................... 402

السلطان عبد الحميد الثاني.. 404

ثالثًا: الحروب الصليبية على الدولة العثمانية.............................. 413

المبحث الثالث: السلطان والحركة الصهيونية 417

المرحلة الثانية الهرتزلية (6981 – 4091) 421

القسم الثاني ما بعد انعقاد مؤتمر بال 423

المرحلة الثالثة: ما بعد هرتزل (4091–9091) 428

انتصار الخرافة على الخلافة... 429

الفصلُ السادس: أرضُ الخرافةِ وشريعةِ الغاب 443

المبحث الأول: أرض الخرافة... وخرافة الوعد 445

المبحث الثاني: كهنة أرض شريعة الغاب 465

المبحث الثالث: طباع يهود شريعة الغاب والخرافة 474

فساد يهود الغاب ومكرهم وطباعُهم قبل الإسلام:........................ 474

فساد يهودِ الغابِ ومكرُهم بعد الإسلام:................................. 479

المبحث الرابع: الأمريكيون الشعب المختار وسندان اليهود 489

النتائج والتوصيات 527

النتائج 529

التوصيات 541

المصادر والمراجع... 549

إهْدَاءْ

إلى: من لهم أيادٍ بيضاً لا تطاولها فضيلة الشكر والعرفان:

والديّ الكريمين، أطال الله في عمرهما، ورزقهما العفوَ والعافية والسلامة في الدنيا والآخرة؛ فهذه الأطروحة، وما سبقها من إصدارات وكتب، هي ثمرة غرسِهما الطيبِ المبارك ودعائهما

إلى:

الحبيبة ورفيقة الدرب في المطاردة والأسر والفراق، زوجتي فائدة البرغوثي

إلى:

تالا وأسامة وصفاء، أبنائي الأحباء الذين دفعوا الثمن الأكبر من المعاناةِ والألم بسبب البعد والفراق

إلى:

إخوتي وأخواتي، رائف وريم وفائدة ومحمد ، محمد فلولا جهوده المضنية لما تنسّمت هذه الأوراقُ نورَ الحرية بعدما كانت حبيسة في مجاهيل سجونِ بني صهيون.

وإلى الأحرار في كل زمان ومكان.

أهدي هذه الأطروحة

عبد الله غالب البرغوثي

شكر وتقدير

الحمد لله ربّ العالمين الذي أكرمني بأساتذة أفاضلَ و أقرانٍ فرسان مخلصين يؤمنون بأن اخلاق فرسان كمالِ الدين تقومُ على أن الواحدَ للكلّ والكلَّ للواحد، مادام الواحدُ والكلُّ لله، وفي سبيل الله، مؤمنين بأن العملَ لله يعني التكاملَ والبذلَ والعطاء، دون انتظار الشكر أو الأجر إلا منه تعالى وتبارك، ومع ذلك فالشكرُ -كلُّ الشكرِ- لمن لهم في رقبتي دين إلى يوم الدين، دين لا تطاوله فضيلة الشكر والاستقامة: الشكر للدكتور زكريا السنوار، والشكر للدكتور احمد نوفل، والشكر للشيخ الجليل همام سعيد، وللدكتور صلاح الخالدي، الذ وافته المنيةُ قبل أن ترى هذه الأطروحةُ النور بأيامٍ معدودةٍ، فرحمه الله تعالى.

والشكر للأقران الفرسان، رامز الحلبي ونعيم عطاالله وجمال البرغوثي، وقرة عيني اخي محمد غالب الجمل، الذين لولاهم -بعد الله- لما بدت هذه الأطروحة منجَزاً ثقافياً يسهم في تبليغ رسالة الإسلام الحقِّ، ودحض شريعة الغاب والخرافة، ولان تتحرر هذه الأوراقُ بعدما كانت أسيرة في عتمة سجونِ يهودِ شريعة الغاب والخرافة.

الشكر لأساتذتي الذين آمنوا بما قدمته، فقدموا لهذه الأطروحة التي ارتئَوا انها جزء لا يتجزأ من فكرهم وعقيدتهم؛ عقيدة كمال الدين، فأبدوا لي الملحوظات والتوجيهات التي جوّدت الأطروحةَ، وسمَت بها. كما اتوجهَ بالشكر والتقدير والعرفان للفنانة الحرة أمية جحا على اللوحة التي ازدان بها الغلاف.

تقديم د. أحمد نوفل

أقولُ: لا أدري إن كانت هذهِ رسالةَ دكتوراه جامعيةً أم لا، ولو كنتُ مناقشاً لها لقلتُ إنها تَمنحُ صاحبَها شهادةَ الدكتوراه بامتياز.

لقد غطتْ هذه الدراسةُ مساحةً زمنيةً مكانيةً ضخمةً، استطلعتْ من المصادرِ والمراجعِ والمظانِّ ما زادَ عن مئَتَي مرجعٍ، وخُتِمتْ بعشراتِ التوصياتِ المهمةِ والمركزة. وأبتدئُ بالقول: إنّ معركَتَنا مع هذا العدوِّ شاملةٌ واسعةٌ، ومفتوحةٌ ممتدةٌ، وهيَ حربٌ ثقافيةٌ علميةٌ دينيةٌ حضاريةٌ تاريخيةٌ جغرافيةٌ إنسانيةٌ نفسيةٌ اجتماعيةٌ اقتصاديةٌ سياسيةٌ عسكريةٌ استراتيجيةٌ أمنيةٌ معلوماتيةٌ استخباراتيةٌ شاملةٌ، وإنّ السَّلامَ معَهم لم يكنْ إلّا تنازُلاً بلا مقابلٍ، ولمْ تَجْنِ القضيةُ مِن ورائِه إلّا الخسرانَ والهَوانَ، وأعطتْ للمحتلِّ شرعيةً بلا أيِّ وجهِ حقٍّ.

والحمدُ للهِ أنْ قيَّضَ لهذا القلمِ، قلمِ المجاهدِ الدكتورعبدِ الله البرغوثي أن يَخدِمَ هذهِ القضيةَ المقدَّسةَ، وأنْ يكونَ جهداً مباركاً مهمّاً في التوعيةِ بحقيقةِ الصِّراعِ، وما هوَ السَّبيلُ السَّويُّ لخَوضِ هذا الصراع، فعدوُّنا لَم يؤمنْ بالسَّلامِ يوماً، ولا ساعةً، وما كانَ السَّلامُ إلا محطةً يستجمِعُ فيها قوَّته، ويلتهمُ مزيداً منَ الأرضِ تحتَ وَهْمِ أنه أعطى لأصحابِ الأرضِ دولةً، وما أعطى إلا الوَهْمَ والسَّرابَ. وهذهِ الدراسةُ غَوْصٌ في أعماقِ التاريخِ وزوايا النفسية والعقلية التي تقفُ في مواجهتِنا وأنها نفسيةٌ مشبعةٌ بالحقدِ والدمويةِ، والغشِّ والخِداعِ، والعدوانيةِ، وتثبيتِ المخططاتِ لتدميرِ ما بقيَ من حقِّنا، وتشريدِ مَن بقيَ في الأرضِ من شعبِنا. على الأمَّةِ أنْ تعيَ عقليةَ عدوِّها، وأنْ لا تنخدِعَ بترويجِ الأكاذيبِ والأضاليلِ، لأنّ المرجفينَ مستفيدونَ، وهُم

والعَدُوُّ معسكرٌ واحدٌ.

لقد سرَّني ما قرأتُ لأنّه يعبِّرُ عَن جُهدٍ ضَخمٍ، ليخدمَ صاحبُه قضيَّتَه التي ارتبطَ بها، وضحَّى مِن أجلِها، ولأنَّه ينمُّ عنْ وعيٍ وإدراكٍ لحقيقةِ الصِّراعِ، وكمْ كانَ موفَّقًا في مصطلحِ (تراثية الشرائعِ اليهودية) فليسَ مِن مَنهجِ اللهِ، ولا مِن كلامِه سبحانَه ما زعمُوهُ مِن قولِهم: «اقتلْ كلَّ نسمةٍ»، هذا يستحيلُ أنْ يكونَ إلّا مِن كلامِ مجرمِي البشر.

ثمَّ ماذا يمكنُ أنْ نقولَ في هذهِ الرحلةِ الممتدَّةِ معَ الكاتبِ التي غطَّتْ قرونًا كثيرةً إلى أنْ وصَلتْ إلى الراهِنِ مِن مراحلِ الصِّراعِ وبوش الأبِ والاِبْنِ التوراتيين المؤمنين بخرافات دموية من التراث البشري الذي ألبس ثوب الدين، وغطى البحثُ القيِّمُ كذلكَ، دورَ الدولةِ العثمانيةِ وحجمَ التآمرِ عليها ليسهلَ عليهِمُ اغتصابُ الأرضِ المقدسةِ بعدَ زوالِ ظلِّ الخلافةِ عنها، وبعدَ تمزيقِنا إلى دويلاتٍ لا تقومُ بشؤونِها إلّا كما يقومُ المهزومُ الضعيفُ العاجزُ.

وفي ظلِّ هذا التفتُّتِ يتقوَّى العدوُّ، وينتشرُ في أرضِنا، ويسيطرُ على مزيدٍ من أرضِنا، ويزدادُ تهويدُه لأقدسِ مقدساتِنا بعدَ الحرمَين، «المسجد الأقصى»

والعجيبُ الأعجبُ أنّ أعرابَنا يزدادونَ إقبالًا على العدوِّ، وتطبيعًا معَهُ كلما ازدادَ تهديدُه لمسرَى النبيِّ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ، مما لا يمكنُ تفسيرُه.

أقولُ مختصراً، حتى لا تطولَ كلماتي: هذا كتابٌ يستحقُّ كاتبُه منّا كلَّ الشكرِ والتقديرِ، فخدمةُ القضيةِ بالقلمِ والفِكرِ والبصيرة، لا تقِلُّ عنْ خدمتِها بالسلاحِ والقوةِ والذخيرةِ، فالفكرُ ذخيرةٌ وأيُّ ذخيرةٍ.

جزى اللهُ الكاتبَ كلَّ خيرٍ، وآملُ أنَّ هذا الكتابَ يدخلُ كلَّ بيتٍ، ليزيدَ من انتمائِنا لقضيتِنا، التي هي قضيةُ وجودٍ، نكونُ أو لا نكونُ، وسنكونُ بإذنِ اللهِ وعَودُنا لن يطولَ.

وأزعمُ أنَّ هذا الكتابَ كانَ ما تحتاجُه مكتبتُنا العربيةُ الإسلاميةُ والفلسطينيةُ، الوعْيُ جزءٌ مهمٌّ، وبُعْدٌ خطيرٌ مِن أبعادِ معركتِنا معَ هذا العدوِّ، فكمْ بُذِلَتْ جهودٌ، ورُصِدَتْ ميزانياتٌ لتزييفِ الوَعْيِ، وتضليلِ العقلِ، وتشويهِ الحقيقةِ، ومثلُ هذا الكتابِ سَدٌّ أمامَ سَيلِ الأكاذيبِ يفنِّدُها ويدحضُها ويدفعُها، ويردُّها خاسئةً حسيرةً.

إنّ المعركةَ على العقلِ والإرادةِ، والقدوةُ والنفسيةُ والعزائمُ أخطرُ أبعادِ المعركةِ، وما قيمةُ السلاحِ في يدٍ مرتعشةٍ، وقناعةٍ مضطربةٍ، وإرادةٍ هشةٍ؟

ويقينُنا ما يزالُ، وسيظلُّ، أنّ الفجرَ قريبٌ، وأنّ دخولَنا المسجدَ الأقصَى وفقَ الوعدِ الإلَهيّ حتمٌ مقضيٌّ، وهيَ مسألةُ وقتٍ قصيرٍ، وجَمعٌ للكلمةِ، بدلَ هذا التمزقِ المفتَعَلِ والتآمريِّ والمعوِّقِ لهذا الدخول.

وختامًا، دعاؤُنا إلى اللهِ أنْ يجعلَ لهذهِ الأُمةِ فجراً صادقًا، وفرَجًا قريبًا، وجمعًا للكلمةِ، ووحدةً للهدفِ والجهدِ، فهذا الشتاتُ لا يتفقُ وروحِ الإسلامِ، ونَصِّ القُرآن: «ولا تنازَعُوا فتفشَلوا وتذهبَ ريحُكم»

ولأخينا عبدِ اللهِ البرغوثي تحيةً عطرةً على هذا الجهدِ الذي سعِدْتُ بهِ أيَّما سعادةٍ، وفرحتُ بهِ أيّما فرحٍ، فهوَ لا يسُدُّ مسدَّ كتيبةٍ، بلْ لواءٍ، بلْ فرقةٍ بأكملِها.

كتبَ اللهُ لكَ ولكتابكَ التوفيقَ والسَّلام.

تقديم د. أسماء قلاوون

الحمدُ للهِ الذي خلَقَ الإنسانَ، وأكرَمَهُ بالعلمِ والبيانِ، وأقامَ الحُجَّةَ عليهِ بالسُّنَّةِ والقرآنِ، والصَّلاةُ والسَّلامُ على سيِّدِ وَلَدِ عَدنانِ، وعلى آلهِ وأصحابِه الكرامِ إلى يومِ حسابِ الإنسِ والجانّ.

فصولٌ منَ العلمِ والمعارفِ المنبَثقةِ عنِ العقيدةِ الإسلاميَّةِ كُتبتْ بقلمٍ ينبضُ بالحريةِ والبطولةِ...رجالٌ أقوياءُ يقفونَ شامِخينَ، هُمْ نبضُ البطولةِ وأنشودةُ النخوةِ والمروءةِ، هُمُ الشجاعةُ والتحدي، وهمُ العيونُ المرابطةُ التي باتتْ حارسةً لرِفعةِ الوطنِ. أَسْرَى السجونِ هُمْ قلوبٌ تنبِضُ وتحتضِنُ الآمالَ والأحلامَ، وتحمي الوطنَ منَ العدوانِ يقفونَ بقلبٍ قويٍّ رافضينَ الذلَّ والهَوان... حقاً إنَّ القلمَ يقفُ مدهوشاً، والعباراتُ مزدحمةٌ عاجزةٌ عنِ التعبيرِ أمامَ أناملِ الشموخِ والعزةِ... التي دَوَّنَتْ روائعَ الشريعةِ الربانيةِ وأهميَّتَها كمنهجِ عقيدةٍ وحياةٍ...كمْ ينشرِحُ صدرُكَ حينَ تلقَى قوةَ المؤمنِ وصلابتَه وعزيمتَه وجديَّتَه مشفوعةً بسكِينةٍ وإخباتٍ ورقةٍ وصفاءٍ!! وهو ما يتمثلُ في شخصيةِ المسلمِ بخُلُقِ الرَّبَّانيةِ، وهذا ما وَجَدْتُهُ في شخصيةِ أميرِ الظلِّ الذي اعتلى روضةَ الباحثِينَ في رسالاتٍ عقائديةٍ دوَّنَها بأهدافِها كافةً ليثبتَ حقيقةَ الشريعةِ الإسلاميةِ ومبادئَها وتفوُّقَها على معظمِ الرِّسالاتِ التي سَلكتْ طريقاً موهوماً أضحَى سراباً أمامَ مَن ضَلَّ الطريقَ.

إنَّ ما دوَّنَهُ أميرُ الظلِّ يبيِّنُ حقيقةً مطلقةً، ألا وهيَ أنّ مَن صَنَعَ القضبانَ وأطلقَ القيدَ لا يمكنُ أن يقيِّدَ فكراً يصافحُ الحقيقةَ القائمةَ على حبِّ اللهِ والإيمانِ بهِ، وهنا

ديوانُ المصداقيةِ الذي اتَّصَفَ بها قلمُ الكاتبِ... حَماكُمُ اللهُ رجالَ اللهِ، وأنّا معَكم على الطريقِ ننتهجُ حريَّتَكمُ المرموقةَ وثباتَكمُ الراقي والسامي. دمتمْ ودامَ نبضُكم أيُّها الأحرارُ. كلُّ التحايا لأخي أميرِ الظلِّ، ولكلِّ الأسرَى الأحرارِ، وهذهِ قصيدتُنا لكمْ استَقَيْنا حروفَها منْ عزائِمِكم.

الأسيرُ الحرُّ أميرُ الظل

ظهرَ الأسيرُ بعزمِه مُستبسِلاً ... كالنَّسرِ يبدو شامخًا متفائلا
وبهمةِ الأبطالِ يمضي واثقًا ... إنَّ العزائمَ لنْ تخونَ مكبَّلا
سيظلُّ رغمَ القيدِ في عليائِه ... لا خوفَ يعبرُ قلبَه متسلِّلا
بطلاً يرومُ العيشَ عيشَ كرامةٍ ... مِن سِجنِه متوعِّداً ومقاتِلا
وبسِجنِه يلقَى الظلامَ مصفَّداً ... والنورُ يشرُقُ في الثنايا مرسَلا
نظراتُه توحي بومضةِ بارقٍ ... دُهشَ العدوُّ بنظرةٍ متأمِّلا
كيفَ العيونُ بريقُها مِن ثائرٍ ... ما سر ذياك البريق مسائلا
فأجبته والزهو يغمر جانبي ... وموضحا لسؤاله ومعللا
أن البطولة نارها ووميضها ... كالبرق يعصف بالعيون مهدلا
كالودق يأتي من وميض سحابة ... والرعد يأتي بعدها ليزلزلا
والخير كل الخير يأتي باعثا ... أنفاسه في البذر يغدو سنبلا
وكذا الفداء وقد أتى بمخاضه ... ليكون نصرا بالبهاء محملا
فيفوح مسك ناشر لعبيره ... لنصيب من عطر الفداء مبجلا
اوطاننا رهن الفداء ترومه ... تبقى على طول المدى رمز العلا

دمتُم ودامَ قلمُكم

تقديم أ. إسماعيل هنية

الحمدُ للهِ منزلِ الكتابِ، ومُجري السحابِ، وهازمِ الأحزابِ، لا إلهَ إلّا هوَ القائلُ (وأنزلنا إليكَ الكتابَ بالحقِّ مصدقًا لِما بينَ يديهِ منَ الكتابِ ومهيمِنًا عليهِ)، والصَّلاةُ والسَّلامُ على مَن لا نبيَّ بعدَه، سيِّدِ الأنامِ والمرسلينَ، سيِّدِ الخلقِ أجمعينَ المصطفَى محمَّدٍ، عليهِ أفضلُ الصَّلاةِ وأتمُّ التسليمِ، أمّا بعدُ،

لقد شرفني الأخُ المجاهدُ الدكتور عبدُ اللهِ غالب البرغوثي بتقديمِ هذهِ الرِّسالةِ العلميَّةِ القيِّمةِ، التي تحملُ عديدَ الميزاتِ، وعديدِ عناصرِ التفردِ، بما يجعلُ منها دراسةً استثنائيَّةً بمعنَى الكلمةِ، فهيَ دراسةٌ أُعدَّتْ داخلَ أسوارِ السِّجنِ، وأبصَرَتِ النورَ مِن بينِ عتماتِ الزنازينِ، لتؤكدَ أنَّ الفلسطينيَّ يبدِعُ في كلِّ مكانٍ، ويستثمرُ كلَّ دقيقةٍ منْ وقتِه فلا تضيعُ هباءً، وأنَّ السجنَ والاعتقالَ لا يمكنُ أنْ يضَعا حدًّا لتحقيقِ الإنجازِ ولإعمالِ العقلِ والإبداع.

أنها المدرسةُ اليوسفيةُ التي خرّجتْ آلافَ العلماءِ والدعاةِ والساسةِ وحملةِ الفِكرِ المستنيرِ، وأصحابَ المقامِ الرفيعِ في العلومِ العسكريَّةِ والأمنيةِ والتنظيميةِ.

كما هي دراسةٌ استثنائيةٌ مِن حيثُ صاحبُها الذي أبدعَ في جهادِه ضدَّ هذا المحتلِّ، وضربَ نموذجًا يُحتذَى، ثم نموذجًا في صبرِه على تنكيلِ العدوِّ وتعسُّفهِ داخلَ السجنِ، بل ونجحَ في تحويلِ أقبيتهِ إلى منبرِ عطاءٍ، ومركزِ علمٍ يشعُّ للعالَمِ بفكرٍ مستنيرٍ، وبصيرةٍ ينهلُ منها العلماءُ والدارسون.

وهيَ أيضًا دراسةٌ استثنائيَّةٌ في عنوانِها ومضمونِها، وتشكِّلُ مرجِعًا في فَهمِ

الشرائعِ اليهوديةِ كمقدمةٍ ضروريةٍ لفهمِ طبيعةِ السلوكِ الذي يقومونَ بهِ استناداً إلى هذهِ المفاهيمِ التي نسَجوها، ونسبُوها إلى الدينِ، وجعلوا منها منهَجًا يسيرونَ عليهِ، ممَّا اقتضَى بالفعلِ فَهمُ هذهِ الطبائعِ والمقدماتِ التي تقودُنا إلى تفسيرِ حالةٍ وتنبؤٍ بممارسةٍ طبقًا لها، وتساهمُ بشكلٍ مميَّزٍ في فهمِ طبيعةِ المشروعِ الاستعماريِّ الصهيونيِّ، لا سيَّما أنَّ هذهِ الطبائعَ والسلوكياتِ ليستْ وليدةَ مرحلةٍ، وإنما نِتاجُ مراحلَ من التاريخِ وخلاصتُها.

هذه الدراسةُ (ربانيةُ الشريعةِ الإسلاميةِ، وتراثيةُ الشرائعِ اليهوديةِ وأثرُها على فلسطين) تحملُ ثلاثةَ عناصرَ رئيسةٍ يكملُ بعضُها بعضًا، وتمتزِجُ لتخرجَ مكوِّنًا فريدًا، فهِيَ تؤكدُ القناعاتِ الراسخةَ بقوامةِ الإسلامِ منهجًا وعقيدةً وشريعةً، وتنزيهِها مِن أيِّ عيبٍ أو افتراءٍ أو افتئاتٍ، وتعززُ حقيقةَ هيمنةِ الإسلامِ كرسالةٍ خاتمةٍ رسَّخَها القرآنُ الكريمُ، وتستعرضُ تراثيةَ الشرائعِ اليهوديةِ وخطورَتها، وفهمَ الدورِ الدينيِّ لدَى اليهودِ في حياتِهم وتأثيره على سلوكِ الاستعمار.

ويُظهِرُ الباحثُ المجاهدُ مدى طغيانِ كهنةِ شرائعِ التراثِ اليهوديةِ، وفسادَ أحوالِهم واستعمالَهم للسلطةِ الدينيةِ، واختلاقَهم لأوهامٍ ومحرَّفاتٍ، موضحًا أنَّ الصهيونيةَ في حقيقتِها سِفرٌ وشريعةٌ خلقَها كهنةُ السياسةِ اليهودُ غيرُ المؤمنينَ أصلاً باليهوديةِ كدينٍ، وإنّما هيَ وسيلةٌ للسلطةِ وممارسةِ كلِّ الموبقاتِ السياسيةِ ممّا يجعلُ من كهَنةِ المعابدِ وكهنةِ السياسةِ وجهَيْنِ لعملةٍ واحدةٍ، لا يحركُهم دينٌ حقيقيٌّ، وإنّما مصالحُ خالصةٌ، ورغائبُ استعماريَّةٌ صاغوها على فنونِ السيطرةِ والتحكمِ والتلاعبِ بالشعوب.

إنَّ هذهِ الدراسةَ البحثيةَ العلميةَ تشكِّلُ مرجعًا حقيقيًّا للباحثينَ في أصولِ الصراعِ وحقيقتهِ، وطبائعِ هذا العدوِّ الذي لا يوجِّهُ سهامَهُ للشعبِ الفلسطينيِّ وحدَه، وإنّما

يشكِّلُ خِنجرًا مسمُومًا في خاصرةِ الأمةِ يسعَى للسيطرةِ على مقدَّراتِها وشعوبِها بكلِّ الوسائلِ الدنيئةِ، ونحنُ في أمسِّ الحاجةِ اليومَ لمَنْ يُظهِرُها لبعضِ المنخدعينَ بهذا العدوِّ وعلوِّهِ، الذي آنَ الأوانُ، وحانَ الحينُ لينتهيَ، وأن يُوضعَ له حدٌّ.

ولا يسعُني في ختامِ هذهِ التوطئةِ إلا أنْ أُحيِّيَ أخي الحبيبَ المجاهدَ الربانيَّ، عبدَ الله البرغوثي، الذي يمثِّلُ معَ إخوانِهِ في قِلاعِ الأَسرِ الصُّهيونيِّ نماذجَ الجهادِ المستنيرِ، والصبرِ الجميلِ، والثباتِ الأسطوريِّ، ويمهِّدونَ بذلكَ طريقًا في البحرِ يبَسًا نحوَ أرضِنا فلسطينَ وقدسِنا، أُمِّ البداياتِ وأُمِّ النهايات.

وإنِّي، ومعَي كلُّ إخواني في الحركةِ، وذراعُها العسكريُّ كتائبُ القسامِ نجددُ عهدَنا معَ أخينا الأسيرِ عبدِ اللهِ البرغوثيِّ، وجميعِ أسرانا وأسيراتِنا، بأنَّ حريَّتَهم على رأسِ أولويّاتِنا، بل وشُغلُنا الشاغلُ على الدوامِ، ونحنُ على يقينٍ بأنّ اللهَ الذي وفَّقَ لصفقةِ «وفاءِ الأحرارِ الأُولَى»، سيعبِّدُ لنا الطريقَ لإنجازِ صفقةٍ جديدةٍ مشرِّفةٍ بإذنِه -سبحانَه وتعالى-، ويسألونَك متى هو قلْ عسَى أنْ يكونَ قريبًا.

تقديم أ. د. إسماعيل رضوان

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، والصَّلاةُ والسَّلامُ على أشرفِ المرسلينَ، سيدِنا محمَّدٍ وعلى آلِهِ وصحبِه أجمعينَ، وبعد:

الحمدُ للهِ الذي أكرمَنا بهذا الإسلامِ العظيمِ بعدَ تمامِ النعمةِ، قالَ تعالى ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا..) (المائدة: 3) وقالَ أيضًا: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (آل عمران: 85)

ولقدِ اطَّلعتُ على هذهِ الرسالةِ الموسومةِ بـ(ربانية الشريعة الإسلامية وتراثية الشرائع اليهودية وأثرها على فلسطين الأرض والإنسان) دراسةٌ مقارنةٌ، للباحثِ المجاهدِ البطلِ الدكتور عبدِ الله غالب البرغوثي.

وتكمنُ أهميةُ هذهِ الرسالةِ في أنّها تتعرَّضُ لبيانِ أوهامِ الشرائعِ التراثيةِ اليهوديةِ المحرَّفةِ، وأكاذيبِها، وخُرافاتِها، وأساطيرِها، وخطرِها على فلسطينَ الأرضِ والإنسانِ، وتؤكدُ الثابتَ المؤكَّدَ أنّ فلسطينَ هيَ أرضُ الأنبياءِ ومسرَى رسولِنا -صلى اللهُ عليهِ وسلمَ-، وأنها خالصةٌ لشعبِنا، وأنّ القدسَ، كانتْ وستبقى، عربية إسلامية، وأنْ لا مقامَ، ولا حقَّ للاحتلالِ على أرضِ فلسطين.

ولقدْ كانَ الباحثُ موفقًا في الحديثِ عن خصائصِ الشريعةِ الإسلاميةِ الربانيةِ، والعالميةِ، والتكامليةِ، والوسطيةِ والواقعية، والعامةِ والشاملةِ، والصالحةِ لكلِّ زمانٍ ومكانٍ، وقارنَها بصفاتِ الشرائعِ اليهوديةِ المحرَّفةِ البشريةِ المحدودةِ المتوحشةِ

متعرِّضـاً للصُّهيونيـةِ الخبيثـةِ وخطرِهـا علـى فلسـطينَ أرضـاً وشـعباً، مفصِحـاً عـنْ الشـرائعِ التراثيـةِ اليهوديـةِ القائمةِ على الزيفِ والبهتـانِ والكذبِ وقلـبِ الحقائقِ، وقتلِ الأنبياءِ، والإفسـادِ في الأرضِ، والتآمرِ على الإنسـانيةِ، وتجرُّدِهم منَ الأخـلاقِ والقيَمِ، ونقضِهِمْ للعهـودِ، «أوَ كلّمـا عاهَـدوا عهـداً نبـذَهُ فريـقٌ منهُـم بـلْ أكثرُهـم لا يؤمنـونَ» (البقرة:100)

والباحـثُ الدكتـور عبدُ الله البرغوثـيُّ عَلَمٌ منْ أعلامِ الجهادِ والمقاومةِ في فلسـطينَ، جمـعَ بيـنَ هندسـةِ المقاومـةِ والعمليـاتِ التفجيريـةِ النوعيـةِ، وأقـضَّ مضاجـعَ الصهاينـةِ خـارجَ المعتقـلِ، وبيـنَ المقاومـةِ العِلميـةِ والفِكريـةِ والأدبيـةِ والأمنيـةِ وقلمـهِ السَّـيَّالِ، ووَعيـه وذكائِـه الوقـادِ داخـلِ المُعتقـلِ، فجـزاهُ اللهُ خيـراً علـى هـذا الإبـداعِ والإنجـازِ، ونسـألُ اللهَ أنْ يجعـلَ هـذا العمـلَ في ميـزانِ حسـناتهِ يـومَ القيامـةِ، وأنْ يعجِّـلَ بإطـلاقِ سراحِـه وإخوانِـه منَ المعتقلِ ليواصلُوا طريقَ الجهادِ والمقاومةِ. اللهُمّ آمين.

تقديم أ. سائد الريماوي

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، والصَّلاةُ والسَّلامُ على أشرفِ الخلقِ والمرسلينَ

أمّا بعدُ:

لا أبالغُ إن قلتُ: إنّ هذه الدراسةَ من أجمَلِ ما تقرأُ في علمِ المقارَناتِ، إذ توضحُ بجلاءٍ الفارقَ الهائلَ بينَ رسالةِ السماءِ الصافيةِ النقيةِ، التي لمْ تتأثرْ بأهواءِ البشرِ وجَهالاتِهم وطيشِهم، وبينَ شريعةٍ كانتْ في أصلِها رسالةً سماويةً خالِصَةً نقيةً، ثمَّ ما لبثَ العَبَثُ البشريُّ يتسرَّبُ إليها حتّى أفقدَها صفاءَها، وطمَسَ منها نورَها، لتتحوَّلَ معَ الزمنِ إلى رسالةٍ محرَّفةٍ يَختَلِطُ فيها الغثُّ بالسمين، والخيرُ بالشرِّ، بلْ تعدَّتْ ذلكَ لتصبحَ مَسخاً مشوَّهاً يكرِّسُ الحقدَ والشرَّ، ويشرِّعُ للألمِ، وقهرِ الإنسان.

تُعَدُّ الدراسةُ مرجِعاً تاريخياً يوثقُ لبدايةِ الانحرافِ الذي دخلَ على شرائعِ اليهودِ، ويواكبُ تطوُّرَه وتراكُمَهُ عبرَ الزمنِ، حتى وَصَلَ إلى آخرِ مداهُ في هذهِ الأيام.

لا يخفَى على المتابعِ أنّ التحريفَ والتزييفَ قدْ دخلا على كثيرٍ منَ الأديانِ، وكثيرٍ منَ المناهجِ الرّبانيةِ والبشريةِ عبرَ التاريخِ، إلّا أنّ هذهِ الدراسةَ سلّطتِ الضَّوءَ على نمطٍ جديدٍ منَ التحريفِ تجاوَزَ كلَّ ما يمكنُ أنْ يتخيَّلَهُ العقلُ البشريُّ، قامتْ بهِ نفوسٌ عجيبةٌ غريبةٌ، غيرُ مستقرَّةٍ نفسيّاً، بلْ حاقدةٌ على اللهِ تعالى، وعلى ملائكتِه ورسُلِه، وعلى كلِّ ما هوَ طاهرٌ وشريفٌ ونظيفٌ، ويُنتِجُ تجمُّعاً بشرياً مملوءاً بالحقدِ والكراهيةِ للآخَرِ، تجمُّعاً بشريًّا يَرى في نفسِه أنَّهُ أقربُ للإلَهِ منْهُ للبشرِ، أو على الأقلِّ هوَ في مرتبةِ ابنِ الإلَهَ، وما سِواهُ كائناتٌ لا تستحِقُّ الِاحترامَ، ولا الشفَقَةَ، ولا

الحياةَ إلّا بالمقدارِ الذي يبقيهِم صالحِينَ للعبوديةِ والخدمة.

ترصُدُ هذه الدراسةُ الجهدَ البشريَّ والماليَّ الهائلَ الذي بذلتْهُ الصُّهيونيَّةُ العالميةُ والمجتمعُ الغربيُّ لتمويلِ فكرةٍ هي أقربُ إلى الخيالِ أوِ الجنونِ لواقعٍ تمَّ فَرْضُهُ على الأرضِ، في غفلةٍ منَ الزمنِ، وغَفوةٍ منَ المسلمينَ والعربِ، فلمْ يَعهَدِ البشرُ في تاريخِهِم أنّ الأساطيرَ والخُرافاتِ يمكِنُ أنْ تصنَعَ كياناً ملموساً في الواقع.

وأخيراً:

فرقٌ كبيرٌ بينَ أنْ تقرأَ لكاتبٍ لا يجيدُ إلّا التلاعُبَ بالكلماتِ، ولمْ يدخلْ يوماً في معركةٍ إلّا معركةَ الكلامِ وترتيبِ الحروفِ، وبينَ أنْ تقرأَ لرجلٍ وضَعَ عُمرَهُ وحُرِّيَّتَهُ وشبابَه مِن أجلِ دينِه ودعوتِه وقضيتِه قبلَ أن يَستلَّ القلمَ، ويخُطَّ الكلماتِ.

تقديم أ. د. عماد البرغوثي

أبدعَ المهندسُ الدكتورُ الأسيرُ عبدُاللهِ البرغوثيّ في تفنيدِ تراثيةِ الشرائعِ اليهوديةِ وتراثيتِها، كما أبدعَ في قتالِ العدوِّ الصهيونيِّ بالبارودِ والرصاصِ، فجاءتْ حروفُ رصاصاتِ قلمِه الأسيرِ الحرِّ أقوَى من كلِّ الرصاصِ الحيّ.

هنيئـًا لنا هذه الدراسةَ الوصفيةَ التحليليةَ المعمّقةَ والشاملةَ، التي جاءتْ في وقتِها ومكانِها، حيثُ أكدَ البرغوثي في دراستهِ أنَّ الشريعةَ الربانيةَ، الشريعةَ الإسلاميةَ، ما جاءتْ إلّا لتحكمَ بالعدلِ والإنصاف، وهذا لا يكونُ إلا برجالٍ آمنوا بربِّهم، وبسنَّةِ نبيِّهم محمَّدٍ صلّى اللهُ عليهِ وسلم.

تقديم الشيخ عمر محمد فوره

إنها الكلمةُ تخرجُ كالشهابِ المبينِ المنقَضِّ على الشياطينَ لتكونَ جملةً كالبركانِ تحرقُ الأساطيرَ التي يحاولُ الباطلُ أنْ يجعلَها حقيقةً يؤمنُ بها الناسُ، لتصبحَ الترهاتُ حقائقَ بقوةِ السيفِ المسلَّطِ على رقابِ الناسِ.

إنَّ مكانةَ الإنسانِ عُلوّاً وانخفاضاً هي أينَ يضعُ الكلمة.

إنّ هناكَ سيلاً منَ الأساطيرِ والأوهامِ والأباطيلِ تحاولُ أنْ تجرِفَ الروايةَ الصادقةَ المؤكَّدَةَ بحقائقِ التاريخِ والمقدَّسِ الربَّانيِّ والروايةِ الرساليةِ النبويَّة.

إنّ هناكَ مَنِ استيقظَ في ظلِّ الأساطيرِ، وهناكَ مَن نامَ تحتَ شعاعِ الوحي.

إنّ هذهِ المساحةَ المتسعةَ من الظلامِ، والتي لا تزالُ تتسعُ بغموضِها في أذهانِ الكثيرينَ ممَّن لا تهمُّهُمُ الحقيقةُ، ولكنَّ الباطلَ ساعةٌ، والحقيقةَ إلى قيامِ الساعة. فقد قيّضَ اللهُ للحقِّ رجالاً يحملونَ مشاعلَ النورِ فيبدِّدُوا زُمَرَ الظلامِ لينفرِطَ عقدُ روايةِ الباطلِ، وتظهرَ حقيقةُ روايةِ الحقِ، التي هي بنتُ الواقعِ التاريخيِّ والجغرافيِّ، بنتُ القدسِ الرساليِّ والربانيّ.

وما أجملَ الحقَّ إذا كانَ يخرُجُ من أفواهٍ حاولَ الباطلُ أنْ يكمِّمَها فلا تنطقُ، ومِن أيدٍ حاول الظلمُ أنْ يكبِّلَها فلا تكتبُ، وما أجملَه إذا كان من أُسْدِ حقٍّ أُريدَ لها أنْ تربِضَ فلا تنهَض. وها هيَ الحقيقةُ أَشرقتْ عبرَ سطورِ نورٍ على صَفحاتٍ من ذهبٍ عبرَ شفاهٍ نطقتْ بعدَ تكميمٍ، ومِن أيْدٍ صادقةٍ بعدَ تكبيلٍ، ومنْ جهارةِ حقٍّ بعدَ تعتيمٍ.

هذهِ خاطرةُ طيفٍ، وسحابةُ صَيفٍ، ومنَ التكريمِ أن يُقرأَ كتابُ الضَّيفِ.

تقديم د. محمود الزهار

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وآله وصحبه والتابعين، والسلام على أبطال الشعب الفلسطيني الذين رضوا بالله تعالى ربًا وبمحمدٍ صلى الله عليه وسلم رسولًا... والسلام على أبطال فلسطين المعتقلين في سجون الاحتلال الصهيوني وهم الذين قاوموه في ربوع الوطن المحتل، وبخاصة في داخل بلادهم التي انحرف قادتها عن عقيدتهم واعترفوا وطبعوا مع الاحتلال اليهودي لفلسطين.

وبقي قادة هذا الشعب الفلسطيني اللذين كتب الله تعالى لهم البقاء ليكبدوا الاحتلال اليهودي خسائر جعلته يهرب من غزة وجعلته يعيش الرعب الدائم في القدس والضفة الغربية المحتلة وجعلته يرتعد من منابر الأرض المحتلة عام 1948م، وما كان لهذا أن يستمر هذه السنوات إلّا لأنّ قادةً من أمثال عبد الله البرغوثي، وهم في داخل زنازين الاحتلال لم يكسروا قلمهم، ولا جفّ الحبرُ عن صفحاتهم، ولا لانت عزيمتهم إلّا لله تعالى في سجودهم، وها هو عبد الله البرغوثي يعقد هذه المقارنة التي لا يقدر عليها إلّا من شرح الله صدره لحقيقة المقارنة بين الشريعة الإسلامية كحقيقةٍ ربانيةٍ نبويةٍ مُشرفةٍ وهي التي تحكم المسلم في كل أرجاء المعمورة وبين التراث اليهودي المسمى بالديني كذبًا وزورًا الذي سيطر على عقول من قتلوا نصف الأنبياء المعروفين ببني إسرائيل، يهود هذا الزمان الذين ما تركوا من تعليمٍ وتوجيهٍ وسنهٍ نبويةٍ إلا خالفوها باختراع أساطير انتقلت من جيل إلى جيل وفي مرحلة كانت تدخل أفكارهم المحرّفة حتى حصلت من كتبهم أدوات انحراف حقيقي عن عقيدة

موسى ومن بعده عقيدة كل الأنبياء عليهم السلام.

ستبقى شهادة هذا البطل عبد الله البرغوثي واخوانه شاهدة على نضجِ أفكارهم، وسموِ أقلامهم، وعظمةِ جهودهم، وهم في داخل السجون وخارجه... وشعبٌ هؤلاء هم أبطاله وقادته، شعب سيكتب له الله تعالى التحرير من كل السجون وتحرير الأرض والمقدسات وارتفاع شأن الإنسان بكل ثوابته الراسخه شعبًا وأرضًا وعقيدة ومقدسات.

(وَاللهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

تقديم د. مراد كدير

بسمِ الله خالقِ السَّماواتِ والأرضِ، خالقِ عالَمَي الشهادةِ والغيبِ، خلقَ الإنسانَ فهداهُ النجدَينِ ، مانحِ المسجدِ الحرامِ صفةَ الهُدى للعالمينَ، والمسجدِ النبويِّ صفةَ الرحمةِ للعالمينَ، والمسجدِ الأقصى صفةَ البركةِ للعالمينَ، بوابةِ الوصلِ بينَ الأرضِ والسماءِ، ونقطةِ الاجتماعِ بينَ عالَمِ الشهادةِ والغيبِ، والصَّلاةُ والسَّلامُ على الرَّحمةِ المهداةِ للعالمينَ، رسولِ الله صلى الله عليهِ وسلّمَ، إمامِ المرسلينَ منْ بيتِ المقدسِ،المستلِمِ لأمانةِ ولايتِها وحمايتِها وإمامةِ البشريةِ منها، خاتمِ المبعوثينَ للبشريةِ، بهِ خُتمَتِ الرِّسالةُ وأُكمِلَ الدينُ، وتمَّتِ الشريعةُ الرَّبَّانيَّةُ الكاملةُ المتكاملةُ التي ارتضاها الله للعالمين.

وأنا أخطُّ هذه الكلماتِ، أستشعرُ المسؤوليةَ الأخلاقيةَ والعِلميةَ والرساليةَ التي يتحمَّلُها مَن كُلِّفَ بالتقديمِ لبحثِ عَلَمٍ مُقاوِمٍ عالِمٍ، مجاهدٍ مفكرٍ، ومرابطٍ باحثٍ مجتهدٍ، راكَمَ أدواتِ القوةِ لممارسةِ فريضةٍ شرعيةٍ على الإنسانِ المسلمِ لتحريرِ الأرضِ المقدسةِ منَ العدوانِ الصُّهيونيِّ متعددِ الأبعادِ، عدوانٌ على الأرضِ احتلالًا وإفسادًا، واعتداءٌ على الإنسانِ جسَدًا وفطرةً وهُويَّةً. إنّنا أمامَ أديبٍ أريبٍ لبيبٍ صادَرَ المحتلُّ حريتَهُ الجسَديَّةَ، ليصفِّيَ تأثيرَه المقاومَ المباشرَ على الوجودِ الصُّهيونيِّ، غيرَ أنهُ فشِلَ فشلاً ذريعًا في مصادرةِ حريتِهِ الفكريةِ والعِلميةِ والأدبيةِ الفنيةِ. تصدَّرَ أميرُ الظِّلِّ الجهادَ المعرفيَّ والرباطَ الثقافيَّ والمقاومةَ الفكريةَ مِن داخلِ أَسْرِه، معبِّراً عنْ ذلكَ صراحةً، وبعبارةٍ ذهبيةٍ في مقدمةِ الكتابِ، عن سببِ اختيارِ

موضوعِ البحثِ بقَولِه: «عدمُ مقـدرةِ الكاتـبِ علـى قتـالِ العـدوِّ بالبـارودِ والرصاصِ (كونـِه أسـيراً فلسـطينيّـًا) نُزِعَـتْ منـهُ وسائلُ القتالِ، فاستبدلَ بها قلمَ رصاصٍ يكتُبُ بهِ حقـًا، ويطمسُ بهِ باطلا».

ما الرصاصُ والبارودُ إلّا أحدُ مستوياتِ الصراعِ المتقدمةِ في ميدانِ المعركةِ المباشرةِ معَ المحتلِّ الصهيونيِّ، فمع كونِه ميدانَ حسمِ الصراعِ وتتبيرِ العُلُوِّ الصهيونيِّ وإلغاءِ احتلالِه للأرضِ المقدسةِ، لكنَّهُ ليسَ الميدانَ الوحيدَ للتدافعِ بينَ أُمَّةِ الإسلامِ الحاملةِ لمشروعِ الإخراجِ الحضاريِّ ومشروعِ الفسادِ في الأرضِ، بينَ أُمَّةٍ تسعَى لنقلِ الناسِ مِن عُبوديةِ العبادِ إلى عبادةِ ربِّ العبادِ، ومِن جَورِ الأديانِ إلى عدلِ الإسلامِ، ومن ضِيقِ الدنيا إلى سعةِ الدُّنيا والآخرةِ، وشرذمةٌ مغضوبٌ عليها، تقاومُ هذا الإخراجَ وتمارسُ نقيضَه.

تبقَى المعرفةُ والعلمُ والثقافةُ أحدَ أهمِّ مواطنِ الصراعِ معَ المحتلِّ الصهيونيِّ الذي يقومُ فسادُه على رُكنَين، ركنِ احتلالِ الأرضِ بالقوةِ وممارسةِ احتلالٍ استيطانيٍّ همَجيٍّ في ساحةِ الصِّراعِ الميدانيةِ فلسطينَ، ومنازعةِ الله في ملكيتِه للأرضِ المقدسةِ وملكِهِ لها، وركنِ إيذاءِ الإنسانِ، جَسدياً في الأرضِ المقدسةِ ممّن يقاومُ مشروعَها الاستيطانيَّ الهمَجيَّ، أو في الأرضِ جميعـًا من خلالِ السعيِ لحلولِ الرؤيةِ الصُّهيونيةِ بدلَ الفطرةِ البشرية. إنّ ما يختصُّ بهِ الكاتبُ، ويشتركُ فيهِ معَ قلةٍ قليلةٍ من أهلِ الرباطِ هوَ المقاومةُ في فلسطينَ، جمعَهُ في شخصيتِهِ المقاومةِ بينَ التدافُعِ معَ المحتلِّ لمنعِ استدامةِ وُجودِهِ على الأرضِ المقدسةِ بالمواجهةِ المباشرةِ، وبينَ هدمِ أركانِ الرؤيةِ الصهيونيةِ الخرافيةِ، الهادفةِ لنزعِ الفطرةِ الإنسانيةِ الرافضةِ للظلمِ، المقاومةِ لهُ.

إنَّ الكتابَ الذي بينَ أيدينا هوَ أحدُ فصولِ الصراعِ العلميِّ المعرفيِّ في أرضِ فلسطينَ كساحةِ حسمٍ لصراعٍ لا يقفُ عندَ حدودِ الجغرافيةِ الفلسطينيةِ بينَ البحرِ

والنهرِ، ومحدوديةِ الديمغرافيةِ الفلسطينيةِ الساكنة في أرضِ فلسطينَ، بل إنّ ساحتَه ممتدةٌ في العالمِ، بينَ الرؤيةِ الصهيونيةِ بأركانِها المتعددةِ، الدينيةِ والعَقَديةِ، والتشريعيةِ كمستوى أوَّلَ، والسياسيةِ والاجتماعيةِ والثقافيةِ والنفسيةِ والتاريخيةِ كمستوياتٍ مراكمةٍ، وبينَ الرؤيةِ الإسلاميةِ الربانيةِ بمنظورِها الشاملِ المتكاملِ العالميّ.

أَخذَ الكتابُ أهميَّتَه منْ ناحيةِ موضوعِه وسياقِه ومقاصدِه؛ فأما أهميتُه مِن حيثُ الموضوعُ فهوَ ينطلقُ من دراسةٍ موضوعيةٍ تحليليةٍ لِلُبِّ الصِّراعِ على الأرضِ المقدسةِ، وهوَ الصِّراعُ العقَديُّ الدينيُّ التشريعيُّ، ويجعَلُ مِن هذا البعدِ المركزيِّ في الصِّراعِ موضوعَ الدراسةِ والنظرِ والتمحيصِ، معَ استخدامٍ للمنهجِ المقارنِ لهدفِ مقابلةٍ ربانيةِ الشريعةِ الإسلاميةِ وتساميها على الهَوى البشريِّ الإنسانيِّ، مبيِّنًا عظَمَةَ الشريعةِ الإسلاميةِ الربانيةِ الكاملةِ المتكاملةِ العالميةِ، والشريعةِ التراثيةِ الوَضعيةِ المحُرفةِ التي أنتجتْ بناءً جيولوجيًا غيرَ متجانسٍ، بتعبيرِ د. المسيري، وهذه المقابلةُ لا تأخذُ صورةَ مقارَنَةِ قرينَينِ، بلْ تنحَى منحَى إزهاقِ الباطلِ ومَحقهِ بمجردِ إظهارِ الحقّ.

أهميةُ الموضوعِ لا تقفُ عندَ تِبيانِ أصالةِ الشريعةِ الإسلاميةِ وعظمتِها، وصلاحيةِ تشريعِها للإنسانِ، وبيانِ فسادِ الشريعةِ اليهوديةِ المحرفةِ، الحاملةِ للعُقدِ النفسيةِ لكهنةِ التلمودِ، بلْ إنّ الأهميةَ البالغةَ تكمُنُ في دراسةِ أثرِ سيادةِ الشريعةِ الحقةِ أو الباطلةِ في الأرضِ المقدسةِ فلسطينَ، سباقًا من ناحيةِ تأصيلِ المكانةِ العظيمةِ لفلسطينَ في الإسلامِ، وترسيخِ أركانِها في الفطرةِ البشريةِ، بِما يشكِّلُ مناعةً قويمةً عصيةً على الاختراقِ المانعِ على الحلولِ الصهيونيِّ المتسللِ عبرَ ثغورِ المناعةِ المهزوزةِ لاجتثاثِ الفطرةِ، باعتمادِ مكانةٍ خرافيةٍ متصنَّعةٍ قائمةٍ على شريعةِ الغابِ لإثباتِ الحقِّ والأحَقِّيَّةِ.

لا يكتفي الكاتبُ بالتأصيلِ والترسيخِ والتثبيتِ للمكانةِ المتساميةِ للشريعةِ الإسلاميةِ، ومكانةِ الأرضِ المقدسةِ فيها تأصيلاً وتنزيلاً على خزانِ التجربةِ البشريةِ الإسلاميةِ المتلاحقةِ المرتبطةِ بفلسطينَ، بلْ يفكِّكُ بدقةٍ الشريعةَ اليهوديةَ، ويهدِمُ أركانَها في نظرتِها العنصريةِ للإنسانِ والأرضِ، منتقلاً بذلكَ من تشكيلِ المناعةِ الإسلاميةِ إلى تقويضِ الوجودِ العَقديِّ التشريعيِّ الخرافيِّ الذي يعتمدُهُ الصهاينةُ لشرعنةِ احتلالِ الأرضِ المقدسة، والذي يعتمدُه لاستنفارِ الشعوبِ والأممِ المحايدةِ للإيمانِ بحقِّه المزعوم.

أمّا من ناحيةِ أهميةِ سياقِهِ، فقدْ ذكَرَ سابقاً أنَّ البحثَ كُتِبَ في سياقِ الصِّراعِ المعرفيِّ والثقافيِّ، وهوَ أبداً لا يقلُّ أهميةً عنِ الصراعِ العسكريِّ والسياسيِّ والديبلوماسيِّ، بلْ هوَ الذي يؤطرُ ما سبَق في ناحيةِ فقهِ تجويدِ البداياتِ (الدوافع)، وفَهمِ السياقاتِ (الواقع)، وترصيفِ العمليات (الخطط) وتوضيحِ النهايات (الرؤى والمقاصد)، وتِبيانِ المهدِّداتِ (التحدياتِ والكوابح) يبقى أهمَّ عمليةٍ في مشروعِ التحريرِ،فالتحريرُ يتحققُ في عالمِ تصوراتِ الأمةِ (عالم الأفكار) قبلَ تحقُّقِهِ في عالَمِ تصرُّفاتِ الأمةِ (عالمِ الأشياءِ والأشخاصِ والأفعال). فمتى تحقَّقَ التصوُّرُ الكاملُ المتكاملُ لمشروعِ التحريرِ في العقولِ، وتحققَ اليقينُ واجتمعتِ الإرادةُ والعزيمةُ، واكتملَ الإخلاصُ في القلبِ، أصبحَ تحققُ التحريرِ قضيةَ وقتٍ، ومعركةَ فِعلٍ، وسيراً على السُّنَنِ، وتأييداً ربانياً.

إنَّ الكتابَ هنا- فوقَ كونِه يبني إنسانَ التحريرِ الكوثرَ، الذي يستقي قوَّتَهُ من قوةِ عقيدتِه وشريعتِه الربانيةِ الخالدةِ- فإنه يتدافعُ معَ الاحتلالِ في منظومتِه الفكريةِ ومرجعيتِهِ العقديةِ التي تضبطُ منتجاتِه المعرفيةَ والثقافيةَ، فهيَ معركةٌ على الأصولِ والثوابتِ التي تعتقدها الأفكار المتدافعة بينَ مرجعيةِ الأمةِ الإسلاميةِ المستأمَنةِ

على الأرضِ ملك الله، المرابطة على أرضها وثغورها ومقدساتها للحفاظ على قداستها، ومرجعية خرافية ركبتها الصهيونية الحديثة لبلوغ أهدافها الاستعمارية كقاعدة متقدمة للمشروع الغربي.

أرادَ أميرُ الظلِّ أنْ يوصلَ رسائلَ مهمَّةً في منهجيةِ الصِّراعِ معَ المحتلِّ، صراعٌ شاملٌ شموليةَ فسادِه، وشموليةَ المرجعيةِ الإسلاميةِ، صراعٌ عالميٌّ عالميةَ الشريعةِ الإسلاميةِ في المقاصدِ والتأثيرِ وصلاحيتِها للبشريةِ وسعادتِها، يعتمدُ التكاملَ بينَ الأبعادِ المتعددةِ، لكنها تنطلقُ من مرجعيةٍ واحدةٍ هي عقيدةُ الإسلامُ وشريعتُه الربانيةُ الأصيلة.

وقدْ ألخِّصُ جملةً منَ الأدواتِ المنهجيةَ والرسائلَ المستخلَصةَ منَ الكاتبِ خلالَ دراستِه، ومقارنتِه بينَ الشريعةِ الإسلاميةِ والشريعةِ اليهوديةِ تأصيلاً، وبعدَها أثرُها على فلسطينَ تنزيلاً وتفعيلاً.

- إنَّ إظهارَ الحقِّ سبيلٌ لإزهاقِ الباطلِ، فالباطلُ لا يقوَى أمامَ قوةِ الحقِّ، والباطلُ يظهَرُ عندَ تهاونِ أهلِ الحقِّ في إظهارِ حقِّهم، وإخفاءِ أهلِ الفسادِ للحقِّ، ومحاولةِ طمسِ نورِه، غيرَ أنَّ السُّنَّةَ الرَّبَّانِيَّةَ ثابتةٌ في كونِ الحقِّ ثابتاً غيرَ متغيرٍ، مستقلاًّ عنْ عددِ حامليهِ والمعتقدينَ بهِ، فهوَ ثابتٌ في ذاتِه مستمدٌّ قوَّتَهُ منَ الله الحقِّ العَدل.

- المقاومةُ بالرصاصِ والبارودِ وغيرِها منْ أشكالِ المقاومةِ تحتاجُ لتأسيسٍ معرفيٍّ يصنعُ البناءَ الروحيَّ العقَديَّ الأصيلَ الثابتَ، الذي بهِ يكونُ النصرُ والتمكينُ، لا فقط بميكانيكيةِ المقاومةِ، فالتأسيسُ الرُّوحيُّ العقديُّ هوَ الذي يصنعُ الدوافعَ السليمةَ للمُرابطِ المقاومِ، وهوَ الذي حافظَ، ولا يزالُ على مركزيةِ الأرضِ المقدسةِ في وجدانِ الأمَّةِ الإسلاميةِ، وهوَ الذي يسعَى لاستعادةِ هذهِ المكانةِ لفاعليتِها.

- إنَّ المقاومةَ الصانعةَ للفعلِ ليستْ تلكَ المتوقفةَ عندَ دراسةِ الذاتِ وبنائِها خارجَ سياقِ الصراعِ، فتنتجُ أمَّةً جامدةً متقوقعةً على الذاتِ، ميكانيكيةَ الحركةِ والفعلِ عبرَ آليةِ ردةِ الفعلِ، بلِ المقاومةُ الحقيقيةُ هي التي تَبني الذاتَ، وتراكِمُ القوةَ في سياقِ تنافسٍ مع محتلٍّ، فتتجاوزُ الاهتمامَ بالذاتِ إلى حُسْنِ معرفةِ العدوِّ معرفةً تامةً تمكِّنُ من صناعةِ الفعلِ بدلَ ردةِ الفعل.

- إنّ أولَ نهايةٍ للاحتلالِ الصهيونيِّ هدمُ أسبابِ وجودِه العقديةِ والدينيةِ والتشريعيةِ، وفَضحُ شريعتِه الغابيةِ المحتقرةِ للإنسانِ، المتشرِّبةِ لعنصريةِ شعبٍ مختارٍ يركبُ شعوباً أُمِّيَّةً أخرى مُسَخَّرةً له، يتعبَّدُ من إلهٍ مختصٍّ بهم عبرَ إراقةِ دماءِ الشعوبِ الأُميةِ، واستباحةِ أعراضِها وسرقةِ أموالِها.

- إنّ شهودَ الإسلامِ بشريعتِه الربانيةِ العالميةِ المتكاملةِ هو وظيفةُ تحَضُّرٍ، وتكليفٌ ربانيٌّ للأمة، يحققُ لها علةَ وجودِها، وفضلَ مكانتِها، والصراعُ في فلسطينَ هوَ صراعٌ إنسانيٌّ في مقصدِه بينَ رؤيةٍ إسلاميةٍ حاميةٍ للإنسانِ، محررةٍ لهُ، ساعيةٍ لإسعادِه، ورؤيةٍ يهوديةٍ تسعى للسيطرةِ على الإنسانِ، وتسخيرِه لتحقيقِ شهواتٍ ورغباتٍ إنسانيةٍ متسلِّطةٍ، وأهواءٍ مريضةٍ.

إنّ الكاتبَ، وهوَ مقيدُ الحريةِ من ممارسةِ وظيفةِ التدافعِ المباشرِ مع المحتلِّ منْ خلالِ الرصاصِ، لازالَ فاعلاً في معادلةِ الصراعِ عبرَ قلمِ رصاصهِ الذي يخطُّ درب تحريرِ الأرضِ المباركةِ من الأفكارِ الصهيونيةِ الخرافيةِ المترسِّبةِ في عقولِ الأمةِ الإسلاميةِ، وإعادةِ تثبيتِ الشريعةِ الإسلاميةِ لتعودَ لمكانتِها كمنهَجٍ قائدٍ للفردِ والأسرةِ والمجتمعِ والدولةِ والأمةِ تمهيداً للشهادةِ على الناسِ بالهدَى والرحمةِ والعدلِ والبركةِ، فلمّا كانَ التحريرُ في عالمِ التصوراتِ سبيلاً لانتقالِ التحريرِ إلى عالمِ التصرفاتِ، كانَ دورُنا، ونحنُ مقيدُو الحريةِ في أقطارِنا البعيدةِ عن بيتِ

المقدسِ، في الجزائرِ وبلادِ المغربِ الإسلاميِّ، أو في بلادِ الإسلامِ الأخرى هوَ الرباطَ على هذا الثغرِ، منعنا بلوغ الأرض المقدسة أجسادا، فليكن زيتُنا مِدادَ العالِمِ وعَرَقَ العاملِ المناضلِ، ومالَ المرابطِ، ودعاءَ المؤمنِ، وكلمةَ المثقَّفِ، وريشةَ الرَّسَّامِ، وقُمرةَ المصوِّرِ، وبحثَ الأكاديميِّ، وترجمانَ المترجِمِ، لنضيءَ بيتَ المقدسِ، ونعيدَه عاصمةً لقيادةِ شريعةِ الإسلامِ السمحاءِ للبشريةِ جمعاءِ. واللهُ متمٌّ نورَه، وميسِّرٌ للعبدِ سيرَهُ، ومحققٌ للأمةِ وعدَه. سائلينَ الله عزَّ وجلَّ أنْ يُقِرَّ أعينَنا بحُرِّيَّةِ القائدِ الأسيرِ عبدِ الله البرغوثي، وإخوانهِ الأسرى، وأنْ نشتركَ معـًا في شرفِ دخولِ المسجدِ الأقصَى محرِّرينَ مُكبرِّينَ، ونعودَ لحارتِنا، «حارةِ المغاربةِ» المنهوبةِ المسلوبةِ، ونستعيدَ أوقافَنا، ونرجعَ لقرَى أجدادِنا، في صفدَ وحَيفا وطَبَرِيَّةَ، في عولم ومعذر وكفر سبت والعولمة وهوشة وديشوم والتليل والحسنية والعموقة، وما ذلكَ على الله بعزيز.

تقديم د. نواف تكروري

الحمدلله ربِّ العالمين، والعاقبةُ للمتقين، ولا عدوانَ إلّا على الظالمين، والصّلاةُ والسّلامُ على سيّدنا محمّدٍ وعلى آله وصحبه ومن تبعَهم بإحسانٍ إلى يوم الدّين؛ وبعد:

فإنّ كلماتِنا تقفُ خجلَى بين يدَيِ الأسرَى المجاهدين الأبطالِ الذين يربضون خلفَ قضبانِ المحتلِّ الغاشمِ في فلسطين وفي زنازينِ الإجرامِ في مختلِفِ ربوعِ الظلمِ والعدوان.

وتزدادُ هيبةُ الحروفِ أمام الأسرى الذين ترتعدُ منهم فرائصُ العدوِّ الصّهيونيّ وهم في زنازينِه فيحاولُ قتلَ روحِ الحياةِ فيهم بإصدارِ الأحكامِ العالية عليهم، لكنّهم يقهرون محاولاتِه فيطلقون لأرواحِهم إشراقَها، ويغدون مصدرَ إلهامٍ لشبابِ الأمّة الطامحين إلى المعالي، فيزيدون خوفَ هذا المحتلِ خوفًا وحَيرَته حيرةً.

فكيف إذن ونحن بين يدَيِ الأسيرِ الأكثرِ محكوميّةً في سجونِ الاحتلال الصّهيونيّ؛ الأخِ المجاهدِ البطلِ عبد الله البرغوثي، الذي حكمَ عليه الاحتلالُ الصّهيونيُّ بسبعةٍ وستين مؤبدًا -أي حوالي 6630 سنة- ومع ذلك نجدُه يتدفّقُ قوّةً وعنفوانًا، ويتدفّق عقلُه وقلمُه بيانًا وعلمًا، ولا تمنعه أغلالُ الأسر من العطاء، والفكرِ والإنتاج القيم.

فالأخ الأسير القائد المجاهد عبد الله البرغوثي يمثّلُ نموذجًا عمليًّا للجمعِ بين العلم والعمل، واقترانِ النّظريّة مع التّطبيق، فهو قبلَ وقوعِه في الأسرِ أذاقَ الصّهاينةَ وبالَ أمرِهم وكان عنوانًا من عناوين البطولة والثّأر للمسرى والقدس والشّهداء

وقضَّ مضاجعَ العدوِّ، وبعد أن وقع في الأسر ها هو يقهرُ سجّانيه، ويُحيلُ السّجنَ واحةً غنّاءَ للفكر والعلم والدّعوة، فيستلُّ قلمَه، ويطلقُ العنانَ لفكره وكلماته لتكسرَ قضبانَ الزنازين تسيرُ حرّةً في الأرضِ رغم أنفِ الصّهاينة.

وهذا الكتاب الذي بين أيدينا هو مولودٌ جديدٌ للأخ الأسير البطل عبد الله البرغوثي، وهو كتاب نوعيّ يولد في عتمة الزنازين لينيرَ ديجورَها، ويمحوَ ليلَها، ويرسمَ المعالمَ الرّاشدة لطبيعة المعركة وجذورها مع الصّهاينة في فلسطين.

إذ يقوم الكتاب على دراسةٍ مقارنة بين خصائص الشريعة الإسلاميّة التي تكفّل الله تعالى بحفظها، فهي ربانيةٌ خالدةٌ وبين التراث اليهودي الذي طالته يدُ التحريف وكتبه الأحبارُ والكهّان بأيديهم ليشتروا به ثمنا قليلا قال الله تعالى فيهم «فويلٌ للذين يكتبون الكتابَ بأيديهم ثم يقولون هذا من عند اللهِ ليشتروا به ثمناً قليلاً فويلٌ لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون». وتكمنُ أهميّةُ هذه المقارنة في إظهار التّمايز بين ربّانيّة الشريعة الإسلاميّة وظلاميّة التراث اليهوديّ، وبالمقارنةِ تظهرُ الحقائقُ في أجلى صورها؛ فبِضِدِّها تتمايزُ الأشياء.

ومما لا شك فيه أنّ دراسة خصائص الشّريعة الإسلاميّة الربّانيّة وما يقابلها في الطرف المناقض من خصائصِ التراث اليهوديّ وطبائعه وشريعته المحرّفة يزيدُ يقين المسلم بضرورة تمسّكه بالشريعة الغرّاء والعضّ عليها بالنّواجذ، كما أنّه يبصّر المسلم في خلفيّات الكثير من التصرّفات الصّهيونيّة العدوانيّة بحقّ الأمّة الإسلاميّة منذ فجر الدّعوة إلى اليوم، ويظهر لنا بجلاء طبيعةَ هذا العدو وأنانيته وعدوانه، فمن يعتدي على كلام الله تعالى بالتحريف لا يتورع بعد ذلك عن شيء، وقد أحسن الاخ المجاهد (أبو أسامة) إذ لم يجعلِ الكتاب دراسةً نظريّةً فحسب، بل جعلها تقوم -إضافة إلى التأصيل النظريّ- على تطبيقاتٍ عمليّةٍ تبيّن مدى أثر هذا التراث

اليهوديّ الظلاميّ على فلسطين اليوم وانعكاس ذلك في تعامل اليهود الصّهاينة مع أرض فلسطين وأبناء شعبنا المرابط، فكشف بذلك حقدَهم، وطرائق تفكيرهم ونظرتهم إلى الآخر وانطلاقهم من ذلك في كل ممارساتهم وجرائمهم التي يمارسونها على أرض فلسطين، بل مكائدهم في العالم أجمع.

وتأتي أهميّة هذا الكتاب في أنّه يقدّم دراسةً علميّةً رصينة في المقارنة بين الشّريعة الإسلاميّة والشريعة اليهوديّة في ظلّ افتقار المكتبة الإسلاميّة إلى دراسة التراث اليهودي بطريقة علميّة منهجيّة وأثره في العدوان على الشرائع المختلفة بما فيها النصرانيّة، وأثره في تكريس العدوان في الشخصيّة اليهوديّة التي تحتلّ الأرض وتنتهك الحرمات والمقدّسات. كما يعيد الكتاب تأكيد مركزيّة الدّين وتأثيره في الواقع السياسي لعالم اليوم، وتشكيله النّواة الصّلبة للعقيدة الاستعماريّة التي تقوم بها الدّول الكبرى، أضافةً إلى مركزيّة دوره في الكيان الصّهيوني، وهذا يدفعنا في الحقيقة إلى التساؤل عن المصلحة في إقصاء الدّين وتغييب أثره عن واقع الأمة الإسلاميّة ودولها وكياناتها، ومحاولات إبعاده عن الصّراع مع الكيان الصّهيوني، وهو الدين الحق من عند الله تعالى في الوقت الذي يتمسك به الأعداء بخرافاتهم المنسوبة لوحي الله عز وجل.

فإنّه مما لا مريةَ فيه أنّ لحضور الدّين أثراً رئيساً في التّدافع الحضاريّ اليوم، كما أنّ له الأثرَ المحوريَّ في دفع النّاس بعضِهم ببعضٍ، وهذا يجعلنا نعيد ونؤكّد دومًا أنّنا لن نستطيعَ الدفاعَ عن أرضنا والذّود عن مقدّساتنا دون أن يكون الإسلامُ هو الحاكمَ الحقيقيّ في حياتنا، ومنطلقَ أعمالنا وقراراتنا وتوجهاتنا وتحركاتنا، وربما يُعَدُّ هذا الكتابُ بوضوحه رسالةً لأولئك الذين يحاولون –حتى من بعض الإسلاميين أحيانًا– التنكرَ لانطلاقةٍ دينية في مواجهة هذا المشروع العدواني، وبالتالي يؤكد علينا

هذا الكتابُ التفريق بين أمرين:

الأول: أننا لا نقاتلُ أحداً لدينه فهذا حقٌ، إذ لا إكراهَ في الدين.

الثاني: أن الدينَ له الأثرُ الاكبر في صناعةِ العدوان لدي اليهود الغاصبين وله أيضــًا أثرُه الكبيرُ في إباء الأمةِ ورفضها الخضوعَ والاستسلام، وإن الجهل بالدين الحق ومقتضياته هو سببُ تفريط المفرطين وانهزام المهزومين.

إنّ فلسطين اليوم هي المركزُ الرّئيس لتدافع الحقّ والباطل؛ الباطلُ الذي يلبس ثوبَ الدين المزوّر وينطلق من التراث الديني المحرّف، والحقّ الذي يرتكز أصحابُه على الدّين الحق والشريعة السمحاء، ولن يكون لنا حضورٌ حقيقي، ولا تأثيرٌ فعلي ولا دفعٌ جذريّ للعدوان دون الإسلام، وهنا نكرّرُ القانون العمريّ الذي قاله فاتحُ القدس عمر بن الخطّاب على ثرى مدينة القدس: «نحن قومٌ أعزّنا اللهُ بالإسلام، وسيذلّنا اللهُ إن ابتغينا العزّةَ بغيره».

جزى الله تعالى الأخَ الأسير البطل عبد الله البرغوثي (أبو أسامة) خيرَ الجزاء على ما قدّم ويقدّم، وفكّ الله بالعزّ أسرَه وسائر أسرانا في سجون الصّهاينة المحتلين والطغاة الظالمين، وآخر دعوانا أن الحمدلله ربّ العالمين.

تقديم د. همام سعيد

الحمدُ للهِ والصَّلاةُ والسَّلامُ على رسولِ اللهِ، وبعد:

فقدْ سعِدتُ بقراءةِ الكتابِ الموسومِ بـ (ربانيةِ الشريعةِ الإسلاميةِ، وتراثيةِ الشرائعِ اليهوديةِ، وأثرُها على فلسطينَ الأرضِ والإنسانِ، دراسةُ مقارِنة) من تأليفِ المهندسِ الداعيةِ المجاهدِ الصابرِ عبدِ الله البرغوثي، فوجدتُ في هذا الكتابِ، فضلاً عن المتعةِ في قراءتِه، والفوائدِ العِلميةِ الكثيرةِ التي انتفعتُ بها، تناولاً شاملاً لقضيةِ الصراعِ مع اليهودِ، ماضياً وحاضراً ومستقبلاً، وشعرتُ بأنَّ في هذا الكتابِ توفيقاً منَ اللهِ تعالى، بما هيَّأَهُ لعبدِه الصالحِ المجاهد -إن شاءَ اللهُ- من سعةِ الاطِّلاعِ، وسلامةِ اللغةِ، وسلاسةِ الأسلوبِ، وتوثيقِ النُّصوص، ما يجعلُني أُرشِّحُ هذا الكتابَ لأبناءِ المسلمينَ وبناتِهم في فلسطينَ، وفي جميعِ البلادِ، لأنهُ يحتوِي على ثقافةٍ علميةٍ ووجدانيةٍ عن فلسطينَ، أرضاً وشعباً وتاريخاً، وعنِ اليهودِ واليهوديةِ مكراً وإفساداً وتحريفاً وتضليلاً.

إنَّ هذا الكتابَ يعَدُّ بحقٍّ عمَلاً علميّاً مقارِناً جديراً بأنْ يأخذَ مكانَه في مكتبةِ الأديانِ المقارنةِ، وفي مكتبةِ القضيةِ الفلسطينيَّة. وأمّا بعضُ الملاحظاتِ القليلةِ التي أخذتُها على هذا الكتابِ، فإنها لا تغضُّ من قدرِه، وقيمتِه العِلميّة، وأسألُ اللهَ العليَّ القديرَ أنْ يجزيَ كاتبَه خيرَ الجزاءِ عنْ أمَّةِ الإسلامِ، وعنْ فلسطينَ وبيتِ مقدسِها، وأقصاها خيرَ ما جزَى مجاهداً عنْ عملِه وجهادِه، وداعياً إلى اللهِ تعالى بأنْ يفكَّ أسرَ أخينا الحبيبِ، ليكونَ بينَ أُسرتِه وإخوانِه وشعبِه وأحبابِه، إنَّه سميعٌ مجيبٌ.

تقديم د. وسام العريبي

لمّا أعلنَ فريدريش فيلهالم نيتشه (Friedrich Wilhelm NIETZCHE) باسمِ الفلسفةِ أنّ «الرَّبَّ ماتَ» لمْ يكنْ يُقدِّرُ أنّه يشتغِلُ تحتَ ضَوءِ منظومةٍ قيميَّةٍ «شيطانيَّةٍ تنويريّةٍ» كاملةٍ، مثَّلَ فيها إعلانُ يهود «اِذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ»، وعهدُ حُيَي بن الأخطب «عداوتَه ما حييت»، وكوجيتو ريني ديكارت (René DESCARTES) «أنا أفكّرُ إذنْ أنا موجود»، وبيانُ إدموند اللنبي (Edmund Henry Hynman ALLENBY) «الآن انتهتِ الحروبُ الصّليبيّة» ونحوُ ذلكَ، محطّاتٍ من تاريخِ أنسنة الإنسان نفسَه وما أدركَه، فبلغَ الوثنيّةَ والوجوديّةَ والقوميّةَ والديمقراطيّةَ، ضمنَ ما يُسمَّى بـ«مذهَبِ الاِستشراق» (Orientalism) الذي كرّسه اليهوديّ أنطوان إسحاق سيلفاستر دي ساسي (Antoine-Isaac Silvestre DE SACY)، ومَن لَحِقَهُ بادِّعاءِ العِلميّة منَ الأنثروبولوجيّين (Anthropologists)، حتى المستشرقينَ الجدد والإسرائيليّات الجديدة.

إنّ تحوُّلَ الفكرِ البشريّ بـ «الأنانيّة» (Egocentrism) وتحويله بـ«اليهوديّة» (Judaïsm) طبيعيّان في حياة البشر منذ الجنّة، تأكيداً وتثبيتاً من مخلوقٍ من نارٍ قائل: «فَبِعِزَّتِكَ»، في مقابلِ جبروتٍ وإعجازٍ في الشّريعةِ الرّبّانيّةِ منذُ الخلقِ، منَ اللهِ عزَّ وجلَّ القائلِ «لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ». بالتّالي، يكونُ مبدأُ الخلقِ إلاهيًّا، في حين يكونُ فِعْلاَ الإصلاحِ، بالتّعارفِ والعُمرانِ والتّقوى، والإفسادِ بالتّخريبِ والإرهابِ والإبليسيّةِ إنسانيَّين، وإذا كان شِقُّ الفعلَيْن الثّاني آيلاً إلى عبادةِ

العبادِ، فإنّ المبدأَ منتهٍ بوَعْدِ ربِّ العبادِ وساعتِه.

تتنزَّلُ، إذنْ، رسالةُ الماجستير الموسومةُ بـ«ربّانيّة الشريعة الإسلامية وتراثيّة الشّرائع اليهوديّة وأثرها على فلسطين.. الأرض والإنسان (دراسة مقارنة)» للباحثِ عبدِ الله غالب البرغوثيّ، في إطارِ تأكيدِ مسألةِ الخلقِ والمقصدِ من التّشريعِ، وتناقضِه أو تنافرِه مع عمليّةِ الوضعِ الشّرائعيِّ التي امتَهَنَها اليهودُ خصوصاً؛ فاللهُ تعالى الواحدُ الأحدُ اتّخذَ الإسلامَ ديناً واحداً وحيداً للإنسانِ، حتّى يُسمَّى ناسُه «مُسْلِمِينَ»، بخلافِ قلّةٍ منْ إنسانِه ابتدعتْ شرائعَ، تُسمَّى اليهوديّةَ، ومن ورائِها المسيحيَّةُ والكاثوليكيَّةُ والأرثوذكسيَّةُ والبروتستانتيّةُ، فالمسيحيَّةُ اليهوديّةُ، واليهوديّةُ المسيحيّةُ، واليهوديّةُ الأرثوذكسيّةُ، فالطّبيعيّةُ والعقلانيّةُ والماركسيّةُ، فالصّهيونيَّةُ والصّهيونيّةُ اليهوديّةُ، والصّهيونيّةُ السّياسيَّةُ والاقتصاديّة، فالإسرائيليَّةُ والعَبرانيَّةُ والسّاميَّةُ ومشتقّاتُها، ليتمَّ تعديدُ شريعةِ اللهِ تعالى، إمّا بالوضعِ والتّشتيتِ، وإمّا بتدنيسِ المقدَّسِ وتقديسِ المدنَّسِ، وفقَ آليّاتِ تفكيرٍ مدجَّنٍ يزعمُ العِلميَّةَ وهدفُه اللاّدِينيَّةُ، ويأفِكُ بالإنسانِ الحرِّ، كما هو رمزُ العلم الأمازيغيّ، وغايتُه المسيحُ الدَّجَّالُ، ويكذبُ بالحقوقِ والدِّيمقراطِيَّةِ، ورَمِيَّتُه استيطانُ أرضِ المسجدِ الأقصى.

لا يمكنُ أنْ ينفكَّ المخلوقُ الإنسانُ عن بُعدِهِ المادّيِّ، مُذِ الجنَّةِ وآدمَ، فهوَ صلصالٌ منْ حَمَإٍ مسنونٍ، لكنَّ تلكَ القِلَّةَ التي جُعلَتْ أكثرَ نفيراً اتّخذَتْ تصنيفاً آخرَ غيرَ التّقوَى، قوامُه «أخيارُ» و«أغيارُ»، أو أسيادٌ وعبيدٌ، حدَّ التجرُّؤِ ليكونَ البشرُ والرَّبُّ خَدَمًا لتلكَ القِلّةِ؛ والمخلوقُ الإنسانُ فضائيٌّ مكانيٌّ بامتيازٍ، لكنَّهُ يظلُّ يصارعُ بُعداً آخرَ فيه، هو الزّمانُ الذي يجهلُ غالباً ما فاتَ منهُ وما هوَ آتٍ، لذلك تجدُه مشدوداً إلى رغبةٍ في العودةِ إلى فضاءٍ دنَّس بشَرَهُ وشجَرَهُ وحَجَرَه، فلمْ تقبلْهُ أرضٌ ولا سماءٌ، غضَباً ولَعْناً، ففعلَ ما يشاءُ، ولو إلى حينٍ بمادِّيَّتِهِ، وسخَّرَ الشّعوبَ

وثقافاتِهم، من ناحيةٍ، وفطرتَهم، مِن ناحيةٍ أخرَى، لأجلِ الهَيمنةِ على الأرض.

البحثُ في الشريعةِ المفكَّكةِ شرائعَ وأثرِها على فلسطينَ أرضًا وبشراً، دراسةٌ أرادَها عبدُ الله راغب البرغوثي في إبستيمولوجيا العلمِ (Epistemology of Science) المتأرجحةِ بينَ علمِ العليمِ بالحكمةِ مِن تديُّنِ الأرضِ وساكنِيها وعلم العلماء بهما، ونتاجُ خلوةِ فكرٍ تحرَّرَ من قضبانِه، واختراقُ حفريّاتِ اصطلاحيَّةٍ مفهوميَّةٍ لكُنْهِ الوجودِ البشريِّ، وإعادةُ تفكيرٍ في ذاك الفكرِ المجبولِ على التَّوحيدِ، المدجَّن بعُقَدِ الشّرِّ والنَّبذِ والشَّتاتِ، وسطَ غربةِ إسلامٍ بَدْءًا وعَوْدًا، نحوَ رؤيةِ فتحٍ وتحريرٍ إستراتيجيَّةٍ، إلى نصرٍ يرونَه بعيداً ونراهُ قريباً، بإذنٍ من ربِّ العزّة الكريم المتعالي.

والله أعلم.

التمهيد

إن التواصي بالحقِّ والتناهي عن المنكرِ، واجبٌ فرضَه اللهُ ورسولُه علينا لنذودَ عن حِمَى الإسلامِ عقيدةً وشريعةً، وعن القرآنِ المحفوظِ من اللهِ– سبحانه وتعالى–: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ[1]﴾، وذلك خلافًا لكتبِ الشرائعِ السابقةِ التي أُوكِلَ حفظُها إلى الأمم التي نزلت فيها، فغيّروها وبدّلوها، مُحوّلين حقّها وعدلها إلى باطلٍ وظلم، وطهارتها وسموَّها إلى دنس وانحطاط، لأطماعِ كثيرٍ من الكهنةِ والأحبارِ والرهبانِ، ففيهم قال–سبحانه وتعالى–:﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[2]، وقال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾[3]

وإنّ الدراسَةَ المقارِنة تثبتُ أنّ ما جاءَ به الوحيُ من الله إلى رسوله مسلّم به؛ لا تحريف ولا تزوير فيه، وقد آمَنَ به المسلمون إيمانًا مجمَلًا، يستقيمُ به دينهم وعقيدتهم، قائمًا على الإيمان بالله وملائكتِه وكتبِه ورسلِه واليومِ الآخِرِ والقدَرِ خيره وشره، كما جاء مُفصَّلًا في الحديثِ الصحيح، أما ما كان عند كهنةِ اليهود وأحبارِهم وحاخاماتهم، وباباواتِ الفاتيكان، ما هو إلا شرائعُ تراثية، وخرافاتٌ بشرية باطلة.

(1) سورة الحجر آية 9.

(2) سورة البقرة آية 75.

(3) سورة البقرة آية 79.

ولأنّ البحثَ يقارِنُ بين ربّانيةِ الشريعةِ الإسلاميَّةِ وتراثيةِ الشرائعِ اليهوديَّةِ، وأثرِ ذلكَ على فلسطينَ الأرضِ والإنسانِ والدينِ؛ فقد توجّبَ علينا، ومن خلالِ هذا التمهيدِ، توضيحُ حقيقةٍ متمثلةٍ في إيمانِنا القاطعِ بما سمّاه اللهُ منَ الكتبِ السماويةِ، وهي: القرآنُ، والتوراةُ، والإنجيلُ، والزبورُ، وصُحُفُ إبراهيمَ وموسى، وبالإيمانِ بأنَّ للهِ كُتبًا أخرى أنزلها على أنبيائِه لا يَعرفُ أسماءَها وعددَها إلّا هو -سبحانه وتعالى-، والإيمانِ بمَن سمّاهمُ اللهُ لنا من رسلٍ وأنبياءَ في القرآنَ الكريم، وأن هناك رسلًا وأنبياءَ آخرين لا يَعلمُ عددَهم وأسماءَهم إلّا اللهُ -سبحانه-: ﴿مِنْهُم مَّنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾[1].

وإنّ إيمانَنا بما سبقَ ينبغي أن يكونَ دونَ اعتراضٍ أو امتعاضٍ أو تشكيكٍ أو انتقادٍ؛ لقوله -سبحانه وتعالى-: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[2].

ولقد سعى الكاتبُ إلى أن يؤكدَ مؤكّدًا، ويثبتَ مُثبَتًا، وذلك بتسميةِ الأشياءِ بحقيقتِها، وكشفِ بعضِ الأقنعة الزائفة عمّا نسبَهُ المزوِّرونَ من الأحبارِ والرهبانِ والحاخاماتِ إلى اللهِ -سبحانَه وتعالى- بأنه شريعةٌ منَ السماءِ، ووَسْمِهِ باسمهِ الحقيقي «شريعةِ الغابِ والخرافة».

وتُظهِرُ الدراسةُ بجلاءٍ حقائقَ الشرائعِ التراثيّةِ اليهوديّة الواحدةَ تلوَ الأخرى، فتبيِّنُ زيفَها وبهتانَها وكذِبَها، وأنّه لا دورَ تاريخيًّا لليهودِ في هذا الوجودِ، سوى أنَّهم قتلةُ أنبياءٍ ورسُلٍ، ومرابونَ ولصوصٌ، وأنّهم عبيدُ المالِ والذهبِ والمتعةِ المحرّمةِ،

(1) سورة غافر آية 78

(2) سورة النساء آية 65

عبيدُ السلطةِ والتسلُّطِ، وأنّهم خونةُ العهودِ ونكَثَةِ الوعود، وأنّهمُ الوَهمُ والخرافةُ التي لا دور لها في فلسطينَ، لقوله–سبحانه وتعالى–: ﴿أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾[1]

ولقد تعاقبتْ على فلسطينَ حضاراتٌ إنسانيةٌ عظيمةٌ، كالفرعونيةِ والآراميةِ والأشوريةِ والبابلية، ثم السُّلجوقيون والرومانُ والبيزنطيون... إلى أن جاءَ الفتحُ الإسلاميُّ لتتوَسَّطَ فلسطينُ درةَ التاجِ؛ وتكونَ في مكانِها الذي رضيَه اللهُ لها من القداسةِ والطهارةِ، وفي كلِّ تلكِ الحضاراتِ ما وجدْنا لليهودِ تاريخًا ولا لشرائعِ تراثِهِمُ الخرافيةِ حضورًا إنسانيًّا فوقَ أرضِ فلسطين.

(1) سورة البقرة آية100

المقدمة

إنَّ الحمدَ لله، نحمدُه ونستعينُه ونستغفرهُ، ونعوذُ باللّهِ من شرورِ أنفسِنا وسيِّئاتِ أعمالنا، مَن يهدِ اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومن يُضلِلْ فلا هاديَ له، وأشهدُ أنَّ لا إلهَ إلّا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ له، القائلُ: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾(1)، وأشهدُ أنّ محمدًا عبدُه ورسولُه، خيرُ مَن حَمَلَ الرسالةَ وأدَّى الأمانة. أمّا بعدُ:

تُعَدُّ دراسةُ مقارَنةِ الأديانِ مِن أشقِّ الدراساتِ، وتزدادُ الصعوبةُ عند مقارَنةِ الشريعةِ الإسلاميةِ (الربانية السماوية) بالشريعةِ اليهودية (التراثية البشرية الأرضية)، وأثرِها على فلسطينَ أرضًا وشعبًا، خاصةً وأنَّ الشرائعَ التراثيةَ اليهوديةَ لها انعكاساتٌ على وجودِ اليهودِ وحياتِهم، وعلى فَنائِهم برُمَّتِه؛ فقدِ استمدَّ اليهودُ حقًّا مكذوبًا لهم في فلسطينَ من خلالِ نُصوصٍ توراتيةٍ زائفةٍ مُحرَّفةٍ وشرائعَ وضَعَها حاخاماتُهم، وورثتها أجيالُ اليهودِ جيلًا بعدَ جيلٍ.

وقدِ امتلَكَ اليهودُ أخطرَ الأدواتِ في طريقِ التضليلِ الذي سارُوا بهِ عبرَ تاريخِهم وما زالوا؛ تلكَ الأدواتُ التي تمثلتْ في المالِ والإعلامِ في زمانِنا؛ فبالمالِ اشترَوا ضمائرَ كثيرٍ من أصحابِ القرارِ عبرَ التاريخِ، وبإعلامهمْ طمَسوا حقائقَ وبثُّوا أباطيلَ.

ولقد برَعَ حاخاماتُ اليهودِ وكهنَتُهم في تحريفِ التوراة، لتسخيرِها في تحقيقِ

(1) سورة الأنبياء آية 18.

أطماعِهِمُ الدُّنيويةِ؛ فعلى سبيل المثال ما تركوا بقعةً في «فلسطينَ الأرضِ والدين» من سَهْلٍ ولا جَبَلٍ، ومن نهرٍ ولا وادٍ، إلّا زَعَمُوا أنّ الربَّ ذكَرَها في كُتُبِهِمُ التي ملؤوها بتراثٍ مصطَنَعٍ، زاعمين لها اسمًا غيرَ اسمِها، وأنّها –حسب شرعِهِم– مقدّسةٌ، فدنَّسوا مقدّساتنا، وقدّسوا أوهامَ حاخاماتِهِم وكَهَنَتِهم. وفي بحثِنا لم نستند فقط إلى القرآنِ الكريمِ والسنّة النبوية، وإلى ما كتبَه الثِّقاتُ المختصون من علماءِ المسلمينَ قديمًا وحديثًا؛ بل إلى ما كتبَه أيضًا علماءُ اليهودِ الذين اشتغلوا وتخصَّصُوا في الدراساتِ النقديّة للعهدِ القديم، والذين أعلنوا نتائجَ دراساتِهم تلك فقالوا: «إنّ هذه الأسفارَ المقدّسةَ هي من طبقاتٍ مختلفةٍ، وعصورٍ متباينةٍ، ومؤلّفين مختلفين، حيث تستوعبُ هذه الأسفارُ ما يقاربُ ثلاثةَ آلافِ سنةٍ من الزمن؛ فلا ارتباطَ بينها، سواءٌ في أسلوبِ اللغةِ أو في طريقةِ التأليفِ، وأنّ القِسمَ الأكبرَ من توراتِنا لم يُكتَبْ في الصحراءِ، وموسى لم يكتبِ التوراةَ كلَّها، وأقوالُ التوراةِ ليستْ إلّا لفائفَ من أماكنَ مختلفة».

أسباب اختيار الموضوع:

1. أن يتعرَّفَ المسلمُ على الحقِّ الذي تمثِّلُهُ شريعةُ الإسلامِ، والباطل الذي تمثله شريعةُ اليهودِ التراثية.
2. إظهارُ عدلِ الإسلامِ وجمالِه عند مقارَنَتِه بالدياناتِ المحرَّفةِ التي يظهَرُ جَورُها وقُبحُها.
3. الوقوفُ على جريمةِ حاخاماتِ اليهودِ في طمسِ شرائعِ موسى– عليه السلام– وإحلالِ شرائعِ الغابِ مكانَها.
4. دحضُ دراساتِ المستشرقينَ للإسلامِ، الهادفةِ لهدمِهِ.

5. مواجهةُ الهجْمةِ الحاقدةِ على الإسلامِ من قِبل اليهودِ ووكلائِهم، التي ما فتِئَتْ تُحرِّضُ على نشرِ الفِتنِ، وتثيرُ القلاقلَ، وتشُنُّ الحروبَ العسكريةَ والفكريَّةَ المضلِّلةَ ضدَّ المسلمين.
6. كشفُ التضليلِ الحضاريِّ المستَنِدِ إلى الخرافاتِ (التراثيةِ والدينيةِ) التي يمارسها اليهودُ لخَلقِ عَداءٍ دائمٍ بين المسلمينَ أنفسِهم من ناحيةٍ، والمسلمينَ وعمومِ الدياناتِ الفكريةِ، من ناحيةٍ أخرى.
7. إدراكُ الكاتبِ لحقيقةِ سعْيِ اليهودِ الدؤوبِ لتشويهِ حقائقِ الشريعةِ الإسلاميةِ، وللأمانةِ الدينيةِ والعلميةِ والفكريةِ والأخلاقيةِ، التي تُوجبُ تبيانَه ومواجهَتَه.
8. عجزُ الكاتبِ عن قتالِ العدوِّ بالبارودِ والرصاصِ (كونه أسيرٌ فلسطيني) نُزعتْ منه وسائلُ القتالِ تلك، فاستبدلَ بها قلمَ رصاصٍ يكتُبُ به حقًا، ويطمِسُ به باطلًا.

الدراساتُ السابقة

1. الفِرَقُ والمذاهبُ اليهوديةُ منذ البدايات: عبد المجيد حمو، الأوائل للنشر والتوزيع والخدمات الطباعية، 2003م: تكلَّمَ في جزءٍ من الكتابِ بأنَّ اليهودَ لا يؤمنونَ بنبوةِ الأنبياءِ الواردِ ذكرُهم في الأسفارِ بعد التوراة، ويَعُدُّونَ تلك الأسفارَ -بَدءًا من سِفرِ القضاةِ، وانتهاءً بآخرِ رسولٍ وسفرٍ في التوراة العبرية- من صُنعِ البشرِ، وأنّها من عملِ قومٍ ضَالين ومُضلّين.
2. خواطرُ مسلمٍ حولَ الجهاد، الأقليات، الأناجيل: محمد جلال كشك، دار ثابت، 1985م: يذكرُ فيما قاله أحبارُ اليهود بأنّ كثيرًا من الناسِ ينكِرون بداهةً أنّ التوراةَ من صنعِ البشرِ، ويعتقدون أنّها كلمةُ اللهِ أُنزلتْ على موسى

مباشرةً أو بوسيلة، ولكنْ هناك اعتقادٌ بأنّ النصَّ، ومن خلال انتقالِه من جيلٍ إلى جيلٍ، تعرَّضَ للخطأِ والنسخ.

3. رسالةٌ من التوراةِ إلى مؤتمرِ السلام، إبطالُ مزاعمِ إسرائيلَ الدينية: أحمد عبد الوهاب، مكتبة وهبة للطباعة والنشر، 1992م: تكلَّمَ الكتابُ عن أنّ حَصْرَ ميراثِ إبراهيمَ -عليه السلام- الروحيّ والماديِّ في ولدِه إسحاقَ، واستثناءَ إسماعيلَ وبنيهِ من ذلك الميراثِ، تعصُّبٌ ظالمٌ من صُنعِ البشرِ، وتحريفٌ لنصوصِ الأسفارِ المقدسةِ، وخداعٌ باسمِ الدين.

4. اليهوديةُ ديانةٌ توحيديَّةٌ أم شعبٌ مختار: عمر مصالحة، دار الجليل للنشر والأبحاث الفلسطينية، 2005م، يؤكدُ الكتابُ في بعضِ نُصوصِه بأنَّ كلَّ ما أوردَهُ الرّبّانيُّونَ في التلمود تافِهٌ، وأنهُ عملٌ بشريٌّ، ويُظهِرُ إثمَ التلموديّينَ وخَطأَهُم؛ لأنهم زَيَّفُوا التلمودَ، وأضافوا إليهِ ما ليسَ فيه.

5. وعْدُ التوراةِ من أبرامَ إلى هرتزل: موسى مطلق إبراهيم، مكتبة باهسان، جامعة إنديانا، 1994م. يسعى الكتابُ إلى إظهارِ التناقضاتِ الكامنةِ في المروِيَّاتِ والأحاديثِ والأساطيرِ التوراتيَّةِ، ويربطُ أحداثًا توراتيةً سجَّلَها الحاخاماتُ قَبلَ ألفَيْ سنةٍ بتطوُّرِ الأوضاعِ المعاصِرَةِ معَ الحركةِ الصهيونيةِ، ثمّ يركِّزُ على (مفهومِ الوعدِ) في التوراة.

وقد قسَّمتُ هذا البحثَ إلى مقدّمةٍ وستةِ فصولٍ وخاتمةٍ، ثمَّ قائمةٍ للمصادرِ والمراجِعِ، أمّا المقدِّمةُ فكانتْ فكرةً عامةً حولَ موضوعِ البحثِ، وأهميَّتِهِ، وأسبابِ اختياره، والمنهجِ الذي اتبعْتُهُ في البحثِ والخطّة.

والفصلُ الأوَّلُ وعنوانُه: خصائصُ الشريعةِ الإسلامية، فيما كانَ الفصلُ الثاني: في الشريعةِ الإسلاميةِ والتراثِ اليهوديِّ، وفي الفصلِ الثالثِ تناولتُ القرآنَ والسنة

مصدَرَي الشريعةِ الإسلامية، والفصلُ الرابعُ تناولَ تراثيةَ الشريعةِ اليهوديةِ، والفصلُ الخامسُ: الصهيونيةُ وأوجُهُها المتعددةُ، فيما الفصلُ السادسُ والأخيرُ: فقد تناولَ فلسطينَ تاريخًا وعقيدةً. وخُتِمَتِ الدراسةَ بأهمِّ النتائجِ والتوصياتِ، وملخَّصٍ لأهمِّ ما استنتجَهُ الكاتبُ من توصِياتٍ ونصائحَ للدارسينَ في هذا المجالِ. واللهُ الموفقُ والهادي إلى سبيلِ الرشادِ.

مشكلةُ الدراسةِ وأسئلتُها

في ظلِّ ما تتعرَّضُ لهُ الأمةُ الإسلاميةُ عمومًا، وفلسطينُ خصوصًا من هجومٍ شاملٍ على كلِّ تفاصيلِ حياتِنا، ونجاحِ هذا الهجومِ في كثيرٍ من الأماكنِ التي يستهدفُها، المتمثِّلِ في تعزيزِ نجاحِ احتلالِ فلسطينَ من قِبَلِ اليهودِ الصهاينة، وولاءِ معظمِ حكامِ العالمِ العربيِّ والإسلاميِّ للصهاينةِ والأمريكان، وانسلاخِ مجموعةٍ مهمةٍ من المفكرينَ والمثقفينَ المنتمينَ للأمَّةِ العربيَّةِ والإسلاميَّةِ عن ثَوابتِهِمُ الدينيَّةِ والقوميَّةِ والأخلاقيَّةِ في مواجهةِ عدوِّ الأمَّةِ الأوَّلِ، الحركةُ الصُّهيونيَّةُ؛ ظهرتِ الحاجةُ المُلِحَّةُ لدراسةٍ علميةٍ تاريخيةٍ فقهيةٍ، تُبيِّنُ مخاطرَ الحركةِ الصهيونيّة، وتحذرُ أبناءَ الأمةِ منَ الانزلاقِ حولَ دعاوَى (التطبيعِ معَ هذا العدوِّ الصهيونيِّ).

وبناءً على ذلك، حرَصتُ على أنْ أجيبَ، منْ خلالِ هذهِ الدراسةِ عنْ بعضِ الأسئلةِ المُلحَّةِ، لأوضحَ للعربِ والمسلمينَ ضلالاتِ اليهوديةِ وحاخاماتِها، وهداياتِ الإسلامِ، منْ خلالِ القرآنِ والسُّنَّةِ والتاريخِ، ومنْ هنا يمكنُ أن تتحدَّدَ مشكلةُ الدراسةِ في الأسئلةِ الآتيةِ:

ما هو حجمُ التحريفِ والتزويرِ في التوراةِ والتلمودِ؟

1. كيف أثَّرَ ذلكَ التزويرُ على أرضِ فلسطينَ وشعبِها؟

2. ما هو حجمُ اهتمامِ الدينِ الإسلاميِّ بفلسطين؟
3. كيفَ للمسلمِ أن يؤكِّدَ أن قداسةَ فلسطينَ هيَ منَ اللهَ –سبحانَهُ وتعالى–؟
4. كيفَ للمسلمِ والعربيِّ أن يوطِّنَ نفسَه على أنَّ فلسطينَ جزءٌ منْ عقيدةِ الإسلامِ وتاريخِه المَجيدِ؟
5. أهدافُ الدراسة

1. التواصي بالحقِّ من خلالِ الشريعةِ الربَّانيَّةِ غيرِ المُزوَّرة، والبراءةُ التامَّةُ منَ المنكرِ الذي يمثلُ احتلالُ فلسطينَ ذروَتَه.
2. عقدُ مقارَنةٍ بينَ وَحْيٍ صادقٍ من اللهِ–سبحانه وتعالى– لم تمسَّه يدُ التَّحريفِ وكتابٍ سماويٍّ عَبَثَ به الرهبانُ والكهنةُ.
3. التعرُّفُ على آثارِ صدقِ الشريعةِ الإسلاميةِ، وكذِبِ الشرائعِ اليهوديَّةِ (المحرَّفةِ) في التعاملِ مع فلسطين.

أهمية الدراسة

1. تظهَرُ أهميةُ الدراسةِ من خلالِ تحقيقِ الهدفِ منها، بالإجابةِ عنْ جميعِ القضايا.
2. رفعُ الغشاوةِ عن أعينِ مَن يظنُّ أنَّ شرائعَ اليهودِ ربانيةٌ خالصةٌ.
3. إظهارُ سماحةِ الإسلامِ ووضاءَتِه ونقائِه.
4. الدفاعُ عن مظلَمةِ الشعبِ الفلسطينيِّ المهجَّرِ والمقتولِ والمحاصَرِ، من خلالِ الشريعةِ الإسلاميةِ والتاريخِ.

المؤلفُ الدكتور عبدالله غالب البرغوثي

1

الفصلُ الأول

خصائصُ الشريعةِ الإسلاميَّة

المبحثُ الأولُ: الشريعةُ الإسلامية (ربّانيَّة، عالَميَّة، تكامليَّة)

الشريعة لغةً:

الظهورُ والبيانُ والوضوحُ، وكذلكَ موردُ الماءِ، ولا تُسمِّي العربُ موردَ الماءِ شريعةً إلا إذا كانَ كثيرَ الماءِ ظاهرًا للعيانِ، وقال الفيروز أباديّ: «سُمِّيَتِ بالشريعةِ تشبيهًا لها بالماءِ الموردِ»[1]، وأَطلقتِ العربُ على الشريعةِ نهجَ الطريقِ الواضح[2].

ومن هنا سُمِّيَتْ أحكامُ اللهِ بالشريعةِ، لأنّها مستقيمةٌ، ولأنَّ فيها حياةَ النفوسِ والعقول. قال اللهُ -سبحانَه وتعالى-: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[3]،

الشريعة اصطلاحًا:

ما شرَعَهُ اللهُ -سُبحانَه- لعِبادِه منَ الأحكامِ التي جاءَ بها نبيٌّ منَ الأنبياءِ -عليهِمُ الصَّلاةُ والسلامُ- سواءٌ كانتْ هذهِ الأحكامُ أحكامًا اعتقاديَّةً أمْ أحكامًا عمليَّةً ليُؤمِنوا بها فتكونُ سعادتَهم في الدنيا والآخرةِ. وبِإضافةِ لفظِ «الإسلامِ» إلى الشريعةِ يصبحُ مَعنَى الشريعةِ الإسلاميَّةِ: ما نَزلَ به الوَحيُ على مُحمّدٍ -صلّى اللهُ عليهِ وسلَّم- منَ الأحكامِ التي تُصلِحُ أحوالَ الناسِ في الدنيا والآخرةِ سواءً في ذلك الأحكام العقائديّة،

(1) الفيروز آبادي: بصائرُ ذوي التمييز: 3/ 310

(2) ابن منظور: لسان العرب، ج2، ص299.

(3) سورة الأنفال: الآية (24)

أو الأحكام العمليّة، أو الأخلاق[1]. وقدْ خَصَّ بعضُ الفقهاءِ الشريعةَ بالأحكامِ الشرعيَّةِ العمليةِ»[2]، فيما عـدَّ بعضُ المتأخرينَ: «العلمَ المتعلِّقَ بالأحكامِ الفرعيَّةِ «علمَ الشرائعِ»، و المتعلِّقَ بالأحكامِ الأصليَّةِ «علمَ التوحيدِ والصِّفاتِ»[3].

إلّا أنَّ الاصطلاحَ القرآنِيَّ للشريعةِ لمْ يُهجَرْ، ولم يُترَكْ، فأكثرُ العلماءِ يطلقونَ الشريعةَ، ويريدونَ منها الاصطلاحَ القرآنيَّ العامَّ، وهذا أفضلُ وأولَى، والمناسَبَةُ بينَ المعنَى الاصطلاحيِّ والمعنَى اللُّغويِّ اتّفاقٌ غايةٌ في الوضوحِ، فالشريعةُ مصدرُها اللهُ، أيْ: أنَّ اللهَ –عزَّ وجلَّ– هو الذي ابتدأَها وسنَّها، قال –سبحانَه وتعالى–: ﴿تنزيلُ الكتابِ منَ اللهِ العزيزِ الحكيمِ﴾[4].

ويرى الكاتبُ منْ خلالِ الوقوفِ على المعنَى اللُّغويِّ والاصطلاحيِّ للشريعةِ؛ أنها كنهرٍ فيّاضٍ صافٍ يشرَبُ منهُ الشاربُ دونَ عناءٍ، ولا يُخشَى نقصُه ولا تكَدُّرُهُ. وعليه فإنَّ شريعةَ اللهِ التي نَسَخَتْ ما قبلَها منَ شرائعَ يهوديَّةٍ ونصرانيَّةٍ، هي غذاءٌ للأرواحِ، وروحٌ للقلوبِ وصَلاحٌ للفردِ والمجتمَعِ، وطريقٌ لرضوانِ اللهِ تعالى وجَنَّتِهِ، وأنَّها الطريقُ المستقيمُ الظاهرُ البيِّنُ، ولا يقومُ غيرُها، بأيِّ حالٍ منَ الأحوالِ مقامَها؛ لا شرائعُ التراثِ اليهوديِّ التي خَلَقَتْ شريعةَ الغابِ، فاستُبيحَ بها الحرامُ، وحُرِّمَ بها الحلالُ.

---

(1) السعدي، إسحاق بن عبد الله: دراساتٌ في تميزِ الأمةِ الإسلاميةِ، وموقفُ المستشرقينَ منه (الطبعة الأولى)، قطر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، (2013)،ج1، ص304. بتصرّف.

(2) مجموعة الفتاوى: 19/ 134 وهذا الذي ذكرَه ابنُ تيميةَ، والنصُّ الذي سُقناهُ منَ العقائدِ النفيسةِ، وقد ذكرَهُ التهانونيُّ في كشّافِه – سيردُّ على بعضِ المعاصرينَ الذين ظنّوا أنّ إطلاقَ اسمِ الشريعةِ على الفقهِ وما يتصلُ بهِ لم يظهرَ إلّا في الوقتِ الحاضر.

(3) كشّاف اصطلاحاتِ الفنون للتهانوني: 3 / 759

(4) سورة الجاثية: الآية 2

أقسامُ الشريعةِ:

ذهبَ الفقهاءُ في تقسيمِ الشريعةِ وإطلاقاتِ استعمالاتِها إلى عديدِ الأقسامِ؛ فقدْ قسَّمَها ابنُ تيميةَ –رحمهُ اللهُ– على النحوِ الآتي:

- **الشَّرعُ المنزَّلُ:** ويُرادُ بهِ نصوصُ الكتابِ والسُّنَّةِ الصحيحةِ، ويدخلُ فيهِ أصولُ الدينِ وفروعُهُ، بناءً على المعنى العامِّ الذي كانَ عليهِ أهلُ السَّلفِ.
- **الشَّرعُ المؤوَّلُ:** ويُطلَقُ على اجتهاداتِ أهلِ العلمِ والفقهِ، كاجتهاداتِ الصحابةِ والتابعينَ وفقهاءِ الأمصارِ، كالأئمةِ الأربعةِ وسفيانُ الثوريُّ، وسفيانُ بنُ عيينةَ.
- **الشَّرعُ المبدَّلُ:** وهوَ الأحكامُ التي تُضافُ إلى الشريعةِ، والشريعةُ منها بَراءُ، مثلُ الأحاديثِ المفتراةُ، والنصوصُ المؤوَّلةُ بخلافِ مُرادِ اللهِ، ونحوُ ذلكَ، إمَّا عنْ قَصْدٍ وعَمْدٍ، أو بجَهالة[1].

ومنَ العلماءِ مَن قسَّمَ الأحكامَ الشرعيَّةَ بمعناها العامِّ إلى ثلاثةِ أقسامٍ:

1. **أحكامٌ اعتقاديَّةٌ:** وهيَ التي تقرِّرُ وحدانيَّةَ اللهِ، وعدمَ الشِّركِ بهِ، والإيمانَ بالملائكةِ والكتبِ والرسلِ واليومِ الآخرِ، والقضاءِ والقدَرِ؛ خيره وشرِّه.
2. **أحكامٌ أخلاقيَّةٌ:** وهيَ التي تأمرُ بمكارمِ الأخلاقِ؛ كالصدقِ، والوفاءِ بالوعدِ، وأداءِ الأمانةِ، وتنهَى عنِ الأخلاقِ الخبيثةِ؛ كالكذبِ ونقضِ العُهودِ، وإخلافِ الوُعود.
3. **أحكامٌ عمليَّةٌ:** وهيَ التي يَحتاجُ إليها لإقامةِ العباداتِ وإصلاحِ المعاملاتِ الجاريةِ بينَ الناسِ[2].

(1) راجع مجموع فتاوى شيخ الإسلام: 5/ 366، 395، 11/ 244

(2) خصائص الشريعة الإسلامية: د.عمر الأشقر، ص 28.

عالميَّةُ الشريعةِ الإسلاميَّةِ:

إنّ الشرائعَ السابقةَ للإسلامِ قدْ وفَّتْ حاجَةَ مَنْ أُنزِلَتْ إليهِم، فنظَّمَتْ حياتَهُمُ المحدودةَ، وتميَّزَتْ تلكَ الشرائعُ بعدمِ شمولِها الحلولَ التي تتطلَّبُها حاجةُ الناسِ في كلِّ عصرٍ وزمانٍ؛ فأصبحتِ الحاجةُ مُلحَّةً إلى شريعةٍ شاملةٍ يخاطِّبُ بها جميعُ الناسِ، وهوَ ما جاءتْ بهِ الشريعةُ الإسلاميَّةُ، حيثُ لا شريعةَ بعدَها، ولا رسولَ بعدَ رسولِها- صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ-؛ وقدْ طبَعَها ذلك الطابعُ بالعالميةِ، وجعلَها دينًا عالميًّا للناسِ أجمعين»[1].

وقدْ أكَّدَ القرآنُ الكريمُ ما ثبتَ تاريخيًّا منْ أنَّ رسالاتِ الأنبياءِ والرسلِ السابقينَ كانتْ خاصةً بأقوامِهِم، حيثُ قالَ اللهُ -عزَّ وجلّ-: ﴿ولكلّ قومٍ هادٍ﴾[2] فكانَ كلُّ رسولٍ دونَ سيِّدنا محمّدٍ -صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ- يُبعَثُ إلى قومِهِ خاصةً، كما ذكرَ اللهُ -عزّ وجلّ-: ﴿ولقدْ أرسلْنا نوحًا إلى قومِهِ﴾[3]، وقولِه: ﴿وإلى ثمودَ أخاهُم صالحًا﴾[4]، وقولِه: ﴿وإلى مدينَ أخاهُم شعيبًا﴾[5].

ويلاحَظ أنَّ هذهِ الآياتِ وغيرَها تدلُّ على أنَّ الأنبياءَ-صلواتُ اللهِ تعالى وسلامُهُ عليهِم- قبلَ نبيِّ اللهِ محمَّدٍ-صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ-، قد بُعثوا لأقوامِهِم خاصةً، ولم يُعرَفْ أنَّ هناك تشريعًا عالميًّا غيرَ الإسلامِ، فقبْلَ الإسلامِ كانتِ اليهوديةُ دينًا خاصًّا ببَني إسرائيلَ، الذينَ زعمُوا أنَّ اللهَ هوَ إلهُ أُمَّتِهِم وَحْدَهُم، واختصُّوهُ لأنفسِهِم دونَ

(1) صالح ذياب هندي، دراساتٌ في الثقافةِ الإسلامية، ص 65.
(2) سورة الرعد: الآية 7.
(3) سورة هود: الآية 25.
(4) سورة هود: الآية 61.
(5) سورة هود: الآية 84.

الناسِ، ولهذا لـمْ تصِلْ دعوةُ أنبيائِهم إلى الأمـمِ الأخرى، ونفسُ الحقيقةِ تنطبقُ على النصرانيةِ التي جاءتْ إصلاحًا لليهوديَّة، ومُكملةً لها.

ومن أدلَّةِ عالَمِيَّةِ الشريعةِ الإسلاميَّةِ:

1. آياتُ القرآنِ الكريم: قالَ -عزَّ وجلّ-: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1]، وفي موضعٍ آخرَ قالَ سبحانَه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[2]
2. أحاديثُ الرسولِ -صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ-، ومنها قولُه: «أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الأنبياءِ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلاةُ فَلْيُصَلِّ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الغَنَائِمُ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ كافَّةً، وأُعطِيتُ الشفاعةَ».[3]

الأدلّةُ العقليةُ التي تؤكِّدُ عالميَّةَ الشريعةِ الإسلاميَّةِ، ومنها:

أوّلًا- لم يقتصرِ الإسلامُ على العربِ الذينَ نزلَ فيهِم، وإنّما كانَ عامًّا لجميعِ البشرِ؛ فقدْ أمَرَ اللهُ رسولَه أنْ يدعُوَ الناسَ جميعًا إلى الإسلامِ بغضِّ النظرِ عنْ جنسِهِم، قال -عزَّ وجلّ-: ﴿قُلْ يا أَيُّها الناسُ إنِّي رسولُ اللهِ إليكمْ جميعًا﴾[4] دونَ أنْ يقولَ: قلْ: يا أيُّها العربُ إنِّي رسولُ اللهِ إليكم.. وهذا ما يؤكِّدُ عالميَّةَ الشريعةِ الإسلاميَّةِ الرَّبَّانية، وعدمَ اقتصارِها على قومٍ أو جنسٍ معيَّنَيْنَ.

(1) سورة سبأ: الآية 28.

(2) سورة الأنبياء: الآية 107.

(3) رواه البخاري

(4) سورة الأعراف: الآية (158)

ثانيًا- حرَصَ سيدنا محمَّدٌ -صلّى الله عليه وسلّم- على تبليغِ رسالةِ الإسلامِ مِنْ خلالِ عديدِ الرسائلِ التي بعَثَ بها إلى ملوكِ الدولِ المجاورةِ ورؤسائِها آنذاك، فقد أكّدَ ابنُ هشامٍ واليعقوبيُّ والطبريُّ[1] صدورَ رسائلِ الرسولِ التي دعا فيها أولئكَ الحكّامَ إلى الإسلامِ، مثلَ هرقلَ قيصرِ الرومِ، وكسرى ملكِ الفرسِ، والمقوقسِ حاكمِ مصرَ، والنجاشيِّ ملكِ الحبشةِ، وغيرِهم.

ثالثًا- اشتمالُ دعوةِ الرسولِ على تلاميذَ وأتباعٍ مِنْ مختلِفِ الأجناسِ والبلدانِ، ومِنْ هؤلاءِ مَنْ كانَ مِنْ قريشٍ، كالخلفاءِ الراشدينَ، أو مِن اليمنِ، كأبي هريرةَ، أو مِنْ تِهامةَ، كأبي ذرٍّ الغِفاريِّ، أو مِنَ الحبشةِ، كبلالِ بنِ رباحٍ، أو مِنَ الرومِ، كصهيب بنِ سنانٍ، أو مِنْ فارسَ، كسلمانَ الفارسيِّ، وهكذا نرى أنَّ الدعوةَ المحمديَّةَ مفتوحةٌ للوارِدِينَ إليها مِن كلِّ أمَّةٍ[2].

رابعًا- انتشارُ الإسلامِ في مختلِفِ أرجاءِ العالمِ، دليلٌ على أنَّ شريعةَ الإسلامِ عالميَّةٌ، لا تنحصِرُ في مكانٍ أو زمانٍ معيَّنٍ.

إنَّ إنسانيَّةَ الرسالةِ الإسلاميَّةِ هيَ أساسٌ في عالميَّتِها، لأنَّها لا تفرِّقُ بينَ إنسانٍ وآخرَ في داخلِ الوطنِ الواحدِ، أو داخلَ المجتمعِ الواحدِ، أو داخلَ المجموعةِ الإنسانيَّةِ كلِّها إلّا بالتقوى. فمنذُ اللحظةِ الأولى لنزولِ الوحيِ والقرآنُ يوجِّهُ خطابَهُ إلى الناسِ جميعًا، بقولِه: «يا أيّها الناس»، فقدْ بلغَ عددُ مرّاتِ هذا الخطابِ في القرآنِ نحوَ ثمانٍ وعشرينَ مرّةً، كما وردَ لفظُ «الناس» مئتَينِ وتسعًا وأربعينَ مرّةً، ولفظُ «الإنسان» إحدى وستينَ مرّةً.[3]

(1) محمد كرد علي، الإدارةُ الإسلاميَّةُ في عِزِّ العرب ص 17

(2) محمد يوسف موسى، الإسلامُ وحاجةُ الإنسانيَّةِ إليه، ص (55،56)

(3) فتحي عثمان: من فلسفةِ التشريعِ الإسلامي، ص:52

وقدْ أكّدَ سيِّدُنا محمَّدٌ -صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ- إنسانيةَ الشريعةِ وعالميَّتَها في آخرِ ما صَدرَ عنهُ في حَجَّةِ الوداعِ، حينَ قال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، فكلُّكم لآدمَ، وآدمُ مِن ترابٍ، إنَّ أكرمَكم عندَ الله أتقاكُم، وليسَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أبيضَ، فضلٌ إِلَّا بِالتَّقْوَى».

إنّ عالميةَ الشريعةِ الإسلاميَّةِ تفرِضُ على المسلمينَ دَحضَ شرائعِ التراثِ (اليهوديةِ) المفتراةِ على سيِّدِنا موسى -عليهِ الصلاةُ والسلامُ-، وذلكَ من أجلِ إخراجِ العبادِ من عبادةِ العبادِ إلى عبادةِ ربِّ العبادِ، وتخليصِهم منْ شريعةِ الغابِ التي خلَقَتها العقولُ المريضةُ لدى رهبانِ اليهودِ وحاخاماتِهم.

وهذهِ بعضُ نصوصِ الرسائلِ التي أرسلَها المصطفى -صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ- إلى الملوكِ والأمراءِ في ذاك الزمان:

أخرجَ البيهقيُّ عنِ ابنِ إسحاقَ، قال: بعثَ رسولُ اللهِ -صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ- عمرَو بنَ أميةَ الضَّمْريَّ إلى النجاشيِّ، في شأنِ جعفرَ بنِ أبي طالبٍ وأصحابِهِ، وكتبَ معه كتابًا: « بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ، مِنْ محمّدٍ رسولِ اللهِ إلى النجاشِيِّ الأصْحَمِ ملكِ الحبشة، سلامٌ عليكَ، فإنَي أحمَدُ إليكَ الملكَ القدُّوسَ، المؤمنَ، المهيمنَ، وأشهدُ أنّ عيسَى روحُ اللهِ وكلمتُه ألقاها إلى مريمَ البتولِ الطاهرةِ الطيبةِ الحصِينةِ، فحمِلتْ بعيسى، فخلقَه مِنْ روحِهِ ونفخَتِهِ كما خلقَ آدمَ بيدِهِ ونَفخَتِهِ، وإني أدعوكَ إلى اللهِ وحدَه لا شريكَ لَهُ، والموالاةِ على طاعتِه، وأنْ تتبعَنِي فتؤمنَ بي وبالذي جاءَني، فإنّي رسولُ اللهِ، وقدْ بعثتُ إليكَ ابنَ عمِّي جعفرًا، ومعَه نفرٌ منَ المسلمينَ، فإذا جاؤوكَ فأقِرَّهمْ، ودَعِ التجبُّرَ، فإني أدعوكَ وجنودَكَ إلى اللهِ -عزَّ وجلّ-، وقد بلَّغتُ ونصَحتُ، فاقبَلوا نصيحَتي، والسلامُ على من اتّبعَ الهُدى».

1. وأخرجَ البخاريُّ عنِ ابنِ عبّاسٍ حديثَ أبي سفيانَ معَ هرقلٍ، وفيهِ نصُّ رسالةِ رسولِ اللهِ -عليه الصلاة والسلامُ- إليهِ: بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ، منْ محمَّدٍ عبدِ اللهِ ورسولِهِ إلى هرقلَ عظيمِ الرومِ: سلامٌ على مَنِ اتَّبعَ الهُدى، أمّا بعدُ، فإنّي أدعوكَ بدعايةِ الإسلامِ، أسلِم تسلَمْ يؤتِكَ اللهُ أجرَك مرَّتَينِ. فإنْ تولَّيْتَ فإنَّ عليكَ إثمَ الأريسيِّينَ، ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[1].
2. وأخرجَ ابنُ جريرٍ منْ طريقِ ابنِ إسحاقَ نصَّ رسالةِ الرسولِ -صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ- إلى كسرى، وهيَ: «بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرّحيمِ، من محمد رسول الله إلى كسرى عظيمِ فارس، سلام على مَنِ اتَّبعَ الهُدى، وآمَنَ باللهِ ورسولِهِ، وشَهِدَ أنْ لا إلهَ إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ لهُ، وأنّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه، وأدعوكَ بدعايةِ اللهِ، فإنّي أنا رسولُ اللهِ إلى الناسِ كافةً، لينذِرَ مَن كانَ حيًّا ويَحِقَّ القولُ على الكافرينَ، فإنْ تُسلِمْ تسلَمْ، فإنْ أَبَيْتَ، فإنّ إثمَ المجوسِ عليكَ.»
1. وأخرجَ البيهقيُّ نَصَّ رسالةِ الرسولِ -صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ- إلى أهلِ نجرانَ، وهي: « باسمِ إلهِ إبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوبَ مِن محمَّدٍ النبيِّ رسولِ اللهِ إلى أسقُفِ نجرانَ وأهلِ نجرانَ، فإنّي أحمَدُ إليكمْ إلهَ إبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوبَ، أمّا بعدُ: فإني أدعوكمْ إلى عبادةِ اللهِ مِن عبادةِ العبادِ، وأدعوكمْ إلى ولايةِ اللهِ مِنْ ولايةِ العبادِ، فإنْ أبيتُمْ فالجزيةُ، فإنْ أَبَيتُمْ فقدْ آذَنْتُكُم بحربٍ وسَلامٍ».

---

(1) سورة آل عمران: الآية (64)

وقدْ أَرسلَ الرسولُ -صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ- رسائلَ مشابِهةً إلى المقوقِسِ عظيمِ مصرَ، وإلى ملكِ اليمامةِ، وإلى المنذِرِ بنِ ساوَى، عظيمِ البحرَينِ، وإلى الحارثِ بنِ أبي شَمرِ الغسّانيِّ، وإلى الحارثِ بنِ عبدِ كلالٍ الحِميَرِيِّ، وإلى مَلِكَي عمانَ، ابنَيِ الجلندِيِّ.. وغيرِهم.

وما هذه إلّا نماذجُ منْ عمليةِ التبليغِ عندَ خاتمِ المرسلينَ سيِّدِنا محمَّدٍ -صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ- وذلك حتّى نعطيَ صورةً مبسّطةً في هذا المبحثِ عنِ القيامِ بتبليغِ أمرِ اللهِ ودينِه وشريعتِه العالميَّةِ، ووفاءِ هذا الموضوعِ حقَّه يحتاجُ إلى مجلّدٍ ضخمٍ على الأقلّ.

إذن، رسولُ اللهِ خلالَ ثلاثةٍ وعشرينَ عامًا منَ النبوّةِ لم يهدَأْ ولمْ يسترِحْ، ولمْ يفوِّتِ فرصةً يستطيعُ بها أنْ يبلِّغَ: بالاتّصالِ الشخصيِّ والعرضِ الجماعيِّ، وفي البُعدِ والحضرِ، وبنفسِه وأتباعِه، وبالمشافَهةِ والخطابِ، ثمّ عمَّمَ الأمرَ على أمّتِه جميعًا بأنْ أوجبَ عليهِمُ البلاغَ عنهُ، حتّى لا يبقَى إنسانٌ من البشرِ إلّا وقدْ بلغتهُ دعوتُه.

تكاملُ الشريعةِ الإسلاميَّةِ معَ الشرائعِ السَّماويَّةِ السّابقةِ:

إنَّ الدينَ الذي أنزلهُ اللهُ على جميعِ رسلهِ وأنبيائِه دينٌ واحدٌ، هوَ الإسلامُ، قال -عزّ وجلّ-: ﴿إنَّ الدِّينَ عندَ اللهِ الإسلامُ﴾(1)، ﴿ومَن يَبتَغِ غيرَ الإسلامِ دِينًا فَلَنْ يُقبَلَ منهُ وهوَ في الآخرةَ مِنَ الخاسِرين﴾(2)، والإسلامُ هو: استسلامُ كلِّ رسولٍ وأتباعِه للهِ، وخضوعُهمْ، وطاعتُهمْ لهُ، بفِعلِ ما يأمرُهمْ بهِ، وترْكِ ما ينهاهمْ عنه. أمّا الشرائعُ التي

(1) سورة آل عمران: الآية 19

(2) سورة آل عمران: الآية 15

أَنزلها اللهُ -عزَّ وجلَّ- على رسُلهِ وأنبيائِه فإنّها متعدِّدةٌ، وهيَ -وإنْ كانتْ مختلفةً- تحقّقُ غايةً واحدةً، فكلُّ أصحابِ شريعةٍ يحققونَ الدنيويَّةَ والعبوديَّةَ التي خُلِقوا منْ أجلِها منْ خلالِ عملِهم بشريعتِهم، وبتلكَ الشريعةِ يتحققُ صلاحُ دنياهُم وأُخراهم.

لقدْ وعدَ اللهُ آدمَ -عليهِ السَّلامُ- أن يُديمَ تنزيلَ هدْيِهِ إليهِ، وإلى ذريَّتِهِ منْ بعدِه، ليعرِّفَهم بالمنهجِ الذي يُصلِحُ حياتَهم، وينقذُهم منَ الضَّلالِ والشِّقوةِ في الدنيا والآخرةِ. قال -عزَّ وجلَّ-: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ۞ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾[1]، وهذهِ الرِّسالاتُ هيَ حُجَّةُ اللهِ على خلقِهِ، قال -عزَّ وجلَّ-: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[2] وقالَ -عزَّ وجلَّ-: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ۚ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[3]

وقدْ يُقالُ: لِمَ لَمْ يكتَفِ بإنزالِ شريعةٍ واحدةٍ بَيِّنةِ الوجودِ على مدارِ التاريخِ الإنساني؟

والجواب: أنَّ اللهَ كانَ قبلَ رسولِنا محمَّدٍ- صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ- يرسلُ لكلِّ أمَّةٍ رسولًا خاصًّا بها، وشرائعُ الأمَمِ السّابقةِ تختلفُ فيما بينِها لحكمٍ واضحٍ؛ فالشرائعُ تختلفُ باختلافِ زمانِ الأممِ، وتبايُنِ تحمُّلِ أبدانِهم قوّةً وضعفًا، واستعدادِ أمزجَةِ نفوسِهم قَبولًا ورفضًا، واللهُ أنزَلَ هذهِ الشرائعَ لتحقيقِ مصالحِ العبادِ، والمصلحةُ قدْ تختلِفُ باختلافِ الأحوالِ والزَّمانِ، وهوَ -عزَّ وجلَّ- حكيمٌ يشرّعُ لعبادِه في كلِّ

(1) سورة طه: الآية (123/ 124)

(2) سورة الإسراء (الآية 15)

(3) سورة النساء: الآية (165)

عصرٍ ما يعلمُ أنَّ مصلحَتَهم تتحقَّقُ بتحكيمِ شريعتِهِمُ المنزَّلةِ إليهِم فيه.

وقدْ جاءتِ الشريعةُ الإسلاميَّةُ شريعةً عالميةً غيرَ محدودةٍ بزمانٍ ولا مكانٍ، ولا بطائفةٍ منَ الناسِ، ولذا فإنَّها اتَّصَفَتْ بالصِّفاتِ التي تجعلُها صالحةً لكلِّ زمانٍ ومكانٍ. وقد تلقَّى سيِّدُنا محمَّدٌ -صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ- جميعَ الأحكامِ من الوحيِ، وإذا وُجِدَ تشابُهٌ بينَ هذهِ الشريعةِ الخاتمةِ الكاملةِ المتكاملةِ والشرائعِ السابقةِ؛ فذلك عائدٌ إلى أنَّ مصدرَ هذهِ الشرائعِ واحدٌ، لا لتلقِّي الرسولِ -عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ- الأحكامَ منْ شرائعِ الأممِ السابقةِ.

وقدِ اختلفَ العلماءُ في شَرعِ مَن قبلَنا إذا وُجِدَ فيهِ حكمٌ لَمْ يُوجَدْ في دينِنا ما يبطِلُهُ ولا ما يُقِرُّهُ، هلْ يُعَدُّ تشريعًا لنا؟ وأَعدَلُ هذهِ الأقوالِ، أنَّ شرائعَ مَن قَبلَنا ليسَتْ مصدرًا تشريعيًّا لنا، قالَ -عزَّ وجلَّ-: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[1]، ويقولُ ابنُ جريرٍ: «معنَى الكلامِ، لكلِّ قومٍ جَعلنا طريقًا إلى الحقِّ يؤُمُّهُ، وسبيلًا واضحًا يعملُ بهِ»[2] وقالَ القرطبيُّ: «ومعنَى الآيةِ أنَّهُ جَعَلَ التوراةَ لأهلِها والإنجيلَ لأهلِه، وهذا في الشرائعِ والعباداتِ، والأصلُ التوحيد لا اختلاف فيه»، مع أنّنا لا نعمَلُ بالشرائعِ السَّابقةِ لأنَّها منسوخةٌ بشريعتِنا، والعملُ إنّما يكونُ بالناسِخِ لا بالمنسوخِ، إلّا أنَّ اللهَ أوجَبَ علينا الإيمانَ بتلكَ الشرائعِ، وبالرُّسُلِ المنزَّلةِ عليهِم، لأنَّ الإيمانَ بذلكَ إيمانٌ بحقائقَ وُجدتْ، فالإيمانُ بها تصديقٌ بخبَرِ اللهِ ورسولِهِ، قالَ -عزَّ وجلَّ- مخبرًا بصفةِ إيمانِ المؤمنينَ: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾[3] فهمْ

(1) تفسير ابن جرير: 6/ 269

(2) تفسير القرطبي: 6/ 211

(3) سورة البقرة: آية 285

يؤمنونَ بجميعِ الكتبِ والرُّسُلِ، ولا يفرِّقونَ بينَهُم؛ بالإيمانِ ببعضِهِمْ والكفرِ بآخَرِينَ، وأمَرَنا بذلكَ فقالَ: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[1]

الاتِّفاقُ والاختلافُ بينَ الشرائعِ السَّماويَّة:[2]

مِنْ خلالِ دراستِنا للشرائعِ السَّماويَّةِ التي حدَّثَنا اللهُ عنها في كتابِه، وَجَدْنا أنَّ الشرائعَ السماويَّةَ تتفقُ فيما بينَها في أمورٍ، وتختلفُ في أمورٍ، وإليكَ بعضَ مواضِعِ الاتِّفاقِ والاختلاف:

الفرعُ الأوَّلُ- مواضعُ الاتِّفاق:

ممّا تتفقُ الشرائعُ السماويَّةُ فيما بينَها فيهِ ما يأتي:

مصدرها: فهيَ منزَّلَةٌ منْ عندِ اللهِ الواحدِ الأحدِ، قالَ -عزَّ وجلَّ-: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾[3]

1. **مقصدها**: فمقصدُ الشرائعِ تعبيدُ الناسِ لربِّهم، قالَ -عزَّ وجلَّ-: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾[4] وتعبيدُهم بما يشرِّعُ منْ تكاليفَ وأحكامٍ فيلتزمونَ بها عنْ رضًا وطواعيةً.
2. **القواعدُ العامَّةُ**: ومنْ مواضِعِ الاتِّفاقِ أنَّ الشرائعَ السَّماويَّة تقرِّرُ القواعدَ العامَّةَ

---

(1) سورة البقرة: آية 136

(2) عمر سليمان الأشقر: خصائصُ الشريعةِ الإسلاميَّةِ، طبعةُ دارِ النفائس-عمان (ص 22-26)

(3) سورة النساء: الآية 163

(4) سورة الأنبياء: الآية 25

التي لا بدَّ أنْ تعيَها البشريَّةُ في مختلِفِ العصورِ، كقاعدةِ الثوابِ والعقابِ، وهيَ أنَّ الإنسانَ يحاسَبُ بعملِهِ، فيُعاقَبُ بذنوبِهِ وأوزارِه، ولا يُؤاخَذُ بجريرةِ غيرِه، ويُثابُ بسَعيِه، وليسَ لهُ سعيُ غيرِه، قالَ -عزَّ وجلَّ-: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ * وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ * أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ * وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ﴾[1] ومنَ المبادئِ التي لمْ تختلفْ منْ شريعةٍ لأخرَى: العدلُ؛ فكلُّ الشرائعِ أمَرَتْ بالعدلِ والقِسطِ، قالَ -عزَّ وجلَّ-: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾[2].

3. **والعبادات المهمَّة**: لا تكادُ تخلو منها شريعةٌ منَ الشرائعِ، كالصَّلاةِ والزكاةِ والصَّومِ والحجِّ، فالقرآنُ يحدِّثنا عنْ إسماعيلَ، فيقولُ: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾[3]، وأمَرَ اللهُ موسَى بالصَّلاةِ: ﴿فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾[4]، والصِّيامُ كتبَهُ اللهُ علينا وعلى الأممِ مِنْ قَبلِنا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[5]، وفُرِضَ الحجُّ على لسانِ إبراهيمَ -عليهِ السَّلامُ- وأَمَرَهُ بأنْ يأمرَ الناسَ بالحجِّ: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِالحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً﴾[6] وأخبرَنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- عمّا جعلَهُ لكلِّ أمَّةٍ: ﴿وَلِكُلِّ

(1) سورة النجم: الآية (36-41)

(2) سورة الحديد: الآية 25

(3) سورة مريم: الآية 55

(4) سورة طه: الآية 14

(5) سورة البقرة: الآية 183

(6) سورة الحجّ: الآية 27

أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكٗا لِّيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ﴾[1]، وعقّبَ على ذلك بقوله: ﴿فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ﴾[2].

5. **وقد تتّفقُ الشرائعُ في بعضِ الأمورِ الجُزئيَّةِ**: فقد شرَعَ اللهُ في صلاةِ مَن قبلَنا القيامَ والركوعَ والسجودَ، فمِمّا خُوطِبَتْ بهِ مريمُ –عليها السَّلامُ–: ﴿يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾[3]

وأخبرَنا رسولُنا محمَّدٌ –صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ– أنَّ الملائكةَ عندما قبَضَتْ روحَ آدمَ –عليهِ السَّلامُ– غسّلتْهُ وحنَّطتْهُ وكفَّنتْهُ وصلَّتْ عليهِ، وحفرَتْ لهُ قبرَهُ، ولَحَدَتْ لهُ فيهِ، ودفنتهُ، وقالتْ لبَنيهِ: «يا بَني آدمَ هذهِ سُنَتُكم»[4]. فلا يُتصوَّرُ أن تختلفَ الشرائعُ في هذهِ السُّنَنِ التي علَّمتْها الملائكةُ بني آدمَ حينَ دَفَنوا أباهم –عليهِ الصلاةُ والسَّلامُ–، لقولِهم لهم: «هذهِ سُنَتكم». ومِمّا يدلِّلُ على صحَّةِ ذلكَ أنَّ هذا الهَدْيَ هوَ الهَدْيُ الذي جاءَتْ بهِ الشريعةُ الإسلاميَّةُ الخاتمةُ، أمّا حرقُ جثثِ الأمواتِ أو تركُها للطيورِ تأكلُها، فهوُ انحرافٌ عمّا شرَعَهُ اللهُ لبني آدمَ، ومِن ذلكَ أنَّ اللهَ أمَرَ آدمَ بعدَ خَلقِهِ أنْ يذهبَ إلى جَمْعٍ منَ الملائكةِ جلوسٌ، وأمَرَهُ بالتسليمِ عليهِم، فجاءَهم فقالَ: «السَّلامُ عليكُم، فقالوا له: وعليكمُ السَّلامُ ورحمةُ اللهِ»، فلمّا رجَعَ إلى ربِّهِ قالَ لهُ: «إنَّ هَذِهِ تَحِيَّتُك وتَحِيَّةُ بَنِيكَ بَيْنَهُم».[5] ولا شكَّ أنَّ الشرائعَ كلَّها أمرَتْ أتباعَها بهذهِ التحيّةِ، وهيِ التحيَّةُ التي جاءَتْنا بها شريعتُنا.

---

(1) سورة الحجّ: الآية 34

(2) سورة الحج: الآية 34

(3) سورة آل عمران: آية 43

(4) مسند الإمام أحمد: 35/ 162-163 ورقمه 21240

(5) أخرجه الترمذي برقم 3328 واللفظ له، والبيهقي في الأسماء والصفات: ص (324-325)، وقال الترمذي حسن غريب، وقال الحاكم صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

الفرعُ الثاني: مواضعُ الاختلافِ بين الشرائع

من اختلافِ الشرائعِ ضيقُ بعضِها وسَعَةُ بعضِها الآخرِ، وبعضُ الشرائع تتّصِفُ بالديمومةِ والبقاءِ، وهيَ الشريعةُ الخاتمةُ، بينما الشرائعُ الأخرى شرائعُ محدّدةٌ ببعضِ الأزمنةِ والأوقاتِ.

وقدْ تُحِلُّ بعضُ الشرائعِ أموراً تحرِّمُها شريعةٌ أخرى، فقدْ أباحَ اللهُ لآدمَ أنْ يزوِّجَ بناتِه مِن بَنيهِ، لأنَّهُ لا يوجدُ غيرُهم فوقَ ظهرِ الأرضِ في ذلكِ الوقتِ، ثمَّ حُرِّمَ ذلك بعدُ.

ومنَ الاختلافِ في الشرائعِ عددُ الصلواتِ، فالصَّلواتُ الواجبةُ على بني إسرائيلَ صلاتانِ، وعندَنا نحنُ المسلمينَ خمسُ صلَواتٍ، وكانَ يُباحُ لبني إسرائيلَ الطعامُ والشرابُ والنكاحُ في ليلِ الصِّيامِ إلى الفجرِ، ما لم يَنَمْ أحدُهم، فإنْ نامَ قبلَ الفجرِ حَرُمَ عليهِ ذلكَ كلُّه، ولو لَمْ يطلُعِ الفجرُ، وكانَ سترُ العورةِ غيرَ واجبٍ على الرجالِ منْ بني إسرائيلَ، فقدْ كانوا يغتسِلونَ عُراةً، ينظُرُ بعضُهُم إلى بعضٍ، وحُرِّمَ ذلكَ في شريعتِنا، والحديثُ الذي أخبرَنا الرسولُ -صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ- فيهِ بهذا مِنْ أمرِهم رواه البخاري ومسلم[1].

وكانَ التسَرِّي على الزوجةِ مباحًا في شريعةِ إبراهيمَ، وقدْ فعلَهُ إبراهيمُ في هاجرَ لمَّا تَسَرَّى بها على سارةَ، وقدْ حُرِّمَ مثلُ هذا في التوراةِ على بني إسرائيلَ، وكذلكَ كانَ الجمعُ بينَ الأختَينِ سائغًا، وقدْ فعلَه يعقوبُ -عليهِ الصلاةُ والسَّلامُ-، ثمّ حرَّمَهُ عليهِم في التوراةِ، وحَرَّمَ يعقوبُ على نفسِهِ لحومَ الإبلِ وألبانَ الإبلِ[2].

---

(1) انظر صحيح البخاري: 278 وصحيح مسلم 339.

(2) تفسير ابن كثير: 2/ 73

والسببُ في ذلكَ كما ثبَتَ في الحديث: «أنَّ إسرائيلَ؛ يعقوبَ -عليهِ السَّلامُ- مرِضَ مرَضًا شديدًا وطالَ سَقَمُه، فنَذَرَ للهِ نذْرًا، لَئِنْ شفاهُ اللهُ -عزّ وجلَّ- مِن سَقَمِه ليُحَرِّمَنَّ أَحَبَّ الشَّرابِ إليه، وأَحَبَّ الطَّعامِ إليه، وكان أَحَبُّ الطَّعامِ إليه لُحمانَ الإبلِ، وأَحَبُّ الشَّرابِ إليه ألبانُها»[1] وهذا الذي حرّمَه إسرائيلُ حرَّمَهُ اللهُ على بني إسرائيلَ، وحُرّم في التوراة، قال -عزّ وجلّ-: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ﴾[2].

وممّا حرّمهُ اللهُ على اليهودِ ما قصَّه علينا في سورةِ الأنعام: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾[3].

وحَرَّمَ اللهُ عليهِم كلَّ ذي ظُفُرٍ، وهوَ البهائمُ والطيرُ، ما لمْ يكنْ مشقوقَ الأصابعِ، كالإبلِ والنعائمِ والإوَزِّ والبط، وحرّم عليهِم شحومَ البقَرِ والغنمِ، إلَّا الشحمَ الذي على ظهورِ البقرِ والغنمِ، أو ما حملتِ الحوايا، وهو ما تحوَّى في البطنِ، وهي المَباعِرُ والمرابِضُ، أو ما اختلطَ بعظمٍ.

وهذا التحريمُ لمْ يكنْ سببُهُ خبثَ المحرَّمِ، إنّما سببُهُ التزامٌ منْ أبيهم يعقوبَ ببعضِ المحرَّماتِ، فألزَمَ أبناءَهُ منْ بعدِه بمثلِ ذلكَ، وبعضُ المحرّماتِ سببُه ظُلْمُ بني إسرائيلَ، قالَ اللهُ -عزّ وجلّ-: ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ﴾[4]، وقال: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ

(1) رواه أحمد في مسنده: 4/ 277-278 (2471)

(2) سورة آل عمران: الآية 93

(3) سورة الأنعام: الآية 146

(4) سورة الأنعام: الآية 146

الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللهِ كَثِيرًا﴾[1]، ثمّ جاءَ عيسَى فأحلَّ لبني إسرائيلَ بعضَ ما حُرِّم عليهِم، ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾[2]، وجاءتِ الشريعةُ الخاتمةُ لتكونَ القاعدةُ إحلالَ الطيّباتِ وتحريمَ الخبائِثِ.

ونختمُ هذا المبحثَ في تِبيانِ بُطلانِ دعوَى اليهودِ والنصارَى أنَّ الشريعةَ الإسلاميةَ مستمدَّةٌ منَ التوراةِ والإنجيلِ.

فاليهودُ والنصارَى والعديدُ من المستشرقينَ يدَّعونَ زورًا وبهتانًا وكذِبًا أنَّ الشريعةَ الإسلاميةَ مستمدّةٌ من التلمودِ والتوراةِ والإنجيلِ، ويقولُ المستشرقُ بوسْكَه: «إنّ الكاتِبينَ استطاعوا أن يبيِّنُوا فيما يتعلَّقُ بالاقتباساتِ الماديّةِ أنَّ هناكَ تأثيراً منَ التلمودِ على الفِقه»[3].

وصوَّبَ قولَ (لامِنس) بخصوصِ يهودِ المدينةِ المنوَّرةِ: « إنّنا نعتقدُ بدخولِ قسمٍ منْ هؤلاءِ الأشقياءِ في صفوفِ الإسلام، ولقدْ كانَ لهؤلاءِ المرتدِّينَ (يعني تاركي اليهوديةِ) ولذُرِّيَّاتِهِم النصيبُ الرئيسُ في إعدادِ التشريعاتِ الإسلاميَّةِ وتكوينِ الشريعةِ، حيثُ لا يمكنُ إنكارُ التأثيرِ التلموديِّ فيه»[4].

وخلَصَ (بوسْكَه) إلى القولِ: «وآخِرُ ما أقولُ هو أنّ اليهوديةَ لها تأثيرٌ عظيمٌ جدًّا على تكوينِ الإسلامِ في عصرِ محمَّدٍ، وبشكلٍ إجماليٍّ يبدو لي واضحًا تمامًا أنَّ التشابهَ بينَ اليهوديَّةِ والإسلامِ، بعدما تطوَّرا، أكثرُ لفتًا للانتباهِ من كلِّ وجهاتِ النظرِ

(1) سورة النساء: الآية 160

(2) سورة آل عمران: الآية 50

(3) كتاب هل للقانون الرومي تأثير على الفقه الإسلامي، ص 73

(4) المصدر السابق: ص 82

من نقاطِ التشابهِ التي تُوجَدُ في الإسلامِ والمسيحيَّة، ولربّما أمكَنَ، بالنسبةِ لبعض الاعتبارات، أن نحدّدَ الإسلامَ على أنّه يهوديّةٌ ذاتُ نزعةٍ عالميّة»[1].

ويقول (غولدتسيهر): «تبشيرُ النبيِّ العربيِّ ليسَ إلّا مزيجاً منتخَباً من معارفَ وآراءٍ دينيةٍ، عرفَها واستقاها بسببِ اتِّصالِه بالعناصرِ اليهوديَّةِ والمسيحيَّةِ، وغيرِها التي تأثّرَ بها تأثّرًا عميقًا»[2]. ويرى المستشرق (دارست) أنّ: «الفقهاءَ المسلمين اعتمدوا على القوانينِ العربيةِ القديمةِ التي قامَ بتعديلِها وتصحيحِها النبيُّ محمَّدٌ، وأنَّ هذه تطوَّرتْ بتأثيرِ اليهوديَّةِ والنصرانيّة»[3].

الردّ على المشكّكين:

إنّ هذهِ الدعوى متهافتةٌ لا تثبتُ أمامَ البحثِ العلميِّ، فمِن أينَ لنبيِّنا -صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ- أنْ يعلمَ شريعةَ التوراةِ والإنجيلِ، وهوَ النبيُّ الأميُّ الذي لمْ يخطَّ بالقلمِ، ولمْ يقرأْ في كتابٍ، ولمْ يجالِسْ أيَّ كُتّابٍ؟!. كأنَّ الذينَ يرمُونَ بهذهِ الأقوالِ يزعُمونَ أنّ رسولَنا -صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ- كانَ قد درسَ علومَ السابِقينَ، وتخرَّجَ في أعظمِ الجامعاتِ، ولا أظنُّ إلّا أنّهمْ كانوا يُدركونَ الحقيقةَ، ولكنّهم يتعامَونَ عنها، عن سبقِ إصرارٍ وقصدٍ.

أمّا نقاطُ التشابُهِ التي احتجُّوا بها على أنَّ مصدرَ التشريعِ الإسلاميِّ هو التوراةُ والإنجيلُ، فهيَ أعظمُ دليلٍ على أنَّ هذا التشريعَ من عندِ اللهِ، إذ كيفَ يتسنّى للنبيِّ العربيِّ الأمّيِّ أنْ يأتيَ بتشريعٍ يتفقُ في قواعدِه وأصولِه معَ الشرائعِ السماويةِ السابقةِ،

---

(1) المصدر السابق: ص 84

(2) القانون الروماني والشريعة الإسلامية: ص 37

(3) القانون الروماني والشريعة الإسلامية: ص 43

ويصحّحُ لليهودِ والنصارَى كثيرًا من تحريفاتِهم وأغلاطِهم في شرائعِهم، ويذكرُ كثيرًا منَ الأحكامِ التي يخفيها أحبارُهم ورهبانُهم؟! فقد أقرَّ كثيرٌ من علماءِ اليهودِ والنصارى بالحقِّ، وسالتْ دموعُ فريقٍ منهم عندما استمعُوا إلى القرآنِ الكريمِ، لأنهم رأَوا نورَ الحقِّ يسطَعُ من آياتِ القرآنِ وسُوَرِه، قالَ اللهُ -عزَّ وجلَّ-: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾[1]

وهنا قد يتساءَلُ العاقلُ لماذا يسيءُ النصارى واليهودُ إلى رموزِ الإسلامِ ومقدساتِه، وإلى رسولِ الإسلامِ وخاتمِ الأنبياءِ -صلّى اللهُ عليهِ وسلّمِ- في الوقتِ الذي لم تصدُرْ أدنَى إساءَةٍ من أيِّ مسلمٍ على امتدادِ التاريخِ إلى أيِّ نبيٍّ أو رسولٍ أو رمزٍ من رموزِ اليهوديةِ أو النصرانية؟ لماذا؟

لأنّنا، وببساطةٍ شديدةٍ، نحنُ -أبناءَ الشريعةِ الإسلاميةِ والمدرسةِ القرآنيَّةِ النبويّةِ نُقرُّ بالِاصطفاءِ الأسمَى والعظَمَةِ والقداسةِ والاحترامِ والتوقيرِ لجميعِ الأنبياءِ والمرسلينَ، ولجميعِ الكتبِ السماويةِ، ولسائرِ الرموزِ المقدّسةِ في جميعِ الرسالاتِ والشرائعِ السماويةِ، فكلُّ الأنبياءِ والمرسلينَ همُ الصفوةُ من عبادِ الله الأخيارِ الذينَ اصطفاهُم واستخلَصَهم وصنَعَهم على عَينِه، وعصَمَهم من كلِّ ما يُنفِّرُ أو يَشِينُ، وهذا ما نؤمنُ بهِ إيمانًا قاطعًا جازمًا، لا لُبسَ فيه، منذُ أنْ بعثَ اللهُ سيدَنا محمَّداً -صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ- وحتّى يومِنا هذا، أمّا الآخرُ، والذي نحنُ بصددِ الكشفِ عن خفايا حقيقتِه بطريقةٍ بحثيةٍ علميةٍ هادفةٍ غيرِ متحيِّزةٍ عبرَ هذا البحثِ والدراسة:

(1) سورة المائدة: آية 83

فهوَ ينتمِي إلى مدرسةِ نفْيِ الآخَرِ، واستعبادِ الأغيارِ وازدرائِهم، لأنَّ البقاءَ والاِصطفاءَ لا يكونُ إلّا لشعبِ اللهِ المختارِ! وهذا بالطبعِ ما أنتجَتْهُ العقولُ المريضةُ وأيدي الكهنةِ والحاخاماتِ الذين خطُّوا أسفارَ العهدِ القديمِ التي تكوَّنتْ من شرائعَ تراثيةٍ يهوديةٍ مصطنعةٍ، فكوَّنتْ فلسفةً نفسيّةً مريضةً ترسَّختْ في عقولِ اليهودِ والنصارى.

إنّ شريعةَ الغابِ التي شكّلَتها مدرسةُ العهدِ القديمِ لا تعترفُ بأيِّ قداسةٍ أو عِصمةٍ أو احترامٍ أو توقيرٍ لرسولٍ أو نبيٍّ، ولا للملائكةِ ولا حتّى للهِ الواحدِ الأحدِ الذي لمْ يلدْ ولمْ يولدْ، بلْ على العكسِ من ذلكَ، فشرائعُ التراثِ اليهوديةُ تقدِّمُ صورةً بائسةً ومزريةً وخسيسةً ووضيعةً تأنَفُ منها فطرةُ الأسوياءِ منَ البشرِ، فالأنبياءُ، عندَ أهلِ شريعةِ الغابِ من يهودٍ ونصارَى، ما هم إلّا فسَقةٌ وفجَرةٌ، وزناةٌ أبناءُ زنىً، ومتلصِّصينَ على العَوراتِ والحُرُماتِ. والأنبياءُ والرسلُ عندَهم كذّابونَ متآمرونَ قتلةٌ ومجرمونَ ومتخلّقونَ بأخلاقِ الدَّياثةِ بحثًا عن سُحتِ الدنيا وعرَضها.. والمُحزنُ أنَّ تلكَ الصِّفاتِ القبيحةَ والأفعالَ المَرذولةَ يُلصِقُها حاخاماتٌ وكهنةُ شريعةِ الغابِ بالأنبياءِ والمرسَلينَ الذينَ يؤمِنُ بهِمُ اليهودُ والنصارَى، وما دامت تلكَ جذورَ شرائعِ التراثِ اليهوديِّ التي كوّنتِ النظرةَ إلى الأنبياءِ والمرسلينَ الذينَ يؤمنونَ بهِم، فهلْ نستغربُ أنْ يُعَمِّمُوا تلكَ النظرةَ والفلسفةَ والثقافةَ المريضةَ في نظرتِهم إلى شريعةِ اللهِ التي خَتمَ بها المصطفى -صلواتُ اللهِ عليهِ وسلامُه- الشرائعَ والرسالاتِ كافةً؟!.

المبحث الثاني: الشريعة الإسلاميّة (خاتمة البدايات)

في البَدءِ، وقبلَ الشريعةِ الإسلاميةِ الربانيةِ خاتمةِ الشرائعِ السماويّةِ، كانتِ الجماعاتُ البشريّةُ الأولى تعيشُ منعزلةً بعضُها عن بعضٍ في بيئاتِها الطبيعيةِ، تتآلَفُ مع هذه البيئاتِ بتجارِبِها، وتنمُو وترتقي بالتدريجِ أفكارُها، إذ ينمُو العقلُ البشريُّ كذلكَ بالتدريجِ خلالَ هذهِ التجارِبِ، وكانتْ هذهِ الجماعاتُ تتطوَّرُ معَ الزمنِ، وينتهي بعضُها إلى أن يؤلِّفَ قومًا أو أمّةً، ويبقى بعضُها محدودًا.

وقضتْ حكمةُ اللهِ -عزَّ وجلَّ- منذُ نشوءِ أوّلِ جماعةٍ بشريّةٍ لخلقِ آدمَ -عليهِ السَّلامُ-، أنْ يرسِلَ في كلِّ جماعةٍ أو أمّةٍ رسولًا يدعوهم إلى عبادةِ اللهِ وحدَه، ويأمرُهم بمكارمِ الأخلاقِ، ومحاسنِ العاداتِ، وينهاهُم عن قبيحِها.

ويكونُ الوحيُ الإلهيُّ أو النبوةُ مصدرًا أساسيًّا إلى جانبِ العقلِ لمعرفةِ الحقيقةِ وسلوكِ طريقِ الخيرِ، ولا سيّما الحقيقةُ الأساسيةُ الكبرى، التي هيَ: عبادةُ اللهِ الخالقِ الواحدِ الأحدِ، المحرِّرةُ للإنسانِ منَ الخضوعِ لجميعِ الأشياءِ الأخرَى، وكلُّها لا تستحقُّ هذا الخضوعَ والارتباطَ، قالَ المولَى -عزَّ وجلَّ- في مُحكمِ التنزيلِ: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾[1]، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[2]

وما إنْ تطوّرتِ البشريّةُ وارتقَى العقلُ، والتقتِ الجماعاتُ والأقوامُ والشعوبُ،

(1) سورة فاطر: الآية 24

(2) سورة النحل: الآية 36

حتّى قضى اللهُ -عزَّ وجلَّ- بظهورِ نبوّةٍ متفقةٍ معَ النبوّاتِ السابقةِ من حيثُ طبيعتُها، ومختلفةٌ عنها من حيثُ سعةُ أفقِها ومَداها، ومن حيثُ خصائصُها ومستواها المناسبِ لمرحلةِ التطوّرِ البشريِّ الأخيرةِ، وهيَ نبوّةُ سيِّدِنا محمَّدٍ -صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ- التي خُتمتْ بها النبوّاتُ، وبتعاليمِها وشريعتِها خُتمتِ الشرائعُ التي جاءتْ بها السنواتُ السابقةُ لنبوّةِ سيدِنا محمَّدٍ -صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ- أيْ أنَّ الإسلامَ قد نَسَخَ ما كانَ قبلَه منَ الشرائع.

ومن المسلَّمِ بهِ أنَّ عددًا كثيرًا لا يُحصَى منَ النبوّاتِ سَبقَتْ نُبوَّةَ محمَّدٍ -صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ- إلّا أنّ المعروفَ من هذهِ النبوّاتِ جزءٌ قليلٌ جدًّا، وقد قالَ اللهُ -عزَّ وجلَّ- في القرآنِ الكريمِ عنِ الأنبياء-عليهمُ الصلاةُ والسلامُ-: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾[1]، فإذا عرفنا أنّ جميعَ الأممِ قدْ جاءَهم رسولٌ منَ اللهِ، كما ينصُّ على ذلكَ القرآنُ الكريمُ، وأنَّ المذكورَ منهُم (خمسة وعشرون)، وجدْنا أنَّ هناكَ عددًا كبيرًا منَ الأنبياءِ لا نعرفُهم، ولمْ يذكرْهُمُ القرآنُ الكريمُ، ولوجَدنا أيضًا أنَّ الأنبياءَ -من حيثُ أصلُ نبوَّتِهم- متساوونَ في صِلَةِ الوَحيِ والاتّصالِ بطريقٍ غيبيٍّ روحيٍّ بالحقيقةِ الإلهيَّةِ، ولذلكَ وجبَ عدمُ التفريقِ بينَهُم من ناحيةِ الأصلِ وطبيعةِ الرسالةِ والكرامةِ التي خصَّهُمُ اللهُ بها منَ النبوَّةِ، قالَ -عزَّ وجلَّ-: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾[2]، وإن كانوا متفاوتِينَ في سَعَةِ رسالتِهم ومُدَّتِها ومقدارِ عُمومِها وشُمولِها، قالَ -عزَّ وجلَّ-: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾[3].

(1) سورة النساء: الآية 164

(2) سورة البقرة: الآية 285

(3) سورة البقرة: الآية 253

فالنبوّاتُ السابقةُ لنبوَّةِ سيِّدِنا محمَّدٍ خاتمِ المرسلين -صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ- كانت رسالتُها خاصّةً بجماعةٍ أو قومٍ، مناسِبةٍ لحالِهم وموافقةٍ لبيئَتِهم ومُستواهُم؛ لذلكَ فمِمّا يجبُ عدمُ إغفالِه أنّ خطابَ جميعِ الأنبياءِ في القرآنِ الكريمِ موجَّهٌ إلى أقوامِهم، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ﴾[1]، ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ...﴾[2]، ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ﴾[3]، ﴿وإذ قالَ عيسَى ابنُ مريمَ يا بَني إسرائيلَ إني رسولُ اللهِ إلَيكم﴾[4].

ولَمْ يسبقْ للأنبياءِ السابقينَ قَبلَ محمَّدٍ -صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ- أنِ ادَّعَوا أنَّ رسالتَهم عامّةٌ للبشرِ، أو أنّهُم دعَوا أممَ الأرضِ كما فعلَ محمّدٌ -صلّى اللهُ عليهِ وسلَّم-.

وهنا ننوّهُ إلى أنَّ الاعتباراتِ الخاصَّةَ -الزمانيةَ والمحليةَ- غالبةٌ في أحكامِ هذهِ النبوّاتِ على الاعتباراتِ العامّةِ والإنسانيّةِ، فإنَّ أحكامَها خاصَّةٌ بزمنٍ معيَّنٍ وبجماعةٍ معيَّنةٍ.

ولذلك لا يُشترَطُ أنْ تكونَ أحكامُها موافقةً للفطرةِ الإنسانيةِ الخالدةِ، لأنّها جاءتْ لمدةٍ محدودةٍ وبيئةٍ معيّنةٍ، فقد تكونُ علاجًا لحالاتٍ شاذَّةٍ، أو متَّصفةً بصفةِ العقوبة.

وقد أشارَ القرآنُ الكريمُ إلى هذا المعنَى في قولِه: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ

(1) سورة الأعراف: الآية 59

(2) سورة الأعراف: الآية 65

(3) سورة الصف: الآية 5

(4) سورة الصف: الآية 6

ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾[1]، وفي قوله: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللهِ كَثِيرًا﴾[2].

ولذلكَ كانتْ تُصاغُ أكثرُ الأحكامِ بصيغةِ أوامرَ جازمةٍ دونَ تعليلٍ، خلافًا لتعاليمِ الرسالةِ والشريعةِ الربانيةِ الخاتمةِ، ففي أكثرِها تعليلٌ للأحكامِ وبيانٌ لحِكمتها.

فمِن خلالِ رسالةِ سيِّدِنا محمَّدٍ –صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ– انتهى ذلكَ الطورُ الذي كانتْ فيهِ النبوّاتُ مناسبةً لحالةٍ معيّنةٍ أو بيئةٍ أو جماعةٍ، وبدأُ العهدُ الذي برَزَتْ فيهِ العناصرُ الإنسانيةُ المشتركةُ بينَ البشرِ، على اختلافِ أقوامِهم وعصورِهم، فجاءتْ أحكامُ هذهِ الرسالةِ غيرَ خاصّةٍ بطَورٍ من أطوارِ البشريّةِ، بل موافقةً للفطرةِ الإنسانيّةِ بوجهٍ عامٍّ.

لذلكَ كانتْ هذهِ الرسالةُ خالدةً مستمرّةً، لأنّها اشتملتْ على ما في تعاليمِ النبوّاتِ السابقاتِ من مبادئَ جوهريّةٍ ثابتةٍ في العقيدةِ والأخلاقِ، ونسختْ ما كانَ فيها من تشريعاتٍ مؤقَّتةٍ وأحكامٍ عارضةٍ لا تتوافقُ مع فطرةِ الإنسانِ الدائمةِ، وقد وردَ في القرآنِ الكريمِ في وصفِ خاتَمِ النبيِّينَ ما يشيرُ إلى هذا المعنى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾[3].

(1) سورة الأنعام: الآية 146

(2) سورة النساء: الآية 160

(3) سورة الأعراف: الآية 157

خاتمة البدايات

ومفادُها أنَّ الإسلامَ الذي نزلَ في صورتِه الأولى على آدمَ -عليهِ السَّلامُ-، ونزلَ على محمَّدٍ -صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ- في صورتِهِ الأخيرةِ التي أوحَى اللهُ بها إلى خاتمِ أنبيائِه، الرسالةَ الإلهيّةَ الخاتمةَ والشريعةَ الربّانيّةَ، التي نَسختِ الدياناتِ الإلهيّةَ السماويةَ السابقةَ وما تضمَّنتهُ كُتُبُها من تعاليمَ بالكتابِ الخالدِ، الذي تعهَّدَ اللهُ بحفظهِ، دونَ غيرِه، وهو القرآنُ المُوحَى بهِ لخاتَمِ المرسلينَ، قالَ -عزَّ وجلَّ-: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾(1).

(1) سورة الحجر: الآية 9

المبحثُ الثالثُ: بشريَّةُ الرُّسُلِ وألوهيَّةُ الوحي

أولا- بشريّة الرسل

شاءتِ الحكمةُ الربّانيَّةُ أن يكونَ الرسُلُ الذينَ يرسِلُهُمُ المَولَى -عزَّ وجلَّ -إلى البشرِ منَ البشرِ أنفسِهم، قالَ -عزَّ وجلَّ-: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾(1)

وإنّ الاصطفاءَ الربّانِيَّ لبعضِ البشرِ لتحمُّلِ أمانةِ الرسالةِ التي أشفقتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ والأرضُ والجبالُ من حَملها، يعودُ إلى أنّ اللهَ -عزَّ وجلَّ- قد أهَّلَهم لتحمُّلِ تلك الأمانةِ العظيمةِ بكلِّ قدرةٍ واقتدارٍ، رغمُ ما فيها من مشاقٍّ وآلامٍ، قالَ -عزَّ وجلَّ-: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾(2)

فهُم بشرٌ يأكلونَ ويشربونَ، وينامونَ ويتزوّجون، ويمشُونَ في الأرضِ لتلبيةِ احتياجاتِهم، إلّا أنّ النظرَ إليهم يجبُ ألّا يقتصرَ على مظهرِهمُ الخارجيِّ الإنسانيِّ البشريِّ، بلْ يجبُ أن يتمَّ النظرُ إلى ما هوَ أبعدُ من ذلك بكثيرٍ، حيثُ يكمنُ الجوهرُ، وتكمُنُ الروحُ التي هي نفحةٌ من رُوحِ اللهِ -عزَّ وجلَّ-، فبهذهِ الروحِ تميَّزَ الإنسانُ،

(1) سورة الكهف: الآية 110

(2) سورة الأحزاب: الآية 72

وصار إنسانًا واستُخلفَ في الأرضِ، وقد أودَعَهُ اللهُ الاستعدادَ للاتّصالِ بهِ عن طريقِ تلكَ المَلَكَةِ والنفحةِ الإلهيّةِ التي مَيَّزَتهُ، فلا عجبَ أنْ يصطفيَ اللهُ واحدًا من هذا الجنسِ البشريِّ، صاحِبِ الاستعدادِ لتلقِّي الرسالةِ الربانيَّةِ، و يوحيَ إليهِ ما يُهدَى بهِ إلى طريقِ الصَّلاحِ والإصلاحِ، وما يقدِّمُ بهِ العَونُ لمَن هم بحاجةٍ إلى العَونِ.[1] قالَ-عزَّ وجلَّ-: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾[2]، وقالَ -عزَّ وجلَّ-: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾[3].

ثمّ إنّ الرُّسُلَ يُعَدُّونَ إعدادًا فريدًا وخاصًّا لتحمُّلِ أعباءِ النبوّةِ والرِّسالةِ، ويُصنعونَ صُنعًا متمايزًا عن غيرِهم منَ البشرِ، قالَ -عزَّ وجلَّ-: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾[4].

وهذا حالُ نبيِّنا المصطفى -صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ- الذي رعاه اللهُ وأحاطَه بعِنايتِه على الرُّغمِ من يُتمِهِ وفقرِه، قالَ -عزَّ وجلَّ-: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ * وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ * وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾[5].

وقد زكّاه وطهّره وأذهبَ عنه رجسَ الشيطان، وأخرج منه حظّ الشيطان منذ أن كان صغيرًا؛ فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ: أَنَّ رَسُولَ اللّهِ ﷺ أَتَاهُ جِبْرِيلُ - اللهُ عليهِ وسلمَ- وَهُوَ يَلْعَبُ مَعَ الْغِلْمَانِ، فَأَخَذَهُ فَصرَعَهُ، فَشَقَّ عَنْ قَلْبِهِ، فَاسْتَخْرَجَ الْقَلْبَ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ عَلَقَةً. فَقَالَ: هذَا حَظُّ الشَّيْطَانِ مِنْكَ، ثُمَّ غَسَلَهُ فِي طَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ بِمَاءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ

(1) في ظلال القرآن: 19/ 2552
(2) سورة الحجر: الآية 29
(3) سورة إبراهيم: الآية 11
(4) سورة طه: الآية 41.. 86 سورة الضحى: الآيات (6-8)
(5)

لأَمه، ثُمَّ أَعَادَهُ فِي مَكَانِهِ.»[1].

وحدث قريبٌ من هذا عندما جاءَه جبريلُ يُهيِّئُه للرحلة الكبرى، للخروجِ به إلى ٱلسَّمَاوَاتِ العُلَى، ففي حديثِ الإسراء: «فُرِجَ سقفُ بيتي وأنا بمكّةَ، فنزلَ جبريلُ –صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ– ففرجَ صدري ثمّ غَسلَه من ماءِ زمزمَ، ثمَّ جاءَ بِطَسْتٍ مِنْ ذهَبٍ ممتلئٍ حكمةً وإيمانًا فأفرغَها في صدري، ثمَّ أطبقَه،...» متّفق عليه[2].

ومنَ الجديرِ بالذكرِ هنا أنّه قد كثُرَ اعتراضُ أعداءِ الرسلِ على بعثةِ الرسلِ منَ البشرِ، وكان هذا الأمرُ من أعظمِ ما صدَّ الناسَ عنِ الإيمان: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾[3]، وعدُّوا اتّباعَ الرسُلِ بسببِ كونِهم بشرًا فيما جاؤوا بهِ من عقائدَ وشرائعَ أمرًا قبيحًا، وعدُّوه خُسرانًا مبينًا: ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾[4].

وقدِ اقترحَ أعداءُ الرُّسُلِ أنْ يكونَ الرُّسُلُ الذين يُبعثونَ إليهم منَ الملائكةِ، يعاينونَهم ويشاهدونَهم، أو على الأقلِّ يُبعَثُ معَ الرَّسولِ البشريِّ رسولٌ من الملائكة، قالَ –عزَّ وجلَّ–: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾[5]، ﴿وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا﴾[6] وعندما نتأمّلُ النصوصَ القرآنيةَ يمكننا أن نردَّ على هذهِ

(1) صحيح مسلم: 162

(2) صحيح البخاري: 349، وصحيح مسلم: 263، واللفظ لمسلم.

(3) سورة الإسراء: الآية 94

(4) سورة المؤمنون: الآية 34

(5) سورة الفرقان: الآية 21

(6) سورة الفرقان: الآية 7

الشبهةِ من وجوهٍ عدّة[1]:

الأول– أنّ اللهَ اختارَهم بشرًا لا ملائكةً، لأنَّ ذلك أعظمُ في الابتلاءِ والاختبارِ؛ ففي الحديثِ القدُسيِّ الذي يرويه مسلمٌ في صحيحِه: «إنّما بعَثْتُكَ لأَبتلِيَك وأَبتلِيَ بك»[2].

الثاني– أنّ في هذا إكرامًا لمَن سَبقتْ لهمْ منهُ الحسنَى؛ فإنّ اختيارَ اللهِ لبعضِ عبادِه ليكونوا رسُلًا تكريمٌ وتفضيلٌ لهم، ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرائيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا..﴾[3].

الثالث– أنّ البشرَ أقدَرُ على القيادةِ والتوجيه، وهمُ الذين يَصلُحون قدوةً وأسوةً. يقول صاحبُ الظلالِ –رحمهُ اللهُ– في هذا: «وإنها لحكمةٌ تبدُو في رسالةِ واحدٍ منَ البشرِ إلى البشرِ، واحدٍ منَ البشرِ يُحِسُّ بإحساسِهم، ويتذوَّقُ مواجِدَهم، ويعاني تجارِبَهم، ويدركُ آلامَهم وآمالَهم، ويعرفُ نوازِعَهم وأشواقَهم، ويعلمُ ضروراتِهم وأثقالَهم..، ومِن ثَمَّ يعطِفُ على ضعفِهم ونقصِهم، ويرجو في قوتهم واستعلائهم، ويسيرُ بهم خطوةً خطوةً، وهو يفهَمُ بواعثَهم وتأثراتِهم واستجاباتِهم، لأنَّه في النهايةِ واحدٌ منهم، يرتادُ بهِمُ الطريقَ إلى اللهِ، بوَحْيٍ منَ اللهِ وعَونٍ منهُ على وَعثاءِ الطريق.

وهم من جانبِهم يجدونَ فيهِ القدرةَ الممكِنةَ، لأنّه بَشَرٌ مثلُهم، يتسامَى بهم رويدًا رويدًا، ويعيشُ فيهم بالأخلاقِ والأعمالِ والتكاليفِ التي يبلِّغُهُم أنَّ اللهَ قدْ فرَضَها عليهِم، وتكونُ حياتُه وحركاتُه وأعمالُه صفحةً معروضةً لهم، ينقلونَها سطرًا سطرًا،

---

(1) عمر سليمان الأشقر: الرسل والرسالات، ص (66–67)

(2) صحيح مسلم 2865

(3) سورة مريم: الآية 58

ويحققونَها معنىً معنىً، وهُم يرونَها بينَهم، فتهفو نفوسُهم إلى تقليدِها، لأنها ممثَّلةٌ في إنسانٍ»[1]

الرابع: صعوبةُ رؤيةِ الملائكةِ، فالكفارُ عندما يقترحونَ رؤيةَ الملائكة، وأنْ يكونَ الرُّسُلُ إليهم ملائكةً لا يدركونَ طبيعةَ الملائكةِ، ولا يعلَمونَ مدى المشقةِ والعناءِ اللذَين سيلحقانِ بهم من جرّاءِ ذلك.

فالاتصالُ بالملائكةِ ورؤيتُهم أمرٌ ليسَ بسهلٍ، فالرسولُ –صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ– مع كونِه أفضلَ الخلقِ، وهوَ على جانبٍ عظيمٍ من القوةِ الجسميةِ والنفسيةِ عندما رأى جبريلَ على صورتهِ أصابهُ هولٌ عظيمٌ، ورجعَ إلى منزلهِ يرجفُ فؤادُه، وقد كان –صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ– يعاني منِ اتصالِ الوحْيِ به شدَّةً، ولذلك قالَ في الردِّ عليهم: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ لا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ﴾[2]؛ ذلك أنّ الكفارَ لا يرون الملائكة إلّا حينَ الموتِ أو حينَ نزولِ العذابِ، فلو قُدِّر أنهم رأوُا الملائكةَ لكانَ ذلك اليومُ يومَ هلاكِهم.

لقد كانَ إرسالُ الرُّسُلِ منَ البشرِ ضروريًّا كي يتمكَّنوا منْ مخاطَبتِهم والفقهِ عنهم، والفهمِ منهُم، ولو بعثَ اللهُ رسلَه إليهم منَ الملائكةِ لَما أَمْكنَهُم ذلك ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللهُ بَشَرًا رَسُولًا* قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾[3]؛ فلو كانَ سكانُ الأرضِ ملائكةً لأرسلَ اللهُ إليهم رسولًا من جِنسِهم، أما وأنّ الذين يسكنونَ الأرضَ بشرٌ فرحمةُ اللهِ وحكمتُه تقتضي أن يكونَ رسولُهم مِن جِنسِهم.

---

(1) في ظلال القرآن: 19/ 2553

(2) سورة الفرقان: الآية 22

(3) سورة الإسراء: الآية 94/ 95.

وقالَ اللهُ: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾[1]

وإذا كانَ البشرُ لا يستطيعونَ رؤيةَ الملائكةِ والتلقِّي عنهم بيُسْرٍ وسهولةٍ فيقضِي هذا – لو شاءَ اللهُ أنْ يرسِلَ ملَكًا رسولًا إلى البشرِ – أنْ يجعلَه رجُلًا، قالَ –عزَّ وجلَّ–: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾[2] فاللهُ يخبِرُ أنّه «لو بعَثَ رسُولًا مَلَكِيًّا، لكانَ على هيئةِ رجلٍ، ليمكنَهم مخاطبتُه والانتفاعُ بالأخذِ عنهُ، ولو كانَ كذلكَ لالتبَسَ الأمرُ عليهم»[3].

والتباسُ الأمرِ عليهم بسببِ كونِه في صورةِ رجلٍ، فلا يستطيعونَ أنْ يتحقَّقُوا مِنْ كونِه ملكًا، وإذا كانَ الأمرُ كذلكَ فلا فائدةَ من إرسالِ الرُّسُلِ منَ الملائكةِ على هذا النحوِ، بلْ إرسالُهم منَ الملائكةِ على هذا النحوِ لا يحقِّقُ الغَرضَ المطلوبَ، لكونِ الرَّسولِ الملكِ لا يستطيعُ أنْ يُحِسَّ بإحساسِ البشرِ وعواطِفِهم وانفعالاتِهم، وإن تَشكَّلَ بأشكالِهم.

ثانيا- ألوهيَّةُ الوَحي

لقد سمَّى اللهُ –عزَّ وجلَّ– الطريقَ الذي يعلِّمُ اللهُ بهِ أنبياءَه ورُسُلَه وَحيًا، قالَ اللهُ –عزَّ وجلَّ–: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ ۚ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾[4].

(1) سورة آل عمران: الآية 164.

(2) سورة الأنعام: الآية 9.

(3) تفسير ابن كثير: 3/ 9.

(4) سورة النساء: الآية 163

والوحيُ في اللغة: الإعلامُ الخفيُّ السريعُ، مَهما اختلفتْ أسبابُه[1]، فقد يكونُ بالإلهامِ كوحيِ اللهِ إلى الحواريِّين: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي﴾[2]، وكوَحيِ اللهِ لأمِّ موسَى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾[3]، وكوَحيِ زكريّا لقومِه ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾[4].

وأكثرُ ما وردتْ كلمةُ «وحي» في القرآنِ الكريمِ بمعنَى: إخبارُ اللهِ وإعلامُه مَنِ اصطفاهُ مِنْ عبادِه كلَّ ما أرادَ إطلاعَه عليه مِن ألوانِ الهدايةِ والعلمِ بطريقةٍ سريّةٍ خفيَّةٍ غيرِ معتادةٍ للبشرِ. وللوَحيِ الإلهيِّ –الذي يعلِّمُ اللهُ بهِ رسلَه وأنبياءَه– مقاماتٌ؛ قالَ اللهُ –عزَّ وجلَّ– مبيِّنًا هذهِ المقاماتِ: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[5].

والمقاماتُ ثلاثةٌ[6]: **الأول**: الإلقاءُ في رُوعِ النبيِّ الموحَى إليه، بحيثُ لا يَمتَري النبيُّ في أنّ هذا الذي أُلقِيَ في قلبِه منَ اللهِ، كما جاءَ في صحيحِ ابنِ حِبّانَ عن رسولِ اللهِ –صلّى اللهُ عليهِ وسلّم– أنّه قال: «إنَّ روحَ القُدُسِ نَفَثَ في رُوعِي أنّ نفسًا لنْ

(1) راجع فتح الباري: 1/ 9، والمصباح المنير: 651-652

(2) سورة المائدة: الآية 111

(3) سورة القصص: الآية 7

(4) سورة مريم: الآية 11

(5) سورة الشورى: الآية 51

(6) 109 الراوي: أبو أمامة الباهلي – المحدث: الألباني – المصدر: صحيح الجامع

110 عمر سليمان الأشقر: الرسل والرسالات، ص (58–59).

111 سورة الصافات: الآيات (102–105)

112 صحيح البخاري: 6982

113 سورة الأعراف: الآية 143

تموتَ حتى تستكملَ رزقَها وأجلَها، فاتّقوا اللهَ، وأجمِلوا في الطَّلَب»[1]، وذهبَ ابنُ الجوزيِّ إلى أنَّ المُرادَ بالوحي في قولِه: ﴿إِلاَّ وَحْيًا﴾ الوحيُ في المنام[2].

رؤيا الأنبياء

وهذا الذي فَسَّرَ بهِ ابنُ الجوزيِّ منَ المقامِ الأولِ الداخلِ في الوحيِ بلا شكٍّ، فإنَّ رؤيا الأنبياءِ حقٌّ، ولذلك فإنَّ خليلَ الرحمنِ إبراهيمَ بادرَ إلى ذبحِ ولدِه عندما رأى في المنامِ أنّه يذبحُه، وعدَّ هذه الرؤيا أمرًا إلهيًّا، قالَ -عزَّ وجلَّ- في إبراهيمَ وابنِه إسماعيلَ: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَأَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ* فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ* وَنَادَيْنَاهُ أَن يَإِبْرَاهِيمُ* قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَآ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾[3].

وفي الحديثِ الذي يرويهِ الإمام البخاريُّ عنْ أمِّ المؤمنينَ عائشةَ -رضيَ اللهُ عنها- قالت: «أَوَّلُ ما بُدِئَ به رَسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِنَ الوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ في النَّوْمِ؛ فَكانَ لا يَرَى رُؤْيَا إلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ»[4].

المقامُ الثاني: تكليمُ اللهِ لرسُلِه منْ وراءِ حجابٍ، كما كلَّمَ اللهُ -عزَّ وجلَّ- موسى -عليهِ السَّلامُ-، وذكرَ اللهُ ذلكَ في سورة الأعراف: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّه﴾[5].

(1) الراوي: أبو أمامة الباهلي - المحدث : الألباني - المصدر: صحيح الجامع

(2) عمر سليمان الأشقر: الرسل والرسالات، ص (58-59)

(3) سورة الصافات: الآيات (102-105)

(4) صحيح البخاري: 6982

(5) سورة الأعراف: الآية 143

قالَ -عزَّ وجلَّ-: ﴿فَلَمَّآ أَتَاهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ * إِنِّيٓ أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى * وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ * إِنَّنِيٓ أَنَا اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِيٓ﴾[1]، وممَّن كلَّمَهُمُ اللهُ آدمُ -عليهِ السَّلامُ-: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ..﴾[2]، وكلَّمَ اللهُ عبدَه ورسولَه محمَّدًا -صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ- عندما عُرِجَ بِهِ إلى السماءِ.

المقامُ الثالثُ: الوحيُ إلى الرسولِ بواسطةِ الملَكِ: وهذا هوَ الذي يُفقَهُ من قولِهِ -عزَّ وجلَّ-: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾[3] وهذا الرسولُ هوَ جبريلُ -عليهِ السَّلامُ-، وقدْ يكونُ غيرَه، وذلكَ في أحوالٍ قليلةٍ[4].

صفةُ مجيءِ الملَكِ إلى الرسولِ

بالتأملِ في النصوصِ في هذا الموضوعِ نجدُ أنَّ للملَكِ ثلاثُ أحوالٍ[5]:

الأولى: أنْ يراهُ الرسولُ -صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ- على صورتِه التي خلقَهُ اللهُ عليها، ولمْ يحدثْ هذا لرسولِنا محمَّدٍ -صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ- إلّا مرَّتَين.

الثانية: أنْ يأتيَه الوحيُ في مِثلِ صَلصَلةِ الجرسِ، فيذهبُ عنهُ وقدْ وَعَى عنه الرسولُ -صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ- ما قال.

الثالثة: أنْ يَتَمَثَّلَ لهُ الملَكُ رجلًا فيكلِّمُه ويخاطبُه، ويَعِي عنهُ قولَه، وهذهِ أخفُّ

---

(1) سورة طه: الآية (11-14)

(2) سورة البقرة: الآية 33

(3) سورة الشورى 51

(4) عمر سليمان الأشقر، عالم الملائكة ص:40

(5) عمر سليمان الأشقر، عالم الملائكة ص:41

الأحوالِ على الرسولِ -صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ- وقدْ حدثَ هذا منْ جبريلَ في اللقاءِ الأولِ عندما فاجأَه في غارِ حراء.

بشائرُ الوحي

كانَ الرسولُ -صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ- قبلَ معاينتِه الملكَ، يَرَى ضَوءًا، ويسمعُ صَوتًا، ولكنَّهُ لا يرَى الملَكَ الذي يُحْدِثُ الضَّوءَ، ولا يرَى مُخاطِبَه والهاتفَ بهِ، روَى مسلمٌ في صحيحِه عنِ ابنِ عباسٍ قالَ: «أَقَامَ رَسولُ اللهِ -صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ- بمَكَّةَ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً، يَسْمَعُ الصَّوْتَ وَيَرَى الضَّوْءَ سَبْعَ سِنِينَ، وَلَا يَرَى شيئًا»[1].

قال النووي: قولُه: «يسمعُ الصَّوتَ ويرَى الضَّوءَ»، قال القاضي: «أي: صوتَ الهاتفِ منَ الملائكةِ، ويرَى الضَّوءَ، أي: نورَ الملائكةِ، ونورَ آياتِ اللهِ، حتى رأى الملَكَ بعَينِه، وشافَهَهُ بوحيِ اللهِ[2].

أثرُ الملَكِ في الرسول

منَ الجديرِ بالذكرِ أنْ نُنَوِّهَ إلى المزاعمِ التي يدَّعِيها المكذِّبونَ بالرُّسلِ، أنَّ ما كانَ يصيبُ الرسولَ -صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ- إنّما هوَ نوعٌ منَ الصَّرَعِ، أوِ اتِّصالٌ منَ الشياطينِ بهِ. وكذَبوا في دعواهم، فالأمرانِ مختلفانِ، فالذي يصيبُه الصَّرَعُ يَصفَرُّ لونُه، ويخِفُّ وزنُه، ويفقدُ اتّزانَه، وكذلكَ الذي يصيبُه الشيطانُ، وقدْ يتكلَّمُ الشيطانُ

(1) انظر النووي على مسلم: (15/ 104) وهذا الذي ذكره ابن عبّاس خلاف المحفوظ في مقدار المدة التي كان يوحى إليه فيها بمكة، فالمحفوظ أنّه أوحيَ إليه في سنّ الأربعين، وهاجر وعمره ثلاثٌ وخمسون سنة، فتكون المدّة ثلاثَ عشرةَ سنة.

(2) النووي على مسلم: 15/ 104

على لسانِه، ويخاطِبُ الحاضرينَ، وعندما يَفيقُ منْ غيبوبَتِهِ لا يدري ولا يذكرُ شيئًا ممّا خاطَبَ بهِ الشيطانُ الحاضِرينَ على لسانِه، أمّا الرسولُ -عليهِ صلواتُ اللهِ وسلامُه- فإنَّ اتِّصالَ الملَكِ بهِ نَماءٌ في جسَدِه، وإشراقٌ في وجهِه، ثمَّ إنَّ الجالسينَ لا يَسمعونَ كلامًا، إنّما يسمعونَ دَوِيًّا كدويِّ النحلِ عندَ وجهِه[1]، ويقومُ الرسولُ -صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ- بعدَ ذلكَ وقد وَعَى كلَّ ما أخبرَ بهِ الملَكُ، فيكونُ هوَ الذي يخبِرُ أصحابَه بما أُوحِيَ إليه.

فقد أخبرتنا عائشةُ -رضيَ اللهُ عنها وعنْ أبيها- أنها رأتِ الرسولَ -صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ- ينزلُ عليهِ الوحيُ في اليومِ الشديدِ البردِ، فيُفْصَمُ عنهُ، وإنَّ جبينَه ليتفصَّدُ عَرَقًا[2]. وفي روايةٍ عنها: «إنْ كانَ لَيُنْزَلُ علَى رَسولِ اللهِ -صلّى اللهُ عليهِ وسلّم- في الغَدَاةِ البَارِدَةِ، ثُمَّ تَفِيضُ جَبْهَتُهُ عَرَقًا.»[3] وأخبرتْنا أنَّ ناقتَه عندما كانَ يُوحَى إليهِ -وهو فوقَها- يضربُ حزامها، وتكادُ تبركُ بهِ منْ ثِقَلِهِ فوقَها[4]، ويذكرُ أحدُ الصحابةِ أنَّ فخِذَه كانتْ تحتَ فَخِذِ النبيِّ -صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ- فأُنزِلَ إليه، فكادتْ فَخِذُ النبيِّ -صلَّى اللهُ عليهِ وسلّمَ- حينَ الإنزالِ إليهِ تَرُضُّ فَخِذَ الصَّحابيّ[5]. وهذا يَعلَى بنُ أمّيَّةَ يحدِّثُنا عنْ مشاهدةِ تنَزُّلِ الوحيِ على الرَّسولِ -صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ- وقد كانَ يتمنَّى قبلَ ذلكَ أنْ يراهُ في تلكَ الحالِ، قالَ: «فَإِذَا رَسولُ اللهِ -صلَّى اللهُ عليهِ

(1) رواه أحمد في المسند 1/ 350 (223) والترمذي (3173) والنسائي في السنن الكبرى 2/ 169- 170 (1443) من حديث عمر بن الخطّاب.

(2) صحيح البخاري

(3) صحيح مسلم: 2333

(4) أشار إلى هذا البيهقي في الدلائل عن عائشة (انظر فتح الباري: 1/ 21)

(5) أخرجه أحمد في المسند 35/ 480 (21601) والبخاري (2832) من حديث زيد بن ثابت.

وسلَّمَ- مُحْمَرُّ الوَجْهِ وهو يَغِطُّ، ثُمَّ سُرِّيَ عنْه» [1]

في ختامِ هذا المطلبِ نعرِّجُ على أهميَّةِ الوحيِ وضرورتِه وحاجةِ الناسِ إليه: إنَّ الوحيَ الإلهيَّ ضرورةٌ منْ ضروراتٍ شتَّى اقتضاها وجودُ الإنسانِ على هذهِ الأرضِ، يكابِدُ فيها حياةً طويلةً فُرِضَت عليهِ، وقُدِّرَتْ لهُ، ولا ينتهِي منها إلّا بانتهاءِ هذا الكونِ وانقراضِه، حيثُ يُنقَلُ إلى ملكوتٍ آخرَ، فهوَ في هذهِ الرحلةِ الطويلةِ منْ حياتِه لا بُدَّ منْ تعاليمَ من ربِّه تنظِّمُ حياتَه، ولا بدَّ منْ هَديٍ يعيشُ عليه، وكيفَ يتمُّ لهُ ذلكَ بغيرِ الوحيِ؟!. فالوحيُ إذنْ ضرورةٌ منَ الضروراتِ التي لا غِنَى عنها بحالٍ منَ الأحوال.

وضرورةُ الوحيِ وحاجةُ الإنسانِ إليهِ تَظهَرانِ بوضوحٍ إذا عَرَفنا أنَّ الإنسانُ مكوَّنٌ من روحٍ وجسدٍ، وأنَّ العالَمَ عالَمانِ، عُلويٌّ وسُفليٌّ، وأنَّ الحياةَ حياتانِ: أُولَى تَنقَضي، وثانيةٌ تدومُ ولا تَنتَهي، وتبقَى أبدًا ولا تنقضِي، وأنَّ بينَ الحياتَين برزخًا تَقضِي فيهُ الأرواحُ فترةً ما بينَ موتِ الإنسانِ وبَعثِه للحياةِ الثانيةِ، وبيانُ ذلك: أنَّ كونَ الإنسانِ روحٌ يقتَضي وحيًا إلهيًّا، يخبرُهُ عنِ الروحِ وصفاتِها وأحوالِها، وأسبابِ كمالِها ونُقصانِها، وسعادتِها وشقائِها، وأنَّ كونَ الإنسانِ جسمٌ يقتَضي كذلكَ وحيًا إلهيًّا يبيِّنُ لهُ فيهِ طُرُقَ المحافظةِ على جسمِه، ويضعُ لهُ القوانينَ التي تساعدُه على بقائِه صالحًا المدةَ المحدَّدَةَ لهُ منْ هذهِ الحياةِ، وأنَّ كونَ العالَمِ عالَمانِ، عُلويٌّ وسُفليٌّ، يقتَضي وحيًا إلهيًّا يخبِرُه عنِ العالَمِ العُلويِّ وما فيه، لعجزِ الإنسانِ عنْ معرفةِ ذلكَ بوسائلِه الخاصَّةِ وإدراكِه دونَ الوحيِ الإلهيِّ، وأنَّ كونَ الحياةِ حياتانِ يقتضي كذلكَ وحيًا إلهيًّا يَعرِفُ الإنسانُ بواسطتِه الحياةَ الثانيةَ ماذا فيها؟ وما الذي يتمُّ للإنسانِ يومَ يُنقَلُ إليها؟ إذ مثلُ هذا لا يدركُهُ الإنسانُ بواسطةِ عقلِه مجردًا عنِ

(1) حديث يعلَى في البخاري رقم: 1536، ومسلم: 1180 «يغطُّ ساعةً» عند مسلم

الوحي الإلهيِّ بحالٍ منَ الأحوال.

فهذهِ أكثرُ منْ ضرورةٍ قدِ اقتضتِ الوحيَ الإلهيَّ، وجعلتْهُ حاجةً من حاجاتِ الإنسانِ التي لا يستَغنِي عنها بحالٍ، فالوحيُ إذنْ،معَ إمكانِهِ، هوَ ضرورةٌ من ضروراتِ حياةِ الإنسانِ، وحاجةٌ من حاجاتِه، وإنكارُه والتكذيبُ بهِ يعدُّ خطأً عقليًّا كبيرًا، وعجزًا فكريًّا مُشينًا، وفسادًا فِطريًّا خطيرًا، لأنّ إنكارَ ما هوَ موجودٌ وواقعٌ فيهِ جحودُ ما هوَ ضروريٌّ للحياةِ، وحاجةٌ أكيدةٌ لها لا تقرِّهُ العقولُ، ولا توافقُ عليهِ بحالٍ أبدًا[1].

الرسلُ والأنبياءُ والفرقُ بينهم

أولًا: الرسل(2):

الإرسالُ في اللغةِ التوجيهُ، فإذا بَعثتَ شخصًا في مهمةٍ فهوَ رسولُك، قالَ -عزَّ وجلَّ- حاكيًا قولَ ملكةِ سبأ: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾[3]. وقد يُريدونَ بالرسولِ ذلكَ الشخصَ الذي يتابعُ أخبارَ الذي بعثَه، أخذًا من قولِ العربِ: «جاءتِ الإبلُ رَسَلًا» أي: متتابعة.

وعلى ذلك فالرُّسلُ إنّما سُمُّوا بذلك لأنّهم وُجِّهُوا من قِبل اللهِ -عزَّ وجلَّ-: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرا﴾[4]، وهم مبعوثونَ برسالةٍ معيَّنةٍ مُكلَّفونَ بحَملها وتبليغِها ومتابعتِها.

(1) أبي بكر جابر الجزائري، عقيدة المؤمن، ص 166-167.

(2) راجع في هذه المسألة: لسان العرب: (2/ 1166-1167)، المصباح المنير: ص 226

(3) سورة النمل: الآية 35

(4) سورة المؤمنون: الآية 44

ثانيًا: الأنبياء(1):

النبيُّ –في لغةِ العربِ– مشتَقٌّ منَ النبأِ، وهوَ الخبرُ، قال –عزّ وجلّ–: ﴿عَمَّ يَتَسَاءلُونَ* عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾(2). وإنّما سُمّيَ النبيُّ نبيًّا لأنه مُخْبِرٌ مُخْبَر، فهو مُخْبَر، أي: أنَّ الله أخبَره، وأوحى إليه: ﴿قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾(3)، وهو مُخْبِرٌ عن الله أمره ووحيه: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾(4)، ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾(5). وقيل: النبُوَّةُ مُشتَقَّةٌ منَ النَّبْوَة، وهيَ ما ارتفَعَ منَ الأرضِ، وتطلِقُ العربُ لفظَ النبيِّ على عَلَمٍ من أعلامِ الأرضِ التي يُهتدَى بها، والمناسبةُ بينَ لفظِ النبيِّ والمعنَى اللغويِّ، أنَّ النبيَّ ذو رفعةٍ وقدرٍ عظيمٍ في الدنيا والآخرةِ، والأنبياءُ هم أشرفُ الخلقِ، وهمُ الأعلامُ التي يَهتدي بها الناسُ فتصلحُ دنياهم وأخراهم.

الفرقُ بين الأنبياء والرسل

لا يصحُّ قولُ مَن ذهبَ إلى أنّه لا فرقَ بينَ الرَّسولِ والنَّبيِّ، ويدلُّ على بطلانِ هذا القولِ ما وردَ في عِدَّةِ الأنبياءِ والرُّسُلِ، فقد ذكرَ الرَّسُولُ –صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ– أنَّ عِدةَ الأنبياءِ مئةٌ وأربعةٌ وعشرونَ ألفَ نبيٍّ، وعدَّة الرسل ثلاثمئة وبضعة عشر رسولًا، ويدلّ على الفرق أيضًا ما ورد في كتاب الله من عطف النبي على الرسول، قال –عزّ وجلّ–: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾(6).

(1) راجع في هذه المسألة: لسان العرب: 3/ 573،561، بصائر ذوي التمييز: 5/ 14

(2) سورة النبأ: الآية 1–2

(3) سورة التحريم: الآية 3

(4) سورة الحجر: الآية 49

(5) سورة الحجر: الآية 51

(6) سورة الحج: الآية 52

ووصفُ بعضِ رسلِه بالنبوةِ والرسالةُ دليلٌ على أنّ الرسالةَ أمرٌ زائدٌ على النبوةِ، كقولِهِ في حقِّ موسى -عليهِ السَّلامُ-: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾[1]. والشائعُ عندَ العلماءِ أنَّ النبيَّ أعمُّ منَ الرسولِ، فالرسولُ هوَ مَن أُوحِيَ إليهِ بشرعٍ وأُمرَ بتبليغِه، والنبيُّ مَن أُوحِيَ إليهِ ولمْ يُؤمَرْ بالبلاغِ، وعلى ذلك فكلُّ رسولٍ نبيٌّ، وليسَ كلُّ نبيٍّ رسولًا.

وهذا الذي ذكروهُ هنا يعودُ لأمورٍ ثلاثةٍ، هي:

الأمر الأول- أنّ اللهَ نصَّ على أنَّهُ أرسلَ الأنبياءَ كما أرسلَ الرُّسُلَ في قولِه -عزَّ وجلَّ-: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلاَ نَبِيّ..﴾[2]، فإذا كانَ الفارقَ بينهما هو الأمرُ بالبلاغِ فالإرسالُ يقتضِي من النبيِّ البلاغ.

الأمر الثاني- أنَّ تَرْكَ البلاغِ كِتمانٌ لوَحيِ اللهِ -عزَّ وجلَّ-، واللهُ لا يُنَزِّلُ وحيَه ليُكتَمَ ويُدفَنَ في صدرِ واحدٍ منَ الناسِ، ثمَّ يموتُ هذا العلمُ بموتِه.

الأمر الثالث- قولُ الرسولِ -صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ- فيما يرويهِ عنه ابنُ عباس: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ، فَجَعَلَ يَمُرُّ النَّبيُّ معهُ الرَّجُلُ، والنَّبيُّ معهُ الرَّجُلَانِ، والنَّبيُّ معهُ الرَّهْطُ، والنَّبيُّ ليسَ معَهُ أحَدٌ»[3]، فدلَّ هذا على أنَّ الأنبياءَ مأمورونَ بالبلاغِ، وأنَّهُم يتفاوَتونَ في مدى الاستجابةِ لهم.

والتعريفُ المختارُ أنَّ «الرسولَ مَنْ أُوحِيَ إليهِ بشرعٍ جديدٍ، والنبيَّ هوَ المبعوثُ لتقريرِ شرعِ مَن قَبلَه»[4]، وقد «كانتْ بنو إسرائيلَ تسُوسُهمُ الأنبياءُ، كلّما هلك نبيٌّ

(1) سورة مريم: الآية 51

(2) سورة الحج: الآية 52

(3) رواه البخاري: 5752، ومسلم: 220، واللفظ للبخاري.

(4) تفسير الألوسي: (7/ 157)

خلفه نبيٌّ»، كما ثبتَ في الحديث[1].

وأنبياءُ بني إسرائيلَ كلُّهم مبعوثونَ بشريعةِ موسَى: التوراةُ، وكانوا مأمورينَ بإبلاغِ قومِهم وَحْيَ اللهِ إليهم، قالَ اللهُ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُواْ...﴾[2]، فالنبيُّ كما يظهَرُ منَ الآيةِ متى يُوحَ إليهِ شيءٌ يوجِبُ على قومِه أمرًا، وهذا لا يكونُ إلا مع وجوبِ التبليغ.

واعتَبِرَ في هذا بحالِ داودَ وسليمانَ وزكريّا ويحيَى، فهؤلاءِ جميعًا أنبياءُ، وقد كانوا يقومونَ بسياسةِ بني إسرائيلَ، والحُكمِ بينَهم وإبلاغِهم الحقِّ، واللهُ أعلمُ بالصواب.

وجوبُ الإيمانِ بالرسلِ والأنبياء

إنّ الإيمانَ بالرسلِ والأنبياءِ أصلٌ من أصولِ الإيمانِ، قالَ المولَى -عزَّ وجلَّ-: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[3]، ومَن لمْ يؤمنْ بالرُّسُلِ ضَلَّ ضلالاً بعيدًا، وخسِرَ خُسرانًا مبينًا، أوَلم يقلِ اللهُ: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالًا بَعِيدًا﴾[4].

---

(1) رواه البخاريّ عن أبي هريرة: 3455

(2) سورة البقرة: الآية 246

(3) سورة آل عمران: الآية 84

(4) سورة النساء: الآية 136

وإنّ الذينَ يزعمونَ أنَّهُم مؤمنونَ باللهِ ولكنَّهم يكفرونَ بالرُّسُلِ والكتبِ، هؤلاء لا يُقدِّرونَ اللهَ حقَّ قدرِه، قالَ -عزَّ وجلَّ-: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾(1)

فالذينَ يقدِّرونَ اللهَ حقَّ قدرِه، ويعلَمونَ صفاتِه التي اتَّصَفَ بها من العِلمِ والحكمةِ والرحمةِ، لا بُدَّ أن يُوقِنُوا بأنَّهُ أَرسَلَ الرسُلَ والأنبياءَ وأنزلَ الكُتُبَ، لأنّ هذا مِن مقتضى صفاتِه، فهوَ لم يخلقِ الخلقَ عبثًا، قالَ -عزَّ وجلَّ-: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾(2).

ومَن كفرَ بالرسلِ وهو يزعمُ أنَّهُ مؤمنٌ باللهِ فهوَ عندَ اللهِ كافرٌ لا ينفعُهُ إيمانُه، قالَ -عزَّ وجلَّ-: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا * أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾(3).

فقد نصَّتِ الآيةُ على كُفرِ مَن زَعَمَ الإيمانَ باللهِ وكَفَرَ بالرُّسُلِ ﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ﴾، في تفسيرِ هذا يقولُ القرطبيُّ في هذهِ الآية: «نصَّ سبحانَه على أنَّ التفريقَ بينَ اللهِ ورُسُلِهِ كُفرٌ، وإنَّما كان كفرًا لأنَّ اللهَ فَرَضَ على الناسِ أن يعبُدوهُ بما شَرَعَهُ على ألسنةِ الرُّسلِ، فإذا جَحَدُوا الرُّسُلَ ردُّوا عليهِم شرائعَهم، ولم يقبَلوها منهم، فكانوا ممتنعِينَ من التزامِ العبوديَّةِ التي أُمِرُوا بالتزامِها، فكانَ كَجَحْدِ الصَّانعِ سبحانَه، وجَحْدُ الصانعِ كفرٌ، لِما فيهِ من تَركِ التزامِ الطاعةِ والعُبوديةِ، وكذلكَ

(1) سورة الأنعام: الآية 91

(2) سورة القيامة: الآية 36

(3) سورة النساء: الآية (150-151)

التفريقُ بينَ اللهِ ورُسُله»[1].

وممّا لا شكَّ فيهِ أنَّ الكُفرَ برسولٍ واحدٍ كُفرٌ بجميعِ الرُّسُلِ، حيثُ قالَ -عزَّ وجلَّ-: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾[2]، وقال: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ﴾[3]، وقال: ﴿كذَّبتْ ثمودُ المُرسلينَ﴾[4]، وقال: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ﴾[5]، ومنَ المعروفِ أنَّ كلَّ أمةٍ كذَّبتْ رسولَها، إلّا أنّ التكذيبَ برسولٍ واحدٍ يُعَدُّ تكذيبًا بالرُّسُلِ كلِّهم، ذلك أنَّ الرُّسُلَ حمَلةُ رسالةٍ واحدةٍ، ودعاةُ دِينٍ واحدٍ، ومُرسِلُهم واحدٌ، فهم وِحدةٌ، يُبَشرُ المُتقدمُ منهمُ بالمتأخِّرِ، ويُصَدِّقُ المتأخرُ المتقدمَ.

ومن هنا كانَ الإيمانُ ببعضِ الرُّسُلِ والكفرُ ببعضٍ كفرًا بهِم جميعًا، وقد وَسَمَ اللهُ مَن هذا حالُه بالكفرِ، قالَ -عزَّ وجلَّ-: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا* أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾[6]، وقد أمَرَنا اللهُ بعدمِ التفريقِ بينَ الرُّسُلِ وبالإيمانِ بهم جميعًا: ﴿قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَآ أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيّونَ مِن رّبّهِمْ لاَ نُفَرّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[7]، ومَن سارَ على هذا المنهجِ فقدِ اهتدَى:

(1) تفسير القرطبي: 6/ 5
(2) سورة الشعراء: الآية 105
(3) سورة الشعراء: الآية 123
(4) سورة الشعراء: الآية 141
(5) سورة الشعراء: الآية 160
(6) سورة النساء: الآية 150-151
(7) سورة البقرة: الآية 136

﴿فَإِنْ آمَنُواْ بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَواْ﴾[1]، والذي يخالفُه فقد ضَلَّ وغَوَى: ﴿وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[2].

وقد مدحَ اللهُ رسولَ هذهِ الأمةِ والمؤمنينَ الذينَ تابَعُوهُ لإيمانِهم بالرُّسُلِ كلِّهم، ولعَدَمِ تفريقِهم بينَهم، قالَ -عزَّ وجلَّ-: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾[3].

ووعَدَ اللهُ الذينَ لمْ يُفَرِّقُوا بينَ الرُّسُلِ بالمثوبةِ والأجرِ الكريمِ، قالَ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾[4]، وقد ذمَّ اللهُ أهلَ الكتابِ لإيمانِهم ببعضِ الرُّسُلِ وكُفرِهم ببعضٍ، فقالَ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ﴾[5].

فاليهودُ لا يؤمِنونَ بعيسَى ولا بالمصطفَى محمَّدٍ -صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ-، والنصارَى لا يؤمِنونَ بمحمَّدٍ -صلَّى اللهُ عليهِ وسلّمَ-، على الرغمِ من أنَّ الحكمةَ الربّانيَّةَ اقتضَتْ أنّ يُرسِلَ في كلِّ أمَّةٍ نذيرًا ورسُولًا، واختصَّ سيِّدَنا محمَّداً خاتمَ المرسلينَ بأن أرسلَه للبشريةِ كلِّها، واقتضى عدلُه ألّا يُعذِّبَ أحدٌ منَ الخلقِ إلّا بعدَ أن تَقُومَ عليهِ الحُجَّةُ. قالَ -عزَّ وجلَّ-: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[6].

ولكي نكملَ الصُّورةَ في المطلبِ الثاني من هذا المبحثِ وَجَبَ علينا أن نُسلِّطَ

(1) سورة البقرة: الآية 137

(2) سورة البقرة: الآية 137

(3) سورة البقرة: الآية 285

(4) سورة النساء: الآية 152

(5) سورة البقرة: الآية 91

(6) سورة الإسراء: الآية 15

الضَّوءَ على أهميَّةِ العِصمةِ التي يتمتَّعُ بها الأنبياءُ والمرسلونَ، عن كلِّ ما ينفِّرُ أو يَشِينُ، لأنها جزءٌ لا يتجزَّأُ من متطلَّباتِ الإيمانِ بالرُّسُلِ والأنبياءِ فهيَ منَ العقائدِ الأساسيةِ في الإيمانِ الإسلاميِّ.

فهمُ الذينَ اصطفاهمُ اللهُ مِن خيارِ خلقِه، وصَنَعهم على عينِه، ليكونُوا أشرفَ أقوامِهم نَسَبًا وخَلقًا وخُلُقًا، وجعلَ منهمُ المثالَ والقدوةَ والأسوةَ والسيرةَ العطرةَ، على امتدادِ تاريخِ النبوّاتِ والرسالاتِ، وهمْ عنوانُ اللهِ وكلمتُه، والمبلِّغونَ لها إلى أُممِهم وأقوامِهم، وهمُ النموذجُ المجسَّدُ لمنظومةِ القيمِ والأخلاقِ الدينيَّةِ في واقعِ الحياةِ، إنَّهُم حلقةُ الوَصلِ بينَ الأرضِ والسَّماءِ، بينَ الناسِ وبينَ اللهِ، والمرآةُ التي تتجلَّى فيها على نحوٍ (نسبيٍّ ورفيعٍ) صفاتُ الكمالِ والجلالِ والجمالِ، التي تفرَّدتْ بها ذاتُ اللهِ -عزَّ وجلَّ- على النحوِ المطلَقِ واللانهائيّ، بل إنّ صفاتِ الأنبياءِ وعِصمتَهم عن كلِّ ما يُنَفِّرُ أو يَشِينُ هيَ في العقيدةِ الإسلاميةِ دليلٌ على الحكمةِ الإلهيةِ، وعلى الإعجازِ الدالِّ على صِدقِهم في النبوّةِ والرسالةِ والتبليغِ عنِ السماء[1].

وبعبارةِ الأستاذِ الإمامِ محمّد عبده: «... فإنَّ من لوازمِ الإيمانِ الإسلاميّ: وجوبُ الاعتقادِ بعلوِّ فطرةِ الأنبياءِ والمرسلينَ، وصِحَّةِ عقولِهم، وصِدقِهم في أقوالِهم، وأمانتِهم في تبليغِ ما عَهِدَ إليهم أن يُبَلِّغُوه، وعِصمتُهم من كلِّ ما يشوِّهُ المسيرةَ البشريةَ وسلامةَ أبدانِهم ممّا تنبُو عنهُ الأبصارُ، وتنفِرُ منهُ الأذواقُ السليمةُ، وأنهم منزَّهُونَ عمّا يُضادُّ شيئًا من هذهِ الصفاتِ المتقدمةِ، وأنَّ أرواحَهم ممدودةٌ منَ الجلالِ الإلهيِّ بما لا يمكِنُ معَه لنفسٍ إنسانيةٍ أن تسطوَ عليها سطوةً روحانيةً. إنّ لنفوسِهم من نقاءِ الجَوهرِ، بأصلِ الفطرةِ، ما تستَعِدُّ بِه من مَحضِ الفَيضِ الإلهيِّ لأن

---

(1) محمّد عمارة: بين العصمة والازدراء، الأنبياء في القرآن الكريم والكتاب المقدّس.

تَتصِلَ بالأفقِ الأعلى، وتنتهيَ منَ الإنسانيةِ إلى الذروةِ العُليا، وتشهدَ من أمرِ اللهِ شهودَ العيانِ ما لم يَصِلْ غيرُها إلى تعقُّلِه أو تحسُّسِه بعصا الدليلِ والبرهانِ، وتتلقّى عنِ العليمِ الحكيمِ ما يعلو وضوحًا على ما يتلقّاهُ أحدُنا من أساتذةِ التعاليمِ، ثم تَصدُرُ عن ذلكَ العلمِ إلى تعليمِ ما عَلِمَتْ، ودعوةِ الناسِ إلى ما حُمِلتْ على إبلاغِه إليهم.

فهؤلاءِ الأنبياءُ والمرسلونَ منَ الأممِ بمنزلةِ العقولِ منَ الأشخاص، يعلِّمونَ الناسَ من أنباءِ الغيبِ ما أَذِنَ اللهُ لعبادِه في العلمِ به، ممّا لو صَعُبَ على العقلِ اكتناهُه لم يشقَّ عليهِ الاعترافُ بوجودِه، يميِّزُهُمُ اللهُ بالفطرةِ السليمةِ، ويبلُغُ بأرواحِهم منَ الكمالِ ما يُطيقونَ للاستشرافِ بأنوارِ عِلمِه، والأمانةِ على مكنونِ سِرِّه، ممّا لوِ انكَشَفَ لغيرِهمُ انكشافُه لهم لفاضتْ لهُ نفسُه، أو ذهبت بعقلِه جلالتُه وعظَمتُه، فيُشرِفونَ على الغيبِ بإذنِه، ويعلَمونَ ما سيكونُ من شأنِ الناسِ فيهِ، ويكونونَ في مراتبِهمُ العُلويةِ -على نِسبةٍ منَ العالمينَ- نهايةَ الشاهدِ وبدايةَ الغائبِ، فهم في الدنيا كأنهم ليسوا من أهلِها، وهم وفدُ الآخرةِ في لباسِ مَن ليسَ مِن سُكانِها.

ثمّ يتلقّونَ من أمرِه أن يحدِّثوا عن جلالِه بما خَفِيَ عنِ العقولِ من شؤونِ حضرَتِه الرفيعةِ بما يشاءُ أن يعتقدَه العبادُ فيهِ، وما قُدِّرَ أن يكونَ له مدخلٌ في سعادتِهِمُ الأُخرويةِ، وأن يُبيِّنوا للناسِ من أحوالِ الآخرةِ ما لا بُدَّ لهم من علمِه، معبِّرينَ عنهُ بما تحتملُه طاقةُ عقولِهم، ولا يبعُدُ عن مُتناوَلِ أفهامِهم، وأن يُبَلِّغُوا عنهُ شرائعَ عامةً، تحدِّدُ لهم سَيرَهم في تقويمِ نفوسِهم، وكبحِ شهواتِهم، وتعلِّمِهم منَ الأعمالِ ما هو مَناطُ سعادتِهم وشَقائِهم في ذلك الكونِ المُغَيَّبِ عن مشاعرِهم بتفصيلِه اللاحقِ علمُه بأعماقِ ضمائرِهم في إجمالِه، ويدخلُ في ذلك جميعُ الأحكامِ المتعلقةِ بكُلياتِ الأعمالِ، ظاهرةٍ وباطنةٍ.

ثـم يؤيِّدُهـم بمـا لا تبلُغُـه قُـوَى البشـرِ مـن الآيـاتِ، حتـى تقـومَ لهـمُ الحُجَّـةُ، ويتـمَّ الإقناعُ بصدقِ الرِّسـالةِ، فيكونونَ بذلكَ رُسُـلًا من لَدُنهُ إلى خلقِه مبشِّـرينَ ومُنذِرين»[1]، تلك هي النظـرةُ القرآنيـةُ، والعقيـدةُ الإسـلاميةُ في وجـوبِ الإيمـانِ بالرُّسـلِ والأنبيـاءِ، وحتميَّةُ اصطفائِهم وتميُّزِهم... وامتيازِهم... وعِصمتُهم عن كلِّ ما يُنَفِّرُ أو يَشِين.

وإذا كانَ الشـيءُ يُظهِرُ حُسنَه الضدّ، وبضدِّهـا تتمايزُ الأشـياءُ، فإنّ المقارنـةَ بيـنَ صـورةِ أعـلامِ الأنبيـاءِ والمرسـلينَ في كلٍّ مـنَ القـرآنِ الكريـمِ وفي أسـفارِ العَهـدِ القديـمِ، هـيَ الشـاهدُ علـى صِـدقِ هـذا الـذي نقـول مـنَ العِصمـةِ والتعظيـمِ والتكريـمِ القـرآنيِّ للأنبياءِ والمرسـلينَ، والإسـاءةُ والإهانةُ والازدراءُ لهؤلاءِ الأنبياءِ والمرسـلينَ في شريعةِ الغـابِ وأسـفارِ العهـدِ القديـمِ، ثـمَّ الإفضـاءُ إلـى نبعَـينِ ينضَحـانِ موقِفَـين مختلفَـين كلَّ الاختلافِ من هؤلاءِ الأنبياءِ والمرسلين.

---

(1) محمـد عبـده (الأعمـال الكاملـة) ج3 ص 400-421،420،416،401، دراسـة وتحقيـق دكتـور- محمـد عمـارة، طبعـة بيروت سـنة 1972م، وطبعة دار الشـروق سـنة 2006م.

المبحث الرابع: التصديقُ الجازمُ بالرسالاتِ والكتبِ السماويّة

الرسالات والكتب السماويّة

الكتب: جمع كتاب، والكتاب: مصدرُ كَتَبَ يكتُبُ كتابًا وكتابةً، إذا جمعَ الحروفَ وألّفَ بينَها فكانت كلماتٍ لها معانٍ خاصّةٌ، ثمّ كوّنَ من تلكَ الكلماتِ ذاتِ المعاني جُملًا مفيدةً تُسمَّى كلامًا. فالكتاب إذن، هو ما حوى كلامًا مفيدًا، ذا أغراضٍ متعدّدةٍ، وكُتُبُ اللهِ التي يجبُ التصديقُ الجازمُ بها هي: الصحفُ التي حَوَت كلامَ اللهِ -عزَّ وجلَّ- الذي أوحاه إلى رسله -عليهِمُ السَّلامُ- فكوَّنت كُتبًا، أو بَقِيَت صُحُفًا لم تُجمَع، ولم يتكوّن منها كتاب خاصّ؛ كصُحُفِ إبراهيمَ وموسى -عليهما السلام-، والكتب؛ كالتوراةِ الزبورِ، والإنجيل، والقرآن الكريم.

والكتبُ في الاصطلاح: تُطلَقُ على كلِّ صحيفةٍ، أو كتابٍ، أو لوحٍ أنزلَهُ اللهُ على نبيٍّ من أنبيائِه، من لَدُن آدمَ إلى محمَّدٍ -عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ-، وبأيّةِ لغةٍ منَ اللغاتِ نَزلَت، حيثُ قالَ -عزَّ وجلَّ-: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾[1] أي بالكُتُبِ المنزَّلةِ، فوَضَعَ ذلك مَوضعَ الجمعِ، إمّا لكونِه جنسًا، كقولِهم: كَثُرَ الدرهمُ في أيدي الناس، أو لكونِه في الأصلِ مصدرًا، نحوَ عدْل، وذلك كقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾[2].

(1). سورة آل عمران: الآية 119

(2). سورة البقرة: الآية 4

التصديق الجازم

إنّ التصديقَ الجازمَ بالكتبِ الإلهيةِ جزءٌ منَ الإيمانِ العقائديِّ، والذي لا تكتملُ عقيدةُ الإنسانِ إلّا بهِ؛ فالإيمانُ بما أوحَى اللهُ من كلامِه الخاصِّ إلى مَن اصطفَى من رُسُلِه- فجُمع ودُوِّنَ فكانَ صُحفًا مطهَّرةً، وكتبًا منزّهةً، سواءٌ ما عُرفَ منها أو لم يُعرف- هو من صُلبِ عقيدةِ المسلم.

البشريةُ والرسالاتُ والكتبُ السماوية

كانتِ البشريةُ الأولى، أو ذرّيّةُ آدمَ -عليهِ السلامُ- على التوحيدِ والإسلامِ، من مَبعثِ آدمَ إلى مبعثِ نوحٍ، وكان بينهما عشرةُ قرونٍ، «كلُّهم على شريعةٍ واحدةٍ، فقد فطرَ اللهُ -عزّ وجلّ- الخلقَ على التوحيدِ والإيمانِ بالله، وأخذَ عليهِمُ العَهدَ والميثاقَ بذلك، منذ أن كانوا ذريّةً في ظهورِ آبائهم»[1].

وقال -عزّ وجلّ-: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَا ۛ أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾[2]؛ ولذلك فإنّ اللهَ يأمرُهم بعبادتِه، وحدَه لا شريكَ له، وأن يخلِصوا له دينَهم، وذلك بمقتضَى الفطرةِ التي فطرَهُم عليها، والعهدِ الذي أخذَ عليهم، قالَ رسولُ اللهِ -صلّى اللهُ عليه وسلّم-: ما مِن مَوْلُودٍ إلَّا يُولَدُ علَى الفِطْرَةِ، فأبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أوْ يُنَصِّرَانِهِ أوْ يُمَجِّسَانِهِ، كما تُنْتَجُ البَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ، هلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِن جَدْعَاءَ،

(1). نسيم شحدة ياسين، شرح أصول العقيدة الإسلامية، فلسطين.

(2) سورة الأعراف: الآية (172-173)

ثُمَّ يقولُ أبو هُرَيْرَةَ –رَضِيَ اللهُ عنه–: ﴿فِطْرَتَ اللهِ الَّتي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾(1).

ومع ذلك فإنّ الناسَ اختلفُوا في زمنِ نوحٍ –عليهِ السَّلامُ– ودَبَّ الشِّركُ في أوساطِهم، فتنوَّعَت معتقداتُهم، وأضلَّهُمُ الشيطانُ عن الحقِّ، وحرفَهم عنِ الفطرةِ الصحيحةِ، فاحتاجَ الناسُ إلى مَن يصحِّحُ هذا الانحرافَ ويدلُّهم على الحقِّ، فأرسل اللهُ –سبحانَه وتعالى– الرُّسلَ، وأنزَلَ معَهمُ الكتبَ السَّماوية.

أخرجَ ابنُ جريرٍ عنِ ابنِ عبّاس قال: «كانَ بينَ آدمَ ونوحٍ عشرةُ قرونٍ كلُّهم على شريعةِ الحقِّ فاختلَفُوا، فبعَثَ اللهُ النبيِّينَ مُبشرينَ ومنذرينَ»، قالَ: وكذلكَ هي من قراءةِ عبدِ اللهِ: ﴿كان الناسُ أمّةً واحدةً فاختَلَفُوا﴾(2)، وكذلك كان يقرؤُها أبيُّ بنُ كعبٍ رضيَ اللهُ عنه» (3)، وهذا يتَّفِقُ معَ قولِه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾(4). وقال –عزَّ وجلَّ–: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾(5).

فلمّا اختلفَ الناسُ في الحقِّ والهدايةِ، أنزلَ اللهُ –عزَّ وجلَّ– كتبَه هدايةً ورحمةً وبيانًا وإزالةً للخلافِ، ليفيءَ الناسُ جميعًا إلى الحقِّ والعدلِ، وليعودوا إلى الفطرةِ الصَّحيحةِ التي انحرفَت، قال اللهُ –عزَّ وجلَّ–: ﴿تَاللهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ* وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ

(1) أخرجه البخاري: 3/ 219، ومسلم: 4/ 247

(2) أخرجه الطبري: 4/ 275، وصححه الحاكم: 2/ 475، ورواه الذهبي.

(3) تفسير ابن كثير، طبعة الزعبي: 1/ 364

(4) سورة يونس: الآية 19

(5) سورة البقرة: الآية 213

الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[1]، فلا تستقيمُ حياةُ البشرِ ولا تنتظمُ إلّا ببعثةِ الرُّسُلِ –عليهِمُ السَّلامُ– ومعَهُمُ الكتبُ المنزلةُ إليهِم، فهيَ النُّورُ الذي يُشِعُّ على البشريّةِ الخيرَ والحقَّ والهُدَى، ولا صلاحَ للبشريَّةِ إلّا بهذا النورِ المشعِّ، إذ إنَّ حاجةَ الناسِ إلى الكُتُبِ السَّماويَّةِ فوقَ حاجتِهم إلى كلِّ شيءٍ، فهيَ روحُ البشريّةِ ونورُ حياتِهم، لذلك سَمَّى اللهُ الوَحيَ المنزَّلَ بالرسالةِ روحًا ونورًا، والإنسانُ لا يستغنِي عنِ الروحِ فهيَ سببُ حياتِه، ولا عنِ النورِ فهوَ سببُ الهدايةِ، وقال –عزَّ وجلَّ– في سورةِ الشورَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ج وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ* صِرَاطِ اللهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ أَلَا إِلَى اللهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾[2].

ومن هنا كانتِ الحاجةُ ماسَّةً إلى كُتُبٍ سماويةٍ؛ وذلك لأمورٍ منها:

أولًا– ليكونَ الكتابُ الربانيُّ المنزَّلُ على الرسولِ هو المَرجِعُ لأمَّتِهِ، مهما تعاقَبَتِ العصور.

ثانيًا– حتى يَحفَظَ هذا الكتابُ عقائدَ الدينِ وشرائعَه وغاياتِه منَ الضَّلالاتِ والأهواءِ بعدَ عصرِ الرسول.

ثالثًا– حتّى يكونَ هذا الكتابُ هو الحكَمَ العدلَ للأمَّةِ والمَرجِعَ الأساسَ في كلِّ ما يختلفونَ فيه.

رابعًا– حتى يحفظَ هذا الكتابُ لدعوةِ الرسولِ ورسالتِه تأثيرَها وسَرَيانَها

(1) سورة النحل: الآية 63-64

(2) سورة الشورى: الآية 52-53.

وقابليّتَها للاتّساعِ والانتشارِ، مهما تباعدتِ الأمكنةُ أو الأزمنةُ عن مكانِ أو زمانِ نشأةِ الرسولِ صاحبِ الدعوةِ، خاصةً إذا كانتِ الدعوةُ التي يدعو بها الرسولُ دعوةً عامَّةً وشاملةً كرسالةِ محمَّدٍ - صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ-، فوجودُها بينَ الناسِ بمثابةِ استمرارِ لوجودِه بينَهم[1].

الواجب الشرعي تجاه الكتب والرسالات السماوية

إنّ الإيمانَ بالكتبِ والرسالاتِ السَّماويةِ واجبٌ شرعيٌّ، كما هوَ واجبٌ عقلًا، وهذا بيانُ ذلك[2]:

أمّا كونُ الإيمانِ بالكتبِ الإلهيةِ واجبًا شرعيًّا؛ فذلك لأنَّ اللهَ -عزَّ وجلَّ- أمرَ بهِ أمرًا جازمًا لا يقتضِي إلّا طاعةَ اللهِ فيه، وتحريمَ معصيتِه، إذ قالَ -عزَّ وجلَّ- في الأمرِ بالإيمانِ بكتبِه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾[3]

إنّ هذه الآيةَ وحدَها كافيةٌ في الدلالةِ على وجوبِ الإيمانِ بكتبِ اللهِ عامَّةً، وبالقرآنِ كتابِ الإسلامِ والمسلمينَ خاصَّةً، وفي تحريمِ التكذيبِ بها، وعدمِ التصديقِ بكلِّ ما جاءَ فيها ممّا هوَ وَحيُ اللهِ وكلامُه.

إنّ الإيمانَ بالكتبِ ليسَ واجبًا فحسب؛ بل هوَ أحدُ أركانِ الإيمانِ الستةِ التي لا يصحُّ إيمانُ عبدٍ إلّا باستكمالِها، بالإيمانِ بها كلِّها. وإنَّ الإيمانَ بالكتبِ للرُّكنِ الثالثِ

---

(1) انظر: الميداني: العقيدة الإسلامية ص 538 539..

(2) أبو بكر جابر الجزائري: عقيدة المؤمن: ص 152-153.

(3) سورة النساء: الآية 136.

من تلكَ الأركانِ، التي هيَ بناءُ العقيدةِ الإسلامية، كما جاءَ ذلكَ في الكتابِ والسُّنَّةِ، ففي الكتابِ يقولُ -عزَّ وجلَّ-: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ...﴾[1]، ويقول: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾[2]. ومن السُّنَّةِ حديثُ مسلمٍ عن عمرَ بنِ الخطّابِ -رضيَ اللهُ عنهُ-، والذي جاءَ فيهِ سؤالُ جبريلَ للرسولِ - صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم- عنِ الإيمانِ وجوابِ الرسولِ، بأنّه: « أنْ تُؤْمِنَ باللهِ، ومَلائِكَتِهِ، وكُتُبِهِ، ورُسُلِهِ، والْيَومِ الآخِرِ، وتُؤْمِنَ بالقَدَرِ خَيْرِهِ وشَرِّهِ» (حُلوه ومُرِّه)[3]. وأمّا كونُ الإيمانِ بها واجبًا عقلًا، فإنّهُ يظهَرُ للمتأمِّلِ من حيثُ حاجةُ العبادِ إليها، وإقامةُ الحجَّةِ بها، فإنّ الرسولَ المبلِّغَ عنِ اللهِ شرائعَه وأحكامَه يحتاجُ غالبًا في إثباتِ رسالتِه إلى كتابٍ منَ اللهِ تقومُ بهِ الحُجَّةُ لهُ على تلكَ الأمَّةِ التي أُرسلَ إليها حتّى يؤمِنوا بهِ، ويصدِّقوه ويتبعُوه، ويعملوا بما جاءَهم بهِ بعدَه، فكيفَ يتحقَّقُ ذلكَ إذا كانَ التشريعُ الإلهيُّ نفسُه يفتقِرُ إلى كتابٍ يحويهِ ويتضَمَّنُه، ويثبتُ فيه، ليظلَّ بعدَ وفاةِ الرسولِ الذي جاءَ شرعًا محفوظًا، تعملُ بهِ الأجيالُ إلى المدى الذي حُدِّدَ بنسخِه برسالةٍ أخرَى، أو بنسخِ بعضِ ما جاءَ فيهِ؛ كما حصلَ (للتوراة والإنجيل)، فقد نسخَ اللهُ بالإنجيلِ بعضَ أحكامِ التوراةِ، ونسَخَ بالقرآنِ الكريمِ الإنجيلَ والتوراةَ كليهما.

ولولا بقاءُ الكتابَ بعدَ الرسولِ لضاعَ الدينُ الذي جاءَ بهِ، أو ضاعَ الكثيرُ منه، وحينئذٍ يقولُ الناسُ: بمَ نعبدُه؟ وكيفَ نعبده؟ ولم تكنْ لدينا شرائعُ نعبدُه بها؟

---

(1) سورة البقرة: الآية 177

(2) سورة البقرة: الآية 285

(3) مسلم 1: 28،29

وتكونُ لهمُ الحُجَّةُ على اللهِ، وهذا ما لم يُرِدهُ اللهُ -عزَّ وجلَّ- حيثُ صرَّح بنفسِه في قولِه -عزَّ وجلَّ-: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ۚ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[1].

فهذه المسائلُ الثلاث:

1. احتياجُ الرسولِ في إثباتِ رسالتِه إلى كتابٍ من ربِّهِ تقومُ بِهِ الحُجَّةُ على قومِه.

2. افتقارُ التشريعِ الإلهيِّ إلى كتابٍ يحويهِ ويتضمَّنُه ويُثبت فيه.

3. عدمُ إعطاءِ الناسِ الحجّةَ على اللهِ ببقاءِ التشريعِ الإلهيِّ محفوظًا في كتابٍ ثابتٍ فيه، هيَ التي اقتضتْ -عقلًا- وجودَ كتبٍ إلهيَّةٍ، كما اقتضتْ وجوبَ الإيمانِ بها، وتصديقَها والعملَ بما فيها، لافتقارِ سعادةِ البشريّةِ في الحياتَين إليها وتوقُّفِها عليه.

وهنا، وبعد أن أقمنا الحُجَّةَ، فالواجبُ على المسلمِ التصديقُ الجازمُ بجميعِ ما أَنزلَ اللهُ من كتبٍ، وما آتى بعضَ الرسلِ من صُحفٍ -ما سُمِّيَ منها، وما لم يُسمَّ- وأنّ كلَّها منزلٌ من عندِ اللهِ على رُسُلِه، تكلَّم عنها حقيقةً كما شاء، وعلى الوجهِ الذي أرادَ، فمنها المسموعُ منهُ من وراءِ حجابٍ دونَ واسطةٍ، ومنها ما يُسمِعه الرسولَ الملكيَّ، ويأمرُه بتبليغِه منهُ إلى الرسولِ البشريِّ، قالَ -عزَّ وجلّ-: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[2]، وقال -عزّ وجلّ-: ﴿وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾[3]، وقال -عزَّ وجلَّ-: ﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾[4]، وقال -عزَّ وجلَّ-: ﴿يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى

(1) سورة النساء: الآية 165

(2) سورة الشورى: الآية 51

(3) سورة النساء: الآية 164

(4) سورة النجم: الآية 10

النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي﴾[1]، وقال -عزَّ وجلَّ-: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾[2]، وقالَ -عزَّ وجلَّ-: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا﴾[3]. ومنها ما خطَّهُ بيده، كما قال -عزَّ وجلّ-: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾[4]، والإيمانُ بكلِّ ما فيها منَ الشرائعِ، وأنّهُ كانَ واجبًا على الأممِ الذينَ نزلت إليهمُ الصُّحفُ الأولَى والانقيادُ لها، والحكمُ بما فيها، كما قال -عزَّ وجلّ-: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾[5]، والإيمانُ بأنَّ جميعَ الكتبِ السَّماويّةِ يصدِّقُ بعضُها بعضًا، ولا يكذّبُه أبدًا، قال اللهُ -عزَّ وجلَّ- في الإنجيلِ: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾[6]، وقالَ في القرآنِ: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾[7].

وكلُّ مَن كذَّبَ بشيءٍ منها، أو أَبَى الانقيادَ لها مع تعلُّقُ خطابه به، يكفُرُ بذلكَ، كما قالَ اللهُ -عزَّ وجلَّ-: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ

---

(1) سورة الأعراف: الآية 144

(2) سورة النحل: الآية 2

(3) سورة الإسراء: الآية 106

(4) سورة الأعراف: الآية 145

(5) سورة المائدة: الآية 44

(6) سورة المائدة: الآية 46

(7) سورة المائدة: الآية 48

السَّمَاءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾[1].

والإيمانُ بأنَّ نَسْخَ الكتبِ الأولى بعضِها ببعضٍ حقٌّ، كما نُسِخَت بعضُ شرائعِ التوراةِ بالإنجيلِ، حيث قال اللهُ في عيسى – عليه السَّلامُ–: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ إلى قولِه –عزَّ وجلَّ–: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ﴾[2].

كما ونُسِخَ كثيرٌ من شرائعِ التوراةِ والإنجيلِ والقرآنِ، قالَ اللهُ–عزَّ وجلَّ–: ﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ ۖ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ* الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ* قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾[3]. ونَسَخَ القرآنُ بعضَ آياتِه ببعضٍ، قالَ –عزَّ وجلَّ–: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾[4].وقال –عزَّ وجلَّ–: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ ۙ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[5].

---

(1) سورة الأعراف: الآية 40

(2) سورة آل عمران: الآية (48-50)

(3) سورة الأعراف: الآية: 156-158

(4) سورة البقرة: الآية 106

(5) سورة النحل: الآية 106

والناسخُ والمنسوخُ آياتٌ مشهورةٌ في القرآنِ، وقد ذكَرَتْها كتبُ التفسيرِ وعلومِ الدينِ، ويجبُ أن نؤمنَ بأنّه لا يأتي كتابٌ بعدَه، ولا مغيِّرَ ولا مبدِّلَ لشيءٍ من شرائعِه بعدَه، وأنّه ليسَ لأحدٍ الخروجُ عن شيءٍ من أحكامِه، كما أنَّ مَن كذَّبَ بما أخبرَ عنهُ القرآنُ من الكتبِ فقد كذَّبَ به،وأنّ مَنِ اتّبعَ غيرَ سبيلِه، ولم يقتفِ أثرَه فقد ضلَّ ضلالًا بعيدًا[1]، قالَ -عزَّ وجلّ-: ﴿كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ* اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾[2]. وقد سمّى اللهُ مِن كتبِه في القرآنِ الكريمِ ما يأتي:

1. **التوراة**: التي نزلت على موسَى -عليه السلامُ-: حيثُ قالَ -عزَّ وجلَّ-: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾[3] وقال اللهُ -عزَّ وجلَّ-: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾[4].
2. **الإنجيل**: الذي نزَل على عيسَى -عليه السلامُ-: قال -عزّ وجلّ-: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ ۖ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً

---

(1) الحكمي، معارج القبول: 2/ 64-65
(2) سورة الأعراف: الآية 2-3
(3) سورة المائدة: الآية 44
(4) سورة الأنعام: الآية 91

لِّلْمُتَّقِينَ﴾[1].

3. **الزبور**: الذي نزل على داود –عليه السلام–: قال الله:﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾.[2]

4. **صحف إبراهيم وموسى**: قال –عزّ وجلّ–: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ* وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ* أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ* وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ* وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ* ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ* وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ﴾[3]، وقال الله–عزَّ وجلَّ–: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ* وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ* بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا* وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ* إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ* صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾[4].

وفي السُّنَّةِ المطهَّرة: عن أبي ذرٍّ –رضيَ اللهُ عنه– قال: «قلتُ: يا رسولَ اللهِ، ما كانت صحفُ إبراهيمَ؟ قال: «كانت أمثالًا كلُّها: أيها الملكُ المسلَّط المبتلَى المغرورُ، إني لم أبعثك لتجمَعَ الدنيا بعضَها على بعضٍ، ولكني بعثتُك لتردَّ عني دعوةَ المظلومِ، فإنّي لا أردُّها وإن كانت من كافرٍ، وعلى العاقلِ ما لم يكُن مغلوبًا على عقلِه أن يكونَ لهُ ساعاتٌ: فساعةٌ يناجي فيها ربَّه، وساعةٌ يحاسبُ فيها نفسَه، وساعةٌ يتفكَّرُ فيها في صُنعِ اللهِ –عزَّ وجلَّ–، وساعةٌ يخلو فيها لحاجتِه من المطعَمِ والمَشرب. وعلى العاقلِ ألّا يكونَ ظاعنًا (مرتحلًا) إلا لثلاثٍ: تزودٌ لمعادٍ، أو لمعاشٍ، أو لذةٍ في غيرِ محرَّمٍ. وعلى العاقلِ أن يكونَ بصيرًا بزمانِه، مقبِلًا على شأنِه،

(1) سورة المائدة: الآية 46

(2) سورة الإسراء: الآية 155

(3) سورة النجم: الآية 36–42

(4) سورة الأعلى: الآية 15–19

حافظًا للسانِه، ومن حَسَبَ كلامَه من عملِه قَلَّ كلامُه إلّا فيما يعنِيه. قلتُ: يا رسولَ اللهِ، فما كانت صحفُ موسى –عليه السلام–؟ قال: كانت عِبَرًا كلُّها: عجبتُ لمَن أيقَنَ بالموتِ ثمّ هوَ يفرحُ، عجبتُ لمَن أيقَنَ بالنارِ ثمّ هوَ يضحكُ، عجبتُ لمَن أيقنَ بالقَدَرِ ثمّ هو ينصَبُ (يتعَب)، عجبتُ لمن رأى الدنيا وتقلُّبَها بأهلِها ثمّ اطمأنَّ إليها، عجبتُ لمَن أيقنَ بالحسابِ غدًا ثمّ لا يعمل»[1].

5. **والقرآن الكريم**: هو آخرُ الكتبِ السماويَّةِ نزولًا، وقد أخبرَ اللهُ –عزَّ وجلَّ– عنِ التنزيلِ على رُسُلِه مجملًا في قولِه: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾[2] وقال –عزَّ وجلَّ–: ﴿وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾[3]، وقال –عزَّ وجلَّ– في القرآنِ والسُّنَّةِ: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾[4].وقال –عزَّ وجلَّ–: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾[5].وقال –عزّ وجلّ–: ﴿اللهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ* نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ* مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾[6].

(1) رواه ابن حبان في صحيحه، واللفظ له، والحاكم قال صحيح الإسناد.

(2) سورة البقرة: الآية 136

(3) سورة النساء: الآية 136

(4) سورة الحشر: الآية 7

(5) سورة آل عمران: الآية 7

(6) سورة آل عمران: الآية 2–4

شريعة الغاب والخرافة

٢

الفصلُ الثاني

القرآن الكريم والسنة المطهّرة

المبحث الأوّل: خصائصُ القرآنِ والسُّنَّةِ، ومكانتُهما في التشريع.

إنّ القرآنَ هو معجزةُ الإسلامِ الراسخةُ، التي لا يزيدُها التقدُّمُ العلميُّ إلّا رسوخًا في الإعجازِ الذي أنزلَهُ اللهُ على خاتَمِ الأنبياءِ والمرسلينَ محمَّدٍ –صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ– ليخرِجَ العبادَ من عبادةِ العبادِ إلى عبادةِ ربِّ العبادِ، ومنَ الظلماتِ إلى النورِ، ومن التهلُكةِ إلى النجاةِ، ويهديهِم إلى الصراطِ المستقيمِ، فكان –صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ– يبلِّغُه لصحابتِه –وهُم عربٌ خُلَّصٌ– فيفهمونَه، ويسألونَ رسولَ الله –صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ– عنه.

رُوِيَ عن أبي عبدِ الرحمنِ السُّلميِّ، أنَّهُ قالَ: «حَدَّثَنا الذين كانوا يُقرِئُونَنا القرآنَ، كعثمانَ بنِ عفان وعبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ، وغيرِهما، أنهم كانوا إذا تعلَّمُوا منَ النبيِّ –صلّى اللهُ عليهِ وسلّم– عَشرَ آياتٍ لم يجاوِزُوها حتى يتعلَّموا ما فيها منَ العلمِ والعمل»، قالوا: «فتعلَّمْنا القرآنَ، والعلمَ، والعملَ جميعًا»[1].

ولئِن كانَ رسولُ اللهِ –صلّى اللهُ عليه وسلّم– قد أذِنَ لبعضِ صحابتِه بعدَ ذلك في كتابةِ الحديثِ، فإنّ ما يتّصِلُ بالقرآنِ ظلَّ يعتمدُ على الروايةِ بالتلقينِ في عهدِ رسولِ اللهِ –صلّى الله عليه وسلّم– وفي خلافةِ أبي بكرٍ، وعمرَ –رضيَ اللهُ عنهما–[2].

---

(1) أخرج عبد الرزاق ما في معناه عن معمر عن عطاء بن السائب عن أبي عبد الرحمن السلمي، وأخرجه ابن جرير في مقدّمة تفسيره عن عطاء، عن ابن عبد الرحمن وصحّحه أحمد شاكر، فإنّ أبا عبد الرحمن السلمي تابع لا يحدّث إلّا عن الصحابة.

(2) جُمع القرآنُ أوّلَ جمعٍ في عهد الخليفة أبي بكر الصديق –رضي الله عنه– بعد معركة اليمامة.

أمّا في خلافةِ عثمانَ -رضيَ اللهُ عنه- فقدِ اقتضتِ الدواعي لجمعِ المسلمينَ على مصحفٍ واحدٍ، فتمَّ ذلك، وسُمِّيَ بالمصحفِ الإمامِ، وأُرسلَت نُسَخٌ منهُ إلى الأمصارِ، وسُمِّيَت كتابتُه بالرسمِ العثمانيِّ، نسبةً إليه، ويُعَدُّ هذا بدايةً لعلمِ رسمِ القرآنِ، ولا حاجةَ للتطرُّقِ لهذا العلمِ المهمِّ في دراستِنا هذه.

ثمّ كانت خلافةُ عليٍّ -رضيَ اللهُ عنه- فوَضعَ أبو الأسودِ الدؤليُّ بأمرٍ منه قواعدَ النحوِ؛ صيانةً لسلامةِ النطقِ وضبطًا للقرآنِ الكريم، ويُعَدُّ هذا كذلك بدايةً لـ (علمِ إعرابِ القرآن).

وعن تفسيرِ القرآنِ الكريمِ قالَ ابنُ تيميةَ[1]: «وأمّا التفسيرُ فأعلمُ الناسِ بهِ أهلُ مكةَ، لأنّهم أصحابُ ابنِ عباس كمجاهد، وعطاءِ بنِ أبي رباح، وعكرمةَ مولى ابنِ عباس، وغيرِهم من أصحابِ ابنِ عباس، كطاوُس، وأبي الشعثاءِ، وسعيدِ بنِ جبيرٍ وأمثالِهم. وكذلك أهلُ الكوفةِ من أصحابِ ابنِ مسعودٍ، ومن ذلك ما تميزَّوا به عن غيرِهم، وعلماءِ أهلِ المدينةِ في التفسيرِ، مثلِ زيدِ بنِ أسلمَ، الذي أخذَ عنهُ مالكٌ التفسيرَ، وأخذَ عنه أيضًا ابنُه عبدُ الرحمن، وعبدُ اللهِ بنُ وهبٍ، والذي رُويَ عن هؤلاءِ جميعًا يتناولُ: علمَ التفسيرِ، وعلمَ غريبِ القرآنِ، وعلمَ أسبابِ النزولِ، وعلمَ المكّيِّ والمدنيِّ، وعلمَ الناسخِ والمنسوخِ، ولكنّ هذا كلَّه ظلَّ معتمدًا على الروايةِ بالتلقين».

وتحدَّى رسولُ اللهِ -صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ- العربَ بالقرآنِ، وقد نزلَ بلسانِهم، وهُم أربابُ الفصاحةِ والبيانِ، فعجَزوا عن أن يأتوا بمثلِه، أو بعَشرِ سورٍ مثلِه، أو بسورةٍ من مثلِه، فثبَتَ لهُ الإعجازُ، وبإعجازِه ثبتَتِ الرسالةُ. وكتبَ اللهُ للقرآنِ الكريمِ

(1) مقدّمة ابن تيمية في أصول التفسير، ص 15

الحفظَ والنقلَ المتواترَ دونَ تحريفٍ أو تبديلٍ؛ فمِن أوصافِ جبريلَ الذي نزَلَ به: قال -جلَّ وعلا-: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾[1]، وعطفًا على جبريلَ -عليهِ السلامُ- فقد تحدَّثَ ابنُ القيِّمِ عن عداوةِ اليهودِ لجبريلَ -عليهِ السَّلامُ- فقال: «وقالتِ اليهودُ للنبيِّ -صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ-: «مَن صاحبُك الذي يأتيكَ منَ الملائكة؟ فإنّه ليسَ من نبيٍّ إلّا يأتيهِ ملَكٌ بخبرٍ، قال: هو جبريلُ. قالوا: ذاك الذي ينزلُ بالحربِ والقتالِ، ذاك عدوُّنا. لو قلتَ ميكائيلَ الذي ينزلُ بالنباتِ والقَطرِ والرحمة؟ فأنزلَ اللهُ -عزَّ وجلَّ-: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ * مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ﴾[2]».

وعن أنسٍ -رضيَ اللهُ عنهُ- قالَ: «سَمِعَ عبدَ اللهِ بنِ سلامٍ مَقْدِمَ رسولِ اللهِ -صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ- المدينةَ -وهوَ في أرضٍ يخترفُ- فأتَى النبيَّ -صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ- فقالَ: إنّي تساءلتُ عن ثلاثٍ لا يعلمهُنَّ إلّا نبيٌّ، فما أوّلُ أشراطِ الساعة؟ وما أوّلُ طعامِ أهلِ الجنَّةِ؟ وما ينزِعُ الولدُ إلى أبيهِ أو إلى أُمِّه؟ قال: «أخبرَني بهِنَّ جبريلُ آنفًا». قال: جبريل؟ قال: نعم. قال: ذلك عدوُّ اليهودِ منَ الملائكةِ، فقرأَ هذهِ الآية: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ﴾[3] أمّا أوّلُ أشراطِ الساعة...»[4].

وبالعودةِ إلى القرآنِ وأوصافِ المنزَّلِ عليهِ قال -عزّ وجلّ-: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ*

(1) سورة الشعراء: الآية 193

(2) سورة البقرة: الآيتان (97-98)؛ إغاثة اللهفان: 2/ 129، والحديث عزاه محقّق الكتاب إلى أحمد والترمذي والنسائي، وقال الترمذي: حسن غريب.

(3) سورة البقرة: الآية 97

(4) صحيح البخاري: 4480

فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ* لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾[1]، وقوله –عزَّ وجلّ–: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ* ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ* مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ* وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ* وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ* وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾.[2]ولم تكُن هذهِ الميزةُ لكتابٍ آخرَ منَ الكتبِ السابقةِ لأنّها جاءتْ موقوفةً بزمنٍ خاصٍّ، وصدقَ اللهُ إذ يقول: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[3].

أضِف إلى ذلك العنايةُ التي بعثَها اللهُ في نفوسِ الأمَّةِ المحمَّديَّةِ اقتداءً بنبيِّها، فقد بقيَ القرآنُ محفوظًا في حرزٍ حريزٍ، إنجازًا لوعدِ اللهِ الذي تكفَّلَ بحفظِه، فلم يُصِبهُ ما أصابَ الكتبَ الماضيةَ منَ التحريفِ والتبديلِ وانقطاعِ السَّنَد. ومن جوانبِ هذهِ التفرقةِ أنَّ سائرَ الكتبِ السَّماويَّةِ قد جِيءَ بها على التوقيتِ لا التأبيدِ، وأنَّ هذا القرآنَ جِيءِ بهِ مُصدِّقًا لِما بينَ يديهِ منَ الكُتُبِ ومهيمِنًا عليها، فكان جامعًا لما فيها منَ الحقائقِ الثابتةِ زائدًا عليها بما شاءَ اللهُ زيادتَه، وكان سائرًا مسيرها، ولم يكن شيءٌ منها ليسدَّ مسدَّه، فقضى اللهُ أن يبقَى حُجَّةً إلى قيامِ الساعةِ، وإذا قَضى اللهُ أمرًا يَسَّرَ لهُ أسبابَه، وهو الحكيمُ العليم. وقد سَمَّى اللهُ القرآنَ الكريمَ بأسماءٍ كثيرةٍ منها:

1. **القرآن**: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾(4)
2. **الفرقان**: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾[5]
3. **الكتاب**: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾[6]

---

(1) سورة الواقعة: الآيتان 77–79

(2) سورة التكوير: الآيات 19–24

(3) سورة الحجر: الآية 9

(4) سورة الإسراء: الآية 9

(5) سورة الفرقان: الآية 1

(6) سورة الأنبياء: الآية 10

4. **الذكر:** ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[1]

5. **التنزيل:** ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[2]

وفي تسمِيته بهذينِ الاِسمَين إشارةٌ إلى أنَّ مِن حقِّه العنايةَ بحفظِه في موضعَين لا في موضِعٍ واحدٍ، أعني أنّه يجبُ حفظُه في الصدورِ والسطورِ معًا، أن تضِلَّ إحداهُما فتذكِّرَ إحداهُما الأخرَى، فلا ثقةَ لنا بحفظِ حافظٍ حتّى يوافقَ الرسمَ المجمَعَ عليه منَ الصحابة، المنقولَ إلينا جيلًا بعدَ جيلٍ على هيئتِه التي وَضِعَ عليها أوَّلَ مرةٍ، ولا ثقةَ لنا بكتابةِ كاتبٍ حتّى يوافقَ ما هوَ عندَ الحُفَّاظِ بالإسنادِ الصحيحِ المتواتر[3].

هذا وقد وصفَ اللهُ القرآنَ بأوصافٍ كثيرةٍ، منها:

نور: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾[4]

1. **مبارك:** ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾[5]

2. **مبين:** ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾[6]

3. **بشرى:** ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[7]

4. **عزيز:** ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾[8]

5. **مجيد:** ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ﴾[9]

---

(1) سورة الحجر: الآية 9

(2) سورة الشعراء: الآية 192

(3) مناع القطان: مباحث في علوم القرآن، ص 16-17

(4) سورة النساء: الآية 174

(5) سورة الأنعام: الآية 92

(6) المائدة: الآية 15

(7) سورة البقرة: الآية 97

(8) سورة فصّلت: الآية 41

(9) سورة البروج: الآية 21

6. **بشير ونذير:** ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾[1]

7. **هدى، وشفاء، ورحمة، وموعظة:** ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[2].

وهنا تِبيانٌ للفَرقِ بينَ القرآنِ الكريمِ والحديثِ القُدُسِيِّ، ذلك أنَّنا سوفَ نستندُ للعديدِ منَ الأحاديثِ القُدُسيّةِ في بحثِنا هذا، بالإضافةِ إلى الأحاديثِ النبويّةِ، حيثُ إنَّ هناكَ عدّةَ فروقٍ بينَ القرآنِ الكريمِ والحديثِ القُدُسيِّ، نبيِّنُ هنا أهمَّها:

أوّلًا- أنَّ القرآنَ الكريمَ كلامُ اللهِ أوحِيَ بهِ إلى رسولِ اللهِ - ﷺ اللهُ عليهِ وسلَّمَ- بلفظِه، وتحدَّى بهِ العربَ، فعجَزوا عنِ الإتيانِ بمثلِه، أو بعَشرِ سورٍ مثلِه، أو حتّى بسورةٍ واحدةٍ من مثلِه، ولا يزالُ التحدِّي بهِ قائمًا، فهوَ معجزةٌ خالدةٌ إلى يومِ الدينِ تمايزَ بها القرآنُ الكريمُ عن غيرِه منَ الكتبِ السماويةِ الأخرى، أمّا الحديثُ القدسيُّ لم يقعْ بهِ التحدِّي والإعجاز.

ثانيًا- والحديثُ القدُسيُّ كما عُرِّفَ اصطلاحًا: فهوَ ما يضيفُه النبيُّ -صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ- إلى اللهِ -عزَّ وجلَّ-، أيْ أنَّ النبيَّ يرويهِ على أنَّهُ من كلامِ اللهِ، فالرسولُ راوٍ لكلامِ اللهِ بلفظٍ من عندِه، إذا رواهُ أحدٌ، رواهُ عن رسولِ اللهِ مسنَدًا إلى اللهِ -عزَّ وجلَّ-، فيقولُ: «قالَ رسولُ اللهِ -صلَّى اللهِ عليهِ وسلَّمَ- فيما يرويهِ عن ربِّه...»، أو يقول: «قال رسولُ اللهِ -صلّى اللهُ عليه وسلّم-: قالَ اللهُ، أو يقولُ اللهُ -عزّ وجلّ-..».

ثالثًا- والقرآنُ الكريمُ لا يُنسَبُ إلّا للهِ -عزَّ وجلَّ-، فيُقال: قالَ اللهُ -عزَّ وجلَّ-. والحديثُ القدُسيُّ -كما سَبَقَ- قد يُرَى مُضافًا إلى اللهِ تعالى، وتكونُ النسبةُ إليهِ

(1) سورة فصّلت: الآية 3-4

(2) سورة يونس: الآية 57

حينئذٍ نسبةَ إنشاءٍ، فيُقال: قالَ اللهُ -عزَّ وجلَّ-، أو يقولُ اللهُ -عزَّ وجلَّ-، وقد يُروَى مُضافًا إلى رسولِ اللهِ -صلّى اللهُ عليهِ وسلّم-، وتكونُ النسبةَ حينئذٍ نسبةَ إخبارٍ، لأنّه -عليه الصلاةُ والسلامُ- هو المخبِرُ بهِ عنِ اللهِ -عزَّ وجلَّ-، فيُقال: قالَ رسولُ اللهِ -صلّى اللهُ عليهِ وسلّم- فيما يرويه عن ربِّه -عزَّ وجلَّ-.

رابعًا- القرآنُ الكريمُ جميعُه منقولٌ بالتواترِ، فهوَ قطعيُّ الثبوتِ، والأحاديثُ القدُسيّةُ أكثرُها أخبارُ آحادٍ، فهيَ ظَنّيّةُ الثبوتِ، وقد يكونُ الحديثُ القدُسيُّ صحيحًا، وقد يكونُ حسنًا، وقد يكونُ ضعيفًا.

خامسًا- القرآنُ الكريمُ من عندِ اللهِ لفظًا ومعنىً، فهوَ وحيٌ باللفظِ والمعنَى، أمّا الحديثُ القدسيَّ فمَعناهُ من عندِ اللهِ، ولفظُه من عندِ رسولِ اللهِ -صلّى اللهُ عليهِ وسلّم- على الصحيحِ، فهو وَحيٌ بالمعنَى دونَ اللفظِ، ولذا تجوزُ روايتُه بالمعنَى عندَ جمهورِ المحدِّثين.

سادسًا- القرآنُ الكريمُ متعبَّدٌ بتلاوتِه، فهوَ الذي تتعيَّنُ القراءةُ بهِ في الصَّلاة: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾[1]، وقراءتُه عبادةٌ يُثِيبُ اللهُ عليها بما جاءَ في الحديثِ النبويِّ: «مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لَا أَقُولُ: ألم حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ وَلَامٌ حَرْفٌ وَمِيمٌ حَرْفٌ»[2].

والحديثُ القدُسيُّ لا يُجزِئُ في الصَّلاةِ، ويُثِيبُ اللهُ على قراءتِه ثوابًا عامًّا، فلا يَصدُقُ فيهِ الثوابُ الذي وردَ ذكرُه في الحديثِ على قراءةِ القرآنِ بكلِّ حرفٍ عشرُ حسنات.

(1) سورة المزمل: الآية 20

(2) أخرجه الترمذي (2910) واللفظ له، وأبو نعيم في حلية الأولياء (263/ 6) والبيهقي في شعب الإيمان (1983) باختلاف يسير

سابعًا– ويعودُ إطلاقُ اسمِ الحديثِ القدُسيِّ على هذا النوعِ منَ الأحاديثِ نسبةً إلى القُدُسِ، وهي نسبةٌ تدلُّ على التعظيمِ، لأنَّ مادةَ الكلمةِ دالَّةٌ على التنزيهِ والتطهيرِ، وتقدَّسَ: تطهَّرَ، أمّا التقديسُ فهوَ تنزيهُ اللهِ –عزَّ وجلَّ–؛ إذ قال اللهُ –عزَّ وجلَّ– على لسانِ ملائكتِه: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾[1]؛ أي نطهِّرُ أنفسَنا لك.

ونختمُ هذا المطلبَ (تعريفُ القرآنِ الكريم) بتبيانِ موقفِ المسلمِ من كتابِ اللهِ ––عزَّ وجلَّ–، والتمثّلِ في الإذعانِ والتسليمِ بكلِّ ما جاءَ فيه، ممّا يتعلّقُ بالعقائدِ والعباداتِ والأخلاقِ والمعاملاتِ، فالقرآنُ الكريمُ لم يفرِّقْ بينَها، فكلُّها تتضمَّنُ كلماتِ اللهِ الهاديةَ إلى أقوَمِ سبيلٍ، الداعيةَ إلى كلِّ هدىً ورشَدٍ، والمحذِّرةَ من كلِّ ضلالٍ وغيٍّ؛ كما قالَ ابنُ مسعودٍ –رضيَ اللهُ عنه–: إذا سمعتَ اللهَ –عزَّ وجلَّ– يقولُ: ﴿يا أيُّها الذينَ آمنوا﴾ فأصغِ لها سمعَك فإنَّه خيرٌ تُؤمَرُ بهِ أو شرٌّ تُصرَفُ عنه».

إنّ ما جِيءَ به في القرآنِ الكريمِ قد حدَّدَ لنا ربّانيّةَ مصدرِه، ووفَّرَ علينا الجهدَ والوقتَ للبحثِ في ثبوتِ نسبِه أو نِسبتِه، بعدَ أن ثبتَ بالتواترِ اليقينيِّ الذي لم يتوافَرْ لكتابٍ دينيٍّ من قَبلُ. فهوَ كلامُ اللهِ –عزَّ وجلَّ–، الموحَى به إلى محمَّدٍ –صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ–، المحفوظُ في الصدورِ، المتلوُّ بالألسنةِ، المكتوبُ في المصاحفِ، المحفوفُ بالتكريمِ، الذي: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[2].

كما ثبتَ بالأدلّةِ العقليةِ القاطعةِ أنَّ هذا القرآنَ من عندِ اللهِ، وأنّه آيةُ محمَّدٍ الكُبرى، ومعجزتُه العظمَى الباقيةُ على مرِّ الدهورِ، وكرِّ العصورِ؛ لأنّ أمَّةَ محمَّدٍ

(1) سورة البقرة: الآية 30.

(2) سورة فصّلت: الآية 42

-صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ- باقيةٌ إلى قيامِ الساعةِ، فهي خاتمةُ الأممِ، كما أنّ رسولَها خاتمُ الرُّسلِ والنبيِّينَ، فناسَبَ أن يكونَ كتابُها خاتمَ الكتبِ السماويّةِ كافّةً[1].

القرآن الكريم والسنة النبوية المطهّرة

تمايز القرآن الكريم:

إنّ للقرآنِ الكريمِ منزلةً خاصّةً تمايَزَ بها عن سائرِ الكتبِ السماويّةِ التي تقدَّمَتهُ في النزولِ، فمِمّا لا شكَّ فيهِ عندَ الدارسينَ للعلومِ القرآنيّةِ، والواقفين على أسرارِ القرآنِ وعجائبِه، العالِمين بما حواهُ من أصلٍ للعقيدةِ وأصولٍ للشريعةِ وقواعدِها، والمدركينَ للحقائقِ العلميَّةِ التي أَثبتَها القرآنُ الكريمُ، ولفتَ النظرَ إليها؛ مقدارُ هذا التمايزِ القرآنيِّ كونه ناسخًا لِما سبقَه من كتبٍ سماويَّةٍ لفظًا وحكمًا، فلا تُقرأ للتعبُّدِ، ولا يُعمل بما حوَته من شرائعَ وأحكام.

وقد تجلّى هذا التمايزُ القرآنيُّ بنقاطٍ خمسٍ، يمكنُ استجلاؤُها وتلخيصُها بما يأتي:

أوّلًا- لِما داخَلَها من تحريفٍ، وما أصابَها من تضييعٍ ونسيانٍ، إذ لم يبقَ فيها ما يجزمُ بصحّةِ نسبِه إلى اللهِ -عزَّ وجلَّ- أبدًا، عرفَ هذهِ الحقيقةَ وأقرَّها المنصِفونَ والمحقِّقون من علماءِ أهل الكتابَين معًا.

وثانيًا- كانَ التشريعُ فيها خاصًّا ببني إسرائيلَ وموقوفًا بزمنٍ معيَّنٍ، وليسَ أدلّ على نَسخِ القرآنِ الكتبَ قبلَه من أمرِ اللهِ -عزَّ وجلَّ- لنبيِّه محمَّدٍ -صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ- أن يحكمَ بينَ سائرِ الناسِ على اختلافِ ما ينتَحِلونَ من دياناتٍ بالقرآنِ

(1) يوسف القرضاوي: المرجعيّة العليا في الإسلام للقرآن والسنّة (ضوابط ومحاذير في الضبط والتفسير).

الحكيمِ، وذلك في قولِ اللهِ –عزَّ وجلَّ-: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ، وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾[1]، وقولِه –عزَّ وجلَّ-: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ۚ﴾[2].

1. **ال**: هنا (العهديَّة) تدلُّ على الكمالِ فيه، فهوَ الكتابُ الذي أكملَ اللهُ بهِ الدينَ، وهوَ الحريُّ أن ينصرفَ إليهِ لفظُ الكتابِ دونَ غيرِه منَ الكتبِ السابقةِ، ومعنى (بالحقّ): متلبسًا به مؤيّدًا به، مكمّلًا عليه، معزّزًا له.
2. **ال**: في الكتابِ، للجنس، أي: من جنسِ الكتابِ، فيدخلُ في ذلك التوراةُ والزبورُ والإنجيلُ وغيرُها، كونه مهيمنًا عليها رقيبًا شهيدًا، فما صحَّحَهُ منها وأقرَّهُ فيها صحَّ وقرَّ، وما أبطلَه منها ونَفاه- لكونِه دخيلًا عليها ليسَ منها- بطلَ وانتفى، كما جاءَ شاهدًا في الآيةِ السابقة: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾؛ كون ما يحملُ منَ التشريعِ الإلهيِّ عامًا لكلِّ الناسِ في أيِّ مكانٍ كانوا، وفي أيِّ زمانٍ وُجدوا، وذلك لعمومِ رسالةِ صاحبِه المنزَّلِ عليه –صلَّى اللهُ عليهِ وسلّم–، إذ قال الله–عزَّ وجلَّ– : ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾[3]، وقالَ –عزَّ وجلَّ-: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾[4]،

(1) سورة المائدة: الآية 48
(2) سورة النساء: الآية 105
(3) سورة الفرقان: الآية 1
(4) سورة الأعراف: الآية 158

وقال أيضاً: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾[1]، بخلافِ الكتبِ التي سبقتهُ، فإنّها كانتْ خاصّةً في المكانِ والزمانِ، ولا عمومَ فيها البتَّة.

وتعهّدَ الربُّ بحفظِه إلى أن يرفعَه إليه؛ إذ قالَ اللهُ –سبحانَه وتعالى–: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[2]، وقال أيضاً: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ۞ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[3]؛ فحفِظَهُ الربُّ –عزَّ وجلَّ– بأن قيَّضَ له رجالًا أُمناءَ، حفِظوهُ في صدورِهم وسطورِهم، لم تقوَ يدُ الزمانِ ولا يدُ العدوانِ على أن تزيدَ فيهِ حرفًا، ولا أن تنقِصَ منه حرفًا، بخلافِ غيرِه منَ الكتبِ، وخاصةً التوراةَ، فقد ضاعت كلُّها في غزوِ (بختنصر) البابليِّ لمملكةِ بني إسرائيلَ، ولم يُعثَر عليها إلّا فيما بعد، ثمّ ما إن جُمعت –واللهُ أعلمُ بصحَّةِ ما جُمِعَ فيها– حتّى تسلَّطَ عليها عبَدةُ المادةِ فحرَّفوها وبدَّلُوها حسبَ مصالحِهم وأهوائِهم، أمّا الإنجيلُ فيكفي في الدلالةِ على عدمِ حِفظِه أنَّه اليومَ خمسةُ أناجيلَ[4]، بعد أن كان يومَ نزولِه إنجيلًا واحدًا!. كذلك شمولُه لأصولِ الهدايةِ البشريّةِ وفروعِها، واحتواؤُه على أعظمِ منهجٍ ربّانيٍّ محقّقٍ لسعادةِ الإنسانِ في الدنيا وفي الآخرةِ؛ متى آمنَ بهِ وعملَ بما فيه، إذ قال اللهُ –تبارك وتعالى–: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ۞ يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ

(1) سورة سبأ: الآية 28

(2) سورة الحجر: الآية 9

(3) سورة فصّلت: الآية 41-42

(4) هي أناجيل: متّى ومرقص ولوقا ويوحنا وبيرنابا، انظر: عقيدة المؤمن، لأبي بكر الجزائريّ.

وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1].

وهنا أهمُّ المزايا والخصائصِ التي خَصَّ بها اللهُ القرآنَ الكريمَ عنِ الكتبِ السَّماويّةِ جميعِها، وهي:

أنّ اللهَ جعلَه متضمِّنًا لخلاصةِ التعاليمِ الإلهيةِ التي تتضمَّنُها التوراةُ والإنجيلُ وسائرُ ما أنزلَ اللهُ -عزَّ وجلَّ- من وصايا، وهو مؤيدٌ للحقِّ الذي جاءَ بها من توحيدِ اللهِ -عزَّ وجلَّ- وعبادتِه ووجوبِ طاعتهِ والتصديقِ بالجزاءِ ووجوبِ إقامةِ الحقِّ والتخلُّقِ بمكارمِ الأخلاقِ، حيثُ قالَ اللهُ -تعالى-: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[2].

2. أنّه جاء مهيمنًا ورقيبًا على الكتبِ السُّماويةِ المتقدِّمة له، يقرُّ ما فيها من حقٍّ، ويبيِّنُ ما دخلَ عليها من تحريفٍ وتبديلٍ، والآيةُ السابقةُ دليلٌ على ذلك.

3. أنّ القرآنَ الكريمَ جاءَ بشريعةٍ عامّةٍ للبشرِ، فيها كلُّ ما يلزمُهم لسعادتِهم في الدارَين، نسَخَ بها جميعَ الشرائعِ العمليةِ الخاصّةِ بالأقوامِ السابقةِ، وأثبتَ فيها الأحكامَ النهائيةَ الخالدةَ الصالحةَ لكلِّ زمانٍ ومكان.

4. أنّ القرآنَ الكريمَ هو الكتابُ السماويُّ الوحيدُ الذي تكفَّلَ اللهُ بحفظِه، فصانَه مِن أن تمتدَّ إليهِ يدٌ بالتحريفِ أو التصحيفِ أو التغييرِ أو التبديلِ، قال اللهُ -عزَّ وجلَّ-: ﴿إِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ

(1) سورة المائدة: الآية 15-16

(2) سورة المائدة: الآية 48

حَمِيدٍ﴾[1]، وقالَ -عزَّ وجلَّ-: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[2]؛ وذلك حتّى يبقَى حجَّةَ اللهِ القائمةَ على الناسِ إلى يومِ يُبعثون.

5. أنّ القرآنَ أنزلَه اللهُ -جلَّ وعلا- للناسِ كافّةً، وليسَ لقومٍ معيَّنينَ خاصةً، كما كانتِ الكتبُ السَّماويةُ السابقةُ، إذ قالَ اللهُ -عزَّ وجلَّ-: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾[3]

6. أنّ القرآنَ الكريمَ جاءَ سهلًا ميسَّرًا يصلُ إلى العقولِ والأسماعِ بيُسرٍ، كما أنّه ميسَّرٌ للحفظِ والفَهمِ؛ حتّى لا يشقَّ على الناسِ بما فيه، قال اللهُ -عزَّ وجلَّ-: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾[4]؛ ولذلك فقد حفظَه الأطفالُ والرجالُ والنساءُ، وجميعُ طبقاتِ الناسِ، وهذا من حِفظِ اللهِ -عزَّ وجلَّ- له، وحتّى يُذاعَ في الأرضِ، ولا يكونَ لأحدٍ على اللهِ حجّةٌ.

قرآنُ الهدى والخير:

وإنّ من أهمِّ ما يمايزُ القرآنَ الكريمَ عن غيرِه منَ الكتبِ السَّماويَّةِ هو ما فيه من هُدىً وخيرٍ للناسِ كافةً، وهذا بيانُ ذلكَ وتحقيقُه:

أوّلًا- الهدى: الهدَى الموصِلُ إلى كلِّ خيرٍ، والمرشدُ إلى كلِّ كمالٍ، والهدَى للحقِّ وإحقاقِه، والهادي إلى السعادةِ في الدارَين، إذ قال اللهُ -عزَّ وجلَّ-: ﴿الم۞

(1) سورة فصلت: الآية 41-42

(2) سورة الحجر: الآية 9

(3) سورة سبأ: الآية: 28

(4) سورة القمر: الآية 17

﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[1]

ثانيًا- الرحمة: الرحمةُ بأتمِّ معناها، الرحمةُ التي تعمُّ الإنسانَ والجانَّ والحيوانَ والكبيرَ والصغيرَ والكافرَ والمؤمنَ والحيَّ والميِّتَ؛ قالَ -عزَّ وجلَّ- في إثباتِها: {الم* تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ * هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ}[2]

ثالثًا- الشفاء: الشفاءُ التامُّ العامُّ لجميعِ الأمراضِ العقليَّةِ والنفسيّةِ والقلبيّةِ، شفاءٌ منَ الكُفرِ والشركِ، والقلقِ والاضطرابِ، والحيرةِ والخوفِ، والكِبرِ والحَسدِ، والكسَلِ والعجزِ، والبخلِ والشحِّ، والظلمِ والخرَفِ؛ قال الله -عزَّ وجلَّ- في إثباتِ هذا الشفاءِ وتقريرِه: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[3].

رابعًا- النور: إنّه النورُ الكاشفُ لجميعِ الظلماتِ القلبيةِ، والمبدِّدُ لسائرِ الجهالاتِ النفسيّةِ، والمبينُ لسائرِ الحقائقِ والأسرارِ الكونيَّةِ؛ قالَ اللهُ في تقريرِ نورانيّتِه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾[4].

خامسًا- الموعظة: الموعظةُ الداعيةُ إلى اكتسابِ كلِّ فضيلةٍ، والزاجرةُ عن كلِّ رذيلةٍ؛ قال اللهُ -عزَّ وجلَّ- في ذلك: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾[5].

سادسًا- البشرى: البشرَى بخيرِ الدنيا والآخرةِ وسعادتِهما؛ قالَ اللهُ -عزَّ وجلَّ- في ذلك: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾[6].

(1) سورة البقرة: الآية 1-3
(2) سورة لقمان: الآية 1-3
(3) سورة الإسراء: الآية 83
(4) سورة النساء: الآية 174
(5) سورة يونس: الآية 57
(6) سورة النمل: الآية 89

سابعًا- الحقّ الإلهيّ: الحقُّ الإلهيُّ الثابتُ في نفسِه، المحقّقُ المثبتُ لغيرِه من كلِّ ما هو حقٌّ، فكلُّ حقٍّ القرآنُ يؤيِّدُه ويقرِّرُه؛ قالَ اللهُ -عزَّ وجلَّ-: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾(1)، وقال: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾(2)، أي متلبّسًا به، مشتملًا عليه، مؤيّدًا له، ومقرِّرًا.

ثامنًا- الذِّكر الإلهيّ: الذكر الإلهيّ الذي تحيا عليه القلوبُ، وتطيبُ بتلاوتِه الأرواحُ، وتزكو بالعملِ بهِ النفوسُ، هو الذِّكرُ المُكسِبُ للشرفِ، والموصِلُ لحضرةِ القُدُسِ، والرافعُ إلى ملأِ الأخيارِ، قال -تعالى-: ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾(3)، وقال في الحديثِ عنه: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾(4)

تاسعًا- الخير: الخيرُ العامُّ لكلِّ إنسانٍ وجانٍّ وحيوانٍ، فما مِن كائنٍ في هذهِ الحياةِ إلّا ونالَهُ من خيريَّةِ القرآنِ من يومِ نزولِه إلى يومِ رفعِهِ إلى اللهِ، وقبضِهِ إليهِ، إلّا مَن كان من المطرودين من شياطينِ الإنسِ والجانِّ، المبلِسينَ من كلِّ خيرٍ، قالَ اللهُ -عزّ وجلَّ-: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا خَيْرًا﴾(5).

عاشرًا- التِّبيانُ والبيان: التِّبيانُ والبيانُ لكلِّ شيءٍ ممّا يحتاجُه الإنسانُ، وممّا تتوقَّفُ عليهِ سعادتُه الدنيويةُ والأخرويةُ؛ قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾(6)

---

(1) سورة الإسراء: الآية 105

(2) سورة المائدة: الآية 48

(3) سورة ص: الآية1

(4) سورة الزخرف: الآية 99

(5) سورة النحل: الآية 30

(6) سورة النحل: الآية 89

أحد عشر – الروح:[1] الروحُ التي تتوقَّفُ عليها حياةُ الإنسان؛ فالقرآنُ هو الروحُ اللازمةُ للحياةِ الفاضلةِ الكريمةِ، إنَّ الناسَ دونَ أن تسريَ فيهِمُ الروحُ القرآنيةُ أمواتٌ حقًّا، لا ينتفِعونَ بوجودِهم ولا بحياتِهِمُ الماديّة؛ قالَ اللهُ تعالى في هذا: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[2]. وبالرجوعِ إلى تلكَ اللوحةِ الرَّبَّانيَّةِ المشرِقةِ بنورِ القرآنِ وهدايتِه يتبيَّنُ لنا بحقٍّ وصِدقٍ أنَّ في تمايُزِ القرآنِ الكريمِ عن غيرِه منَ الكتبِ السَّماويةِ منَ الهُدى والخيرِ ما يكفلُ للإنسانِ سعادةَ الدنيا والآخرةِ، غيرَ أنّنا إذا عاودنا النظرَ في تلك اللوحةِ الربانيةِ، لوجدنا أنّ ما في القرآنِ الكريمِ منَ الخيرِ والهُدى الذي تمايزَ به مخصوصٌ بأناسٍ وُصفوا بصفاتٍ أربعَ، هي: الإيمانُ، والإسلامُ، والإحسانُ، والتقوى.

فمنِ استجمعَ تلكَ الصفاتِ فقد تهيَّأَ لتلك الفُيوضاتِ الربّانيَّةِ، وفازَ بما في القرآنِ منَ الخيرِ والهُدى، ومَن قصّرَ عنها ولم يتكمّلها فإنّ حظَّها منه بقدرِ حظِّه منها.

وهذا إيضاحٌ لتلك الصفاتِ الأربعِ:(3)

1. **الإيمان:** بأن يؤمنَ المرءُ إيمانًا عامًّا بكلِّ ما جاءَ بِهِ رسولُ اللهِ –صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ– عنِ اللهِ، ويؤمنُ إيمانًا خاصًّا بما في القرآنِ منَ الهُدى والخيرِ، إيمانًا يحمِلُه على تعرُّفِه عليهِ، وطلبِهِ منه، وذلك بدراسةِ القرآنِ، والعملِ بما فيه منَ العقائدِ والشرائعِ والآدابِ والأخلاق.

---

(1) انظر عقيدة المؤمن، لأبي بكر جابر الجزائري، ص 157

(2) سورة الشورى: الآية 52

(3) أبو بكر الجزائري، عقيدة المؤمن: ص 158–159

2. **الإسلام**: بأن يسلِمَ المرءُ للهِ –عزَّ وجلَّ– قلبَه ووجهَه، فيسخِّرَ كلَّ شيءٍ فيهِ للهِ، بحيثُ لا هَمَّ لهُ إلّا اللهُ –عزَّ وجلَّ–، فيعيشُ طالبًا لِما يرضاهُ اللهُ تعالى منِ اعتقادٍ، وقولٍ، وعملٍ، متجنِّبًا كلَّ ما يُسخِطُ اللهَ –عزَّ وجلَّ– منِ اعتقادٍ وقولٍ وعملٍ.
3. **الإحسان**: بأن يحسنَ في إيمانِه وإسلامِه فيعيشَ يراقبُ اللهَ –عزَّ وجلَّ– في كلِّ ما يأتي ويذَرُ، وما يقدِّمُ ويؤخِّرُ، يراقبُه في طاعتِه كما يراقبُه في معصيتِه، وبعبارةٍ أخرَى، يراقبُه في مَحابِّهِ فيأتيها بصدقٍ ويعملُها بإتقانٍ، وفي مَساخِطِه فيتجنَّبُها في بغضٍ لها، ويبتعِدُ عنها في كُرهٍ منه لها تامٍّ.
4. **التقوى**: وذلك بأن يتّقيَ اللهَ –تعالى– في ألّا يشركَ به، أو أن يعصيَه بتركِ ما أوجبَ عليه، أو التنبُّهِ إليه، أو أن يفعلَ ما حرَّمَه عليهِ أو كرَّهَهُ إليه.

إنَّ منِ استكملَ هذهِ الصفاتِ وحقَّقَها كما هيَ فقدِ استوجبَ كلَّ ما في القرآنِ من خيرٍ وهُدًى، وتحقَّقَ له ذلك كاملًا، فحصَلَ له الشفاءُ في صدرِه وبدَنِه، والرَّحمةُ في قلبِه، والنورُ في بصيرَتِه، والذكرُ والموعظةُ في قولِه، والبيانُ في لسانِه، والحقُّ في حُكمِه، والبُشرَى في حياتِه وآخِرَتِه.

وأمّا مَن لم يستكمِلْ تلك الصِّفاتِ فإنَّه لم ينتفِعْ بما في القرآنِ منَ الهُدى والخيرِ، وليسَ ذلك عائدًا إلى أنّ القرآنَ نفِدَ منهُ هُداه وخيرُه اللذَين كانا فيه، وإنّما هوَ عائدٌ إلى عدمِ أهليَّةِ المرءِ للاستفادةِ منه، وإنّ لذلك مثلًا نضربُه؛ هو وجودُ مريضٍ يوصَفُ له دواءٌ نافعٌ ويقدَّمُ له، ولم يكلِّفْ نفسَه مشقّةَ تناولِه، فيبقَى الدواءُ في خِزانتِه أو إلى جوارِ سريرِ مرضِه، ويظلُّ هو يعاني من آلامِ مرضِه إلى أن يُكرَهَ على استعمالِ الدواءِ فيشربُه، فيُشفى من مرضِه –بإذنِ ربِّه–، أو لا يُكرِهُه أحدٌ على شربِه أوِ استعمالِه فيبقَى يعاني من أسقامِه وأوجاعِه؛ حتّى يهلِكَ بها ويموت، فهلِ الذنبُ في هذا ذنبُ

الدواء؟! الجواب: لا، لأنّ الذنبَ ذنبُ المريض نفسه الذي لم يستعملِ الدواءَ، وهو بَين يدَيه، والذنبُ أيضًا ذنبُ الذينَ يُحيطونَ به من أهلٍ وأصدقاءَ، لأنّهم لم يُجبِرُوه على استعمالِ الدواء.

إن القرآنَ شفاءٌ للصدورِ والعقولِ، لذلك فالواجبُ علينا مواصلةُ إبلاغِ الرسالةِ الإسلاميةِ لنَهدي بها عبادَ اللهِ، ولنشفيَهم ممّا حلَّ بهم من أمراضِ هذا العصرِ الذي تكالَبَ فيهِ أصحابُ شريعةِ الغابِ علَينا وعلى كلِّ داعٍ إلى خيرٍ وناهٍ عن منكرٍ؛ فنحنُ مَن تمايَزنا عن غيرِنا بالإسلامِ، ومَن تمايَزَ إسلامُهم عن غيرِهم بالقرآن، قالَ اللهُ -عزَّ وجلَّ-: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1]، وقالَ في سورةِ الإسراءِ: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾[2]

(1) سورة المائدة: الآية 35

(2) سورة الإسراء: الآية 57

المبحثُ الثاني: السُّنَّةُ النَّبويَّةُ المطهَّرة

السُّنَّة: هي المنهجُ النبويُّ المفصَّلُ في تعليمِ الإسلامِ وتطبيقِه وتربيةِ الأمَّةِ عليه، والذي يتجسَّدُ في قولِ اللهِ –تباركَ وتعالى-: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[1]، ويتمثّلُ ذلكَ في أقوالِه –صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ- وأفعالِه وتقريراتِه[2]، والسُّنَّة: هي المصدرُ الثاني للإسلامِ بعدَ القرآنِ الكريم.

فالقرآنُ هو الدستورُ الذي يحوي الأصولَ والقواعدَ الأساسيةَ للإسلام: عقائدِه، وعباداتِه، وأخلاقِه، ومعاملاتِه، وآدابِه، والسُّنَّةُ: هي البيانُ النظريُّ والتطبيقُ العمليُّ للقرآنِ في ذلك كلِّه؛ ولهذا يجبُ اتِّباعُها والعملُ بما جاءَت بهِ من أحكامٍ وتوجيهاتٍ، وطاعةُ الرسولِ –ﷺ اللهُ علي وسلّمَ- واجبةٌ، كما يُطاعُ فيما بلَّغَهُ من آياتِ القرآنِ، دلَّ على ذلك القرآنُ الكريمُ، ودلَّت على ذلك السُّنَّةُ نفسُها، ودلَّ على ذلك إجماعُ الأمَّةِ، ودلَّ على ذلك العقلُ والنظرُ.

١ . الدليلُ من القرآن:

أوجبَ القرآنُ الكريمُ على المسلمينَ طاعةَ الرسولِ بجوارِ طاعةِ الله، قال اللهُ -تعالى-: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾[3]، وجعلَ طاعتَه طاعةً

---

(1) سورة آل عمران: الآية 164

(2) انظر في السنة ومحتواها، يوسف القرضاوي، المدخل لدراسة السنة النبوية، ص 7 – 38.

(3) سورة النساء: الآية 59

لله: ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ﴾[1]، وجعلَ ثمرةَ طاعتِه الاهتداءَ: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾[2]، كما جعلَ ذلك في اتّباعِه: ﴿وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[3]، وجعلَ اتّباعَ الرسولِ دليلَ محبَّةِ اللهِ ومغفرتِه: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾[4]، وأمرَهم باتّباعِه فيما يأمرُ وينهى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾[5]، وأمرَهُم بالاستجابةِ إلى دعوتِه، واعتبرَ ما يدعوهُم إليه هو الحياةَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[6]

وحذَّرَ من مُخالفةِ أمرِه: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[6]، وأوجبَ الرجوعَ إليه عندَ التنازعِ: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾[7] ولم يجعلْ لمؤمنٍ ولا لمؤمنةٍ خيارًا في قبولِ حُكمِه: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾[8].

وأقسمَ على نفْيِ الإيمانِ عمَّن أعرَضَ عن تحكيمِه، أو لم يقبلْ حُكمَه راضيًا مسلِّمًا: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي

---

(1) سورة النساء: الآية 80
(2) سورة النور: الآية 54
(3) سورة الأعراف: الآية 158
(4) سورة آل عمران: الآية 31
(5) سورة الحشر: الآية 7
(6) سورة الأنفال: الآية 24
(6) سورة النور: الآية 63
(7) سورة النساء: الآية 59
(8) سورة الأحزاب: الآية 36

أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[1]. وجعلَ قبولَ حكمِه أو التولّي عنه المحكَّ الذي يميِّزُ المؤمنَ منَ المنافق: ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ * وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ﴾[2]. قالَ -عزَّ وجلَّ-: {إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[3]. ورغَّبَ في الاقتداءِ به: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا﴾[4].

٢. الدليل من السنّة:

وأمّا السُّنّةُ فقد دلّتِ الأحاديثُ الكثيرةُ على وجوبِ اتِّباعِه -صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ- وطاعتِه؛ ومن ذلكَ ما رواهُ أبو هريرةَ عنِ النبيِّ -عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ- أنّه قالَ: «كلُّ أمتي يدخلُ الجنَّةَ إلا مَن أبى، قيل: ومَن يأبى يا رسولَ اللهِ؟! قال: مَن أطاعني دخلَ الجنَّةَ، ومَن عصاني فقد أبى»[5].

ومِن ذلك ما رواهُ العِرباضُ بنُ ساريةَ، قال: «وَعظَنا رَسُولُ اللهِ -صلّى اللهُ عليهِ وسلّم- مَوْعِظَةً بَلِيغَةً، وَجِلَت منها القلوبُ، وذَرَفَتْ مِنْهَا العُيُونُ، فقلنا: يا رسولَ اللهِ كأنَّها مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ، فأوصِنا، قَالَ: أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ -وإِنْ تأمَّرَ عليكم عَبْدٌ- وإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فسيَرَى اخْتِلافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكم بِسُنَّتِي، وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ

(1) سورة النساء: الآية 65

(2) سورة النور: الآيتان 47 – 48

(3) سورة النور: الآية 51

(4) سورة الأحزاب: الآية 21

(5) رواه البخاري

الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ، فَإِنّ كلَّ بدعةٍ ضَلاَلَةٌ». [1]

فهو يوصِيهم أن يرجِعُوا إلى السُّنَّةِ عندَ كثرةِ الاختلافِ، لتجتمعَ كلمتُهم فلا تضِلهمُ البدَعُ، ولا تتفرَّقُ بهمُ السُّبلُ، ومثلُ ذلك وصيّتُه -عليه الصلاةُ والسلامُ- لهم في حجَّةِ الوداعِ، كما رواها ابنُ عبّاسٍ في حديثِه، وصحَّحَهُ الحاكمُ، ووافقَهُ الذهبيُّ، قال: «إني قد تركتُ فيكم ما إنِ اعتصمتُم به فلن تَضِلُّوا أبدًا، كتابَ اللهِ، وسُنَّةَ نبيِّه». الألباني، صحيح الترغيب.

ومنها حديثُ معاوية -رضيَ اللهُ عنه- قالَ: قامَ فينا رسولُ اللهِ -صلّى اللهُ عليهِ وسلّم- فقال: «أَلَا إِنَّ مَنْ قَبْلَكُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ افْتَرَقُوا عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، وَإِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ، ثِنْتَانِ وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ، وَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ، وَهِيَ الْجَمَاعَةُ» [2]. وفي بعضِ طرقِ الحديث:» أنّه -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- سُئِلَ عن هذهِ الفرقةِ المهتديةِ الناجيةِ، فقال: ما أنا عليهِ وأصحابي». فناطَ النجاةَ بمَنِ اتَّبعَ منهاجَه، وتخرَّجَ في مدرستِه النبويّة.

وممّا ينبغي تسليطُ الضَّوءِ عليهِ في هذا المَطلبِ تلك الأحاديثُ التي حذَّرَت من دعوَى الاستغناءِ بالقرآنِ الكريمِ عنِ السُّنَّةِ المُطهَّرةِ، كما هو شأنُ قلّةٍ من أهلِ الخُمولِ والاسترخاءِ، فقد كشفَ النبيُّ -صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ- النقابَ عنهم من وراءِ الغيبِ، كأنَّه يشاهدُهم رأيَ العَينِ، قالَ -صلّى اللهُ عليهِ وسلّم-: «ألا إنِّي أوتيتُ

(1) رواه أبو داود والترمذي وابن حبان في صحيحه، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح وهو من أحاديث الأربعين النووية.

(2) رواه أحمد وأبو داود رقم 4597 وأخرجه من حديث أبي هريرة: الترمذي في الإيمان برقم 2642 وابن ماجة في الفتن برقم 3991 ورواه الترمذي أيضًا من حديث عبد الله بن عمر.

الكتابَ ومثلَهُ معهُ، ألا يُوشِكُ رجُلٌ ينثني شبعًا على أريكتِهِ يقولُ: عليكُم بِالقُرآنِ فما وجدتُم فيهِ مِن حَلالٍ فأحلُّوه، وما وَجدتُم فيهِ مِن حرامٍ فحرِّمُوه»[1]، وقال –صلّى الله عليه وسلّم–: «لا أُلْفِيَنَّ أحدَكُمْ متكئًا على أريكتِهِ يأتيهِ الأمر من أمري مما أمرتُ بِهِ أو نهيتُ عنهُ فيقولُ: لا تدرِي ما وجدنَا في كتابِ اللهِ اتبعناهُ»[2].

ولا غروَ أنّه حثَّ على تبليغِ السُّنَّةِ، ونشرِها، كما في الحديثِ المشهور: «نضَّر اللهُ امرَأً سمِع منَّا حديثًا فحفِظه حتَّى يُبلِّغَه غيرَهُ؛ فرُبَّ حامِلِ فِقْهٍ إلى مَن هو أفقهُ منه، ورُبَّ حاملِ فِقْهٍ ليس بفقيهٍ»[3].

وقال أيضًا: «نضّرَ اللهُ امرأً سمعَ منا شيئًا فبلّغَه كما سمعَه؛ فرُبَّ مبلَّغٍ أوعَى لهُ من سامِعٍ»[4]. وقال –صلّى الله عليه وسلّم– في حجّةِ الوداع: «ليبلّغِ الشاهدُ الغائبَ، فإنَّ الشاهدَ عسَى أن يبلِّغَ مَن هو أوعَى له منه»[5].

3. إجماعُ الصحابةِ والأمةِ مِن بعدهم:

وقد عرفَ أصحابُ رسولِ اللهِ –صلّى اللهُ عليهِ وسلّم– قيمةَ السنّة، وأجمَعوا على الرجوعِ إليها، وعدُّوها المصدرَ الثانيَ للأحكامِ الشرعيةِ بعدَ القرآن، ومضَى على ذلك الخلفاءُ الراشدون ومَن بعدَهم قولًا وعملًا.

---

(1) رواه أحمد في المسند: 4/ 130–131، وأبو داود في السنن برقم 4604 من حديث المقدام بن معد يكرب، ورواه الترمذي من حديثه أيضًا 2666 بلفظ: «ألا هل عسى رجل يبلغه الحديث عني وهو متكئ على أريكته فيقول بيننا وبينكم كتاب الله، فما وجدنا فيه حلالًا استحللناه وما وجدنا فيه حرامًا حرّمناه، وإن ما حرم رسول الله –صلّى الله عليه وسلّم– كما حرم الله».

(2) رواه أبو داود برقم 4605، والترمذي برقم 2665، من حديث أبي رافع، ورواه أحمد في المسند مختصرًا 6/ 8.

(3) رواه الترمذي من حديث زيد بن ثابت برقم 2658

(4) رواه الترمذي من حديث عبد الله بن مسعود برقم 2659

(5) رواه الترمذيّ من حديث أبي بكرة: 1/ 24

ففي خلافةِ أبي بكر -على سبيلِ المثال- جاءت إحدَى الجَدَّاتِ- بعدَ موتِ حفيدِها- تطلبُ نصيبَها من تَركَتِه، فقالَ لها أبو بكر: ما أجدُ لكِ في كتابِ اللهِ شيئًا، وما علمتُ رسولَ اللهِ -صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ- ذكرَ لكِ شيئًا، ثمّ سألَ الناسَ، فقامَ المغيرةُ بنُ شعبةَ فقال: حضرتُ رسولَ اللهِ - ﷺ اللهُ عليهِ وسلم- أعطاها السدسَ. فقال أبو بكرٍ: هل معك أحد؟ فشهِدَ محمَّدُ بنُ مسلمةَ بمِثلِ ذلك، فأنفذَه أبو بكرٍ -رضيَ اللهُ عنه-.

وهكذا كانت طريقةُ أبي بكرٍ وعمرَ فيما لم يوجَدْ فيهِ حكمٌ بيِّنٌ في الكتابِ، أن يحكُما بالسُّنَّةِ -إن علِماها- فإن لم يكن لديهِما سُنَّةٌ سألا المسلمين وعلماءَهم فاستشارُوهم، فإنِ اجتمعَ رأيهُم على أمرٍ قضَوا به.

وكذلك استمرَّ الصَّحابةُ ومَن تبعَهم بإحسانٍ في الرجوعِ إلى السُّنَّةِ بعدَ القرآنِ لمعرفةِ ما تعبَّدَ اللهُ بهِ عبادَه منَ الحلالِ والحرامِ، وسائرِ الأحكامِ في العباداتِ والمعاملاتِ، واستمرَّ بعدَ الصحابةِ التابعونَ وفقهاءُ الأمصارِ، وأئمَّةُ المذاهبِ المتبوعةِ وأصحابُهم وتلاميذُهم، وغدَتِ السُّنَّةُ للجميعِ المصدرَ الغنيَّ الخصبَ في كلِّ أبوابِ الفقه.

جُلُّ أحكامِ الفقهِ مرجِعُها السُّنَّة:

والحقّ الذي لا مراء فيه: أنّ جُلَّ الأحكامِ التي يدورُ عليها الفقهُ في شتَّى المذاهبِ المعتبرةِ قد ثَبَتَ بالسُّنَّةِ؛ ومن طالعَ كتبَ الفقهِ تبيَّنَ له ذلك بكلِّ جلاءٍ، ولو حذَفنا السُّنَنَ، وما تفرَّعَ واستُنبِطَ منها من تراثِنا الفقهيِّ ما بقيَ عندنا فقهٌ يُذكَر.

ولهذا كان مبحثُ السُّنَّةِ -باعتبارِها الدليلَ الثاني بعدَ القرآن -في جميعِ كتبِ أصولِ الفقهِ، ولدَى جميعِ المذاهبِ المعتبرةِ مَبحثًا صافيًا بتناولِ حِجِّيِّتِها، وثبوتِها، وشروطِ قَبولِها، ودلالتِها، وأقسامِها، إلى غيرِ ذلك ممّا لا يخفَى على الدارسين.

وهذا ينطبقُ على جميعِ المذاهبِ -من مذهبِ داودَ وابنِ حزمٍ الظاهريِّ المنكرِين للقياسِ والتعليلِ، إلى أبي حنيفةَ وأصحابِه الذين يُعرفونَ باسمِ مدرسةِ الرأيِ- في تاريخ الفقه الإسلامي.

ونستطيعُ أن نؤكِّدَ هنا جازمينَ أنّ جميعَ فقهاءِ المسلمينَ من مختلِفِ المدارسِ وشتّى الأمصارِ -ممَّن لهُ مذهبٌ باقٍ أو منقرضٍ متبوعٍ أو غيرِ متبوعٍ- كانوا يرَون الأخذَ بالسُّنَّةِ والاحتكامَ إليها -إذا تبيَّنَت لهم- جزءًا من دينِ اللهِ لا يسَعُهُمُ الخلافُ عن أمرِها، يستوي في ذلك المنتمي إلى مدرسةِ الرأيِ والمنتمي إلى مدرسةِ الحديث.

شبهاتٌ حولَ القرآنِ والسنة

ما ذكرناه عن حِجِّيَّةِ السُّنَّةِ ومكانتِها في التشريعِ كافٍ كلَّ الكفايةِ لمَن له أدنى حظٍّ منَ المعرفةِ، ومع ذلك ابتُلِيَت أمّتُنا -قديمًا وحديثًا- بفئةٍ قليلةِ العِدّةِ، ضعيفةِ العُدّةِ، قصيرةِ العرفانِ، طويلةِ اللسانِ، زعمُوا أنّنا لسنا بحاجةٍ إلى السُّنّةِ، وأنّ القرآنَ الكريمَ يغنينا عنها، وأنّه وحدَه مصدرُ الدينِ كلِّه: عقائدِه، وشرائعِه، ومفاهيمِه، وقيَمِه، وأخلاقِه، وآدابِه. ولأنّنا بهذا البحثِ نحرصُ كلَّ الحرصِ على تِبيانِ منابعِ الشريعةِ الإسلاميّةِ الربّانيةِ الحقّةِ؛ وجبَ علينا أن نردَّ على شبهاتِ أعداءِ السُّنّةِ كما سبقَ وأن رددنا على شبهاتِ أعداءِ القرآنِ الكريمِ في فصلٍ سابق، حيثُ إنّ هؤلاءِ الأعداءَ قدِ استندوا فيما زعمُوا - ككُلِّ صاحبِ بدعةٍ وضلالةٍ- إلى شبهاتٍ حسِبوها أدلّةً، وهي مردودةٌ عليهم بحججِ أهلِ العلمِ الذينَ لا تخلو الأرضُ منهم[1].

حيثُ استدلَّ الذين يزعُمون أنّهم أهلُ القرآنِ وأنصارُه بما يلي:

(1) يوسف القرضاوي: المرجعيّة العليا في الإسلام للقرآن والسنّة، ص 82

قولِ اللهِ -عزَّ وجلَّ-: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾[1]، وقال أيضًا: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾[2]

1. أنّ اللهَ -تعالى- تكفَّلَ بحِفظِ القرآنِ، فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[3]
2. أنّ النبيَّ -صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ- جعلَ للقرآنِ كُتّابًا يكتبونَه منذُ أن نزلَ بهِ جبريلُ - عليهِ السَّلامُ- عُرفوا باسمِ كُتّابِ الوحيِ، ولم يجعلْ ذلك للسُّنّةِ، بل صحَّ عنهُ قولُه -صلّى اللهُ عليهِ وسلّم-: «لا تكتُبوا عنّي شيئًا غيرَ القرآن». رواه مسلم
3. أنّ السُّنّةَ دخلَها المنكرُ والموضوعُ، وما لا أصلَ لهُ منَ الحديثِ، فضلًا عنِ الضعيفِ والواهي، وما لا يصلحُ الاحتجاجُ به، واختلطَ الحابلُ بالنابلِ، فلم يعُد بالإمكانِ التميزُ بينَ ما يصِحُّ وما لا يَصِحُّ.
4. أنّ علماءَ الحديثِ -وإن بَذلوا جهودًا مشكورةً في تنقيةِ السُّنّةِ منَ الدَّخيلِ والموضوعِ- قصَروا همَّهم على نقدِ الأسانيدِ دونَ المتونِ، ووَقفوا عندَ الشكلِ دونَ المضمونِ؛ ولذا دخلَ عليهم منَ الأحاديثِ ما يرفضُه العقلُ، وما يأباهُ النقل.
5. أنّ السُّنّةَ -حتّى الصحيحُ منها- تشتملُ على ما قالَه الرسولُ -صلّى اللهُ عليهِ وسلّم- بصفتِه البشريّةِ، وتجربتِه الدُّنيويّةِ، أو بصِفتهِ الرئاسيّةِ والقضائيّةِ؛ فكيفَ يُؤخذُ هذا شرعًا عامًّا للأمّةِ إلى يومِ القيامة؟!.

(1) سورة الأنعام: الآية 38

(2) سورة النحل: الآية 89

(3) سورة الحجر: الآية 9

وهنا نورِدُ حِجَجَ علماءِ السُّنّةِ في الردِّ على تلك الادّعاءاتِ ودحضِها؛ وهذه الشبهاتُ كلُّها لا تصمدُ أمامَ التمحيصِ العلميِّ، وكلُّها مردودة:

القرآن يبيّن القواعدَ، والسنّة تفصّل الأحكام

أمّا قولُه -عزَّ وجلَّ-: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾[1]، فالمرادُ بهذه الكليَّةِ: ما يتعلَّقُ بالأصولِ والقواعدِ الكليّةِ التي يقومُ عليها بنيانُ الدينِ في عقيدتِه وشريعتِه؛ ومن هذه الأصول: أنّ الرسولَ مبيِّنٌ لِما نزَل إليه، وبعبارةٍ أخرى: أنّ السنّةَ مبيِّنةٌ للقرآنِ، قالَ -عزَّ وجلَّ- في مُحكَمِ التنزيلِ: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[2]، ولم يفهَم أحدٌ - في الأوَّلينَ، ولا في الآخرينَ- أنّ البيانَ القرآنيَّ تبيانٌ تفصيليٌّ، وإلّا فإنَّ العبادةَ الأولَى والفريضةَ اليوميَّةَ والشعيرةَ اليوميَّة في الإسلامِ (الصلاة) لا يوجدُ في القرآنِ أيُّ تفصيلٍ لها: لا عددُها، ولا مواقيتُها، ولا ركعاتُها، ولا كيفيَّةُ أدائِها، ولا تفاصيلُ شروطِها وأركانِها، وكلُّ ذلك عُرِفَ بالسُّنّةِ، وهوَ منَ المعلومِ منَ الدينِ بالضرورة.

حفظُ اللّهِ للقرآنِ يستلزمُ حفظَ السنّة

إنّ قولَه -عزَّ وجلَّ-: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[3] يدلُّ على حفظِ القرآنِ بدلالةِ المطابقةِ، ويدلُّ على حفظِ السنّةِ المبيِّنةِ للقرآنِ بدلالةِ التضمينِ؛ فإنّ حِفظَ المبيَّنِ يتضمَّنُ ويستلزمُ حفظَ ما يبيِّنُه، لأنّ هذا من جملةِ الحفظِ، كما بيَّنَ ذلك

(1) سورة النحل: الآية 89

(2) سورة النحل: الآية 44

(3) سورة الحجر: الآية 9

الإمامُ الشاطبيُّ -رضيَ اللهُ عنه- حيثُ قال: «فالحِفظُ له مظهَرانِ: مظهرٌ ماديٌّ: وهو حِفظُ الألفاظِ والعباراتِ أن تُنسَى أو تُحذَفَ أو تُبدَّلَ، ومظهرٌ معنويٌّ: وهو حفظُ المعاني أن تُحرَّفَ أو تُنسَخَ وتُشوَّهَ».

والكتبُ السماويّةُ السابقةُ كالتوراةِ والإنجيلِ والزبورِ وغيرِها لم يتكفَّلِ اللهُ بحفظِها، واستحفظَها أهلَها فلم يحفظُوها، فتعرَّضَت لنوعَينِ منَ التحريفِ؛ التحريفِ اللفظيِّ: بتبديلِ الألفاظِ بأخرَى أو بإسقاطِها، والتحريفِ المعنويِّ: بتأويلِها بما يُبعِدُها عن مرادِ اللهِ -عزَّ وجلَّ- منها.

وقد حفظَ اللهُ القرآنَ من كلا التحريفَين، بل كانَ البيانُ النبويُّ بالسنّةِ من تمامِ حفظِ اللهِ -عزَّ وجلَّ- لكتابِه، وتصديقِه لوعدِه بذلك حين قال: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾[1]، وقد أثبتَ التاريخُ العلميُّ للمسلمينَ صِدقَ ذلك، وحفظَ اللهُ سنّةَ نبيِّهِ محمَّدٍ -صلّى اللهُ عليهِ وسلّم- كما حفظَ كتابَه الكريم.

وقام في كلِّ عصرٍ حرّاسٌ أيقاظٌ يحملونَ علمَ النبوّةِ وميراثَ الرسالةِ يورِّثونه للأجيالِ، مشاعلَ تضيءُ، ومعالمَ تهدي، تصديقًا لتلك النبوّةِ المحمّديةِ والبشارةِ المصطفويّة: «يحملُ هذا العلمَ مِن كلِّ خَلَفٍ عُدولُه، يَنفُونَ عنه تحريفَ الغالِين، وانتحالَ المُبطِلينَ، وتأويلَ الجاهلين».

أطوار تدوين السنّة

صحيحٌ أنّ النبيَّ -صلّى اللهُ عليهِ وسلّم- لم يجعل للسنّةِ كُتّابًا يكتبُونها كالقرآنِ، بل نهَى عن كتابةِ غيرِ القرآنِ في أوّلِ الأمرِ؛ لتتوفّرَ الهِمَمُ على كتابةِ القرآنِ، لقِلَّةِ

(1) سورة القيامة: الآية 19

الكاتِبين، وقلّةِ موادِّ الكتابةِ وتنوُّعِها وعُسرِها، وخشيةَ اختلاطِ القرآنِ بغيرِه، ولكنّه كتبَ أشياءَ مهمّةً لتُبلَّغَ عنه وتُنفَّذَ، مثلَ كُتبِه في الصَّدقاتِ والدّياتِ وغيرِها، وأَذِنَ للصحابةِ أن يكتُبوا، مثلِ عبدِ اللهِ بنِ عمرٍو وغيرِه.

ومنَ الثابتِ بيقينٍ لدى الباحثينَ المتخصّصينَ اليومَ، أنّ تدوينَ السنّةِ لم يبدأ في رأسِ المئةِ الأولَى للهجرةِ، كما قِيلَ يومًا، بل إنّ للتدوينِ أطوارًا بدأت منذ عصرِ النبوّةِ، ونمَت بعد ذلك، كما دلّتِ الدراساتُ العلميَّةُ الموضوعيّة.

جهودُ علماءِ الأمّةِ في خدمةِ السنّةِ وتنقيتها

من المؤكّدِ أنّ هناك من كَذبوا على رسولِ اللهِ -صلّى اللهُ عليه وسلّم- متعمِّدين، لدوافعَ شتّى، فاستحقّوا أن يتبوَّؤُوا مقعدَهم بينَ عينَي جهنّم -بلا غلو-، فهناك من افترَوُا الكذبَ على اللهِ ذاتِه، ومَن قالَ أوحِيَ إليّ، ولم يوحَ إليه شيءٌ، ولكن منَ المُؤكّدِ أنّ علماءَ الأمّةِ وصيارفةَ السنّةِ تصدَّوا لهؤلاء الدجّالينَ وكشفوا أستارَهم، وفضحوا زيفَهم، وقد قيلَ للإمامِ عبدِ اللهِ ابنِ المبارك: هذه الأحاديثُ موضوعة؟ قال: تعيش لها الجهابذة!، وقد عاشَ الجهابذةُ النقّادُ بالفعلِ، وطاردوها كما يطارِدُ الخبراءُ النقودَ الزائفةَ في الأسواقِ، فقد ترُوجُ لدى بعضِ العوامِّ، وتمرُّ من يدٍ إلى يدٍ ثانيةٍ في غفلةٍ منَ الأعيُنِ الساهرةِ، ثمّ لا تلبَثُ أن تُضبطَ وينكشفَ زيفُها وغِشُّها.

وضعَ علماءُ الحديثِ القواعدَ الضابطةَ، ورفعوا المناراتِ الهاديةَ، وأسَّسُوا علومَ الحديثِ ومصطلحاتِه، واشترطوا لقَبولِ الحديثِ شروطًا صعبةً جدًّا جدًّا، وهو ما لم تفعله أمّةٌ سبقت لحفظِ سنّةِ نبيِّها من الضياعِ أو التزويرِ -وهذا ما سنتناولُه في الفصولِ القادمةِ من هذا البحثِ -إن شاء اللهُ تعالى-.

إنّ ما قيلَ مِن أنَّ الصحيحَ قدِ التبَسَ بالضعيفِ، والحابلَ اختلطَ بالنابلِ، فهو

ادِّعاءُ مَن لم يغُصْ في بحارِ هذا العلمِ الشريفِ، ولم يسبِرْ أغوارَه، ولم يطّلِعْ على الجهودِ الضخمةِ التي بذلتها عقولٌ كبيرةٌ، وملَكاتٌ عاليةٌ ومواهبُ خارقةٌ، نذرت نفسَها لخدمتِه وتجليتِه والدفاعِ عنه؛ فأسّسوا علومَ الرجالِ والطبقاتِ والتواريخِ للثقاتِ والمقبولينَ وللضعفاءِ والمجروحين، وصنّفوا في نحوِ تسعينَ علمًا ابتكروها، عُرفت باسمِ (علوم الحديث)، وكانت هي للحديثِ بمثابةِ (الأصول) للفقهِ، وأفردُوا الصحيحَ من غيرِه، وعَنُوا بأحاديثِ الأحكامِ، وألّفُوا في الأحاديثِ الواهيةِ والموضوعةِ، وكذلك في عِللِ الأحاديثِ ونقدِها.

إنّ التاريخَ لم يسجِّلْ لأمّةٍ في حِفظِ تراثِ نبيِّها ما سَجَّلَ لهذهِ الأمّةِ الخاتمةِ، ووجودُ أحاديثَ زائفةٍ لا يجعلُنا نلقي الأحاديثَ كلَّها في سلّةِ المهمَلاتِ، فهل يقولُ عاقلٌ بإلغاءِ النقودِ السليمةِ وتحريمِ التعاملِ بها، أو اعتبارِها عديمةَ القيمةِ لأنّ هناك منَ المزوّرينَ من زيّفوا بعضَ العملاتِ وروّجُوها لدى بعضِ الغافلين؟!.. وهو ما يمثّلُ عينَ النقيضِ عندَ بني النضيرِ وبني قينقاعَ وبني قريظةَ الذين ورِثُوا التوراةَ المحرّفةَ فزادُوا عليها منَ التحريفِ والتخريفِ ما زادوا حتّى غدتِ التوراةُ مجرَّدَ شرائعَ تراثيّةٍ مصطَنَعةٍ بكلِّ مكرٍ وخبث.

اهتمامُ جهابذةِ السنّةِ بالسَّنَدِ والمتنِ معًا

ومن أعجبِ ما قرأناهُ وسمعناهُ في عصرِنا هذا ما قيلَ أنّ علماءَ السنّةِ في القرونِ الماضيةِ، التفتوا إلى الأسانيدِ لا المتونِ، واقتصروا على نقدِ الشكلِ دونَ المضمونِ، وهو اتّهامٌ أوّلَ ما صدرَ منَ اليهودِ والنصارَى الذين لبِسُوا ثوبَ الاستشراقِ[1]، ثمّ

(1) أحد أهمّ الأسباب التي أوردتها في المقدّمة لاختياري لهذا البحث المقارن بين شريعة الإسلام وشريعة

نقلَهُ عنهُم بعضُ المزهوّين بهم المغترين بألاعيبِهم، ثمّ تناقلَه آخرون.

وهذا في الواقع جَورٌ على الحقيقةِ، واتّهامٌ لعلماءِ الأمّةِ بغيرِ حقٍّ، وانتقاصٌ لأقدارِ رجالٍ أفذاذٍ مخلصينَ أفنَوا أعمارَهم في خدمةِ العلمِ، والذَّودِ عن حقائقِه، ورَدِّ الأباطيلِ عن ساحتِه.

والواقعُ أنّ علماءَ السُّنّةِ اهتمُّوا بالجانبَينِ كليهما: السندِ والمَتنِ، ونقدُوا كلًّا منهما، أي أنّهم عنُوا بالنقدِ الداخليِّ للنصِّ، بجوارِ النقدِ الخارجيِّ لرُواته.

والدارسونَ يعلمونَ أنَّ النقدَ الحديثَ بدأَ منذ عصرِ الصحابةِ -رضيَ اللهُ عنهم-، وأنّه بدأَ بنقدِ المتنِ قبلَ نقدِ السَّنَدِ (الأسانيد)، كما يتّضِحُ ذلك ممّا رُوِيَ عنِ ابنِ عبّاسٍ وعائشةَ -رضيَ اللهُ عنهما-.

ثمّ بدأَ التدقيقُ في الرواةِ بعدَ عصرِ الفتنةِ في زمنِ عثمانَ وعليٍّ -رضيَ اللهُ عنهما- وظهورُ فرقٍ وأناسٍ في الساحةِ الإسلاميةِ لا يتورّعونَ عن تأييدِ نِحَلِهم ودعاواهم بالكذبِ، حتّى كذَبوا على رسولِ اللهِ -صلّى اللهُ عليه وسلّم-، ثمَّ طفِقوا يقولونَ لمَن حدَّثهم بحديثٍ عنِ الرسولِ الكريمِ: عن مَن أخذه؟ وما سندُه؟، وورِث بعضُهم عن بعضٍ هذه الكلمةَ التي رواها الإمامُ ابنُ سيرينَ عمَّن قَبله: «إنّ هذا العلمَ دينٌ، فانظُروا عمَّن تأخذونَ دينكم»!.

وقد بات معلومًا أنّ الأسانيدَ والمرادَ بها ليس مجرّدَ سردِ سلسلةٍ منَ الأسماءِ، لا تعرفُ أعيانَها، ولا سِيَرَها العلميةَ والدينيةَ والسلوكيّةَ، بل لا بدَّ من شروطٍ عدّةٍ لا يتمكَّنُ إلّا الثقاتُ من الرواةِ من الإيفاءِ بها.

اليهود.

ومع هذا لم يكونوا يأخذون أيَّ كلامٍ يُروَى، أو أيَّ حديثٍ يحكَى، بل جعلُوا من دلائلِ (الوَضع)،أي الكذبَ في الحديثِ، دلائلَ في المرويِّ (أي المتن)، كما أنّ هناك دلائلَ أخرَى في الراوي (أي السند). ومنَ الدلائلِ في (المتن) المرويّ: ركاكتُه لفظًا أو معنىً، ومخالفتُه للعربيَّةِ، ومناقضتُه لمُحكَمِ القرآنِ، أو لقواطِعِ العقلِ، أو متواترِ النقلِ، أو مقرّراتِ التاريخِ الثابتِ، أو الواقعِ المُحَسِّ أو غيرِ ذلك...، ولذلك أمثلةٌ كثيرةٌ ذكروها في كتُبهم، لا حاجةَ لإيرادِها في هذا البحثِ بشكلٍ تفصيليّ.

ومن مباحثِ المتنِ في نقدِ الحديث: ما يتعلَّقُ بالشذوذِ، والعلّةِ، والاضطرابِ، والقلبِ، والتصحيفِ، والتحريفِ، واختلافِ الحديثِ أو مشكِلِ الحديثِ (أي تعارُضُه في نفسِه أو مع غيرِه) والناسخِ والمنسوخِ منه، وكلُّ ما يتعلَّقُ بالمرفوعِ والموقوفِ والمقطوعِ، ومن علومِ المتنِ أيضًا: علمُ غريبِ الحديثِ -وفيهِ مؤلّفاتٌ جمَّةٌ لعددٍ من الأئمّةِ- وفقهُ الحديثِ، وهو ما يتّصلُ باستنباطِ الأحكامِ منه.

إنّ أئمّةَ الحديثِ عنُوا بنقدِ السَّندِ أكثرَ منَ المتنِ، خشيةَ أن يرُدُّوا بمحضِ عقولِهم ما لا يجوزُ أن يُرَدَّ، لأنّه يتعلّقُ بأحوالِ الآخرةِ، أو عوالمِ الغيبِ، أو حقائقِ الوجودِ، أو مكارمِ الأخلاقِ، أو القوانينِ التي لا تصلحُ الحياةُ الإنسانيّةُ والاجتماعيّةُ إلّا بها، وإن كانت أكبرَ من عقلِ الإنسانِ في ذلك العصرِ، وتلك البيئة.

السنة غيرُ التشريعيّة:

وفي ردِّنا على هذا الادّعاءِ نقولُ: إنّه لا يُعقَلُ أن يردَّ بعضُ الناسِ السُّنَّةَ كلَّها، والأحاديثَ كافّةً، لأنَّ منَ السُّننِ ما لا علاقةَ له بالتشريع، لأنّ النبيَّ -صلّى اللهُ عليه وسلّم- قاله أو فعلَه أو أقرَّه، بمقتضَى (جِبلّته البشرية) أو بحكمِ خِبرتهِ العاديةِ، فهو مجرَّدُ رأيٍ له في الأمورِ الدنيويَّةِ، لا دينًا يبلِّغُه عن ربِّه، وأبرزُ مَثَلٍ له حديثُ تأبيرِ

النخلِ، وإشارتُه للانتصارِ برأيٍ كانَ الصَّوابُ في غيرِه، وقولُه لهم في النهاية: « إنّما ظننتُ ظنًّا، فلا تؤاخِذوني بالظنِّ.. أنتم أعلمُ بأمر دنياكم».

وهناك في السننِ ما صدرَ عنِ النبيِّ –صلّى اللهُ عليهِ وسلّم– بوصفِه إمامَ الأئمّة، ورئيسَ الدولةِ، فهوَ أشبهُ بالقرارِ السياسيِّ أوِ الإداريِّ منه بالحكمِ التشريعيِّ التكليفيِّ، فليسَ لهُ صفةُ العمومِ ولا الدوامِ، وعلى هذا حملَ بعضُ الأئمّةِ من الفقهاءِ حديثَ: «مَن أحيا أرضًا ميتةً فهيَ له». صحيح أبي داود

ومثلُ ذلك ما صدرَ عنهُ بوَصفِه القائدَ العسكريَّ في معركةٍ ما، فيُعمَلُ بهِ في نطاقِ المعركةِ وما يتّصلُ بها، مثلُ قولِه يومَ حنينٍ: «مَن قتلَ قتيلًا فله سَلَبُه». رواه البخاري

ومن المعلومِ بالاستقراءِ أنّ جَمهرةَ السُّننِ والأحاديثِ الثابتةِ عنه –صلّى اللهُ عليهِ وسلّم– إنّما صدَرت عنهُ بوَصفِ التشريعِ والتبليغِ عنِ اللهِ –عزَّ وجلَّ–، وأمّا ما ليس للتشريعِ فهوَ قِلَّةٌ محدودةٌ منَ السنة.

والمنهجُ الصحيحُ أن يُعرَفَ هذا النوعُ منَ السُّنّةِ ممّا ليسَ له صلةٌ بالتشريعِ قطّ، أو ليس له صلةٌ بالتشريعِ العامِّ الدائمِ؛ ليُعطَى حكمَه، وهو عمَلُ المحققينَ منَ العلماءِ، وليس عمَلَ الخطّافينَ والدُّخلاءِ والمرجِفينَ من يهودِ المستشرقينَ والنصارَى، وتبقَى سائرُ السُّننِ على أصلِها منارةً للاهتداءِ والاتّباعِ والطاعةِ، كما قالَ –عزَّ وجلَّ–: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾[1]، ﴿وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[2].

الاستغناء عن السنّة بالقرآن مخالف للقرآن:

ثمّ إنّ الذين يزعمون الاستغناءَ عنِ السُّنّةِ بالقرآنِ يخالفونَ أوّلَ ما يخالفونَ

(1) سورة النور: الآية 54

(2) سورة الأعراف: الآية 158

القرآنَ الكريمَ ذاتَه مخالفةً صريحةً؛ فالقرآنُ يأمرُ بطاعةِ الرسولِ بجوارِ طاعةِ اللهِ -عزَّ وجلَّ-، وذلك في عددٍ منَ الآياتِ الكريمةِ، بلِ اعتبرَ القرآنُ الكريمُ طاعةَ الرسولِ طاعةً للهِ -عزَّ وجلَّ-، كما اعتبرَ بيعتَه بيعةً للهِ، قالَ -عزَّ وجلَّ: ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ﴾[1]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ﴾[2].

وهذه بعضُ الآياتِ الآمرةِ بطاعةِ الرسولِ مع طاعةِ الله: قال الله-جلَّ وعلا: ﴿وَأَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾[3]، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾[4]، وقوله: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ۚ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾[5]. وهناك العديدُ منَ الآياتِ الربّانيّةِ التي تؤكّدُ ما ذهبنا إليهِ، حيث إنّه لو كانت طاعةُ الرسولِ تعني اتّباعَ القرآنِ وحدَه، لم يكن هناك معنىً لعطفِ الأمرِ بطاعتِه على طاعةِ اللهِ؛ إذِ العطفُ يقتضي المُغايَرةَ، وقد طلبَ الطاعةَ في غيرِ موضعٍ لكلٍّ منهما؛ فأفاد أنّ لكلٍّ منهما طاعةً مستقلّةً. ويردُّ الإمامُ الشافعيُّ -رحمه اللهُ تعالى-على خصومِ السُّنّةِ، ويبدو أنّ دعوَى الاكتفاءِ بالقرآنِ عنِ السُّنّةِ ضلالةٌ قديمةٌ، استوجبت ردَّ الإمامِ الشافعيِّ - رضيَ اللهُ عنه- عليها ردًّا بليغًا مضيئًا في رسالتِه الشهيرة، وممّا قاله هناك:

(1) سورة النساء: الآية 80

(2) سورة الفتح: الآية 10

(3) سورة التغابن: الآية 12

(4) سورة الأنفال: الآية 20

(5) سورة النور: الآية 54

باب: ما أمرَ اللهُ به من طاعةِ رسوله:

قال اللهُ – جلَّ ثناؤه-: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[1]، وقال: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ﴾[2]، فأعْلَمَهم أنَّ بَيْعَتَهم رسولَه بيعتُه، وكذلك أعْلمَهم أنَّ طاعتَهم رسولَه طاعتُه، فقال: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[3]، وهذا القضاءُ سنةٌ من رسولِ الله، لا حُكْمٌ منصوصٌ عليهِ في القُرآنِ، والقُرآنُ يدلُّ –واللهُ أعلمُ– على ما وَصَفْتُ، لأنه لو كان قضاءً بالقُرآنِ لكان حُكمًا منصوصًا بكتابِ الله، وأشبَهَ أن يكونوا إذا لم يُسَلِّموا لحكمِ كتابِ اللهِ نصًّا غيرَ مُشْكِلِ الأمر، أنَّهم ليسوا بِمُؤمنين، إذا رَدُّوا حكمَ التنزيلِ، إذا لم يسلموا له، وقال –عزّ وجلّ-: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[4]، وقال –عزّ وجلّ-: ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ* وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ* أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ ۚ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ* إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وأَطَعنا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ* وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ

(1) سورة الفتح: الاية 10.

(2) سورة النساء: الآية 80

(3) سورة النساء: الآية 65

(4) سورة النور: الآية 63

الْفَائِزُونَ﴾[1]، فأَعلمَ اللهُ الناسَ في هذه الآيةِ، أنَّ دعاءَهم إلى رسولِ اللهِ ليحكمَ بينهم دعاءٌ إلى حكمِ اللهِ؛ لأنّ الحاكمَ بيْنهم رسولُ اللهِ، وإذا سلَّموا لحكمِ رسولِ اللهِ، فإنما سلّموا لحكمِه بفَرضِ اللهِ، وأنّه أعْلَمَهم أن حكمَه حكمُه، وأن ما سبقَ في علمِه – جلَّ ثناؤه – مِن إسْعادِه بعِصْمتِه وتوفيقِه، وما شَهِد له بِهِ من هِدايتِه واتباعِه أمْرَه، فأَحْكَمَ فرضَه بإلزامِ خَلْقِه طاعةَ رسولِه، وإعْلامِهم أنها طاعتُه، فَجَمَعَ لهم أنْ أعْلَمَهم أنَّ الفرضَ عليهِمُ اتباعُ أمرِه وأمرِ رسولِه، وأنّ طاعةَ رسولِه طاعتُه، ثم أعلمِهم أنه فَرَضَ على رسولِه اتباعَ أمرِه –جلَّ ثناؤه–».

موسى -عليه السلام- بعيونٍ ربّانية مسلمة

قصّة كليم الله موسى –عليه السلام– {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ}:

هو موسى بن عمران –عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ– من أُولِي العَزمِ منَ الرُّسلِ، قالَ اللهُ –تعالى–:﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا * وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا* وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾[2].

ويلقَّبُ –عليهِ السَّلامُ– بـ(كليمِ اللهِ) لأنّ اللهَ كلَّمَه بلا واسطةٍ، قال –عزَّ وجلَّ–: ﴿قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾[3].

وقد ذكرَه اللهُ –عزَّ وجلَّ– في مواضعَ كثيرةٍ متفرّقةٍ منَ القرآنَ الكريمَ، وذكرَ قصَّتَه في مواضعَ متعدّدةٍ مبسوطةٍ مطوَّلةٍ وغيرِ مطوّلةٍ، وفي قصّتِه –عليه السَّلامُ– منَ

(1) سورة النور: الآيات 48–52.

(2) سورة مريم: الآية –51 53

(3) سورة الأعراف: الآية 144

الأحداثِ والدروسِ والعظاتِ والعبَرِ والآدابِ والأحكامِ الفقهيةِ ما يحتاج إلى وقفاتٍ تحليليّةٍ عميقة.

نبدأ قصَّةَ موسى -عليهِ السَّلامُ- من حيثُ انتهت قصّةُ سيدِنا يوسفَ -عليه السَّلامُ-، فبعدَ أن استقدَمَ يوسفُ -عليه السلامُ- أباه وأولادَه وأحفادَه من بلادِ الشامِ إلى مصرَ، ودارت عجلةُ الأيّامِ، وكثرَ بنو يعقوبٍ -عليهِ السلامُ- وتضاعفَ عددُهم، وزادَ نسلُهم؛ وهمُ الغرباءُ عن مصرَ، خاف فرعونُ مصرَ وملكُها أن يصبحَ بنو يعقوبٍ عَونًا لأعداءِ مصرَ، فاستخدمَهم في أشقِّ الأعمالِ لإضعافِ قوَّتِهم، وأمعَنَ في تفريقِهم شِيَعًا وأحزابًا.

وقد قيل: إنّ الكهنةَ أخبَروا فرعونَ بأنّ زوالَ مُلكِه سيكونُ على يدِ مولودٍ لبني يعقوبَ، فأمرَ بقتلِ كلِّ مولودٍ ذكرٍ من أولادِهم حتّى لا يكثُرَ عددُهم، وهنا أسرعَ الموتُ في شيوخِهم من جَرّاءِ إرهاقِهم في العملِ، فدخلَ رؤساءُ القِبطِ على فرعونَ، وقالوا له: إنّ الموتَ وقعَ في الكبارِ من بني يعقوبَ، وأنتَ تقتلُ صغارَهم، فيوشكُ أن يقعَ العملُ علينا، ولا يبقَى أحدٌ للخدمةِ غيرُنا، فأمرَ أن يُقتلَ الغلمانُ سنةً بعد سنةٍ، حتّى لا يهلكَ جميعُ أبناءِ يعقوبَ -عليه السّلامُ-.

وفي السنةِ التي لم يُقتلْ فيها أحدٌ منَ الغلمانِ وُلدَ هارونُ -عليهِ السَّلامُ- فتُركَ وشأنُه، وتربَّى في أحضانِ والدَيه، أمّا موسى -عليهِ السلامُ- فقد وافقَت ولادتُه العامَ الذي يُذبحُ فيهِ الأطفالُ، فلمّا ولدَته أمُّه خبَّأته عنِ العيونِ، فلم يتسرَّب خبرُه إلى فرعونَ، ويشيرُ القرآنُ الكريمُ إلى تلك الأحداثِ بقوله -عزَّ وجلَّ-: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ

إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾[1]. قالَ ابنُ كثيرٍ: «الصحيحُ أنّ فرعونَ إنّما أمرَ بقتلِ الغلمانِ أوّلًا حذرًا من وجودِ موسى».

ألهَمَ اللهُ أمَّ موسى أن تتخذَ لابنِها تابوتًا -فاتّخذَته- ووضَعَت فيه موسى وربطَته بحبلٍ -وكانت دارُها متاخمةً للنيلِ- فكانت تُرضعُه، فإذا خشيت عليهِ من أحدٍ وضَعتهُ في ذلك التابوتِ فأرسلَتْه في النهرِ، وأمسكت طرفَ الحبلِ عندَها، فإذا ذهبوا استرجعَتْه إليها، قالَ -عزَّ وجلَّ-: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾[2].

قالَ الإمامُ ابنُ العربيِّ: «إنّ هذهِ الآيةَ من أعظمِ آيِ القرآنِ فصاحةً، إذ فيها أمرانِ ونَهيانِ وخَبَرانِ وبِشارتان». وليس هذا بوَحيِ نبوّةٍ، بل هو وحيُ إلهامٍ وإرشادٍ، كما قالَ -عزَّ وجلَّ-: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾[3]، والمقصودُ: أنّ أمَّ موسى -عليهِ السَّلامُ- أُرشِدت إلى هذا الذي ذكرناه، وأُلقِيَ في خَلَدِها ورُوعِها «ألّا تخافي ولا تحزني، فإنّه إن ذهبَ فإنّ اللهَ سيردُّه إليك، وإنّ اللهَ سيجعلُه نبيًّا مرسَلًا، يُعلي كلمتَه في الدنيا والآخرةِ، فكانت تصنعُ ما أُمِرَت بهِ، فأرسلته ذاتَ يومٍ، وذهلت أن تربطَ الحبلَ عندَها، فذهبَ مع النيلِ الجاري، فمرَّ على دارِ فرعونَ، ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾[4]. وذكرَ المفسّرونَ أنَّ الجواري التقطنَه منَ النهرِ في تابوتٍ مغلَقٍ عليهِ، فلم يَتجاسَرْنَ على فتحِه، حتّى وضَعْنَه بين يدي امرأةِ فرعونَ (آسية بنت مزاحم)، وقامت آسية لتنظرَ ما في التابوتِ، فلمّا فتحته، وكشفتِ الحجابَ رأتْ طفلاً

(1) سورة القصص: الآية 4

(2) سورة القصص: الآية 7

(3) سورة النحل: الآية 68

(4) سورة القصص: الآية 8

وجهَه يتلألأُ بتلك الأنوارِ النبويّةِ، فأحبَّتهُ حبًّا شديدًا، إذ قالَ اللهُ -تباركَ وتعالى-: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾[1]، فلمّا جاءَ فرعونُ قال: ما هذا؟ وأمرَ بذبحِه، فاستوهَبته منه، ودفعَت عنه، وقالت له: ﴿قُرَّةُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾[2]، فقالَ لها فرعونُ: «أما لك فنعم، وأمّا لي فلا»، أي لا حاجةَ لي بهِ، ثمّ قالت آسية -رضيَ اللهُ عنها-: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾[3]، وبقولِها: ﴿عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا﴾، قد أنالَها اللهُ -جلَّ وعلا- ما رَجَت منَ النفعِ؛ ففي الدنيا هداها اللهُ بهِ، وفي الآخرة، فأسكنَها اللهُ جنّتَه بسببِه، ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ وذلك أنّهما تبنياه، لأنّه لم يكن يولدُ لهما ولد، إذ قالَ اللهُ -تعالى-: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[4]، لا يدرون ما يريدُ اللهُ بهم إذ قيّضَهُمُ لالتقاطِه منَ النقمةِ العظيمةِ بفرعونَ وجنودِه. وهكذا أرادَ اللهُ أن يربّيَ فرعونُ عدوَّه موسى في بيتِه وهوَ لا يشعر.

وهكذا منّ اللهُ -تعالى- على موسى -عليهِ السَّلامُ-، وأحاطت بهِ الرعايةُ الإلهيةُ من كلِّ مكانٍ، قالَ اللهُ -تعالى-: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ * إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ * أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾[5]، وقوله: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ فكان لا يراهُ أحدٌ إلّا أحبَّه، وقوله: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ أي: تُطعَمَ، وتُغذَّى بأطيبِ المآكلِ، وتلبسُ أحسنَ الملابسِ، بمرأىً منّي، وذلك كلُّه بحِفظي

(1) سورة طه: الآية 39.

(2) سورة القصص: الآية 9.

(3) سورة القصص: الآية 9.

(4) سورة القصص: الآية 9

(5) سورة طه: الآية 37-39.

وكَلاءَتِي لك فيما صنعتُ بك ولك، وقدَّرتُه منَ الأمورِ التي لا يقدِرُ عليها غيري.

خرجت أمُّ موسى من بيتِها لترضعَ ولدَها، فلم تجِده في مكانِه، فأرسلت نظرَها في النيلِ، فلم تجِد أثرًا للتابوتِ، ولم تدرِ أينَ ذهب؟! قال اللهُ: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[1]، وقال ابنُ عباس وغيرُه: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا﴾ أي: فارغًا من كلِّ شيءٍ من أمورِ الدنيا، إلّا من موسَى، وقوله: ﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ﴾ أيْ لتظهرَ أمرَه وتسألَ عنهُ جهرةً، وقولُه -تعالى-: ﴿لَوْلا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا﴾ أي صبّرناها وثبّتناها، وقوله: ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وعادت أمّ موسى وقد ألقى اللهُ سكينتَه عليها، وقوله: ﴿وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ﴾[2]، أي: تتبعي أثرَه واطلبي خبرَه، وقوله: ﴿فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ﴾ أي: من بُعد: ﴿وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ أي: جعلَت تنظرُ إليه وكأنّها لا تريدُه؛ وذلك لأنّ موسى -عليهِ السَّلامُ- لمّا استقرَّ بدارِ فرعون أرادوا أن يُغذُّوه برضاعةٍ، فلم يقبلْ ثديًا ولا طعامًا! فحاروا في أمرِه، قالَ اللهُ -تعالى-: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ﴾[3]، وأرسلوهُ معَ القوابلِ[4] والنساءِ إلى السوقِ؛ لعلّهم يجدونَ من يوافقُ رَضاعتَه، فبينما هم وُقوفٌ بهِ، والناسُ عُكوفٌ عليه، إذ بصُرت به أختُه، فلم تُظهِر معرفتَه، بل قالت: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾[5]، قالَ ابنُ عبّاس: لمّا قالت ذلك، قالوا لها: ما يُدريكِ بنُصحِهم وشفَقَتِهم عليه؟ قالت: رغبةً في سرورِ

(1) سورة القصص: الآية 10

(2) سورة القصص: الآية 11

(3) سورة القصص: الآية 12

(4) القوابل: جمع قابلة، والقابلة: هي التي تتولّى ولادة النساء.

(5) سورة القصص: الآية 12

الملكِ ورجاءَ مشفعتِه، فأطلقوها وذهبوا معها إلى منزلهم، فأخذَته أمُّه، فلمّا ألقمته ثديها أقبلَ عليه، وأخذَ يرتضِعُه، ففرحوا بذلك فرحًا شديدًا، وذهبَ البشيرُ إلى آسيةَ ليخبرَها بذلك، فاستدعَتها إلى منزلِها، وعرضَت عليها أن تكونَ عندَها وأن تُحسِنَ إليها، فأبت عليها وقالت: إنّ ليَ بعلًا[1] وأولادًا، ولستُ أقدِرُ على هذا، إلاّ أن ترسليهِ معي، فأرسلته معها، ورتّبت لها رواتبَ، وأجرَت عليها النفقاتِ والهِباتِ[2]، فرجعت به تحوزه إلى رَحلِها مسرورةً، وقد جمعَ اللهُ شملَهما، قالَ اللهُ: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[3]. ومضى قدَرُ اللهِ وأمرُه، وكبرَ موسَى، قال الله: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾[4] وقوله: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ أي: بلغَ الحُلُم، ﴿وَاسْتَوَىٰ﴾ قالَ ابنُ عبّاس: بلغَ أربعين سنة، ﴿:وقوله آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ الحكم: الحِكمةَ قبل النبوّة، وقيل: الفقهُ في الدين، والعلم: الفَهم، وقولُه:﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِين﴾ وكان لموسى -عليهِ السلامُ- بديارِ مصر مكانةٌ وصَولةٌ، بسببِ نسبتِه إلى تبني فرعونَ له، وتربيتِه في بيتِه، وكان بنو يعقوبَ قد عَزُّوا وصارت لهم وجاهةٌ، وارتفعت رؤوسُهم به لأنّهم أرضَعوه، وهُم أخوالُه من الرضاعة، ولمّا مَنَّ اللهُ -عزَّ وجلَّ- على موسى - عليه السلام- وآتاه حكمًا وعلمًا، أظهرَ خلافَ فرعونَ، وعابَ على بني يعقوبَ عبادةَ فرعونَ والأصنام.

قالَ ابنُ زيدٍ: «كانَ فرعونُ قد نابَذَ موسى وأخرجَه من المدينةَ، وغابَ عنها

---

(1) البعل: الزوج

(2) أي أنّها كانت ترضع ولدها، وتأخذ أجرها.

(3) سورة القصص: الآية 13

(4) سورة القصص: الآية 14

سنينَ، وجاء والناسُ على غفلةٍ بنسيانِهم أمرَه، وبُعدِ عهدِهم به، وكان ذلك يومُ عيدٍ، فلقيَ رجلَين يقتتلانِ أحدُهما من بني يعقوبَ والآخرُ من قومِ فرعونَ، فاستغاثه الذي من بني يعقوبَ، فهَبَّ موسى -عليهِ السَّلامُ- لنَجدةِ المظلومِ، فضَربَ الظالمَ بمَجمَعِ كفِّه، فوقعَ الرجلُ ميتًا! ﴿فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾[1]، ولم يكن موسى -عليهِ السَّلامُ- يريدُ قتلَه، ولكن أرادَ زجرَه وردعَه، ثمّ لجأَ إلى ربّه في الحالِ، وقال: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[2].

وقال قتادة: عَرَفَ -واللهِ- المخرَجَ فاستغفرَ، ثمّ لم يَزَلْ -عليهِ السَّلامُ- يعدِّدُ ذلك على نفسِه -مع علمِهِ بأنّه قد غُفِرَ له- حتّى إنّه في القيامةِ يقولُ: «إنّي قتلتُ نفسًا لم أومرْ بقَتلها»[3].

بعد ذلك قال موسى -عليه السلام-: ربِّ بما أنعمتَ عليَّ فلن أكونَ عونًا للكافرينَ بك المخالِفينَ لأمرِك، ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾، والخوفُ لا ينافي المعرفةَ باللهِ ولا التوكّلَ عليه، ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ يتلفّتُ منَ الخوفِ، وقيلَ يترقّبُ الطلَبَ، وينظرُ ما يتحدَّثُ بهِ الناس. وبينما هو يسيرُ على هذهِ الحال ﴿فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ﴾ أي فإذا الذي من بني يعقوب الذي خلّصَهُ بالأمسِ يقاتلُ قِبطيًّا آخرَ، ﴿قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾[4] أي: مُضِلٌّ بيِّنُ الضَّلالة؛ قتلتُ بسببِك نفسًا؛ فعنّفَهُ موسى ولامَه على كَثرةِ شرِّه ومخاصمتِه، وبرغمِ ذلك أراد موسى أن يبطشَ بذلك القبطيِّ، عدوِّهِ وعدوِّ اليعقوبيِّ؛ فيردعَه ويخلِّصَه منه، فلمّا

(1) سورة القصص: الآية 15

(2) سورة القصص: الآية 16

(3) في الصحيحين

(4) سورة القصص: الآية 18

أقبلَ على القبطيِّ: ﴿قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾[1]، وقالَ بعضُ المفسرين: إنّما قالَ هذا لليعقوبيِّ الذي اطَّلَعَ على صُنعِ موسَى بالأمسِ، وكأنّه لمّا رأى موسى مقبلًا على القِبطيّ ظنَّ أنّه جاءَ إليه، لمّا عنَّفه قبلَ ذلك، بقوله: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾، فقال لموسى وأظهر الأمر الذي كان وقع بالأمس، ويحتمل أنّ قائلَ هذا الكلامِ هو القبطيُّ، لمّا رآهُ مقبلًا نحوَه خافَ، ورأى مِن سَجِيَّتِه انتصارًا جديدًا لليعقوبيِّ؛ فقال ما قالَ، من بابِ الظنِّ والفراسة.

انتشرَ خبرُ قتلِ موسَى للقبطيِّ الأوّلِ، ووصلَ إلى فرعونَ الذي أرسلَ في طلبِ موسَى، وهنا نصحَ أحدُ الأقباطِ لموسَى أن يغادرَ مصرَ لأنَّ فرعونَ وأعوانَه يبحثونَ عنهُ يريدونَ قتلَه، فغادرَ مصرَ مِن فورِه هائمًا على وجهِه لا يهتدي إلى طريقٍ، فلجأَ إلى ربهِ قائلًا: ﴿رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[2].

ويخبرُ اللهُ -عزَّ وجلَّ- عن خروجِ عبدِه ورسولِه وكليمِه من مصرَ خائفًا يترقّبُ؛ خشيةَ أن يدركَه فرعونُ وملؤُه، وهو لا يدري أين يتوجّه، ولا إلى أين يذهبُ، وذلك لأنّه لم يخرجْ من مصرَ قبلَها، ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مدينَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾، أي عسى أن تكونَ هذه الطريقُ موصلةً إلى المقصودِ؛ وكذا كانَ، فقد أوصَلتهُ إلى حيثُ أرادَ اللهُ، قالَ عمرُ بنُ الخطّاب -رضيَ اللهُ عنه-: «إنّ موسى -عليهِ السَّلامُ- لمّا وردَ ماءَ مدينَ وجدَ عليهِ أمّةً منَ الناسِ يسقون، فلمّا فرَغُوا أعادوا الصخرةَ على البئرِ، ولا يطيقُ رفعَها إلّا عشرةُ رجالٍ، فإذا هو بامرأتَين تذودانِ، قال:

---

(1) سورة القصص: الآية 19

(2) سورة القصص: الآية 21

ما خطبكما؟ فحدَّثَتاه، فرفعَ الحَجَرَ وحدَه، ثمّ لم يستَقِ إلّا ذَنوبًا واحدًا حتّى رويتِ الغنم»[1]، ولمّا فرغَ موسى -عليهِ السَّلامُ- من سَقْيِ الغنمِ، وشربَ من البئرِ، جلسَ يستظلُّ تحتَ الشجرةِ، وأسندَ ظهرَه إليها، قالَ -عزَّ وجلَّ-: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾[2].

قيل: فسمعته الامرأتان، فذهبتا إلى أبيهما فأخبرتاه بما كان من أمرهِ -عليهِ السَّلامُ- فأمرَ إحداهُما أن تذهبَ إليه فتدعوه، ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾[3]، أي مِشيةَ الحرائرِ، في حياءٍ وخفَرٍ، قالَ عمرُ -رضيَ اللهُ عنه-: «جاءتْ تمشي على استحياءٍ قائلةً بثوبِها على وجهِها، ليست بِسلفعَ منَ النساءِ وَلّاجَةً خرَّاجَةً»، قالَ ابنُ كثيرٍ: إسنادُه صحيح، قال الجوهري: أي ليست جريئةً شديدةً. وقولُه: ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾[4]، وهذا تأدُّبٌ في العبارةِ لم تطلُبْه طلبًا مُطلقًا؛ لئلّا يتوهَّمَ ريبةً، وهنا انطلقَ موسى -عليه السلامُ- معَ المرأةِ، قيل: إنّه قال لها: كوني من ورائي، فإذا ضللتُ الطريقَ فاحذِفي لي بحصاةٍ أعلمُ بها الطريقَ فأهتديَ إليه. ووصلَ موسى -عليه السلام- إلى أبيها، قال الله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[5]، أي ذكرَ لهُ ما كانَ من أمرِه، والسببَ الذي فارَقَ من أجلِه بلدَه، فطمأنَهُ العبدُ الصالحُ، وقال له: «طِبْ نفسًا وقرَّ عينًا، فقد خرجتَ من مملكتِهم، فلا حكمَ لهم في بلادنا»؛ ولهذا قال:

(1) قال ابن كثير إسناده صحيح.

(2) سورة القصص: الآية 24

(3) سعد أبو عزيز: قصص الأنبياء دروس وعبر، ص 218

(4) سورة القصص: الآية 25

(5) سورة القصص: الآية 25

﴿نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

عند ذلك، ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾(1)

وقوله: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ﴾ قيل: هي التي ذهبتْ وراءَ موسَى -عليهِ السَّلامُ-، وقولُه: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ لا يخفَى أنّها رأت قوَّتَه عندما رفعَ الصخرةَ الكبيرةَ من فمِ البئرِ، ورأت أمانتَه عندما أمرَها أن تسيرَ خلفَه وهو في طريقِه إلى أبيها، كما لا يخفَى أنّها قد تكونُ راغبةً في الزواجِ من هذا الرجلِ الصالحِ، وهذا من فِراسَتِها، ورأى الوالدُ أنّ ابنتَه أصابت في قولها، وفطنَ إلى ما يخفيهِ هذا الاقتراح، فقال: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾(2)، وفي هذا قال الإمام القرطبي: « أما قوله: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ﴾ فيهِ عَرضُ الوليِّ ابنتَه على الرجلِ الصالحِ، وهذهِ سُنَّةٌ قائمةٌ، عرضَ صالحُ مدينَ ابنتَه على صالحِ بني يعقوبَ، وعرضَ عمرُ بنُ الخطابِ ابنتَه حفصةَ على أبي بكرٍ وعثمانَ، وعرضَت المرأةُ نفسَها على النبيِّ -صلّى اللهُ عليهِ وسلّمَ-». يقال: إنّ موسى قضى أكملَ الأجلَين وأتمَّهما، وهو عشرُ سنينَ كواملُ تامّة، قالَ اللهُ -جلَّ وعلا-: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ۞ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ

(1) سورة القصص: الآية 26

(2) سورة القصص: الآية 27

إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ* وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ* اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ ۖ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ* قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾(1).

وفي هذا قيل: اشتاقَ موسَى لرؤيةِ أهلِه، بعدَ أن أكملَ الأجلَ الذي بينه وبينَ والدِ زوجتِه، فقصدَ زيارةَ مصرَ متخفيـًا، فلمّا سارَ بأهلِه، ومعَه ولدانِ منهم، وغنمٌ قدِ استقادَها مدّةَ مقامِه، واتّفقَ ذلك في ليلةٍ مظلمةٍ باردةٍ، وتاهوا في طريقهم، فلم يهتدوا إلى السلوكِ في الدرب المعروفِ، وجعلَ يوري زنادَه فلا يَرَى شيئًا، واشتدَّ الظلامُ والبردُ، فبينما هو كذلك، إذ أبصرَ عن بعدٍ نارًا تأجَّجُ في جانبِ الطورِ -وهو الجبلُ الغربيُّ منهُ على يمينه- وقولـه:﴿ قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾ وكأنّه -واللهُ أعلمُ- رآها دونَهم، لأنَّ هذهِ النارَ هي نورٌ في الحقيقةِ، ولا يصلحُ لرؤيتِها كلُّ أحدٍ، ﴿ لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ أي: لعلّي أستعلمُ ممن عندها عن الطريق، قال المفسرونَ منَ السَّلفِ والخَلَفِ في ذلك: لمّا قصدَ موسى تلك النارَ التي رآها، وجدَها تأجَّجُ في شجرةٍ خضراءَ منَ العوسَجِ (الشوك)، وكلَّ ما لتلك النارِ في اضطرامٍ، وكلُّ ما لِخضرةِ تلك الشجرةِ في ازديادٍ، فوقفَ متعجِّبًا، فالشجرةُ تتّقِدُ بلا لَهَبٍ ولا دخانٍ، فلم يجدْ موسَى -عليه السَّلامُ- فيها جذوةً ولا قبسًا، ولا جمرةً ولا شِهابًا، فماذا يأخذُ منها ليعودَ إلى أهلِه؟! فمدَّ عصاهُ عسى أن يشعلَ طرفَها ليعودَ بهِ مشتعِلًا، ولكنَّ النارَ تهجمُ عليهِ فيعودُ خائفًا، فتحطَّمَت أعصابُه، وانهارَت قواه، وإذا بصوتٍ ينادي من

(1) سورة القصص: الآية 29 – 33

الشجرةِ ﴿يا موسى﴾، قال المهدويّ: «وكلّمَ اللهُ -عزَّ وجلَّ- موسى -عليهِ السَّلامُ- من فوقِ عرشِه، وأسمعَ كلامَه منَ الشجرةِ على ما شاء».

ثمّ تتابعَ كلامُ الجليلِ -سبحانَه وتعالى-: ﴿إِنِّي أَنَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾(1)، وفي مقامٍ مباركٍ آخرَ من سورةِ طَه: ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى* وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ* إِنَّنِي أَنَا اللهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي* إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ* فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ﴾(2)، وفي موضعٍ ثالثٍ في سورةِ النملِ: ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(3).

وقد بدأتْ كلماتُ اللهِ -عزّ وجلَّ- مع سيِّدِنا موسَى -عليهِ السَّلامُ- بالتوحيدِ أوّلًا: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾ وثنّى بالعبادةِ، التي هيَ كمالُ العملِ الدالِّ على مظاهرِ التوحيدِ: ﴿فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾، ثمّ بيّنَ سبحانَه فناءَ تلكَ الحياةِ، وقيامَ الساعةِ للجزاءِ: ثوابٍ وعقابٍ ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾، ثمّ حذَّرَهُ من اتّباعِ الهوَى المُضِلِّ عن سواءِ السبيلِ: ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ﴾.

هذه هيَ الوهلةُ الأولَى للنداءِ العُلويِّ الذي استجابت له جنباتُ الوجودِ، وألقَى اللهُ -عزَّ وجلَّ- إلى عبدِه المختارِ قواعدَ التوحيدِ، ولا بدَّ أنّ موسى قد نسيَ نفسَه ونسيَ ما جاءَ من أجلِه، ليتبَعَ ذلك الصوتَ العلويَّ الذي ناداه، وليسمعَ التوجيهَ الربّانيَّ الذي تلقّاه، وبينما هو مستغرقٌ فيما هوَ فيه، ليس في كيانِه ذرّةٌ واحدةٌ تتلفَّتُ

---

(1) سورة القصص: الآية 30

(2) سورة طه: الآيات 12 16-.

(3) سورة النمل: الآية 8.

إلى سواه، إذا هو يتلقّى سؤالًا لا يحتاجُ منهُ إلى جواب: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ﴾[1] إنّها عصاه، ولكن أينَ هوَ مِن عصاه؟ إنّما يتذكَّرُ فيجيبُ: ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾[2]، والسؤالُ لم يكن عن وظيفةِ العصا في يدِه، إنّما كانَ عمّا في يمينِه، ولكنَّه أدركَ أنْ ليسَ عن ماهِيَّتِها يسألُ، فهيَ واضحةٌ؛ إنّما عن وظيفتِها معَه فأجاب، وذلك أقصى ما يعرفُه موسى عن تلك العصا، لكن ها هي ذي القدرةُ القادرةُ تصنعُ بتلك العصا في يدِه ما لم يكنْ يخطرُ على بالِه، تمهيدًا لتكليفِه بالمهمّةِ الكبرى: ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ ۞ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ۞ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ﴾[3]، ووقعتِ المعجزةُ الربّانيةُ؛ فإذا العصا حيّةٌ تسعَى.

وكم من ملايينِ الذرّاتِ الميتةِ أو الجامدةِ كالعصا تتحوَّلُ في كلِّ لحظةٍ إلى خليّةٍ حيّةٍ؛ ولكنّها لا تبهرُ الإنسانَ كما يبهرُه أن تتحوّلَ عصا موسى حيّةً تسعى! ذلك أنّ الإنسانَ أسيرُ حواسّه، وأسيرُ تجارِبه، وانقلابُ العصا حيّةً تصدمُ حِسَّه فينتبهُ لها بشدّةٍ، ووقعتِ المعجزةُ، فدهشَ لها موسى وخافَ، وهربَ من أمامِها، وقولُ اللهِ -تعالى- ﴿فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾[4]، أي لم يلتفت، فناداه ربُّه ﴿يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾[5] فلمّا رجعَ، أمرَهُ اللهُ -جلَّ وعلا- أن يُمسِكَها، ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ﴾[6]، واطمأنّ

---

(1) سورة طه: الآية 17.

(2) سورة طه: الآية 18.

(3) سورة طه: الآيات 19-21.

(4) سورة القصص: الآية 31

(5) سورة القصص: الآية 31

(6) سورة طه: الآية 21

موسى -عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ- والتقطَ الحيَّةَ فإذا هيَ تعودُ إلى سيرَتِها الأولَى! عصا!.

ثمّ صدرَ الأمرُ العُلويُّ مرّةً أخرى إلى عبدِ اللهِ موسى: ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَىٰ﴾(1)، ووضعَ موسى يدَه تحتَ إبطِه؛ لتخرجَ بيضاءَ، لا عن مرضٍ ولا آفةٍ، ولكن ﴿آيَةً أُخْرَىٰ﴾، مع آيةِ العصا ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى﴾، فتشهدَ وقوعَها بنفسِك، تحتَ سمعِك وبصرِك، فتطمئنَّ للنهوضِ بالتَّبعَةِ الكُبرى.

وبعدَ أن مَنَّ اللهُ -عزَّ وجلَّ- على موسى -عليهِ السَّلامُ- بالنبوّة، وأيّده بمعجزتَيِ العصا واليدِ، أمرَه بالذهابِ إلى فرعونَ، بصفتِه رسولًا ونبيًّا من عندِ اللهِ، ليُخرِجَ العبادَ من عبادةِ العبادِ إلى عبادةِ ربِّ العباد.

موسى رسولًا وطريدًا

لقد أمرَ اللهُ -جلَّ وعلا- رسولَه ونبيَّه موسى -عليه السلامُ- بالذهابِ إلى فرعونَ الطاغيةِ، وإبلاغِه أنّه رسولُ اللهِ إليه، وأنّه جاءَه بناءً على أمرِ اللهِ، قال الله-جلَّ وعلا-: ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ* قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي* وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي* وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي* يَفْقَهُوا قَوْلِي* وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي* هَارُونَ أَخِي* اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي* وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي* كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا* وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا* إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا* قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ﴾(2)

(1) سورة طه: الآية 22

(2) سورة طه: الآيات 24 – 36

لقد طلبَ -عليهِ السَّلامُ- إلى ربِّهِ أن يشرحَ له صدرَه؛ فانشراحُ الصَّدرِ يحوِّلُ مشقّةَ التكليفِ إلى متعةٍ، ويُحيلُ عنادَه إلى لذة، وطلبَ إلى ربّه أن ييسّرَ له أمرَه؛ وتيسيرُ اللهِ لعبادهِ هو ضمانُ النجاح. وطلب إلى ربّه أن يحلَّ عقدةَ لسانِه؛ فيفقهوا قولَه، وطلبَ أن يعينَه اللهُ بمُعينٍ من أهلِه (أخيه)؛ فهو يعلمُ عنه فصاحةَ اللسانِ، وثباتَ الجنانِ، وهدوءَ الأعصابِ، فيشدَّ به أزرَه ويقوّيه، ويتروّى معه في الأمرِ الجليلِ الذي هو مقدمٌ عليه، فاستجابَ له ربُّه، قال: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ﴾، وعاد موسى -عليه السلام- بأهلِه إلى أرضِ مصرَ، والتقى هناك أهلَه وأحبابَه، وأخبرَ أخاهُ هارونَ أنّ اللهَ جعلَه وزيرًا له، ولا بدّ أن يكونَ الوحيُ قد نزلَ عليه.

أمر الله -جلَّ وعلا- موسى وأخاه هارون -عليهما السَّلامُ- أن يذهبا معًا إلى فرعون مؤيَّدَينِ بالآياتِ والمعجزاتِ، ونهاهما عنِ الفتورِ والتقصيرِ عن ذكرِ اللهِ وتبليغِ رسالته، وأمرَهما أن يقصِدا فرعونَ بالذاتِ لأنّه هو الذي طغَى، وأوصاهما أن يليِّنا له القولَ، لعلَّ ذلك يليّنُ من طبيعتِه وطغيانِه، ويصلا إلى قلبِه بحُسنِ الكلامِ فيخشَى.

فقال موسى وهارون: إنّنا نخافُ جبروتَ فرعونَ وقوّتَه وقسوتَه، إذا بلَّغناه هذه الرسالةَ، فربّما حملَه الغضبُ على البطشِ بنا أو التعجيلِ بعقابنا، فقال اللهُ لهما: لا تخافا أن يصيبَكما ما توهّمتماه منه، فإنّي معَكما أسمعُ وأرى، فسأحفظكما من بغيه، وقال لهما: ﴿اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ۞ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ۞ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ۞ قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ ۞ قَالَ لَا تَخَافَا ۖ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾(1). وذهبَ موسى وأخوهُ هارونَ

(1) سورة طه: الآيات 42-46

إلى فرعونَ ونَاديا عليه، فخرج إليهما، فقالا: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ﴾[1]، أنت يا فرعونُ عبدٌ مقهورٌ، لستَ إلهًا، ونحنُ جئناكَ مِن قِبَلِ اللهِ -تعالى- ربِّنا وربِّك، واللهُ يأمرُك أن تتركَ بني إسرائيلَ وتطيعَ كلامَنا، والسَّلامُ على مَنِ اتّبعَ الهدَى، وإن عاندتَ واستكبرتَ، فاعلمْ: ﴿أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾[2]

وفي مقامٍ آخرَ: ﴿قَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ* حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾[3]، واستغربَ فرعونُ من كلامِ موسَى (ربيبِه السابق)، وشرعَ يمُنُّ ويُظهِرُ فضلَه عليه بأن تربَّى في بيتِه، وهذا يقتضي أن يكونَ وفيًّا له، بعيدًا عن كلِّ ما يغيظُه، ثمّ ذكَّرَه فرعونُ بما اقترفَه من قَتلِ المصريِّ، وأنّ مَنِ ارتكبَ جريمةَ قتلٍ يكونُ آثمًا، بعيدًا عن رحمةِ ربّه، وليس جديرًا به أن يدَّعِي حملَ رسالتِه.

فردَّ موسى -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- بأنّه لم يقصدْ قتلَ الرجلِ المِصريِّ، بل وَكَزَهُ بيدِهِ وهو جاهلٌ بأنّها ستودي به إلى الموتِ، وأضاف قائلًا: وقد خِفتُ أن تعاقبوني على قتلٍ لم أقصِدْه، فخرجتُ من مصرَ فرارًا منكم، فوهبَ لي ربّي بعد ذلك حكمةً واصطفاني لنبوَّتِه، ولم ينسَ أن يردّ على فرعون ما امتَنَّ عليهِ به، فقالَ: وأيُّ نعمةٍ تمنُّها عليّ؟ هل تربيتُك لي وأنا طفلٌ تعُدُّها نعمةً عليّ، وأنتَ قد استعبدتَ بني قومي؟ إن كنتَ قد أسديتَ إليّ نعمةً فقد لاقَى قومِي منك الذلَّ والهوانَ، فإنّي أتألَّم لآلامِهم، وأُشفِقُ على حالِهم، قال اللهُ -تعالى-: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ

(1) سورة طه: الآية 47

(2) سورة طه: الآية 48

(3) سورة الأعراف: الآيات 104 105-، حقيق: أي جدير

فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ* وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ* قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ* فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ* وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾(1).

وهنا استغربَ فرعونُ رسالةَ موسى وقولَه، فشرعَ يجادلُه في رُبوبيَّةِ اللهِ -جلَّ وعلا-: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ* قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ* قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ* قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ* قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ* قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾(2).

ويذكرُ اللهُ -جلَّ وعلا- ما كانَ بينَ فرعونَ وموسَى من المحاجّةِ والمناظرةِ، وما أقامَه الكليمُ على فرعونَ اللئيمِ منَ الحُجَّةِ العقليةِ والمعنويّةِ ثمّ الحِسيّةِ؛ وذلك لأنّ فرعونَ أظهرَ جحودَ الصانعِ -جلَّ وعلا-، وزعمَ أنّه (الإله)،فجمع ملأَهُ، وخطبَ فيهم، ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ* فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾(3)،وقالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾(4)، وهو في هذه المقالةِ معاندٌ، يعلم أنّه عبدٌ مربوبٌ، وأنّ اللهَ هو الخالقُ البارئُ المصوّرُ، الإلهُ الحقّ الواحدُ الأحدُ.

كما قال الله: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾(5)؛ ولهذا قال لموسى -عليه السلام- على سبيل الإنكارِ لرسالتِه،

(1) سورة الشعراء: الآيات 18 22-

(2) سورة الشعراء: الآيات 23-28

(3) سورة النازعات: الآيات 23-24

(4) سورة القصص: الآية 38

(5) سورة النمل: الآية 14

زاعمـًا أنه الإلـه مـن دون الله: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[1]؛ فكأنّه يقـول لهما: ومـن ربُّ العالمينَ الـذي تزعُمانِ أنّه أرسلَكما؟ فأجابه موسى قائلًا: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾[2]، يعني ربَّ العالمين، خالقَ هذه ٱلسَّمَٰوَٰتِ، وهذه الأرضِ وما بينهما من المخلوقاتِ المتعدّدة، منَ السحابِ والرياحِ والمطرِ والنباتِ والحيواناتِ، التي يعلمُ كلُّ عاقلٍ منصفٍ موقنٍ أنّها لم تحدثْ بأنفسِها، ولا بدَّ لها من مُوجِدٍ ومحدِثٍ وخالق، ألا وهو اللهُ الذي لا إلهَ إلّا هو ربُّ العالمين.

فلمّا قامتِ الحُجَجُ على فرعونَ، وانقطعت شُبَهُه، ولم يبقَ له قولٌ سوى العنادِ، عدلَ إلى استغلالِ سلطانِه وجاهِه وسطوتِه، قال: ﴿لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ* قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ* قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ* فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ* وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾[3]، وهذان هما البرهانانِ اللذان أيدَه اللهُ بهما، وهما العصا واليد، وذلك مقامٌ أظهرَ فيهِ الخارقَ العظيمَ الذي بهرَ به العقولَ والأبصارَ، حين ألقَى عصاهُ فإذا هي ثعبانٌ مبينٌ، أي عظيمُ الشكلِ، بديعٌ في الفخامةِ والهَولِ والمنظرِ العظيمِ الفظيعِ الباهرِ، حتّى قيل: إنّ فرعونَ لمّا شهدِ ذلك وعاينَه، أخذَه رعبٌ شديدٌ، وخوفٌ عظيم.

ومع هذا كلّه، لم يرتدعْ فرعونُ، بلِ استمرَّ على عنادِه وكفرِه وغيِّه وطغيانِه، وادَّعى أنّ كلَّ هذا سحرٌ، وأراد أن يعارضَ السِّحرَ بالسحر، فأرسلَ يجمعُ السحرةَ من أقاصي البلدانِ، مع علمه بأنّ ما جاءَ به موسى هو الحجّةُ الباهرةُ القاطعةُ، عليه وعلى ملئِه وأهلِ دولتِه وملّته.

---

(1) سورة الشعراء: الآية 24

(2) سورة الشعراء: الآية 24

(3) سورة الشعراء: الآيات 29 – 33

وبعد أن تشاورَ فرعونُ مع حاشيتِه، فقالوا: إنّ موسى - عليه السلام- ساحرٌ عليمٌ بالسحر! وغايتُه في ذلك أنّ يُخرِجَ بني يعقوبَ من أرضَ مصرَ، ليتملَّكَ عليهم، أو أن يُخرِجَ أهلَ مصرَ منها ليتملَّك عليها، ثمّ سألهم فرعونُ ماذا يشيرونَ بأمرِه؟ فأشارَ الأشرافُ على فرعونَ بأن يُمهِلَ موسى وأخاه، ويبعثَ في طلبِ السَّحَرةِ من آفاقِ مصرَ، ليأتوا بمِثلِ ما أتَى به موسى؛ لأنّه متى قوبلَ السحرُ بالسحرِ انهارت معجزته المزعومة، وتلاشت دعوتُه.

وأرسلَ فرعونُ سفراءَه وأعوانَه في أنحاءِ مصرَ، ليأتوهُ بالسَّحرةِ، فجاءوه بكثيرٍ منهم، فطلبَ السَّحرةُ من فرعونَ الأجرَ الجزيلَ إذا تفوّقوا على موسى في سحرِه، فقَبِلَ فرعونُ ذلك، ووعدَهم بأن يقربَهم ويدنيهم منه، هذا وقد كان للسِّحرِ والسَّحرةِ منزلةٌ عظيمةٌ في أرضِ مصرَ، يُعنى بها الملكُ والأمراءُ، ويكافئونَ عليها، وهذا أمرٌ كشفتِ الآثارُ المصريّةُ حديثًا عنه.

وجاء اليومُ الموعودُ لالتقاءِ السحرةِ بموسى، وتدفقت جماهيرُ غفيرةٌ إلى ساحةِ العَرضِ، وكان ذلك في يومِ الزينةِ (يومِ عيدِهم)، فقالَ السَّحرةُ لموسى وهارون -عليهما السلام-: ﴿إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ * قَالَ بَلْ أَلْقُوا ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ * فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ * قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ * وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾[1]، كان عتادُ السحرةِ الحبالَ والعصيَّ، فألقوها فامتلأَ مكانُ العرضِ حيّاتٍ وثعابينَ، وخُيِّلَ إلى موسى والجماهيرِ أنّها تتحركُ وتسعَى، فخافَ الناسُ من هذا المشهدِ، وأوقعَ في قلوبِهِم الرهبَ

(1) سورة طه: الآيات 65 – 69

والرعبَ، قالَ اللهُ -جلَّ وعلا-: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾[1]، ابتهجَ فرعونُ وقومُه وأيقنُوا بنجاحِ السَّحَرةِ وأنّ موسَى مهزومٌ لا محالةَ، ولا يمكنه التفوّقُ عليهم، ولكنَّ اللهَ -جلَّ وعلا- أوحى لموسى أن يلقيَ عصاه، فألقاها فإذا هي حيّةٌ عظيمةٌ تبتلعُ بسرعةٍ ما يكذِبون ويموِّهون مما عرضوهُ منَ السِّحرِ، قال -جلَّ وعلا- ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾[2].

عند ذلك، أُسقطَ في يدِ فرعونَ وتحقَّقَ السَّحرةُ -بما عندَهم منَ العلمِ- أنَّ هذا ليسَ بسحرٍ ولا شعوذةٍ، ولا مِحالَ عليه ولا خيالَ ولا زورَ، ولا بهتانَ ولا ضلالَ، بل حقٌّ لا يقدِرُ عليه إلّا الحقُّ، الذي ابتعثَ هذا المؤيَّدَ بالحقّ، وكشفَ اللهُ عن قلوبِهمُ الغِشاوةَ والغفلةَ، وأنارَها بما خُلقَ فيها من الهُدى، فأنابوا إلى ربّهم وخرُّوا له ساجدين، وقالوا جهرةً للحاضرين، ولم يخشَوا عقوبةً ولا بلوَى، بل قالوا: ﴿آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ* رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾[3]، وهنا قال موسى -عليه السلام-: الحمدُ للهِ ربِّ العالمين... أمّا فرعونُ فقد قالَ للسَّحرة: ﴿آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾[4]، ثمّ قال: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾[5]، يقصدُ موسى -عليه السلام-: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾[6]، وهذا الذي قالَه من البهتانِ، الذي يعلمُ كلُّ فردٍ عاقلٍ ما فيهِ منَ الكفرِ والكذبِ والهذيانِ، بل لا

(1) سورة الأعراف: الآية 116

(2) سورة طه 69

(3) سورة الأعراف: الآيات 121 – 122

(4) سورة طه: الآية 71

(5) سورة طه: الآية 71

(6) سورة الأعراف: الآية 123

يُرَوَّجُ مثلُه على الصبيانِ، فإنّ الناسَ كلَّهم من أهلِ دولتِه وغيرِهم، يعلمون أنّ موسى لم يرَه هؤلاء السحرةُ يومًا من الدهرِ، فكيف يكونُ كبيرَهم الذي علّمهمُ السِّحرَ؟!، ثمّ هو لم يجمعْهم ولا عِلمَ له باجتماعِهم، حتّى كان فرعونُ هو الذي استدعاهم، واجتباهم من كلِّ فجٍّ عميقٍ ووادٍ سحيقٍ، ومن حواضرِ بلادِ مصرَ وأطرافِها، ومن المدنِ والأريافِ، ثمّ قال فرعونُ السَّحرةَ بعد إيمانِهم: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾[1]، قال ابنُ عبّاس: كان فرعون أوّلَ مَن صلبَ، وقطّعَ الأيدي والأرجلَ مِن خلافٍ؛ الرجلَ اليمنى واليدَ اليسرى، واليدَ اليمنى والرجلَ اليسرى، فقال السحرةُ بلسانِ اليقينِ، ومنطِقِ الحقِّ المبين: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾[2]، أي لن نطيعَك ونتركَ ما وقرَ في قلوبنا من البيناتِ، والدلائلِ القاطعات، ﴿فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ﴾ أي: افعلْ ما قدرتَ عليه، ﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾[3]؛ ﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ۗ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾، أي: ثوابُ اللهِ خيرٌ ممّا وعدتنا به، من التقريبِ والترغيب، ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[4]، وبدأ التعذيبُ والتشويهُ والتنكيلُ، ولكنَّ النفسَ البشريةَ حين تستعلنُ فيها حقيقةُ الإيمانِ، تستعلي على قوّةِ الأرضِ، وتستهينُ ببأسِ الطغاةِ، وتنتصرُ فيها العقيدةُ على الحياةِ، وتحتقرُ الفناءَ الزائلَ إلى جوارِ الخلودِ المقيمِ، ﴿فَاقْضِ مَا أَنتَ

---

(1) سورة طه: الآية 71

(2) سورة طه: الآية 72

(3) سورة طه: الآية 73

(4) سورة الشعراء: الآيتان 50 – 51

قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾[1].

إنّه الإيمانُ الذي لا يفزعُ ولا يتزعزعُ، ولا يخضعُ ولا يخنَعُ، الإيمانُ الذي يطمئنُّ إلى النهايةِ فيرضاها، ويتيقّنُ من الرَّجعةِ إلى ربّهِ فيطمئنُّ إلى جوارِه، قالوا: ﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾، وما دامَ الأمرُ كذلك، فيا أقدامَ الصبرِ تحمَّلي، بقيَ القليلُ، فقَبلَ لقاءِ اللهِ ماذا يطلبُ أهلُ الإيمان؟ إنّهم يطلبونَ الصَّبرَ على الفِتَنِ والوفاةَ على الإسلام، ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾[2]، ووقفَ الطغيانُ عاجزًا أمامَ قوةِ الإيمانِ! قالَ ابنُ عبّاس: «أصبَحُوا سحرةً فجرةً وأمسَوا شهداءَ بررةً، فرضيَ اللهُ عنهم أجمعين».

ورأى فرعون الآياتِ التي أتَى بها موسى -عليه السَّلامُ- فتمادَى في كفرِه، وأصرَّ على عنادِه، ولامَه الملأُ من قومِه على تركِ موسى وأتباعِه يعبُدون إلهًا غيرَه، فطمأَنَهم فرعونُ قائلًا: سنقتِّلُ أبناءَهم، ونستبقي نساءَهم أحياءَ لاسترقاقِهنّ، ثمّ شرعَ يحقّقُ وعيدَه السيّئ»[3].

وضجَّ بنو يعقوبَ بالشكوى إلى موسى، فأوصاهم -عليهِ السَّلامُ- بالاِستعانةِ باللهِ وحدَه، والصبرِ، ووعدَهم بحسنِ العاقبةِ إذا ما اتقَوا وأحسنُوا، ولكن ذهبتْ وصاياه سدىً أمامَ البلاءِ الماحقِ، وبعدَ كلِّ هذا البطشِ الذي صبَّه فرعونُ على بني يعقوبَ، فكّرَ في قتلِ موسى ومَن معه، وقامت الاجتماعات، ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾[4].

(1) سورة طه: الآية 72

(2) سورة الأعراف: الآية 126

(3) قصص الأنبياء: الحافظ الدمشقي: ص 243

(4) سورة غافر: الآية 26

وبينما هم يتشاورون إذا برجلٍ منهم كانَ -يكتمُ إيمانَه بموسى مِن قَبلُ- ضاق ذرعًا من تآمُرِهم على قتلِ العبدِ الصالحِ كليمِ اللهِ موسى -عليهِ السَّلامُ-، يصيحُ فيهم: ﴿أتقتلونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ* يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللهِ إِن جَاءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾(1)، قال ابنُ عبّاس: «لم يؤمنْ منَ القِبطِ بموسى إلّا هذا الرجلُ، والذي جاءَ مِن أقصى المدينةِ، وامرأةُ فرعونَ، أمّا قولُ فرعونَ ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ فقد كذَبَ وخابَ، لأنّه لم يكن على رشادٍ منَ الأمرِ، بل كان على سفَهٍ وضلالٍ وخبَلٍ وخيال» حيث كان ممّن يعبدون الأصنامَ، ثمّ دعا قومَه الجهلةَ إلى الضلالِ فاتبعُوه وطاوعوهُ وصدَّقُوه فيما زعمَ منَ الكفرِ والمحالِ، في دعواهُ أنّه ربٌّ -تعالى اللهُ ذو الجلالِ والإكرامِ عن ذلك-.. ونصحَ مؤمنُ آلِ فرعونَ فرعونَ وحاشيته: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ * مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ* وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ* يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ* وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ* الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ

(1) سورة غافر: الآيات (28، 29)

مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾[1]، ويحذِّرُهم وليُّ اللهِ إن كذَّبوا برسولِ اللهِ موسى، أن يحلَّ بهم ما حلَّ بالأممِ مِن قَبلِهم من النقماتِ الربّانيّةِ، ممّا تواترَ عندَهم وعندَ غيرِهم، ممّا حلَّ بقومِ نوحٍ وعادٍ وثمودَ، ومَن بعدهم إلى زمانهم ذلك، ممّا أقامَ به الحُجَجَ على أهلِ الأرضِ قاطبةً، في صِدقِ ما جاء به الأنبياءُ، لمّا أنزلَ من النقمةِ بمكذِّبيهم من الأعداءِ، وما أنجى اللهُ مَنِ اتَّبعهم منَ الأولياءِ، وخوَّفهم يومَ القيامةِ يومَ التنادِ، أي حينَ ينادي الناسُ بعضُهم على بعضٍ، حين يولُّون -إن قدروا على ذلك، ولا إلى ذلك سبيلًا-، يومَ يحلُّ بهم بأسُ الله، فيودُّون الفرارَ، ولاتَ حينَ مناص... ثمّ أخبرَهم عن قصّةِ يوسفَ في بلادِ مصرَ، وما كان منه منَ الإحسانِ إلى الخلقِ في دنياهم وأخراهم، وهذا من سُلالتِه وذرّيّتِه، ويدعو الناسَ إلى التوحيدِ وعبادةِ اللهِ وحدَه، وألّا يشركوا به أحدًا من بريّته.

وطغَى فرعون وتجبّر وعلا في الأرض، ولم يلتفت إلى نصيحةِ مؤمنِ آلِ فرعونَ، بل تمادَى، وجعلَ أهلَ مصرَ شيعًا، لتسهلَ السيطرةُ عليهم، ويستضعفُ بني يعقوبَ، ويذبحُ أبناءَهم ويستحيي نساءَهم، وهنا توجَّهَ رسولُ اللهِ ونبيُّه موسى-عليهِ السَّلامُ- إلى اللهِ بالدعاء: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ* قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[2]، يا ربّ: إنّك أعطيتَ فرعونَ والأشرافَ من قومِهِ زينةَ الدنيا وبهجتَها منَ الأموالِ والثيابِ الفاخرةِ والقصورِ والجِنانِ والسُّلطانِ، لكنّهم قابلوا هذه النعمَ

(1) سورة غافر: الآيات (30 – 35).

(2) سورة يونس: الآيتان (88 ، 89).

بالعنادِ والكفرِ، وصرَفُوا الناسَ عنِ الإيمانِ بك، اللهمَّ امحَق أموالَهم، وزدْ قلوبَهم قسوةً وعنادًا، فلا يوفَّقُوا للإيمانِ حتّى يرَوُا العذابَ الأليمَ رأيَ العَينِ يصيبُهم، بهذا دعا موسى وأخوه هارونُ ربَّهما، فقالَ اللهُ -تباركَ وتعالى- لهما: قد أُجيبَت دعوتُكما، فاستمِرّا على السيرِ في الطريقِ المستقيمِ، واترُكا سبيلَ أولئك الذين لا يعلمونَ سبيلَ الحقِّ الذي وَضُحَ لكما.

لقد استجاب الله دعاءَ موسى وأخيه هارون -عليهما السَّلامُ- وصبَّ العذاب صبًّا على قومِ فرعونَ، ابتلاهم اللهُ -جلّ وعلا- بأعوامٍ منَ الجَدبِ التي لا يُستفادُ فيها بزرعٍ ولا يُنتفَعُ بضَرعٍ، وبقلَّةِ الثمراتِ منَ الأشجارِ، ثمّ أرسلَ عليهِمُ الطوفانَ والفيضانَ والضفادعَ؛ قالَ ابنُ عبّاس: «إنّ الضفادعَ كانت تقذفُ بنفسِها في القدورِ وهيَ تفورُ في التنانيرِ وهي مسجُورة». وصارت طرقُ المدينةِ وشوارعُها وقد مُلِئَت بجثثِ الضفادعِ (والدم)، كان أحدُهم يرفعُ الإناءَ ليشربَ منه فيتحوَّلُ الماءُ إلى دمٍ نجسٍ، فكانوا لا يشربون ماءً إلّا وجدوا فيه الدمَ[1].

وقال محمد بن إسحاق: فرجعَ عدوُّ اللهِ فرعونُ -حينَ آمنَ السَّحرةُ مغلوبًا غاضبًا، ثمّ أبَى إلّا الإقامةَ على الكفرِ، والتمادي في الشرِّ، فتابعَ اللهُ عليهِ الآياتِ، وأخذَهُ بالسنينَ، فأرسلَ عليهِ الطوفانَ، ثم الجرادَ، ثم القمّلَ، ثم الضفادعَ، ثم الدمَ، آياتٍ مفصَّلاتٍ؛ ففاضَ الماءُ على وجهِ الأرضِ ثم ركَدَ، لا يقدِرون على أن يحرُثوا الأرضَ، ولا أن يعملوا شيئًا، حتى جهدوا جوعًا، فلمّا أنهكَهم ذلك، قالوا: ﴿يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ

(1) وهذه هي التسع آيات المذكورة في سورة الإسراء: (ولقد آتينا موسى تسع آيات بيّنات) (الإسراء 101) وهي (العصا، اليد، السنين، نقص الثمرات، الطوفان، الجراد، القمل، الضفادع، الدمّ).

مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾(1)، فدعا موسى ربَّه فكشفَه عنهم، فلمّا لم يفُوا له بشيءٍ ممّا قالوا، أرسلَ اللهُ عليهِمُ الجرادَ، فأكلَ الشجرَ، حتى إنه كان يأكلُ مساميرَ الأبوابِ منَ الحديدِ، حتى تقع دورُهم ومساكنهم، فقالوا مثلَ ما قالوا أولاً، فدعا موسى ربَّه فكشفَ عنهم العذابَ، فلم يَفُوا له بشيءٍ ممّا وعدوا، فأرسلَ اللهُ عليهم القُمَّلَ، فقالوا مثلما قالوا، فدعا ربّه فكشفه عنهم، فلم يفوا له بشيء، هكذا كلّما رفعت عنهم آيةٌ عادوا إلى شرٍّ ممّا كانوا عليه، وأعرضُوا عمّا جاءَهم به منَ الحقِّ، هذا والعظيمُ الحليمُ القديرُ يُنظِرُهم ولا يعجلُ لهم، ويتقدم بالوعيد إليهم ويملي لهم، ولم يؤمن منهم إلا القليلُ، كما قال اللهُ -جلَّ وعلا-: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾(2).

ثم أخذَهم بعدَ إقامةِ الحُجَّةِ عليهم، والإعذارِ إليهم أخذَ عزيزٍ مقتدرٍ، فجعلهم عبرةً ونكالًا وسلفًا لمَن أشبهَهم منَ الكافرينَ، ومثَلًا لمَنِ اتّعظَ بهِ من عبادِه المؤمنين.

ثمّ أوحى اللهُ -تعالى- لموسى وهارونَ -عليهما السلامُ- أن يتَّخِذا لقومِهما بيوتًا مميزةً فيما بينهم عن بيوتِ القِبط، ليكونوا على أهبةِ الرحيلِ إذا أُمروا به، ليعرفَ بعضُهم بيوتَ بعضٍ، وهنا جاءَ الأمرُ منَ اللهِ -جلَّ وعلا- لموسى -عليه السلامُ- بالخروجِ من مصرَ ليلًا، فانطلقَ بقومِه (بني يعقوب) سرًا من أرضِ مصرَ إلى سيناء.

علم فرعون بذلك؛ فأرسلَ أعوانَه في الأقاليمِ، يجمعونَ الناسَ لتجهيزِ جيشٍ كبيرٍ ليقتفوا أثرَ موسى ومَن معه، ويدركوهم قبلَ أن يهرُبوا إلى سيناء.

(1) سورة الأعراف: الآية 134

(2) سورة يونس: الآية 83

وصلَ بنو إسرائيلَ إلى شاطئِ النيلِ، وهناكَ أدركَهم فرعونُ وجنودُه مع شروقِ الشمسِ، فأيقنوا بالهلاكِ، واستولى عليهمُ الذعرُ، وقالوا لموسَى: لقد لَحِقَ بنا فرعونُ، ولا طاقةَ لنا به، فماذا نفعلُ، والبحرُ أمامَنا، وجنودُ فرعونَ خلفنا؟! قالَ لهم موسى -عليه السَلامُ-: لا تخافوا؛ إنّ معيَ ربّي سيرشدُني إلى طريقِ النجاةِ والصواب.

عندئذٍ أوحى اللهُ -تعالى- إليهِ أن يضربَ البحرَ (النيل) بعصاهُ ففعلَ، فانشقَّ الماءُ وصارَ يبَسًا، فسار بنو يعقوبَ في الطريقِ المفتوحةِ لهم منَ اللهِ في البحرِ، وأشرفَ في ذلك الحينِ فرعونُ على الموضِعِ الذي عبرُوه، فرأى طريقًا في البحرِ، فاقتحمَ هو وجنودُه الطريقَ، فانطبَقَ الماءُ بأمرِ اللهِ -القديرِ- على فرعونَ وجنودِه وأُغرِقُوا جميعًا، وأنجى اللهُ موسَى ومَن معَه من بني يعقوب، سجّل القرآن الكريمُ هذا الحدثَ العظيمَ، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ * فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ * وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ﴾(1)، وقال في سورةِ يونس: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ * آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾(2)، وهنا يخبرُ اللهُ كيفَ أنجى رسولَه ونبيَّه الطريدَ موسى -عليه السلامُ- وكيف أغرقَ فرعونَ الطاغيةَ الكافرَ لمّا جعلتِ الأمواجُ تخفِضُه تارةً، وترفعُه تارةً أخرَى، حتّى لفَظَ أنفاسَه هو وجنودُه، وكيف أنّ فرعونَ

(1) سورة طه: الآيات 77-79

(2) سورة يونس: الآيات 90 - 92

عندما عاينَ الهلاكَ، وأحيطَ به، وباشرَ سكراتِ الموتِ؛ أنابَ وآمنَ، حينَ لا ينفعُ نفسًا إيمانُها، كما قال الله: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾[1].

موسى وبنو يعقوب

لقيَ موسى -عليهِ السَّلامُ- الأهوالَ من بني يعقوبَ في سبيلِ دعوتِهم إلى عبادةِ اللهِ وحدَه، وكانتِ المعجزاتُ التي أيدهُ اللهُ -جلَّ وعلا- بها كافيةً لأن تنزعَ منهم رواسبَ الوثنيةِ كافةً.

فمن مظاهرِ ذلك، أنهم عندما جاوَزُوا البحرَ إلى سيناءَ مرُّوا على قومٍ يعبدونَ الأصنامَ[2]، فطلبُوا من موسى أن يتّخذَ لهم صنَمًا يعبدونَه مثلَ هؤلاءِ الوثنيِّين، فلامَهم موسى على جَهلِهم، وأكّدَ لهم أنَّ هؤلاء القومَ دينُهم باطلٌ، وأعمالُهم خاسرةٌ؛ ولذا فإنّ مصيرَهم الهلاكُ، ثم أبدَى عجبَه كيفَ يطلبونَ معبودًا غيرَ ربِّ العالمين، الذي خصَّهُم بإكرامِه، وفضَّلَهم على قومِ فرعونَ بوحيِه ورعايتِه. ثمّ تابع بنو يعقوب مسيرهم مع موسى في صحراء سيناء، وجاءوا إلى الشاطئِ الشرقيِّ فلم يجدوا ماءً لشُربهم وسُقيا لدوابِّهم، فشكُوا أمرَهم إلى موسى -عليه السَّلامُ-، وطلبوا منه الماءَ، فأخبرَه اللهُ -عزَّ وجلَّ- أن يضربَ الحجرَ بعصاه، فلمّا ضربَه تفجَّرتْ منهُ اثنتا عشْرَةَ عَينًا، لكلِّ قبيلةٍ منهم عينٌ ترويها. ولمّا وصَلوا سهولَ شبهِ جزيرةِ سيناءَ، حيثُ الشمسُ فيها شديدةٌ، ولا توجَدُ مساكنُ يأوُونَ إليها، ولا شجرَ يلتمسونَ تحتَه الظِّلَّ، وشكوا إلى موسى ما يلقونَ من عناءٍ، فدعا موسى ربَّه؛ فساقَ لهمُ الغمامَ

---

(1) سورة غافر: الآية 85

(2) سعد يوسف أبو عزيز: قصص الأنبياء-دروس وعبر، ص 252

يقيهِم حرارةَ الشمسِ، ولمّا كان زادُهم عُرضةً للنفادِ، سألَ موسى ربَّه مرةً أخرى الطعامَ، فأنزل اللهُ عليهِمُ المَنَّ والسَلوَى، وبعدَ أن تفضَّلَ اللهُ عليهم بهذهِ النعمِ، أمَرَهم أن يأكلوا من هذه الطيباتِ، ولكنَّهم كفروا بتلك النعمِ وطلبُوا غيرَها، فكانوا بذلك منَ الظالمينَ لأنفسِهم، قالَ -عزَّ وجلَّ-: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[1]، فهذهِ نعمةٌ منَ اللهِ عظيمةٌ ما رعَوها حقَّ رعايتِها، وما قاموا بشُكرِها، ثمّ ضَجِرَ كثيرٌ منهم وتبرَّموا بها!! وسألوه أن يستبدلوا بها ممّا تُنبتُ الأرضُ من بَقلِها وقِثائِها وفُومِها وعدسِها وبصلِها، فقرَّعهم موسى ووبّخَهم، قالَ: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ﴾[2]، أي هذا الذي تطلبونَه وتريدونَه بدلَ هذهِ النعمِ التي أنتم فيها حاصلٌ لأهلِ الأمصارِ، وإذا هبطتم إليها، أي: نزلتُم عن هذهِ المرتبةِ التي لا تصلحونَ لها تجدونَ فيها ما تشتهونَ وما ترومون مما ذكَرْتُم منَ المآكِلِ الدنيَّةِ والأغذيةِ الرديَّةِ، ولكني لستُ أجيبكم إلى سؤالِ ذلك ههنا، ولا أبلغكم ما تعنتُّم بهِ من المُنَى، وكلُّ هذهِ الصفاتِ المذكورةِ عنهم الصادرةِ منهم تدلُّ على أنهم لم ينتهوا عما نُهوا عنه، كما قال الله: ﴿وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ﴾[3]، فقد هلك، وحَقَّ عليه -واللهِ- الهلاكُ والدمار، وحَلَّ عليهِ غضبُ الملكِ الجبّار، ولكنّه مَزَجَ هذا الوعيدَ الشديدَ بالرجاءِ

---

(1) سورة الأحزاب: الآية 160

(2) سورة البقرة: الآية: 61

(3) سورة طه: الآيات 81

لمَن أنابَ وتابَ، ولم يستمرَّ على دربِ الشيطانِ، فقال -سبحانه وتعالى-: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾[1].

وقال -عزّ وجلّ- في سورة الأعراف: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ * وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ* قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ* وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ* سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ* وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[2].

وأخبرَ موسَى -عليهِ السَّلامُ- بني يعقوبَ وهم بمصرَ أنّ اللهَ سيُهلكُ عدوَّهم فرعونَ وجنودَه، وأنّه سيُنزِلُ عليه كتابًا من عندِه فيه (الأوامرُ والنواهي) التي ينبغي أن يسيروا عليها، فلمّا أهلكَ اللهُ فرعونَ وقومَه، سألَ موسى ربَّه الكتابَ، فأمرَه اللهُ -تعالى- أن يقصدَ سفحَ جبلِ الطورِ الأيمنَ، ويمكثَ فيهِ ثلاثينَ يومًا صائمًا متعبدًا

(1) سورة طه: الآية 82

(2) سورة الأعراف: الآيات 142-147

لله. قالَ ابنُ عباس وغيرُه: الثلاثون ليلةً هي شهرُ ذي القعدةِ بكمالِه، وتمَّت أربعينَ ليلةً بعشرٍ من ذي الحِجة، فعلى هذا يكون كلامُ اللهِ له يومَ عيدِ النَّحرِ، وفي مِثله أكملَ اللهُ -جلَّ وعلا- لمحمَّدٍ -صلّى اللهُ عليهِ وسلّم- دينَه، وأقامَ حُجتَه وبراهينَه.

وقالَ -عزَّ وجلَّ-: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا﴾ أيْ في الوقتِ الذي أُمِرَ بالمجيءِ فيه {وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ} من وراءِ حجابٍ، إلا أنه أسمعَه الخطابَ، فناداه وناجاه وقربه وأدناه، وهذا مقامٌ رفيعٌ، ومعقِلٌ منيعٌ، ومنصبٌ شريفٌ، ومنزلٌ منيفٌ، وهنا سألَ موسى -عليهِ السَّلامُ- ربَّه رفعَ الحجابِ، فقالَ للعظيمِ الذي لا تدركُه الحواسُّ ولا الأبصارُ: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي﴾، لأن موسى لا يستطيعُ أن يثبُتَ عندَ تجليه -عزَّ وجل-، لأن الجبل الذي هو أقوى وأكبر ذاتًا، وأشد ثباتا من الإنسان، لا يثبت عند التجلي من الرحمن، ولهذا قال المولى: ﴿وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾... وإنّه أكبر منك وأشدّ خلقًا: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾ فنظر إلى الجبل لا يتمالك، وأقبل الجبل فدكّ على أوله، ورأى موسى ما يصنع الجبل فخرّ صعقًا، ولمّا أفاق قال: ﴿سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾(1)... ثم خاطب الله -عزّ وجلّ- موسى -عليه السلام-: ﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي﴾ أي في ذلك الزمان، لا ما قبله، ولا ما بعده: ﴿فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾(2)، أي فخذ ما أعطيتك من الرسالة والكلام ولا تسأل زيادة عليه وكن من الشاكرين على ذلك.

وتلقى -عليه السلام- (الألواح) قال -عزّ وجل-: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ

(1) سورة الأعراف: الآية 143

(2) سورة الأعراف: الآية 144

كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾، وكانت الألواح من جوهر نفيس، ففي الصحيح: «أن الله كتب في الألواح بيده»، وفيها تفصيل لكل ما يحتاجون إليه من الحلال والحرام، وأمره الله أن يأخذها بعزم ونية صادقة وقوية «فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا» فمن خرج على أحكامها، وتمرّد على أوامرها، فسترون عقابي بهم ﴿سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾.

عندما ذهب موسى لتلقي الألواح من الله، وتم الميقات أربعين ليلةً، كان موسى -عليه السلام- قد استخلفَ على قومه أخاهُ هارونَ -عليهِ السلامُ-، وفي أثناء غياب موسى -عليه السلام-، عمدَ رجلٌ من بني يعقوب يسمى (السامري) إلى حُليٍّ فصاغَ منها عجلًا، وقال لهم: ﴿هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ فعبدُوه من دونِ الله، وقالوا هذا إلهُنا الذي نسيَه موسى هنا، فعبدوه ورقصوا حوله.

ونهاهم هارونُ -عليه السلام- وقال: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾، فكان ردهم: ﴿قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾(1)، ولما أنكرَ هارون عليهم عبادتَهم العجلَ أشبعوه ضربًا حتى كادوا يقتلوه.

وقبل عودة موسى -عليه السلام- إليهم، كان اللهُ قد أخبرَه بعبادةِ قومه العجلَ، قال -عزَّ وجلّ-: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾(2).

وعاد موسى إلى قومه وهو غضبانُ آسِفٌ، ورآهم موسى على البعدِ يعكُفون على العجلِ يعبدونه ويرقصون حوله، فاستولى عليه غضبٌ شديد، وثار ثورةً عارمةً، وألقى الألواحَ من يدِه على الأرضِ في ثورته فكُسِرت!. عنِ ابنِ عباس -رضيَ اللهُ

(1) سورة طه: الآيات 90 - 91

(2) سورة طه: الآية 85

عنه- قال: قالَ رسولُ اللهِ -صلّى اللهُ عليهِ وسلّم-: «ليسَ الخبرُ كالمعايَنَةِ، إنَّ اللهَ تعالى أخبرَ موسى بما صنع قومُهُ في العجلِ، فلَمْ يُلْقِ الألواحَ، فلما عايَنَ ما صنعوا، أَلْقَى الأَلْوَاح فانكسَرَتْ»(1).

وأقبل على قومه قائلًا: ﴿يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي﴾(2)، فقصُّوا عليه ما حدثَ مع السامريِّ، وكيف صنعَ لهم عجلًا فعبدوه، فأقبل موسى على أخيه هارون، وأمسكَ برأسِه ولحيتِه بعنفٍ وقسوةٍ، قال: ﴿يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا * أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾(3)، فأجاب هارون: ﴿قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾(4)، ونزلت هذه الآياتُ على قلب موسى -عليه السلام- بردًا وسلامًا فهدأت نفسُه و قال: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾(5). وقال -عزّ وجلّ-: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾(6)، وقال بعضُ السلف: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ مسجلةٌ لكلِّ صاحبِ بدعةٍ إلى يومِ القيامة. ثم أخبر -عزّ وجلّ- عن حِلمه ورحمتِه بخلقِه، وإحسانِه على عبيده في قبوله توبةَ مَن تابَ إليه بتوبتِه عليه، فقال: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

---

(1) أخرجه أحمد وقال الألباني: صحيح صحيح الجامع (5374).

(2) سورة طه: الآية 86

(3) سورة طه: الآية 92-93

(4) سورة الأعراف: الآية 150

(5) سورة الأعراف: الآية 151

(6) سورة الأعراف: الآية 152

لكنّ اللهَ لم يقبلْ توبةَ عابدي العجلِ -واللهُ يغفرُ كلَّ الذنوبِ إلّا أن يُشركَ به، لذلك كان مصيرُ عبَدةِ العجلِ القتلَ، قال -عزّ وجلّ -: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[1].

وقال -عزّ وجلّ-: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ* وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ* الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنْ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[2]، قال محمد بن إسحاق: «اختار موسى -عليه السلام- من بني يعقوب سبعين رجلًا، وقال: انطلِقوا إلى اللهِ فتوبوا إليه ممّا صنعتم، وسَلوه التوبةَ على مَن تركتم وراءَكم مِن قومكم، وصومُوا وتطهَّرُوا وطهِّروا ثيابَكم، فخرجَ بهم إلى طورِ سيناء، لميقاتٍ وقَّتَه له ربُّه، وكان لا يأتيهِ إلا بإذنه. فطلبَ منه السبعونَ أن يسمَعوا كلامَ اللهِ، فقال: أفعَل. فلما دنا موسى منَ الجبلِ وقعَ عليه عمودُ الغمامِ حتى

---

(1) سورة البقرة: الآية 254

(2) سورة الأعراف: الآيات 155 - 157

تغشّى الجبلَ كلَّه، ودنا موسى فدخلَ في الغمام، وقال للقوم: ادنُوا. وكان موسى -عليه السلام- إذا كلمه اللهُ، وقعَ على جبهته نورٌ ساطعٌ لا يستطيعُ أحدٌ من بني آدم أن ينظر إليه، فضُربَ دونَه الحجابُ، ودنا القومُ حتى إذا دخلوا في الغمامِ وقعوا سجودًا، فسمعوه وهو يكلمُ موسى؛ يأمره وينهاه: افعل ولا تفعل. فلما فرغَ اللهُ -عزّ وجلّ- من أمرهِ وانكشفَ عن موسى الغمامُ أقبلَ إليهم فقالوا: ﴿يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً﴾،فأخذَتهم الرجفةُ، وهي الصاعقةُ فأتلفت أرواحُهم فماتوا جميعًا؛ فقام موسى يناشدُ اللهَ ويدعوه، ويرغبُ إليه، ويقول: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾ أي لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء الذين عبدوا العجل منا فإنا براء مما عملوا ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ﴾ أي اختبارُك وامتحانُك ﴿تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ﴾ أي مَن شئتَ أضللتَه باختبارِك إياه، ومَن شئتَ هديتَه، لك الحكمُ والمشيئةُ، ولا مانعَ ولا رادَّ لِما حكمتَ وقضيت، ﴿أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ، وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ أي تبنا إليك ورجعنا وأنبنا، ﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾، وبعد أن دعا موسى ربَّه ألّا يؤاخذَ المجموعَ بما فعله بعضُ السفهاءِ غفرَ لهم ذلك وأعادَهم إلى الحياة، قال -عزّ وجلّ-: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[1].

وفي عنادِ بني يعقوب وبغيهم، قال ابن عباس، وغيره من السلف: لما جاءهم موسى بالألواح فيها التوراة، أمرهم بقبولها والأخذ بها بقوة وعزم، فقالوا: انشرها علينا، فإن كانت أوامرها ونواهيها سهلة قبلناها، فقال: بل اقبلوها بما فيها، فراجعوه

(1) سورة البقرة: الآية 56

مرارًا، فأمر الله الملائكة فرفعوا الجبل على رؤوسهم حتى صار كأنه ظلة -أي غمامة- على رؤوسهم، وقيل لهم: إن لم تقبلوها بما فيها، وإلا سقط هذا الجبل عليكم، فقبلوا ذلك وأمروا بالسجود فسجدوا، فجعلوا ينظرون إلى الجبل بشق وجوههم، فصارت سُنَّةً لليهود إلى اليوم، يقولون لا سجدةَ أعظمُ من سجدةٍ رفعت عنا العذاب، قال -عزَّ وجل-: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ* ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ[(1)]﴾، ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي: بعد مشاهدةِ هذا الميثاقِ العظيم، والأمرِ الجسيم، نكثتُم عهودَكم ومواثيقَكم ووعودَكم!.

وقال -عزّ وجلّ-: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ* يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ* قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ* قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ ۚ وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ* قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا ۖ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ* قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي ۖ فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ* قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾[(2)]؛ والمقصود: أنّ موسى -عليه السلام- بعد أن سلكَ بقومِه البحرَ الأحمر[(3)]، من أجلِ الوصولِ

(1) سورة البقرة: الآيتان 63 - 64

(2) سورة المائدة: الآيات 20 - 26

(3) الطريق التي سلكها من مصر إلى سيناء عبر البحر الأحمر -عن طريق جنوب سيناء عند رأس خليج

إلى الأرضِ المقدّسة، وجدَ فيها قومًا منَ الجبّارين والكنعانيين والحيثانيّين والفزاريّين وغيرهم... فنكل بنو يعقوبَ عن قتالِ ساكِني الأرضِ المقدّسة، وجبُنوا عن ملاقاةِ الجبّارين، فغضبَ موسى -عليه السلام- وقال داعيًا على بني يعقوب: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾ أي: ليسَ أحدٌ يطيعُني منهم فيتمثّلَ أمرَ اللهِ، ويُجيبُ إلى ما دعوتُ إليه، إلّا أنا وأخي هارونَ ﴿فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾، قال ابنُ عبّاس: اقضِ بيننا وبينهم، وافتح بيننا وبينهم، وقال غيرُه: افرُق: افصِل بيننا وبينهم، فاستجاب اللهُ -عزّ وجلّ- لطلبِ موسى-عليه السلام-: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾، قال ابنُ عبّاس -رضيَ اللهُ عنه-: فتاهوا في الأرضِ أربعينَ سنةً، يصبِحون كلَّ يومٍ يسيرون ليس لهم قرارٌ، ثمّ ظلّلَ عليهِمُ الغمامَ في التيهِ، وأنزلَ عليهمُ المنَّ والسلوى.

ثمّ كانت وفاةُ هارونَ -عليه السلام-، ثمّ بعدَه وفاةُ موسى -عليه السلام- بثلاثِ سنين، وأقام اللهُ فيهم يوشعَ بنَ نون -عليه السلام- نبيًّا خليفةً لموسى -عليه السلام-. ومات أكثرُ بني يعقوب هناك في التيه، فلمّا انقضتِ المدّةُ خرجَ بهم يوشع -عليه السلام- من سيناءَ إلى الأرضِ المقدّسة.

قال الإمامُ ابنُ كثير: «لقد بيّنت هذه القصةُ تقريعَ اليهودِ وأظهرَت فضائحَهم، ومخالفتَهم للهِ ولرسولِه ونكولَهم عن طاعتهما، فضعُفت نفوسُهم عنِ الإيمانِ وعنِ القتال، مع أنّ بينَ أظهرِهم رسولَ اللهِ موسى وكليمَه الذي وعدَهم بحُسنِ الثوابِ من

السويس وعند منطقة الشطّ تحديدًا-، وللدكتور كمال الصليبي في كتابه التوراة جاءت من جزيرة العرب رأي آخر حول مسرح الأحداث الذي دارت فيه قصة بني إسرائيل، وبناء عليه فهو يرى أنّ ما تمّ عبوره هو وادي أضم، وهذه النظرية التي يعرفها الباحثون باسم نظرية جغرافية التوراة لها أهمية كبيرة لأنها تبطل ادّعاءات اليهود بحقّهم التاريخي في أرض فلسطين، انظر الكتاب المذكور ص 133.

اللهِ وبالنصر، هذا مع ما شاهدوه من فِعلِ اللهِ بعدوّهم فرعونَ منَ العذاب والنكال والغرقِ له ولجنودِه في اليم وهم ينظرونَ، لتقرَّ به أعينُهم، وما بالعهدِ من قِدَم، ثم ينكلون عن مقاتلةِ أهلِ بلدٍ هي بالنسبةِ إلى ديارِ مصرَ لا تساوي عُشرَ المعشارِ في عدةِ أهلِها وعددِهم، فظهرت قبائحُ صنيعِهم للخاصّ والعامّ.

لذلك فضحَهم اللهُ فضيحةً لا يغطيها الليلُ، ولا يسترُها الذيلُ، هذا وهم في جهلِهم يعمهُون، وفي غَيِّهم يتردّدون، وهمُ البُغَضاءُ إلى اللهِ وأعداؤُه، ويقولون مع ذلك كلّه: ﴿نحنُ أبناءُ اللهِ وأحباؤُه﴾ فقبّحَ اللهُ وجوهَهم التي مسخَ منها القردةَ والخنازيرَ، وألزمهم لعنةً تصحبُهم إلى النارِ ذاتِ الوقودِ، ويقضي لهم فيها بتأبيدِ الخلودِ، وقد فعلَ -وله الحمدُ- من جميعِ الوجوه.

٣

الفصلُ الثالث

الشرائع اليهودية

المبحث الأوّل:الشرائع اليهودية: (بشرية، محدودة، متوحشة).

المقصود بشرائع التراث اليهوديّة (الشريعة المتوحشة):

يُقصَدُ بشرائعِ التراثِ اليهودية: تلك النظمُ والقوانينُ والتعليماتُ في العقيدةِ والأحكامِ والسلوكِ، التي سَنَّها زعماءُ اليهودِ وحاخاماتُهم وكهنتُهم، بحيثُ أصبحت عند اليهودِ بمثابةِ الدينِ الذي لا يخالَف.

وقد عرضَ القرآنُ الكريمُ لهذه المسألةِ في سورة الزخرف، حيث قال: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ* وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ* قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ ۖ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾[1]

والمقصودُ بالأمّةِ في الآية: الطريقُ التي كانت تنتهجُها كلُّ أمّةٍ في حياتها، وقد كانت هذهِ النظمُ والتعليماتُ من أعظمِ ما صدَّ الناسَ عنِ الاهتداءِ بالرسالاتِ الربّانيّة، وقد جاء في آية أخرى قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۗ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾[2]، فشتان ما بين الشريعةِ الربانيةِ وشرائعِ التراثِ اليهوديِّ وقوانينِها التي فرضَها الحاخاماتُ والكهنةُ

(1) سورة الزخرف: الآيات 22 – 24.

(2) سورة البقرة: الآية 170.

على اليهود عبرَ شريعةِ الغابِ المتوحشة، تلك الشريعةُ التي ما عاد يربطُها من قريبٍ أو بعيدٍ بالشريعةِ الربّانيةِ التي اصطفى اللهُ -عزَّ وجلَّ- رسولَه ونبيَّه وكليمَه موسى -عليه السلام- لها عبرَ الألواحِ الإلهيّةِ التي شرعَها اللهُ لنبيّه ولبني يعقوب، شريعةِ التوحيد، الشريعةِ الربّانيّةِ التي تمرّدَ عليها بغاةُ الحاخاماتِ والكهنةِ اليهودُ فعبدوا العجلَ الذهبيَّ، ثمّ ما لبثُوا أن عبدوا آلهةً كنعانيةً، وقد وصف سفر إشعيا أحدُ أسفارِ شرائعِ التراث اليهوديّ المصطنعِ ما آلت إليه حالُ بني يعقوبَ من انحطاطٍ وهوانٍ وكفرٍ بشريعةِ التوحيد: «أما أنتم أولادَ المعصية، نسلَ الكذبِ، المتوقدونَ إلى الأصنامِ تحتَ كلِّ شجرةٍ خضراءَ، القاتلون الأولادَ في الأوديةِ تحتَ شقوقِ المَعاقِل»[(1)]، أمّا في سفرِ حزقيال التراثي، فقد جاء أنّ الربَّ قد قال لأورشليم: «أخذتَ بنيك وبناتِك الذين ولدتَهم لي وذبحتَهم لها طعامًا»[(2)]، وهي عبارةٌ جاء في شرحها: «إنّ أهلَ أورشليم قد مارسوا كلَّ عبادةِ الكنعانيين الفاسدةَ، كما مارسوا وثنيّةَ غيرِهم من الأممِ الوثنيةِ كالأشوريين والمصريين والكلدانيين والأموريين والحيثيّين، بل إنّهم فاقوهم في ممارسةِ هذه الوثنيةِ؛ حيثُ أخذوا بنِيهم وبناتِهم وذبحوهم للآلهةِ الوثنيةِ طعامًا، بل وأجازُوهم في النار»[(3)]؛ فحدثتِ القطيعةُ الكبرى التي لا عودةَ عنها بين اليهودِ وشرائعِهمُ التراثيةِ المصطنعةِ وبين شريعةِ اللهِ -تعالى- التي أنزلَها على موسى -عليه السلام-، فشتّان ما بين ما جاءَ في شريعةِ اللهِ من شرائعَ وقيمٍ وقوانينَ، وبين شريعةِ التوحشِ التي أنتجَتها شرائعُ التراثِ اليهوديّ.

---

(1) سفر إشعيا: إصحاح: 57/ 5،4.

(2) إصحاح (17/ 20).

(3) د. محمد جلاء إدريس، فلسفة الحرب في الفكر الدينيّ الإسرائيليّ (ص 84) طبعة القاهرة سنة (1422هـ - 2001م).

وقد آلَت بهم تلك الشريعةُ المتخمةُ بالانحرافاتِ والصراعاتِ معَ الشعوبِ الأخرى، ومع بعضِهم بعضـًا إلى الدمار الذي أوقعَه بهمُ الملكُ البابليُّ (نبوخذ نصّر) (605 – 562ق.م) وإلى محنةِ السَّبْيِ البابليِّ (586 ق.م)، وأمامَ هذه الكارثةِ المستحقَّةِ التي حلّت بهم فقد قامَ أحبارُ اليهود وكهنتُهم بإعادةِ كتابةِ شريعتِهم من جديدٍ، حيث أتخمُوها بشرائعَ تراثيةٍ مصطنعةٍ زاد عددُ أسفارِها على العشرين سفرًا، وهي الأسفارُ التي سمّاها (بولس–الرسول) فيما بعدُ ولأوّلِ مرةٍ بالعهدِ القديم، وذلك في رسالتِه الثانية إلى أهل (أهل كورونثوس)[1].

وقد عكسَت أسفارُ شريعةِ الغابِ نفسيّةَ الاضطهادِ، وعقليّةَ العبوديةِ والسَّبيِ، وروحَ الانتقامِ الدمويةِ من كلِّ «الأغيار» –البشرية– فغصَّت أسفارُهم بالنصوصِ والأشعارِ التي تدعو إلى إبادةِ الآخرينَ بشتّى الطرقِ الوحشيةِ اللا إنسانية، وإلى تدميرِ كلِّ مظاهرِ الحياةِ من شجرٍ وحجرٍ ودوابَّ لجميعِ الشعوبِ الأخرى، وأنزَلوا هذه النصوصَ منزلةَ الأوامرِ الربّانيّة، فجعلوا الربَّ محارِبًا متجبّرًا ومتعطّشًا إلى سفكِ الدماء، بل إنّهم أسمَوه بـ(ربّ الجنود)!؛ وهكذا تبلورَ لليهودِ شريعةُ غابٍ دمويّةٌ عنصريّةٌ، لا أخلاقَ فيها ولا شرفَ ولا عهودَ ولا مواثيقَ، فكلُّ شيءٍ فيها مباحٌ ومُستباحٌ، فغدت هذه الشريعةُ تمجِّدُ الحربَ الدينيةَ، منقلبةً بذلك على شريعةِ موسى –عليه السلام– الربّانيةِ الحقّة، التي نهجَت منهاجَ القولِ الليّنِ في مواجهةِ الطغيانِ الفرعونيِّ المتجبِّر.

وهكذا وجدنا أنّ اليهودَ قد غدَوا شعبًا مختارًا للهِ، بل وشعبًا مقدّسًا دونَ سائرِ الشعوب، لا بحكمِ التوحيدِ للهِ والتقوى في عبادتِه، وإنّما بحكمِ الولادةِ والدمِ، بل

---

(1) إصحاح: 3/ 14.

أوهمُوا أنفسَهم أنّ الربَّ اصطفاهم، ولئِن غضِبَ عليهم مدّةً من الزمنِ بسببِ أفعالهم وجرائمهم، فإنّه لا ينساهم، بل يغفرُ لهم؛ لأنهم منهُ وهو منهم!، فغدت شريعتُهم -التي افترَوها- متخمةً بالأوامرِ الإلهية التي تدعو اليهودَ، وتحثُّهم على تدميرِ كلِّ «الأغيارِ» وقتلهم؛ « فقال الربُّ لموسى: وإذا دفعَها الربُّ إلهُك إلى يدِك فاضرِب جميعَ ذكورِها بحدِّ السيفِ، وأمّا النساءُ والأطفالُ والبهائمُ فتغنمُها لنفسك، وأمّا مدنُ هذهِ الشعوبِ التي يعطيك الربُّ إلهَك نصيبًا، فلا تستبقِ منها نسمةً ما»[1]، فقال الربّ لموسى: اكتب هذا تذكارًا في الكتابِ، وضَعْه في مسامعِ يشوع: فإنّي سوفَ أمحو ذكرَ عماليقَ مَن تحتَ السماء»[2]؛ فتحوَّلَ كلُّ الأغيارِ مثلَ العماليق، بحسبِ شريعةِ الغابِ اليهوديّة التي خلّفَتها عقولُ الكهنةِ والحاخامات الحاقدة المريضة؛ حيثُ جاءَ في سِفرِ (التثنية): «إن سمعتَ عن إحدَى مدنِك التي يعطيكَ الربُّ إلهُك -لتمكّن فيها قولًا- فضربًا تضربُ سكّانَ تلك المدينةِ بحدِّ السيفِ وتحرمُها... (أي: تدمّرها وتُبيدُها) بكلِّ ما فيها من بهائمِها بحدِّ السيفِ، تجمعُ كلَّ أمتعتِها إلى وسطِ ساحتها وتحرقُ بالنار المدينةَ، وكلُّ أمتعتها كاملة للربّ إلهك، فتكون كلًّا إلى الأبد لا تبنى بعد... لكي يرجعَ الربُّ عن حمو غضبِه، ويعطيك رحمة»[3]؛ فرحمةُ الربِّ مرهونةٌ ومشروطةٌ حسبَ شريعةِ الغابِ بإبادةِ الأغيارِ وتدميرِ كلِّ مكوّناتِ الحياة عندهم!؛ لأنّ الإلهَ دمويٌّ ومتعطّشٌ للارتواء بدماءِ كلِّ الشعوب والأمم غيرِ اليهود.

وكلّمَ الربُّ موسى بحسب ما جاء في شريعة الغاب: «وَكَلَّمَ الرَّبُّ مُوسَى فِي

(1) سفر التثنية إصحاح: 10/ 2/ .

(2) سفر الخروج إصحاح: 17/ 14.

(3) سفر التثنية إصحاح: 13/ 12، 15/ 17.

عَرَبَاتِ مُوآبَ عَلَى أُرْدُنِّ أَرِيحَا قَائِلًا: كَلِّمْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَقُلْ لَهُمْ: إِنَّكُمْ عَابِرُونَ الأُرْدُنَّ إِلَى أَرْضِ كَنْعَانَ... تَمْلِكُونَ الأَرْضَ وَتَسْكُنُونَ فِيهَا، لأَنِّي قَدْ أَعْطَيْتُكُمُ الأَرْضَ لِكَيْ تَمْلِكُوهَا، وَإِنْ لَمْ تَطْرُدُوا سُكَّانَ الأَرْضِ مِنْ أَمَامِكُمْ يَكُونُ الَّذِينَ تَسْتَبْقُونَ مِنْهُمْ أَشْوَاكًا فِي أَعْيُنِكُمْ، وَمَنَاخِسَ فِي جَوَانِبِكُمْ، وَيُضَايِقُونَكُمْ عَلَى الأَرْضِ الَّتِي أَنْتُمْ سَاكِنُونَ فِيهَا، فَيَكُونُ أَنِّي أَفْعَلُ بِكُمْ كَمَا هَمَمْتُ أَنْ أَفْعَلَ بِهِمْ»[1]، ويقول إله الغابة لموسى: «حِينَ تَقْرُبُ مِنْ مَدِينَةٍ لِكَيْ تُحَارِبَهَا اسْتَدْعِهَا إِلَى الصُّلْحِ، فَإِنْ أَجَابَتْكَ إِلَى الصُّلْحِ وَفَتَحَتْ لَكَ، فَكُلُّ الشَّعْبِ الْمَوْجُودِ فِيهَا يَكُونُ لَكَ لِلتَّسْخِيرِ وَيُسْتَعْبَدُ لَكَ. وَإِنْ لَمْ تُسَالِمْكَ، بَلْ عَمِلَتْ مَعَكَ حَرْبًا، فَحَاصِرْهَا. وَإِذَا دَفَعَهَا الرَّبُّ إِلهُكَ إِلَى يَدِكَ فَاضْرِبْ جَمِيعَ ذُكُورِهَا بِحَدِّ السَّيْفِ. وَأَمَّا النِّسَاءُ وَالأَطْفَالُ وَالْبَهَائِمُ وَكُلُّ مَا فِي الْمَدِينَةِ، كُلُّ غَنِيمَتِهَا، فَتَغْتَنِمُهَا لِنَفْسِكَ، وَتَأْكُلُ غَنِيمَةَ أَعْدَائِكَ الَّتِي أَعْطَاكَ الرَّبُّ إِلهُكَ. هكَذَا تَفْعَلُ بِجَمِيعِ الْمُدُنِ الْبَعِيدَةِ مِنْكَ جِدًّا الَّتِي لَيْسَتْ مِنْ مُدُنِ هؤُلاَءِ الأُمَمِ هُنَا، وَأَمَّا مُدُنُ هؤُلاَءِ الشُّعُوبِ الَّتِي يُعْطِيكَ الرَّبُّ إِلهُكَ نَصِيبًا فَلاَ تَسْتَبْقِ مِنْهَا نَسَمَةً مَّا، بَلْ تُحَرِّمُهَا»[2] (أي تبيدها)؛ فحسب شريعة الغاب أمر الإله اليهودَ باستعباد الذين يستسلمون ويصالحون، أمّا الذين لا يستسلمون فلهم الموتُ والدمار والإبادة، ولم يكتفِ إله الغاب فحسب بل أردف قائلًا: «سبعُ شعوبٍ دفعهمُ الربُّ إلهُك أمامك وضربتهم، فإنّك تحرمهم (أي تبيدهم وتدمّرهم).. ولا تقطع لهم عهدًا ولا تشفق عليهم ولا تصاهرهم.. لأنّك أنت شعب مقدّس للربّ إلهك، إيّاك قد اختار الربّ إلهُك لتكون شعبًا أخصَّ من جميع الشعوب الذين على وجه الأرض، مباركًا

(1) سفر العدد، إصحاح: 33/ 50-65،55،53.

(2) سفر التثنية إصحاح: 20/ 10-16.

تكون، فوق جميع الشعوب، لا يكون عقيمًا ولا عاقرًا فيك ولا في بهائمك. ويردّ الربّ عنك كلّ مرض، وكلّ أدواء مصر الرديئةِ التي عرفتها، لا يضعُها عليك بل يجعلها على مبغِضيك. وتأكل كلّ الشعوب الذين الربّ إلهك يدفع إليك، لا تشفق عيناك عليهم»[1]، فلا شفقة ولا رحمة ولا رأفة بأي شعب من الشعوب باستثناء شعب الله المختار، شعب الأخيار! أمّا الأغيار فلهم الموت والسبي والاستعباد بحسب أوامر الربّ المنتقم المتعطّش للدماء...

وعندما نعرف أنّ المقصود بشرائع اليهود التراثية التي أعلن من خلالها الحرب الدينية الدنيئة على كلّ الأغيار، فإنّنا نؤكّد أنّ شريعة الغاب هذه لا علاقة لها بالشريعة الإلهية التي أوحاها الله إلى كليمه موسى -عليه السلام-، موسى المفترى عليه وعلى الله الواحد الأحد من قبل كتبة شرائع التراث اليهوديّ من حاخامات وكهنة ومدّعي نبوّة؛ أوَلم يقل عالم الغيب والشهادة في محكم التنزيل: ﴿مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[2]، وقال -عزّ وجلّ- في علاه: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾[3]، وقال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾[4].

(1) سفر التثنية إصحاح: 7/ 1-14،7،6،3-16.

(2) سورة النساء: الآية 46.

(3) سورة المائدة الآية 13.

(4) سورة البقرة: الآية 79.

لقد بيّنَ القرآن الكريم -عبرَ هذه الآياتِ وغيرها- الحقيقةَ الثانيةَ والتي مفادُها أنّ ما بين أيدينا من شرائعَ تراثيةٍ يهوديةٍ عاريةٌ منَ الصحة، إلّا أنّ هناك فرقاً كبيراً وبوناً شاسعاً بين أن نقرأَ هذه الآياتِ الربّانيةَ قراءةً عابرةً، وبين أن نقفَ على حقيقةِ هذا التحريفِ وكيفيّته، والمراحلِ التي مرَّ بها على مدى الأعوامِ قبلَ الرسالةِ المحمّدية وبعدها؛ فشريعةُ الغاب اليهودية متجدّدةٌ بحيث تُلوَى أعناقُ أكاذيبها كلّما كان اليهودُ بحاجةٍ إلى أكاذيبَ أخرى تبرّر وتشرعن ما يقومون به من انتهاكٍ للحرماتِ وتقتيلٍ للأبرياء وأكلٍ للأموال بالربا...

وهنا نعرّج سريعًا على بعض ما نضحَ به تلمودُ شريعةِ الغاب اليهودية لنبيّنَ المقصود والمقاصدَ من وراء تلك الشرائع التراثية المصطنعة...

1. «لليهوديّ لا تُقرض بربـاً وللأجنبيّ لا تقرض إلّا بالربا»[1].
2. «السرقة غيرُ جائزةٍ من اليهوديّ، ومسموحٌ بها إذا كانت من مالِ غيرِ اليهوديّ لا تُعتبر سرقةً بل استرداداً لمال اليهوديّ؛ إذ إنّ العالمَ كلَّه لم يخلقْ إلّا من أجل اليهود»[2].
3. «يجوز لليهوديّ أن يشهدَ زورًا، وأن يقسِمَ على ذلك حسب ما تقتضيه مصلحتُه مع غير اليهوديّ»[3]، «وعلى اليهوديّ أن يؤدّيَ عشرين يميناً كاذبةً ولا يعرّض أحدَ إخوانه اليهود لضررٍ ما»[4].
4. «يجبُ على كلّ يهوديٍّ أن يبذلَ جهودَه لمنعِ استملاكِ باقي الأممِ في الأرض

(1) المسيح المنتظر وتعاليم التلمود، ص 158.
(2) إسرائيل والتلمود: ص 62.
(3) إسرائيل والتلمود: ص 70.
(4) المسيح المنتظر وتعاليم التلمود: ص 160.

لتبقى السلطةُ لليهود وحدهم»[1].

5. «لا قرابةَ بينَ اليهودِ وبين الأمم الخارجةِ عن دينِ اليهود، لأنّهم أشبهُ بالحمير، ويَعتبرُ اليهودُ بيوتَ باقي الأمم زرائبَ للحيوانات»[2].

6. «اعلم أنّ أقوالَ الحاخامات هي أفضلُ من أقوال الأنبياء»[3]؛ إذن، فالمقصودُ بشرائع التراثِ اليهودية: تلك الأقوالُ والتشريعاتُ التي قالها حاخاماتُ اليهود، والتي غدَت بحسبِ زعمِهم أفضلَ من أقوالِ الأنبياء –صلوات اللهِ وسلامُه عليهم–.

7. فلا يجوزُ للبشرِ كافّةً أن يتحاكَموا إلى شريعةِ الغاب التي خلقتْها شرائعُ التراثِ اليهودية الضالّة المضلّة، فالتشريعُ حقٌّ للهِ وحدَه، واللهُ – جلَّ وعلا– لم يأذَنْ لأحدٍ من عبادِه أن يَسُنَّ القوانينَ ويضعَ الشرائعَ من دونه، إذ قال الله: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلا لِلَّهِ أَمَرَ أَلا تَعْبُدُوا إِلا إِيَّاهُ﴾[4].

ومن ادّعى أنّ من حقّه أن يختلقَ تشريعًا غيرَ تشريعِ اللهِ، فقد نازعَ اللهَ في إحدى خصوصياتِه، وأشرَك نفسَه معَ اللهِ، واللهُ لا يُشرِكُ في حكمِهِ أحدًا: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللهُ﴾[5]، وقال: ﴿وَلاَ يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾[6].

ومن ذاك الذي يجب على البشر كافةً الرضوخ والامتثال لشريعته غير الله الواحد

---

(1) إسرائيل والتلمود: ص 59.

(2) المسيح المنتظر وتعاليم التلمود: ص 156.

(3) المسيح المنتظر وتعاليم التلمود: ص161.

(4) سورة يوسف: الآية 40.

(5) سورة الشورى: الآية 21.

(6) سورة الكهف: الآية 26.

الأحد؟ فهو خالق ٱلسَّمَٰوَٰتِ والأرض وما بينهما وما تحت الثرى، وهو الذي يوجب على البشر والآخرين ممّن خلقهم الله الخضوع له والامتثال لأمره، أمّا حاخامات وكهنة اليهود فهم ليسوا آلهة بل مجرّد عبيد لا حول لهم ولا قوّة.

محدودية شرائع التراث اليهودية

من اختلافِ الشرائع؛ ضيقُ بعضِ الشرائعِ وسَعةُ أخرى، وبعضُ الشرائعِ تتصِفُ بالديمومةِ والعالميةِ والبقاءِ، وهي الشريعةُ الإسلاميةُ خاتمةٌ وناسخةٌ ما سبقَها من شرائعَ، بينما نجدُ الشرائعَ الأخرى -ومع كونها ربّانية- إلّا أنّ اللهَ أراد لها أن تكون شرائعَ محدّدةً بأزمنةٍ وأوقات.

وعلى الرغم من أنّ الشرائعَ السماويّةَ كلَّها من عندِ الله، إلّا أنّ اللاحقَ قد ينسخُ السابقَ منها، ومن ذلك شريعتُنا الإسلاميةُ الربّانية فإنّها ناسخةٌ للشرائعِ قبلَها، إذ قال اللهُ -جلَّ وعلا-: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا﴾[1].

وقد تلقّى رسولُنا محمدٌ -صلّى اللهُ عليهِ وسلّم- جميعَ الأحكامِ منَ الوحيِ الرباني، وإذا وُجد تشابهٌ بينَ هذه الشريعةِ الإسلاميةِ الخاتمةِ والشرائع السابقة، فذلك عائدٌ إلى أنّ مصدرَ هذه الشرائعِ واحدٌ، وهو اللهُ الواحدُ.

وقد اختلف العلماء في شرعِ مَن قبلَنا، إذا وجدنا فيه حكمًا ليس في الدينِ الإسلامي ما يبطلُه ولا ما يُقِرُّه، هل يُعدُّ تشريعًا لنا؟ وأعدلُ تلك الأقوال: أنّ شرائعَ مَن قبلَنا ليست مصدرًا تشريعيًّا لنا؛ إذ قال الله: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[2]،

(1) سورة الجاثية: الآية 18.

(2) سورة المائدة: الآية 48.

يقولُ في ذلك ابنُ جرير: «معنى الكلامِ، لكلِّ قومٍ جعلنا طريقًا إلى الحقّ يؤمُّه، وسبيلًا واضحًا يعملُ به»[1]، وقال القرطبي: «ومعنى الآية أنّه جعلَ التوراةَ لأهلِها، والإنجيلَ لأهله، وهذا في الشرائعِ والعبادات، والأصلُ التوحيدُ لا اختلافَ فيه»[2]، نعم، لا اختلافَ فيه، هذا بالطبع إن كنّا نتحدّثُ عن توراةِ موسى وإنجيل عيسى -عليهما السلامُ- تلك التوراةُ وذلك الإنجيلُ اللذانِ ما عاد لهما في هذا الوجود من وجودٍ، وسوف نبيّنُ ذلك في الفصولِ القادمة -بإذن الله-.

أما ونحن نتحدّثُ عن شرائعِ التراثِ اليهوديّةِ فالاختلافُ لا مجالَ لجَسرِه بينها وبين شريعةِ موسى وعيسى -عليهما السلام-، إلّا أنّ هناك تشابهًا في جزئيةٍ المحدودية، حيث أُنزلتِ التوراةُ على قومِ موسى وحدهم، وكذلك شرائعُ التراث اليهوديّة خصّ بها الحاخاماتِ والكهنةَ اليهودَ دونَ غيرهم من شعوبِ الأرضِ وقبائلها؛ فغدتِ اليهوديةُ شريعةَ غابٍ حيوانيةً لا تمتُّ للشرائع الإنسانية أو الربانية بِصلةٍ، كيف لا، واليهودُ شعبُ اللهِ المختار، المختارِ للتسيُّدِ على الشعوب، والخلق، والخالق؟!؛ إنّ عقولَ هؤلاء الكهنةِ والحاخاماتِ جُبلَت على الحقدِ المبصرِ، حقدٌ لا يرى إلّا اليهودَ ومصالحَهم، أمّا الأغيارُ فليس لهم -حسب شريعة الغاب- إلّا الموتُ والدمار.

إننا -أتباعَ الشريعة الإسلامية الربّانيّة- بِتنا ندرك أنّ محدوديةَ شرائعِ التراثِ اليهودية التي كرَّسَها حاخاماتُ اليهود ورهبانُهم هي التي أدّت إلى انحطاطِ اليهودِ وإلى الأبد، فهؤلاء الكهنةُ هم من جنَوا على اليهودِ جنايةً أبديّة، إذ جعلوا (يهوه) في

(1) تفسير ابن جرير: 6/ 269.

(2) تفسير القرطبي: 6/ 211.

بادئِ أمرِهم إلهًا خالصًا لليهود، شعبِ اللهِ المختار، ذلك الشعبُ الذي لا يجبُ أن يدنَّسَ بالشعوب الأجنبية، والتي أسمَوها «الأغيار» أي شعوب الأرض، وبذلك جعلوا اليهودَ أعداءً أبديّين للشعوبِ الأخرى؛ فلولا تلك الشرائعِ العنصريّةِ البغيضة لاندمجوا مع بقيّةِ شعوبِ الأرض، كما اندمجَ غيرُهم فأراحَ واستراح، كما تقضي بذلك سننُ الكون، إلّا أنّهم أبَوا واستكبروا وكرّسوا دهاءَهم للمضيِّ قدمًا بما جاءت به شريعةُ الغاب، فنجدهم وقد نجَحوا نجاحًا منقطعَ النظير في إقناعِ أغبياءِ العالَمِ المسيحي والأوروبي والأمريكي والأسترالي والكنديّ... بحقوقِ الإنسان، وبدستورِ الأخويَّةِ البشرية، وباللادينية.. واللاقومية، وبالعدلِ والحريّةِ، والتساوي للجميع دونَ النظرِ إلى العُرفِ والجنس والإقليمِ والدين والمذهبِ والمعتقد، ومن الاستهتارِ بالمفاهيم الأخلاقية السياسية، ومن إثارة الاضطراباتِ والدسائس والمكائدِ والحروب بين شعوب تلك الدول، وخاصّة الأوروبيةَ منها... بعد أن اشترَوا ذمَمَ رجالِ الدين النصارى ورجالِ السياسةِ في كثيرٍ من البلاد، بالأموالِ الربَويّة التي جنَوها من أهلِ تلك البلاد؛ فشعبُ اللهِ المختارُ لا يفتأُ يبثُّ سمومَ الفسادِ والانحلال والإفساد بين الأغيار، ويحتكرُ أسواقَ المالِ والسندات والذهب.

هذا كلُّه مع بقاءِ شعبِ اللهِ المختارِ متمسّكًا بشريعةِ الغابِ في العلَنِ -إن أمكن- أو في الخفاءِ، كتمسُّكِ الأعمى بعكّازِهِ؛ لا يفترقُ عنها لحظةً واحدة، بينما تتركُ مئاتُ ملايين المسيحيين في مختلفِ أنحاء العالم دينَها وقوميّتَها تحتَ تأثيرِ القواعدِ التي جاء بها ماركس اليهوديّ، أحدُ أنبياءِ شريعة الغاب في العصر الحاضر، قال -تعالى يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم

مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[1] إنّ الناظرَ في قضايا السياسة المعاصرة يعلمُ علمَ اليقين دقّةَ الوصف الموجودِ في هذه الآية، وبغضّ النظرِ عن مَن يسيّرُ الأمورَ، فكلا الطرفين يدعمُ الآخر، وكلّهم ينتظرُ عودةَ المسيحِ المنتظر، سواءٌ كانتِ العودةُ من المنظورِ اليهودي أمِ المسيحي، فكلاهما يصبّان في معين واحد، وكلا الطرفين يسعى للإيقاعِ بالمسلمين ومقدساتِهم في فلسطينَ برواياتٍ مكذوبةٍ لا أصلَ لها، وكلا الطرفين ينفِقُ منَ الأموالِ الكثيرَ لدعمِ الكيانِ الصهيونيِّ في فلسطين، باعتبارِ هذا الوجودَ الغاشمَ يحققُ لهم نبوءاتِهم عن آخرِ الزمانِ، وعن معركةِ (هرمجدون) معركةِ آخِرِ الزمان، التي يقودُها المسيحُ انتصارًا لليهود. للاستزادة انظر: اليسوعية والفاتيكان والنظام العالمي الجديد، لفيصل بن علي الكاملي، والنبوءة والسياسة، لجريس هالسل، ترجمة محمد السماك.

فلا يوجَدُ ولا يُحتملُ أن يتركَ يهوديٌّ واحدٌ دينَه وشريعتَه -إلّا من رحم ربّي- فاليهوديُّ يبقى يهوديًّا في أوصافِه وسجاياه في كلِّ وقتٍ وزمانٍ، مهما كانتِ الظروفُ والأحوال، ومهما كان مظهرُه ولونه السياسي، سواءً كان رأسماليًّا أم اشتراكيًّا شيوعيًّا، فهو محتفظٌ بشريعةِ الغابِ كما المنارةُ في قلبِه وعقلِه وكلِّ وجدانه، فغدا بذلك أشدَّ عنصريّةً من أيّ فرقةٍ أو شيعةٍ أو مذهبٍ في العالمِ كلّه، فإن لم يجهَر بها أمامَ الأغيارِ فقد يؤدّي طقوسَها في الخفاء؛ حيث تمرَّسَ اليهودُ على كيفيةِ إلباسِ كلِّ حالةٍ لَبوسَها، وهم بذلك تمكّنوا من المحافظة على محدوديةِ شريعة الغاب خلال الثلاثةِ آلاف سنة المنصرمة رغم ما عايشوهُ من المذلّةِ والمهانة والهوان، ورغم ما يراه عليهمُ الأغيارُ من حقيقةِ الأرومةِ وفساد الذمّة.

(1) سورة المائدة: الآية 51.

أينما وُلد اليهودي أو أقامَ وحيثُ وُجد، فهو يهوديٌّ بالدرجةِ الأولى والأخيرةِ، فليس هناك يهوديٌّ واحدٌ في هذا العالم كلّه مرتبطٌ بالوطن الذي يعيشُ فيه؛ إنّما تكونُ خدمتُه لذلك الوطنِ بمقدارِ ما يعودُ عليه وعلى شريعةِ غابِه بالفائدةِ والربح، فهذه أمورٌ مقدَّرةٌ في عُرف اليهود وشريعتهم، تلك الشريعةُ التي أورثَتهم حبَّ المال والحياة، والميلَ إلى الأمن والأمانِ على حساب الآخرين، فهم يؤمنون بمقولةِ «أنا ومِن بعدي الطوفان»، فصفةُ الجُبن والخوف ليست جديدةً على اليهود، إنّما كانت صفةً لاصقةً بهم منذ عهدِ النبيّ موسى -عليه السلام- وحتّى يومِنا هذا.

إنّ الدارسَ للتوراة والتلمود، وما بينهما من أسفارٍ تراثيةٍ مرسِّخةٍ لشريعة الغاب، يرى أنّ الإلهَ الأعظمَ قد اختارَ أكثرَ رسله من اليهود فقط! من هذه العشيرةِ الصغيرةِ الضعيفة التي لم تكن لها منزلةٌ بين الأممِ الكبيرة ذاتِ التراثِ الحضاريِّ العريقِ والملَكات العقليّةِ العظيمة، كالمصريّين والهنودِ والصينيّين والفرسِ والإغريقِ والعرب، ويرى أيضًا مدى محدوديّةِ أولئك الرسلِ الربّانيّين حسبَ زعم اليهودِ لرسالاتهم لليهودِ فقط دون غيرِهم منَ الشعوبِ التي خلقها اللهُ، وحتّى مواعظُ المسيحِ لم تكن موجّهةً إلّا لليهود وحدَهم دون أن نشركَ معهم في هذا شعوبَ الأمم الأخرى مطلقًا، ومن الغريب أنّ (متّى) قد وصفَ في إنجيله -على لسان المسيح- الأممَ الأخرى غيرَ اليهود أنّهم كلابٌ وخنازير[1].

وللدلالةِ على محدودية شريعة موسى وعيسى -عليهما السلام- وما تلا تلك الشرائعَ الربانيةَ من شرائعَ تراثيةٍ مختلفة ضالّةٍ ومضلّة، نعودُ إلى الأصلِ الإبراهيميِّ للإسلامِ، كما بشّرَ به محمّدٌ -صلّى الله عليه وسلّم-، قال الله: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ

(1) إنجيل متى: 6/ 7: «لا تعطوا القدس للكلاب، ولا تطرحوا درركم قدّام الخنازير».

يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ* إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾(1)، وهذا يعني أنّ رسالةَ سيدنا محمّد هي رسالةُ إبراهيمَ -عليه السلامُ- دونَ المرورِ بالرسالتين المحدودتين (اليهودية والنصرانيّة)، بل ندركُ أنّ القرآنَ الكريمَ لا يعتبرُ اليهوديّةَ استمرارًا للإبراهيمية، بل يخصُّ بهذه التسميةَ (الإسلام) أنبياءَ الله -عزَّ وجل-، وليس لليهود أو الديانة اليهودية، أو حتّى شرائع التراث اليهوديّة، إذ قال الله -جلَّ وعلا-: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾(2).

فالإسلامُ بهذا المعنى هو الدينُ العالميُّ الذي يتجاوزُ الدياناتِ المحليّةَ المحدودةَ ويطوّرها باتّجاهه، أي باتّجاه الجوهرِ الأصليِّ للدين، ذلك أنّ الإسلامَ دونَ غيرِه يستجيبُ لخصائصِ الواقعِ ضمنَ متغيّراتِ الزمانِ والمكانِ وساكنيه.

علاقة شرائع التراث اليهودية بالشرائع السماوية

في المبحثِ الأوّلِ منَ الفصلِ الأوّل لهذا البحث المقارنِ بيّنّا المقصودَ بالشريعةِ الإسلامية الربّانيّة تبيانًا نحسَبه وافيًا، إلّا أنّنا لم نتطرّق للشرائعِ والقوانين الوَضعية، وتحديدًا تلك التي ارتدَت ثوبَ الشرائعِ الربّانيّة؛ وهي في حقيقةِ الأمر مجرّدُ شرائعَ تراثٍ خطَّها بشرٌ مؤلّهينَ بعضَهم بعضًا، أو مصطنِعين من هذا أو ذاك نبيًّا أو رسولًا!.

حيث اقتضت خطّةُ البحث أن نفرِدَ مبحثًا خاصًّا لشرائعِ التراث اليهودية،

---

(1) سورة آل عمران: الآيتان 67-68

(2) سورة المائدة: الآية 44

وعلاقتِها بالشرائع السماوية، ثمّ تبيان العلاقة المتناقضة بينهما.

مفهوم التشريع

لغة: فالتشريع: تفعيل من شرَع، ومعناه: أخذ يفعل[1].

أمّا في **الاصطلاح**: فمعناه سنُّ القوانين وتبيانُها[2]، وقيل هو التزامُ العبوديّة، ومنه قول الله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا﴾[3]، أي: سَنَّه وبيَّنَه.

والشريعةُ -عندَ إطلاقِها- يُراد بها ما شرعَه اللهُ -عزّ وجل- لعباده من العقائد والأحكام، أو ما شرعَه رسولُ الله -صلّى الله عليه وسلّم-، وعلى هذا فإذا أطلقنا على نظامٍ وضعيٍّ شريعةً أو تشريعًا، فهو من باب التجوّزِ في مجاراةِ الخصمِ لإقامة الحجّة[4].

فلا شكَّ أنّ الناسَ بحاجةٍ دائمًا إلى تشريعٍ ينظّمون به أمورَ حياتهم، فهم محتاجون إلى هذا التشريعِ حاجتَهم إلى الطعامِ والشراب، إذ بالتشريعِ تُصانُ الأنفسُ والأعراضُ والأموالُ، ويُعرَفُ الحلالُ منَ الحرام، ويُقضَى على الهمجيّة ويسودُ النظام.

وما بعثَ اللهُ نبيًّا من الأنبياءِ إلّا وآتاه شريعةً مفصّلةً لينظمَ بها قافلةَ الحياة في عصره، ولذلك يقولُ الله: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[5]، ويخاطب -جلَّ

---

(1) محمّد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي: مختار الصحاح ص335، طبعة دار المعارف- مصر.

(2) علي بن محمّد الجرجاني: التعريفات ص 127، طبعة دار الكتاب العلمية-بيروت.

(3) سورة الشورى: الآية 13

(4) عماد علي حسين: الإسلام واليهودية، ص 399، طبعة دار الكتب العلمية.

(5) سورة المائدة: الآية 48

وعلا- نبيَّه الخاتمَ -صلّى اللهُ عليه وسلّم-: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1]، والأصلُ في التشريعِ أن يكونَ من عندِ الله: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ* وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾[2]؛ فهو أعلمُ بمَن خلقَ، وبما يُصلِحُ شؤونَهم.

وإذا كانتِ البشريةُ لم تعرِف في تاريخِها مَن نازعَ اللهَ في جانبِ الخلقِ، فقد حفلَ تاريخُها بمَن نازعَ اللهَ في جانبِ الحق، الذي هو التشريعُ، وادّعى مشاركتَه فيه، فعرفتَ مَن قال: ﴿سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللهُ﴾[3]، ومَن قال: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾[4]، ومَن قال: «لا سياسةَ في الدين، ولا دينَ في السياسة»[5]، بل عرفتَ مؤخَّرًا مَن قال: «إنّ القوانينَ الوضعيّة خيرٌ من الشريعة الدينيّة (يقصد الإسلاميّة)؛ لأنّ الأُولى تمثِّلُ الحضارةَ المدنيّة والثانية تمثّل البداوةَ والرجعيّة»[6].

ونحن هنا لا نناقشُ تلك الأقوالَ، ولكن نقصدُ بقدرِ الإمكان، أن نقفَ على حقيقةِ شريعة الغاب، التي أوجدَتها شرائعُ التراث اليهوديّة، والتي تُغذّي مثلَ تلك الأقوالِ عنِ الأغيار، أمّا عندَ اليهود فالواجبُ والملزمُ على كلّ يهوديّ الالتزامُ بشريعة الغاب (الربّانيّة) المزعومة... التزامًا لا مفرَّ منه إلّا إليه.

وقد سعى شعبُ الله المختارُ، إلى تحويلِ العوامِّ لحيواناتٍ بلا شريعةٍ، بحيث لا تقيّدُهم قيمٌ ولا يضبط سلوكَهم ضابطٌ أو مقياسٌ، ويصيرُ لا همَّ له إلّا إشباعَ غرائزِه

(1) سورة الجاثية: الآية 18

(2) سورة الأعلى: الآيتان 2-3

(3) سورة الأنعام: الآية 93

(4) سورة غافر: الآية 29.

(5) إنّ هذا القول هو شعار العلمانيّين في كلّ مكان.

(6) صلاح الصاوي: تحكيم الشريعة وصلته بأصل الدين، ص9، طبعة دار الإعلام الدوليّة-القاهرة.

وميوله، حتّى لو كان ذلك على حسابِ الآخرين، وبذلك يصبحُ الظلمُ والطمعُ والأنانيةُ طبيعةً وشريعةً في الحياة الدنيا؛ ذلك لأنّ شريعةَ الغاب ترفض أن يكونَ الأغيارُ ممَّن سيحاسبون يوم الحساب -المحسنُ للجنّةِ والمسيءُ للنار- فالأغيارُ مجرّدُ دوابٍّ مسخّرةٍ لخدمة شعب الله المختار، وهذا بالطبع يمثلُ نقيضَ ما تدعو إليه الشريعةُ الإسلاميّة الربّانيّة؛ ممّا حوّلَ العلاقةَ بين شرائع التراث اليهوديّة والشريعة الإسلاميّة إلى صراعِ وجودٍ، وإلى حربِ الباطل اليهوديّ والحقّ الإسلاميّ، الباطلُ البشريُّ هو شريعةُ الغاب، شريعةٌ شرَعها بشرٌ (حاخامات وكهنة)، والحقُّ الربّانيُّ هو الشريعةُ الإسلاميّة التي شرعَها الله.

فشتّان ما بين الشريعة الإسلاميّةِ الناظمةِ التي شرعَها اللهُ حتّى يعملَ الإنسان بها؛ لتنظّم علاقتَه بالله، وعلاقتَه بأخيه المسلم، وعلاقتَه بأخيه الإنسان، وعلاقتَه بالحياة؛ وبينَ شريعةٍ نظمَها بشرٌ نصّبوا أنفسَهم آلهةً فوقَ البشر، قال -عزّ وجلّ-: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا * خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾[1].

إنّ الشريعةَ الإسلاميةَ شريعةٌ تسبقُها عقيدةٌ، فلا يأتي وجودُ الشريعةِ عند المسلمين دون عقيدةٍ، لأنّه لا قيمةَ لأيِّ عملٍ دونَ العقيدةِ، كما لا يتأتّى وجودُ العقيدة دون الشريعة، فهُما بالإسلامِ أمران متلازمان لا يجوزُ الفصلُ بينهما، فمَن آمنَ بالعقيدة لا بدّ أن يؤمنَ بالشريعة، ومَن عملَ بالشريعةِ فلا بدّ أن يربطَها بالعقيدةِ وإلّا تصبحُ الشريعةُ مجرّدَ قوانينَ لحلِّ مشاكلِ الناسِ كأيِّ قانونٍ آخرَ وضعَه البشر، أي حالُها

(1) سورة الكهف: الآية 107.

كحال الشريعةِ اليهوديّة، حيث يكمنُ جوهرُ الصراعِ في العلاقةِ ما بينَ شرعِ اللهِ وشرعِ البشر؛ ذلك أنّ العقيدةَ والشريعةَ الإسلاميةَ تكاليفُ ربّانيةٌ، إلّا أنّ موضوعَ العقيدة هو التصديقُ بما جاء من عندِ الله، وهو أمرٌ يرفضُه أصحابُ شريعةِ الغاب. وموضوعُ الشريعةِ هو العملُ بما جاء من عنده -عزّ وجل- لا العملُ بما شرعَه الكهنةُ والحاخامات؛ وعليه فمَن أخذَ بالعقيدة الإسلامية ولم يعملْ بالشريعةِ الإسلاميّة لا يكون مسلمًا، وَمن عملَ بالشريعة ولم يربطْها بالعقيدة فهو أيضًا لا يكونُ مسلمًا، فما بالُنا إن كان يهوديًّا لا يؤمنُ إلّا بشريعةِ الغاب ولا يعملُ إلّا بها؟!.

ولتبيانِ أهميّةِ العقيدةِ بحُكمِ ارتباطِها بالشريعة الإسلامية، وعلاقةِ الشريعةِ الإسلامية، بشرائعِ التراثِ اليهودية يجب أن نسلّطَ الضَّوءَ على أركانِ العقيدةِ الإسلامية، والتي تشكِّلُ النقيضَ المطلقَ لما نضَحَت به أسفارُ شرائعِهم المحرفة المنحرفة.

العقيدة لغة: عَقَدَ الخيطَ، أي: جعلَ منه عقدةً، ونقولُ عقدَ الحبلَ، أي: شدَّه. وعقد البيعَ والعهدَ. والعَقدُ هو العهد، فالعقيدةُ هي ما عقدَ القلبُ عليه، أي جزمَ به وصدّقه يقينًا، فكأنّ العقيدةَ هي العهدُ المنشود، والعروةُ الوثقى لاستقرارِها في القلب، ورسوخِها في الأعماق.

أمّا العقيدة اصطلاحًا فهي: الفكرة الكلّية اليقينية للإسلامِ عنِ الكونِ والإنسانِ والحياة، عمّا قبلَ الحياةِ الدنيا ومّا بعدها، وعن علاقتِها بما بعدها.

بعد بيانٍ مقتضَبٍ لما عنَتهُ العقيدةُ لغةً واصطلاحًا، سنقومُ بتِبيانِ أركانِ العقيدةِ الإسلامية، حيثُ تعتبرُ أحدَ أهمِّ ركائزِ علاقةِ المفاضلةِ والقَطعِ مع شرائعِ التراث اليهودية، التي تمثّل النقيضَ التامّ لأركان العقيدةِ الإسلامية وأصولِها الثلاثة، والتي نلخِّصُها بالآتي:

أوّلًا- الإيمانِ باللهِ وصفاتِه، ويطلَقُ على ما يتعلَّقُ بذاتِ اللهِ من مسائلِ الإلهيات[1].

ثانيًا- الإيمانِ برسل اللهِ أجمعينَ وملائكتِه وكتبه، وما جاءَ فيها من تشريعاتٍ وتكاليفَ، ويطلَقُ على ما يتعلّقُ برسلِ الله -تعالى- من مسائلِ النبوّات.

ثالثًا- الإيمانِ بالبعثِ والحسابِ والجزاءِ، والجنّة والنارِ، والقدَرِ خيرِه وشرّه، ويطلقُ على هذه المسائلِ السمعيّاتِ أو المغيّباتِ، أي ما غابَ عنِ الحسِّ، وليسَ عنِ الوجود.

والدليلُ على هذه الأركانِ الحديثُ النبويُّ الذي يرويهِ عبادةُ بنُ الصامتِ -رضيَ اللهُ عنه- أن رسولَ اللهِ -صلّى الله عليه وسلّم- قال: «مَن شَهِدَ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ له، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عبدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إلى مَرْيَمَ وَرُوحٌ منه، وَالجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ؛ أَدْخَلَهُ اللهُ الجَنَّةَ علَى ما كانَ مِنَ العَمَلِ»[2]، وهذا الحديثُ الذي يتضمَّنُ أركانَ العقيدةِ الإسلاميّة هو أجمَعُ الأحاديث النبويّةِ المشتملة على العقائدِ؛ كما قال النوويّ.

وأركانُ العقيدةِ الإسلامية هي الإلهيّاتُ والنبوّاتُ والسمعيّاتُ، وتفصيلُها يشتملُ على أركانِ الإيمانِ، وهي الإيمانُ باللهِ وملائكتِه ورسلِه وكتبِه واليومِ الآخرِ، والقدَرِ؛ خيره وشّره.

إنّ أهمَّ ما ميَّزَ العقيدةَ الإسلاميةَ هو ربّانيّتُها، فهي ربّانيّةٌ بجميعِ أركانها، وهي موحىً بها من عندِ الله، وليس فيها شيءٌ من صنعِ البشر، فكلُّ ما اشتملت عليه

(1) محمّد بيطار، العقيدة والأخلاق، صفحة 104.

(2) عبد الرحمن آل الشيخ، فتح المجيد شرح كتاب التوحيد، صفحة 39.

مصدرُه منَ اللهِ -عزَّ وجل-، على عكسِ شريعةِ الغاب البشرية، والتي لا تشتملُ على أيةِ عقائدَ ربّانيّةٍ، ولا على أيّةِ شرائعَ ربّانيّةٍ، لكونها من البشر «الآلهة»، للبشر الدوابِّ العوامّ؛ وهي بذلك مُتخَمةٌ بالقُصورِ والنقصِ، وبالأكاذيبِ والافتراءاتِ على اللهِ وعلى رسله وكتبِه وملائكته، وحتّى على جنّتِه ونارِه... وقدرِه؛ خيره وشرّه...!.

إنّ عداوةَ حاخاماتِ اليهودِ وكهنتهم للعقيدةِ الإسلامية تكمنُ في كونِها ربّانيّةً، من ألِفها إلى يائِها، حيث إنّ كلَّ حقيقةٍ من حقائقِ الشريعةِ الإسلاميةِ والعقيدةِ الإسلاميةِ تتّفقُ مع فطرةِ الإنسانِ ولا تتناقضُ معها، كما أنّها تتّفق مع العقلِ كقوّةٍ واعيةٍ مدركةٍ للحقائق، فالعقيدةُ تنظرُ إلى العقلِ محطّاً للخطابِ، ومناطاً للتكليفِ، وأداةً للكشفِ والتبصُّر والتدبّر في الكونِ وما فيه من عجائب.

وكونها ربّانيةً فهي عقيدةٌ بسيطةٌ واضحةٌ، لا غموضَ فيها ولا تعقيد، على عكسِ شريعةِ الغاب، التي تعتمدُ على التوريةِ والاستِتارِ والتأويلِ، وذلك لكونها شريعةً بشريّةً متغيّرةً متبدّلةً بحسبِ حاجاتِ مَن كتبوها بأيديهم، ونسبُوها للهِ -عزَّ وجل- تارةً، ولرسلِه تاراتٍ أُخر، لأنّه من وحيِ وَهْمِهِم، ولرسلٍ من غَيْبِ عِلمهم.

وفي مقارنةٍ بينَ بساطةِ العقيدة والشريعةِ الإسلامية وتعقيدِ شرائعِ التراثِ اليهوديةِ نجدُ الآتي:

أوّلًا- إنّ العقيدةَ الإسلاميّة سهلةٌ لكونها قائمةً على التوحيد؛ فاللهُ واحدٌ، وهو صاحبُ السلطانِ على كلِّ شيءٍ، في حين أنّ شرائعَ التراثِ اليهوديّةَ معقَّدةٌ لكونِها قائمةً على الشركِ في اللهِ، وذلك يعودُ للنقصِ الظاهرِ في التوحيدِ عندَ شعبِ اللهِ المختار، ومَردُّ ذلك لأخذِ كهنَتِهم وحاخاماتِهم صفاتِ إلهِهم (يهوه) من صفاتِ

آلهـةِ الكلدانيّين والسـومريّين، وجعلوهُ على صورةِ البشـر، والبشر على صورة الإله[1]، وجعلـوا لـه أعضـاءَ مـن أيـدٍ وأقـدامٍ وجسّـموه تجسـيمًا كامـلًا[2]، وقالـوا إنّـه يتكلّـمُ مـع موسى فمًا لفَمٍ، وعيانًا لا بالألغاز[3]، وأنّ الإلهَ (يهوه) يسكنُ عادةً في السماء، وينزلُ أحيانًا إلى الأرض[4]، ويتقمَّصُ الأشكالَ البشريّة[5]، ويأكل ويشرب[6]، وهذا قليلٌ من مظاهرِ إشراك اليهود في الله.

ثانيًا- العلاقةُ التي تقيمُها العقيدةُ الإسلاميةُ بين العبدِ وربّه علاقةٌ واضحةٌ جليّة تقومُ على عبوديَّةِ العبدِ لربّه، الذي يتوجَّهُ إليه بالطلبِ والدعاءِ دونَ وساطةِ أحدٍ أو شفاعةِ مخلوقٍ؛ إذ لا رهبانيةَ ولا حاخاميّةَ ولا كهنوتيّةَ، ولا صكوكَ غفرانٍ، فجميعُ الخلقِ عند اللهِ سواءٌ، لا يفضلون بكرامةٍ أو مقامٍ إلّا بمقدارِ طاعتِهم للهِ وعملِهمُ الصالحِ لخير البشر، وبهذا يكونُ الإسلامُ قد ألغَى نظامَ الكهانةِ والوساطة، وأتى عليه منَ القواعدِ، وعلى كلِّ نظامٍ يمكنُ أن يقفَ حاجزاً بين اللهِ وعباده.

أمّا في أسفارِ شرائعِ التراثِ اليهودية فنجدُ دائمًا ما يؤكّدُ أهميّةَ دورِ الوسيطِ بين اللهِ وبين العبادِ، ولعلَّ أبرزَ معالمِ تلك الأدوارِ التي يلعبُها الوسيطُ ما نلمحُه من حرمانِ الناسِ من أيّةِ محاولةٍ للقربِ منَ اللهِ مباشرةً، ولو أن تكونَ تلك المحاولةُ

---

(1) سفر التوراة إصحاح 26-1 «وقال الله نعمل الإنسان على صورتنا كشبيهنا»، وسفر التوراة إصحاح (28-1) «خلق الله الإنسان على صورته».

(2) سفر التكوين إصحاح 8-2 «وسمعنا صوت الربّ ماشيًا في الجنّة»، سفر الخروج إصحاح 23-33 «لا تقدر أن ترى وجهي فلن تراني، إنّما أسترك بيدي حتّى أجتاز ثمّ أرفع يدي فتنظر ورائي».

(3) سفر العدد إصحاح 8-12.

(4) سفر ميخا إصحاح: 4-1 «فإنّه هو ذا الربّ يخرج من مكانه وينزل ويمشي في شوامخ الأرض».

(5) سفر ميخا إصحاح: 2-18 «ونظر فإذا ثلاثة رجال واقفون لديه».

(6) سفر التوراة إصحا 8-18 «ثمّ أخذ زبدًا ولبنًا والعجل الذي عمله ووضعا قدّامه فأكلوا».

مجرّدَ خطابٍ يوجَّهُ من اللهِ إلى الناس ليشعرَهم بآدميّتهم، فأكثرُ الخطاباتِ في شريعةِ الغاب اليهودية تكونُ على النحو الآتي:

«وكلّمَ الربُّ موسى قائلًا: كلّم بني إسرائيلَ قائلًا...»(1).

أو «وكلّم الربُّ موسى قائلًا: كلّم هارون وبنيه قائلًا: هذه شريعة...»(2).

أو «وكلّم الربُّ موسى قائلًا: أوصى هارون وبنيه قائلًا: هذه شريعة...»(3).

أو «وكلّم الربُّ موسى قائلًا: كلّم هارون قائلًا:..»(4).

ولم نجدْ -على سبيلِ المثالِ في سفر اللاويّين بأكمله- نصًّا واحدًا فيه خطابٌ مباشرٌ لليهود يُشعِرُهم بقربِ مَن يناديهم، وهذا واضحٌ في الدلالة على أنّ (شعبَ اللهِ المختار) لم يكنْ بإمكانِه أن يتّصلَ باللهِ إلّا عن طريقِ الكهنة (بني هارون)، فهم همزةُ الوصلِ بينهم وبينه، والله- جلَّ وعلا- يقول: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾(5)، ويقولُ آمِرًا نبيَّه محمّدًا -صلّى الله عليه وسلّم-: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾(6).

ثالثًا- تجاوبُ الناسِ معَ العقيدةِ والتربية الإسلاميةِ عبرَ التاريخِ الطويل على مختلفِ أصنافِهم ودرجاتِهم دونما تفريق، ممّا ساعدَها -لسهولتِها ووضوحِها على الانتشارِ في معظمِ بقاعِ الأرضِ بسرعةٍ مذهلةٍ، وفي فترةٍ وجيزة، من غيرِ إكراهٍ أو إغراءٍ، لأنّها ربّانيّةٌ ثابتةٌ قائمةٌ على حقائقَ وضعَها الله، وليست شرائعَ غابٍ وضعَها

(1) سفر اللاويّين: 4-1،2/ 7-29،28/ 12-1،2.

(2) سفر اللاويّين: 6-25،24.

(3) سفر اللاويّين:6-9،8

(4) سفر اللاويّين: 21-17،16

(5) سورة غافر: الآية 60

(6) سورة البقرة: الآية 186

بشرٌ، وهذه الحقائقُ الربّانيّة لا نقصَ فيها ولا أخطاءَ، وهي لا تقبلُ تعديلًا ولا تطويرًا، لأنّها كاملةٌ لا تحتاجُ إلى تكميلٍ، وصائبةٌ لا تحتاجُ إلى تصويب؛ فالعقيدةُ الإسلامية تمتاز عن شرائعِ التراثِ اليهودية بنظرتِها الشاملةِ للكونِ والإنسانِ والحياة، ونظرتِها الشاملةِ للخالق، فقد عرّفَتِ الإنسانيّةَ تعريفًا كاملًا بالحقيقةِ الإلهيّةِ وكمالِ صفاتِها، وأزالت عنِ الإنسانِ وعقلِه ما نسجَتهُ خيالاتُ الحاخاماتِ، وأوهامُ الكهنةِ، ممّا لا يليقُ بجلالِ اللهِ وعظمته -سبحانه-.

وعرّفتِ الإنسانَ بالكونِ في أصلِ نشأتِه وطبيعتِه وخصائصِه ومصيرِه، وعرّفتهُ بحقيقةِ وجودِه ورسالتِه في الحياة، وتميُّزه عنِ المخلوقاتِ الأخرى بما خصَّهُ اللهُ من عقلٍ وتكريم، لا كما يزعمُ أهلُ شريعةِ الغابِ بأنّ اليهود سادةٌ، و بأنّ كلَّ البشرِ أغيارٌ عبيدٌ، وأنّ حقيقةَ الأغيارِ تكمنُ في كونِهم دوابًّا مسخّرةً لخدمةِ الشعبِ الذي اختارَه اللهُ لوراثةِ الأرض وما عليها.

إنّ علاقةَ اليهودِ وشرائعِهم معَ المسلمينَ وشريعتِهم الإسلاميّةٌ هي علاقةُ حربٍ لا هوادةَ ولا مهادنة فيها، فكيف يهادِنُ شعبُ اللهِ الدوابّ، بل كيف يهادنُ الإلهُ عبيدَه!.

أمّا علاقةُ المسلمين وشريعتِهم الربّانية معَ اليهودِ وشرائعِهمُ البشريةِ فهي علاقةُ مناصَحَةٍ وهدايةٍ، لعلَّ وعسى أن يهديَهُمُ اللهُ -تباركَ وتعالى- إلى الحقِّ، فيعودوا عن غيِّهم وكفرِهم إلى جادةِ الصواب، ويكفّوا أذاهم عن عبادِ الله.

المبحث الثاني: شرائعُ التراثِ اليهودية (بداية الخاتمة)

كم هو جميلٌ أن تكونَ الخاتمةُ مسكًا وعنبراً، ذلك لو أنّ البدايةَ كانت طاهرةً طيبةً، بدايةً الفردُ فيها للكلِّ، والكلُّ فيها للفرد، والواحدُ والفردُ للهِ، أمّا وأنّ الواحدَ هنا للشيطان، والكلَّ هنا للشيطان، فإنّ الخاتمةَ حتمًا ستكونُ ذلَّ الدنيا وجحيمَ الآخرة؛ ذلك لأنه، وبمجرّدِ البدءِ بالبحثِ في شرائعِ التراث اليهوديّة، وعن عقائدِ اليهود، ومصادرِ التشريع لديهم، فسوف نجدُ العجبَ العُجابَ لكثرةِ التناقضاتِ المكشوفةِ، والأكاذيبِ المفضوحة، والدسائسِ الدنيئة، في التوراةِ والتلمود، وما بينهما من أسفارِ شريعةِ الغاب اليهودية؛ تلك الشريعةُ التي وُلِدَت من رحِمِ عقولٍ خبيثةٍ ماكرةٍ مخادعةٍ لكهنةٍ وحاخاماتٍ هم الأكثرُ دهاءً من بينِ ما تبقّى من أبناءِ يعقوب، أولئك الأبناءُ الضالّون المضِلّون الذين تمرّسوا على عقوقِ الآباءِ والأنبياء والتنكّرِ لهم، ذلك بالطبع بحسب ما كتبَه الأبناءُ عنِ الآباءِ في أسفارِ شريعة الغاب، حيث لم يتركِ الأبناءُ نبيّـًا مرسلًا وصالحًا عابدًا إلّا وضعُوه في أوضاعٍ مشينةٍ مهينةٍ بشكلٍ أو بآخرَ؛ والسببُ في ذلك هو رغبةٌ دفينةٌ عند الأبناءِ العصاةِ لاستباحةِ المنكراتِ وتدميرِ القدوات، كما فعلوا بالآباءِ والأنبياء من قبل!.

فما إن نبدأ بقراءةِ ما كتبَه كهنةُ اليهود وحاخاماتهم في أسفار التوراة، عنِ الرسلِ والأنبياء، ونعتِهم بأنهم مرتكبو فواحشَ ومستبيحو منكراتٍ، فسوفُ نجدُ ما لا يمكنُ لعاقلٍ منصفٍ أن يستسيغَه عن أنبياءِ الله -عزَّ وجلَّ- ورسله الذين اختارَهم من بين جميعِ خلقِه؛ ليحملوا مصابيحَ الهدى والهداية؛ لإنارةِ الطريق، وإرشادِ العبادِ إلى

ربِّ العبادِ، وإلى عبادةِ الله -تبارك وتعالى- وتوحيده، وإلى الفضيلةِ والطهارة، أي: إنّ رسلَ اللهَ هداةٌ مهديّون، لا ضالّون ولا مضلّون، كما يدّعي كهنة شريعة الغاب وحاخاماتها.

وهنا وجبَ علينا -وقبلَ البدءِ بالبحثِ في حقيقةِ أسفارِ التوراةِ والتلمود وغيرها من أسفارِ اليهودِ- أن نسلِّطَ الضوءَ على ما كُتبَ في تلك الأسفارِ عن أنبياءِ اللهِ ورسلِه، ثمّ وفي الفصلِ القادمِ (الفصل السادس) سوف ننطلقُ إلى دراسةِ تلك الأسفارِ دراسةً تفسيريّةً عميقةً -إن شاءَ المولى -عزَّ وجل--.

أوّلًا: نقرأُ عن نوحٍ -عليه السلام-: ففي التوراةِ جاءَ أنّ نوحًا -عليه السلام- قد شربَ الخمرَ حتّى سكرَ وتعرّى داخلَ خِبائه، ورأى ابنُه حام عورتَه فأخبرَ أخاه سام، فجاء سام ويافث فسترا عورةَ أبيهما، فلمّا تيقّظَ الأبُ وعلمَ بالأمر دعا باللعنةِ على حام ونسلِه من الكنعانيّين أن يكونوا عبيدًا لسام مدى الدهر، ومن هو حام؟ هو ابنُ نوح الذي كان منه الفلسطينيون والمصريون، فالغرضُ السياسيُّ الدنيويُّ الدنيءُ هنا واضحٌ بالنسبةِ للكاهنِ اليهوديِّ الذي كتبَ هذا الكلامَ، فهو يدعو على أبناءِ حام، وهمُ الفلسطينيّون والمصريّون بأن يكونوا عبيدًا للساميّين وتحتَ إمرتِهم أبدَ الدهر!.

ثانيًا- داود -عليه السَّلام-: فها هو نبيُّ اللهِ داود -عليه السلام- تصوّره لنا التوراةُ يرتكبُ الزنى بمحضِ إرادته، وهو بكاملِ قواه العقليّة، حيث يقول لنا (سفر صموئيل الثاني): «وَكَانَ فِي وَقْتِ الْمَسَاءِ أَنَّ دَاوُدَ قَامَ عَنْ سَرِيرِهِ وَتَمَشَّى عَلَى سَطْحِ بَيْتِ الْمَلِكِ، فَرَأَى مِنْ عَلَى السَّطْحِ امْرَأَةً تَسْتَحِمُّ، وَكَانَتِ الْمَرْأَةُ جَمِيلَةَ الْمَنْظَرِ جِدًّا، فأرسلَ داود وسألَ عن المرأة، فقال واحد أليست هذه بثشبع بنت اليعام امرأةَ أورياء الحثي؟ فأرسل داودُ رسولاً وأخذها، فدخلت إليه فاضطجعَ معها وهي مطهرةٌ من طمثها، ثم رجعَت إلى بيتِها، وحبلتِ المرأةُ، فأرسلت وأخبرت داودَ

وقالت إني حبلى»[1].

ونحن نسأل: أين كان أوريا؟ لقد كان في أرضِ المعركةِ يذودُ عن داود وغيره، ولكن سرعان ما تتابعتِ الأحداث، فها هو أوريا يأتي من المعركة، ويرفضُ أن يذهبَ إلى أهله وزوجته ولِمَ؟ لأنّه رفضَ لنفسِه المتعةَ الحلالَ مع زوجته، وهذا هو ما أخبرَ به داودُ حينما رآه جالسًا إلى جوارِ بيتِه لا يدخلُ لزوجته، فقال له: كيف أدخلُ وإسرائيلُ والتابوت يسكنون في الخيام؟ فهل يستيقظُ ضميرُ داود بعد موقف أوريا النبيل؟! لا، وإنّما كافأهُ على موقفِه النبيل بأن أرسل إلى يوآب الذي كان مع الجيشِ يطلب منه أن يضعَ أوريا في وجه الحرب الشديدة، فهو يريد أن يتخلّصَ منهُ؛ لينفردَ هو بامرأته.

ذلك الشيءُ الذي حدّثنا عنه العهدُ القديم، بأنه كان يرقصُ أمام تابوت العهد وهو في طريقه إلى أورشليم!... ألم يكن بالأحرى أن يحفظَ ما في التابوت من شرائعَ ربّانيّة، مثل: لا تزنِ، لا تقتل... بدل أن يرقصَ للتابوت دون تنفيذِ أحكامه، ذلك النبيّ داود الذي يخبرنا العهدُ القديم في الإصحاح الثالث والخامس من سفر صموئيل، أنّه تزوّج العديدات من السراري والنساء، وكان له العديد من الأبناء، فماذا كان يبغي من امرأة متزوّجة؟.

والعجيب أن تقرأ أنّ داود يحمد ربّه ويذكر أنّه يحفظ أحكامَه ولا يحيد عنها قائلًا: «يكافئني الرب حسب بِرِّي، حسب طهارة يدي يردّ عليّ، لأني حفظت طرق الرب، ولم أعصِ إلهي، لأن جميعَ أحكامه أمامي، وفرائضُه لا أحيد عنها، وأكون

(1) سفر صموئيل الثاني إصحاح: (11-5،4،3،2).

كاملًا لديه، وأتحفّظ من إثمي»[1].

والسؤال الآن: هل كان داود كاملًا أمام الربّ بما فعل مع بشبع؟! وهل كان حافظًا لأحكامه؟!، وإذا كان هذا هو الكمالَ والحفظ لأحكام الله، فهل إذا كان لك ابنٌ مثلَ داود، هل تقبل هذا منه؟! وإذا كان لك ابن مثل أوريا هل تقبل هذا عليه؟! وإذا كان لك ابنة مثل بشبع فهل تقبل هذا منها أو عليها؟! ولنتركِ الإجابة لذوي الفطرة السليمة...

ثالثًا- أبناء داود -عليه وعليهم السلام-: نجد في سفر (صموئيل الثاني) أنّ ابنَ داود أمنون يحبّ ثامار أختَ أبشالوم أخيه بنت أبيه ويتحايل ويتمارض، ويطلب من أبيه داود أن تذهب ثامار لتمرِّضُه، ثمّ يقعُ بها على الرغم من رفضها، فقد قهرَها واضطجع معها، ثمّ أبغضَها بعد أن وقع بها جدًّا، أكثر ممّا أحبّها، ثمّ طردها، ثمّ نجد بعد عامَين أنّ أبشالوم يقتلُ أخاه أمنون. فهل هذا هو داود نبيُّ اللهِ حقًّا؟! وهل هؤلاء هم أبناءُ النبيّ داود حقًّا؟! هل زنَى الأخ بأخته حقّا؟! هل قتل بعضهم بعضًا حقّا؟! وهل لنا أن نصدّقَ بعد كلّ ما جاء في العهد القديم على أنّه هو الحقيقة، أو أنّه عين الحقيقة؟! فليُجب أولو الألباب.

وفي الحقيقة أنّني ككاتبٍ عن شرائعِ الغاب اليهوديّة لا أجد عجبًا في ما كتبه كهنتُهم وحاخاماتهم، ذلك لأنّهم قد جُبلوا على قتلِ الأنبياء وسبِّهم وتحقيرهم.

رابعًا- لوط وبناته في التوراة: هل تعلمون ماذا فعل لوط كما تصوّره التوراة؟!، إنّ لوطًا في التوراة سكّيرٌ تسقيه ابنتاه خمرًا، حتّى يفقدَ وعيَه، وتضاجعه كلُّ واحدةٍ

(1) سفر صموئيل الثاني إصحاح: 22-21، 24،23.

منهما لتحبلَ منه، فهؤلاء هنّ بناتُ لوط!.

أمّا النبيُّ لوطٌ فقد صوّرَته لنا التوراةُ في سفرِ التكوين يقدّم بناتِه للوطيّةِ الذين حاصروا بيتَه للنيلِ من الملائكة، ولكنّه لا يعلم، فما كانَ من النبيّ الكريم إلّا أن ساومَهم أن يتركوا الضيفَين على أن يعطيَهم ابنتيه ليضاجعوهما، ولننظرْ ما قالته التوراةُ نصًّا على لسان لوط: «هُوَ ذَا لِي ابْنَتَانِ لَمْ تَعْرِفَا رَجُلًا، أُخْرِجُهُمَا إِلَيْكُمْ فَافْعَلُوا بِهِمَا كَمَا يَحْسُنُ فِي عُيُونِكُمْ، وَأَمَّا هذَانِ الرَّجُلاَنِ فَلاَ تَفْعَلُوا بِهِمَا شَيْئًا، لأَنَّهُمَا قَدْ دَخَلاَ تَحْتَ ظِلِّ سَقْفِي»[1].

والواضح أنّ البناتِ قد سمِعن هذا الحوارَ، فعلموا مدى تساهلِ أبيهم في مثلِ هذه الأمور، فقرّروا مضاجعَته وأسكروه حتّى ضاجعُوه، فهل لنا أن نصدّقَ ذلك؟ والسؤال الآن: ألم يكُن أحرَى به أن يدافعَ عن بناته، وعن ضيوفِه حتّى الموتِ من بابِ النخوة والرجولة؟!.

خامسًا- حزقيال في التوراة: نرى صورةً شهوانيةً وألفاظًا فاحشةً في سفر حزقيال، والتي كانت من أكثرِ الأشياءِ التي تثيرُ الشكَّ في مصداقيّة أسفارِ شريعة الغاب، حيث لا يليقُ لمثلِ هذه الكلماتِ أن تكونَ موحاةً إلى أصحابها؛ حيث نقرأُ في أسفار الغاب: وكان إليه كلامُ الربّ قائلًا: «يَا ابْنَ آدَمَ، كَانَتْ هُنَاكَ امْرَأَتَانِ، ابْنَتَا أُمٍّ وَاحِدَةٍ، زَنَتَا فِي صِبَاهُمَا فِي مِصْرَ حَيْثُ دُوعِبَتْ ثُدِيُّهُمَا، وَعُبِثَ بِتَرَائِبِ عِذْرَتِهِمَا؛ اسْمُ الْكُبْرَى أُهُولَةُ وَاسْمُ أُخْتِهَا أُهُولِيبَةُ، وَكَانَتَا لِي وَأَنْجَبَتَا أَبْنَاءَ وَبَنَاتٍ، أَمَّا السَّامِرَةُ فَهِيَ أُهُولَةُ، وَأُورُشَلِيمُ هِيَ أُهُولِيبَةُ»[2].

---

(1) سفر التكوين إصحاح: 19 8-.

(2) سفر حزقيال إصحاح: 23: 1-4.

والسؤال المشروع هنا: لماذا أطنبتِ التوراةُ في تجسيد المشهدِ بهذه الصورة الفاضحة؟! ولماذا استعمل هذا النبيَّ هذه الألفاظَ الفاحشَة لوصف هذا المشهد؟! ثمّ نجدُ نفسَ النبيِّ يتعلّم أمرًا إلهيًّا غايةً في الغرابةِ في نفس السفر، حيث يحدّثه الربّ قائلًا: «وَتَأْكُلُ كَعْكًا مِنَ الشَّعِيرِ، عَلَى الْخُرْءِ الَّذِي يَخْرُجُ مِنَ الإِنْسَانِ تَخْبِزُهُ أَمَامَ عُيُونِهِمْ، وقال الربّ: هكذا يأكلُ بنو إسرائيل خبزَهم من النجَس بينَ الأممِ الذين أطردُهم إليه، فقلت: آه يا سيّد الربّ، ها نفسي لم تنجس، ومن صِباي إلى الآن لم آكلْ ميتةً أو فريسة، ولا دخلَ فمي لحمٌ نجِسٌ، فقال لي: انظر قد جعلتُ لك خِثْيَ البقر بدل (خُرء) الإنسان، فتصنع خبزًا عليه»[1].

فقد تسلّم حزقيال أمرًا إلهيًّا مقدّسًا ليخبزَ كعكَه على برازِ إنسان، وعندما اعترضَ رضخَ الربُّ وأخبرَه بأن يخبزَ الكعكةَ على روثِ البقرِ، فهل لنا أن نصدّقَ ما جاء في شرائعِ التراث اليهوديّة بعد ذلك؟!.

سادسًا- إبراهيم -عليه السَّلامُ- في التوراة: نجدُ في سفرِ التكوين أنّ إبراهيم لمّا اقترب من دخولِ مصرَ قال لساراي امرأته: «إنّي قد علمتُ أنّكِ امرأةٌ حسنةُ المنظرِ، فيكونُ إذا رآكِ المصريّون أنّهم يقولون: هذه امرأتُه فيقتلوني ويستبقونك، قولي إنّك أختي ليكونَ لي خيراً بسببِكِ وتحيا نفسي من أجلك»[2]، فهل هذا سلوكٌ يليقُ بنبيّ؟! وليته أيّ نبيّ، إنّه أبو الأنبياءِ الذين أتَوا جميعًا من صُلبه، ذلك النبيّ الذي تحمّلَ أذى قومه، من أجلِ أن يكونَ الدينُ خالصًا للهِ وحدَه، فلا أوثانَ ولا كواكبَ، ولا أيَّ آلهةٍ إلّا اللهُ وحدَه، أمَا كان من الأَولى أن يموتَ دونَ عِرضه؟!.

(1) سفر حزقيال إصحاح: 4-15،14،13،12.

(2) سفر التكوين إصحاح: 12-13،12،11.

سابعًا- يعقوب -عليه السلام- في التوراة: تصوّرُ لنا شريعةُ الغاب التوراتيّةُ سيّدَنا يعقوب يغشُّ أباه إسحاقَ، من أجل أن يأخذَ منه بركةَ دعائه له، بدلًا من أخيه عيسو، حيث إنَّ الأبَ كان ضريرًا، ويعقوب هذا الذي خرجَت من صُلبِه الأسباطُ الاثنا عشر: رأوبين، وشمعون، ولاوي، ويهوذا، ودانا، ونفتالي، وجادا، وأشير، ويشاكر، وزيولون، ويوسف، وبنيامين، وهؤلاءِ همُ الأنبياءُ الذين جاؤوا إلى مصرَ في قصّةِ سيّدنا يوسفَ -عليه السلام-، ومن سِبط لاوي جاءَ موسى -عليه السلام-، ومن سِبطِ يهوذا جاء كلُّ اليهود وباقي أنبيائهم، فيعقوب -عليه السلام- نبيٌّ عظيمٌ ككلِّ الأنبياء، ولكن -وبكلّ أسفٍ تصوّره لنا التوراةُ مخادعًا غشّاشًا، يسرقُ البركةَ والنبوّة والأغنام والمواشي.

فهلِ اختار لنا اللهُ رسلًا من بين كلّ مَن خلقهم بهذه الصورة التي تصوّرها لنا التوراة لنحتذي بهم؟[1] ولكن كيف نسلم عقولنا لكهنة شريعة الغاب وحاخاماتهم؟!.

ثامنًا- يهوذا بن يعقوب -عليه السلام- في التوراة: ويحدّثنا سفر التكوين في الإصحاح 38 عن ثامار زوجة ابن يهوذا التي مات عنها زوجها، ووعدها يهوذا أنّه سيزوّجها ابنه حينما يكبر، ولمّا كبر ولم يزوّجه لها وماتت زوجة يهوذا عنه، نجد ثامار خلعت ثوب ترمّلها، وارتدت برقعًا، ونظرها يهوذا ابن النبيّ يعقوب وحماها، وطلب منها أن يدخل عليها وهو لا يعرفها، حيث كانت مغطّاة ببرقع، فدخل عليها فحملت منه، ثمّ خلعت عنها برقعها ولبست ثياب ترمّلها، ومرّت الأيّام، وأُرسل إلى يهوذا لإخباره بأنّ أرملة ابنه حبلى من الزنى، فأمر بإخراجها لحرقها، ولكنّها أعطته عصابته وعصاه وخاتمه الذي كان قد تركها رهنًا عندما وقع بها، فلمّا أعطته أشياءه

(1) اخترت الإسلام: لبنى شاكر، مكتبة النافذة-القاهرة ص 22

عرف أنّه هو، وقال: هي أبرّ منّي لأنّي لم أعطها...

تاسعًا- موسى -عليه السلام- في التوراة1: ونجد أنّ موسى نفسه قد جاء بصورة لا تليق به كنبيّ مرسل، فها هو موسى يتوسّل إلى الربّ عندما رآه غضبان، لعودة قومه إلى عبادة الأصنام: « لِمَاذَا يَا رَبُّ يَحْمَى غَضَبُكَ عَلَى شَعْبِكَ الَّذِي أَخْرَجْتَهُ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ بِقُوَّةٍ عَظِيمَةٍ وَيَدٍ شَدِيدَةٍ؟ لِمَاذَا يَتَكَلَّمُ الْمِصْرِيُّونَ قَائِلِينَ: أَخْرَجَهُمْ بِخُبْثٍ لِيَقْتُلَهُمْ فِي الْجِبَالِ، وَيُفْنِيَهُمْ عَنْ وَجْهِ الأَرْضِ؟ اِرْجِعْ يا ربّ من غَضَبِكَ، وَانْدَمْ عَنِ الشَّرِ الذي قال إنّه يفعله بِشَعْبِهِ»، وهذا أسلوب لا يعقل أن يتحدّث به نبيّ الله موسى مع ربّه وخالقه.

ونقرأ ما قيل عن الربّ في سفر العدد: «ليس الله إنسانًا فيكذب، ولا ابن إنسان فيندم»[1]، فنجدنا أمامنا صورة مليئة بالتناقض، كما يخالطها الظلم، فإله التوراة لم يعرف من مخلوقاته إلّا بني إسرائيل، بني يعقوب الذي يغشّ أباه إسحاق!

ويقول الدكتور مصطفى محمود[2]: «قد يكون السبب وراء هذا التلطيخ هو الأقلام التي كانت تكتب التوراة من اليهود الذين كتب عليهم السبي في بابل ممن كانوا يرون نساءهم سبايا، وأولادهم عبيدًا، ونساؤهم يقدّمون كسرايا لمتعة قصور فارس، فراحوا يلطخون كلّ شيء، ويلقون القذر الذي كانوا يعيشون فيه على وجه التاريخ كلّه، وقد يتساءل سائل: كيف يلطّخ اليهود أنبياءهم؟ ونحن نقول: بل فعلوا ما هو أكثر من ذلك؛ قتلوا أنبياءهم، وهذا أرميا يصرخ، في سفر أرميا الإصحاح الثاني من التوراة: «أكل سيفكم أنبياءكم كأسد مهلك»، ولم ينجُ يهوذا نبيهم الذي كانوا

(1) سفر العدد إصحاح: 23 19.

(2) التوراة: مصطفى محمود، دار أخبار اليوم، مصر، سنة 2005.

يفضلونه على كلّ الأنبياء من هذا التلطيخ.

وتضمّ التوراة بين جنباتها العديد والعديد ممّا يثير الشكّ والفزع أحيانًا كثيرة، فهي تضمّ بين جنباتها ما يقلق القلب ويحيّره، بل ويدفع إلى التشكيك في هذا الكتاب وهذه العقيدة، وذلك لكلّ ذي لب حاول أن يجهد نفسه قليلًا لأنّ الزيف واضح والخلل منتشر».

ويقول المدافعون عن التوراة: « إنّ ما جاء في العهد القديم عن خطايا الأنبياء حقيقة لا تلطيخ فيها ولا مبالغة، وأنّ الله كانت له حكمة وراء ما حدث، فقد أراد أنبياءه أفرادًا عاديّين يخطئون ليكونوا أمثلة لنعمة الله ورحمته ومغفرته، وأنّ الله أراد أن يبعث إلى الخطّائين خطّائين مثلهم، فقد أراد أن يقول: إنّ من يخطئ ويتوب ويستغفر سوف أكون أوّل من يتوب عليه، ويقبل رجعته ويفرح به أكثر من فرحة الراعي بعودة خروفه الضالّ إلى القطيع.

لكن الحقيقة غير ذلك، فهم يجدون أنّ الحكمة وراء ما حدث أنّ الله أراد أنبياءه أفرادًا عاديّين، ونحن نجدهم حسب وصف التوراة أنّهم أفراد أقلّ من العاديّين بكثير، حيث أنّ هناك الآلاف بل الملايين من البشر الذين لم يزنوا قطّ، فما بالنا بزنى المحارم؟!، فأي عقل يجعل ما ورد في شرائع الغاب التوراتيّة بشأن سلوكيّات الأنبياء، وأبناء الأنبياء حقيقة!، فنحن بالفطرة نميل إلى كلّ ما هو حقّ وصدق وخير، فكيف تكون الفطرة بداخلنا أنقى من أنبيائه!، وإذا سرنا نحن -جدلًا- على منهج أنبياء التوراة بحسب ما جاء في شريعة الغاب اليهوديّة التي خطّتها الأيدي الآثمة للكهنة والحاخامات الفجرة الكفرة، فسوف تشيع الفاحشة وتنتشر الرذيلة، لأنّ الإنسان بطبعه يميل إلى ما يحقّق له مآربه، فحجّة العقل والمنطق تجعلنا نرفض ما جاء عن أنبياء الله في التوراة، كما تجعلنا غير قادرين على تصديق ولو قيد أنملة ما

احتوته أسفار شرائع التراث اليهوديّة.

ونختم هذا المبحث عن ما خطّته الأيدي الآثمة في سفر حزقيال؛ كيف أنّ الربّ لم يعرف من جميع خلقه غير اليهود، رغم كلّ خطاياهم، فهو يعاقب كلّ من تناولهم بسوء، ولو حتّى لفرحه بما أصابهم من سوء مثلًا!... كما لو كان ربًّا لليهود وحدهم، أمّا باقي الشعوب والأمم فهم يخضعون لأرباب آخرين وهو على عداوة معهم، ولكنّنا نعلم علم اليقين أنّه ليس هناك إلّا إله واحد، كما نعلم أنّنا جميعًا خلقه، وهو -عزّ وجل- منزّه عن أن يكون ظالمًا، ونعلم أيضًا أنّ الدين عند الله الإسلام، قال الله في سورة آل عمران: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[1].

(1) سورة آل عمران: الآية 85.

المبحث الثالث: ناموس موسى المكتوب (التوراة)

ما إن اصطفى المولى -عزَّ وجل- موسى -عليه السلام- ليكون رسوله ونبيّه إلى بني يعقوب، حتّى كان موسى -عليه السلام- الموجّه والمشرّع ومصدر الأحكام الربّانيّة إليهم، وقد أطلق بنو يعقوب على تلك التوجيهات والأحكام والشرائع (تورث) ومفردها (تورا) ثمّ أعقبه الأنبياء والكهنة والحاخامات، وكان كلّ منهم يحكم بما يتراءى له، ويصدر (تورا) باسم الربّ، وذلك باعتبار أنّه ممثّل للإله (يهوه) وعلى هذا كان التوراة عندهم إلهيًّا في مصدره، مقدّسًا في منشئه، جاء من الإله على لسان الأنبياء، ولا يحقّ لأحد أن يعترض على حرف واحد من حروفه.

ثمّ جمعت هذه الأحكام فصارت مجموعة كبيرة، أطلق عليها اسم توراة، والتوراة يحتوي على أسفار مختلفة وأقسام متعدّدة، وقبل أن نواصل يجب أن نتوقّف عند التعريف بالتوراة، حيث إنّ التوراة لفظة عبرانيّة معناها الناموس أو الشريعة[1]، وهي باليونانية (بنتاتيوخ)[2]، وفي الفرنسية (بانتاتيك)[3]، وهي خمسة أجزاء، ويسمّيها اليهود بالناموس أو ناموس موسى (وموسى -عليه السلام- منهم ومنها براء)، وقد استخدم النصارى مصطلح التوراة للدلالة على مجموع أسفار العهد القديم [4].

---

(1) بطرس البستاني: دائرة المعارف 6/ 264 ط دار المعرفة بيروت 1882.

(2) فؤاد حسنين: التوراة الهيروغليفيّة ص 39 ط دار الكتاب العربي - القاهرة.

(3) موريس بوكاي: التوراة والإنجيل والقرآن والعلم ص31 ط المكتبة الإسلامية- بيروت ط 3-1990.

(4) انظر دار المعارف، البستاني: 6/ 264.

وتتكوّن التوراة من خمسة أسفار وهي على النحو الآتي:

السفر الأوّل (سفر التكوين): وهو السفر الذي يقصُّ تاريخ العالم من تكوين ٱلسَّمَٰوَٰتِ والأرض، إلى استقرار أولاد يعقوب في أرض مصر، مع تفصيلٍ في قصص آدم وحوّاء والطوفان، ونسل سام أحد أبناء نوح... وغير ذلك(1).

السفر الثاني (سفر الخروج): وهو السفر الذي يحكي قصّة موسى النبيّ، واختيار الله له ليقود اليهود ويخرجهم من مصر، كما يشتمل على وصفه رحلة اليهود بزعامة موسى في صحراء سيناء، وتسليم الله أحكام الشريعة لموسى وإقامة خيمة الاجتماع، وما صنعه موسى من معجزات ليؤمن اليهود ويخضعوا لشريعته(2).

السفر الثالث (سفر اللاويين): وهو السِّفرُ الذي يعرض أنواعَ الذبائحِ والتقديماتِ والقرابين وطقوسَها، ومدحَ هارون وبنيه وتكريسَهم لخدمة الكهنوت وشريعةِ التطهير، ومراسيمَ متنوّعةً من المواسم والأعياد(3).

السفر الرابع (سفر العدد): وهو السِّفرُ الذي شُغلَ معظمُه بإحصاءاتٍ عن قبائلِ بني يعقوب وجيوشهم وأموالهم، وكثيرٍ ممّا يمكِنُ إحصاؤُه من شؤونهم، وقدِ اهتمَّ هذا السفرُ أيضًا بأحكامٍ تتعلَّقُ بطائفةٍ من العبادات والمعاملات(4).

السفر الخامس (سفر التثنية): ويقال لهذا السفرِ (تثنية الاشتراع) ومعناه الإعادةُ والتكرارُ لتثبيت التشريعات والتعاليم(5)، وهي تكرارٌ لسَرد الأحداثِ التي وقعت

(1) علي وافي: الأسفار المقدّسة في الأديان السابقة للإسلام ص 13 ط نهضة مصر 1996.

(2) زكي شنودة: المجتمع اليهودي ص 288 ط مكتبة الخانجي – القاهرة

(3) وهيب جورجي: مقدّمات العهد القديم 1/ 108، 107 بإيجاز، ط دار يوسف كمال للطباعة 1996م.

(4) وافي الأسفار المقدّسة ص 14

(5) حسن ظاظا: الفكر الديني اليهودي ص 16 ط دار القلم – دمشق

لليهـودِ في صحـراءِ سيناء، والمعجزاتِ التي صنعَهـا اللهُ أمامَهـم، والأحكامِ التي أنزلَها عليهـم ليتذكّـروا ويعتبروا بها ويعملـوا بمقتضاها، ويشتملُ هذا السفرُ على بيـانِ بعضِ الشـرائعِ الجديـدة[1]، وإقامـةِ يشـوع خليفـةً لموسـى، وتسـليمِ التـوراة لحاملـي تابـوتِ عهدِ الربّ، ثمّ خبرِ وفاتِه على جبلِ نبّو[2].

تلـك هي التوراةُ التي يزعـمُ كهنـةُ اليهـودِ وحاخاماتُهـم أنّها من عنـدِ اللهِ تـارةً، ومن عنـدِ يهـوه تـارةً أخرى، ومـن عنـد هـذا وذاك تـارةً ثالثـةً ورابعـةً، ومـن أهـمِّ نُسَـخِ التـوراةِ المتداوَلة ما يأتي:

1. **النسـخة السـامريّة**: وهـي غيـرُ التـي بأيدي سـائرِ اليهـود! ويزعمون أنّهـا المنزلةُ مـن عنـدِ اللهِ، ويقطعـونَ أنَّ التـوراةَ التـي بأيـدي اليهـودِ محـرّفـةٌ مبدّلـةٌ، وسـائرُ اليهـودِ يقولـونَ إنّ التـي بأيـدي السـامريّةِ محـرّفـةٌ مبدّلـة! وهـي تحتـوي على أسـفارِ موسـى الخمسـةِ، وسـفرَي يشـوع والقضاة(3)، فأيّهـم تصدِّقُ، الكذّابَ أمِ الأكذبَ، الماكرَ أم الأمكر؟!.
2. **النسخة العبرانية**: وهـيَ النسـخةُ المعتمـدةُ عنـدَ اليهـودِ، وجمهـورِ علمـاءِ البروتسـتانت[4]، وتتكـوّنُ هـذهِ النسـخةُ من تسـعةٍ وثلاثين سـفرًا، وكان إجماعُ النصـارى -إلـى القرنِ الخامسِ عشـرَ- منعقداً على أنّ النسـخةَ العبريَّةَ محرّفةٌ،

(1) زكي شنودة: المجتمع اليهودي ص 289

(2) وهيب جورجي: مقدمات العهد القديم 1/ 128

(3) تنسب هذه النسخة إلى فرقة السامرية التي نشأت في إقليم السامرة في شمال فلسطين بعد السبي البابلي، وقد تمتّعت بازدهار فكري حتى القرن الرابع الميلادي، ثمّ ذاقت ألوان الاضطهاد على يد (جستنيان الروماني) وهي أقلّ فرق اليهود انحرافًا، وقد أوشكت على الانقراض.

(4) انظر ابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل 1/ 202 تحقيق د.عبد الرحمن عميرة ط دار الجيل- بيروت 1985م.

حرَّفَها اليهودُ سنةَ 130م عمدًا لتشكيكِ النصارى في النسخةِ اليونانيّة التي بأيديهم حتّى ظهرَت فرقةُ البروتستانت في القرنِ السادس عشرَ الميلادي، وعكستِ الأمرَ وقالت بصحّةِ العَبرانيةِ واعتمدَتها.

3. **النسخة اليونانيّة:** وهي تحتوي على تسعةٍ وثلاثين سفرًا، وهي أيضًا بمثابةِ ترجمةٍ مأخوذةٍ عنِ الأصلِ العبري، وهي معتبرةٌ إلى الآنَ عند نصارَى الأرثوذوكس وغيرها من كنائس الشرق[1]، كذلك هي معتبرةٌ عند اليهودِ الهلينستيين الذين كانوا يتكلّمون اللغةَ اليونانيةَ، رغم أنَّ مخطوطةَ الترجمةِ الأولى مفقودة[2].

هذه هي أشهَرُ نسخِ التوراةِ، وقد كتبَ رحمتُ اللهِ الهنديُّ في كتابِه «إظهارُ الحقّ» أنّ اليهودَ كانوا قد أعدموا نسخًا كثيرةً للتوراةِ، كُتبت في القرنَين السابعِ والثامنِ الميلاديَّين، لأنّها كانت تخالفُ مخالفةً كبيرةً ما بينَ أيديهِم من النسخ[3].

والسؤال هنا: مَن كتبَ تلك الأسفارَ؟ ومتى كُتبت؟ وما هي حقيقتُها؟.. ومما جاء في «سفرِ التثنيةِ» قولُهم: «وكتبَ موسى هذه التوراةَ وسلَّمها للكهنةِ من بَنِي لاوي»[4]، هذا النصُّ جاءَ في سِفرِ التثنيةِ، وينصُّ على أنّ موسى -عليه السلام- هو كاتبُ التوراةِ والأسفار، لهذا دأبَ شُرّاحُ التوراةِ إذا ما تناولوا سفرًا منَ الأسفارِ الخمسةِ أن يقولوا: «لا يشكُّ أحدٌ أنّ كاتبَ هذا السفرِ هو موسى النبيّ»[5].

---

(1) رحمت الله الهندي: إظهار الحقّ 2/ 429-430.

(2) انظر قاموس الكتاب المقدّس ص 768 ط دار الثقافة 1995م.

(3) رحمت الله الهندي: إظهار الحقّ 2/ 609.

(4) سفر التثنية إصحاح: 31: 9 12.

(5) نجيب جرجس: تفسير سفر اللاويين ص 7 د. وهيب جورجي: مقدّمات العهد القديم 1/ 59.

أمّا إن تجرّأ باحثٌ ما، وسأل كهنةَ شريعةِ الغابِ وحاخاماتِهم عنِ الزمنِ الذي كُتبت فيه تلك النواميسُ، تلك الخرافاتُ، تلك الأسفارُ، فيجيبون أنَّ سفرَ الخروجِ يذكرُ أنّ موسى -عليه السلامُ- بعد خروجِه ببني يعقوبَ من مصرَ إلى صحراءِ سيناءَ، أمرَه الربُّ أن يقيمَ خيمةَ الاجتماعِ ففعلَ، وكان ذلك في الشهرِ الأول منَ السنةِ الثانيةِ للخروج[1]، ويوافقُ هذا سنةَ 1490 ق.م حسبَ النسخةِ العبريةِ، وهو نفسُ التوقيتِ الذي أوحَى اللهُ فيه بهذا السفرِ إلى موسى النبيّ[2].

بينما يذكرُ سِفرُ التثنيةِ أنّ موسى ما كتبَ التوراةَ إلّا في السنةِ التي مات فيها، يومَ أن كان ابنَ مئةٍ وعشرينَ سنةً -كما يدّعي السفر- وسلّمَها للكهنةِ من بني لاوي -كما يدّعون-[3].

والمقطوعُ به تاريخيًّا -كما يرى علماؤُهم ومؤرّخوهم- أنّ موسى -عليه السلامُ- قد مكثَ في سيناءَ بعدَ خروجهِ ببني يعقوبَ من مصرَ مدّةَ أربعين سنة -إذ كان خروجُهم في سنة 1491 ق.م، وكانت وفاةُ موسى في سنة 1451 ق.م، كما جاء في العهدِ القديم[4]- وبهذا يصبحُ فارقُ الاختلافِ في تحديدِ زمنِ كتابةِ ناموسِ موسى (التوراة) بين الروايتَين ثمانٍ وثلاثين سنة!، ثمّ يأتي سفرُ (يشوع) ليخبرَ أنّ يشوع هو الذي كتبَ نواميسَ موسى وأسفارَه بعدَ عبورِه نهرَ الأردنّ[5]، ثمّ يخبرُ سفر (صموئيل الأوّل) عن ضياعِ الأسفارِ إثرَ حربٍ لبني يعقوب مع الفلسطينيين، حيث ضاعَ

---

(1) سفر الخروج إصحاح 40 17.

(2) انظر نجيب جرجس: تفسير سفر اللاويين 31 - 9،1.

(3) انظر مقدّمات العهد القديم 1-26.

(4) سفر يشوع إصحاح: 8-38.

(5) سفر صموئيل الأوّل: 4-11،1.

التابوتُ بما فيه من أسفارٍ وألواح[1]، ثمّ يخبر (سفر الملوك الثاني) أنّ حلقيّا الكاهن[2]، كان قد وجدَ سفرَ الشريعةِ في الهيكل، في زمنِ الملك يوشيا في حوالي 622 ق.م[3].

ويرى بعضُ الباحثين الغربيّين أنّ الأسفارَ الخمسةَ كُتبت في نحوِ 444 ق.م بيدِ عزرا الكاهن[4]، ورفاقِه من اللاويين، وبهذا تكونُ كتابةُ الأسفارِ الخمسةِ قد استغرقتْ نحوًا من 1047 عامًا. ففي أيِّ عامٍ من هذه الأعوامِ الطِّوالِ كُتبت هذه الأسفار؟ التي تجلّى خُبثها في شرائعِ غابٍ مسلَّطةٍ على رقابِ العباد.

ويرى بعضُ الباحثين ممّن لهم خبرةٌ باللغاتِ والأساليبِ التي كُتبت بها أسفارُ العهدِ القديم أنّ سفرَي العددِ واللاويّين، قد أُلّفا في القرنَين الخامسِ والرابعِ قبلَ الميلاد، أي بعد العودةِ من السَّبْيِ البابلي[5]. فهل يوثَقُ بكلامٍ كُتِبَ بعدَ وفاةِ صاحبِه بنحوِ تسعةِ أو عشرةِ قرون؟! ومِن المحيِّرِ للباحثِ وقاحةُ أكابرِ علماءِ اليهودِ الذين لا يجدونَ إزاءَ مواجهتِهم بهذا التضاربِ -في تحديدِ زمنِ كتابةِ الأسفار- إلّا الاعترافَ صراحةً بأنّه منَ الصعبِ تحديدُ تواريخَ دقيقةٍ لكتابةِ الأسفار. يقولُ الأستاذُ موريس فون -مديرُ مدرسةِ العلومِ العليا بباريسَ- وهو يتحدّثُ عنِ التوراة: «لو سألنا: في أيِّ وقتٍ جُمعَ كلُّ كتابٍ من كُتبِ التوراةِ، وفي أيِّ حالٍ وظروفٍ، وبأقلامِ مَن كُتِبَ، لا

(1) حلقيا: اسم عبري معناه يهوه قسمي، وهو رئيس الكهنة، في عهد الملك يوشيا ومساعده في إصلاحه الدينيّ، انظر قاموس الكتاب المقدّس 314.

(2) سفر الملوك الثاني: 22-12،8

(3) عزرا: هو اسم عبري معناه عمون، وكان من الكهنة الذين عادوا من بابل بعد السبي، يلقب بكاتب الشريعة، قاموس الكتاب المقدّس ص 621

(4) ول ديورانت: قصة الحضارة: 2/ 391 ط جامعة الدول العربية- القاهرة1967-م ترجمة محمّد بدران.

(5) علي وافي: الأسفار المقدّسة ص17.

نجدُ أحدًا يجيبُنا عن تلك الأسئلة، وما شابهَها إلّا بأجوبةٍ متباينة»[1].

لقد وجدتُ منَ المناسبِ أن أستعينَ بعلمِ الآثارِ لأثبتَ ما أثبتَه علماءُ اللغاتِ واللاهوتِ أنّ التوراةَ ما هي إلّا شرائعُ تراثيةٌ كتبَها الكهنةُ، وهيَ بعيدةٌ كلَّ البعدِ عن شريعةِ موسى وناموسِه؛ حيثُ يقولُ البروفيسور اليهوديُّ (زئيف هيرتسوغ) –أستاذُ علمِ الآثارِ في الجامعةِ العبريّةِ في مدينةِ القدسِ المحتلّةِ– في مقالٍ نشره في 29/ 10/ 1999م، تحت عنوان «لا يمكنُ اختلاقُ العهدِ القديمِ على الأرض»: «منَ المُعتقَدِ أنّ سكانَ العالمِ كلِّه –لا مواطني إسرائيلَ وأبناءُ الشعبِ اليهوديِّ وحدَهم– سيذهلونَ لسماعِ الحقائقِ التي باتت معروفةً لعلماءِ الآثارِ الذين يتولَّون الحفرياتِ في أرضِ فلسطينَ منذُ مدةٍ منَ الزمنِ في العشرينَ سنةٍ الأخيرةِ؛ فقد حدثَ انقلابٌ حقيقيٌّ في نظرِ علماءِ الآثارِ الإسرائيليين إلى التوراةِ باعتبارِها مصدرًا تاريخيًا، حتى إنّ أغلبيةَ المنشغِلينَ في النقاشاتِ العلميةِ في مجالِ توراةِ آثارِ شعبِ إسرائيلَ وتاريخه –الذين كانوا يبحثون في الأرضِ عنِ البراهينِ والدلائلِ للحكاياتِ الواردةِ في العهدِ القديم– يتفقونَ الآنَ على أنّ مراحلَ تكوُّنِ شعبِ إسرائيلَ كانت مغايرةً تمامًا لما يوصَفُ في التوراة»، ثمّ أردفَ بروفيسور الآثارِ اليهوديّ: «منَ الصعبِ قَبولُ ذلك، لكن منَ الواضحِ للعلماءِ والباحثينَ اليومَ أنّ شعبَ إسرائيلَ لم يُقِمْ في مصرَ، ولم يَتِه في الصحراءِ، ولم يحتلَّ الأرضَ من خلالِ حملةٍ عسكريةٍ، ولم يستوطِنْها من خلالِ أسباطِه الاثنَي عشرَ؛ والأصعبُ من ذلك أيضًا هو هضمُ الحقيقةِ التي تتضحُ رويدًا رويدًا، بأنَّ مملكةَ داودَ وسليمانَ الموحدةَ التي وصَفَتْها التوراةُ على أنها دولةٌ عظمَى

(1) عبد الرحمن زاده: الفارق بين المخلوق والخالق ص 283-284 ط شركة الأمل للطباعة – القاهرة 1987م.

إقليميةٌ، كانت –في أقصَى الأحوالِ– مملكةً قَبَلِيَّةً صغيرةً، إضافةً إلى ذلك؛ يُتوقَّعُ عدمُ ارتياحٍ معَ المعلومةِ القائلةِ أنّ يهوه إلهَ إسرائيلَ كان متزوجًا، وأنَّ الدينَ الإسرائيليَّ القديمَ تبنّى التوحيدَ فقط في أواخرِ عهدِ المملكةِ، وليسَ على جبلِ سيناء».

أجيالٌ منَ الباحثينَ حاولتْ وصفَ موقعِ جبلِ سيناءَ، ومحطّاتِ وقوفِ أسباطِ إسرائيلَ في الصحراءِ رغمَ الأبحاثِ التي تمَّ تبنِّيها، إلّا أنّه لم يُكتّشفْ أثرٌ واحدٌ يمكنُه أن يتلاءَمَ معَ الصورةِ التوراتيةِ، لذلك تحرّكَ الباحثونَ اليومَ لاكتشافِ جبلِ سيناءَ في شمالِ الحجاز.

وتُجمِعُ أغلبيةُ المؤرخينَ اليومَ على أنّ المكوثَ في مصرَ والخروجَ منها كانا في أقصَى الأحوالِ تصرّفًا لبعضِ العائلات، وتمّ تعميمُها من أجلِ خدمةِ الأيديولوجيا اللاهوتيةِ الدينيةِ لتشملَ الشعبَ كلّه.

والناظرُ إلى الحفرياتِ المتكرّرةِ التي أجرَتْها البعثاتُ المختلفةُ في أريحا، وعلى المدينتَينِ اللتَينِ وُصِفَ احتلالُهما بشكلٍ مفصَّلٍ جدًّا في كتابِ يوشع[1]، خيّبَتِ الآمالَ بشكلٍ شديدٍ. ورغمَ جهودِ التنقيبِ المكثفةِ، إلا أنه اتّضَحَ أنّه في أواخرِ القرنِ الثالثِ عشرَ الميلاديِّ، وفي أواخرِ العهدِ البرونزيِّ المتأخّرِ، وفي فترةٍ متّفقٍ عليها كفترةِ الاحتلالِ لم تكنْ في هذَينِ الموقعَينِ أيّةُ مدنٍ، ولم تكن بالطبعِ أسوارٌ يمكنُ إسقاطُها.

واقترحَ الباحثون التوراتيون –قبلَ عشرين عامًا– اعتبارَ حكايةِ الاحتلالِ هذه أسطورةً لا غيرَ، وتعزّزَ الاستنتاجُ بأنّه لا يوجدُ أساسٌ تقومُ عليه حكايةُ التوراةِ حولَ احتلالِ أرضِ فلسطينَ على يدِ أسباطِ إسرائيلَ؛ في إطارِ حملةٍ عسكريّةٍ بقيادةِ يوشع».

(1) كتاب يوشع: سفر يوشع، أحد أهمّ أسفار التوراة عند اليهود.

وفي إجابتِه على سؤالٍ، من يكون الشعب الإسرائيلي؟ يقولُ البروفيسور زئيف هيرتسوغ -أستاذُ علمِ الآثارِ-: المكتشَفاتُ الأثريةُ أكّدتْ حقيقةً مهمّةً: ففي مطلعِ العصرِ الحديديِّ في المرحلةِ التي اعتُبِرَت فترةَ الاستيطانِ، توطَّنَتْ في منطقةِ الجبلِ المركزيِّ لأرضِ فلسطينَ مئاتُ التجمُّعاتِ التي عاشَ فيها المزارعون والرُّعاةُ، فإن لم يأتِ هؤلاءِ من مصرَ، فمِن أينَ جاؤوا؟ يبدو لي أنّه لا يوجدُ اليومَ مؤيّدون للنموذجِ التوراتيِّ للاحتلالِ العسكري.

نغادرُ في بحثِنا هذا علماءَ الآثارِ وعلمَهم، لنعودَ إلى علماءِ التاريخِ، وتحديدًا العالِمَ الباحثَ (ريتشارد سيمون) الذي أصدرَ في عامِ 1678م كتابَه «التاريخُ النقديّث للعهدِ القديمِ»، أكّد فيه الملاحظاتِ الآتيةَ، وهي: الصعوباتُ الخاصّةُ بتسلسلِ الأحداثِ، والتكرارِ، وفوضَى الرواياتِ، والفوارقِ في الأسلوبِ، وتوصَّلَ في النتيجةِ إلى أنّها عبارةٌ عن مجموعةٍ من مدوَّناتٍ مختلفةِ الأصولِ، كلُّ واحدةٍ منها تعودُ إلى جيلٍ بعينِه منَ الأجيالِ المتعاقبةِ لأنبياءِ اليهودِ، يستخلصون النبوءاتِ من واقعِ تفسيراتٍ متمايزةٍ لأحداثِ الماضي، فكأنّهم أيضًا مؤرّخون عكَفَ كلُّ واحدٍ منهم باجتهادٍ وهوىً على إعادةِ تقييمِ ما دوَّنَهُ الأسلافُ تحويرًا وحذفًا وإضافةً، حتّى توفَّرَ عليها آخرَ الأمرِ عزرًا ومريدون، فجُمِعَت أسفارُ الكتابِ على الوجهِ الذي تطالعُنا به اليوم.

أمّا الباحثُ (جان أستروك) فقد استنتجَ من معالجاتِه للأسفارِ الخمسةِ الأولَى منَ العهدِ القديمِ أنّ هناك مجموعتَين منَ النصوصِ يتداخلُ بعضُها ببعضِها الآخر:

أولها: تنتمي إلى مصدرٍ أُطلقَ عليهِ اسمُ (الإلوهيمي).

والثاني: هو المصدرُ اليهوديُّ منِ اسمِ الإلهِ (يهوه)، وإنّ كلًّا منَ المجموعتَين صادرٌ عن أصلٍ مختلفٍ عنِ المجموعةِ الأخرى، وأنّ هناك مجموعةً ثالثةً لا ترجعُ

إلى الأصلَين[1].

وبعدَ دراسةٍ طويلةٍ قرَّرَ (جان أستروك) أنّ المجموعةَ الإلوهيميةَ تكوِّنُ الجانبَ الأعظمَ من سفرِ التكوينِ، المجموعةُ اليهوديةُ ليستْ سوى تكملةٍ لها، كما أنَّ الإصحاحاتِ الأولى من سفرِ الخروجِ ذاتِ أصولٍ ألوهيمية كذلك[2].

وأضاف (أيخهورن) لملاحظاتِ (أستروك): «إنّ الكتاباتِ ذاتِ الأصولِ الإلوهيميّةِ واليهوديةِ لا تختلفُ فقط، من ناحيةِ اسمِ الربِّ تحت عنوان (يهوه) أو (إلوهيم)، بل إنّ هناك اختلافًا بيّنًا كذلك في الكلماتِ والجُملِ وطبيعةِ العقيدة نفسها»[3].

أمّا فاتر فيقول: «إنّنا لا نلتقي بهذه الظاهرةِ اليهودية -الإلوهيمية- في أسفارِ إصحاحِ التكوين والخروج، بل في كافّة الأسفار الأربعة الأخرى، ويرى أنّ الأسفارَ كلَّها عبارةٌ عن تراثٍ بدائيٍّ من مجموعتَين منفصلتَين متشابهتَين في الوقتِ نفسِه، وربّما كانت من عصرَين مختلفَين متباعدَين، عُرف الربُّ في أحدِهما باسمِ (يهوه) وفي الأخرى باسمِ (إلوهيم)[4].

أمّا (إيلوجين) فقد لاحظَ أنّ أحدَ النّصَّينِ اللذَين ميّزَهما (أستروك)، واللذَين يُذكَرُ فيهما اسمُ الربِّ في صيغتَي (إلوهيم) و(يهوه) هما أيضًا ينقسمانِ إلى قسمَين.

---

(1) د. موريس بوكاي: دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة ص 31 – 32 مكتبة مدبولي- القاهرة ط 1996م.

(2) بوكاي: دراسة الكتب المقدّسة: ص 28 (المصدر السابق).

(3) زلمان شازر: تاريخ نقد العهد القديم (من أقدم العصور حتى العصر الحديث) ص 106، طبعة المجلس الأعلى للثقافة عام 2000.

(4) موريس بوكاي: دراسة الكتب المقدّسة في ضوء المعارف الحديثة: ص 28، ط مكتبة مدبولي – القاهرة 1996م.

ومن الجديرِ ذكرُه -في ختامِ هذا المبحثِ- أنّ ناموسَ موسى (التوراة) لم يكن عندَ الكهنةِ الذينَ كتبُوه أوّلَ مرّةٍ مقسَّمًا إلى أسفارٍ وإصحاحاتٍ وفقراتٍ، بل كانَ كتابًا واحدًا متصلًا من أوّلِه إلى آخرِه، ولم يكن فيه علاماتٌ فاصلةٌ بينَ الجملِ، بل كانتِ الكلماتُ ملتصقةَ الأحرفِ بعضِها ببعضٍ، حتّى كانَ كلُّ سطرٍ منها ككلمةٍ واحدةٍ، فدعتِ الحاجةُ إلى تقسيمِ الكتابِ لأسفارٍ وفصولٍ وفقراتٍ[1]، وترهاتٍ وخزعبلاتٍ!، ويقرُّ علماءُ اللاهوتِ صراحةً بوقوعِ أخطاءٍ كثيرةٍ في هذه التقسيماتِ، فكثير ما يفصل بين ما يجب أن يوصل[2].

كما نلاحظُ أنَّ علماءَ أهلِ الكتابِ في ترجَماتِهم للنسخِ المختلفةِ يُضِيفون ما شاؤوا، ويسمِّيها بعضُهم إضافاتٍ قانونيةً أو يصحِّحون كما يُقِرُّون هم بذلك[3].

فمَن يا تُرى ذاك الذي أوحَى إليهم بتلك الإضافاتِ والتصحيحاتِ والافتراءاتِ، بل مَنِ الذي سمحَ لهم بأن يلعبُوا دَورَ الربِّ والأنبياءِ، ودَورِ الرسلِ والأولياء، ومَن ذا الذي عَلا عاليًا بعشيرةٍ حقيرةِ الطباعِ، لئيمةِ الصِّفات، مريضةِ السريرةِ، قذرةِ النفس، مختلةِ الميزان، فاقدةِ الأخلاق بأن تدّعي بأنّها شعبُ اللهِ المختارُ، وهيَ في حقيقةِ الأمرِ ليست سوى نسلٍ مدنسٍ من بقايا الخطايا، وثمراتِ السِّفاح، والشهوةِ المحرّمة، وذلك بحسبِ أسفارهم؟!.

(1) متى بنهام: مفاتيح كنوز الأسفار الإلهية: 1/ 19.

(2) انظر قاموس الكتاب المقدّس ص 13 مطبعة النيل المسيحية مصر.

(3) نجيب جرجس: مقدمات العهد القديم 1/ 29-30

ناموس موسى الشفهي (التلمود):

لقد نشأَ ناموسُ موسى الشفهيُّ (التلمود) حينما قرّرَ الكهنةُ والأحبارُ والحاخاماتُ اليهودُ عجزَ التوراةِ وقصورَها عنِ الوفاءِ بحاجاتِهم وحاجاتِ أتباعِهِمُ اليهودِ، وأوليائِهم منَ الأغيارِ والعوامّ، فزعموا أنّ موسى -عليه السلام- لم يترُكْ شريعةً مكتوبةً فقط وهي التوراة بأسفارها الخمسة، بل ترك أيضًا ناموسًا شفويًّا يمثّل الشريعةَ الواجبَ السيرُ بحسَبِ متطلَّباتِها، وقد تلقّى تلك الشريعةَ الشفويةَ الموسويةَ التلاميذُ والطلبةُ اليهودُ عن معلّميهمُ الكهنةِ والحاخاماتِ والأحبارِ جيلًا بعدَ جيلٍ، وقدِ استغرقت عمليةُ جمعِ الشريعةِ الشفويةِ مدّةً طويلةً جدًّا، فاختلفَ الباحثون في تقديرِها، من (خمسمئةِ عامٍ إلى ألفِ عام)، وشاركَ في جمعِ تلك الشريعةِ الشفويةِ عدّةُ أحبارٍ وكهنةٍ، فأضافوا إليها زياداتٍ وتنقيحاتٍ، وغيرَ ذلك من خزعبلاتِ اليهودِ المضلّلة.

وقدِ اكتنفَ عمليةَ جمعِ الشريعةِ الشفويةِ الموسويةِ (وموسى -عليه السلامُ- منها براءٌ) حالةً من الغموضِ والتعقيدِ والتضليلِ جعلت منَ المستحيلِ تحديدُ تاريخٍ معيَّنٍ بشأنِ نشأةِ التلمود.

وعلى كلٍّ فإنّ أكثرَ المصادرِ -وخصوصًا اليهوديةَ- تذكرُ أنّ عمليةَ جمعِ الشريعةِ الشفويةِ تمتدُّ من عصرِ (عزرا الكاتب) في منتصفِ القرنِ الخامسِ ق.م، وتستمرُّ حتّى القرنِ السادسِ ب.م، أي قبلَ الميلادِ بخمسةِ قرونٍ، وبعدَ الميلادِ بستةِ قرونٍ، ويرى بعضُ الباحثينَ أنّ هذه التعليقاتِ والإضافاتِ استمرَّت حتّى نهايةِ القرنِ التاسعِ عشرَ بعدَ الميلاد.

فما هي حقيقةُ ناموسِ موسى الشفويّ المزعومِ (التلمود)؟ وما هو التلمودُ أصلاً؟ وما هو التعريفُ الأمثلُ له؟

وهنا نجيبُ أنّ أصلَ كلمةِ «تلمود» مشتقٌ منَ الجَذرِ العِبريِّ (لامد) يعني الدراسةَ والتعليمَ؛ ويعودُ جذرُ كلٍّ من كلمةِ «تلمود» العبرية، وكلمةِ «تلميذ» العربيةِ إلى أصلٍ ساميٍّ واحد[1].

وبرغمِ الدراساتِ الكثيرةِ التي تناولتِ التلمودَ إلّا أنّ تحديدَ مفهومِه بدقّةٍ، كان أشبهَ بعثرةٍ لكثيرٍ منَ الباحثين،حتّى إنّ الدكتور أسعد رزّوق يقولُ -وهو يتساءَلُ-: ما هو التلمودُ؟ « إنّ الباحثَ عن تعريفٍ جامعٍ مانعٍ للتلمودِ في المصادرِ اليهوديةِ وغيرِها، يعثرُ على أقوالٍ كثيرةٍ تفيدُ امتناعَ التعريفِ المنشودِ، وتعذُّرَ الإتيانِ بتحديدٍ وضعيٍّ يدلُّ على ماهيّةِ هذا الأثرِ؛ فالمفكرُ الدينيُّ اليهوديُّ (سولمونشختر) يعلنُ في مقالٍ له بعنوان: (**حولَ دراسةِ التلمود 1885**م) بأنّ الإجابةَ على سؤال: ما هو التلمودُ؟ ضربٌ منَ المحالِ، **ثمّ يعلّلُ ذلكَ بقولِه**: إنّ التلمودَ أثَرٌ شديدُ التنوُّعِ والتفكُّكِ والتشعُّبِ في عناصرِه، وهذا ممّا يحولُ البتةَ دونَ تعريفِه بصورةٍ موجزةٍ ومقتضَبةٍ»[2].

وتختلفُ تعريفاتُ التلمودِ بينَ الباحثينَ اختلافًا واسعًا؛ فمنهم مَن يعرِّفُه بأنّه: « كتابُ تعليمِ ديانةِ اليهودِ وآدابِهم، ومنهم مَن عرَّفَهُ بأنّه التعبيرُ عنِ النظرةِ اليهوديةِ الشاملةِ إلى العالمِ في امتدادِها عبرَ ألفِ سنةٍ منَ الزمنِ، ومنهم مَن عرَّفه بأنّه: التوراةُ الشفويةُ، وهو مجموعةُ قواعدَ ووصايا وشرائعَ دينيةٍ وأدبيةٍ ومدنيةٍ، وشروحٍ وتفاسيرَ، وتعاليمَ وروايات كانت تتناقلُ وتُدرَّسُ شفَهيًّا من حينٍ إلى آخر»[3]، وعرَّفه بعضُهم بأنّه سِجِلُّ المحاولاتِ التي بذلَها اليهودُ لتفسيرِ العهدِ القديمِ، بما يتناسبُ

(1) د. أسعد رزوق: التلمود والصهيونية ص 111.

(2) د. صابر طعيمة: الأسفار المقدّسة قبل الإسلام ص 41 ط عالم الكتب - بيروت - 1985.

(3) د. هلال فارحي، وهو كاتب يهودي مصري الأصل: التلمود ص 7

مع وضعِ اليهودِ باعتبارِهم جماعاتٍ منتشرةٍ في العالمِ، وليسَ باعتبارِهم شعبًا مستقرًّا[1].

ومجمَلُ تلكَ التعريفاتِ تعطي دلالةً واضحةً، هي: «أنّ التلمودَ عبارةٌ عن نتاجِ الفكرِ اليهوديِّ وحلقاتِ الدرسِ في مختلفِ البيئاتِ والأزماتِ التي عاشَ فيها اليهود»[2].

التلمود هو: الشريعةُ الشفويةُ التي تراكمَت عبرَ القرونِ تفسيرًا ورؤىً واجتهادًا وحكاياتٍ وأساطيرَ ودسائسَ وأوهامًا. وهناك نسختانِ من هذا الكتابِ، النسخةُ البابليةُ والنسخةُ الفلسطينيةُ. وقد خضع التلمودُ للحذفِ وللإضافةِ خلالَ مئاتِ السنين، حسبَ الأحوالِ والظروفِ المحيطةِ والحاجة. والتلمودُ ذو قدسيةٍ توازي التوراةَ، إن لم يزد عليها، وفيه تتجلّى النزعةُ لدى كاتبيهِ ومؤلّفيهِ (وهم عادةً من كبارِ الكهنةِ والحاخاماتِ والأحبارِ والفقهاءِ في العلوم الدينية اليهودية) بالانعزال! والتميز! والفرادة والقداسة!...إلخ، من صفاتِ الرهبةِ والهَيبةِ والغموض.

إنّ ناموسَ موسى الشفويَّ بما يحتويهِ من رؤيةٍ مسبقةٍ وثابتةٍ للعالَمِ والخلقِ والأرضِ والسماء، وبما فيه من تناقضاتٍ هائلةٍ مريبةٍ شائكةٍ، هو وثيقةٌ مهمّةٌ جدًّا على قوّةِ العقولِ الماكرةِ المخادعةِ للحاخاماتِ والكهنةِ والأحبارِ اليهودِ، الذين تمكَّنُوا من خلقِ شرائعِ التراثِ اليهوديةِ التي حوتْ بينَ جنَباتِها التوراةَ والتلمودَ وما بينهما وما بعدَهما من شرائعِ غابٍ تثيرُ فينا -نحنُ الباحثين عنِ الحقيقةِ العلميةِ، والداعينَ إلى إخراجِ العبادِ من عبادةِ العبادِ إلى عبادةِ ربِّ العبادِ إلى التوحيدِ

(1) د. عبد الغني عبود، اليهودية واليهود والإسلام ص 53

(2) د. عماد على حسين، الإسلام واليهودية ص 565-609

الخالص- عجبًا كبيرًا جدًّا، وتساؤلاتٍ عميقةً وإحساسًا شديدًا بالشفقةِ على مَن يتبعُ هذه الشرائعَ، وذلك لما احتوتهُ من التضليلاتِ والتحايلِ والخداعِ، حتّى على اللهِ -عزّ وجلَّ-... كيف لا، وهذه الشرائعُ ومشرّعوها يرَونَ في اليهودِ جزءًا منَ الله، أو أنَّ اللهَ جزءٌ من اليهود؟!.

وحتّى لا نبتعدَ عن جوهرِ مبحثِنا في هذا الفصلِ -ولو قِيدَ أُنملةٍ- نقولُ: إنّ التلمودَ يحتوي على عدةِ أقسام، ذلك أنّ التلمودَ يتكوّن من نصٍّ وشرحٍ وتكليفٍ وتعليقٍ على التكليفِ، وإضافاتٍ شتّى على الإضافاتِ المضافةِ بعد الإضافةِ، لذلك فقد قسّمَ علماءُ اليهودِ (الكهنةُ والحاخاماتُ والأحبار) تلك النصوصَ والشروحَ إلى قسمَين:

القسم الأول/ المشنا: وهي كلمةٌ عبريةٌ تعني المعرفةَ، أو القانونَ الثاني، وهي مشتقةٌ منَ الفعلِ العبريّ (شناه)، والذي يعني (يثني أو يكرّر) ولكن تحتَ تأثيرِ الفعلِ الآراميِّ (تانا) صار معناهُ (يدرسُ)، ثمّ أصبحتِ الكلمةُ تشيرُ بشكلٍ محدَّدٍ إلى دراسةِ الشريعةِ الشفوية[1].

والمشنا: تعَدُّ خلاصةَ الشريعةِ الشفويةِ، ومجموعةَ قوانينِ اليهودِ السياسيةِ والمدنيةِ والدينيةِ المتّفَقِ عليها باختصارِ، وتفسيراً لها من علماءِ اليهودِ في أوقاتٍ مختلفة[2].

هذا ويزعمُ اليهودُ أنّ المشنا تناقلَها أحبارُهم وكهنتُهم عن موسى -عليه السلام-، وموسى منهم بَراء، جيلًا بعد جيلٍ، حتّى جاءَ الحَبرُ (يهوذا هنسيا المقدسي) بعام

(1) موسوعة اليهود واليهودية: 5/ 144،143

(2) التلمود: ص 10.

189م فتابعَ عملَ أسلافِه، وأعادَ ترتيبَها وأكملَها فكانت (مشنا الحبر يهوذا).

وانتشرت المشنا بينَ اليهودِ انتشارَ النارِ في الهشيمِ لتغدوَ بعدَ زمنٍ المصدرَ المعتمدَ لشريعةِ اليهودِ الشفويةِ، ورغمَ ذلك فقد أُدخلَت عليها حواشٍ متعدّدةٌ من أيّامِ (يهوذا هنسيا 189م) إلى يومِنا هذا!.

وقد كُتِبَتِ المشنا باللغةِ العبريةِ، التي تتخلّلها كلماتٌ يونانيةٌ ولاتينيةٌ، وصِيَغٌ لغويةٌ يظهرُ فيها تأثُرٌ عميقٌ بقواعدِ الآراميةِ ومفرداتِها، وتسمّى (عبرية المشنا)، ويصلُ حجمُ المشنا في الترجمةِ الإنجليزيةِ إلى 789 صفحة، وهي تهدفُ إلى تقديمِ المضمونِ القانونيِّ للشريعةِ الشفويةِ بشكلٍ مجرّدٍ، دونَ العودةِ إلى النصوصِ التوراتية[1].

وبعد صياغةِ المشنا على هذا النحوِ كثُرتِ الشُّروحُ وتضخَّمَت جدًّا؛ ومن تلك الشروحِ نشأَ القسمُ الثاني من التلمودِ، وهو (الجمارا)[2].

القسم الثاني: الجمارا: وهي كلمةٌ عبريةٌ تعني الشروحَ أو الإكمالَ، وهي التعليقاتُ والشروحُ والتغييراتُ التي وضعَها على المشنا الفقهاءُ اليهودُ الذين يسمَّون (أمورائيم) أي الشرّاحُ، وهي تؤخذُ عادةً بشكلِ أسئلةٍ وأجوبة[3].

والجمارا جماراتان، فلسطينيةٌ وبابلية:

الجمارا الفلسطينية: تُعَدُّ الجمارا الفلسطينيةُ نتاجًا لمدرسةِ اليهودِ في فلسطينَ في الفترةِ من (220-340)، وكانَ أوّلُ مَن بدأَ شرحَ المشنا التي وضعَها يهوذا ابناه الحاخامانِ جامالئيل وسيمون، ثمّ تتالتْ طبقاتٌ منَ الأحبارِ في إعادةِ صياغتِه وإضافةِ

(1) د.عبد الوهاب المسيري، موسوعة اليهود واليهودية: 5/ 144.

(2) د. إبراهيم محمد إبراهيم، اليهودية في أسفارها المقدّسة ص 144.

(3) موسوعة اليهود واليهودية: 5/ 145.

الشروحِ إليه، وحذفِ ما يريدونَ حذفَه على مدى القرونِ والأزمنة[1]، وقد كُتبتِ الجامارا الفلسطينيةُ باللغةِ الآراميةِ، وهيَ لغةُ أهلِ فلسطينَ آنذاك مختلطةً بكلماتٍ عبريةٍ[2]، وبإضافةِ تلكَ الشروحِ إلى المشنا يتكوَّنُ ما يُعرَفُ بالتلمودِ الفلسطينيِّ أو الأورشليمي!.

الجامارا البابليّة: نُسبت إلى بابلَ في العراقِ، وهي نتاجُ المدرسةِ اليهوديةِ بأرضِ بابلَ أرضِ السَّبْيِ والاستعبادِ، بدءاً بالحاخامِ (آشي) المتوفَّى عامَ 397م، ثمّ تتالتْ طبقاتُ الأحبارِ في كتابةِ **الجمارا البابلية**، فجاءتْ طبقةُ الأحبارِ المعروفةُ بـ (السبورائيم) أي العقلاءُ أوِ المناطقةُ أوِ المناظِرونَ، واستمرّتْ من نحوِ (500م إلى 650م) إلى نحوِ مئةٍ وخمسينَ عامًا، ثمّ جاءت طبقةُ الجاؤنيم -أي الفقهاء- وقد كانوا يُعَدُّونَ الرؤساءَ الروحيّين ليهودِ العالمِ في الفترةِ من أواخرِ القرنِ السادسِ وحتّى أواخرِ القرنِ الرابعِ عشرَ الميلاديّ.

وقد كُتبتِ الجمارا البابليّةُ بالآراميةِ الشرقيةِ التي تختلفُ قليلًا عنِ الآراميةِ الغربيةِ الموجودةِ في فلسطين.

وبإضافةِ تلك الشروحِ إلى المشنا يتكوّنُ ما يُعرَفُ بالتلمودِ البابليِّ، وهو أطولُ بكثيرٍ منَ التلمودِ الفلسطينيِّ؛ فهو نحوُ أربعةِ أضعافِه، نعم أربعةُ أضعافه!. وإذا ما أَطلقَ أحدُهم كلمةَ التلمودِ فالمقصودُ عندَهم التلمودُ البابليُّ، وليسَ الفلسطينيّ.

أمَا وقد عرَفتَ معنَى كلمةِ التلمودِ ونشأتَه، فقد وجبَ علينا تبيانُ أهميّتِه عندَ اليهود:

---

(1) ظفر الإسلام خان: التلمود وتاريخه وتعاليمه ص 21.

(2) د. محمد علي البار: المسيح المنتظر وتعاليم التلمود ص 64.

ففي بدايةِ الأمرِ كان يُنظَرُ إلى التلمودِ على أنّه يأتي في المنزلةِ الثانيةِ بعدَ التوراةِ، ولكن أصبحَ بعدَ حينٍ يُلَقَّبُ بـ(التوراة الشفوية) أي أنّه مساوٍ لتوراةِ موسى وناموسِه في المرتبةِ، ولم يعُدْ في وسعِ أيِّ يهوديٍّ مخالفتُه، وأخذَت درجةُ قداستِه بالازديادِ والاتّساعِ حتّى أصبحَ أكثرَ قداسةً منَ التوراةِ ذاتِها![1]، قال أحدُ الحاخامات: «يا بنيَّ كنْ حريصًا على مراعاةِ أقوالِ الكُتبِ -أي الحاخاماتِ واضعِي التلمود- أكثرَ من حرصِك على أقوالِ التوراةِ، لأنَّ أحكامَ التوراةِ تحتوي الأوامرَ والنواهي، أمّا شرائعُ الكتبِ فإنّ مَن ينتهكُ واحدةً منها يجلبُ على نفسِه عقوبةَ الإله...» وقد جاء أيضًا أنّه: «لا خلاصَ لمَن تركَ التلمودَ واشتغلَ بالتوراةِ؛ لأنّ أقوالَ علماءِ التلمودِ أفضلُ ممّا جاء في شريعةِ موسى، وهي أفضلُ من أقوالِ الأنبياء»[2].

وقد غالَى علماءُ شريعةِ الغابِ وكهنةُ التوراةِ والتلمودِ في رفعِ منزلةِ التلمودِ، حتّى إنّهم يقولون: «إنّ مَن درسَ التوراةَ وحدَها فقد فعلَ فضيلةٍ لا يستحقُّ المكافأةَ عليها، ومَن درسَ المشنا فقد فعلَ فضيلةً واستحقَّ أن يُكافأَ عليها، أمّا الجمارا فلا تسمُو على فضيلةِ درسِها أيّةُ فضيلةٍ أخرى، ومع ذلك ارجِعوا إلى المشنا أكثرَ من رجوعِكم إلى الجمارا»[3].

حتّى إنّ النصوصَ التي وردتْ في التوراةِ لتقديسِها تأوّلها علماءُ التلمودِ على أنّها واردةٌ في حقِّ التلمودِ، ومن ذلك في سفرِ العددِ: «... احتقرت كلامَ الربّ، ونقضت وصيّته قطعًا تقطع تلك النفس ذنبها عنها»[4].

---

(1) المسيح المنتظر وتعاليم التلمود: ص 66 68-

(2) عبد الوهاب المسيري: اليد الخفية ص: 27 28-

(3) د. أسعد رزوق: التلمود والصهيونية ص 193-194.

(4) سفر العدد إصحاح: 15-31.

فيعلّقُ أحدُ الحاخاماتِ على هذا بقوله: «إن تدرسِ التوراةَ ولا تلتفتُ إلى المشنا فإنّك تقترفُ إثمًا بحقِّ مَن أعطَى التوراةَ، إذ لا يمكِنُ فهمُ التوراةِ فهمًا صحيحًا بدونِ شروحاتِ المشنا وتفسيراتِه»(1)، ويمضي أبالسةُ كهنةِ التلمودِ في مغالاتِهم في تقديسِه فيقولون:» إنّ التوراةَ أشبهُ بالماءِ والمشنا أشبهُ بالنبيذِ، والجمارا أشبهُ بالنبيذِ المعطَّرِ، فلا يمكنُ الاستغناءُ عن هذه الكتبِ والأصنافِ معًا، إنّ الشريعةَ هي كالملحِ والمشنا كالفلفلِ والجمارا أشبهُ بالتوابلِ، فلا يمكنُ الاستغناءُ عن هذه الأصنافِ أيضًا»(2).

وترجعُ أهميّةُ التلمودِ عندَ اليهودِ إلى أنّه لا يقتصرُ على حياتِهم العامةِ، بل يمتدَّ ليشملَ أخصَّ خصوصيّاتِها؛ فهو يتناولُ -ضمنَ ما يتناولُ- كلَّ دقائقِ إعدادِ الطعامِ وتناولِه، والعلاقاتِ الخاصّةَ بينَ الرجلِ وزوجتِه، وهو أيضًا كتابٌ طبيٌّ، وكتابُ تنجيمٍ وسحرٍ وتفسيرِ أحلام(3).

لقد غدَت شريعةُ الغابِ التوراتيةُ والتلموديةُ بمثابةِ وطنٍ متنقّلٍ لليهودِ، يحملونَه معهم أينما ساروا وحيثُما حلُّوا، فحيثما وُجِدَ اليهودُ نقَضَةُ الوعودِ ونكَثَةُ العهودِ وقتلةُ الرسلِ والأنبياءِ، كانَ بوسعِهم أن يضعُوا أنفسَهم مرّةً أخرَى في عالمِهِمُ الخاصِّ المصطنَعِ، وأن يعيشوا مع أنبياءَ ورسلٍ خلقوهُم بفعلِ كهنتِهم ورهبانِهم، وعندها يروون عقولَهم وقلوبَهم من فيضِ هذه الشريعةِ التي لا تصلحُ لقيادةِ حياةِ دوابِّ الغاب!.

وممّا يزيدُ من أهميّةِ تلمودِ الغابِ وضوحًا أنّ اليهودَ يتخذونَ منه أساسًا وجوهرًا للتربيةِ؛ فالشبابُ اليهوديُّ ينكبُّ على دراسةِ التلمودِ سبعَ ساعاتٍ يوميًّا، لمدّةِ سبعِ

(1) التلمود والصهيونية: ص193.

(2) التلمود والصهيونية: ص193.

(3) إسرائيل والتلمود: ص 32.

سنواتٍ، يتلوه ويثبِّتُه في ذاكرتِه بلسانِه وعينِه، فهو الذي يكوّنُ عقولَهم وفكرَهم، ويشكّلُ أخلاقَهم بما تفرضُه دراساتُه من نظامٍ دقيق[1].

ولعلّ من أوضحِ القرائنِ على أهميّةِ التلمودِ عندَ اليهود: ما نرى وما نشاهدُ من أفعالِهم، التي بمجرَّدِ مراجعتِها على ما تلقّفَتهُ الأيدي من نصوصِ التلمودِ يتّضِحُ أنّهم ينطلِقُون من خلالِه في كلِّ أمر[2].

ويعقّبُ الدكتور أسعد رزوق فيقول: «ومهما تعدّدتِ الأقوالُ والآراءُ بشأنِ العلاقةِ القائمةِ بينَ التوراةِ والتلمود، ورغم كلِّ ما يزعمه اليهودُ عن وجودٍ تقليديٍّ بموازاةِ بعضهما بعضًا، وينحدرانِ من مصدرٍ واحدٍ، فإنّ التلمودَ لا يمكن فصلُه عنِ التوراةِ أبدًا، كما أنّ الأحكامَ الشرعيةَ الواردةَ في المشنا لا تنفصلُ عن خلفيتِها التوراتيةِ في أسفارِ موسى الخمسة، حيثُ يكمُنُ مصدرُها ومنبعُها الأساسُ، فالتلمودُ يبدو لنا أشبهَ ما يكونُ بتطبيقِ التوراةِ، رغمَ الفروقاتِ الكثيرةِ بينهُما، ولا بأسَ منِ اعتبارِ التلمودِ بمثابةِ سجلٍّ حافلٍ يبيّنُ لنا خلالَ المناقشاتِ والشروحاتِ والأمثلةِ والردودِ والرواياتِ، كيفَ كان اليهودُ يحاولونَ تطبيقَ الوصايا والفرائضِ التوراتيةِ في حياتِهم اليومية.

إنّ جذورَ التلمودِ ترجعُ إذن إلى تفاعلِ الشريعةِ المكتوبةِ مع أوضاعِ الحياةِ المتغيّرةِ والحاجاتِ الطارئةِ، وحينَ يصطدمُ التطبيقُ العمليُّ بالنصوصِ المقدّسة، أو الموضوعةِ في عهدِ الكهنةِ والكتَبَةِ، تبدأُ المشكلةُ بالظهورِ، وتكثرُ الاجتهاداتُ، بينما يتصاعدُ البحثُ عنِ الحلولِ والمخارجِ؛ واستنادًا إلى هذا التفسيرِ للعلاقةِ الوثيقةِ

---

(1) إسرائيل والتلمود: ص 32.

(2) د. عماد علي حسين: الإسلام واليهودية ص 600.

بينَ التلمودِ والتوراةِ يقول (بركوفتير): «التلمودُ هو الجسرُ الممتدُّ بينَ التوراةِ والحياةِ، إنّه التوراةُ في التطبيق»[1].

وممّا يؤكّدُ هذا التوافقَ العامَّ بين ناموسِ موسى المكتوبِ وناموسِه الشفهيِّ (التوراة والتلمود) أنّ كثيرًا من مدارسِ التفسيرِ اليهوديةِ كانت تسلكُ في مناهجِها تفسيرَ التوراةِ بالتلمودِ أوِ العكسِ، بحيث يبدو كلٌّ منهما في اتّفاقٍ وتناسقٍ كاملٍ معَ الآخر»[2].

وبالطبعِ إذا ثمّةَ خلافٌ أو تناقضٌ أو تباينٌ يلجأُ الكهنةُ والحاخامات إلى ما جرت عليه عادتُهم منذ أن كتبوا التوراةَ وزعموا أنّها من عندِ اللهِ، وكتبوا التلمودَ وزعموا أنّه من عندِ موسى، إلى تأويلِ النصوصِ وتطويعِها ولَيِّ رقابِها لمقاصدِهم وأغراضِهم الدنيويّةِ الدنيئةِ، حتّى لو لم تكن تقبلُ التأويلَ إلّا في خيالاتِهم وحدَهم، ذلك أنّهم صفوةُ شعبِ اللهِ المختار!. حيث جاء في التلمودِ الموسويّ الشفهيّ: « نحنُ شعبُ اللهِ المختارُ، وقد أوجبَ علينا أن يفرّقَنا لمنفعتِنا، ذلك لأنّه -لأجلِ رحمتِه ورضاهُ عنّا- سخّرَ لنا الحيوانَ الإنسانيَّ، وهُم كلُّ الأممِ والأجناسِ، لأنّه يعلمُ أنّنا نحتاجُ إلى نوعَين منَ الحيوان: نوعٍ أخرسَ كالدوابِّ والأنعامِ، ونوعٍ ناطقٍ كالمسيحيّينَ والمسلمين والبوذيّين، وسائرِ أممِ الأرض، فسخَّرَهم لنا ليكونوا في خدمتِنا، وفرَّقنا في الأرضِ لنمتطيَ ظهورَهم، ونمسكَ بعَنانِهم، ونستخرجُ أموالَهم لمنفعتِنا»[3].

وجاء في ناموسِ موسى أيضًا: «الإسرائيليُّ معتبرٌ عندَ اللهِ أكثرَ منَ الملائكةِ، وإذا ضربَ أمميٌّ إسرائيليًّا فكأنما ضربَ العزّةَ الإلهيّةَ، ويستحقُّ الموتَ»... «ولو لم

(1) د. أسعد رزوق: التلمود والصهيونية ص -122 123 بتصرف يسير.

(2) انظر: د. عبد الرازق قنديل: الأثر الإسلامي في الفكر الديني اليهودي ص 452.

(3) المسيح المنتظر وتعاليم التلمود: ص 160-161.

يخلَق اليهودُ لانعدمتِ البركةُ منَ الأرض، وما خُلقَتِ الأمطارُ والشمسُ، والفرقُ بينَ درجةِ الإنسانِ والحيوانِ كالفرقِ بين اليهوديِّ وباقي الشعوبِ، والنطفةُ المخلوقُ منها باقي الشعوبِ هي نطفةُ حصانٍ»[1].

وجاء في التلمودِ أيضًا: «هناك أربعةُ أشياءَ يندمُ القدّوسُ على خلقِها: النفْيُ، والكلدانيّون، والإسماعيليون، ونزعةُ الشرّ»[2].

الإسماعيليّون هم العرب

ولقد جاء في التلمودِ وصفٌ للهِ -عزّ وجلّ- بصفاتِ البشرِ، وأنّه يضحكُ ويلعبُ ويلطِمُ ويبكي: «النهارُ اثنتا عشرةَ ساعةً؛ في الثلاثِ الأوَلِ يجلسُ اللهُ ويطالعُ الشريعةَ، وفي الثلاثِ الثانيةِ يحكمُ، وفي الثلاثِ الثالثةِ يطعِمُ العالمَ، وفي الثلاثِ الأخيرةِ يجلسُ ويلعبُ مع الحوتِ ملكِ الأسماك». وأنّه اعترفَ بأخطائِه في تصريحِه بتخريبِ الهيكلِ، فصار يبكي ويزأرُ قائلًا: «تبًّا لي لأني صرَّحتُ بخرابِ بيتي وإحراقِ الهيكلِ ونهْبِ أولادي»، ويندم على تركِه اليهودَ في حالةِ التعاسة، حتى إنه يلطِمُ ويبكي كلَّ يوم، فتسقطُ من عينيهِ دمعتان في البحرِ، فيُسمَعُ دويُّهُما من بَدءِ العالمِ إلى أقصاه، وتضطربُ المياهُ، وترتجفُ الأرضُ في أغلبِ الأحيانِ، فتحصلُ الزلازلُ، وليس اللهُ معصومًا عن الطيشِ والغضبِ والكذِبِ[3].

وفي التلمودِ الوضيعِ أوصافٌ بشريّةٌ كثيرةٌ جدًّا للربِّ -سبحانَه وتعالى- لا تخرجُ في شيءٍ عن أوصافِه في التوراةِ منبعِ الشرِّ والفسادِ والإفسادِ، فحسبُنا اللهُ ونعمَ الوكيل.

---

(1) إسرائيل والتلمود: ص61.

(2) التلمود والصهيونية ص 265.

(3) إسرائيل والتلمود ص 58.

«وليس الله معصومًا عن الطيش والغضب والكذب... وليس الله معصومًا عن الطيش والغضب والكذب...»؛ **فحسبنا الله ونعم الوكيل... حسبنا الله ونعم الوكيل.**

أمّا الرسلُ والأنبياءُ فإنّ حالَهم لم يكنِ البتةَ أفضلَ من حالِ اللهِ -عزَّ وجلَّ-، فهم غيرُ معصومين ولا منزّهين، إنّما هم أشبهُ ما يكونون بالسحرةِ والمشعوذين والأفّاقين، أو بكهنةِ النارِ في الدياناتِ الوثنيّة.

لقد حطَّ التلمودُ من أقدارِ الأنبياءِ والرسلِ، بل هو يفضّلُ الحاخاماتِ عليهم، وجاء في ذلك: «اعلم أنّ أقوالَ الحاخاماتِ هي أفضلُ من أقوالِ الأنبياء»[1].

وللعفةِ والأخلاقِ الحميدةِ نصيبٌ في شريعةِ الغابِ التلمودية، تمامًا كما في أسفارِ التوراةِ؛ حيثُ يحثُّ التلمودُ على الفواحشِ، ويبيحُ الزنا بأقربِ المحارم؛ يقول: «مَن رأى أن يجامعَ والدتَه فسيُؤتَى الحكمةَ، ومَن رأى أنه يجامعُ أختَه فمِن نصيبِه نورُ العقل»[2].

ويبيحُ التلمودُ لليهوديِّ اللواطَ معَ الأجنبيِّ، لكن بشرطِ أن يكونَ اليهوديّ هو الفاعلَ.. يقولُ تلمودُ الغاب: «إنّ الزنَى بغيرِ اليهودِ -ذكورًا كانوا أم إناثًا- لا عقابَ عليه، لأنّ الأجانبَ من نسلِ الحيوانات»[3].

أمّا عنِ اللواطِ بالزوجةِ اليهوديةِ فقد جاءَ في التلمود: «اللواطُ بالزوجةِ جائزٌ لليهوديِّ، لأنّ الزوجةَ بالنسبةِ للاستمتاعِ بها كقطعةِ لحمةٍ اشتراها منَ الجزّارِ، ويمكنُه أكلُها مسلوقةً أو مشويّةً حسبَ رغبته»[4].

(1) المسيح المنتظر وتعاليم التلمود: ص 161.

(2) إسرائيل والتلمود: ص 68.

(3) المسيح المنتظر وتعاليم التلمود: ص 159.

(4) إسرائيل والتلمود: ص 69.

وقد وصلت حالةُ الانحطاطِ في تعاليمِ التلمودِ وتوجيهاتِه بأنّه لا يرى بأسًا في ارتكابِ المعاصي، ما دامت عزيمةُ اليهوديِّ فاترةً عاجزةً عن مقاومةِ الرغبةِ، وقد جاء بذلك: «مصرّحٌ لليهوديِّ أن يسلِّمَ نفسَه للشهواتِ، إذا لم يمكِنْهُ مقاومتُها»[1].

ولخيانةِ العهودِ والوعودِ والكذبِ نصيبٌ كبيرٌ، فكلُّ ذلك مباحٌ، حسبَ ما ذكرَه التلمودُ: «مصرّحٌ لك أن تحلِفَ أيمانًا كاذبةً؛ ولليهوديِّ أن يؤدّيَ عشرين يمينًا كاذبةً، ولا أن يعرِّضَ إخوانَه لضررٍ ما»[2]، وقد غالَى كهنةُ التلمودِ وحاخاماتُه، فأباحوا الكذبَ في اليمينِ إلى مئةِ مرّةٍ، أمّا السببُ في تلك المغالاةِ فيعودُ لكونِنا حيواناتٍ لا اعتبارَ لها، وقد جاءَ في التلمود: «يجوزُ لليهوديِّ أن يحلفَ مئةَ يمينٍ كاذبةٍ عند معاملتِه باقي الشعوبِ، إذ إنّ اليمينَ جُعلت لحسمِ النزاعِ بينَ الناسِ، أمّا لغيرِ اليهودِ منَ الحيواناتِ فلا اعتبارَ لها»[3].

لقد اصطنعَ اليهودُ -عبرَ كهنتِهم وأحبارِهم- شرائعَ نسجُوها من وَحيِ تراثِهِمُ المصطنَعِ، فغدت بذلك التوراةُ والتلمودُ، وما بينهما وما بعدَهما[4]، شرائعَ غابٍ مقتصرةَ المنافعِ على شعبِ اللهِ المختارِ دونَ غيرِه منَ الأغيارِ، فشريعةُ الغابِ خُلقت لحمايةِ دمِ اليهوديِّ ومالِه وأرضِه، أمّا الأمميّونَ فليسَ لهمُ الحقُّ أن يستفيدوا من منافعِ شريعةِ الغابِ أبدًا، لأنّهم غيرُ معتبَرينَ في نظرِ التشريعِ أصلًا إلا دوابَّ وحيواناتٍ، لذلك دمُهم مباحٌ ومستباحٌ، ومالُهم مباحٌ مستباحٌ، وقد جاء في التلمودِ:

---

(1) إسرائيل والتلمود: ص 69

(2) إسرائيل وعقيدة الأرض الموعودة: ص 305

(3) المسيح المنتظر وتعاليم التلمود: ص 159- 160

(4) سنأتي على شرح المقصود بهذه المسألة في الفصول القادمة من هذا البحث -إن شاء الله تبارك وتعالى-.

«لليهوديِّ، لا تُقرِضْ بالرِّبا، وللأجنبيِّ، لا تُقرِض إلّا بالربا»[1].

«السرقةُ غيرُ جائزةٍ منَ اليهوديِّ، ومسموحٌ بها إذا كانت من مالِ غيرِ اليهوديِّ، والسرقةُ من غيرِ اليهوديِّ لا تعتبرُ سرقةً، بلِ استرداداً لمالِ اليهوديّ، إذ إنّ العالمَ كلَّه لم يخلَق إلّا من أجلِ اليهود»[2] «ويجوزُ لليهوديّ أن يشهدَ زورًا، وأن يُقسِمَ على ذلك حسبَ ما تقتضيهِ مصلحتُه مع غيرِ اليهوديّ»[3]، «ويجب على كلِّ يهوديٍّ أن يبذلَ جهودَه لمنعِ استملاكِ باقي الأممِ في الأرضِ، لتبقى السلطةُ لليهودِ وحدَهم»[4].» ولا قرابةَ بيننا وبين الأممِ الخارجةِ عن دينِ اليهود، لأنّهم أشبهُ بالحمير، ويعتَبِرُ اليهودُ بيوتَ الأممِ زرائبَ للحيوانات»[5].

لقد فضحَ المولى اليهودَ بتلك الأسفارِ التي تجلّت فيها الشخصيةُ اليهودية الوضيعةُ الكاذبةُ المراوغة، حيث غدا الغرورُ والتكبرُ والاستعلاءُ المهيمن على الشخصية اليهودية نابعـًا من إيمانهم بتلك الشرائع التراثية الضالة المضللة، التي غدتِ الداءَ والوباءَ؛ لا الدواء والشفاء.

لقد سوغت شريعةُ الغابِ لليهودِ استحلالَ الحرامِ بأدنى الحِيَلِ وأبخسِ الأثمانِ، فمُغالاةُ اليهودِ في تقديسِ حاخاماتِهم وكهنتِهم وأحبارهم هي ما مهّدَ لهؤلاء المغضوبِ عليهم ومضللي الضّالين أن يتجرَّؤُوا على الله، وأن يتطاولوا على رسلِه وأنبيائه، ليحرّفوا الوحيَ الربانيَّ وهم مطمئنون إلى أنّ أتباعَهم -بشريُّو الخلقةِ

(1) المسيح المنتظر وتعاليم التلمود ص 158

(2) إسرائيل والتلمود: ص 62

(3) إسرائيل والتلمود: ص 70

(4) إسرائيل والتلمود: ص 59

(5) المسيح المنتظر وتعاليم التلمود: ص 156

حيوانيُّو الأخلاقِ- سوفَ يسيرون خلفهم كما الدوابِّ السائرةِ خلفَ شهواتِها الحيوانيةِ الكفرية اللاإنسانية، حيث قال -تباركَ وتعالى-: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴾[1].

فشتّان شتّان بين الشريعةِ الإسلاميةِ الربانية، وبين شرائعِ التراث اليهودية، شتان ما بين الحقّ والباطلِ، شتان ما بين شريعةِ اللهِ وشريعة أعداء الله، أعداءِ الإنسانية والاستقامة والطهارة.

أو لم يقُلِ المولى عنهم: ﴿مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾[2]. صدقَ اللهُ العظيمُ، وكذبَ الأحبارُ المجرمون العصاةُ المنحرفون.

الفرقان.. ناسخ ناموس موسى

مع أنّنا لا نعملُ بالشرائع والنواميسِ السماويةِ السابقة لأنّها منسوخةٌ بالشريعةِ الإسلاميّة الربّانيّة، والعملُ إنّما يكون بالناسِخ -أي الفرقان- لا بالمنسوخِ -أي التوراةَ والإنجيلَ اللذين أنزلهما الله -عزّ وجل- على موسى وعيسى -عليهما السلام-، إلّا أنّ اللهَ أوجبَ علينا الإيمانَ القاطعَ بتلك الشرائعِ الربّانيّة وبالرسلِ المنزلة عليهم، لأنّ الإيمانَ بذلك إيمانٌ بحقائقَ وُجدت؛ فالإيمانُ بها تصديقٌ بخبرِ اللهِ -جلَّ وعلا- وخبرِ رسولِه محمّدٍ -صلّى الله عليه وسلّم-.

فلا إيمانَ لمَن كذّبَ اللهَ ورسولَه، إذ قال اللهُ -في الفرقان- مخبراً بصفةِ إيمانِ المؤمنين: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ

(1) سورة الأحزاب: الآية 67

(2) سورة النساء: الآية 46

وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾[1]، فهم يؤمنون بجميع الكتب والرسل، ولا يفرّقون بينهم بالإيمانِ ببعضهم، والكفرِ بآخرين، كما فعلَ اليهودُ الذين كفروا أوّلًا بموسى، ثمّ عيسى، ثمّ محمّدٍ -عليهمُ السلام- ثمّ اخترعوا لأنفسِهم شريعة منحرفةً لا تمتُّ لما أنزلَه اللهُ من شرائعَ بصلةٍ؛ بل إنّها تمثِّلُ النقيضَ لِما أنزله اللهُ -عزَّ وجلَّ- من شرائعَ ربّانيّةٍ، ختَمَها ونسخَها بالفرقانِ، بالقرآن، بالإسلام.

وقد امتثلنا -نحن المسلمين- لِما أمرَنا اللهُ -جلّ وعلا- به عندما قال: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾[2].

أمّا منَ الأسباب التي حتّمت علينا الإيمانَ بتلك الشرائعِ السماويّة المنسوخةِ مصدرُها، فهيَ منزلةٌ من عندِ اللهِ الواحدِ الأحد، قال اللهُ -جلّ وعلا- ﴿:إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ﴾[3].

ومن الأسباب أيضًا مقصدُها: فمقصدُ الشرائعِ السماويةِ تعبيدُ العبادِ لربِّ العبادِ، وإخراجُ العبادِ من عبادةِ بعضِهم بعضًا، إذ قال اللهُ -جلّ وعلا-: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾[4].

ومن الأسبابِ أيضًا: أنّ الشرائعَ السماويةَ تقرّرُ القواعدَ العامةَ التي لا بدَّ أن تعيَها البشريّةُ كافّةً في مختلفِ العصورِ؛ كقاعدةِ الثوابِ والعقاب؛ وهي أنّ الإنسانَ يحاسَبُ بعملِه، فيعاقَبُ بذنوبِه وأوزارِه، ولا يؤخَذُ بجريرةِ غيرِه، كما يُثابُ بسعيِه،

(1) سورة البقرة: الآية 285

(2) سورة البقرة: الآية 136.

(3) سورة النساء: الآية 163.

(4) سورة الأنبياء: الآية 25.

وليس له سعيٌ غيرُه، فليس للهِ -عزَّ وجلَّ- شعبًا اصطفاه واختاره للتسيّدِ على الشعوبِ الأخرى واستعبادِها كما لو أنّ تلك الشعوبَ دوابٌّ سائبةٌ وُجدَت لخدمةِ شعبِ اللهِ المختار!، قال الله: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ* وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ* أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ* وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ* وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ* ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ﴾[1].

ومن تلك المبادئِ السماويةِ «العدل»: ذلك أنّ اللهَ هو العدلُ، فكلّ الشرائع الربّانيّة أمرت عباد الله بالعدل بالميزان وبالقسط.. إذ قال الله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾[2].

وهناك العديدُ من المبادئ السماويةِ في تلك الشرائعِ الربّانية مثلِ: الصلاة، والصوم، وغيرها... ؛ لذلك سنكتفي بما تقدّمَ، ونعودُ للفرقانِ الناسخِ لتوراةِ اللهِ وناموسِ موسى المنسوخِ، فكلاهُما حقٌّ، وكلُّهم من عندِ اللهِ؛ القرآنُ والتوراةُ والإنجيلُ، فاللهُ أنزلَ شرائعَه لتكونَ المهيمنةَ على حياةِ الناس، والحاكمةَ بينهم بالعدلِ الربّانيّ، ومنَ الضلالِ الذي تلبّسَ به الناسُ تغييرُ هذه الشرائعِ الربّانيّةِ وتبديلُها، فقد كانتِ الشرائعُ السابقةُ غيرَ معصومةٍ منَ التلاعبِ والتغييرِ والتبديلِ والضياع؛ لذلك تمكّنَ الضالّون والمغضوبُ عليهم من أن يُدخلوا فيها ما ليس منها، فقلَبوا الحقَّ باطلًا، والباطلَ حقًّا، وقد ذمَّهمُ اللهُ -جلّ وعلا- لتحريفهم ما أُنزلَ إليهم من ربّهم، وعن ذلك قال المولى: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾[3].

ومن تحريفهم ما أخبرنا الله به عنهم: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ

(1) سورة النجم: الآيات 36-41.

(2) سورة الحديد: الآية 25.

(3) سورة المائدة: الآية 13.

يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾[1].

أمّا الفرقان فقدِ امتازَ بحفظِ اللهِ له، فلم يستطعِ الضالّون والمغضوبُ عليهم تبديلَه أو تغييرَه بشرائعِ غابٍ من صنعِ أيديهم، رغم محاولاتِهم المستميتةِ لفِعل ذلك على مرِّ العصور وامتدادها، متوهّمين بقدرتِهم على ذلك كما، سبقَ لهم فعلُه بالتوراة والإنجيل.

لذلك بقيَ القرآنُ الكريمُ محفوظًا بأمرِ الله، وبقيَ الإسلامُ دينُ اللهِ الذي أنزلَه على جميعِ رسلِه وأنبيائِه هو الدينَ الربّانيَّ الواحدَ الأوحدَ، الناسخَ لا المنسوخ، الحقَّ لا الباطل، وقال الله: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإِسْلَامُ﴾[2]. وقال الله: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[3].

والإسلامُ هو: استسلامُ كلِّ رسولٍ (موسى، وعيسى، ومحمّد) ومَن سبقَهم منَ المرسلين؛ هم وأتباعُهم لله، وخضوعُهم وطاعتُهم له؛ بفِعل ما يأمرُهم اللهُ به، وترك ما ينهاهمُ اللهُ عنه.

لذلك كانتِ الشريعةُ الإسلاميةُ لسَعتِها وشمولِها كأنّها شرائعُ الأنبياء، اجتمعت في هذه الشريعةِ الواحدةِ الخاتمةِ الناسخةِ، وقد تحدّثَ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ عن هذه المسألةِ، فقال: «الأصولُ الثابتةُ بالكتابِ والسنةِ والإجماعِ، هي بمنزلةِ الدينِ المشتركِ بينَ الأنبياء، ليس لأحدٍ الخروجُ عنها، ومَن دخلَ فيها كان من أهلِ الإسلامِ المحضِ، وهم أهلُ السنةِ والجماعة، وما تنوّعوا فيه من الأعمالِ والأقوالِ المشروعةِ

---

(1) سورة البقرة: الآية 79.

(2) سورة آل عمران: الآية 19

(3) سورة آل عمران: الآية 85

فهو بمنزلةِ ما تنوعَت فيه الأنبياء»[1].

لقد نسخَ اللهُ ناموسَ موسى وما سبقَه وما تلاه بالقرآنِ الكريم، بالشريعةِ الإسلامية؛ تلك الشريعة التي أُنزلت من عند اللهِ لتسعَ حياةَ الإنسانِ من كلِّ أطرافها، وحياةَ المجتمعِ الإنسانيِّ بكلِّ أبعادِها، فلا تضيقُ بالحياة، ولا تضيقُ الحياة بها، وحسبُنا أنّ اللهَ الذي شرعَها أراد لها أن تكون كذلك، ومتى أراد اللهُ ذلك فلا رادَّ لحُكمِه، إنّ الله إنّما يقولُ للأمرِ كن فيكون، ولقد شاء أن تكونَ هذه الشريعةُ الإسلاميّةُ المباركةُ الخاتمةَ الناسخةَ كاملةً... كاملة...، وقال الله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾[2].

إنّ من أخصِّ خصائصِ الشريعةِ الإسلاميّةِ الناسخةِ لِما سبقَها من شرائعَ، هو نظرتُها الشاملةُ للإنسانِ الذي كرّمَه اللهُ -عزَّ وجلَّ- على خلقِه كافّةً؛ فالشريعةُ الإسلاميةُ تنظرُ إلى الإنسان على أنّه وحدةٌ واحدةٌ، فهي تعنى به وتعالجُه من كلِّ جوانبِه، تعالجُ تصوّراتِه، وعقيدتَه، وقيمَه، وموازينَه، وأخلاقَه، وعلاقاتِه داخلَ مجتمعِه وخارجَه، ولا تنفصمُ هذه المعالجاتُ والرعايةُ بعضُها عن بعض.

أمّا عندما يشرّعُ العبادُ للعبادِ، وعندما يشرّعُ الكهنةُ والأحبارُ شرائعَ غابٍ، ترفعُ منَ اليهودِ إلى أعلى مراتبِ الخلقِ والقداسةِ والسموِّ وصولًا لتأليههم، وتحطُّ من قيمةِ باقي خلقِ اللهِ إلى ما دونَ مرتبةِ الدوابِّ والأنعامِ، حيث تتجلّى بتلك الشريعةِ كلُّ معالمِ التنافرِ والتناقضِ والعنصريّة واللاإنسانيّة.

لذلك أرسلَ اللهُ رسولَه بالفرقانِ، ليصحّحَ هذه الشرائعَ الفاسدةَ، وهذا الانحرافَ

(1) مجموعة الرسائل المنبرية: 3/ 134.

(2) سورة المائدة: الآية 3.

الكفريّ، فنجدُ المولى يبيّنُ لليهود ويوضّح لهم ما هم فيه منَ انحرافٍ وضلال، نجدُه ينذرُهم ويعاتبُهم ويحمّلهم مسؤوليّةَ أفعالِهم، بعدما تمادَوا فأعطَوُا العصمةَ بعضُهم لبعضٍ، وما هم بمعصومين، ما هم برسلٍ ولا أنبياء، وتمادَوا فعطَّلوا نصوصَ الكتبِ السماويّة، قال -عزَّ وجل- في سورة المائدة: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾[1]، وقال الله: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ﴾[2].

ونختمُ هذا المبحثَ بهذهِ الآيةِ الكريمة من سورة النمل: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[3].

أمّا وقد ختمنا هذا المبحثَ والفصلَ، فسننتقلُ إلى فصلٍ نخصّصُه للصهيونيةِ، كونِها ناموسًا خلقَه كهنةُ السياسة، لكهنةِ التوراة والتلمود، خالقين بذلك شرائعَ سياسيةً دينية ناظمة لشريعةِ الغاب اليهوديّة...

---

(1) سورة المائدة: الآية 77.

(2) سورة التوبة: الآية 31.

(3) سورة النمل: الآية 76.

٤

الفصلُ الرابع

الصهيونية.. سِفرُ كهنةِ السياسة

المبحث الأوّل: حقيقةُ الصهيونيةِ ونشأتُها وأهدافُها

إنّ الصهيونيةَ -في حقيقتِها- سفرٌ وشريعةٌ خلقهما كهنةُ السياسة اليهودُ -غيرُ المؤمنين باليهودية كدينٍ، وبموسى كرسول- وذلك على عكسِ ما يظنُّه الكثيرون من أنّ الصهيونيةَ حركةٌ دينيةٌ قديمةٌ، وأنها مرتبطةٌ بما وردَ من الوعودِ لإبراهيم الخليل -عليه الصلاةُ والسلام-.

والواقعُ أنّها ليست بالجماعةِ الدينية، وليست بالحركةِ القديمة في اليهود أنفسِهم، ولكنّها جماعةٌ سياسيةٌ تابعةٌ لقيامِ الدولةِ وسقوطِها في بيت داود.

فغايةُ ما بلغَه إبراهيمُ -عليه السلام- تحت قمّةِ جبلِ صهيون في مدينة القدس أنّه «اشترى قطعةَ أرض لتكون قبرًا له هناك[1]»، أمّا جبلُ صهيونَ فهو عبارةٌ عن تلّةٍ مرتفعةٍ عن هضبةِ مدينةِ القدسِ القديمة، ويقعُ في الناحيةِ الجنوبية الغربية منها، ويفصلُ بينهما وادٍ قديمٌ يُعرَف باسم (وادي الترابيّون) واسم (وادي الجبانة)، حيث كان هذا الوادي مكانًا لدفنِ الموتى؛ فعُرف بهذا الاسم.

وقد كان جبلُ صهيون المعروف أيضًا باسم (جبل أكرا)، وبإشرافِه على هضبةِ المدينةِ يشكّل موقعًا إستراتيجيًّا يتحكّمُ فيها من الداخل، وقد اتّخذَ منها اليبوسيّون بناةُ المدينةِ الأوائلُ وسكّانُها مقرًّا للحكمِ، فبنَوا عليه قلعةً حصينةً، بقيت في أيديهم إلى أن جاءَ داودُ إلى القدسِ في السنةِ الثامنةِ من تولّيهِ الحكمَ في جبل جرزيم في

(1) سفر التكوين: إصحاح الثالث والعشرين في العهد القديم.

نابلس، فطردَ اليبوسيّين منَ القلعةِ، واستولى عليها وسمّاها (مدينة داود)، ثمّ عُرف هذا الجبلُ باسمِ صهيونَ، من واقعِ إضفاءِ هالةٍ من القداسةِ والبعدِ التراثيِّ المصطنَع، الذي خلّدَ داودَ في قلوبِ اليهودِ، ويثيرُ في نفوسهم ذكرياتِ أيّامِه التي اختلقوا جُلّها في شرائعِهم التراثيّة، بل إنّ اليهودَ قدِ اتّخذوا منِ اسمِ هذا الجبلِ (صهيون) عنوانًا قوميًّا، وراحوا يروّجون له في العصورِ القديمةِ والحديثة كعنوانِ تجمُّعٍ لهم.

وإذا ما عُدنا إلى كلمةِ (صهيون) نفسِها فلن نجدَ لها أصلًا متّفقًا عليه في اللغةِ العبرية، وأكثرُ الشرّاحِ يرجّحونَ أنّها عربيّةُ الأصلِ، وأنّ لها نظيرًا في اللغةِ الحبشيّة، وأنّها من مادةِ العونِ والتحصينِ، وكانت فعلًا في حصونِ الروابي العاليةِ. والمقصودُ بالعربيّةِ هنا لغةَ الأُصَلاءِ من أبناءِ الجزيرةِ الذين سكنوا أرضَ فلسطين قبل هجرةِ العبرانيّين بمئاتِ السنينَ، وهمُ الذين أطلقوا على الأرضِ اسمَ «أرض كنعان»، بمعنى الأرضِ الواطئة[1].

إنّ الصهيونيةَ في الزمنِ القديمِ لم تكن عقيدةً دينيةً، بل كانت نزعةً سياسيّة، ثمّ ذهبَ الأملُ في نجاحِها السياسيّ؛ فانقطعتِ العلاقةُ بينها وبين معناها الجغرافيّ (جبل صهيون) حيث تحوّلت إلى فكرةٍ لا تتعلّقُ بمكانٍ معيّنٍ، ولا تتطلّبُ العودةَ إلى فلسطين؛ ولذلك ناهضَها المتديّنون منَ اليهودِ عندَ ظهورِ الدعوةِ إليها، واعتبروها تجديفًا وإنكارًا للمسيحِ المنتظرِ في عالمِ الروح! فتلاقت عقيدةُ المسيحيّين المؤمنين بالمسيحِ -عليه السلام- وعقيدةُ اليهودِ الذين ينتظرونَه في آخرِ الزمانِ، فاتّفقتا على شيءٍ واحدٍ؛ وهو الفصلُ بين الصهيونيةِ السياسيّةِ والفكرِ الدينيّ[2].

(1) عباس العقّاد: الصهيونية العالمية ص 10-18

(2) عباس العقّاد: الصهيونية العالمية ص 10-18

والواقعُ أنّ الصهيونيّةَ الحديثةَ كأختها القديمة، فكلتاهما وليدةُ السياسةِ والسياسيّين، لا الدينِ والمتديّنين؛ فمنذ القرنِ الأوّلِ للميلادِ لم يطرأ على الصهيونيّةِ شيءٌ جديدٌ قبلَ القرنِ التاسعِ عشر، فكلّ ما عَرفَه اليهودُ عنِ الصهيونيّةِ في عصرِ السيّدِ المسيحِ بقيَ كما كان في القرونِ الوسطى، وفيما تلاها من قرونِ النهضةِ والإصلاحِ إلى أوائل القرنِ التاسع عشر، أي إلى القرنِ الذي يصحُّ أن يُسمّى في وقتٍ واحدٍ بعصرِ الثورةِ، وعصرِ الاستعمارِ، وعصرِ الصناعةِ الكبرى، ولكلِّ صفةٍ من هذه الصفاتِ علاقةٌ باليهودِ أتباعِ شريعةِ الغاب لا تخفى على النظرةِ العاجلة، ولكنّها تستحكمُ وتتغلغلُ في جميعِ الجوانب، بعد إمكانِ النظر إليها[1].

وقد حدثَ غيرَ مرّةٍ أنّ اليهودَ كانوا ينصرون كلَّ مُغِيرٍ على البلدِ الذي يقيمون فيه، وحدثَ غيرَ مرّةٍ أنّهم كانوا يصاحِبون الجيشَين المتقاتلَين لشراءِ الأسرى، ذلك لأنّهم أسيادُ سوقِ النخاسةِ، وبيعِ المؤونةِ وربا القروضِ والمساوماتِ الوضيعة، حتّى وقرَ في أخلادِ الأممِ أنّهم شعبٌ غريبٌ يعيشُ حسبَ شرائعَ مريبة.

أمّا شعورُ اليهود نحو بيتِ المقدسِ خلالَ تلك القرونِ فلم يتجاوز شعورَ الحنينِ الواهمِ إلى مجدٍ قديمٍ، اصطنعَه لهم كهنةُ شرائعِ التراث، فكان انتظارُ الوقتِ الموعودِ في الزمنِ الذي يختارُه الله، ولا شأنَ لهم بتقديمِه أو تأخيرِه مع المشيئة الإلهيّة[2].

وأصبحتِ الصلواتُ التي يكرّرونَها كلَّ يومٍ أو كلَّ أسبوع طلبًا لرضا الكهنةِ وللرضوان الإلهيّ ألفاظًا تُعادُ وتكرَّرُ على الأكثرِ بغيرِ معنىً، كأنّها الدعواتُ التي يردّدُها أهلُ الغاب في شريعةٍ لا يفقهون معناها.

---

(1) عباس العقّاد: الصهيونية العالمية ص10-18.

(2) عباس العقّاد: الصهيونية العالمية ص80.

وقد سجّلَ التاريخُ الأوروبيّ على اليهودِ أنّهم كانت لهم مشاركةٌ في كلِّ فتنةٍ وكلِّ إغارةٍ، وقد عزيَت هذه الأفعالُ -في الغالب- إلى التدبيرِ المتعمّدِ من قِبلِ اليهودِ لهدمِ المجتمعِ المسيحيّ من داخلِه، وتقويضِ دعائمِ الدولةِ والكنيسةِ في وقتٍ واحدٍ. واستمرَّ الوضعُ على هذه الحالِ رغم إثارةِ مسألةِ القوميّةِ اليهوديّةِ؛ حيث كانتِ القوميةُ مسألةً تُثارُ على كلِّ لسانٍ في البلاد التي يكثرُ فيها اليهودُ خاصةً:(بولونيا، ورومانيا، وإسبانيا، وهولندا)، فخطرَ لليهودِ أن يطالبوا بقوميةٍ مستقلةٍ، وأن يطالبوا لهذه القوميةِ بوطنٍ تساعدُهم الدولةُ على احتلاله[1].

أمّا أين يكونُ ذلك الوطنُ؟ أو كيف يكونُ؟ فهذا أمرٌ لم يكنِ اليهودُ قدِ استقرَّ لهم رأيٌ عليه بعدُ، إلّا أنّ شعورَهم بسهولةِ الحصولِ على الوطنِ القوميِّ دفعَهم إلى فكرةِ الدولةِ الدينيةِ، أي الدولةَ اليهوديةِ، غيرَ مكتفينَ بوطنٍ قوميٍّ لمجرّدِ التجمّعِ والسكنِ والتعمير. لكنّهم حتّى هذه المرحلةِ لبثُوا متردّدينَ في اختيارِ الموقعِ بين أوغندة في إفريقيا، أو إقليمٍ من الأقاليمِ الحاليَّةِ في الولاياتِ المتّحدة الأمريكيّة، وبقعةٍ منَ البقاعِ على البحرِ الأسود بين روسيا والبلقان.

وبقيت فكرةُ الوطنِ القوميِّ أو فكرةُ الدولةِ اليهوديّة كالسحابِ الذي يتشكّلُ على حسبِ أوهامِ الناظرين إليه، حتّى أوشكَ القرنُ التاسع عشر أن ينتهيَ دون أن تستقرَّ على وضعٍ محدودٍ، وهنا تجلّى دورُ الحركةِ الصهيونيةِ كحركةٍ أيديولوجيّةٍ تقدّمُ نفسَها على أنّها تعبيرٌ عن رغباتِ (قبيلة اليهود) وطموحاتِهم في العصرِ الحديث، وفي مقدّمتها العودةُ إلى أرضِ إسرائيلَ، على حدِّ تعبيرِ هذه الحركةِ التي خلقها كهنةُ السياسةِ اليهوديّة ودهاتُها.

(1) عباس العقّاد: الصهيونية من الميلاد إلى القرن التاسع عشر، ص85.

والحركةُ في أسسِها العلميّةِ قريبةٌ منَ الحركاتِ الاستعماريّةِ الكولنياليّةِ التي انتشرت في القرنِ التاسع عشر ومطلع القرن العشرين.

إن أولَ منِ استعملَ مصطلحَ الصهيونيةِ هوَ المفكرُ والكاتبُ اليهوديُّ نتانبيرنبويم (1864- 1937) مقتبسًا المصطلحَ من اسمِ جبل (صهيون) للإشارةِ إلى الحركةِ التي تؤيدُ عودةَ الشعبِ اليهوديِّ إلى أرضِ فلسطينَ، وتحقيق أحلامه وأُمنيّاته[1].

وتجذرتِ الفكرةُ الصهيونيةُ منذ مئاتِ السنين ببروزِ مجموعةٍ منَ الحركاتِ السياسيةِ اليهوديةِ تعبئُ اليهودَ عقديًا من خلالِ المناداةِ بالعودةِ إلى أرضِ (إسرائيل)، وكانت هذه الحركاتُ تثيرُ الحماسَ في نفوسِ اليهودِ، وتعِدُهم باقترابِ موعدِ الخلاصِ، وتحرضُهم على الاستعدادِ للهجرة، مستغلة بعضَ الظروفِ الاقتصادية والسياسية والاجتماعية التي كان يمرُّ بها اليهودُ في الدولِ التي حلُّوا فيها، كانتِ الشعائرُ والطقوسُ والعصبيةُ العِرقيةُ جامعًا ومدرسةً لإحياءِ الشعور بالانتماء[2].

والواقعُ أنّ مجيءَ اليهودِ إلى فلسطينَ -في السابقِ- كان لأهدافٍ دينيّةٍ محضةٍ، مثلِ الحجِّ والتبرّكِ من قبورِ الكهنةِ والأولياءِ اليهود، أو للموتِ والدفنِ في الأرضِ المقدّسةِ، وما إلى ذلك من خزعبلاتٍ وخرافاتٍ اختلقتها شريعةُ الغابِ، ورسَّختها في عقول اليهود.

ولكن من الواضحِ أنّ مثلَ هذا التوجّهَ قد تغيَّرَ ابتداءً من النصفِ الثاني منَ القرنِ التاسعِ عشرَ، في أعقابِ ظهورِ تيّاراتٍ وحركاتٍ فكريّة وسياسيّة وأدبيّةٍ انصهرَت في

(1) يقال إن بيرنبويم هذا قد انخرط في حزب (اغودات يسرائيل) المتدين، وأصبح من كبار معارضي الصهيونية، لكون حزبه لا يؤمن بـ(العودة) السياسية إلى فلسطين، عبد السلام ياسين: الصهيونية العائق الأكبر، ص4.

(2) التونسي: الخطر اليهودي، ص142.

بوتقةٍ صهيونيّةٍ دعت بوضوحٍ إلى الهجرةِ إلى فلَسطين على أساسٍ قوميّ، لتجسيدِ فكرةِ (إعادةِ بناءِ صهيون) وتحقيقِ آمالِ القبيلةِ اليهوديّةِ بالعيشِ في وطنِ الأجداد[1].

وقد ظهرت بوادرُ الحركةِ الصهيونية من خلالِ كتابات مجموعةٍ من المفكرين اليهودِ الدينيين والسياسيين، أمثالِ الحاخام يهودا حي القلعي[2] (1798- 1878) والحاخام تسفي هيرشكاليشر[3] (1795-1874)، وغيرهما ممّن دعُوا إلى هجرة يهوديةٍ في مطلعِ القرنِ التاسعِ عشرَ إلى فلسطينَ وإقامةِ مستوطناتٍ، ووضعِ الأُسسِ الثابتة (لتجديد ملك اليهود) بحسب أساطيرِ شريعة الغاب.

وظهرت أطروحاتٌ ثانيةٌ من قِبل عددٍ منَ المفكرين اليهودِ الآخَرين، أمثالِ (موشي هيرش) (1812-1875)، نادَوا بضرورةِ تحقيقِ استقلالٍ ثقافيٍّ حضاريٍّ لليهودِ باعتبارهم أقليةً قوميةً لها ميزةٌ خاصةٌ ضمنَ إطارِ الدولةِ الاشتراكية.

وظهرَ تيارٌ صهيونيٌ ثالثٌ نادى بوجوبِ اندماجِ اليهودِ في المجتمعاتِ الأوروبيةِ التي كانوا يعيشون فيها، والتوقّفِ عنِ الشعور بالغربة والحياد!، وظهرَ تيار آخرُ رأى أنّ الحلَّ الوحيدَ لمشكلةِ اليهودِ عن طريقِ توطينِهم في فلسطين، الأمرُ الذي يعني أيضًا رضا الدولِ الأوروبيةِ التي ستتخلصُ من إرثِ اليهودِ؛ كونهم كمثلِ السرطانِ الذي استوطنَ الجسدَ للقضاءِ عليه وعلى دينه المسيحيِّ، وعلى عاداتِه وتقاليده وثقافته.

وقد تعمّقَ الجدلُ والنقاشُ داخلَ التياراتِ الصهيونية السياسية والدينية في القرنِ

(1) https://amal-lmahromin.alafdal.net/t112-topic

(2) كمال الخالدي: الأرض في الفكر الاجتماعي الصهيوني، ص8.

(3) يوسف العاصي الطويل: الحملة الصليبية على العالم الإسلامي (الجذور الممارسة- سبل المواجهة) ص71.

التاسعِ عشرَ إلى أن قام هرتسل[1] بالدعوةِ إلى عقدِ المؤتمرِ الأولِ للحركة الصهيونية في العام 1897 في بازل – سويسرا[2]؛ ولهذا فإنّ هرتسل يعتبرُ المؤسسَ الحقيقيَّ للحركةِ الصهيونية، فكرًا وممارسةً. والواقعُ أن هرتسل قدِ اقتنعَ، بعدَ اطلاعِه على مجرياتِ الأمورِ والأحداث السياسية الدولية، أنّه يجبُ الاعتمادُ على دولةٍ كبيرةٍ ذاتِ نفوذٍ واسعٍ لتأمينِ الأرضِ والاستيطان للصهيونيين؛ فحاولَ معَ السلطانِ العثمانيِّ، ومعَ القيصرِ الألمانيِّ الحصولَ على الدعمِ اللازم من أجلِ تحقيقِ المشروعِ الصهيونيِّ، ولكن دونَ جدوى[3]، إلا أنّ مؤسّسَ الحركةِ الصهيونيةِ هرتسل لم ييأسْ من متابعةِ المحاولاتِ، فأجرَى اتصالاتٍ معَ القيصرِ الروسي ومع البابا، ومع شخصياتٍ سياسيةٍ عالميةٍ أخرى، إلّا أنّ ما أرادَه لم يتحقق في عهدِه –رغمَ محاولاتِه الدؤوبة– فالمسألةُ اليهوديةُ كانت في مقدمةِ القضايا التي ستقفُ أمامَ الدولِ العظمَى حينما يحينُ الوقتُ لاتخاذِ قراراتٍ مهمّةٍ، وبالفعلِ تتوجَت مساعي (هرتسل) وخلفائِه من بعدِه، وفي مقدمتِهم (حاييم وايزمان)[4] بالحصولِ على وعدِ بلفور في الثاني من تشرين الثاني 1917.

وقد تعرضتِ الحركةُ الصهيونية إلى عدةِ انقسامات، فظهرت تياراتٌ متنوعةٌ، منها: الصهيونيةُ الدينيةُ، والصهيونيةُ العمليةُ، والصهيونيةُ السياسيةُ[5]، وغيرُها، والمتتبعُ لنشاطاتِ الحركةِ الصهيونية –على وجهِ الإجمال– يجدُ أنّها نجحَت في

(1) كامل خلة: فلسطين والانتداب البريطاني، ص 132..

(2) إسماعيل ياغي: الجذور التاريخية للقضية الفلسطينية، ص55.

(3) https://amal-lmahromin.alafdal.net/t112-topic

(4) حمدان بدر: تاريخ الهاغاناة، ص 84.

(5) بيان الحوت: فلسطين القضية الشعب الحضارة، ص336.

تحقيقِ مشروعِ (بازل) الذي باركَه هرتسل، وهو المشروعُ الذي حوَّلَ الوهمَ اليهوديّ من مجردِ أطماعٍ لأقليةٍ، أو لقبيلةٍ... إلى قضيةٍ عالميةٍ تحتاجُ إلى اعترافٍ بوجودِها وتطلبُ حلًّا لها.

ونجحتِ الحركةُ الصهيونيةُ في إقامةِ مؤسساتٍ لها، مثلِ الصندوقِ التأسيسيِّ لفلسطين (كيرنهايسود)[1]، و(كيرنكييمت)[2]، وغيرِهما منَ المؤسّساتِ التي سعت إلى جمعِ الأموالِ والتبرّعاتِ من أثرياءِ اليهودِ، بهدفِ الاستيلاءِ على الأراضي في فلسطين، وإقامةِ المستوطناتِ اليهودية عليها؛ لتكونَ نواةً للدولةِ اليهوديةِ المزمَعِ الإعلانُ عنها في المستقبل[3].

وتحققَ المشروعُ الصهيونيُّ في العام 1947م، عندما اتخذتِ الأممُ المتحدةُ القرارَ رقم (181)، الداعيَ إلى إنشاءِ دولتَين في فلسطينَ؛ الأُولى يهوديةٌ، والأخرى عربية.

أمّا على أرضِ الواقعِ، فقد نجحَ اليهودُ في تجسيدِ وهمِهم الذي خلقَته شريعتُهم المحرَّفةُ في أذهانِهم، وخلقَتهُ الصهيونيةُ في فكرِهم السياسيِّ إلى واقعٍ ملموسٍ؛ دولةٍ في العام 1948، على دماءِ الفلسطينيين وأنقاضِ مُدُنِهم وقراهم، حيث حلَّ الدمارُ والموتِ والاقتلاعِ والتهجير.

وبرغمِ نجاحِ الحركةِ الصهيونية في مسعاها، إلّا أنّها تعرضَت إلى قرارٍ صادرٍ عنِ الأممِ المتحدةِ في العام 1975، اعتبرَها حركةً عنصريةً، لكنّ القرارَ أُلغِي في العام 1992 بفِعلِ قوّةِ اللوبي الصهيونيِّ في الولاياتِ المتحدةِ الأمريكيةِ، وقوةِ الحركةِ

(1) وزارة الدفاع اللبناني، مؤسسة الدراسات الفلسطينية: القضية الفلسطينية والخطر الصهيوني، ص77.

(2) مؤسسة الدراسات الفلسطينية، فلسطين تاريخها وقضيتها، ص48.

(3) وزارة الدفاع اللبناني، مؤسسة الدراسات الفلسطينية: القضية الفلسطينية والخطر الصهيوني، ص111.

الصُّهيونيةِ العالميةِ، والتي يتحكّمُ قادتُها بمقاليدِ صنعِ القرارِ في الكثيرِ من دولِ العالم.

ومع نجاحاتِ الحركةِ الصهيونيّةِ في الخارجِ إلّا أنّها واجهت معارضةً شرسةً من عددٍ منَ الطوائفِ الدينيّةِ اليهوديّة، ومنها (طائفة الحريديّة)؛ وهي طائفةٌ تضمُّ -وفقَ السِّجلاّتِ الرسميةِ في الكيانِ الكولنياليّ الاستعماري اليهوديّ في فلسطين- قرابةَ عشرةِ آلافِ نسمةٍ، وهؤلاءِ لا يعترفونَ بوجودِ هذا الكيانِ وأجهزتِه الإداريّةِ والتنظيميةِ العاملة، وتقاطعُ هذه الطائفةُ الانتخاباتِ التي تَجري في الكيان اليهوديّ كافّةً، سواءٌ كانتِ انتخاباتِ (الكينست) المجلسِ التشريعيِّ، أوِ انتخاباتِ السلطاتِ المحلّيّةِ والبلديّة[1].

وقد رأتِ الجماعاتُ الحريديّةُ في الصهيونيةِ عدوًّا خطيرًا جدًّا لها منذ انطلاقِ الحركةِ الصهيونيةِ في نهايةِ القرنِ التاسعِ عشر؛ حيث اعتبر الحريديم أنّ الصهيونيّةَ حركةً علمانيّةً تضمُّ كفارًا بالدينِ اليهوديِّ، يهدفون إلى إقامةِ دولةٍ علمانيةٍ تتعارضُ مع أسسِ الديانةِ اليهوديّة، وتتعاونُ مع قطاعاتٍ علمانيةٍ معارِضةٍ للدينِ اليهوديّ، أمّا السببُ الأساسيّ للمعارضةِ فيعودُ إلى اعتقادِ هذه الطائفةِ بأنّ المسيحَ المنتظرَ والمنقذَ (المخلّص) لم يأتِ بعد، وعند مجيئِه سيجمعُ الشتاتَ اليهوديَّ من أصقاعِ الأرضِ، وتقومُ الدولةُ اليهوديّة، وذلك وفقَ أسسِ شريعةِ الغابِ اليهوديّةِ ومبادئِها، وبالنسبةِ لهم فإنّ إقامةَ (إسرائيل) تقريبٌ لموعدِ الخلاصِ، وهذا مخالفٌ للأصولِ، ويعتبرُ في نظرِهم خطيئةً مطلقة[2].

(1) https://www.palestine-studies.org/ar/node/1650191

(2) محمد الشرعة، ونظام بركات: «الأحزاب الدينية ودورها في السياسة الخارجية في إسرائيل»، مجلة أبحاث اليرموك- سلسلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد 22، العدد 1، الأردن، جامعة اليرموك، آذار 2006، ص 53.

ومن الحركاتِ الدينيةِ التي عارضتِ الصهيونيةَ؛ حركةُ (نتوري كارتا)، أي حركةَ حرسِ المدينةِ؛ ويُطلَق هذا الاسمُ الآراميُّ على مجموعةٍ من اليهودِ المتمسّكينَ بأهدابِ الدينِ اليهوديّ، والتي تنكِرُ وجودَ كيانٍ سياسيٍّ يهوديٍّ علمانيٍّ في فلسطينَ قبلَ عودةِ المسيحِ المنتظر، أمّا أهمُّ أذرعِ الصهيونيّةِ على الإطلاقِ فهو الوكالةُ اليهوديَّةُ؛ واسمُها الكاملُ حاليًّا (الوكالة اليهودية لإسرائيل)[1].

ومن هذا المنطلقِ عملَ (حاييم وايزمان) -رئيسُ المنظّمةِ الصهيونيةِ- طيلةَ سنواتِ العشرينيّاتِ منَ القرنِ الماضي على إقامةِ الوكالةِ بالروحِ المشارِ إليها أعلاه[2]. وهكذا تشكّلت هيئتان، ولكن على أرضِ الواقعِ كان لهما رئيسٌ واحد!.

وقدِ اعترفتِ الحكومةُ البريطانيةُ وعصبةُ الأممِ المتحدةِ بهذه الوكالةِ، وتحوّلَت مؤسساتُ المنظمةِ الصهيونيةِ في فلسطينَ إلى أقسامٍ تحت إدارةِ الوكالةِ اليهوديّة، وأصبحَ استخدامُ اسمَيِ (المنظّمة الصهيونيّة والوكالة اليهوديّة) مترادفَين في فلسطين لهيئةٍ واحدة.

وأمّا المهامُّ التي أُنيطت بالوكالةِ اليهوديّةِ؛ فهي على النحو الآتي:

تطويرُ عمليةِ الهجرةِ اليهوديّةِ إلى فلسطين، وتحسينُها من ناحيةِ زيادةِ الأعداد.

1. الاستمرارُ في شراءِ الأراضي، وتحويلُها إلى ملكيّةٍ يهوديّة.
2. إقامةُ استيطانٍ زراعيٍّ أساسُه العمل العبري.
3. العملُ من أجلِ بعثِ اللغةِ والأدبِ العبريّين[3].
4. لقد كانتِ الوكالةُ اليهوديةُ -المنظمة اليهودية- خلالَ فترةِ (الانتداب)

(1) زكريا السنوار: منظمة الهاغاناة الصهيونية، ص223.

(2) حمدان بدر: تاريخ الهاغاناة، ص 84.

(3) محمد عبد الرؤوف سليم: نشاط الوكالة اليهودية، ص 247، 248.

الاستعمار البريطاني، أشبهَ بحكومةٍ يهوديةٍ مستقلّة، وتمتّعت بصلاحيّاتٍ واسعةٍ من قِبل المستعمر الإنجليزيّ، لتشرفَ بنفسِها على المرافقِ التعليميّةِ والاقتصاديةِ واليهوديّة في فلسطين.

وكان للوكالةِ لجنتان تنفيذيتان:

اللجنة الأولى في القدس: ومهمتُها تنظيمُ الهجرةِ اليهودية إلى فلسطين، ثمّ تنظيمُ الاستيعابِ لهؤلاء اليهودِ المهاجرين في المستوطناتِ، والإشرافُ على الخِدماتِ التي تقدّمُها المؤسساتُ والهيئاتُ اليهودية، والسعيُ الحثيثُ إلى إقامةِ قوّةٍ عسكريّةٍ لحمايةِ المستوطنات، وهي -في واقعِ الأمر- قاعدةُ عصابةِ (الهاغاناة)، الإرهابيةِ الدمويّة.

أما **اللجنة الثانية** في لندن: حتّى تمثّلَ المصالحَ الصهيونيةَ أمامَ الحكومةِ البريطانيّة ومؤسساتِها الإداريّة.[1] وجرى تأسيسُ **لجنةٍ أخرى** في مدينةِ نيويورك، بعد الحربِ العالميةِ الثانيةِ، بعد أن قَوِيَ نفوذُ الولاياتِ المتّحدة ودورُها على الصعيدِ الدولي، فتمَّ توحيدُ اللجنتَين التنفيذيتَين للوكالةِ اليهوديةِ والمنظمةِ الصهيونيةِ تحتَ اسمِ (المنظمة الصهيونية العالمية - الوكالة اليهودية)[2]، عامَ 1947م، وبقيَ حتى عامِ 1971م، عندما تقرَّرَ فصلُ الوكالةِ عنِ المنظمةِ الصهيونيةِ العالمية، حيث مُنحَتِ المنظّمةُ حقَّ تعيينِ نصفِ أعضاءِ قيادةِ الوكالةِ اليهوديّة، و(30٪) من يهودِ الولاياتِ المتّحدة الأمريكيّة، و(20٪) من يهودِ العالمِ، وتمَّ الاتّفاقُ على أنّ رئيسَ الوكالةِ والمنظّمةِ واحدٌ، وأنّ المحاسبَ الماليَّ والمراقبَ الماليَّ هو واحدٌ في الهيئتَين.

(1) https://www.palestinapedia.net الموسوعة الفلسطينية

(2) صبري جريس: تاريخ الصهيونية، ج2، ص40.

وقدِ اعترفَ الكنيست بموجِبِ قانونٍ أصدرَه عامَ 1952م، بأنّ المنظّمةَ الصهيونيةَ -الوكالة اليهودية- ذاتُ صلاحياتٍ لمتابعةِ عملها داخلَ الكيانِ الكولنيالي الاستعماريّ في فلسطين، بهدفِ تحسينِ عملياتِ الهجرةِ، واستيعابِ المهاجرين الجددِ في المستوطناتِ الاستعمارية (المستعمرات)[1].

وتقومُ الإدارةُ الصهيونيةُ بالإشرافِ على نشاطاتِ الوكالةِ وفعالياتِها، وتمَّ تعريفُ هذه النشاطاتِ في الميثاقِ الذي وُقِّعَ بينَ حكومةِ الكيانِ الاستعماريِ والوكالةِ في العام 1979م، وهنا **أهمُّ ما وردَ في هذا الميثاق:**

1. حملاتُ هجرةٍ واسعةٍ لتشجيعِ يهودِ الشتاتِ على الهجرةِ إلى الكيان.
2. المساهمةُ في توطينِ اليهودِ المهاجرينَ الجددِ، واستيعابُهم في الكيان.
3. المساهمةُ في الاستيطانِ الزراعيِّ داخلَ الخطِّ الأخضر.
4. دعمُ الخِدماتِ الصِّحيةِ للمهاجرينَ إلى أن يتمَّ استيعابُهم نهائيًّا داخلَ مجتمعاتِ الكيان.
5. متابعةُ هجرةِ الشبيبةِ اليهوديةِ، وتأهيلِها للحياةِ في الكيان.
6. دعمُ المؤسّساتِ التربويةِ والتعليميَّةِ والرياضيةِ، والتي تقومُ بتوفيرِ الخِدماتِ الاجتماعية، ومساندتُها[2].
7. دعمُ مؤسّساتِ التعليم العالي ومعاهدِه، ومساندتُها[3].

---

(1) https://info.wafa.ps/ar-page.aspx?id=7995

(2) وزارة الدفاع اللبناني، مؤسسة الدراسات الفلسطينية: القضية الفلسطينية والخطر الصهيوني، ص134.

(3) https://www.madarcenter.org

هـذا وقـد عملـت في الوكالـة اليهوديـة (المنظمـة الصهيونيـة) حتّـى العـام 1997م الأقسام الآتية:

1. قسمُ المالية.
2. قسمُ الهجرة.
3. قسمُ الاستيعاب.
4. قسمُ هجرةِ الأولادِ والشبيبة.
5. قسمُ الاستيطانِ القروي.
6. قسمُ تجديدِ الأحياءِ السكنيّة[1].

ولكـن هـذا الوضـعُ تغيّرَ بعـد التاريـخِ السـابق، إذِ اقتصـرَ العمـلُ علـى أربعـةِ أقسـامٍ (دوائر)، وهي:

- القسمُ الخاصُّ بإسرائيل.
- قسمُ التربيةِ والتنشئةِ اليهودية - الصهيونية-.
- قسمُ الدولِ المستقلّةِ عنِ الاتّحادِ السوفييتي سابقًا.
- قسمُ الاستيعابِ والهجرة[2].
- وتقـفُ إلـى جانـبِ كلِّ قسمٍ لجنةٌ مؤلّفةٌ من أعضـاءَ منَ الوكالةِ؛ ولها رئيسانِ؛ واحـدٌ مـنَ الكيـانِ، وآخـرُ مـن يهودِ الشـتاتِ، ورؤسـاءُ هـذه اللجانِ هـم أعضاءُ في إدارةِ الوكالةِ اليهوديةِ والمنظمةِ الصهيونية [3].

---

(1) https://oldwebsite.palestinestudies.org/ar/resources/documents/?field-doc-keywords-tid

(2) عارف العارف: النكبة، ج1، بيروت 1956، ص 78.

(3) معجم المصطلحات الصهيونية والإسرائيلية واليهودية، جوني منصور، بتصرف كبير، ص 292،451،470.

ما هذا إلّا مبحثٌ متواضعٌ حاولنا من خلالِه تلخيصَ حقيقةِ الصهيونيةِ ونشأتِها وأهدافِها، ذلك لأنّ الصهيونيةَ تحتاجُ -في حقيقةِ الأمر- إلى كتبٍ ومجلّداتٍ للخوضِ في ماهيّتِها، وآلياتِ عملِها.

إنّ للصهيونيةِ رؤيةً صلبةً تقومُ على أنّ شرائعَ التراثِ اليهوديةَ، وشريعةَ الغابِ مجرّدُ وسيلةٍ للعودةِ إلى أرضِ الميعادِ، وأنّ حربَنا ضدّها إنّما تكونُ حربَ دينٍ وعقيدةٍ؛ دينٍ وسياسةٍ، وذلك إذا ما أردنا إيقافَ تمدّدها وتفشيها، ثمّ القضاءَ عليها، فلا سلمَ ولا سلامَ معَ الصهيونيةِ، إنّما حربُ حقٍّ تزهقُ الباطل.

المبحثُ الثاني:الصهيونيةُ أوجهٌ متعدّدةٌ وهدفٌ واحد

ماهيّةُ الوجهِ الظاهرِ للصهيونية

لقد أصبحَ منَ المسلَّمِ به أنّ كهنةَ السياسةِ الصهاينةَ وأحبارَهم وأربابَ شرائعِ التراثِ اليهوديةِ ما هم إلّا وجهَين لعملةٍ عديدةِ الأوجهِ، عملةٍ تَمَترَسَ صاكُّوها منذُ خشونةِ مخالِبِهم على فنونِ السيطرةِ والتحكّمِ والتلاعبِ بالشعوبِ وحكامِها، وذلك عبرَ استعمالِ شرائعِ تراثِ الدينِ اليهوديِّ تارةً، وتشريعاتِ دهاليزِ السياسةِ وأحابيلِها تارةً أخرى، فصاكّو أبجدياتِ شريعةِ الغابِ الصهيونيةِ أجادوا آلياتِ صناعة مفاتيح الابتزاز والتورية وأسرارِها، وطرقِ استعمالِها للوصولِ إلى هدفِهم المنشودِ، والمشؤومِ؛ والمتمثّلِ بالحربِ المفتوحةِ على اللهِ، وعلى رسلِه وأنبيائِه.

كهنة شرائعِ التراثِ اليهودية وأحبارُها في العلنِ حالُهم كحالِ كهنةِ إبليسَ؛ التقوى والورعُ والسَّعيُ إلى هدايةِ اليهود إلى دينِ الربّ، أمّا في الخفاءِ والسرائرِ فهمُ الأبالسةُ الذين يناصبون الواحد الأحدَ العداءَ والمكرَ والخبثَ، ويعادونَ جميعَ بني آدمَ -عليه السَّلامُ-، فهم شعبُ الربِّ المختارُ، الذي رغمَ عداوتِهم لهم فقدِ اصطفاهم على خلقِه كافّةً، واصطفاهم ليورثَهمُ الأرضَ وما عليها من أنهارٍ وبحارٍ وجبالٍ، وبلادٍ وعبادٍ ودوابّ، ليورثهمُ السماءَ والجنّةَ، ويورثَ أعداءَهم النارَ والجحيمَ واللعنة.

إلّا أنّ الحقيقةَ التي يعلمُها كهنةُ إبليسَ، وحاخاماتُ اليهودِ وأحبارُهم عكسُ ما سلف، فهم أرذلُ وأحقرُ جنسٍ بشريٍّ خلقَه اللهُ، حالُهم في الضلالةِ واللعنةِ كحالِ إبليسَ، عليهِ وعليهم لعنةُ اللهِ وغضبُه.

كذلك هو الحالُ عندَ كهنةِ السياسةِ الصهاينة، فهم في العلنِ مجرّدُ خُدّامٍ للإنسانيّةِ، وطلّابٌ للعدالة، ساعين للمساواةِ والفلاحِ والإصلاحِ... لا يبتغون سوى إعادةِ اليهودِ إلى أرضِ الأجدادِ والآباء؛ أرضِ اللهِ المباركةِ، وذلك تجسيدًا لمشيئةِ الربِّ الذي أعطى الأرضَ المقدّسةَ لشعبِه اليهوديِّ المختارِ. هكذا تكونُ العدالةُ الربّانيّة والإنسانيّة، عبرَ إعطاءِ شعبٍ بلا أرضٍ لأرضٍ بلا شعبٍ... هذا الوجهُ الظاهرُ للصهيونيّةِ نبيّنُ ماهيّتَه بما بانَ وظهرَ لنا من أفعالِهِمُ العلنيّةِ في هذا المطلبِ من هذا المبحثِ، أمّا ما خفيَ فأكبرُ وأعظم.

المؤتمراتُ الصهيونيةُ والمطالب اليهودية

المؤتمرِ الصهيونيّ الأوّل:

عُقِدَ هذا المؤتمرُ في مدينةِ بازل (29-31 آب 1897)، وطَرَحَ هرتسل[1] فيهِ مشروعَه الذي أصبحَ يحملُ اسمَ (مشروع بازل)، وجرى انتخابُ لجنةٍ تنفيذيةٍ مكونةٍ من خمسةَ عشرَ عضوًا ولجنةٍ إداريةٍ مصغرةٍ مكونةٍ من خمسةِ أعضاءَ؛ وكتبَ هرتسل في يومياتِه: «في بازل وضعتُ الأساسَ لدولةِ اليهود». ويُعَدُّ هذا المؤتمرُ نقطةَ تحوّلٍ مهمةٍ للغايةِ في تاريخِ الحركةِ الصهيونيةِ ومشروعِها الاستعماريِّ، وذلك يعودُ إلى نجاحِ هرتسل في تجميعِ التياراتِ الصهيونيةِ المتفرقةِ في إطارٍ تنظيميٍّ واحدٍ، وتحويلِ القضيةِ اليهوديةِ من قضيةٍ ضيّقةِ الحدودِ إلى مسألةٍ تشغَلُ بالَ الساسةِ العالميّين، حين أشارَ إلى أهميةِ «السيرِ قُدُمًا نحو تنظيمِ عمليةِ بناءِ الوطنِ القوميِّ اليهوديِّ مستقبلًا».

(1) بيان الحوت: فلسطين القضية الشعب الحضارة، ص338-343.

وأعلنَ هرتسل -أمامَ هذا المؤتمرِ- أنّ الهدفَ الرئيسَ هو: «وضعُ حجرِ الأساسِ للبيتِ الذي سيسكنُه الشعبُ اليهوديُّ في المستقبل»، معلنًا في الوقتِ نفسِه أنّ الصهيونيةَ هي «عودةٌ إلى اليهوديةِ قبلَ العودةِ إلى بلادِ اليهود»[1].

المؤتمر الصهيوني الثاني:

عُقِدَ في بازل (28-31 آب 1898)، وركّزَ اهتمامَه على كيفيةِ إدخالِ الفكرةِ الصهيونية في أوساطِ الجاليات اليهوديةِ في مختلفِ أنحاءِ العالم، والإعلانِ عن إقامةِ صندوقِ الاستيطان؛ وهو الجهازُ الماليُّ للمنظمةِ الصهيونية العالمية[2].

المؤتمر الصهيوني الثالث:

عُقِدَ في بازل (15-18 آب 1899)، وناقشَ مشروعَ بازل، الذي تقدَّمَ به هرتسل في المؤتمرِ الأول[3].

المؤتمرُ الصهيونيُّ الرابع:

عُقِدَ في لندن (13-16 آب 1900)، وناقشَ الترحيلَ الجماعيَّ ليهودِ رومانيا، وأيضًا الضائقةَ التي كان يعاني منها العمالُ اليهودُ في فلسطين، وانتشارَ البطالة في فلسطين، وتركَ الكثيرين من اليهودِ مستوطناتِهم وانتقالَهم إلى مواقعَ أخرى من فلسطين، أو تركَها إلى الخارج. وطُرِحَت في هذا المؤتمرِ -لأوّلِ مرّةٍ- مسألةُ تأسيسِ (الكيرنكييمت)؛ الصندوقِ القوميِّ اليهوديّ على يدِ تسِفِي هيرششابيرا[4].

---

(1) إسماعيل ياغي: الجذور التاريخية للقضية الفلسطينية، ص55.

(2) بيان الحوت: فلسطين القضية الشعب الحضارة، ص336-338.

(3) أمين محمود: مشاريع الاستيطان منذ قيام الثورة الفرنسية حتى الحرب العالمية الأولى، ص155.

(4) صبري جريس: تاريخ الصهيونية 1862-1917م، ج1، ص158.

المؤتمرُ الصهيونيّ الخامس:

عُقِدَ في بازل (26–30 كانون الأول 1901)؛ وصدرَ فيهِ قرارٌ بالإجماعِ لإقامةِ (الكيرنكييمت)[1].

المؤتمر الصهيونيّ السادس:

عُقِدَ في بازل (23–28 آب 1903)، ويعتبرُ هذا المؤتمرُ من أصعبِ المؤتمراتِ الصهيونيّة الأولى، إذ عُرِضَ فيه مشروعُ أوغندا على يدِ الحكومةِ البريطانيّة، وتمسَّك به هرتسل كحلٍّ مؤقتٍ؛ ووافقَ على المشروعِ (295) مندوبًا، بينما عارضَه (178) مندوبًا، ومنعًا لوقوعِ انشقاقٍ؛ وافقَ هرتسل على إرسالِ بعثةٍ لتقصي الحقائقِ، ودراسةِ المنطقةِ في أوغندا[2].

المؤتمرُ الصهيونيّ السابع:

عُقِدَ في بازل (27 تموز – 2 آب 1905) بحضورِ (497) مندوبًا، وهو أولُ مؤتمرٍ يُعقَدُ بعدَ وفاةِ هرتزل، وانتَخَبَ المؤتمرُ دافيد ولفسون (1856–1914) أولَ رئيسٍ للمنظمةِ الصهيونيةِ العالمية؛ وعلى أثرِ ذلك تقررَ نقلُ مقرِّ الحركةِ الصهيونيةِ من فينا إلى كولون بألمانيا حيثُ يقيمُ ولفسون[3].

المؤتمر الصهيونيّ الثامن:

عُقِدَ في هاج في هولندا (14 –21 آب 1907)، وطالبَ فيه وايزمان بدمجِ الصهيونيةِ السياسيةِ مع الجانبِ العمليِّ للصهيونيّةِ؛ ألا وهو الاستيطانُ في أرض إسرائيل. وطُرحت في هذا المؤتمرِ مسألةُ العاملِ العبريِّ في أرضِ إسرائيل، واتُّخِذَ

---

(1) أمين محمود: مشاريع الاستيطان منذ قيام الثورة الفرنسية حتى الحرب العالمية الأولى، ص156.

(2) صالح السعدون: الاتحاد الانجلو، ص400.

(3) وزارة الدفاع اللبناني، مؤسسة الدراسات الفلسطينية: القضية الفلسطينية والخطر الصهيوني، ص66.

قـرارٌ بافتتـاحِ المكتـبِ الفلسـطينيِّ (مكتـبِ أرضِ إسـرائيل) في يافـا، برئاسـةِ آرثر روبين، والذي وضعَ الأساسَ للاستيطانِ العمّالي في فلسطين[1].

المؤتمر الصهيونيّ التاسع:

عُقِدَ في هامبورغ في ألمانيا (26-30 كانون الأول 1909)، وشـاركَ فيـه -لأوّل مرةٍ- مندوبونَ عنِ الأحزابِ العُمّاليةِ في فلسطين (عام 1909)[2].

المؤتمر الصهيونيّ العاشر:

عُقِدَ في بـازل (9-15 آب 1911)، وعالـجَ مسـألةَ العمـلِ في الأوسـاطِ اليهوديـةِ في فلسطين، وكيفيةَ طرحِ القضيةِ اليهودية في أوساطِ العربِ في فلسطينَ وخارجها[3].

المؤتمرُ الصهيونيّ الحادي عشر:

عُقِدَ في فينا في النمسا (2-9 ايلول 1913)، وبحـثَ في مسألةِ الاستيطانِ في فلسـطين، وطـرحَ كلٌّ مـن أوسيشـكين ووايزمـان مشـروعَ إقامـةِ جامعـةٍ عبريـةٍ في مدينة القـدس[4].

المؤتمرُ الصهيونيّ الثاني عشر:

عُقِدَ في كارلسباد في تشيكوسلوفاكيا (1-14 أيلـول 1921)، بعـد سلسـلةٍ مـنَ الأحـداثِ المهمةِ والمصيريةِ، منهـا: انتهـاءُ الحـربِ العالميَّـةِ الأولـى، وصـدورُ وعـدِ بلفور-سـوف نأتي على شـرح هذا الوعدِ لاحقًا-، واحتلالُ الإنكليزِ لفلسـطينَ، وانتهاءُ

(1) حسن أبو حلبية: تاريخ الأحزاب العمالية الصهيونية، ص75-76.

(2) وزارة الدفاع اللبناني، مؤسسة الدراسات الفلسطينية: القضية الفلسطينية والخطر الصهيوني، ص68.

(3) د. غازي حسين: الاستيطان اليهودي في فلسطين من الاستعمار إلى الإمبريالية، ص42

(4) https://www.palestinapedia.net

الحكم العثماني[1].

وجرى البحثُ في إقامةِ مشاريعَ استيطانيةٍ وتوسيعِها في فلسطين المحتلّة، وتمَّ الاتفاقُ على تأسيسِ صندوقٍ ماليٍّ (كيرنال صندوق ود) لتمويلِ المشاريعِ الاستيطانية في فلسطين، وأقرَّ هذا المؤتمرُ صفقاتِ شراءِ الأراضي في مرجِ ابنِ عامرٍ بواسطة (الكيرنكييمت).

المؤتمرُ الصهيونيّ الثالث عشر:

عُقِدَ في كارلسباد في الولايات المتحدة المريكية (6–18 آب 1923)[2]، وفيه أُقرَّ مشروعُ افتتاحِ الجامعةِ العبرية في مدينةِ القدس المحتلّة من قِبل البريطانيّين[3].

المؤتمر الصهيونيّ الرابع عشر:

عُقِدَ في فيينا (18–31 آب 1925)، وتزامنَ انعقادُه مع مشاكلِ الهجرةِ اليهوديَّةِ الرابعةِ إلى فلسطين، والمبادراتِ الخاصةِ بمشاريعَ معينةٍ في فلسطين[4].

المؤتمر الصهيونيّ الخامس عشر:

عُقِدَ في بازل (30 آب – 11 ايلول 1927)، وجرى فيه التباحثُ في تعقيداتِ الهجرةِ الرابعة، وتعرُّضِ المهاجرين اليهودِ إلى أزماتٍ اقتصاديةٍ كبيرةٍ أثّرت على مجرى حياتهم[5].

---

(1) وزارة الدفاع اللبناني، مؤسسة الدراسات الفلسطينية: القضية الفلسطينية والخطر الصهيوني، ص79.

(2) ناهض زقوت: وثائق القضية الفلسطينية، ج1، ص217–218.

(3) صبري جريس: تاريخ الصهيونية، ص130–135.

(4) https://en.wikipedia.org/wiki/World-Zionist-Congress

(5) المسي▯: ▯لساعة اليه▯ واليها▯لية ▯الصهيانية؛ 2مج، الما▯ساعة الملجا▯ في جا▯ليا، ص339–341.

المؤتمرُ الصهيونيّ السادس عشر:

عُقِدَ في زيوريخ في سويسرا (29 تموز - 10 آب 1929)، وجرى فيه التباحثُ حولَ الظروفِ الجيدةِ التي تمتعَت بها الهجرةُ اليهودية الخامسة إلى فلسطين، والتي ستساعد أبناءَ المستوطنات في التخفيفِ من حدةِ الأزماتِ الاقتصاديةِ التي يعانون منها[1].

المؤتمرُ الصهيونيّ السابع عشر:

عُقِدَ في بازل (سويسرا) (30 حزيران-15 تموز 1931)، في ظلِّ الصِّداماتِ بينَ المستعمرين اليهودِ والفلسطينيين أصحابِ الأرضِ الفلسطينية، وكذلك معارضةِ المؤتمرِ للنصِّ المتعلِّقِ بالهدفِ النهائيِّ للصهيونيةِ، كما طرحَه الصهيونيون العموميون بقيادةِ زئيف جابوتنسكي.

ولمّا رأى جابوتنسكي ومؤيدُوه الموقفَ العامَّ في المؤتمرِ قاموا بتمزيقِ بطاقاتِ عضويتِهم، وتركوا قاعةَ المؤتمرِ بشكلٍ تظاهريّ.

وتم اختيارُ ناحوم سوكولوف بدلًا من حاييم وايزمان الذي استقالَ من منصبِ رئاسةِ المنظمةِ الصهيونيةِ في أعقابِ صدورِ الكتابِ الأبيضِ (باسفيلد) مِن قِبل الحكومةِ الاستعماريّة البريطانية[2].

المؤتمر الصهيونيّ الثامن عشر:

عُقِدَ في براغ في تشيكوسلوفاكيا (21 آب - 4 ايلول 1933)، في ظلِّ صعودِ النازيَّةِ بقيادةِ هتلر إلى الحكمِ في ألمانيا، وبدايةِ ظهورِ أشكالٍ من ملاحقةِ اليهودِ فيها[3].

---

(1) الموسوعة الفلسطينية؛ القسم العام، ج1، ص 615.

(2) https://en.wikipedia.org/wiki/World-Zionist-Congress

(3) صالح بويصير: جهاد شعب فلسطين، ص188؛ عبد الوهاب الكيالي: تاريخ فلسطين الحديث،

المؤتمرُ الصهيونيّ التاسع عشر:

عُقِدَ في لوتزرن في سويسرا (20 آب – 4 أيلول 1935)، وقد تميَّزَ هذا المؤتمرُ بالمحاضراتِ العلميَّةِ الشاملةِ التي ألقاها عددٌ من زعماءِ الحركةِ الصهيونية، واستطاعتِ الحركةُ العمّاليةُ تشكيلَ ائتلافٍ واسعٍ أعادَ الزعامةَ لوايزمان الذي انتُخب رئيسًا للجنةِ التنفيذية، كما انتُخب سوكولف رئيسَ شرفٍ للمنظمةِ الصهيونية العمالية والوكالةِ اليهودية الموسعة، وقد برزَ بن غوريون في هذا المؤتمرِ فأُعيدَ انتخابُه في اللجنةِ التنفيذيةِ (وقد توفي سوكولوف بعد سنةٍ من ذلك)[1]

المؤتمر الصهيونيّ العشرون:

عُقِدَ في زيوريخ (3-16 آب 1937)، وبحث في اقتراحِ الحكومة البريطانية إرسالَ لجنةٍ ملكية للبحث في أحوالِ فلسطين المحتلّة، وطرحَ توصياتِها على الحكومة، وخاصةً فكرةَ تقسيمِ فلسطين المحتلّة[2].

المؤتمر الصهيونيّ الحادي والعشرون:

عُقِدَ في جنيف في سويسرا (16-25 آب 1939)، وبحثَ في (الكتاب الأبيض) الصادرِ عن الحكومة البريطانية الاستعماريّة[3].

المؤتمر الصهيونيّ الثاني والعشرون:

عُقِدَ في بازل (9-24 كانون الأول 1949م)، أي بعدَ انقطاعٍ في الظاهرِ والعلنِ

ص338-339.

(1) https://www.palestinapedia.net

(2) http://muqatil.com/openshare/Behoth/Siasia21/Sahionia/sec12.doc-cvt.htm غازي حسين: الاستيطان اليهودي في فلسطين من الاستعمار الى الامبريالية، ص37.

(3) غازي حسين: الاستيطان اليهودي في فلسطين من الاستعمار الى الامبريالية، ص 58.

مدّتُه عشرةُ أعوام، وهي المدّةُ الأطولُ لعدمِ انعقادِ المؤتمرِ الصهيونيِّ منذ إنشائِه، وبُحثت فيه الهجرةُ غيرُ المشروعةِ، والمواجهاتُ السياسيةُ والعسكريةُ للإنكليزِ في فلسطين، وأقرَّ المؤتمرُ إقامةَ دولةٍ يهوديةٍ، ورفضَ مشروعَ موريسون بتقسيمِ فلسطين إلى ثلاثِ مناطقَ؛ واحدةٍ عربيةٍ، وأخرى يهوديةٍ وثالثةٍ بريطانية، وتكون كلُّها مجتمعةً خاضعةً لحكمٍ بريطانيٍّ أعلى، وصادقَ هذا المؤتمرُ على مشروعِ بلتيمور[1].

المؤتمر الصهيونيّ الثالث والعشرون:

عُقِدَ في القدسِ (14-30 آب 1951)، وهذا المؤتمرُ الأوّل الذي يعقدُه الصهاينةُ في فلسطين المحتلّة؛ وبحثَ وضعيةَ المنظمةِ الصهيونيةِ العالميةِ وعلاقاتِها مع دولةِ إسرائيل، وتم بحثُ مسألةِ تقويةِ هجرةِ اليهودِ من أنحاءِ العالمِ إلى الكيانِ الكولنيالي الاستعماريِّ الصهيونيِّ المقامِ في فلسطين، وتمّ عرضُ (مشروع يروشلاييم)؛ مشروعُ القدسِ على المؤتمرِ بعد أن أصبحَ برنامجُ بازل في عدادِ الماضي إثرَ نجاحِ الصهاينةِ في إنشاءِ كيانهم الاستعماريّ. ومن أبرزِ ما وردَ في مشروعِ القدس:

تحصينُ إسرائيلَ وتقويتُها.

- السعيُ من أجلِ تجميعِ شتاتِ الشعبِ اليهوديِّ في إسرائيل.
- ضمانُ وحدةِ الشعبِ الإسرائيلي[2].

المؤتمر الصهيونيّ الرابع والعشرون:

عُقِدَ في القدسِ (24 نيسان - 7 أيار 1956)؛ وأبرزُ ما طُرِحَ في هذا المؤتمرِ هو كيفيةُ تجنيدِ الأموالِ والتبرعاتِ لدعم أمنِ إسرائيل في مواجهةِ ما أسمَوه استعداداتِ

(1) عبد الوهاب المسيري: تاريخ اليهود والحركة الصهيونية، ج7، ص104.

(2) عبد الوهاب المسيري: تاريخ اليهود والحركة الصهيونية، ج8، ص 126.

جيوشِ الدولِ العربيةِ من أجلِ محاربةِ اسرائيل[1]!.

المؤتمر الصهيونيّ الخامس والعشرون:

عُقِدَ في القدسِ (27 كانون الأول 1960 – 11 كانون الثاني 1961)، وجرى فيه البحثُ في العلاقاتِ بينَ حكومةِ إسرائيلَ وبين المنظمةِ الصهيونيةِ العالمية، وأيضًا جرى البحثُ في المشاكلِ والعقباتِ التي تعترضُ طريقَ استمرارِ الهجرةِ اليهوديةِ من بلدانٍ كثيرةٍ في العالمِ إلى الكيانِ الغاصب، وبحثَ قضيةَ التخوفِ منَ اندماجِ اليهودِ المتبقّين في بلادٍ عديدةٍ كأقلياتٍ صغيرةٍ مع المجتمعاتِ القائمة، وهكذا يفقدون مكوناتِهم الدينيةَ والحضاريةَ؛ وحتى اللغةُ لن تعودَ مسألةً بالإمكانِ الحفاظُ عليها[2].

المؤتمر الصهيونيّ السادس والعشرون:

عُقِدَ في القدس (30 كانون الأول 1964 – 11 كانون الثاني 1965)؛ وبحثَ في الطرقِ الكفيلةِ بتعميقِ نشرِ اللغةِ العبرية والثقافةِ العبرية في أوساطِ الجالياتِ اليهوديةِ المتبقية في العالم[3].

المؤتمر الصهيونيّ السابع والعشرون:

عُقِدَ في القدس (9–19 حزيران 1968)، وتم فيه إعادةُ صياغةِ مشروعِ القدس من جديدٍ إثرَ احتلالِ الجيش الاسرائيلي مدينةَ القدس كاملةً، وإعلانِ حكومةِ الكيان الاستعماريّ الكولنيالي عن توحيدِ شطرَيِ القدس، وأكّد المؤتمرُ استمرارَ التعاونِ بين المنظمةِ الصهيونيةِ العالمية وحكومةِ الكيانِ والشعب اليهوديّ[4].

(1) وزارة الدفاع اللبناني، مؤسسة الدراسات الفلسطينية: القضية الفلسطينية والخطر الصهيوني، ص103

(2) عبد الوهاب المسيري: تاريخ اليهود والحركة الصهيونية، ج8، ص 136.

(3) وزارة الدفاع اللبناني، مؤسسة الدراسات الفلسطينية: القضية الفلسطينية والخطر الصهيوني، ص103.

(4) https://en.wikipedia.org/wiki/World-Zionist-Congress

المؤتمر الصهيونيّ الثامن والعشرون:

عُقِدَ في القدس (18-28 كانون الثاني 1972)، وبحثَ في قضايا الهجرةِ من الاتحادِ السوفييتيّ ومسائلِ التربيةِ والتعليم في الجالياتِ اليهودية في مختلفِ أنحاءِ العالم[1].

المؤتمرُ الصهيونيّ التاسع والعشرون:

عُقِدَ في القدس (20 – 28 شباط 1978)، وبحثَ في مفهومَ الصهيونية في العصرِ الحاضر، ومسائلِ التربيةِ والتعليم في أوساطِ الجالياتِ اليهوديّة في العالم.

وأعلنَ المؤتمرُ أنّ الحركةَ الصهيونيةَ حركةُ تحررٍ وطني؛ على ضَوءِ قرارِ الأممِ المتحدةِ الذي أعلنَ الحركةَ الصهيونيةَ حركةً عنصرية[2].

المؤتمرات الصهيونيّة من الثلاثين إلى الثاني والثلاثين:

عُقِدَت كلُّها في القدس، وبُحثت فيها مسائلُ تتعلقُ بتعميقِ الهجرةِ إلى الكيانِ الاستعماريّ، خصوصًا منَ جمهورياتِ الاتحادِ السوفييتيّ، وقد أبرزَ المؤتمرُ الثاني والثلاثون –الذي عُقد في العام 1992– أهميةَ الهجرةِ إلى الكيان.

وفي واقعِ الأمر فإنّ المهاجرين الروسَ في أغلبيتهم لم يكونوا من أتباعِ شريعةِ الغابِ اليهوديةِ، إنّما من الروسِ الذين وَجَدوا في الهجرةِ إلى الكيانِ الاستعماريّ ملاذًا لهم من الظروفِ المعيشيةِ الصعبة والقاسية التي يعانون منها في بلادِهم الأصلية، وقد غدَوا في الوقتِ الحاضر من أباطرةِ شريعة الغاب[3].

(1) https://en.wikipedia.org/wiki/World-Zionist-Congress

(2) https://en.wikipedia.org/wiki/World-Zionist-Congress

(3) https://en.wikipedia.org/wiki/World-Zionist-Congress

المؤتمر الصهيونيّ الثالث والثلاثون:

عُقِدَ في القدسِ عامَ 1997، وسط الاحتفالِ بالمئويةِ الأولى لتأسيسِ المنظمةِ الصهيونيةِ العالمية.

فيما يلي جدول يبين المؤتمرات الصهيونية ومكان وتاريخ انعقادها(1)

م	المؤتمر	المكان	تاريخ الانعقاد
1	المؤتمر الصهيوني الأول	بازل، سويسرا	1897
2	المؤتمر الصهيوني الثاني	بازل، سويسرا	1898
3	المؤتمر الصهيوني الثالث	بازل، سويسرا	1899
4	المؤتمر الصهيوني الرابع	لندن، إنجلترا	1900
5	المؤتمر الصهيوني الخامس	بازل، سويسرا	1901
6	المؤتمر الصهيوني السادس	بازل، سويسرا	1903
7	المؤتمر الصهيوني السابع	بازل، سويسرا	1905
8	المؤتمر الصهيوني الثامن	لاهاي، هولندا	1907
9	المؤتمر الصهيوني التاسع	هامبورغ، ألمانيا	1909
10	المؤتمر الصهيوني العاشر	بازل، سويسرا	1911
11	المؤتمر الصهيوني الحادي عشر	فيينا، النمسا	1913
12	المؤتمر الصهيوني الثاني عشر	كارلسباد (كارلوفي فاري)، تشيكوسلوفاكيا	1921

(1) https://en.wikipedia.org/wiki/World-Zionist-Congress

م	المؤتمر	المكان	تاريخ الانعقاد
13	المؤتمر الصهيوني الثالث عشر	كارلسباد (كارلوفي فاري)، تشيكوسلوفاكيا	1923
14	المؤتمر الصهيوني الرابع عشر	فينا، النمسا	1925
15	المؤتمر الصهيوني الخامس عشر	بازل، سويسرا	1927
16	المؤتمر الصهيوني السادس عشر	زيورخ، سويسرا	1929
17	المؤتمر الصهيوني السابع عشر	بازل، سويسرا	1931
18	المؤتمر الصهيوني الثامن عشر	براغ، تشيكوسلوفاكيا	1933
19	المؤتمر الصهيوني التاسع عشر	لوسيرن، سويسرا	1935
20	المؤتمر الصهيوني العشرون	زيورخ، سويسرا	1937
21	المؤتمر الصهيوني الحادي والعشرون	جنيف، سويسرا	1939
22	المؤتمر الصهيوني الثاني والعشرون	بازل، سويسرا	1946
23	المؤتمر الصهيوني الثالث والعشرون	بيت المقدس	1951
24	المؤتمر الصهيوني الرابع والعشرون	بيت المقدس	1956
25	المؤتمر الصهيوني الخامس والعشرون	بيت المقدس	1960
26	المؤتمر الصهيوني السادس والعشرون	بيت المقدس	1964
27	المؤتمر الصهيوني السابع والعشرون	بيت المقدس	1968
28	المؤتمر الصهيوني الثامن والعشرون	بيت المقدس	1972
29	المؤتمر الصهيوني التاسع والعشرون	بيت المقدس	1978
30	الكونجرس الصهيوني الثلاثون	بيت المقدس	1982

م	المؤتمر	المكان	تاريخ الانعقاد
31	المؤتمر الصهيوني الحادي والثلاثون	بيت المقدس	1987
32	المؤتمر الصهيوني الثاني والثلاثون	بيت المقدس	1992
33	المؤتمر الصهيوني الثالث والثلاثون	بيت المقدس	1997
34	المؤتمر الصهيوني الرابع والثلاثون	بيت المقدس	2003
35	المؤتمر الصهيوني الخامس والثلاثون	بيت المقدس	2006
36	المؤتمر الصهيوني السادس والثلاثون	بيت المقدس	2010
37	المؤتمر الصهيوني السابع والثلاثون	بيت المقدس	2015
38	المؤتمر الصهيوني الثامن والثلاثون	بيت المقدس	2020

المراحلِ التاريخيةِ للمؤتمراتِ الصهيونية العالمية[1]:

المرحلة الأولى: فترة هرتسل:

كان المؤتمرُ الصهيونيٌّ في بداياتِ طريقِه منبرًا لطرحِ مبادئِ سفرِ كهنةِ السياسةِ من أجلِ إيجادِ حلولٍ لقضايا اليهود ومشاكلِهم في أوروبا، وحلِّها على حسابِ الفلسطينيين وفلسطين بقدسِها وأقصاها وأرضِها المباركة.

وقد عالج المؤتمرُ قضايا عقائديةً وفكريةً وتنظيميةً، وأقرَّ دستورَ العملِ، والهيئاتِ العاملةَ في المؤتمر، وبُحثت مسائلُ تتعلقُ بالاستيطانِ في فلسطين، وشؤونِ

(1) جوني منصور: معجم المصطلحات الصهيونية والإسرائيلية واليهودية ص 455 بتصرّف.

التربيةِ والتعليم في الشتاتِ اليهوديّ، وطرحَ المشروعَ الصهيونيَّ لإقامةِ دولةٍ لليهود، وطرحتِ البدائلَ المؤقتةَ في حالِ فشلِ تحقيقِ المشروعِ كما هو، وانصبَّ الاهتمامُ أيضًا على المظهرِ الذي يجبُ أن تظهرَ به المنظمةُ الصهيونيةُ من حيثُ الأداءِ، وطرحِ المواقفِ السياسيةِ لكسبِ ودِّ الحكوماتِ العظمى، وعددُ المؤتمراتِ التي تندرجُ تحتَ هذا الاتجاهِ خمسةٌ؛ انعقدت كلُّها في فترةِ هرتسل[1].

المرحلة الثانية: فترة الصهيونية العملية

بدأت بعدَ موتِ هرتسل، وتم التشديدُ على ضرورة تطبيقِ المشروعِ الصهيونيِّ بدايةً في تعميقِ الحركةِ الاستيطانية في فلسطين وتقويتِها، والاهتمامِ بشؤونِ التربيةِ والتعليم في أوساطِ الجالياتِ اليهودية في الشتات.

والتحوُّلُ الذي حدثَ في هذه الفترةِ تمثلَ في أنّ المؤتمرَ أخذ يهتمُّ بشكلٍ أعمقَ بالقضايا العينيةِ واليوميةِ التي تهمُّ اليهوديّ الصهيوني في حياتِه ومصيرِه المستقبليّ المتعلقِ بالتعليمِ والاستيطانِ، وتعمَّقَ النقاشُ بينَ تيارَين في الصهيونية: الصهيونيةِ السياسيةِ والصهيونيةِ العمليَّةِ، وهذا النقاشُ الذي ولَّدَ الصهيونيةَ المركبة، وعددُ المؤتمراتِ التي تندرجُ في هذه الفترةِ ستةٌ، من المؤتمرِ السادسِ، وحتى المؤتمرِ الحادي عشر[2].

---

(1) بيان الحوت: فلسطين القضية الشعب الحضارة، ص338-347.

(2) يونس، كريم: الواقع السياسي في إسرائيل، ص 120؛ المسيري، عبد الوهاب: الموسوعة الفلسطينية؛ القضية الفلسطينية والخطر الصهيوني، ج6، ص 411.

المرحلة الثالثة: الفترة الواقعة بين وعد بلفور وإقامة الكيان:

لقد ساهمَ وعدُ بلفور في تحويلِ الحركةِ الصهيونيةِ إلى عاملٍ سياسيٍّ عالميٍّ ومهمٍّ؛ حيثُ إنّ الوعدَ المشؤومَ يعترفُ بالحركةِ الصهيونيةِ وبمطالبِ القبيلةِ اليهودية، وخاصةً اعترافَ الحكومةِ البريطانيةِ بوجودِ قضيةٍ يهوديةٍ، وعرضتِ الحكومةُ البريطانيةُ -من خلالِ وعدِ بلفور- حلًّا يقضي بإقامةِ وطنٍ قوميٍّ يهوديٍّ في فلسطين، ومن هذا المنطلقِ غيّرَ المؤتمرُ الصهيونيُّ توجُّهَه، وأصبحَ منبرًا لكهنةِ السياسةِ والأحزابِ الصهيونية، وأصبحت للمؤتمرِ قوةٌ كبيرةٌ من حيثُ إقرارِ ميزانياتِ الفعالياتِ الصهيونيةِ المختلفةِ في فلسطين وخارجَها[1]. ونشطتِ الأحزابُ الصهيونيةُ في هذه الفترة، والتي لعبَت دورًا بارزًا في تقويةِ النقاشِ حولَ شكلِ الدولةِ العتيدة.

وساهمَ المؤتمرُ -من خلالِ لجانِه- في التحضيرِ لإعلانِ إقامةِ إسرائيل. وعددُ المؤتمراتِ في هذه الفترةِ أحدَ عشرَ مؤتمرًا؛ من الثاني عشرَ وحتى الثاني والعشرين[2].

المرحلة الرابعة: المؤتمر بعد قيام إسرائيل

نهجتِ المنظمةُ الصهيونيةُ أسلوبًا مختلفًا في عملِها بعد نجاحِها في إقامةِ الدولة على الأرضِ الفلسطينية، إذ عَقدَت كلَّ مؤتمراتَها ابتداءً من الثالث والعشرين في القدسِ التي أُعلنَت عاصمةً لإسرائيل، وعُرضَ في هذه الفترةِ مشروعٌ بديلٌ؛ أو مكمّلٌ لمشروعِ بازل، وهو مشروعُ القدسِ، مرةً في العام 1951، والأخرى في العام 1968[3]. وجرى الاعترافُ رسميًا من قِبل حكومةِ إسرائيلَ بالمنظمةِ الصهيونيةِ العالميةِ وبالوكالةِ اليهوديةِ، وأصدرَ الكنيست قانونًا رسميًا يعترفُ بموجِبه بمكانةِ

---

(1) الدفاع اللبنانية، مؤسسة الدراسات الفلسطينية: القضية الفلسطينية والخطر الصهيوني، ص74-76.

(2) https://www.madarcenter.org

(3) https://www.aljazeera.net/encyclopedia/conceptsandterminology

المنظمة والوكالة. وانصبَّ اهتمامُ المؤتمرِ -في هذهِ الفترة- على تجنيدِ الأموالِ اللازمةِ لتحقيقِ المشروعِ الصهيونيِّ في (إسرائيل) فلسطين المحتلة، من حيثُ السيطرةُ على الأراضي وتحويلُها إلى الاستعمارِ، وإقامةُ المستعمراتِ الصهيونيةِ عليها، ودعمُ الهجرةِ لزيادةِ عددِ اليهودِ في فلسطين المحتلةِ للوصولِ لتفوقٍ عدديٍّ لليهودِ على الفلسطينيين[1]...

استعراضٌ لأهمِّ الحركاتِ الصهيونية:

الصهيونية الدينية:

وهي حركةٌ صهيونيةٌ دينيةٌ معارضةٌ للتيارِ العلمانيّ، وتحوّلَت هذه الحركةُ إلى حزبٍ سياسيٍّ باسمِ (همزراحى) العام 1902م، واتّخذَ له شعارًا: «أرضُ إسرائيلَ لشعبِ إسرائيلَ بموجِب شريعةِ إسرائيل»، وأيضًا شعار: «التوراةُ والعمل»؛ أي الإيمانُ والعمل، ومن بين الآراءِ الأخرى التي نادَوا بها: «أنّ اليهودَ أمّةٌ مميّزةٌ عن بقيةِ الأممِ، وذلك يعودُ إلى أنَّ اللهَ بنفسِه أوجدَها؛ فهيَ -الأمّةُ اليهوديةُ- تخصُّ الله»، وأنّ اتّحادَ الكيانِ اليهوديِّ الحقيقيّ يكون فقط بتوجيهِ الفكرِ اليهوديِّ نحو التوراة وفلسطين، باعتبارهما ركنَين مهمَّين للعنايةِ بتاريخِ الأمّةِ اليهوديّة وحياتِها»[2].

الصهيونية الروحانية:

وهي تيّارٌ في الحركةِ الصهيونيةِ دعا إلى ضرورةِ تحضيرِ النفوسِ اليهوديةِ قبلَ تنفيذِ أيّةِ خطوةٍ سياسيةٍ أو عمليةٍ؛ ولتحقيقِ هذا التحضيرِ يجبُ إقامةُ مركزٍ روحانيٍّ

---

(1) https://www.madarcenter.org

(2) طربين، أحمد: فلسطين في عهد الانتداب، ق2، ج2، ص 1126.

قوميٍّ في فلسطين يساهمُ في إلهامِ الجالياتِ اليهوديةِ في الشتاتِ إلى أهميّةِ العيشِ في أرضِ إسرائيل [1].

الصهيونية الاشتراكية:

وهو تيّارٌ في الحركةِ الصهيونيةِ دعا إلى تحقيقِ المشروعِ الصهيونيّ بواسطةِ نظامِ حكمٍ اشتراكيٍّ في فلسطين، حيث حاولَ الدعاةُ لهذا التيارِ المزجَ بين الماركسيةِ والصهيونية، وقدِ انتشرت أفكارٌ وطروحاتٌ للصهيونيةِ الاشتراكيةِ في أوساطِ المهاجرين اليهودِ من أبناءِ الهجرةِ الثانية [2].

الصهيونية التوفيقية:

وهو عبارةٌ عن تيّارٍ صهيونيٍّ حاولَ المزجَ بينَ الصهيونيةِ السياسيةِ والصهيونيةِ العمليةِ، حيث رأى دعاةُ هذا التيّارِ أنّه لا فرقَ بين التيّارَين سوى حاجتِهما إلى المضيِّ نحوَ العملِ والتطبيقِ للفكرِ الصهيونيّ على أرضِ الواقع في فلسطين [3].

وهناك حركةُ عمّال صهيون... والصهيونية السياسية، وكما أسلفنا فإنّ الحركاتِ الصهيونيةَ كافّةً كانت تنادي في العلنِ إلى إقامةِ دولةٍ لليهود في فلسطين، متّخذةً من جعلِ المسألةِ اليهوديةِ سياسيةً عالميةً، وخلقِ حقائقَ على الأرضِ الفلسطينية تفرضُ على المجتمعِ الدوليّ الموافقةَ على إنشاءِ وطنٍ قوميّ (دولة يهودية لليهود في فلسطين) [4]. وقد رأى كهنةُ السياسةِ الصهاينةُ أنّ فشلَ محاولاتِ اليهودِ للاندماجِ في المجتمعاتِ الأوروبية، وازديادَ حدّةِ مظاهرِ اللاساميّةِ في بلدانٍ أوروبيّة مؤشّران

---

(1) بيان الحوت: فلسطين القضية الشعب الحضارة، ص 328-331.

(2) https://www.madarcenter.org

(3) https://dorar.net/adyan/327

(4) https://www.madarcenter.org

واضحان إلى أنّ الحلَّ للمسألةِ اليهودية هو بإقامةِ دولةٍ لهم في فلسطين، رغم أنّ مؤسسَ الصهيونيةِ (هرتسل) كان على استعدادٍ لقَبولِ دولةٍ أو شبهِ دولةٍ في أيِّ موقعٍ في العالمِ تقترحُه دولةٌ عظمى بصفةِ دولةٍ مؤقّتة؛ ولتحقيقِ هذه الغايةِ يجب أن تتبنّى دولةٌ عظمى المسألةَ اليهودية، وتوفّرَ لها الغطاءَ القانونيّ والدوليَ.

وقد عرفُ الصهاينةُ كهنةُ شريعةِ غابِ السياسةِ والدينِ كيف يستخدمون أساليبَ الابتزاز والتورية والمؤامرة كافّةً للوصولِ إلى هدفِهم المنشود، مستغلّين الظروفَ السياسيةَ للدولِ الاستعمارية التي كانت تخوضُ سباقًا وصراعًا سياسيًّا استعماريًّا بين بعضِها البعض، وذلك لوراثةِ إرثِ دولةِ الخلافةِ الإسلامية العثمانية[1]، ونجحَ الصهاينةُ في العلنِ، لكنّ نجاحَهم في الخفاءِ كان أكبرَ وأعظمَ بكثير، حيث المؤامراتُ والدسائسُ والابتزاز وشراءُ الذمم، وهذا ما سوف نبحثُه في المطلبِ القادم من هذا الفصلِ -بعون الله-.

بروتوكولات صهيون:

(التنويلاند) اسمُ روايةٍ خياليةٍ أسطوريةٍ خطَّها هرتسل (الكاهن الأعظم للصهيونية)؛ يصفُ خلالَها دولةَ اليهود، وتظهرُ في افتتاحيّتها العبارةُ الآتية: «إذا شئتم فهذه ليست أسطورةً»، وتقدّمُ الروايةُ الحقيقية -لا الأسطورة- لنموذجِ دولةٍ من النواحي السياسيةِ والإداريةِ والاجتماعية والتكنولوجية والزراعية، والتي تقامُ على أسسِ السلام، وتكون مركزًا للمساعدةِ والصلاة.

ومَن يقرأ الروايةَ يظنّ أنّ كاتبَها رسولٌ أوحَى له اللهُ بسفرٍ ربّانيّ؛ أمّا الحقيقةُ

(1) htm.244/https://annabaa.org/nbanews/69

فتكمن بكونِ كاتبها ما هو إلّا أحدُ أكبرِ وأعظمِ كهنةِ إبليسَ على وجه الأرض، وللتصدّي له وكشفِ خفاياه وجدتُ أن أبدأَ بما كتبه الأستاذُ عبّاس العقّاد: «إنّ الصهيونيّةَ هي قوّةٌ موجودة بأعمالِها وآثارها، موجودةٌ بدعايتها وأخبارها، موجودةٌ بمقاصدِها وغاياتها، ولا حاجةَ بها إلى الوجودِ في صورةٍ أخرى، ما دامت موجودةً بالأعمال والدعاية والغاية».

وأردف العقاد قائلًا «لقد ظهرت في القرنِ الماضي مجموعةٌ من الوثائقِ سُميت (بمحاضر مشيخة إسرائيل)، وانتشرت من روسيا حتى ظهرت أوّلًا إلى فرنسا وإنجلترا، ثمّ سائرِ الأقطارِ الأوروبية، وخلاصتُها أنّها تجمُّعُ المحاضرِ السريةِ التي تسجّلُ قراراتِ المشيخةِ الصهيونية، وأنّ هذه المشيخةَ تلتقي من حينٍ إلى آخرَ للنظر في شؤونِ العالم، واتّخاذِ الخططِ المرسومة لتوجيهِ السياسةِ الدولية، وإثارةِ الفتن والقلاقل في أممِ الحضارةِ سعيًا وراءَ غايةٍ واحدة: هي تخريبُ العالم، وهدمُ دعائمِ الأخلاقِ والأديان، والقضاءِ على كلِّ سيادةٍ روحيّةٍ أو دنيويّة فيه، وتمكينُ اليهودِ من السيطرةِ عليه، وتسليمِه للصيارفةِ والسماسرة وأشباههم من خُدّامِ المالِ المستترين وراءَ كلِّ شبكةٍ مالية واسعةِ النطاق، ومعظمُهم من الصهيونيّين»[1].

هناك مصطلحٌ أحدثُ من الذي ذكرَه الأستاذ العقّاد (محاضر مشيخة إسرائيل) بات مستعملًا منذ زمنٍ؛ وهو (بروتوكولات حكماء صهيون)، إلّا أنّنا في هذا البحثِ لن نستخدمَ هذا المصطلحَ أو ذاك مكتفين بالإشارةِ له بـ(سفر كهنةِ السياسة)؛ ذلك السفرُ الذي لم تعُد مقرّراتُه سرًّا، ذلك أنّ بعضَ اليهودِ الذين طُردوا من صفوفِ بني جلدتهم، مثلَ المحامي (هنري كلين) الذي نَشَرَ في صحيفتِه (صوت المرأة) في

(1) عباس محمود العقّاد: الصهيونية العالمية، ص33.

شيكاغو عام 1945م مقالًا جاءَ فيه: «إنّ البروتوكولاتِ -وهي الخطةُ التي وُضعت للسيطرةِ على العالم- أمرٌ حقيقيّ ثابت، وإنّ زعماءَ الصهيونيةِ يكوّنون مجلسَ (سانمدرين الأعلى)، الذي يرمي إلى السيطرةِ على حكوماتِ العالم، وقد طردَني اليهودُ من صفوفِهم لأنّي أنكرتُ عليهم خططَهم الشريرة»[1].

وبنفسِ السياقِ أشار القاضي (أرمسترونج) من مدينةِ تكساس في كتابِه (الخونة) -طبعةَ عام 1948م- إلى مؤتمر الصهيونية الذي عُقد في (بال) عام 1897م، فقال: «إن فكرةَ قيامِ عصبةِ الأممِ وهيئةِ الأممِ المتحدة، ويتبعها إمبراطوريةٌ صهيونيةٌ عالمية - قد طُرحت بهذا الترتيبِ الزمنيّ على بساطِ البحثِ في المؤتمرِ الصهيوني الذي انعقدَ في مدينةِ بال عامَ 1897م؛ لقد أعلن الصهيونيون المجتمعون في هذا المؤتمرِ أن هدفَهم يرمي إلى إخضاعِ الشعوبِ المسيحيةِ في العالم، وتأسيسِ إمبراطوريةٍ صهيونيةٍ يرأسُها ملكٌ يكون إمبراطورًا على العالمِ كلِّه، وتكشف الخطةُ عن فكرتِهم في الغزوِ والفتح، وقد كانوا يتبجَّحون في هذا المؤتمرِ قائلين: إنهم قادرون على فرضِ سيطرتهم على الصحافةِ وعلى الذهبِ في العالم»[2].

والملاحظُ على هذه البروتوكولات أنّها لا تظهرُ في لغةٍ من اللغاتِ إلّا اختفَت على إثرِ ذلك، وأنّها تختفي كلّما عادت إلى الظهورِ مترجمةً أو مطبوعةً من جديد، وهذه هي الشبهةُ القويةُ التي أقنعتِ العديدَ من المختصّين بالتحقيقاتِ الصحفيّة والتاريخية وغيرِها بصحّةِ هذه البروتوكولاتِ، واهتمامِ الصهاينةِ بمنعِ تداولِها ونشرها[3]!.

(1) عبد الوهاب المسيري: البروتوكولات واليهودية والصهيونية، ص6.

(2) د. محمد مختار المفتي: دراسات في الأديان والفرق وأبرز التيارات والحركات المعاصرة، ص339.

(3) د. محمد مختار المفتي: دراسات في الأديان والفرق وأبرز التيارات والحركات المعاصرة، ص340-

ونحن -كباحثين عن عينِ الحقيقة- لا نريد أن نعطيَ هذه البروتوكولاتِ فوقَ حقّها، فنحنُ لا نجزمُ بنفيها، كما فعل الأستاذُ عبّاس العقّاد والدكتور عبدُ الوهاب المسيري، وغيرُهم من أصحابِ هذه المدرسةِ الفكريّة، ولكنّنا كذلك لا نجزمُ بصحّتها، ولا نرى أنّ الدلائلَ التاريخيةَ والبحثيةَ المتوفّرةَ في حوزتنا، أو التي نستطيعُ الوصولَ إليها كافيةٌ لإثباتها، بل إنّي كباحثٍ وكاتبٍ أميلُ إلى الشكّ؛ ذلك أنّ الشكَّ هو المحرّكُ والمحفّز للوصولِ إلى الحقيقة.

لذلك سوف نعملُ في هذا المبحثِ والمطلبِ على سردِ ما وصلَ إلينا من مقرّراتِ مؤتمرِ بال، مؤتمرِ حكماءِ صهيون وكهنةِ السياسة، ومن بعدها سنسردُ وثائقَ مخطّط (روتشلد الأوّل) من أجلِ السيطرة على العالم.

جوهر بروتوكولات صهيون:

«إنّ جوازَ المرورِ لدينا -نحن اليهودَ- هو: القوةُ، الكذب، الادّعاء، إنّ حقَّنا في قوّتنا. لا عيبَ ولا عارَ في أن تكونَ جاسوسًا أو دسّاسًا؛ بل هذه فضيلة. الحريّةُ لدينا هي حقُّ الإقدامِ على ما تسمحُ به القوانين، وسنسيطرُ على جميعِ الحريّات، ما دامت تلك القوانينُ تسمحُ بما نطلبُ إلغاءَه، أو تقيمُ وتخلقُ منَ الحريّاتِ ما يكونُ حسبَ هوانا ووفقَ مشيئتِنا، لقد عبثَت أيدينا في التشريعات، وفي سنِّ القوانين، وتنفيذِها، وتدخَّلنا في شؤونِ الانتخابات، وفي الصحافةِ وأدواتِ النشر، وفي توجيهِها والسيطرةِ عليها»[1].

أوّلًا- الغايةُ تبرّر الوسيلة، وعلينا -ونحن نضعُ خططَنا- ألّا نلتفتَ إلى ما هو

.341

(1) علي عبد الحليم محمود؛ عبد الستار سعيد؛ وآخرون: الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام، ص489.

خيِّرٌ وأخلاقيّ، بقدرِ ما نلتفتُ إلى ما هو ضروريٌّ لنا ومفيد.

ثانيًا- لقد ذكرَ الأنبياءُ أنّ اللهَ اختارَنا بنفسه؛ لنحكمَ العالمَ كلَّه؛ لهذا أمرنا بنوعٍ من النبوغِ يتّفقُ مع مهمّتِنا هذه، وينسجمُ معها.

ثالثًا- أمامَنا الآنَ بضعُ سنواتٍ قليلة لتحلَّ اللحظةُ التي يتمُّ فيها تحطيمُ الديانةِ المسيحيّة تحطيمًا كاملًا.

رابعًا- علينا أن ننزعَ فكرةَ اللهِ ذاتَها من عقولِ المسيحيّين، يجبُ ألّا نتردّدَ لحظةً في أعمال الرشوة والخديعة والخيانة، إذا كانت تخدمُ أغراضَنا وأهدافَنا.

خامسًا- عندما نصلُ إلى مملكتنا، يصبحُ من غيرِ المرغوبِ لدينا وجودُ عقيدةٍ غيرِ عقيدتنا، وعلى ذلك يتعيّن علينا أن نكتسحَ جميعَ العقائدِ والأديان الأخرى، وإذا كان هذا يؤدّي إلى وجودِ ملحدين، ينكرون وجودَ الخالق، فإنّ هذا ممّا لا يتعارض مع وجهة نظرنا، ويُعتبر في ذاته مرحلةَ تطوّرٍ وانتقالٍ يصبحُ ملكُ اليهود هو البابا الحقيقيّ للعالم كلّه[1].

سادسًا- اليوم تسودُ حرّيّةُ العقيدة في كلِّ مكان، ولن يطولُ الوقتُ إلّا سنوات قليلة حتّى تنهارَ المسيحية انهيارًا كاملًا تامًّا، وسيبقى ما هو أيسرُ علينا للتصرّف مع الدياناتِ الأخرى، سنقصُر رجالَ الدين وتعاليمَهم على جانبٍ صغيرٍ جدًّا منَ الحياة، وسيكون تأثيرُهم وبالًا سيّئًا على الناس، حتّى إنّ تعاليمَهم سيكونُ لها أثرٌ مناقضٌ للأثرِ الذي جرتِ العادةُ أن يكون عليه.

سابعًا- لقد عنينا عنايةً عظيمةً بالحطِّ من كرامة رجالِ الدينِ من (الجوييم) -الأميين غيرِ اليهود- في أعينِ الناس، وبذلك نجحنا في الإضرارِ برسالتِهم، التي كان

(1) د. محمد مختار المفتي: دراسات في الأديان والفرق وأبرز التيارات والحركات المعاصرة، ص 341.

يمكنُ أن تكونَ عقبةً كؤودًا في طريقنا، وإنّ نفوذَ رجالِ الدين يتضاءلُ يومًا فيومًا[1].

ثامنًا– سنحاول أن نوجّهَ العقلَ العامَّ نحو كلِّ نوعٍ من النظرياتِ المبهرجةِ التي يمكنُ أن تبدوَ تقدّميةً أو تحررية، وقد نجحنا نجاحًا كاملًا بنظريّاتنا التي ألبسناها ثوبَ التقدّم بتحويلِ الرؤوسِ الفارغةِ من العقلِ نحو الاشتراكية، ولا يوجدُ عقلٌ واحدٌ بين غيرِ اليهودِ من الأممِ يستطيعُ أن يلاحظَ أنّه في كلّ حالةٍ وراءَ كلمةِ التقدّمِ يختفي ضلالٌ وزيغٌ عنِ الحقّ، ما عدا الحالاتِ التي تشيرُ فيها هذه الكلماتُ إلى كشوفٍ ماديةٍ أو علمية، إذ لا يوجدُ إلّا تعليمٌ حقٌّ واحدٌ؛ ولا مجالَ فيه للتقدّم[2].

إنّ التقدّمَ بوصفِه فكرةً مزيّفةً يعملُ على تغطيةِ الحقّ، حتّى لا يَعرفَ الحقَّ أحدٌ غيرُنا، نحن شعبُ اللهِ المختارُ، الذي اصطفاه ليكون قوّامًا على الحقّ، وحين نستحوذُ على السلطة، سيناقش خطباؤُنا المشكلاتِ الكبرى التي تحيّرُ الإنسانيةَ، لكي ينطويَ النوعُ البشريُّ في النهاية، تحت حكمِنا المبارك.

ومَنِ الذي سيرتابُ حينئذٍ في أنّنا نحن الذين كنّا نثيرُ هذه المشكلاتِ، وفقَ خطّةٍ سياسيةٍ لم يفهمْها إنسانٌ طوالَ قرونٍ كثيرة[3].

تاسعًا– إنّ غيرَ اليهودِ لا ينتفعون بالملاحظاتِ التاريخيةِ المستمرة، بل يتبعون نسقًا نظريًا من غيرِ تفكيرٍ فيما يمكنُ أن تكونَ نتائجُه؛ ومن أجلِ ذلك لسنا بحاجةٍ إلى أن نقيمَ لغيرِ اليهودِ وزنًا.

دعهُم يعتقدون أنّ هذه القوانينَ النظريةَ التي أوحَينا إليهم بها إنّما هي حقائقُ ثابتةٌ

---

(1) علي عبد الحليم محمود؛ عبد الستار سعيد وآخرون: الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام، ص490.

(2) د. محمد مختار المفتي: دراسات في الأديان والفرق وأبرز التيارات والحركات المعاصرة، ص 342.

(3) علي عبد الحليم محمود؛ عبد الستار سعيد وآخرون: الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام، ص491.

يتمشّى عليها العلمُ من الوجهةِ النظرية، وسنعملُ على أن تزيدَ ثقتُهم العمياءُ بهذه القوانينِ زيادةً مطّردةً، وذلك بتقييدِ أنظارِهم، وبمساعدةِ ما تبثّه صحفُنا في عقولهم[1].

إنّ الطبقاتِ المتعلمةَ ستختال زهوًا أمام أنفسِها بعلمها، وستأخذ جزافًا في مزاولةِ المعرفةِ التي حصلتها من العلم الذي قدمَه إليها وكلاؤنا؛ رغبةً في تربيةِ عقولهم حسب الاتجاهِ الذي توخيناه.

لا تتصوّروا أنّ كلماتِنا جوفاء، ولاحظوا هنا أنّ نجاحَ دارون وماركس ونيتشه، والأثرَ غيرَ الأخلاقيِّ لاتجاهِ هذه العلومِ في الفكرِ عند غيرِ اليهودِ سيكون واضحًا لنا بالتأكيد.

عاشرًا: يمكن ألّا يكونَ للحريةِ ضررٌ، وأن تقومَ في الحكوماتِ والبلدانِ من غيرِ أن تكونَ ضارّةً بسعادةِ الناس، لو أنّ الحريةَ كانت مؤسّسةً على العقيدةِ وخشية الله، وعلى الأخوّةِ الإنسانيّة، نقيّةً من أفكارِ المساواةِ التي هي مناقضةٌ مباشرةٌ لقوانينِ الخلق، والتي فرَضت على الناسِ التسليم[2]، وإنّ الناسَ المحكومين بمثلِ هذا الإيمانِ سيكونون موضوعين تحتَ هيئاتهم الدينية، وسيعيشون في هدوءٍ واطمئنانٍ وثقةٍ، تحت إرشادِ أئمّتهم الروحيّين، وسيخضعون لمشيئةِ اللهِ على الأرض.

ولهذا السببِ يتحتّمُ علينا -نحن الصهاينةَ- أن نزرعَ الألغامَ لتهديم الإيمانِ باللهِ، وأن نمحوَ من عقل غيرِ اليهود مبادئَ اللهِ والروح، وأن نبدّلَ هذه المبادئَ بحساباتٍ رياضيةٍ ورغباتٍ ماديّة[3].

أحدَ عشر: لقد خدعنا الجيلَ الناشئَ من غيرِ اليهود، وجعلناه فاسدًا متعفّنًا بما

---

(1) د. محمد مختار المفتي: دراسات في الأديان والفرق وأبرز التيارات والحركات المعاصرة، ص 341.

(2) علي عبد اللطيف سمعان: الماسونية واليهود في بناء الهيكل الموعود، ص107.

(3) نادية شريف العمري: أضواء على الثقافة الإسلامية، ص200-208.

علمناه من مبادئَ ونظريّاتٍ معروفٌ لنا زيفُها التامُّ، وكنّا -نحن أنفسَنا- الملقنين لها.

ثانيَ عشر: لقد كنّا قديمًا أوّلَ من صنّفَ بكلماتِ: الحريّة والمساواة والإخاء، وما انفكَّت هذه الكلماتُ تردّدُها ببغاواتٌ جاهلةٌ، يتجمهرون من كلِّ حدبٍ وصوبٍ حولَ هذه الشعاراتِ المغريةِ التي حطّموا عن طريقها ازدهارَ العالم، وحريّةَ الفردِ الشخصيةِ الحقيقية، التي كانت مِن قَبلُ في حمىً يحفظُها من أن يخنقَها السفلةُ، ولم يعرفِ الذين يدّعون الذكاءَ وسعةَ الإدراكِ من غيرِ اليهودِ المعاني الرمزيةَ التي تهدفُ إليها هذه الكلماتُ، ولم يتبيّنوا عواقبَها، ولم يلاحظوا ما فيها من تناقض في المعنى، كما يدركون أنّ الطبيعةَ نفسَها تخلو من المساواة، وأنّ الطبيعةَ قد أوجدَت أنماطًا غيرَ متساوية في العقلِ والشخصية والأخلاق والطاقة وغيرها[1].

وإنّ صيحَتنا: (الحريّة والمساواة والإخاء)، قد جلبَت إلى صفوفنا فرقًا كاملةً من زوايا العالمِ الأربعِ عن طريق وكلائِنا المغفلين، وقد حملت هذه الفرقُ ألويتَنا بنشوةٍ، بينما كانت هذه الكلماتُ -مثلُ كثيرٍ من الديدانِ- تلتهمُ سعادةَ غيرِ اليهود وتحطِّمُ سلامَهم واستقرارهم ووحدتهم، مدمرةً بذلك أسسَ الدول، وقد جلب هذا العملُ النصرَ لنا -نحن الصهاينة[2].

ثالث عشر: إن المستبدين والدكتاتوريين يهمسون في آذان الشعوبِ على لسان أعوانهم ودعاتهم أنهم يُنزِلون الضررَ بدولاب الحكم، لهدفٍ مهمٍّ؛ هو ضمانُ سعادةِ شعوبهم، ومن أجلِ تحقيقِ الحياةِ الرغيدة لهم، ومن أجل تحقيق الأخوَّة العالمية بين البشر جميعًا، وأنهم إنما يعملون من أجلِ العدالة والمساواة بينهم في الحقوق

---

(1) د. محمد مختار المفتي: دراسات في الأديان والفرق وأبرز التيارات والحركات المعاصرة، ص 344.

(2) اتجاهات فكرية معاصرة: المؤلف: مناهج جامعة المدينة العالمية، ج1، ص68.

والواجبات، ولكنهم بالطبع لا يذكرون لهذه الشعوب أنّ هذه الوحدةَ العالميةَ التي يقصدون إليها يجبُ أن تتمَّ عن طريقنا نحن، وتحت سيادتِنا المطلقة وسلطاتنا الكلية[1].

وبفضلِ هذه الحالِ فإن الشعوبَ غيرَ اليهوديةِ تقومُ بنفسِها بتحطيمِ كلِّ نوعٍ من أنواعِ الثبات والاستقرار، في الوقت الذي تثيرُ فيه الفوضى، وتنشرُ الارتباكَ مع كلِّ خطوةٍ تخطوها.

رابع عشر: إنّ خطباءَنا سيباشرون مهمةَ تفسيرِ المشكلاتِ الكبرى، وتأويلِها حسبَ هوانا–تلك المشكلاتُ التي قلبتِ الإنسانيةَ رأسًا على عقب– تأويلًا تخضعُ معه الإنسانية إلى حكمنا الصالحِ المتسامح.

إن الصحافةَ كلَّها، وجميعَ وسائل الإعلام واقعةٌ تحت سيطرتنا، والأدبُ والصحافةُ قوّتان في طليعةِ القوى التوجيهية المهمة، وبذلك يجبُ أن تصبحَ حكومتُنا مالكةً للجزء الأعظم من الصحف[2].

لقد حفرنا هوّةً سحيقةً بين السلطاتِ الحاكمة البصيرة، وبين قوة الشعبِ العمياء، ففقد الاثنان بذلك معنى وجودهما، وصارا كالأعمى وعَصاته، لا يساوي كلٌّ منهما شيئًا على انفراد.

على الرغم من افتضاحِ مخطّطاتِ الصهاينة وبروتوكولاتهم، ومواصلةِ إنكارِهم لها لسانًا وقولًا فقط، فإنّ كهنةَ سفر الصهاينة لم يغيّروا شيئًا من مناهجِ تطبيقاتهم لها، حيثما وُجدوا، وأينما حلّوا، وفي أيّ موقعٍ ظهر لهم فيه نفوذٌ، أو تأثيرٌ ما، وفي كلّ

(1) زيد بن عبد العزيز الفياض: اليهود والحركات السرية، ص 163.
(2) جون كديح: الحكومة السرية في بريطانيا، ص19.

مؤسّسةٍ أو حزبٍ أو تنظيمٍ في العالم استطاعوا أن يؤسّسوه، أو يتسلّلوا إليه، ويوجّهوا حركتَه، أو يؤثّروا فيه أيّما تأثير[1].

والمتتبّعون لمكائدِهم -من كلّ شعوبِ الأرض- يلاحظون ذلك، وكثيرٌ منهم قدّمَ شهادتَه بما شاهَد في كتابٍ كتبَه، أو مقالةٍ نشرها، أو تصريحٍ صرَّح به؛ ونُقل عنه في وسيلةٍ من وسائل الإعلام، كما أوضحنا بدايةَ هذا المبحث والمطلب.

إنّ الظواهرَ التطبيقية على أيدي اليهود، أو أُجَرائهم وعملائهم أو السائرين في ركابهم والمنفذين لمخطّطاتهم، هي أوّلُ وأكبرُ شاهدٍ لصحّةِ نسبةِ هذه المخطّطات والبروتوكولات للصهاينة في مختلفِ أرجاء المعمورة، التي يسعى اليهودُ أتباعُ شريعة الغاب المدنّسة إلى تدميرِ حكمها، وفرضِ شريعتهم عليها[2].

إنّ بروتوكولاتِ صهيون تمثّل بلا شكّ مصدرًا من مصادرِ الفكر اليهوديّ المعاصر، ذلك أنّها المكمّلةُ لشرائعِ التراث اليهوديّة، حيث تمثّلُ -البروتوكولاتُ والشرائعُ- معًا شريعةَ الغاب؛ الماضي والحاضر، فلا تناقضَ ولا تنافرَ فيما بينهما، فالبروتوكولاتُ -رغم كونها معاصرة- إلا أنها لم تأتِ بجديدٍ غيرِ ما وردَ في كتبِ اليهودِ المعترف بها منهم، مثلِ التوراة والتلمود وكُتبِ الشريعةِ اليهودية، التي سبقَ وأن فصّلناها في المباحث السابقة، إلّا أنّ هذه البروتوكولاتِ قد فصَّلَت وعيّنتِ الوقائعَ والأحوالَ التي تعني «شعبَ اللهِ المختار» في هذا العصرِ الحديث، في كلِّ مجالاتِ السَّعي للإفسادِ في الدينِ والقيم، وللإفسادِ في السياسةِ والاقتصاد، وفي الأخلاقِ والثقافةِ والإعلام، وجاهَرَ أصحابُها بوقاحةٍ مقرفةٍ بحقيقتِهم وحقيقةِ

(1) علي عبد اللطيف سمعان: الماسونية واليهود في بناء الهيكل الموعود، ص109.

(2) علي عبد اللطيف سمعان: الماسونية واليهود في بناء الهيكل الموعود، ص110.

نواياهم، والتي لم يتفاجَأ بها المؤتمرون المتآمرون، فهذا من ذاك، وذاك من هذا[1].

إنّ عددَ بروتوكولات صهيون يفوقُ بكثرةٍ ما تسرَّب منها، وهو أربعةٌ وعشرون بروتوكولًا، وعلى الرغم من ذلك فإنّنا لم نتناول في دراستنا سوى القليلِ ممّا لخّصناه لتلك البروتوكولات، والتي نجدها كافيةً لتبيانِ حقيقةِ خفايا وجهِ الصهيونية، وحسبُنا في ذلك أنّنا نكتبُ لأصحابِ عقولٍ، وهممٍ تناطحُ السماءَ في بحثِها عنِ الحقيقة[2].

---

(1) نادية شريف العمري: أضواء على الثقافة الإسلامية، ص200-208.

(2) علي عبد اللطيف سمعان: الماسونية واليهود في بناء الهيكل الموعود، ص112.

المبحث الثالث: فلسطين وجغرافيتها

الموقع جغرافية فلسطين

المساحة: تبلغُ المساحةُ الإجماليةُ لفلسطين التاريخية 27.009 كيلو متر مربع، أي نحو 10429 ميلًا مربّعًا[1].

الموقع الفلكي: تقعُ فلسطين التاريخيةُ بين دائرتَي عرضٍ 29.30، 33.15 شمالًا وخطَّي طولٍ 34.15 ـ 35.40 شرقًا.

الموقع الجغرافي تقع فلسطين جنوب غرب قارة آسيا، على جنوبي الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط وهي بذلك تقع في قلب العالم القديم (آسيا وإفريقيا وأوروبا)، مما يجعلها جسرًا بريًّا يربط آسيا بإفريقيا والبحر المتوسط بالبحر الأحمر ومن ثم المحيطين الأطلسي والهندي[2].

وأُطلق على فلسطين عبر التاريخ أسماء عديدة، منها ما ذكُر في الكتب السماوية، أي أنّ الله أسماها، ومنها ما أسماها به الناس وتعارفوا عليه بينهم حسب ما يلائم وصف حال أرض فلسطين.

أسماء فلسطين في الإسلام

أرض الإسراء والمعراج: حيث أُسريَ بالنبي -صلّى الله عليه وسلّم- من مكّة

(1) https://mofa.ps/ar

(2) https://mofa.ps/ar

المكرّمة، وعُرج به من أرض الإسراء والمعراجِ إلى ٱلسَّمَٰوَٰتِ، قال -صلّى اللهُ عليه وسلّم-:﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾[1] قال السيوطي:» لو لم تنزل غيرُ هذه الآية لبيت المقدس لكانت كافية». وأقول: إن هذه الآيةَ اشتملت على عبرٍ كثيرةٍ؛ فهي تدل على أن المبارَكة ليست خاصةً بالمسجد الأقصى بل (حولَه)، والمسجد الأقصى كأنه حلقة الوصل بين المسجد الحرام وسدرة المنتهى في الجنة، وهذا يعني -واللهُ أعلم- أنّ المفرِّطَ في المسجد الأقصى، مفرّطٌ في المسجد الحرام، وليس له مكان في الجنة. وكذلك كان المسجد الأقصى وفلسطين تحت الاحتلال البيزنطي وقت الإسراء، ومع ذلك تم، وكأنّ الله يدعو المسلمين لضرورة تحريره من هؤلاء المحتلين، وأن يكون هذا البلد إسلاميًا[2].

الأرض المباركة: وقال الله عن سيدنا إبراهيم -عليه السلام-:﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾[3]، فالأرضُ المباركةُ الواردةُ في الآية الكريمة هي الشام[4] (سوريا القديمة)، وقال تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾[5]، وقال -عزّ وجل-: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾[6].

(1) سورة الإسراء: الآية1.

(2) زكريا السنوار: تاريخ فلسطين عبر العصور، ص59.

(3) سورة الأنبياء: الآية71.

(4) https://al-sharq.com/opinion/23/06/2015/

(5) سورة الأنبياء:1

(6) سورة سبأ: الآية 18.

الأرض المقدسة: جاء على لسان موسى -عليه السلامُ- مخاطبًا قومَه أيضًا: ﴿ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾(1)

القرية (البلد الرغيد): وردَ على لسانِ سيدنا موسى عليه السلام مخاطبًا بني إسرائيل في سورة البقرة: ﴿ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾(2)، وهذا يعني أنّ من أسماءِ فلسطينَ في القرآن (القرية)، وأنّها كانت بلدًا رغيدًا(3).

أرض الرباط والجهاد: روى أبو المعالي المشرف بن المرجى في كتابه «فضائل بيت المقدس»، قال: قال رسولُ اللهِ -صلّى اللهُ عليه وسلّم-: «إنّ اللهَ سَيَفْتَح عَلَيْكُم الشَّامَ مِنْ بَعْدِي مِنْ الْعَرِيشِ إِلَى الْفُرَاتِ، رِجَالُها ونِسَاؤهَا وإِمَاؤُهَا مُرَابِطُونَ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ، فَمَنِ اخْتَارَ مِنْكُم سَاحِلًا مِنْ سَوَاحِلِ الشَّامِ أَوْ بَيت المَقدِسِ فَهو فِي جِهَادٍ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ».

ومن هذا الحديثِ يتضح أنّ حدود الشام تمتدّ لتشملَ ما بين العريشِ والفراتِ ومنتهى جزيرة العرب، وأن أهلَ المنطقة (التي تُعرف باسم الهلال الخصيب) في رباطٍ وجهاد، ومن اللافتِ للنظرِ أن مَنِ اختارَ الشامَ فهو في جهادٍ أو رباطٍ إلى يوم القيامة.

أرض القبلة الأولى: وذكرُ ابنُ حجر العسقلاني في كتابه فتح الباري: «أنّ الرسول -صلّى الله عليه وسلّم- أول ما قدِمَ المدينةَ نزلَ على أجدادِه -أو قيلَ- أخواله- من

(1) سورة المائدة: الآية 21.

(2) سورة البقرة: الآية 58

(3) زكريا السنوار: تاريخ فلسطين عبر العصور، ص 59.

الأنصار، وأنه صلّى قِبَلَ (جهة) بيتِ المقدس ستةَ عشرَ شهرًا، أو سبعةَ عشرَ شهرًا... وأنّ أولَ صلاةٍ صلّاها صلاةُ العصر... وكانتِ اليهودُ قد أعجبهم أنه كان يصلي قِبَلَ بيتِ المقدس... فلما ولّى وجهَه قِبَلَ البيت (الكعبة) أنكروا ذلك»[1].

وظلَّ كذلك حتى نزلَ قوله -عزّ وجلّ-: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾[2].

أرض المحشر والمنشر: ﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾[3]، لحديث الرسول-صلّى الله عليه وسلّم- حينما سأله عبادةُ بنُ الصامت: أيُّهما خيرٌ؛ الصلاةُ في المسجدِ النبويِّ أم في بيتِ المقدس؟، فقال -صلّى الله عليه وسلم-: «صلاةٌ في مسجدي هذا أفضلُ من أربعِ صلواتٍ فيه، ولنعمَ المُصلَّى في أرضِ المحشرِ والمنشر، وليأتينّ على الناسِ زمانٌ، ولقِيدُ سوطِ الرجلِ، حيث يرى منه بيتَ المقدسِ خيرٌ له، أو أحبُّ إليهِ من الدنيا جميعًا»[4].

ولحديثِ ميمونةَ مولاةِ النبيِّ -صلّى اللهُ عليهِ وسلم-: «يا نبيَّ اللهِ أفتِنا في بيتِ المقدسِ فقال: «أرضُ المحشرِ والمنشر»[5]، ولحديث: «إنكم تحشرون إلى بيتِ المقدسِ ثم تجتمعون يومَ القيامة»[6]. والحديث حسن أخرجه البزار في مسنده.

أرض مهاجر إبراهيم -عليه السلام-: هاجرَ إليها بعدَ أن أرادَ قومُه قتلَه، فتركَ

(1) ج1، ص120، انظر شرح الحديث رقم 62669.

(2) سورة البقرة: الآية 144.

(3) سورة ق: الآية 41.

(4) الطبراني: المعجم الأوسط، ج7، ص103.

(5) الحديث صحيح رواه أحمد في مسنده، وابن ماجة.

(6) الهيثمي: مجمع الزوائد، ج10، ص346

بلدة (أور) في العراق في نحو عام (1805 ق.م)، ومعه زوجته سارة وابنُ أخيه لوط، وغيرُهم ليعملَ على نشر دعوته.

وبذا اعتبرت فلسطين من أقدمِ بقاعِ الأرض التي عرفتِ التوحيد، لقوله -عزّ وجل-: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[1]، وبعد 14 سنة وُلد في جراز على مسافة 25 كم للجنوب الشرقي من غزّة سيدُنا إسحاق -عليه السلام-، وبسببِ القحطِ الذي حدثَ في فلسطين نزحَ سيدُنا يعقوب -عليه السلام- المعروف إلى مصر في نحو عام 1656 ق.م.

الأسماء العربية لفلسطين

أرض كنعان: الكنعانيون قبائلُ عربية سامية نزحوا من أرضهم الواقعة على الساحل الشرقيّ (للخليج العربي)[2] وبقيت لهم السيادة في البلاد مدة 1500 سنة، وذلك من (2500 ق.م- 1000ق.م) تقريبًا،ونسبت فلسطين إلى العرب الكنعانيين ودعيت البلاد بأرض كنعان، فكان أقدم اسم سميت به.

فلسطين: أطلق هذا الاسم عليها نسبةً إلى جماعة البلسيت (peleset) أو بالستا (palaste)، وهو اسم مكان في (أبيروس) في اليونان أو (بلستين) الذين أتَوا من جزيرةِ كريت فسكنُوا غزةَ وما جاورَها حولي 1148 ق.م، وقدِ ازدادت هجرتُهم من كريت فاستولَوا على شمالِ غزّة، وامتلكوا الساحلَ حتى الكرمل، وشرقًا وصلوا إلى سفوحِ جبالِ الخليل[3]، فهم أوّلُ مَن أتى إلى فلسطين من سكّان أوروبّا، وعلى الرغم من

(1) سورة آل عمران: الآية 67.

(2) الخليج العربي: ويطلق عليه أيضًا اسم (الخليج الفارسي).

(3) زكريا السنوار: تاريخ فلسطين عبر العصور، ص20.

اختفاءِ تلك الجماعةِ كجنسٍ بشريٍّ منَ التاريخِ إلّا أنّ اسمَهم بقيَ علمًا على هذه البلادِ، فنُسبَت إليهم، ودُعِيَت بفلسطين.

ويُعَدُّ المؤرخُ اليونانيُّ هيرودتس أولَ مَن أطلقَ هذا الاسمَ على الجزءِ الجنوبيِّ الغربيّ (فلسطين الحالية) من سوريا في كتابهِ الذي كتبَه عام 450 ق.م، وقد أحيا الرومانُ اسمَ فلسطين؛ ففي عام 400م كانت فلسطين تضمُّ بوجهٍ عامٍّ ما كان يُعرَفُ في عهدِ الاستعمارِ البريطاني (1917م- 1948م) باسمِ فلسطين وإمارةِ شرقيِّ الأردن، وبواسطةِ الرومان انتشرَ استعمالُ كلمةِ فلسطين في العالم العربي[1].

سوريا الجنوبية: وذلك لكونها جزءًا طبيعيًّا من بلاد الشام (سوريا) على مرّ العصور، وتؤلّف جغرافيًّا الجزءَ الجنوبي الغربيّ من سورية، ولا يفصلُها عنها أيُّ فاصلٍ أو حاجزٍ طبيعيّ، أو جنسٌ أو تاريخ.

بعد أن بيّنّا عددًا من الأسماءِ التي أُطلقت على فلسطين على مدارِ العصور المختلفة، ولكي نستطيعَ دراسةَ تاريخِ فلسطين وفهمَه، وفهمَ أهميّتها منَ الناحيةِ الإسلامية؛ فإنّه يتوجّب علينا معرفةُ أهميّة موقعِ فلسطين الجغرافيّ، وحالتها الطبيعية؛ وبمعنىً آخرَ يتوجّبُ علينا توسيعُ نطاقِ دراستِنا المقارنة هذه، لكي نسلّطَ الضوءَ على أهمّ العناصر الرئيسةِ التي ترتكزُ عليها جغرافيةُ فلسطين التي غدت فلسًا ينهَبُ وطينًا يباع[2]، فالجغرافيةُ منَ العلومِ المساعدة الضرورية لدراسةِ حوادثِ الدهر، ونهضةِ الشعوب أو نكبتها، فالارتباطُ وثيقٌ بينهما؛ وذلك لأنّ الجغرافية إذا كانت تهتمُّ بدراسةِ المكان، وتصفُ المسرحَ الذي تمثّلُ عليه المسرحية البشرية الهزلية أو

(1) https://www.marefa.org/

(2) زكريا السنوار: تاريخ فلسطين عبر العصور، ص 99.

التراجيديّة، فإنّ التاريخَ يهتمُّ بدراسةِ الزمان، ويصفُ المسرحيّة ذاتها.

وللظواهرِ الجغرافيةِ المختلفةِ الأثرُ العميقُ في أغلبِ الأحوال، في تشكيلِ الحدثِ التاريخيّ؛ فعلى سبيلِ المثالِ، يرتبطُ سيرُ المعاركِ الحربيةِ وتكيُّفها بالتضاريسِ الأرضيّة للمنطقةِ، بل تؤثّرُ الجغرافيا في التاريخِ تأثيرًا كبيرًا حاسمًا من حيثُ تدخُّلِها أحيانًا تدخّلًا حاسمًا في تغييرِ مجرى التاريخ.

لقد برزتِ الأهميةُ الإستراتيجيةُ الكبرى لموقعِ فلسطين على الرغم منَ التقدّمِ العلميّ في مجال المواصلات، لوقوعها على طرق الاقترابِ البرّيّة بين الشرق والغرب[1].

فلسطين... عربيّة... مقدّسة

لم تكن أرضُ فلسطين العربيةُ المقدّسة، أرضَ الرسالات؛ حيث دلّت المكتشفات وأجمع علماء التاريخ والمؤرخون أنّ أبا الأنبياء إبراهيم العربيّ الكلداني، ولد في (أورا وكينا) من أعمال بابل، وليس بفلسطين، وبذلك يكون أبا الأنبياء إبراهيم عربيّ الجنسيّة، كلدانيّ الهويّة، عراقيّ المنشأ -إن جاز لنا التعبير-.

وإنّ أبناءَ سيّدنا إبراهيم -عليه السلام- ومنهم إسحاق قد ترعرع في (حران) وليس بفلسطين، أمّا سيّدُنا موسى -عليه السلام- كما بيّنّا في فصلٍ سابقٍ فقد وُلِدَ وترعرعَ بمصرَ هناك، بأرض النيلِ؛ وليس بأرضِ فلسطين، كما أنّ سيدَنا محمد -صلّى الله عليه وسلّم- ولد في مكّة المكرّمة، وترعرعَ في أرض الجزيرة العربية، وليس بأرض فلسطين. حتّى «فلسطين» الاسم لم تكن موجودةً في زمنِ إبراهيم

(1) https://www.marefa.org/

وإسحاق ويعقوب وموسى، بل كانت هناك أرض كنعان[1].

فممّا تقدّم نرى أنّ الأنبياءَ -عليهم السلام- وُجِدوا جميعًا ضمنَ حدودِ المنطقة التي ندعوها اليومَ «الهلال الخصيب» الذي يشمل فلسطين، ولكن ليس الأرضَ الفلسطينيةَ بالتحديد.

على أنّه يمكنُ أن يكونَ بعضُ الأنبياء من أحفاد سيدِنا إبراهيم -عليه السلام- قد نشؤوا وترعرعوا في فلسطين، بعد أن عمَّ اسمُها على كنعان، كالسيّد المسيح عيسى ابنِ مريمَ -عليهما الصلاة والسلام- الذي كان من بني إسرائيلَ، وأُرسلَ إليهم بلسانهم (لغتهم).

إنّ فلسطين لم تلعبِ الدورَ الحضاريّ منذ (4000 عام) بسببٍ بسيط، وهو أنّ فلسطين، أوِ الفلسطينيين كانوا يشكّلون جزءًا بسيطًا من الكنعانيين، ولم يعمَّمِ اسمُهم على فلسطينَ إلّا بعدَ عام (1010ق.م).

فالدورُ الحضاريُّ كان لكنعانَ؛ وليس لفلسطين، ولمّا كانت كنعان، وفي كلِّ تاريخِها تحت السيطرةِ العربيةِ النهرية (مصر والفرات) فإنّ كلَّ ما أنتجَتهُ كان إنتاجًا عربيًّا يتّسِمُ بمسحةٍ خاصّةٍ بها، فالأبجديةُ واللغةُ والفنُّ والكتابةُ لم تكن إلّا عربيةً؛ لا فلسطينيةً ولا كنعانية.

وهنا يجب أن ندرك أنّ تاريخَ فلسطين كان دائمًا عرضةً للتزويرِ والتلاعب واختلاق الأساطير المضلّلة عبرَ التعليلاتِ الدينية والسياسية من قِبل الباحثين النصارى واليهودِ، على حدّ سواء.

ورغم ذلك كلّه، ففلسطين -ومنذ فجر التاريخ- بلادٌ عربيّة، أو بالأحرى؛ منذُ

(1) إسماعيل ياغي، الجذور التاريخية للقضية الفلسطينية، ص 10-18.

وُجِدَتِ الحضاراتُ القديمةُ في وادي النيلِ وبلاد الرافدين، ولسكّانها الأقدمينَ حضارةٌ كباقي الحضاراتِ القديمة، كُشفَ عن بعضها، والبعضُ الآخرُ ما زالَ مخفيًّا لم يُكشف عنه للعلن؛ وذلك بالطبع لأنّه لا يخدمُ أتباعَ شريعةِ الغاب، فهم يتجاهلون حضارةَ الكنعانيّين في فلسطين إلى حدِّ الإلغاءِ؛ أو ما دونَ ذلك بقليلٍ، أو إلى حدِّ تهميشِ الوجودِ الكنعانيِّ في ظلِّ «حضارةِ يهودِ شريعة الغاب» بينما نحن كنعانيّو الأصل والبداية[1].

فكما كان الاختلافُ في عصورِ ما قبلَ الميلادِ بالنسبةِ لفلسطين كذلك فيما بعده، وخصوصًا في الحقبةِ التاريخيَّةِ الممتدّةِ بين القرنِ السابعِ للميلادِ والقرنِ العشرين، فقد كانت فلسطينُ في هذه القرونِ الثلاثةَ عشرَ جزءًا من الدولةِ العربيةِ الإسلامية، وعاشَ شعبُها الفلسطينيُّ جزءًا لا يتجزّأ من الأمّةِ العربيةِ الإسلامية.

وهنا يجب ألّا ننسى أنّه منذ سقوطِ القسطنطينيةِ في قبضةِ دولةِ الخلافةِ العثمانية في عام 1453م وحتى حملةِ نابليون بونابرت على مصرَ وإخفاقِ حملته على فلسطينَ في عكّا عام 1799م، كانتِ الأرضُ الفلسطينيةُ جزءًا لا يتجزّأُ من دولةِ الخلافةِ العثمانيَّةِ، وغدَت مدينةُ القدسِ والمدينةُ المنوّرة والكعبةُ المشرّفة الجواهرَ الثلاثةَ التي يزدانُ بها تاجُ الخلافة[2].

ولكي تعرفَ مبلغَ هذه المكانةِ فلنستمع إلى ما يقولُه -عزَّ وجلَّ- في سورةِ الإسراء: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[3]، فخلفاءُ المسلمين كافّةً

(1) إسماعيل ياغي، الجذور التاريخية للقضية الفلسطينية، ص 10-18.

(2) زكريا السنوار: تاريخ فلسطين، ص20.

(3) سورة الإسراء: الآية 1.

فهموا مغزى هذه الآيةِ الكريمةِ التي بيّنت صلةَ المسجدِ الحرامِ بمكّة بالمسجدِ الأقصى بفلسطين، وأشارت إلى الارتباطِ الروحيِّ والتاريخيّ فيما بينهما، ثمّ ألقتِ الضوءَ على أنّ بقعةَ المسجدِ الأقصى بقعةٌ طاهرةٌ مباركةٌ مقدّسةٌ، لها شأنُها ولها أهميّتها.

لقد مضتِ السنواتُ سريعةً منذ أن أَسرى المولى -عزَّ وجلَّ- بعبدِه وخاتمِ رسلِه من مسجدِه الحرامِ إلى مسجدِه الأقصى، والمسلمون يدقّون أبوابَ بيتِ المقدس هادين فاتحين.

عيَّنَ عمرُ بنُ الخطاب عبادةَ بنَ الصامتِ قاضيًا على فلسطين، ويزيدَ بنَ أبي سفيان أولَ أميرٍ للقدسِ، وجعلَ علقمةَ بنَ مجزز واليًا على فلسطين، كما أرسلَ معاذ بن جبل لتعليمِ أهلِ فلسطين القرآنَ والإسلام، وقد توفيَ معاذ في طاعون عمواس فخلفَه عبادةُ بن الصامت.

واتخذَ عمرُ (الجابية) بسوريا مقرًا للجندِ في الشامِ، وقسّم الجندَ في الشامِ إلى أجنادٍ؛ جندِ فلسطين، وجندِ الأردنّ، وجندِ دمشقَ، وجندِ حمص، ثم جندِ قِنَّسْرِينَ، وقسِّمت فلسطينُ إداريًا إلى منطقتَين: شماليةٍ؛ ومركزُها الرملة، وجنوبيةٍ؛ ومركزُها القدس.

وشرُّ ما أصاب المسلمين في عهدِ الخلفاء الراشدين طاعون عمواس (18هـ/ 639م) الذي فتكَ بالناسِ، ومات منه الكثيرون؛ ومن بينهم أبو عبيدةَ ويزيد، فعيَّنَ الخليفةَ عمرُ معاويةَ بنَ أبي سفيان أميرًا لبلاد الشام[1].

ثمّ يمضي التاريخُ مسرعًا، وإذا بجيوش الصليبيّين تدكُّ أبوابَ بيتِ المقدسِ

(1) زكريا السنوار: تاريخ فلسطين، ص50.

مغتصبةً ظالمةً، وإذا المذابحُ تجري أنهارًا من الدماءِ في شوارعها ومسجدِها الأقصى، وإذا هي عاصمةُ الصليبِ الدينيةُ لمدّةٍ تقاربُ مئة عام، حيث فعلوا بها من الأفاعيل المخزية ما يندَى له جبينُ التاريخ وما تتأوّه له الأجيال المتعاقبة، إلّا أنّ العاقبة دائمًا للمتّقين الذين أخلصوا الإيمانَ باللهِ، حيث أعزَّهم اللهُ -عزَّ وجلَّ- بصلاحِ الدينِ الأيّوبي المحرّر، تمامًا كما المحرّرُ عمرُ بنُ الخطّاب الخليفةَ الذي حرّرَها أوّلَ مرّةٍ من الصليبيّين، فهي آنذاك أرضٌ عربيّةٌ محتلّةٌ حرّرها فاتحًا؛ ليعاودَ صلاحُ الدين الكرّةَ من جديدٍ محرّرًا إيّاها من ربقةِ الصليبيّةِ الحاقدةِ اللئيمةِ المجرمة، ويردُّ الحقَّ إلى نصابِه، ويرفعُ في سماءِ فلسطين العربيّة الإسلاميّة، وفي مدينة القدس رايةَ الإسلامِ عاليةً خفّاقةً، فلا يراقُ دمٌ، ولا تُنتهك حرمةٌ، ولا يُخفَرُ عهدٌ، وعامَلَ الصَّليبيّين الحاقدين (بعد النصر والفتحِ والتحرير) بما شرَّفَ التاريخَ على مدى الزمان والأيام[1].

وتبقى فلسطينُ العربيةُ الإسلاميةُ بقدسِها وأقصاها، من بحرِها إلى نهرِها تحت حكمِ الشريعةِ الإسلاميةِ في كنفِ دولةِ الخلافة العثمانية، وتبقى كنائسُها؛ كنائسُ العهدةِ العمريةِ والعهدِ الأيوبيّ أمانةً بيدِ حرّاسِ الشريعةِ يُحسنون القيامَ بها والحفاظَ عليها، حتّى غدرَت بها ودنّستها جيوشُ المستعمرِ البريطانيّ، وتُيوسُ المستعمرِ الغربيّ! في حربِ الخيانةِ العالمية الأولى، ويقولَ القائدُ الحاقد (اللنبيّ) قولتَه المشهورة التي كشفت ما بداخله من كرهٍ دفينٍ للإسلامِ والمسلمين: «الآن انتهتِ الحروبُ الصليبية يا صلاح الدين»[2].

يقول ذلك واهمًا أنّهم انتزعوها وإلى الأبد من أيدي حراسِ العقيدة، ويأبى

(1) إسماعيل ياغي، الجذور التاريخية للقضية الفلسطينية، ص 10-18.

(2) إسماعيل ياغي، الجذور التاريخية للقضية الفلسطينية، ص 10-18.

الإنجليزُ أن يخرُجوا من فلسطين إلّا بعد أن خلّفوا خلفهم مَن دفعَهم إلى الأمام، عند مَن خطّطَ بليلٍ، وأعدَّ ودبّرَ وتآمرَ رافعًا لواءَ شريعة الغاب اليهودية، فغدا بها الحاكمَ الآمرَ، وغدا عبّادُ الصليب أذنابًا وعبيدًا يخدُمون شعبَ اللهِ المختارَ، وهكذا سلّمَ المستعمرُ فلسطين للصهاينة، وها هي ذي الدول الكبرى -وعلى رأسها أمريكا- تساندُ يهودَ شريعةِ الغابِ، وتعترفُ بكيانهم الغاصبِ، وتُمِدُّه بالسلاحِ والعتاد، وتفتعلُ مع عملائها الأعرابِ وغيرِهم الحروبَ الطاحنةَ لتنفيذِ مخطّط الصهاينة؛ حيثُ النكبةُ سنة 1948م، فالنكسةُ في حزيران 1967م، ليقعَ المسجدُ الأقصى وفلسطين العروبةُ والإسلامُ، وبلدُ الإسراء والمعراج فريسةً سائغة لوحوش الغاب الصهاينة.

فهل عرفنا السرّ في معجزةِ الإسراء والمعراج لذلك النبيّ العربيّ المسلم؟ وهل أدركنا الآن أيَّ مغزىً سياسيٍّ عظيمٍ قدِ انطوَى عليه هذا الحادثُ المعجز؟ وهل علمنا ارتباطَ المسجد الحرام بالمسجد الأقصى، والصلةَ بينهما دينيًّا وتاريخيًّا؟.

وكأنّ اللهَ -عزّ وجلّ- أخذَ العهدَ على حرّاس العقيدةِ والشريعة الإسلامية في كلِّ زمانٍ ومكانٍ أن يحافظوا على فلسطين، على المسجد الأقصى، على الأرضِ التي بارك اللهُ فيها، محافظتَهم على المسجدِ الحرام والمسجدِ النبوي، لكونه أولى القبلتَين، وثالثِ الحرمَين، ومسرَى خاتمِ الرسالات والرسل محمّد -صلّى الله عليه وسلّم-.

هذه الواقعةُ حدثت في ليلةِ الإسراء والمعراج، حيث وردت في سياق حديثِ النبيّ -صلّى اللهُ عليه وسلّم- عن سؤال المشركين له عن أوصافِ بيت المقدس، وفيها دلالة واضحة على أفضلية النبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- على جميعِ الأنبياء، فقد ﷺ بهم إمامًا، وفيهم مَن فيهم من أُولي العزمِ من الرسلِ، -إبراهيم وموسى

وعيسى- صلواتُ اللهِ وسلامُه عليهم جميعًا.

قال ابنُ كثير في تفسيرِ قولِ اللهِ -عزَّ وجلّ-: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾[1]، «يمجِّدُ تعالى نفسَه، ويعظمُ شأنَه، لقدرتِه على ما لا يقدرُ عليه أحدٌ سواه؛ فلا إلهَ غيرُه ﴿الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ يعني: محمدًا -عليه الصلاةُ والسلامُ- مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ؛ وهو مسجد مكة ﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾، وهو بيتُ المقدس الذي هو بإيلياء، معدنُ الأنبياءِ من لدُن إبراهيمَ الخليل، ولهذا جُمعوا له هنالك كلُّهم، فأمَّهم في محلِّهم ودارِهم، فدلَّ على أنه هو الإمامُ الأعظمُ، والرئيسُ المقدَّمُ -صلواتُ اللهِ وسلامُه عليهِ وعليهم أجمعين-»[2].

ولفهمِ ذلك كلّه وجبَ علينا أن نعيَ مكانةَ القدسِ في العقيدةِ الإسلامية، ومكانةَ الأرض المباركة والمقدّسة، أرضِ الإسراءِ والمعراج، أرضِ فلسطين، أرضِ الشريعة الإسلامية.

وخيرُ دليلٍ على ذلك معجزةُ الإسراءِ والمعراجِ التي قامَ المصطفى -صلواتُ اللهِ عليهِ وتسليمُه- بها على البراقِ بصحبةِ سيِّدنا جبريلَ -عليه السلام- إلى الملأِ الأعلى عند سدرةِ المنتهى، أي إلى أقصى مكانٍ يمكنُ الوصولُ إليه في السماء، وعادَ في نفسِ الليلة -بأمر اللهِ وقدره-.

أولم يدعُ سيدُنا إبراهيمُ -عليه السلام- قومَه إلى التوحيدِ في بلاد الرافدين، وصبرَ على أذاهم وجعلوا له النارَ، فهجرَهم بعد ذلك وقال: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾[3]، فأبدلَه اللهُ -عزّ وجلّ- ببلادٍ خيرٍ من بلادِه الأولى، وأعطاه النسلَ

(1) سورة الإسراء: الآية 1

(2) https://www.islamweb.net/ar/article/193375

(3) سورة الصافات: الآية 99

الصادقَ الصحيحَ الذي كان منه كلُّ الأنبياءِ إلى عيسى -عليه السلام-، وإبراهيم نَشِطَ في الدعوة إلى التوحيد، كما فعل محمّد -صلّى الله عليه وسلّم- نَشِطَ في دعوةِ الناسِ إلى عبادةِ اللهِ -عزَّ وجلَّ-، ولذلك أقامَ إبراهيمُ في فلسطينَ حيث المسجدُ الأقصى يدعو إلى توحيدِ الله، وانتقلَ بأمرِ اللهِ -عزّ وجلّ- إلى مكّة، إلى المسجد الحرام، حيث واصلَ دعوتَه إلى التوحيد، وهنا تتجلّى لنا حقيقةُ الربطِ بين المسجد الحرام والمسجِدِ الأقصى، منذ أبي الأنبياءِ إبراهيم -عليه السلام- الذي كان ينتقلُ بين المسجدَين على البراق[1]، والذي هو نفسُه حملَ محمّدًا -صلّى الله عليه وسلّم- وأسرى به إلى المسجد الأقصى، فهذا التشابهُ في دعوة إبراهيم أبي الأنبياء أوّلًا، ثمّ محمّد خاتم النبيّين -صلّى الله عليه وسلّم-، تشابهٌ له معناه وله مغزاه، وهو أنّ اللهَ -عزّ وجلّ- عالمَ الغيبِ والشهادة، يعلم أنّ هناك أناسًا يخرجون عن دينه، ويحيدون ويحرّفون ويعطّلون ويزيّفون ويتلاعبون بالشريعة والشرع والتاريخ والسّيَر وما أنزل الله؛ لذلك بدأ إبراهيمُ الدعوةَ إلى التوحيد كما أمرَ الله -عزَّ وجل- فجاء دينه بالحقّ ناصعًا واضحًا.

ثمّ تسلسل الناس بهذا التاريخ إلى عهد عيسى حتى كفر وفجر اليهود فبغت اليهود والنصارى، ثمّ بُعث محمّد -صلّى الله عليه وسلّم- في العرب للعرب وللبشريّة كافّةً، فأعاد ما نادى به إبراهيم -عليه السلام-، وأسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وكان المسجد الأقصى قبلةَ الأنبياء كلّهم، والمسجدُ الحرامُ كان قبلةَ النبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- ثمّ من بعده أمّته، هذا الربطُ الربّانيّ وهذا الأمر يجعل هناك تشابهًا قويًّا بين إبراهيم ومحمّد، وقد قرن اللهُ ذكرَهما في كثيرٍ من

---

(1) فتح الباري: 6/ 465

المواضع، ففي الصلاة قبل أن نسلّمَ نصلّي على إبراهيم ونصلّي على محمّد، ونبارك على إبراهيم، ونبارك على محمّد -صلّى الله عليه وسلّم-.

وقد جاء أنّ أبا ذرّ سأل النبيّ -صلّى الله عليه وسلّم-: «أيّ مسجدٍ وُضع في الأرض أوّلًا؟ قال: المسجد الحرام، قال: ثمّ أي؟ قال: المسجد الأقصى، قال كم بينهما؟ قال: أَرْبَعُونَ»[1].

وهنا يتّضحُ لنا أنّ لفلسطين العربيةِ المسلمة مُهاجَرِ إبراهيم -عليه السلام- وموطنِ دعوتِه، دعوةِ التوحيد، خاصّيّةً مهمةً أُسريَ من أجلها بسيدِنا محمّد -صلّى الله عليه وسلّم- إلى المسجد الأقصى، لتتضحَ هذه الأهميّةُ والخاصّيّة، ويزدادُ بيانُها للناس، لذلك فما إن طهّرَ النبيُّ -صلّى الله عليه وسلّم- الجزيرةَ العربية من الشرك والكفر، حتّى عقدَ لواءَ الفتحِ والتحرير لأرض فلسطين، وهذا الذي استنَّه كثيرٌ مِن القادةِ المسلمين الفاتحين، ذلك أنّ أوّلَ فتحٍ للمسلمين كان بتوجُّههم إلى فلسطين، لأنّ المسجدَ الأقصى فيه المنارة، منارةُ دعوة التوحيد.

فالله -عزَّ وجلَّ- كتبَ أنّ في بلاد الشام وفلسطين والأقصى حلبةَ جهادٍ متواصلةٍ، منوطٌ بالمسلمين التوجّه لها وذلك للمشاركةِ في صراعِ الحقّ، صراعِ الشريعة الإسلامية ضدّ أهلِ الشرك والباطل، أهلِ شريعةِ الغاب اليهودية وأعوانهم، ومَن لفَّ لفيفَهم من نصارى وأهلِ الدنيا ومن المرجفين والمنافقين.

فنحن المسلمين أحقُّ الناسِ بعمارةِ الأرضِ المباركة حيث الشامُ والأقصى وفلسطين، فهي أشبهُ ما تكونُ بأرضِ جهادٍ ورباط إلى يومِ قيام الساعة، فأعداءُ اللهِ لن يكفّوا كيدَهم عنها أو عنّا، فكان الترغيبُ للإقامةِ فيها والرباط على ثغورها،

(1) فتح الباري: 9/ 528.

ومؤازرة أهلها ومجاهديها، ومساندتِهم ودعمهم؛ لأنّهم عنوانُ الصراعِ بين الحقّ الرباني والباطلِ الشيطاني، ففلسطينُ مركزُ قيادةِ المسلمين إلى الحقّ والخيرِ الذي بشّرَ به خيرُ البريةِ محمّد -صلّى الله عليه وسلّم- بقوله: «إذا فسدَ أهلُ الشامِ فلا خيرَ فيكم، لا تزالُ طائفةٌ من أمّتي منصورين لا يضرُّهم من خذلَهم حتّى تقومَ الساعة»[1].

(1) أخرجه بهذا النص الطيالسي في مسنده (ص145 رقم 1076).

المبحث الرابع: الأرض المقدسة... تاريخ ومعارك

قبل أن تقومَ الساعةُ يجب علينا أن نعودَ إلى أوّلِ عهدٍ لفلسطين والمسجد الأقصى بالشريعة الإسلامية الخاتمة، حيث كان بإسراءِ سيّدِنا محمّدٍ -صلّى اللهُ عليه وسلّم- إليها، ومعراجِه إلى السماءِ من مسجدِها الأقصى، من بوّابةِ السماءِ التي صعدَ منها رسولُنا الكريم إلى السماواتِ العلى، وذلك لتشريفِ هذه البقعةِ من الأرضِ، ولمكانتها عند ربِّ السماءِ والأرض وما بينهما وما تحت الثرى، فما إن رجعَ المصطفى من رحلةِ المعراج حتّى جمعَ الله -عزَّ وجل- له جميعَ الأنبياء، فصلّى بهم إمامًا فوق أرضِنا الطيبةِ المقدّسة المباركة.

لذلك وما إن عاد خاتمُ الأنبياء من الإسراءِ حتّى شرعَ في شهر جمادى الآخر من السنة الثامنة للهجرة في الإعدادِ والتمهيدِ لتطهيرِ فلسطين والمسجد الأقصى، وتأمينِ ديارِ الإسلام، حيث بعثَ الرسولُ الكريم الحارثَ بنَ عميرٍ الأزديّ إلى ملكِ بُصرَى البيزنطيّ يدعوهُ للدخول في الإسلام، فلمّا وصلَ رسولُ رسولِ اللهِ إلى مؤتة في الكرك، كان قد قابله شرحبيلُ بن عمرو الغسّانيّ حليفُ الدولةِ البيزنطيّة الذي بادرَ بقتلِ الحارث، وذلك تجاوزًا لأعرافِ التعامل مع الرسل والسفراء[1].

لذلك أمرَ رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- المسلمين بالتجهيز للقتال، فاستجابوا للأمر النبويّ فحشدوا، إذ بلغ عددُ المقاتلين آنذاك ثلاثةَ آلاف مقاتلٍ

(1) تاريخ الطبري: ج 3 ص 103 دار سويدان - بيروت - 1964م.

مجاهد، واختار المصطفى -صلوات الله عليه وسلامه- ثلاثةَ أمراء على التوالي لقيادةِ جيش المسلمين، وهم: زيد ابن حارثة، فجعفر بن أبي طالب، فعبد الله بن رواحة.

غزوة مؤتة:

وفي جمادى الأولى سنة 8هـ/ 629م كانت غزوةُ مؤتةَ بسبب قتلِ الغساسنة (العرب النصارى الموالين للبيزنطيين في بلاد الشام) رسولَ رسول الله -صلّى اللهُ عليه وسلّم-، وكان المسلمون (ثلاثة آلاف رجل)، وقابلوا 100 ألف من الروم، ومثلَهم من الغساسنة النصارى، وفي هذه المعركة استشهد أمراءُ الجيش الثلاثةُ؛ وهم زيد بن حارثة (حِب رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم-)، وجعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة، وتمكنَ خالد بن الوليد من إخراج الجيشِ الإسلامي من المأزق، وانسحب به، فقابلهم المسلمون في المدينة يحثونهم بالتراب ويقولون لهم: يا فُرار، يا فُرّار، فقال رسولُ اللهِ صلّى الله عليه وسلّم: بل الكُرّارُ إن شاء الله. وأهمُّ نتائجِ هذه الغزوة: أن قريشاً نقضتِ الصلحَ مع المسلمين، إذ إنها هاجمت خزاعةَ حليفة المسلمين، فقرّر الرسولُ صلّى الله عليه وسلّم فتحَ مكة، وفتحَها في نفس العام[1].

غزوة تبوك:

وفي سنة 9هـ/ 630م كانت غزوة تبوك، وقادها الرسولُ صلّى الله عليه وسلّم

(1) البخاري، كتاب المغازي، ج5، ص102، رقم 4261

بنفسه، ولم تحدث معركةٌ مع الروم، فوطّدَ سلطةَ المسلمين في المنطقة، وصالحَه من القبائلِ اليهودية أهلُ جرباء وأذرح ومقنا، ومن القبائل النصرانية أهلُ تبوك وأيلة ودُومة الجندل، واقتضتِ المعاهدات معهم أن يكونوا آمنين على عقائدِهم وأموالهم لقاءَ الجزية؛ وبهذه الغزوةُ حقق المسلمون انفتاحَ منافذِ بلاد الشام لهم[1].

جاء في صحيح الإمامِ مسلم -فيما رواه بسنده إلى معاذ- أن أصلَ هذه التسمية «تبوك»، أنّ رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- قال: «ستأتون غدًا إن شاء الله عينَ تبوك، وإنّكم لن تأتوها حتّى يضحى النهار، فمن جاءها منكم فلا يمسّ من مائها شيئًا حتّى آتي».

وإنّ سببَ غزوة تبوك هو الاستجابةُ لفريضة الجهاد، ولذلك عزم الرسول على قتال الروم؛ لأنّهم أقرب الناس الكفرة لحدود المسلمين، وأولى الناس بالدعوة إلى الحقّ لقربهم من أرض الإسلام وأهلها[2]، وقال -عزّ وجلّ-: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾[3].

لقد حشدَ رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- لهذه الغزوة ثلاثين ألف مجاهدٍ مقاتلٍ من المهاجرين والأنصار وأهل مكّة والقبائل العربيّة، وقد أعلن -على غير عادته في غزواته- هدفَه ووجهتَه في القتال، إذ أعلن صراحةً أنّه يريدُ قتالَ بني الأصفر (الروم)، علمًا بأنّ هديَه -صلوات الله عليه وسلامه- أن يواريَ في معظمِ غزواته، ولا

(1) د.هايل خليفة الدهيسات: القدس تاريخ وحصار: ص 38-42 بتصرّف من الكاتب، دار كنوز المعرفة العلمية للنشر والتوزيع-عمان.

(2) صحيح مسلم، ط 2، دار إحياء التراث العربي-بيروت 1972

(3) سورة التوبة: الآية 123

يصرّحُ بهدفه ووجهته وقصده حفاظًا على سرّيّة المعركة ومباغتة العدو(1).

وما إن تجمّع المسلمون عند ثنيّة الوداع، بقيادة رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- حتّى أعطى اللواءَ الأعظم إلى أبي بكر الصدّيق، ورايتَه العظمى إلى الزبير بن العوّام، ودفع رايةَ الأوس إلى أسد بن حضير، ورايةَ الخزرج إلى أبي دجانة، وأمرَ كلَّ بطنٍ من الأنصارِ أن يتّخذَ لواءً(2).

وهنا توجّه الجيشُ الإسلاميّ بقيادة رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- إلى تبوك، ولم يجد أثرًا للحشود الرومانية، ولا القبائلِ العربية، بالرغم من أنّ الجيشَ مكثَ عشرين ليلةً في تبوك، فلم يجرؤ، لا الرومُ ولا القبائلُ العربية المتحالفة معهم على قتالِ جيش محمّدٍ -صلّى الله عليه وسلّم- جيشِ المجاهدين الساعين إلى إقامةِ شرعِ اللهِ في أرض الله.

ولأنّه رسولُ الله، ولأنّ اللهَ -عزَّ وجلّ- ناصرَه بالرعبِ، فقد آثرَ عددٌ من حكّامِ المدنِ في أطرافِ بلادِ الشامِ وفلسطين الصلحَ ودفعَ الجزية، وقد تمكّنَ خالد بن الوليد من أسرِ ملكِ دُومةِ الجندل، أكيدر بنِ عبدِ الملك الكندي(3)، فصالحَه النبيُّ على الجزية(4).

ومع نهايةِ عهدِ النبيّ -صلّى اللهُ عليه وسلّم- أسلمت تبالة وجرش وبطونٌ من قضاعةَ في شرقِ الأردن. وفي سنة 11هـ/ 632م، وقبلَ وفاة الرسول -صلّى الله عليه وسلّم- بشهرٍ واحدٍ، أعدَّ الرسولُ -صلّى اللهُ عليه وسلّم- العُدةَ لإنفاذِ جيشٍ يقودُه

(1) الصراع مع الصليبيين، مرجع سابق، ص 97

(2) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج2، ص166.

(3) أحمد بن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، ج1، ص 412-415

(4) ابن هشام، المصدر السابق، ج4، ص180

أسامة بن زيد، وأوصاه أن «يوطئ الخيلَ تخومَ البلقاءِ والداروم من أرض فلسطين»، لكنّ مرضَ الرسول -صلّى الله عليه وسلّم- ووفاتَه أخّرا خروجَ الجيش.

وبعد وفاةِ النبيّ -صلّى الله عليه وسلّم-، واختيار أبي بكر الصديق خليفةً لرسول الله، اندلعت حركةُ الردة، لكنّه بالرغم من حركةِ المرتدين وصعوبةِ الموقف بالمدينة، قرّرَ أبو بكر الصديقُ إنفاذَ جيشِ أسامة؛ امتثالًا لأمرِ الرسول -صلّى الله عليه وسلّم- وهو في مرضِه الأخير: «جهّزوا جيش أسامة»، وخرجَ في ربيع الآخر 11هـ/ 27 يونيو 632م، وأثبت قوةَ المسلمين، وردّ محاولاتِ الهجوم على المسلمين في ظلِّ الردة، ثم عاد للمدينة[1].

وبعد أن فتحَ اللهُ على المسلمين أجزاءً من العراق عام 12هـ، اقترحَ شرحبيل بن حسنة على أبي بكر فتحَ الشام، فجمعَ كبارَ الصحابةِ وشاورَهم فوافقوه على ذلك، وحضَّ المسلمين على الجهاد، وتجمعوا من كلّ مكان، وخرجتِ الجيوش تباعًا إلى الشام في رجب 12هـ/ أكتوبر 633م.

توليةُ أبي بكر وبعثُ أسامة بن زيد -رضيَ الله عنهما-:

كانت وفاةُ الرسول -صلّى الله عليه وسلّم- يومَ الإثنين 12 ربيع الأول سنة11 للهجرة[2]، وله ثلاثٌ وستون سنة[3]، إلّا أنّه -صلواتُ الله عليه وسلامه- كان قد جهّزَ جيشَ أسامة قبل وفاته، فأكملَ المهمّةَ خليفتُه أبو بكر الصّدّيقُ، الذي وجّهَ أسامةَ بأمرٍ عسكريٍّ يعتبرُ من أسمى مراتبِ الأوامر العسكرية التي تتماشى مع

(1) زكريا السنوار: تاريخ فلسطين، ص46.
(2) البداية والنهاية، مرجع سابق، ج4، 223.
(3) مسلم، كتاب الفضائل، ج4، ص 825.

الشريعة الإسلامية، ممّا لا ترقَى إليه أنظمةُ حقوق الإنسان في أيّامنا هذه، ولا شرائعُ التراثِ اليهودية المتمثلةُ بشريعةِ الغاب، والتي تُستباح بموجِبها كلُّ المحرّمات، وتُنتهك كلّ الحرمات...

يقول الصديق أبو بكر -رضيَ الله عنه- لأسامةَ وجيشِه، وهم نية المسير: «لا تخونوا ولا تغُلُّوا، ولا تغدِروا ولا تمثّلوا، ولا تقتُلوا طفلًا صغيرًا، ولا شيخًا كبيرًا ولا امرأة، ولا تعقِروا نخلًا ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرةً مثمرة، ولا تذبحوا شاةً ولا بقرةً ولا بعيرًا، وسوف تمرون بأقوامٍ قد فرغوا أنفسَهم في الصوامع، فدعوهم وما فرغوا أنفسَهم له»[1]، هكذا هي الشريعةُ الإسلاميةُ الربانية التي تجعلُ حرمةً لكلِّ خلقٍ من خلق الله، بشرًا أم شجرًا، حتّى القساوسةُ في كنائسِهم، وأديرتِهم تجعلُ لهم حرمةً يحظر تخطّيها.

وها هو أبو بكر الصديق، يجهّز أربعةَ جيوشٍ لفتحِ القدسِ مع بلادِ الشام، لتعودَ عربيةً وتغدوَ إسلاميةً؛ أربعةَ جيوشٍ على رأسها خيرةُ قادة المسلمين وهم: أبو عبيدة عامر بن الجرّاح، وشرحبيل بن حسنة، ويزيد بن أبي سفيان، وابن العاص عمرو -رضي الله عنهم جميعًا-، حيث كلّف أبو بكر الصدّيق عمرًا بن العاص بالتوجّه إلى فلسطين بدءًا بالقدس[2].

وقبل مسيرِ ابن العاص على رأسِ الجيش، وجّه أبو بكر إليه وصيّةً تعتبرُ بمثابة الأمر العسكريِّ للجيش الإسلامي، وممّا جاء فيها: «قد وليتُك هذا الجيشَ، فانصرف إلى أهل فلسطين، وكاتِب أبا عبيدة وأنجِده إذا أرادك ولا تقطع أمرًا إلا بمشورتِه، اتقِ

(1) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج 19 ص 48.

(2) الواقدي: فتوح البلدان، ج1، ص15.

اللهَ في سِرِّك وعلانيتِك، واستحيِه في خَلواتِك فإنه يراك في عملك، وقد رأيت تقدِمَتي لك على مَن هم أقدمُ منك سابقةً وأقدمُ حرمةً؛ فكن من عُمالِ الآخرة، وأرِد بعملِك وجهَ الله، وأسلُك طريقَ إيلياء حتى تنتهيَ إلى أرض فلسطين[1]، وإياك أن تكون وانيًا عما ندَبتُكَ إليه، وإياك والوهنَ، وإياك أن تقولَ جعلني ابنُ أبي قحافةَ في نحرِ العدوِّ ولا قوةَ لي به، واعلم يا عمرو أنّ معَك المهاجرين والأنصارَ من أهلِ بدرٍ، فأكرمهم، واعرف حقَّهم، ولا تتطاولْ عليهم بسلطانك، ولا تُداخِلُك نخوةُ الشيطان فتقول: إنما ولّاني أبو بكر لأني خيرُهم، وإياك وخدائعَ النفس، وكن كأحدِهم، وشاورهم فيما تريدُ من أمرك. والصلاةَ ثم الصلاة؛ ائذن بها إذا دخلَ وقتُها، واحذَر من عدوّك، وأمُر أصحابَك بالحرسِ، ولتكُن أنت بعد ذلك مطّلعًا عليهم. وأطلِ الجلوسَ بالليلِ مع أصحابك، وأقم بينهم، واجلس معهم، واتقِ اللهَ إذا لاقيتَ العدوَّ، وقدِّم قبلَك طلائعَك فيكونوا أمامك[2]، وإذا وعظتَ فأوجز، وأصلح نفسَك تصلحْ لك رعيتُك، وإذا رأيت عدوَّك فاصبر، ولا تتأخر فيكون ذلك فخرًا منك، وألزِم أصحابَك قراءةَ القرآن، وانهَهم عن ذكرِ الجاهلية وما كان فيها؛ فإنّ ذلك يورثُ العداوةَ بينهم، وأعرض عن زهوةِ الدنيا، حتّى تلقى مَن مضى من سلفك، وكن مِن الأئمّة الممدوحين في القرآن[3]، إذ قال -عزّ وجل-: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ ۖ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾[4]».

ولا يتسعُ المجالُ في دراستنا المتواضعة هذه لتحليلِ هذه الوصية والتعليقِ عليها،

---

(1) الطبري: تاريخ الملوك، ج3، ص143.

(2) ابن الاثير: الكامل في التاريخ، ج2، ص98.

(3) الواقدي: فتوح البلدان، ج1، ص15؛ عارف العارف: المفصّل في تاريخ القدس، ص 85 - 86.

(4) سورة الأنبياء: الآية 73.

ولكن يمكنُ القولُ بأنّها تمثّلُ روحَ الشريعةِ والعقيدة الإسلامية، ذلك بأنّها كانت دستورًا ربّانيًّا عامًّا للجيوشِ والقادة المسلمين إبّانَ الفتوحِ الإسلامية عامّةً، ويجوز لهذه الوصيةِ أن تكون روحًا لكلّ جيشٍ من الجيوش في كلِّ زمانٍ ومكانٍ لما تضمَّنته من الأبعادِ الإنسانية أوّلًا؛ والعسكرية ثانيًا، كيف لا؟! وهي معتمِدةٌ كلُّها على شريعةِ اللهِ -تعالى-، لا على شريعةِ الغاب؛ على الشريعة الإسلامية الربانية، لا على شرائعِ التراث اليهودية.

انطلقَ ابنُ العاص بقواته -وكان تعدادُها يتراوحُ ما بين ستّة إلى سبعة آلاف مقاتل- وهدفُها فلسطين، وسلك طريقًا لساحلِ البحر الأحمر حتّى وادي عربة في البحرِ الميّت، ونظّمَ عمرو قوّةَ استطلاعٍ مؤلّفةً من ألفِ مقاتلٍ، ودفعَها باتّجاه محورِ تقدّم الروم، ووضع على قيادتها عبدَ الله بنَ عمر بن الخطّاب، وواجهت هذه القوّةُ قوّاتِ الروم، وانتزعتِ النصرَ ودمّروا قوّة العدوّ الصليبي، وأرغموهم على تركِ ميدان المعركة والفرار منه، وانتهتِ المعركة بسقوط آلاف القتلى من الروم[1].

كانتِ الجيوشُ المكلفةُ بفتحِ بلاد الشام تواجه مصاعبَ في تنفيذِ مهمّاتها، فقد واجهتِ الجيوشَ الرومانية التي تمتاز بكثرةِ عددها، وقد بنتِ الحصونَ للدفاع عن مراكزِ المدن في فلسطين وأنطاكية، ومن إيلياءَ كان هرقلُ يشرفُ على مسرحِ العمليات الحربية بنفسه، حيث أصدرَ الأوامرَ إلى قوّاته بالتوجّه لتدميرِ الجيوش الإسلامية[2].

فكتبَ أبو عبيدة إلى الخليفةِ أبي بكر يخبرُه بما بلغه ممّا جمعَه هرقلُ ملكُ الروم من الجموع، وعن خطّةِ هرقلَ لتدميرِ الجيوشِ الإسلاميةِ؛ كلٍّ على انفراد.

---

(1) نهاد عبّاس، العمليات التعرضية والدفاعية عند المسلمين، ص 143، دار الحرية، بغداد.

(2) ياسين سويد، معارك خالد بن الوليد، ص 78،77 المؤسسة العربية للدراسة والنشر 1989.

وشرعَ الصدّيقُ في إمدادِ الجيوشِ الإسلامية ببلادِ الشام بالرجالِ والسلاحِ والخيول، ودعا هاشمَ بن عتبةَ بن أبي وقّاص، وقال له: «يا هاشم، إنّ من سَعادةِ جدّك، ووفاءِ حظّك أنك أصبحتَ ممّن تستعينُ به الأمةُ على جهادِ عدوها، وممّن يثقُ الوالي بوفائِه وصدقه ونصحِه وبأسه وشجاعته، وقد بعثَ أبو عبيدة بنُ الجراح والمسلمون يخبرونني باجتماعِ الكفارِ عليهم، فاخرج فعسكِر حتى أندِبَ إليك الناسَ، إن شاء اللهُ، ولا حولَ ولا قوةَ إلا بالله، فاخرُج حتّى تتقدّمَ على أبي عبيدة أو يزيد»، قالَ هاشمُ ابنُ عتبة: لا بل على أبي عبيدة، قال: فأقدِم على أبي عبيدة... ثمّ خرجَ من عندِ أبي بكر فلزمَ طريقَ أبي عبيدة حتّى قدِمَ عليه، فتباشرَ بمقدِمه المسلمون وسُرُّوا به[1].

معركة أجنادين:

أجنادين موقعُها بين الرملةِ وبيتِ جبرين بفلسطين، وتبعُد عنِ المسجد الأقصى حوالي 25 كم، وربّما أنّها كانت قربَ ما يُعرف اليومَ باسم وادي السمط، وكان الروم قد جمعوا قواتٍ كبيرةً يقودُها (ALQubuglar) أي الحاجبُ الذي استخلفَه هرقل على أمراءِ الشام حين سار إلى القسطينطينية.

وتعتبرُ أجنادين أوّلَ معركةٍ كبيرة حدثت في بلاد الشام -وتحديدًا في فلسطين- بين المسلمين والروم البيزنطيين[2].

كانت قيادةُ الجيوشِ الإسلامية بالشام تتابعُ تطوّرَ حركةِ الجيوشِ الرومانية،

(1) الواقدي، محمد بن عمر، فتوح الشام ص 33، دار ابن خلدون.

(2) علي محافظة، زيدان كفافي، القدس عبر العصور، ص 70-71.

وشعرَ القادةُ بخطورةِ الموقف، فعقدوا اجتماعًا بالجولان، وكتبَ أبو عبيدة إلى الخليفةِ يشرحُ له الأمرَ، وفي الوقتِ نفسِه قرّرُوا الانسحابَ من جميعِ الأراضي التي تمّ فتحُها وتجمّعوا في مكانٍ واحد، ليتمكّنوا من إحباطِ خطّةِ الرومان، وإجبارِهم على خوضِ معركةٍ فاصلةٍ تخوضُها كلُّ الجيوشِ الإسلامية، وكان عمرو بنُ العاص قد أشارَ على القادة أن يكونَ التجمّعُ باليرموك[1].

فاتّفقَ القادةُ على أن يتمَّ الانسحابُ لتجنُّبِ الاشتباكِ معَ الروم، فانسحبَ أبو عبيدة من حمص، وشرحبيل من الأردن، ويزيدُ من دمشق، وبدأ عمرو بن العاص بالانسحابِ تدريجيًّا من جبهةِ فلسطين[2]، ولم يتمكّن من ذلك، فظلّ يناورُ في بئر السبع نظرًا لمتابعةِ الروم له.

وكان قد وقعَ اختيارُ الخليفة أبي بكر الصدّيق على سيفِ الله المسلول خالد بن الوليد، فكتب إليه بالعراق، ووصلَ بجيشِه إلى بلادِ الشام، فأصبحَ عددُ جيشِ المسلمين نحوَ ثلاثين ألفَ مجاهدٍ مقاتل، فما إنِ اصطدمت قوّات عمرو بن العاص بالروم على جبهةِ فلسطين حتّى هاجمَ خالدٌ بجيشه، فحدثت معركةُ أجنادين سنة (13ه) فتمَّ توجيهُ قوّة عسكريّة اقتحمت صفوفَ الروم، فوصل مقاتلو المسلمين إلى قائدِ الروم (القبقلار) (ALQubuglar) فقتلوه، وبالتالي انهارت مقاومة الروم[3]، فلمّا وصل خبر الهزيمة إلى هرقل، وهو في حمص شعر بحجم الكارثة[4].

(1) العمليات التعرضية الدفاعية عند المسلمين، مرجع سابق، ص 143.

(2) العمليات التعرضية الدفاعية عند المسلمين، مرجع سابق، ص 148.

(3) نزار الحديني، خالد جاسم الجنابي، أبو بكر الصديق، ص 70، دار الشؤون الثقافية العامة، العراق ط 1 عام 1989م.

(4) المرجع نفسه ص 71

هذا ويُرجّح أنّ معركةَ أجنادين وقعت في الأشهرِ الأخيرة من حياةِ أبي بكر الصديق، ويبدو أنّ أخبارَها وصلت إليه وهو على فراش الموت[1]، في شهرِ جمادى الآخرِ من العام الثالثِ عشرَ للهجرة النبويّة[2].

معركة اليرموك:

بعد فتحِ دمشق، جمعَ هرقلُ قواتٍ كبيرةً جدًا بلغت 200 ألفٍ بقيادةٍ (ماهان)، وكان المسلمون 36 ألفًا، منهم ألفُ صحابي، وفيهم نحوُ 100 ممّن شهدوا بدرًا.

قررَ المسلمونَ التجمعَ فانسحبوا من المدنِ المفتوحة، وردوا الجزيةَ لأهلها لأنهم غيرُ قادرين على حمايتهم، وراسلَ أبو عبيدة عمرَ بن الخطاب يصفُ له درجةَ الاستنفار القصوى عند البيزنطيين، فقرأَ عمرُ الرسالةَ على أهل المدينة فبكَوا إشفاقًا على المسلمين في الشامِ، ثم كتبَ عمرُ يصبّرهم ويشدُّ من بأسهم، وأمدهم بألفٍ من المسلمين، واستبشرَ المجاهدون خيرًا[3].

اجتمعَ القادةُ المسلمون في الجابية، وقرروا النزولَ تحت قيادةٍ ميدانيةٍ واحدةٍ لخالد بن الوليد، وانسحبوا من الجابية إلى أذرعات، ونزلوا خلف نهر اليرموك، وجعلوا أذرعات خلفَهم، ونزلَ الرومُ بين اليرموكِ ووادي الرقاد (الواقوصة) فأصبح البيزنطيون محاصرين من ثلاثِ جهات، فتحرك المسلمون من أذرعات وعسكروا مقابلَ الرومِ الذين لم يعُد لهم طريقٌ إلا على المسلمين[4].

(1) أحمد محمد باشميل، حروب الإسلام في الشام، ص 45،دار الفكر، ط1 / 1400 هـ – 1980 م.

(2) البداية والنهاية، المصدر السابق ج 7، ص 18، الطبري، المصدر السابق، الجزء الرابع ص 238

(3) زكريا السنوار: تاريخ فلسطين، ص47.

(4) علي محافظة وآخرون، مرجع سابق، ص 72، هايل الدهيسات، تاريخ القدس من الكنعانية إلى الرعاية

جمعَ خالدٌ الجيوشَ جيشًا واحدًا، وأعاد تنظيمَه على شكلِ كراديسَ -وحداتٍ- وخطبَ خالدٌ فيهم، قائلاً: «إنّ هذا يومٌ من أيام الله، لا ينبغي فيه الفخرُ ولا البغي، أخلصوا جهادَكم، وأَريدوا اللهَ بعملِكم، فإن هذا اليومَ له ما بعده».

دعا ماهان قائدُ الرومِ خالدَ بن الوليد للتفاوض، ففاخرَ ماهان بقوةِ أمته ومنَعَتِها، وسخرَ من العرب وضعفِ حالهم، وعرضَ على خالدٍ عشرةَ آلاف دينارٍ ولأبي عبيدةَ مثلَها، ولكلِّ قائدٍ ألفُ دينارٍ، ولكلِّ فردٍ مائةَ دينار، فرفضَ خالد ذلك، وبين له أن المسلمين لم يخرجوا من بلادِهم من أجلِ المال، وإنما خرجوا جهادًا في سبيل الله، وعرضَ عليه الإسلامَ أو الجزيةَ أو الحرب[1].

وجاء بعضُ جواسيس البيزنطيين لهم بأخبارِ المسلمين قائلين: إنهم قومٌ يقومون الليل، ويصومون النهار، ويأمرون بالمعروفِ وينهَون عن المنكر، لو سرقَ ملكُهم لقطعوا يدَه، ولو زنَى لرجموه لإيثارِهِمُ الحقَّ؛ فقال بعضُ قادتهم: «لئن كان هذا حقًا، لبطنُ الأرضِ خيرٌ لمَن يريدُ قتالَهم من ظهرها».

وفي يوم الإثنين 5 رجب 15هـ/ 12 أغسطس 636م، زحفَ الروم على المسلمين، فخطبَ أبو عبيدة في المسلمين، قائلاً: «يا عبادَ الله: انصروا اللهَ ينصرْكم، ويثبتْ أقدامَكم، فإنّ وعدَ اللهِ حقٌّ، يا معسكرَ المسلمين اصبروا فإن الصبرَ منجاةٌ من الكفر ومرضاةٌ للرب، ومدحضةٌ للعار» ودعا غيرَه من القادة للثبات[2].

وجاءت نساءُ المسلمين فوقفن على مرتفعٍ خلف الصفوف، فرجعَ إليهن أبو سفيان، وأمرَ بالحجارةِ فألقيَت بين أيديهن، وقال لهن: «لا يرجعُ أحدٌ من المسلمين

الهاشمية، ص47.

(1) البداية والنهاية، مصدر سابق، ج 7، ص 8.

(2) زكريا السنوار: تاريخ فلسطين، ص46.

إلا رميتنه بهذه الحجارة»، وأمرهن خالد أن يقتلنَ أيَّ رجلٍ يقبلُ إليهن مهزومًا.
بدأ الهجومُ البيزنطيّ على الميمنةِ ثم الميسرة، وحدث التحامٌ فانكشفَ المسلمون لكنهم صمدوا وثبتَ القلب، وقال عكرمة بن أبي جهل للمسلمين: «من يبايعُ على الموت؟» فبايعه أربعمئة من وجوه المسلمين وفرسانِهم، كما قاتلت نساءُ المسلمين في ذلك اليوم كأمثالِ خولة بنت الأزور، وأمِّ حكيم ابنة حكيم بن الحرث، وسلمى بنتِ لؤى، وأسماء بنت أبي بكر، وقامتِ النساء بمساعدة الجرحى وسقاية الماء[1].

بعد إنهاكِ العدو تحرك فرسانُ المسلمين (الذين لم يكونوا قد دخلوا المعركة بعدُ حسب الخطة المرسومة) وهاجموا البيزنطيين، فاختلت صفوفُهم، وهربَ الكثيرون وفتح المسلمون لهم طرقًا للهرب، وزحفَ المسلمون وتراجعَ البيزنطيون إلى الواقوصة، وأعملَ المسلمون فيهم السيف، فقُتل مَنْ قُتل، وجُرح مَن جُرح، وهرب الباقون، وقيل إنّ قَتلاهم خمسون ألفًا، واستُشهد من المسلمين ثلاثةُ آلاف.

بعد انتصارِ المسلمين في المعركةِ الفاصلة، تقهقرَ الجيشُ البيزنطي، ولم يشتبك مع المسلمين إلا في معاركَ قليلةٍ ثانوية، ولم يرسلِ البيزنطيون حملاتٍ أخرى بعدها، ووقفتِ العديد من القبائلِ العربية الشامية مع المسلمين قبلَ المعركة، وزاد عددُها بعد الانتصار، واستردَّ المسلمون الأرضَ التي انسحبوا منها قبل المعركةِ بسهولة، وامتدَّ الفتحُ الإسلامي ليشملَ فلسطين دون مقاومة، وهذا دليل على تعاونِ الأهالي مع المسلمين، وسرعةِ انهيار البيزنطيين، ومهّدَ فتحُ فلسطين الطريقَ لفتح مصر، بعد تكملةِ فتح بلاد الشام[2].

---

(1) زكريا السنوار: تاريخ فلسطين، ص46.

(2) زكريا السنوار: تاريخ فلسطين، ص47.

لقد سقطتِ الشامُ بسرعةٍ مذهلة، لا سيما بعد معركةِ اليرموكِ التي خرَّ فيها ثيودورس أخو الإمبراطور هرقل صريعًا، ليغادرَ هرقلُ نفسُه سوريا بتلك الجملةِ الشهيرة المتأسية: «وداعًا يا سورية، وداعًا لا لقاءَ بعده» ولتنفتحَ جميعُ البلاد الشامية أمام المسلمين، ويعلّقُ روجيه غارودي على سرعةِ انهيار الجيوشِ البيزنطية التي كان هرقل قد أعاد -في الواقع بصعوبةٍ بالغةٍ- محاولةَ بنائِها بعد تسريحِها، وشُحِّ خزينته، بأن: «التعصّبَ العميقَ لدى الأباطرةِ البيزنطيّين يتيحُ لنا أن نفهمَ كيف تمَّ حسمُ مصيرِ سوريةَ وفلسطين بمعركةٍ واحدة، وهي معركةُ اليرموك في العشرين من آب 636م، وكيف سُحِقَ الجيشُ البيزنطي، وكيف تفجّرَ ذلك العصيانُ قبلَ معركةِ اليرموك بين صفوفِ الجنودِ المسيحيين الأرمنِ في الجيش البيزنطي، وكيف انسحبَ المسيحيون السوريون من الجيشِ البيزنطيّ إبّانَ المعركة، فوجدَ جيشُ الروم نفسَه وحيدًا، فتمّ سحقه»[1].

وضمن هذا العهد لأهل دمشق: «أمانًا على أنفسِهم وأموالهم وكنائسهم، وسور مدينتهم لا يُهدم ولا يُسكن شيءٌ من دورهم، لهم بذلك عهدُ الله، وذمّة اللهِ ورسوله -صلّى الله عليه وسلّم- والخلفاء والمؤمنين، ولا يُعرَضُ لهم إلّا بخيرٍ إذا أعطَوا الجزية»[2] أي ضريبةَ حماية المسلمين لهم.

وإن كانتِ المسيحيةُ ديانةً مانعةً لا تقبلُ التعايشَ مع أيِ دينٍ غيرِها، إلّا أنّ الإسلامَ وأتباعَ شريعتِه الربانيةِ السمحة أثبتوا -في عهودِ الصلحِ- أنّهم أهلُ شريعةٍ استيعابيةٍ جامعة تعترفُ بالأديانِ السماوية الأخرى وتهبُها الحماية. بعد ذلك توجّهت

(1) روجيه غارودي: فلسطين أرض الرسالات السماوية، ص 121

(2) البلاذري: فتوح البلدان، ص 166.

أنظارُ المسلمين وجيوشُهم إثرَ سقوطِ الشام ودمشقَ إلى القدس، إلى بيتِ المقدسِ والمسجدِ الأقصى لفتحِه وتحريرِه وتطهيره.

فتح بيت المقدس

رفضَ أهلُ ايلياء (بيت المقدس) الاستسلامَ إلا للخليفةِ عمر بن الخطاب، فارتحلَ الخليفة إلى بيت المقدس بعد أن أوكلَ عليًّا بن أبي طالب بالقيامِ بمهامه في المدينة[1].

وصلَ عمرُ بن الخطاب القدسَ وتسلّم مفاتيحَها من البطريرك صفرنيوس، وأعطى أهلَ ايلياء عهدًا عُرف باسم (العهدة العمرية)، وهذا نّصها: «بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أعطى عبدُ اللهِ عمرُ أميرُ المؤمنين أهلَ ايلياء من الأمان، أعطاهم أمانًا لأنفسِهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانِهم وسقيمها وبريئها وسائرِ ملتها. إنه لا تُسكنُ كنائسُهم ولا تُهدم ولا يُنتقَصُ منها ولا من حَيِّزِها، ولا من صليبهم، ولا من شيءٍ من أموالهم، ولا يُكرهون على دينهم، ولا يُضارَّ أحدٌ منهم، ولا يَسكنَ بإيلياءَ معهم أحدٌ من اليهود[2].

وعلى أهلِ إيلياء أن يعطُوا الجزيةَ كما يعطي أهلَ المدائن، وعليهم أن يُخرجوا منها الرومَ واللصوص، فمن خرجَ منهم فإنه آمنٌ على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنَهم، ومن شاء رجعَ إلى أهلِه، فإنه لا يُؤخذ منهم شيء حتى يُحصد حصادُهم.

وعلى ما في هذا الكتابِ عهدُ اللهِ وذمةُ رسولِه، وذمةُ الخلفاء وذمةُ المؤمنين، إذا

---

(1) زكريا السنوار، تاريخ فلسطين، ص 49.

(2) جمال عبد الهادي مسعود: الطريق إلى بيت المقدس، ج1، ص 55-57.

أعطَوا الذي عليهم من الجزية. شهدَ على ذلك خالدُ بن الوليد وعمرو بن العاص وعبدُ الرحمن بن عوف ومعاويةُ بن أبي سفيان، كما كتبَ عمرُ إلى أهلِ اللُّدِّ ومَن دخلَ معهم من أهلِ فلسطين مثلَ شروطِ أهل إيلياء[1].

(1) جمال عبد الهادي مسعود: الطريق إلى بيت المقدس، ج1، ص 55-57.

شريعة الغاب والخرافة

5

الفصلُ الخامس

الفتح الإسلامي لبيت المقدس

المبحث الأول: بيتُ المقدس الاسم والقدسيّة

من المتّفقِ عليه أنّ الكنعانيين كانوا أوّلَ مَن سكن القدس، وبنُوها قبلَ الألفِ الثالثة قبل الميلاد، على التلالِ القريبة من عينِ سلوان، وهي تقعُ حاليًّا في الجنوبِ الشرقي من موقعِ الحرم القدسي[1]، ويحيطُ بهذه المنطقةِ ثلاثةُ أودية، هي وادي سلوان ووادي النار ووادي الربابة، ويُجمِعُ المؤرخون على أنّ الكنعانيين هم أوّلُ من أطلقَ اسمَ مدينةِ السلام على القدس، أي قبل أن يحتلَّها اليهودُ مع داود بأكثر من ألفِ عامٍ، وعُرفت باسمها الكنعانيّ (أورسالم) بمعنى مدينةِ السلام، ويُنطق أورشليم، حيث يُذكر أنّ ملكي صادق الذي كان أوّلَ من احتضَنها، وهو من ملوكِ اليبوسيّين، وقد عُرفَ بحبِّه للسلامِ ووُصف بملكِ السلام، ومن هنا جاءَ اسمُ مدينته (مدينة سالم) أو أورشليم[2]، ويَنسبُ البعضُ هذه التسميةَ الكنعانية إلى: سالم، أو شالم، أو شاليم، وهو إلهُ السلام الكنعاني، أو اسمُ مؤسّسها، بينما كلمةُ «أور» كلمةٌ سومريةٌ تعني (مدينة)، وأمّا الأكاديّون الذين هاجروا من جزيرةِ العرب ونزلوا العراقَ في نهايةِ الألف الرابعة قبل الميلاد، فقد ذكروها باسمِ أورسالم، تداولت الأيام والأعوام، ثمّ أتى الإمبراطور الروماني هادريان (117-138م) الذي سمّاها باسم إيلياء نسبةً إليه، إلى أن حكمَ الإمبراطورُ قسطنطين الذي أعاد إليها تسميتَها القديمةَ أورشليم[3]، غير

(1) أحمد سوسة، العرب واليهود في التاريخ، ص 797، ط 8 دمشق.

(2) خالد العك: تاريخ القدس العربي القديم ص 38.

(3) أحمد سوسة، العرب واليهود في التاريخ، ص 636 مصدر سابق.

أنّ اسمَ إيلياء بقيَ متداولًا إلى أن جاء المسلمون والفتحُ الإسلاميّ برَكبهم، فأطلقوا اسمَ (القدس)، وبيتَ المقدس، والقدس الشريف.

ونلحظُ في كلّ هذه التسمياتِ الإسلامية مركزيةَ اسم القدس، حيث يعتقدُ المسلمون أنّ اسمَ القدسِ هو الاسمُ الذي أطلقته الملائكةُ عليها حين بنتها بأمرِ الله، وأنّ تسميتَها بالقدس ليست إلّا إعادةً لتسميتها القديمةِ في عهدِ الأنبياء والمرسلين[1]، وقد حمّلوا هذا الاسمَ -من الزاوية اللغوية- كلَّ الدلالاتِ للقداسةِ والطهارة والتبجيل.

ولخّصَ لنا ياقوت الحمويّ المفهومَ المتداول لغويًّا عنِ القدس، فقال: «القدسُ في اللغة المتنزه، وقال المفسرون في قوله -عزّ وجلّ-: ﴿ونحنُ نسبحُ بحمدِك ونقدسُ لك﴾[2]، قال الزّجّاج: معنى «نقدسُ لك» أي نطهرُ أنفسَنا لك، وكذلك نفعلُ بمَن أطاعَك؛ نقدسُه أي نطهره، قال: ومِن هذا قيل للسطل: القدس، لأنه يُتَقَدَّسُ منه، أي يُتطهر، ومِن هذا: «بيت المقدس» أي المطهّر الذي يُتَطهر به من الذنوب... وقال قتادة: المرادُ بأرضِ المقدس، أي المباركة»[3].

إنّ إعادةَ تسميةِ إيلياءَ بالقدس هو نوعٌ من إعادةِ تملُّكٍ رمزيٍّ مقدّسٍ لها على أساسٍ جديدٍ قديم.. يصلها مباشرةً بالملائكةِ الذين بنُوها أوّلَ مرّةٍ وفقَ المعتقد الإسلامي، ولم تكن هذه التسمية عابرةً أو ابنةَ لحظتها بقدرِ ما تأسّست قبلَ الفتح العمريّ نفسِه على قداسةِ القدس في الإسلام منذ نشأتِه الأولى، وتمثيلِه القدسَ

(1) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج 1/ ص 168-171.

(2) سورة البقرة: الآية 30.

(3) الحموي: مصدر سابق ج1، 374 – 376.

كعنصرٍ تكوينيّ في منظومتِه الجغرافية الثلاثية المقدّسة، والمتمثّلة في مكّة والمدينة وبيت المقدس.

هذا ولم يكنِ الفتحُ العربيُّ الإسلاميّ لفلسطين فالقدس -كما بينّا في الفصل السابق وكما نستكمل في هذا الفصل- خارجَ الرؤيةِ النبوية نفسِها التي رسّخت بيتَ المقدس، كجزءٍ لا يتجزّأ من أطرافِها الجغرافيةِ الروحية والعقائدية الإسلامية الثلاثية المقدسة؛ لذلك فإنّ هذا الفتحَ -الفتح العمريّ- يحضرُ في الوعيِ العقائديِّ الإسلامي كتصديقٍ لوعدِ سيّدنا محمّد -صلّى الله عليه وسلّم- حيث وعدَ سابقًا بهزيمةِ الروم، أي البيزنطيين الذين كانت مخالبُهم الاحتلاليةُ مبسوطةً غَصبًا على القدسِ.

وممّا تطرّقنا له سابقًا في هذه الأطروحةِ والدراسةِ يمكنُنا التمييزُ ما بين التاريخيّ والرمزيّ في هذا الوعيِ، فيرتبطُ التاريخيُّ بمجرياتِ عمليةِ الفتح وشروطِها وموازينِ قواها، أي الزمنُ الواقعيّ التاريخي بقدرِ ما يرتبطُ الرمزيُّ بالزمن الروحي القدسي، الذي يجعلُ منَ الفتح الإسلاميّ للقدس تحقيقًا لوعدٍ إلهيٍّ نبويٍّ أتى بعد معجزةِ الإسراءِ والمعراجِ؛ تلك المعجزةُ الربانية التي أدّت إلى إدخالِ بيتِ المقدس في قلبِ المقدّسات الإسلامية، بل إلى إدراجِ الإسلامِ نفسِه في خطِّ الاستمراريةِ والتكاملِ مع الدياناتِ التوحيديّة التي سبقته.

ولكي نعيَ ما نرمي إليه من قداسةِ بيت المقدس، يجبُ أن نفهمَ قداسةَ الصخرة عندنا إذا ما عرفنا أنّ عروجَ المصطفى إلى السماءِ كان من بوّابةِ السماءِ، وعلى جناحَي البراقِ تمّ من صخرةِ بيت المقدس، وفي هذا العروجِ صعدَ المصطفى -صلّى الله عليه وسلّم- ٱلسَّمٰاواتِ السبعَ سماءً فسماءً. ويروي ابنُ إسحاق عن أبي سعيد الخدري عن النبيّ: «أنّه صعدَ عارجًا إلى السماء السابعة، والتقى في أثناء عروجِه الأنبياءَ السابقين؛ ففي السماء الأولى السماء الدنيا تعرف على آدم -عليه

السلام-، ثمّ أصعدني إلى السماء الثانية فإذا فيها ابنا الخالة: عيسى بن مريم، ويحيى بن زكريا فتعرّف عليهما، ثمّ صعد إلى السماء الثالثة فتعرّف فيها على يوسف بن يعقوب، وفي الرابعة تعرّف على إدريس، والسماء الخامسة تعرف فيها على هارون ابن عمران، وفي السماء السادسة عرّفه جبريل على موسى بن عمران، وفي السماء السابعة، وعلى عتبة سدرة المنتهى، تعرّف على أبيه إبراهيم الخليل»[1]، رُفع المصطفى -عليه الصلاةُ والسلامُ- بعدها إلى سدرة المنتهى، فأوحى اللهُ -تعالى- إليه ما أوحى، ففرض عليه خمسين صلاةً في كلِّ يومٍ وليلة، وعندما قفلَ راجعًا قال له موسى بن عمران: «إنّ الصَّلاةَ ثقيلةٌ، وإنّ أمتَك ضعيفةٌ، فارجع إلى ربّك فاسأله أن يخفّفَ عنك وعن أمّتك»، فبقيَ النبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- يدعو اللهَ - تعالى - التخفيفَ إلى أن استقرّ أمرُ اللهِ على خمسِ صلواتٍ في كلِّ يوم[2].

لا شكَّ أنّ المعاني المشبعةَ في القداسةِ والتي حملها صعودُ المصطفى إلى السماء من الصخرة الشريفة، وما دشّنَه هذا الصعودُ من الاتّصال بين الأرضيِّ والسماويِّ، كانت ملتصقةً بشكلٍ تامٍّ ببيت المقدس الذي احتوى هذا الحدثَ القدسي والمعجزةَ الربانية، بهذه الزيارةِ المحمّدية بمزيدٍ من القداسة والمعاني الروحية، حيث فُرضت على المسلمين الصلواتُ الخمسُ في المعراج من بوّابةِ السماء إلى السماء، وقد أنزلَ ربّ السماء إبّان هذه الرحلةِ والمعجزة الآيةَ الوحيدة التي نزلت خارجَ مكّة المكرّمة، والمدينةِ المنوّرة وما بينهما، وهي الآيةُ الخامسة والأربعون من سورة الزخرف، قال الله -جلّ وعلا-: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ

(1) ابن هشام: السيرة النبوية، ص 306 - 307 مطبعة البابي الحلبي، القاهرة 1955م.

(2) المصدر نفسه: ص 407 - 408 قارن مع ابن كثير ج3، المصدر السابق، ص 116-117.

آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾[1]

حيث زاد نزولُ هذه الآيةِ الربانية القدسَ قداسةً وجلالًا في قلوبِ المسلمين، وإيمانـًا بأنّ اللهَ واحدٌ أحدٌ، لا كما يدّعي اليهودُ بعد موسى، ولا كما يدّعي النصارى بعد عيسى، اسأل يا محمّد موسى وعيسى، هل جعلَ اللهُ من آلهةٍ يعبدون من دون الله؟! وبيتُ المقدسِ اسمٌ ملائكي ربّانيّ لمكانٍ ربّانيّ مقدّس، فلا قدسيّةَ لفلسطين بلا بيتِ المقدس، ولا قدسيّةَ للمسلمين بلا بيت المقدس، فالواحدُ للكلِّ، والكلُّ من عند الواحدِ الأحد... الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد.

العهدة العمرية

ما إن مرَّ شهرٌ على فتحِ المسلمين لدمشق حتّى جمعَ أبو عبيدة ابن الجرّاح أمراءَ المسلمين للتشاور معهم عنِ الاتّجاه القادم، فاتّفقوا على سؤالِ الفاروق عمر بن الخطاب، إن كانوا يتوجّهون أوّلًا إلى القدسِ أو إلى قيساريّة؛ فجمعَ عمرُ بن الخطّاب بعضَ الصحابة، وأشار عليه عليّ بن أبي طالب (الخليفة الراشدُ الرابع لاحقًا وابن عمّ النبيّ) بالبدءِ بفتحِ بيتِ المقدس، فكتبَ عمرُ الفاروق إلى أبي عبيدة كتابًا جاء فيه: «... قد أشار ابنُ عمّ رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- بالسيرِ إلى بيتِ المقدس، فإنّ اللهَ -عزّ وجلّ- يفتحُها على يديك... «وعندما وصل كتابُ عمرَ إلى قادة المسلمين فرحوا بمسيرِهم إلى بيت المقدس؛ كما قال الواقدي[2]، فأرسل أبو عبيدة من فوره خمسةً من قادته يقودُ كلٌّ منهم خمسةَ آلاف فارس، فأشار عليهم إذا أشرفوا

(1) سورة الزخرف: الآية 45.

(2) الواقدي: فتوح الشام، ج1، ص229.

على القدس: «ارفعوا أصواتكم بالتهليلِ والتكبير، واسألوا اللهَ بجاهِ نبيّه ومَن سَكنها من الأنبياءِ والصالحين أن يسهّلَ فتحَها على أيدي المسلمين»[1].

وهنا يجب ألّا نغفلَ أنّ فتحَ بيتِ المقدس كان من أهمِّ أهدافِ الدولةِ الإسلاميةِ في المرحلة الأخيرةِ من مراحلِ فتحِها لبلاد الشام، وأنّه كان لعمرو بنِ العاص الفضلُ في فتحِ معظمِ مدنِ فلسطينَ كغزّةَ ونابلُس واللدّ وعمواس... وغيرِها من مدنِ بيتِ المقدس وقراها، ولكنّ حصارَ القدسِ وقعَ بعدَ وصولِ مجاهدي أبي عبيدة بن الجرّاح حولَ مدينةِ القدسِ في أعقابِ انتصاراتهم في شمالِ الشامِ حولَ قِنّسرين.

وقد شاركَ في الحصار قوّاتٌ يقودُها كلٌّ من يزيد بن أبي سفيان ومعاذ بن جبل، وخالد بن الوليد، وعمرو بن العاص... وغيرهم، وكان أبو عبيدة قد بعثَ الرسلَ إلى أهل إيلياء (بيت المقدس)، وهو في طريقهِ من الأردن[2].

دام حصارُ بيتِ المقدس طويلًا، حيث اجتمعت جيوشُ المسلمين بقيادةِ عمرو بن العاص حولَ أسوارِ المدينةِ المقدّسة، وضربَ عمرو على المدينة حصارًا شديدًا، ذلك لأنّ أسوار القدس كانت محصّنةً بالمجانيقِ والطوارقِ والجواشنِ والزرد، ويُذكر أنّ القتالَ بدأ بعد ثلاثة أيّامٍ من الحصار، حيث تقدّمَ المسلمون نحو أسوارِ المدينة فأمطرتهم قوّاتُ الاحتلالِ الروميّ بوابلٍ من السهامِ والنبالِ التي كان المسلمون يتلقّونَها بدروعهم، وكان القتالُ يمتدّ من الصباحِ إلى غروب الشمس، حتّى كان اليومُ الحادي عشر إذ أقبلَ أبو عبيدة على المسلمين ومعه خالد بن الوليد، وعبد الرحمن بن أبي بكر، ومعهم فرسانُ المسلمين[3].

---

(1) المصدر نفسه: ص 229.

(2) علي محافظة وآخرون: مرجع سابق، ص 74.

(3) ياسين سويد، حروب القدس في التاريخ الإسلامي والعربي، ص 38، دار الملتقى، الطبعة الأولى،

طالَ الحصارُ واستمرّ لأربعة أشهر، وما من يومٍ إلّا وجرى فيه قتالٌ عنيف، إلى أن يئسَ الرومُ من مقاومةِ حصار المسلمين لمدينةِ القدس الأسيرة، فقرّرَ البطريرك صفرونيوس القيامَ بمحاولةٍ يائسةٍ أخيرة، فكتبَ إلى عمرو بن العاص، قائدِ جيش المسلمين، رسالةً يغريهِ فيها بفكّ الحصار، نظرًا لاستحالةِ احتلال المدينة[1]، كتبَ أرطبون الروم إلى عمرو بن العاص يقول له: «إنّك صديقي ونظيري، أنت في قومِك مثلي في قومي، واللهِ لا تفتحُ من فلسطين شيئًا بعد أجنادين، فارجع ولا تُغرّ، فتلقى ما لقيَ الذين قبلك من الهزيمة»[2]، فكتب إليه عمرو كتابًا يقول فيه إنّه صاحبُ فتح بيت المقدس، وأرسلَ الكتابَ مع رسولٍ وأمره أن ينقل إليه ردَّ الأرطبون، فلمّا قرأ الأرطبون كتابَ عمرو ضحك ممّا جاء فيه، وقال: إنّ صاحبَ فتحِ بيت المقدس هو رجلٌ اسمُه عمر، ونقَل الرسولُ إلى عمرٍو ما سمعَه من الأرطبون، فعرفَ عمرو أنّ الرجل الذي يعنيه الأرطبون هو الخليفةُ الفاروق عمر بن الخطّاب[3]، فكتب ابن العاص قائدُ الجيش الإسلامي إلى ابن الخطّاب خليفةِ المسلمين يخبرهُ بما جاء على لسانِ الأرطبون أنّه لا يفتح القدس إلّا هو، ويستمدّه أو يستبشره فقال: «إنّي أعالجُ حربًا كؤودًا صدومًا، وبلادٌ ادُّخِرَت لك، فرأيك».

فخرج الخليفةُ الفاروق إلى فلسطين في مَدَدٍ من الجند، وذلك بعد أن استخلفَ على المدينة عليًّا بن أبي طالب، فدخلَ القدسَ للمرة الأولى، وكتب لمَن فيها وثيقةَ أمانٍ عُرفت فيما بعدُ بالعهدة العمرية، وهذا هو نصُّها: «بسم الله الرحمن الرحيم.

1417هـ-1997م.

(1) حروب القدس: المرجع السابق نفسه، بتصرف، ص 38.

(2) تاريخ الطبري: ج4، ص 433.

(3) المصدر نفسه: بتصرف، 433.

هذا ما أعطى عبدُ الله عمرُ أمير المؤمنين أهلَ إيلياء من الأمانِ؛ أعطاهم أمانًا لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها. إنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من حيزها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود. وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص. فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم، ومن شاء رجع إلى أهله فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم(1). وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية.» شهد على ذلك خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية بن أبي سفيان.

كما كتبَ عمرُ إلى أهلِ اللد ومن دخل معهم من أهل فلسطين مثل شروط أهل إيلياء(2)، وشهد على ذلك: خالد بن الوليد وعبد الرحمن بن عوف وعمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان(3).

نرى بشكلٍ جليٍّ أنّ كتابَ الصُّلح هذا، وما سبقَه من كُتُبٍ ووصايا وتوجيهاتٍ خصّ بها المصطفى -صلوات الله وسلامه عليه- ومن خلفه من الخلفاء الراشدين قادةَ الفتح الإسلامي وجنودَهم المجاهدين، إنّما هي شهودٌ على مدى الأثرِ الربانيّ الإسلاميّ التشريعي على النبيّ والخلفاء والمؤمنين جميعًا، ذلك أنّ دينَ الإسلام دينُ تسامحٍ وتسامٍ عنِ الثأر والانتقام، دينٌ لا إكراه فيه في الدين، حيث آثرَ المسلمون

(1) تاريخ الأمم والملوك، م2، ج4، ص158-159؛ زكريا السنوار: تاريخ فلسطين، ص 49-50.
(2) تاريخ الأمم والملوك، م2، ج4، ص158-159؛ زكريا السنوار: تاريخ فلسطين، ص 49-50.
(3) المصدر نفسه

أن يعطوا الناسَ حريةَ العبادة، ويؤمّنوهم على كلِّ ثمينٍ لديهم، على أن يعيشوا في كنفِ المسلمين وشريعتهم، ويؤدّوا الجزيةَ مقابلَ حمايتِهم والذودِ عنهم.

وبالعودة إلى العهدة العمرية نجدُ أنّ الفاروقَ عمرَ بنَ الخطابِ قد رسّخَ في سلوكِه في بيتِ المقدسِ الشريعةَ الإسلاميةَ كشريعةٍ جامعةٍ؛ وليس كشريعةٍ غابٍ مانعةٍ لا تعترفُ بأيِ شريعةٍ غيرها... وفي ضَوء ذلك نفهمُ ترسيخَ الاعترافِ الإسلاميّ الأصليّ بأهلِ الكتاب، المسيحيين واليهود، بوصفِهم منحدرين من الأصل الإبراهيميّ التوحيديّ الأوّل، وبالطبعِ لا نقصدُ يهودَ الغابِ، ولا عبّاد الصليب المتهوّرين بهذا الزمان، بعدما ضللتهم شرائعُ التراثِ اليهوديةُ المصطنعة، إنّما نقصدُ أصحابَ موسى وعيسى -عليهما الصلاةُ والسلام- بالذات، وما عاد لأصحابِهما من مكانٍ في هذا الزمان.

هذا وتظهرُ أهميّةُ بيت المقدس ومكانتُه في الإسلام في أنّه المدينةُ الوحيدة التي زارَها الخليفةُ عمر بن الخطّاب من بين المدن العديدة التي فُتحت في عهده، وهكذا بعد أن أنجزَ جيشُ المسلمين فتحَ الأرض الفلسطينية كافّةَ وبيتِ المقدس، وبعد أن مَنح وثيقةَ الصلح والأمان لنصارى المدينة، كان -رضي الله عنه- قد أقرَّ جملةً من التدابيرِ الإدارية في بيت المقدس تتمثّل بالآتي: أسكنَ الجندَ في بيت المقدس، وأمرَ بتعيينِ يزيد بن أبي سفيان عاملًا على إدارةِ المدينةِ تحتَ إمرةِ أبي عبيدة عامر بن الجرّاح، وسلامةَ بن قيصر الحضرمي إمامًا للصلاة في بيت المقدس، وعلقمةَ بن مجزر المدلجي مشرفًا على الشؤونِ العسكرية؛ كما عيّنَ عبادةَ بن الصامت قاضيًا ومعلّمًا فيها، ثمّ أمرَ الخليفةُ ببناء المسجد الذي عُرف بمسجد القدس (المسجد

العمري)[1]، الذي كان قد وصفه سيّدُنا محمّد -صلّى الله عليه وسلّم-، وأقامَ فيه ليلةَ الإسراء والمعراج[2].

وما إن غدت مدينةُ القدس تحت ظلّ الشريعةِ الإسلاميةِ الربانية، حتّى أقبلَ المسلمون عليها من كلِّ حدبٍ وصوبٍ، ما بين ساكنٍ وزائرٍ، ثمّ وفد إليها القادةُ والفقهاءُ والعلماءُ والرحالة وقرّاءُ القرآن الكريم (ناسخ الكتب السماوية)، كخالدِ بن الوليد وعبادةَ بن الصامت وشدّادِ بن أوسٍ وأبي ذرّ الغفاريّ وأبي هريرة وأبي عبيدةَ عامر بن الجرّاح؛ ولم ينقطع عن بيتِ المقدس عامّةُ المسلمين من زهّادٍ وعبادٍ وتابعين، بهدفِ الزيارةِ والتبرّك.

وحين توفيَ يزيدُ بن أبي سفيان وأبو عبيدةَ عامر بن الجراح في طاعونِ عمواس سنة 17 أو 18 للهجرة، عَيّنَ عمرُ بن الخطّاب معاويةَ بنَ أبي سفيان عاملًا على بلادِ الشام بدلًا من أخيه يزيد[3].

وهنا يجبُ علينا أن نضعَ عددًا من النقاطِ على حروفِ ما يجبُ على ابن الشريعةِ الإسلاميةِ الربانية أن يعتقدَه بشأنِ بيتِ المقدسِ بشكلٍ عامٍّ والمسجدِ الأقصى بشكلٍ خاص، وذلك بالطبعِ حتى لا تأخذَنا محبتُنا لفلسطين والأقصى إلى ما لا تُحمد عقباه من البدعِ، والعياذُ بالله -عزَّ وجل-.

إنّ المسجدَ الأقصى اسمٌ لجميعِ المسجدِ الذي بناه سليمانُ -عليه السلام-، وقد صارَ بعضُ الناس يسمِّي بالمسجدِ الأقصى المصلّى الذي بناه الفاروقُ عمرُ بن

(1) ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج 1، ص 316 - 317 ترجمة وتحقيق مكتبة الشهابي، المجلس العلمي في دمشق، 1984م.

(2) عزمي أبو عليان: القدس بين الاحتلال والتحرير عبر العصور القديمة والوسطى في المدينة، مؤسسة باكير للدراسات الثقافية - عمان- 1993م.

(3) علي محافظة وآخرون: مرجع سابق، ص 81.

الخطّاب -رضي الله عنه- في مَقدِمه، والصلاةُ في المصلّى الذي بناه عمرُ للمسلمين أفضلُ من الصلاةِ في سائرِ المسجد؛ فإنّ عمرَ ابن الخطّاب لمّا فتحَ بيتَ المقدس، وجد على الصخرةِ الكثيرَ من القمامةِ لأنّ النصارى كانوا يقصدون إهانتَها مقابلةً لليهودِ الذين يُصَلّون إليها، فأمرَ عمرُ -رضي الله عنه- بإزالةِ النجاسةِ عنها، وقال لكعبِ الأحبار - وكان قد أسلم-: أين ترى أن نبنيَ مصلّى المسلمين، فقال: خلفَ الصخرة، فقال: يا ابنَ اليهوديةِ، خالطَتك يهوديّة، بل أبنيهِ أمامَها، فإنّ لنا صدورَ المجالس، ولهذا كان أئمّةُ الأمّة إذا دخلوا المسجدِ أدَّوُا الصلاةَ في المصلّى الذي بناه عمر.

وقدِ اتّفقَ علماءُ المسلمين على استحبابِ السفرِ إلى بيتِ المقدسِ للعبادةِ المشروعة فيه، نكرّر للعبادةِ المشروعة فيه: كالصلاةِ وقراءةِ القرآنِ الكريم والدعاءِ والذكر والاعتكافِ؛ لحديثِ الصَّحيحَين عنِ النبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- أنّه قال: «لا تُشَدُّ الرحالُ إلّا إلى ثلاثةِ مساجد: المسجد الحرام، والمسجد الأقصى، ومسجدي هذا»[1].

وقد روى الحاكم في صحيحه أنّ سليمان -عليه السلام- سأل ربّه ثلاثةً: «مُلكًا لا ينبغي لأحدٍ من بعدِه، وسأله حُكمًا يوافقُ حكمَه، وسأله أنّه لا يؤمُّ أحدٌ هذا البيتَ لا يريدُ إلّا الصَّلاةَ فيه إلّا غُفر له».[2] ولهذا كان ابنُ عمر -رضي الله عنه- يأتي إليه فيصلّي فيه، ولا يشربُ فيه ماءً، لتصيبَه دعوةُ سليمانَ لقوله: «لا يريدُ إلّا الصلاة فيه»، وإنّ هذا يقتضي إخلاصَ النيةِ في السفرِ إليه، وأن لا يأتيه لغرضٍ دنيويّ ولا بدعة.

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه (فتح الباري 3/ 76) ومسلم في الصحيح: النووي على مسلم 9/ 169.

(2) حديث أخرجه النباتي، والحاكم وقال على شرطيهما، وصحّح إسناده الحافظ في فتح الباري 6-/ 470.

والمسجد الحرام أفضلُ المساجدِ، ويليه مسجدُ النبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- ويليه المسجدُ الأقصى، وقد ثبتَ في الصحيحين عن النبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- أنّه قال: «صلاةٌ في مسجدي هذا خيرٌ من ألفِ صلاةٍ فيما سواه من المساجدِ، إلّا المسجد الحرام».

ولهذا لا يجوزُ تغييرُ واحدٍ من هذه المساجدِ الثلاثةِ من موضعه، وأمّا سائرُ المساجدِ ففضيلتُها من أنّها مسجدٌ للهِ، وبيتٌ يُصلَّى فيه، وهذا قدرٌ مشتركٌ بين المساجد.

والعبادات المشروعة في المسجد الأقصى هي من جنسِ العبادات المشروعةِ في مسجد النبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- وغيرِه من سائرِ المساجد، إلّا المسجدَ الحرام، فإنّه يُشرَعُ في المسجد الحرامِ -زيادةً على سائرِ المساجد- الطوافُ بالكعبة، واستلامُ الركنَين اليمانِيَّين، وتقبيلُ الحجرِ الأسود، وأمّا مسجدُ النبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- والمسجدُ الأقصى، وسائرُ المساجد فليس فيها ما يُطافُ به، ولا فيها ما يُتَمَسَّحُ به، ولا ما يُقَبَّلُ، فلا يجوزُ لأحدٍ أن يطوفَ بحجرةِ النبيِّ -صلّى اللهُ عليه وسلّم- ولا بغيرِ ذلك من مقابرِ الأنبياءِ والصالحين، ولا بصخرةِ بيتِ المقدسِ، ولا بغيرِ هؤلاء؛ كالقبةِ التي فوقَ جبلِ عرفات وأمثالِها، بل ليس في الأرضِ مكانٌ يُطاف به كما يُطاف بالكعبة المشرّفة.

ومنِ اعتقدَ أنّ الطوافَ بغيرها مشروعٌ فهو شرٌّ ممّن يعتقدُ جوازَ الصلاة إلى غيرِ الكعبة، فإنّ النبي -صلّى الله عليه وسلّم- لمّا هاجرَ من مكّةَ إلى المدينةِ صلّى بالمسلمين ثمانيةَ عشرَ شهرًا إلى بيتِ المقدس، فكان المسجدُ الأقصى قبلةَ المسلمين هذه المدةَ، ثمّ إنّ اللهَ -عزَّ وجلّ- حوّلَ القبلةَ إلى الكعبة، وأنزل اللهُ في ذلك قرآنًا؛ كما ذكرَ في سورة البقرة، وصلّى النبيُّ -عليه الصلاةُ والسلام-

والمسلمون إلى الكعبةِ، وصارت هي القبلةَ، وهي قبلةُ إبراهيم وغيرِه من الأنبياء.

فمنِ اتّخذَ الصخرةَ اليومَ قبلةً يصلّي إليها، فهو كافرٌ مرتدّ يُستتاب، فإمّا أن يتوبَ أو يقتلَ، مع أنّها كانت قبلةً، ولكنّ اللهَ نسخَ ذلك، فكيف بمَن يتّخذَها مكانًا يُطاف به كما يُطاف بالكعبة؟ والطوافُ بغيرِ الكعبةِ لم يُشرَع بحالٍ، وكذلك من قصدَ أن يسوقَ إليها غنمًا أو بقرًا ليذبحَها هناك، ويعتقد أنّ الأضحيّةَ فيها أفضل، وأن يحلقَ فيها شعرَه في العيد، أو أن يسافرَ إليها يومَ عرفة، فهذه الأمورُ التي يشبّه بها بيتُ المقدس بالبيتِ الحرام بمكّةَ في الوقوف والطواف والذبح والحلقِ من البدعِ والأضاليل والضلالات، ومَن فعلَ شيئًا من ذلك معتقدًا أنّ استقبالَها في الصلاةِ قُربةٌ كاستقبالِ الكعبة؛ ولهذا بنى عمرُ بن الخطّاب مصلّى المسلمين في مُقدّمة المسجد الأقصى(1).

وأمّا الصخرةُ فلم يصلِّ عندها عمرُ -رضي الله عنه- ولا الصحابةُ، ولا كان على عهدِ الخلفاءِ الراشدين عليها قبّةٌ، بل كانت مكشوفةً في خلافةِ عمر وعثمان وعلي ومعاوية ويزيد ومروان، وأمّا أهلُ العلم من الصحابة والتابعين لهم بإحسان فلم يكونوا يعظّمونَ الصخرةَ، فإنّها مكانةٌ منسوخة، كما أنّ يومَ السبت كان عيدًا في شريعة موسى -عليه السلام- ثمّ نُسخ في شريعةِ محمّد -صلّى الله عليه وسلّم- بيومِ الجمعة، فليس للمسلمين أن يخُصُّوا يومَ السبت ويومَ الأحدِ بعبادةٍ، كما يفعلُ المغضوبُ عليهم اليهودُ والضالون النصارى، وكذلك الصخرةُ إنّما يعظمُها أتباعُ شريعةِ الغابِ اليهودُ، وأولياؤهم النصارى.

وما ذكرَه بعضُ الجهّال من أن هناك أثرَ قدمٍ للمصطفى -صلّى الله عليه وسلّم-

(1) محمد صفوت نور الدين: المسجد الأقصى ودعوة الرسل، ص 219.

وأثرَ عمامته وغيرَ ذلك، فكلّها أكاذيب.. أقولُها وأنا فلسطينيٌّ عاشَ وسكنَ في القدسِ عدّة أعوام[1]، وأقول أنّ مَن ظنّ أنّه موضعُ قدمِ اللهِ -عزَّ وجلّ- كما يقول الظالمون، إنّه كذبُ كهنتِهم وحاخاماتِهم أتباعِ شريعة الغاب، شريعةِ الظلم والظالمين، وكذلك المكانُ الذي يُذكر أنّه مهدُ عيسى -عليه السلام- كذبٌ؛ وإنما كان معموديةً للنصارى، وكذلك مَن زعمَ أن ببيتِ المقدسِ والمسجدِ الأقصى الصراطَ والميزانَ، أو أنّ السورَ الذي يضربُ به بين الجنّةِ والنار، هو ذلك الحائطُ المبنيُّ شرقيَّ المسجدِ الأقصى.

وليس في بيتِ المقدسِ مكانٌ يُقصَدُ للعبادةِ سوى المسجدِ الأقصى، فمَن زار قبورَ الموتى، وسلّم عليهم، وترحّمَ عليهم، كما كان خاتمُ الأنبياء والمرسلين -صلّى الله عليه وسلّم- يعلّم أصحابَه محسنٌ؛ فقد روى الإمامُ مسلمٌ أنّ النبيَّ -صلّى الله عليه وسلّم- كان يعلّم أصحابَه إذا زاروا القبورَ أن يقول أحدهم: «السَّلَامُ عَلَيْكُم أَهْلَ الدِّيَارِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ، وإنَّا -إنْ شَاءَ اللهُ- لَلاحِقُونَ، أَسْأَلُ اللهَ لَنَا وَلَكُمُ الْعَافِيَةَ».

وليس في بيت المقدسِ مكانٌ يسمّى حرمًا، ولا في تربةِ الخليل، ولا في غيرِ ذلك من البقاعِ إلا ثلاثةَ أماكنَ؛ أحدها حرمٌ باتّفاقِ المسلمينَ، وهو حرَمُ مكّةَ -شرّفها الله-، والثاني حرمٌ عند جمهورِ العلماء، وهو حرمُ النبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- من عَيْرٍ إلى ثَوْرٍ، بريد في بريد، فإنّ فيه أحاديثَ صحيحةً مستفيضةٌ عنِ النبيِّ -صلّى الله عليه وسلّم-، لا مجالَ للتطرُّقِ لها في هذه الدراسة، وذلك حتّى لا نطيلَ، أمّا الحرمُ

(1) الكاتب عمل وسكن في مدينة القدس، وهو حاصل على شهادة بكالوريوس في التاريخ من جامعة الأقصى، وبكالوريوس علوم سياسية وإعلام من جامعة الأمة، وماجستير في الدراسات الإقليمية تخصّص دراسات إسرائيلية من جامعة أبو ديس -القدس.

الثالثُ فهو وادٍ بالطائف، لما رُوي فيه من حديثٍ عن أحمدَ في المسندِ، وليس في الصحاحِ، وهذا حرمٌ عند الشافعيّ لاعتقادِه صحّةَ الحديث، وليس حرمًا عند أكثرِ العلماء، وأحمدُ ضعّفَ الحديثَ المرويّ ولم يأخذ به[1]، وأمّا ما سوى هذه الأماكنِ الثلاثةِ فليس حرمًا عند أحدٍ من علماءِ المسلمين، فإنّ الحرمَ ما حرّمَ اللهُ صيدَه ونباتَه، ولم يحرّمِ اللهُ صيدَ مكانٍ ونباتَه خارجَ هذه الأماكنِ الثلاثة.

هذا وليس السفرُ إلى المسجدِ الأقصى مع الحجِّ قربةٌ، وقولُ القائل: قدّسَ اللهُ حجّتَك، قولٌ باطلٌ لا أصلَ له، كما يُروى: «من زارني (من زار محمّداً صلّى الله عليه وسلّم) وأبي إبراهيم -عليه السلام- في عامٍ واحدٍ ضُمِنَت له الجنة». فإنّ هذا كذبًا باتّفاقِ أهل المعرفة بعلم الحديث.

إنّ المسجدَ الأقصى أفضلُ المساجدِ بعد المسجدِ الحرام والمسجد النبوي، وفي بيتِ المقدس من قبورِ الأنبياءِ والصحابة ما لا يعُدُّه ولا يحصيه إلّا اللهُ، فهل يقولُ عاقلٌ بأفضيلتِه لأجلِ القبور؟ لهذا كان ابنُ عمر يأتي من الحجازِ فيدخلُ فيصلّي فيه ثمّ يخرجُ، ولا يشربُ فيه ماءً لتصيبَه دعوةُ سليمانَ -عليه السلام-، وكان الصحابةُ ثمّ التابعون يأتون ولا يقصِدون شيئًا ممّا حولَه من البقاع.

لقد حوّلَ الله -عزَّ وجل- قبلةَ المسلمين من بيتِ المقدس، وهو الذي وصفَه ربُّ العزّة بالبركةِ حوله: ﴿الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾[2]، ففيها الثمارُ والأشجارُ والأنهارُ التي زادت من مطامعِ الضالّين والمغضوبِ عليهم فيها... وفيه، بينما جعلَ القبلةَ التي وجّه إليها المسلمين ونبيَّهم المصطفى -صلواتُ الله عليه وسلامُه- وهي

---

(1) محمد نور الدين: المسجد الأقصى ودعوة المرسلين، ص 219.

(2) سورة الأنبياء: الآية 71 والآية 81

القبلةُ الثانية: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾[1]، جعلها بوادٍ ﴿غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾[2]، في جبالٍ قاسيةٍ وأرض قاحلة، ليس فيها من مطامعِ الدنيا شيء.

إنّما هيَ حياةُ القلوبِ: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾[3]، وإنّ التاريخَ وأحداثَه تشهدُ على أنّ جيشًا من غيرِ المسلمين لم يأتِ على مكّة، بعد جيشِ أبرهةَ الأشرم وأصحابِه أصحابِ الفيل، حيث قضت عليه وعليهم حجارةُ السجيل، التي أسقطَتها طيرُ اللهِ الأبابيل، وبنظرةٍ موضوعيةٍ للجزيرة العربية نرى الاحتلالَ الصليبيّ الكافرَ قد أحاطَها من جهاتها الأربعِ، حيث أقامَ النصارى، ومن خلفهم اليهودُ وقواعدُهم العسكريةُ وموانئُهم البحريةُ الحربية ومطاراتُهم الجويةُ الإرهابية، وهكذا حُيِّدت مكّةُ، وتُرك الأقصى وحيدًا يخوضُ أهلُه الصراعَ، صراعَ الحقّ ضدّ الباطل، والتاريخُ يشهدُ بأنّ بيتَ المقدس لا يكاد يمرُّ به قرنٌ بغيرِ عدوانٍ من الكافرين يفلحون فيه أو يفشلون، وإنّ الغلبةَ للمتقين.

وإنّ الغلبة للمتقين، إنّنا هنا في بيتِ المقدسِ ندافعُ عن مقدّساتِ المسلمين وشريعةِ الله، ونبذلُ أرواحَنا ودماءَنا رخيصةً في سبيلِ عزِّ الإسلام وأهلِه، وعزاؤُنا أنّنا هنا على أرضِ الإسلامِ نرابطُ في أرضِ الرباط، التي أكرمَها اللهُ بأجرِ المرابطين، وأجرِ الشهداء العاملين. ونقولُ في ختامِ هذا المبحث كما قال عبدُ الله بنُ المبارك من أرضِ الخلفاءِ للفضيل بن عياض، هناك في أرضِ الحرمين:

(1) سورة آل عمران: الآية 96

(2) سورة إبراهيم: الآية 37

(3) سورة إبراهيم: الآية 37

يا عابدَ الحرمَين لو أبصرتنا لعلمتَ أنّك بالعبادةِ تلعبُ
مَن كان يخضبُ خدَّه بدموعِه فنحورُنا بدمائنا تتخضّبُ
أو كان يُتعِبُ خيلَه في باطلٍ فخيولُنا يومَ الصبيحة تتعبُ(١)

(1) الذهبي: سير أعلام النبلاء 8/ 214 ص 9

المبحث الثاني: بيت المقدس... بين الاحتلال والفتح

فتحَ بيتَ المقدسِ الخليفةُ عمرُ بنُ الخطّاب، لكنّ اختلافَ الحكّامِ من بعده، وابتعادَ المسلمين عن دينهم؛ مكّنَ الصليبيين من احتلالِه مرةً أخرى عبرَ الحملاتِ الصليبيةِ المتلاحقة، والتي جعلتِ الصليبَ شعارًا لها، ومنه استمدتِ اسمَها، قال الله -عزّ وجلّ-:﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[1].

فإنّ العاصمَ هو اللهُ-عزّ وجل- وهو الذي نصرَ جندَه في الأوّلين، فقال: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[2]، وهو صادقُ الوعدِ، وعدِ المؤمنينَ بالنصرِ والتمكين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[3]، إن تنصروا اللهَ وشرعَ اللهِ، وذلك عبرَ الاحتكامِ لشرعِه وإقامتِكم لحدوده، وذَودِكم عن دينِه وشريعته، والحذرَ كلَّ الحذرِ من الميلِ والحيدِ عن طريقِ الشريعة الإسلامية، عن طريقِ الإسلامِ الصافي والتوحيد الصحيح، فاللهُ -سبحانَه- قال: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾[4]، واللهُ -عزّ وجلّ- يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ

(1) سورة الأنفال: الآية 53
(2) سورة الروم: الآية 47
(3) سورة محمد: الآية 7
(4) سورة محمّد: الآية 38

عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[1].

فعزُّ الدنيا في الإسلام، ورفعةُ الإنسانِ في عبوديتِه لربّه، وذلك بالتزامِ منهجِ التوحيدِ الخالص، منهجِ الإيمانِ والحقِّ والتقوى والعملِ الصالح، ذلك هو أصلُ الأصولِ الذي يكونُ به النصرُ والتمكينُ والعزة، وتبديلُ السّوءِ الواقع بالمسلمين إلى خيرٍ ينزلُه عليهم ربُّ العالمين.

إنّ ربَّ العزةِ -عزّ وجلّ- وعدُه حقٌّ وصِدق، ولكن لا بدّ أن يتحقّقَ الشرطُ في أنفسنا؛ فالمصطفى -صلّى الله عليه وسلّم- يقول: «المؤمنُ القويّ خيرٌ وأحبُّ إلى اللهِ من المؤمن الضعيف؛ وفي كلٍّ خيرٌ، احرص على ما ينفعُك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيءٌ فلا تقل: لو أني فعلتُ كذا وكذا وكذا، ولكن قل: قدَّر اللهُ وما شاء فعل، فإن (لو) تفتحُ عملَ الشيطان»[2]، هذا الحديثُ المبارك فيه إرشادٌ كريم وتعليمٌ نبويّ قويم حكيم، لكن ما هي القوةُ المطلوبة في هذا الحديث؟ ما هي القوةُ التي يُستحقّ الحقّ بها، ويستقيمُ بها ميزانُ العدل؛ ميزانُ الشريعة الإسلامية الربانية؟

فالمؤمنُ القويّ: القويُّ في إيمانِه وشرعه، المؤمنُ الذي يستعدُّ ويُعِدُّ بما استطاعَ من قوّةٍ ماديّةٍ (قوّةِ بدنٍ، وعدد، وسلاح، وعتاد)؛ لأنّها أمرٌ من أوامرِ الدين والإيمان؛ لا لأنّه ينتصرُ بقوّة السلاح، ولا لأنّه ينتصرُ بالعددِ والعدّة، بل لأنّ النصرَ من عندِ الله، ينصر رسله وينصر المؤمن، فالعُدة الأساسية هي الإيمان.

---

(1) سورة المائدة: الآية 54

(2) أخرجه مسلم في الصحيح في كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز، انظر النووي على مسلم 16/ 431.

فبيتُ المقدس والمسجدُ الأقصى لن يتحرّا إلّا بجباهٍ ساجدةٍ، وقلوبٍ موحدة، قلوبٍ تعرف ربَّها فتلجأُ إليه، وتتضرّعُ وتعلمُ أنّ العدةَ سببٌ، وأن العددَ سببٌ، وأنّ الله -إن شاء- جاء بالنصرِ والتحرير، ولو مع قلةٍ في هذه الأسباب، وإنّما الذي علينا أن نعلمَه أنّ اللهَ غنيٌّ عن جهادِ المجاهدين، وأنّ مَن جاهد فإنّما يجاهدُ لنفسه، اقرأ قولَ الله -عزّ وجلّ-: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ﴾[1]، لقد جاءت هذه الآيةُ الكريمةُ تهديدًا منَ اللهِ للمسلمين إذا قعدوا عنِ الجهادِ معَ النبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- فاللهُ ينصرُه، وكذلك الله ينصرُ شريعتَه الإسلامية بنفسه، ولو قعَدنا عن نصرِها، يعني: إن بقينا في معاصينا مخلّدين، و إن بقينا في غينا سادرين، وإن بقينا لا نُعنى بالتعرفِ على اللهِ ربِّ العالمين، إن بقينا نهجرُ شرعَ الله وشريعته، نهجرُ الطاعاتِ والعباداتِ، فإنّ ربَّ العزةِ يقول: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾[2].

فبيتُ المقدس عائدٌ إلى حِمَى الشريعةِ الإسلامية بإذنِ مَن رفع السماءَ وبسط الأرض... ولكن بيد مَن؟ بيد المتوضئين... بيدِ المصلين، بيد أتباع الشريعة الربانية؛ لأنّ النصرَ موعودُ اللهِ لهم، ﴿ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُم﴾ وهذه الآية مفسّرةٌ بآية أخرى: ﴿ وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾[3].

والإسلامُ الذي بُعث به خاتمُ الأنبياء والمرسلين محمّد -صلّى الله عليه وسلّم-، وسار على نهجِه الخلفاء الراشدون، فكان الفتحُ على يد الخليفة الفاروق عمر بن الخطّاب لبيت المقدس، حيث المسرى والمعراج، حيث بوّابةُ السماء، إلّا أنّ ربَّ

(1) سورة التوبة: الآية 40.

(2) سورة محمد: الآية 38.

(3) سورة المائدة: الآية 3.

السماء شاء أن تُبتلى وتُمتحن، فكانتِ الفتنةُ الكبرى حيث استُشهد الخليفةُ الراشديّ الثالث عثمان بن عفان غدرًا، فانتقلتِ الخلافةُ إلى الخليفة الراشديّ الرابعِ والأخير عليّ بن أبي طالب، والذي استُشهد ظلمًا، لتنتهيَ باستشهاده دورةُ الخلفاء الراشدين، وتبدأَ دورةُ الخلافة الأمويّة بمبايعةِ معاوية بن أبي سفيان خليفةً للمسلمين في سنة 40 هجريًّا، وما يهمّنا من ذلك في بحثنا هذا هو أنّ هذه المبايعةَ قد تمّت -وفقَ ما يذكرُه الطبريّ والمسعوديّ وأبو الفداء- في بيت المقدس[1].

ولعلّ مكانةَ بيتِ المقدسِ والمسجدِ الأقصى لدى الخليفةِ الأمويّ الأوّل تتجلّى في أنّه كان دائمَ التردّد عليه، والصلاةَ في مسجده، وقد أدّى ذلك إلى اهتمامِ الخلفاءِ الأمويين بالقدس، والحرصِ على زيارتها وعمارةِ أماكنِها في سياقِ عمارةِ الأمكنةِ الإسلامية المقدسة في مكّة والمدينة والقدس.

وكان البعضُ يرى أنّ الأمويين قد نقلوا عاصمةَ الخلافة إلى دمشق، لأنّ أرضَ الحجاز كانت تدينُ بولائها لعليّ بن أبي طالب وأسرته على الرغم من استشهاده، إلّا أنّها بقيت هاشميّةَ الولاء[2]، ورغم ذلك فقد كان نقلُ مقرِّ الخلافةِ الإسلامية إلى بلادِ الشام متسِقًا مع الفتوحاتِ الإسلامية، التي امتدّت في عهدِ الخليفة معاوية من جبل طارق إلى جبالِ الهمالايا، ولذلك تكونُ العاصمةُ أقربَ إلى نقطة المركز، وعقدةَ طرقِ المواصلات في دولةِ الخلافة، ونجد أنّ الخلفاءَ الأمويين قد حرَصوا على منحِ بيتِ المقدس مكانةً خاصةً، حيث ولّوا الأمراءَ الأمويين عليها، مثل عبد الملك بن مروان، وسليمان بن عبد الملك، اللذين سيغدوان خليفتَين، أو مثل عمر

(1) عبد العزيز الدوري: فكرة القدس في الإسلام، ص 141.

(2) عبد العزيز الدوري: فكرة القدس في الإسلام، ص 141.

بـن سـعيد الأنصـاريّ، وابـن مجدل الكلبي، اللذين يعتبران أميزَ القـادةِ الأمويين، ومن هنا يمكننا فهم ما تشيرُ إليه المراجعُ التاريخية من أنّ الأمويين حرَصوا على أن يكونَ للقدس والٍ وقاضٍ خاصَّين بها، كما حرَصوا على تعريبها.

وقد شهدت عمارةُ القدس أزهى أيّامها في زمنِ الخليفة الأمويّ عبد الملك بن مروان (65–86 ه) وأبنائه مِن بعده، وكان هذا الخليفة مهابًا ومعدودًا من فقهاءِ المدينة، ويُقرَنُ بسعيدِ بن المسيب، وعروة بن الزبير[1]، وبالتالي جعلَه علمُه الفقهيّ على درايةٍ تامةٍ بمكانة بيتِ المقدس المقدّسة، ولعلّ هذا ما يفسّرُ أنّه بدأ ببناءِ جامع الصخرة بعد عامٍ واحدٍ من تولّيه الخلافةَ، حيث ابتدأ بإصلاح أسوار القدسِ وبوّابات المدينة وشيّد دارَ الإمامة –أي مقرَّ الحاكم– بجوار القدس»[2].

غيرَ أنّ أهمّ إسهاماتِه المقدسية سيكون دون شكٍّ متمثّلًا في بناءِ مسجدِ قبة الصخرة، حيث قدِمَ من دمشقَ إلى بيت المقدس و«جمعَ الصُّناعَ وأمرَهم أن يصِفوا له صفةَ القبةِ قبل أن يبنيَها، فكرست له في صحن المسجد... فأشحن بالأموال، ووكل على ذلك رجاءَ بن حَيوة، ويزيدَ ابن سلام، وعلى النفقة عليها، والقيام بأمرها، وأمرَهم أن يفرغوا المال عليها إفراغًا دون أن ينفقوا إنفاقًا»[3].

وقد واصلَ الوليدُ بنُ عبدِ الملك اهتمامَ والدِه بعمارة بيت المقدس، وإكسائِه بمظاهر الهيبة والجلال، وقد شكّل اهتمام الوليد بذلك جزءًا من أولوياته بالاعتناء بالأماكن الإسلامية بشكل عام، حيث بنى المسجدَ الأقصى ومسجد دمشق، كما بنى المسجد النبويّ في المدينة ووسّعه حتى دخلتِ الحجرةُ التي يرقدُ

(1) محمد الخضري، محاضرات في تاريخ الأمة الإسلامية، ط 6، ص 138.

(2) أرمسترونغ كارين (القدس: مدينة واحدة وعقائد ثلاث ص 399).

(3) شهاب الدين المقدسي، مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام، ص172

فيها المصطفى بقبره فيه[1].

وقد بُنيَ المسجدُ الأقصى في عهد الوليد، وتمّ بناءُ الهضبة القدسية نفسها التي أقيمت عليها قبة الصخرة في عهده أيضًا. وللاستزادةِ حول موضوعِ اهتمامِ خلفاءِ بني أمية بعمارة بيت المقدس، يمكنُ العودةُ إلى مخطوطِ (مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام) في باب ذكر الوليد ابن عبد الملك بنى مسجد بيت المقدس.

بعد انقضاءِ العهد الأمويّ حلّ العصر العباسي، ذلك العصرُ الذي برزت بوادرُه على المشهدِ السياسيّ الإسلاميّ في عهدِ مروان بن محمد آخرِ خلفاءِ بني أمية، ولمّا انكشفت دعوتُهم المناهِضةُ لبني أمية، أمرَ الخليفة مروان بالقبض على إمامِهم إبراهيم بن محمد العباسي، فسجنَه وقتلَه، وكان إبراهيمُ هذا قد أوصى بالإمامةِ لأخيه أبي العباس، فكانتِ الحميمة في جنوبِ الأردن مقرًّا لدعوته يُصدر منها التوجيهات، في حين كانت خرسانُ مركزًا لها[2].

وتمكّنتِ الدعوةُ العباسيةُ من مواجهةِ الدولة الأموية وتقويضِ أركانِها بعد أن هزمتهم في معركة الزاب (شمال الموصل)، وبذلك تولّى أبو العباس السفّاحُ الخلافةَ العباسيةَ التي حكمتِ العالمَ الإسلاميّ زهاءَ خمسة قرون من سنة 132هـ/ 750م، إلى أن زالت من عاصمتها بغداد على أيدي التتار سنة (656هـ)[3]، ويقول صاحبُ «الفخري» عنِ الدولة العباسية: «إلا أنها كانت دولةً كثيرةَ المحاسن جمّةَ المكارم، أسواقُ العلومِ فيها قائمة، وبضائعُ الآدابِ فيها نافقة، وشعائرُ الدين فيها معظمة، والخيراتُ فيها دارّة، والدنيا عامرة، والحرماتُ مرعية، والثغورُ محصّنة، ومازالت

(1) محمد حسن خشراب، بيت المقدس والمسجد الأقصى، ص 363 - 364

(2) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج7، ص420 422-.

(3) ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي المكارم الشيباني، الكامل في التاريخ، ج4، ص -321 323.

على ذلك حتى كانت أواخرَها فانتشر الجبر، واضطرب الأمر، وانتقلت الدولة»[1].

إنّ موجبات دراستنا هذه تحتّم علينا البحث في علاقة خلافة الدولة العباسية بالشام وفلسطين والقدس، حيث نجد أنّ بلاد الشام بقيت موضع شكّ في نظر العباسيين، ممّا جعلهم يتشدّدون في إدارتها، الأمر الذي ألحق الضرر بمظاهر الحضارة فيها، إلّا أنّ معظم الإجراءات الأكثر تشدّدًا كانت في عهد أبي العباس (132-136هـ) على يد واليه عبد الله ابن علي الذي لقب بسفّاح بلاد الشام، في حين غلبَ لقبُ السفاحِ على الخليفةِ نفسِه، ولم تكن مدينةُ القدسِ مركزًا سياسيًّا أو إداريًّا مع بدايةِ الدولةِ العباسية، بل كانت تتبعُ لمدينةِ الرملة «وتندرُ المعلوماتُ عن مدينةِ القدس في تلك الحقبةِ التي تُسهِبُ في الحديثِ عنِ المراكزِ الرئيسةِ للدولةِ العباسية كبغداد العاصمة»[2]، وعلى الرغم من قلةِ المراجع، إلاّ أنّنا وجدنا في كتاب «مروج الذهب ومعادن الجواهر» للمسعودي أنّ الخليفةَ العباسيّ الثاني أبو جعفر المنصور الذي تولّى السلطةَ في الحقبة الزمنية الممتدة ما بين (136- 158هـ) كان قد أَولى القدسَ اهتمامًا بالغًا دونَ غيرِها من مدنِ بلاد الشام[3].

وفي مخطوطِ «فضائل بيت المقدس»، يحدّثنا أبو المعالي عن زيارةِ الخليفة لمدينة القدس فيقول: «فلما قَدِمَ أبو جعفر كان شرقيُّ المسجدِ وغربيُّه قد وقعا فرُفِعَ إليه: يا أمير المؤمنين، قد وقعَ شرقيُّ المسجدِ وغربيُّه، وكانت الرجفة (الزلزلة) سنة ثلاثين ومئة في شهر رمضان، فقالوا له: لو أمرتَ ببناء هذا المسجدِ وعمارته؛ فقال: ما عندي شيءٌ من المال، فأمر بقلع صفائح الذهب والفضة التي كانت على الأبواب،

(1) محمد بن عليّ بن طباطبا ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية والدولة الإسلامية، ص 125

(2) علي محافظة وآخرون، مرجع سابق ص 109.

(3) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج3 ص 304

فضربت دنانيرَ ودراهمَ، وأنفق عليه»[1]،علمًا أنّ أبوابَ المسجد الأقصى كانت قد لبست بصفائحَ من الذهب والفضة في عهدِ الخليفةِ عبد الملك بن مروان، وما يثبت ذلك ما جاء عن عبد الرحمن بن محمد بن منصور بن ثابت، قال: حدّثني أبي عن أبيه عن جدِّه أنّ الأبوابَ كانت ملبسةً ذهبًا وفضةً، وصفائحُ الأبوابِ كلُّها في خلافةِ عبد الملك»[2].

ولمّا كانتِ الزلزلةُ الثانيةُ في مدينةِ بيتِ المقدسِ وقعَ البناءُ الذي بناه الخليفةُ المنصور، كما تسبّبَ هذا الزلزالُ في انقطاعِ المصلّين عنِ ارتيادِ المسجدِ للصلاة فيه لمدةٍ طويلة، فلمّا رُفِعَ ذلك إلى الخليفةِ المهدي بن المنصور لدى زيارتِه المدينة، أمرَ بإعادة بنائِه فتمّ البناءُ في خلافته سنةَ 163 هجريًّا[3]، وكانت تتكوّنُ من رواقٍ أوسطَ يقومُ على أعمدةِ رخامٍ، وتكتنفُه من كلِّ جانبٍ أروقةٌ له، وأقلُّ منه ارتفاعًا[4]، واستحدث في البلاط الأوسط، بعد أن استغنى عن صفّ الدعامات الذي يتوسط بيتَ الصلاة، وغطّاها سقفٌ جملوني ضخم، يعلوه منورٌ لإدخال الضَّوءِ، وفيه خشبيةٌ مزدوجةٌ مغلقةٌ بصفائحِ الرصاص من الخارج ومزيّنةٌ بالجبس من الداخل، وهي سماتٌ معمارية رأى بعض الباحثين أنّها تقومُ على المزايا المعمارية لقبة الصخرة[5].

ولعلّ الخليفةَ المهديّ كان مدفوعًا في ذلك بمحاولةِ أن يثبتَ للمسلمين حرصَ

(1) مخطوط فضائل بيت المقدس والخليل -عليه الصلاة والسلام- وفضائل الشام، لمحمود إبراهيم ص 229 230-

(2) مخطوط فضائل بيت المقدس والخليل -عليه الصلاة والسلام- وفضائل الشام، لمحمود إبراهيم ص 229 230-

(3) مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج 1، ص 283

(4) محمد محمد حسن شراب: بيت المقدس والمسجد الأقصى، ص 286.

(5) نبيه العاقل: فلسطين من الفتح العربي الإسلامي إلى أوسط القرن الرابع الهجري، الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني (بيروت) ص 329.

الخلافةِ العباسية على أن تهبَ القدسَ اهتمامًا معماريًا لا يقلُّ عنِ اهتمام الأمويّين، ويروي المؤرخون العربُ وأصحابُ كتبِ فضائلِ القدسِ بهذا الصددِ أنّ الخليفةَ المهديّ لمّا قدم يريد بيت المقدس، دخل مسجد دمشق، ومعه كاتبه أبو عبيد الله الأشعري، وقال له: «يا أبا عبيد الله، سبقَتنا بنو أمية بثلاثٍ، فقال أبو عبيد الله: وما هنّ يا أميرَ المؤمنين؟ قال: بهذا البيت (يعني مسجد دمشق)، لا أعلم على ظهرِ الأرض مثلَه، وبنبل الموالي، فإن لهم مواليَ ليس لنا مثلُهم، وبعمرَ بنِ عبدِ العزيز، لا يكون -واللهِ- فينا مثلُه أبدًا. ثم أتى بيتَ المقدس، فدخلَ قبةَ الصَّخرة، ثم قال: يا أبا عبيد الله، وهذه رابعة»(1).

أمّا ما ترويهِ المرويّات التاريخيةُ اللاتينيةُ عنِ العلاقةِ والحلفِ بين هارون الرشيد والإمبراطور شارلمان، فلم يصحَّ لدينا تاريخيًّا، وهذا محضُ افتراءٍ لا أصلَ له -والله أعلم-(2).

وتوالى اهتمامُ بني العباس ببيتِ المقدّسِ والمسجدِ الأقصى، ففي عهدِ المأمون(3) ابنُ المهديّ أصابَ قبةَ الصخرةِ شيءٌ من الخراب، فلمّا زار المأمونُ بيت المقدس سنة 215 هجريّ، أمر بإصلاحات في القبة، بإشراف أخيه أبي إسحاق (الخليفة المعتصم فيما بعد) الذي كان نائبَه على بلادِ الشام وعلى يد عامله صالح بن يحيى، وقد بلغتِ الترميماتُ التي أجراها الخليفةُ المأمون من الضخامةِ حدًّا جعلَ بعضَ أتباعَه يعزون البناءَ كلَّه للمأمون سنة 216 هجريّ(4)، واستبدل الصنّاعُ

(1) شهاب الدين المقدسي: مرجع سابق، ص 356

(2) أحمد عبد الحافظ: أيّام الرشيد، ص 305- 309

(3) تولّى المأمون الخلافة في الفترة ما بين (198هـ/ 813م- 218هـ/ 833م.

(4) ياقوت الحموي: معجم البلدان: ج4 - ص 5، تحقيق ويستفلد-طبعة طهران.

اسمَ عبدِ الملك بن مروان، وهو الباني، على الفسيفساء الموجودة على القبة، ولكنّهم غفلوا عن تغييرِ سنة 216 هجريّ، التي حدث فيها ترميمُ المأمون، وفي مطلعِ القرنِ الرابع الهجري، أصلحت أمُّ الخليفة المقتدرِ باللهِ العباسيّ جانبًا من سقفِ الصخرة، وأمرت بوضعِ أبوابٍ للمسجدِ الأقصى، وقد ذكرَ ذلك صاحبُ كتاب (أحسنُ التقاسيمِ في معرفة الأقاليم)[1].

وممّا زاد من قدسيّة القدس في فترة حكم العباسيّين روايتُهم الأحاديثَ حول شدّ الرحال من قبل التابعين، ثمّ زادت من هذه الأهميةِ المؤلفاتُ الجغرافية في القرن الرابع للهجرة، والتي تعظّمُ مكانةَ بيت المقدس وفضائلها وفضلَ مدينة القدس وبلاد الشام وحرمة الأماكن المقدّسة، وكذلك فضل المسجد الأقصى والصلاة فيه[2].

لقد بقيتِ الأرض الفلسطينية وبوّابة السماء في بيت المقدس على المستوى السكني في العهد العباسي مدينة عربية إسلامية بشكل أساسيّ، إذ لم ينقطع تدفقُ القبائل العربية من الجزيرة إلى بلاد الشام.

وفي نهاية القرنِ التاسع الميلادي استقلَّ أحمد بن طولون (ت884) والي مصر عن مركز الخلافةِ في بغداد، فأصبحت بلاد الشام -بما فيها القدس- في إطار ولايته، غير أنّ هذا الاستقلالَ كان إداريًّا، وليس سياسيًّا، إذ أقرّ الخليفة العباسي الموفق في عام (886م) ابنَه خمارويه على مصر[3]، وكانت سلطةُ الخليفة العبّاسي في علاقته مع الوزراء أو السلاطين المتقلبين قد أصبحت في هذا الطَّور قريبةً نوعًا منَ العلاقة

(1) محمد إبراهيم: فضائل بيت المقدس، نقلاً عن أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، لشمس الدين أبي عبد الله محمد ابن أحمد بن أبي بكر المقدسي البشاري، ط 2، ليدن، ص 169.

(2) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، بيروت 1908م، ص 94، ابن الأثير: ج1 - ص 57

(3) إلياس الشوفاني: الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص 185-186

ما بين سلطة البابا وسلطة الإمبراطور الروماني في الغرب.

وما يهمّنا في هذه الدراسة هو أنّ ابن طولون وابنه خمارويه قد استطاعا رغم تفكّك دولة الخلافة العباسية أن يحافظا على القانون، والنظام، والسلام في القدس، ممّا أدّى إلى تحسُّنِ الوضعِ الاقتصاديّ وانتعاش التجارة، أمّا الجرمُ الذي ارتكبَه ابنُ طولون في نظرِنا هو تعيينُه حاكمًا صليبيًّا على مدينة القدس، على الرغم من كون غالبيةِ سكّانها مسلمين، وقد زاد الطينَ بلّةً عندما سمحَ لأعضاءِ أحدِ المذاهب اليهودية بإرساء قواعدهم بالقدس[1].

هكذا وما لبث حكم أسرة ابن طولون -غير المأسوف عليها- أن ينتهي في عام 904م، وذلك عندما تمكّن العباسيّون من استعادةِ سيطرتهم المركزية على فلسطين، إلّا أنّ السلطة ما لبثت وأن آلت في إطار ضعفِ الخلافة المركزية في بغداد إلى العائلةِ الإخشيدية التي تولتِ السلطةَ في مصر وبلاد الشام؛ بما في ذلك القدس، مع بقاءِ تبعيّتها الاسميةِ للخلافة في بغداد. ودخلت في حكم الدولةِ الإخشيدية (935-969م) حين أقامَ الخليفة العباسيّ القاهر بالله ابنِ المعتضد محمّد بن طغج واليًّا على مصر والشام[2]، فاتّخذ هو وخلفاؤه من بعده اللقبَ الملكيّ الآسيوي (الإخشيد)، وأبرز سلاطين هذه الأسرة تعلّقًا روحيًّا خاصًّا بالقدس، إلى درجة أنّهم أوصَوا جميعًا بأن يُدفنوا في مدينة القدس[3]، فحُمل جثمان الإخشيد في عام 945م بناءً على وصيّته من دمشقَ إلى القدس حيث دُفن فيها، كما تمَّ دفنُ ابنِه أنوجور بن الإخشيد في 960م تبعًا أيضًا لوصيّته جوارَ قبرِ أبيه، وحين تولّى كافور السلطةَ، ولقّب بالإخشيد وخُطبَ

(1) أرمسترونغ، المصدر السابق-بتصرف-ص425.

(2) عارف العارف: القدس، ص 59.

(3) شراب: المصدر السابق، ص 103.

له على منابر مصر والشام والحجاز فإنّه رسّخ هذا الارتباطَ الإخشيديّ بالقدس حيث أوصى بدوره أن يُدفن في القدس، وتمّ في عام 966م ذلك[1]. وشكّلَ ذلك كلُّه لدى الإخشيديّين تقرّبًا من مرقى الإسراء والمعراج، ومن دارِ الحشرِ والنشر ومنَ الأرضِ التي باركها الله، ومن بوّابة السماء.

لعلّ هذا التعلّقَ الإخشيديّ المميّز بالقدس وفلسطين يفسّرُ بسالةَ الإخشديين بالدفاع عنها في وجه الادّعاءات والضغوطات البيزنطيّة، إذ حوّلَ البيزنطيّون السلامَ ما بين المسلمين وجوارهِم الصليبيّ إلى ساحةِ حربٍ حين استغلّوا صراعاتِ الأسرِ الحاكمة، ودولةِ الخلافة العباسية، فسيطروا على قبرص، وطرطوس (طرسوس) وعلى كيليكية، وأعلنوا أنّهم يهدفون إلى احتلالِ بيتِ المقدسِ من جديدٍ، وبالطبعِ لم يكن أحدٌ منَ المسلمينَ يتخيّلُ أنّ المحتلَّ الصليبيَّ سوف يتعامل مع أهل المدينة المسلمين بشهامةٍ ورحابةِ صدرٍ، كما سبق أن فعلَ الخليفةُ عمرُ ابنُ الخطّاب عندما فتحَ بيتَ المقدس، وحرّره من دنسِ الصليبيّين.

وبالعودة إلى الإخشيديّ كافور الذي أدّت وفاته في (357هـ- 968م) لاضطراباتٍ في الحالةِ السياسيةِ في مصر، إذ هاجمَ القائدُ الفاطميّ جوهر الصقلّيّ مصر، وحين وصلَ إلى الإسكندرية استقرَّ رأيُ الوزيرِ العباسيّ ابنِ الفرات في بغداد على الصلحِ معه، مقابلَ أن يصدرَ كتابُ أمانٍ للمصريّين ينصُّ على استمرار إقامةِ شعائرِ الحجّ، وإصلاحِ الطرقات، واستتبابِ الأمن، وتوفيرِ الأقواتِ، وإصلاحِ السكّة (العملة)، ونشرِ العدلِ وترميمِ المساجد وتأثيثها، وأن يُبقي المصريّون على أنفسِهم وأموالهم

(1) عارف العارف: مصدر سابق، ص 60-61.

وأهاليهم[1]؛ وبهذا الشكلِ باتت مصرُ خاضعةً للدولةِ الفاطميّة في وقتٍ تمزّقَت فيه سلطةُ الخلافةِ الإسلاميةِ إلى ثلاثةِ مراكزَ في بغداد العباسية، والأندلس الأمويّة والقاهرة الفاطمية.

وما لبثَ الفاطميون في عام 969م أن بسطوا سيادتَهم على دمشق ثمّ فلسطين، بما فيها القدس، مستغلين الصراعاتِ ما بين الأسرتَين الحمدانية والإخشيدية والقرامطة والقوى القبَلية، التي غدا بيتُ المقدس مسرحًا لها لمدّة ثلاثين عامًا[2]؛ وبتأثير هذه الصراعات فإنّ عدد سكّان القدس حين استولى عليها الفاطميون لم يتجاوز خمسةً وعشرين ألفَ نسمة[3].

غير أنّ تلك الصراعاتِ لم تتوقّف قط، حيث استمرَّ بها المرداسيون الذين ورثوا الحمدانيين في حلب، والسلاجقةُ الذين قضَوا على المرداسيين، وتمثل محور هذه الصراعاتِ في السيطرة على بلاد الشام، ممّا جعل السلطةَ الفاطميةَ على القدس مضطربة وقلقة[4].

ورغم ذلك كلِّه فقد تمكّنَ الفاطميون من الحفاظِ على سيطرتِهم على بيتِ المقدس من عام (969م إلى عام 1073م) إلى أن ظهرَ السلاجقةُ بأعدادٍ كبيرة في شمال العراق وسورية، ودخلوا بغداد في عام (1055م)، ثمّ بسطوا سيادتَهم على بلاد الشام، وانتزعوا بيتَ المقدسِ من الفاطميين في عام 1073م[5].

(1) محمّد جمال الدين سرور، مصر في عصر الدولة الفاطمية، ص 32-35.

(2) شوفاني: مصدر سابق، ص196.

(3) عارف العارف، مصدر سابق، ص 62.

(4) نبيه العاقل، فلسطين من الفتح العربي الإسلامي إلى أواسط القرن الرابع الهجري- الموسوعة الفلسطينية، ص 289.

(5) شوفاني: مصدر سابق، ص 187.

لقد ارتبطت عودةُ المركزيةِ السُّنيةِ إلى بيت المقدس بانتصار السلاجقة السنّة الذين علَوا باسمِ الخلافةِ العباسية السنية على الفاطميين، وقد استمرتِ السيادةُ السلجوقية على القدس إلى أن عاد الفاطميون إليها قبل ثلاثِ سنوات من احتلال الصليبيين الفرنجة لها.

ومنذ خضوعِ القدس للسيادة السلجوقية أقيمتِ الدعوةُ للخلافة العباسية مكانَ الدعوة للخلافة الفاطمية[1]، وهو ما أحدثَ انقلابًا في الوضعِ الدينيّ للقدس، إذ تزايدت أعدادُ العلماء السنة الذين تقاطَروا لإزالةِ آثارِ ما اعتبروه (هرطقةً) فاطميةً -ونحن كذلك- وقد قَدِمَ هؤلاء من شتى بقاعِ العالم الإسلامي، فتغيرت بسرعةٍ الصورةُ المذهبية الإسلامية للقدس، حيث كَثُرَ فيها العلماءُ واتّسعت حلقاتُ الجدل والمناظرة، أمّا مراكزُ الحديثِ النبويّ وطلابِه فعادت وانتعشت من جديد[2]. في حين كان العلماء السنة قبل ذلك مضطرين لترك القدسِ إلى مناطق السيطرة العباسية، تجنبًا للمضايقاتِ المذهبية الفاطمية.

هذا وقد شهدتِ القدسُ في ظلِّ السلاجقة فورةً سُنيةً تصحيحية، حيث عاد إلى بيتِ المقدسِ التشريعُ الإسلامي الصحيحُ، مزيلًا البدعَ الكُفرية، والأفعالَ الهرطقية، حين قام السلاجقةُ برعايةِ ما يمكن من معاهدِ السنة على مختلفِ مذاهبهم الفقهية، فوصل عددُ حلقات الدرس في القدس إلى ثمانٍ وعشرين حلقةً درسيةً فضلًا عن حلقات الذكر.

وقد أعطانا ابن عربي في كتابه (العواصم والقواصم) صورةً عن هذه الحركة

---

(1) مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ج-1 ص172.

(2) شاكر مصطفى، فلسطين ما بين العهدين الفاطمي والأيوبي الموسوعة الفلسطينية، المجلد الثاني ص 291

الناشطة[1]، فابنُ عربي الذي شرعَ برحلته إلى القدس في أواخرِ الفترة السلجوقية يشعرنا بتبدلِ الجوِّ الدينيّ المقدسيّ، ويقدّم لنا صورًا حيّة عنِ الحيوية الثقافية، وسعةِ مجالسها وآفاقها، وتنوع اختصاصاتها الكلاميةِ والأصوليةِ والبحث في مسائل الخلاف، ونشاطِ الفقهاء الشافعيين والحنبليين والجدال بين الفقهاء والمعتزلة، وبين المسلمين وأهل الديانات الأخرى[2].

ولكنّ ذلك لم يدُم طويلًا، حيث خرجَ الخليفةُ الفاطميّ العزيزُ على رأسِ جيشٍ من القاهرة إلى بلاد الشام، وجعل على مقدمته جوهرَ الصقلّيّ، وفي منطقة الرملةِ على أرض فلسطين التقى الجيش الفاطمي والشاميّ وجهًا لوجه عام (367هـ - 977م)، وقد حُسمتِ المعركةُ لصالحِ الجيشِ الفاطمي، وقد عبّرَ أحدُ سكّان فلسطين عن تلك الحقبة الزمنية وهو أبو بكر الرملي النابلسي عن مدى الكراهيةِ للفاطميين، بقوله: «لو كان معي عشرةُ أسهمٍ لرَمَيتُ تسعةً في الفاطميين وواحدًا في الروم»[3]، وهذا القولُ يدلّ على أنّ بلادَ الشام كانتِ الضحيةَ الكبرى لهذا الصراع، وقد عانى بيتُ المقدس ومدنُه الرئيسةُ -بما فيها القدس- من ذلك ما عانت، حيث انتهى بها المطافُ ذبيحةً على مذبحِ عبّاد الصليب الفرنجة، أهلِ الشرك والتثليث والاعتقاد الفاجر.

إنّ الصراعَ بيننا وبين الصليبيين وأسيادِهم اليهودِ ليس صراعَ أرضٍ وجدودٍ، ولكنّه صراعُ عقيدةٍ ووجود، صراعُ الشريعة الإسلامية الربانية ضدّ شريعة الغاب اليهودية، الذي ضلّله صليبيو هذا الزمان.. وغابر الأزمان، كما ضلّلهم أوربان الثاني

(1) المصدر السابق، ص 492.

(2) عبد العزيز الدوري: فكرة القدس في الإسلام، مجلة شؤون عربية- بيروت، عدد 24، 1983، ص141.

(3) كمال الدين عمر عمر بن العديم: زبدة الحلب من تاريخ حلب، ج-1ص 163.

الذي دعا إلى الحرب الصليبية ضدّ الإسلام، عندما سارعَ إلى عقدِ اجتماعٍ في مدينة كليرمنت في فرنسا، حيث حضره أكثرُ من ثلاثمئة من رجال الكنيسة[1]، كما حضرَ أمراءُ أوروبا وممثلون عن إمبراطور بيزنطة، وكذلك مندوبون عن المدنِ الإيطالية، وهكذا أثار أوربان الثاني حماسَ الحاضرين، فسارع السامعون إلى اتخاذِ الصليب شارةً لهم[2]، في حربهم المدنّسة ضدّ المسلمين وأرضهم المقدّسة.

بيت المقدس احتلال صليبي... فتحرير إسلاميّ

لقد كانت للحروب الصليبية التي شنّها الفرنجةُ على الشرق الإسلاميّ لاحتلالِ بيت المقدس مقدّماتٌ كثيرةٌ جدًّا على الصعيدَين الإسلاميّ والصليبيّ. عبر هذا المبحثِ سنحاول الإجابةَ على الأسئلةِ الرئيسةِ دونَ التوسُّعِ والخوضِ في التفاصيل على رغم علمنا بأهميتها، وذلك لأنّ الموضوعَ إذا ما توسّعنا به لإعطائه حقَّه، سنجدُ أنّنا أصدرنا أطروحةً بحثية مستقلة.

أحوالُنا -نحن المسلمين- في هذا الزمانِ لا تختلف كثيرًا عن ما كان عليه حالُنا عندما تجرّأ الصليبيون على غزوِنا، واحتلالِ بيت المقدس، وهذا ما رآه المصطفى -صلواتُ الله وسلامه عليه- رأيَ العينِ في الحديث النبوي الذي رواه ثوبان -رضي الله عنه- حيث قال رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم-: «يُوشِكُ الأممُ أن تداعَى عليكم كما تداعَى الأكَلَةُ إلى قصعتِها. فقال قائلٌ: ومن قلَّةٍ نحن يومئذٍ؟ قال: بل أنتم يومئذٍ كثيرٌ، ولكنّكم غُثاءٌ كغُثاءُ السَّيلِ، ولينزِعنَّ اللهُ من صدورِ عدوِّكم المهابةَ

---

(1) عبد الله الربيعي: أثر الشرق الإسلامي، ص 81

(2) السيد الباز العريني: الشرق الأدنى في العصور الوسطى، الأيوبيون، ص 13-14.

منكم، وليقذِفَنَّ اللهُ في قلوبِكمُ الوهْنَ. فقال قائلٌ: يا رسولَ اللهِ! وما الوهْنُ ؟ قال: حُبُّ الدُّنيا وكراهيةُ الموتِ»[1].

إنّ القوّاتِ الصليبيةَ التي تداعت من إنجلترا وإيرلندا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا لم تأتِ بهذا الجبروتِ والقوّة إلّا لأنّ اللهَ -عزَّ وجلّ- نزعَ الرهبةَ من قلوبها من جموع المسلمين، فصاروا لا يكترثون بهم ولا بأعدادهم وحصونهم وسلاحهم، ورأينا اجتماعاتِ الصليبيين المؤتمرين المتآمرين لا تعبّرُ أبدًا عن خوفٍ في صدورهم، أو عن قلقٍ من مقاومة المسلمين لهم، إنّما يتحرّكون هنا وهناك بحرّيّة تامّة وباطمئنان كامل[2]، والمسلمون على الجانب الآخر ألقيَ في قلوبهم الوهنُ والضعف والخوَر، فيرتعبون لرؤية الجنود الصليبيّين، ولو كان الصليبيون أقلَّ منهم في العدد، وأضعفَ بالعدة[3].

ولنا مع الحديثِ النبوي الشريف وقفتان تدخلان في صلبِ متطلبِ مبحثِنا عن أثرِ الشريعة الإسلامية الربانية على فلسطين الأرض، فلسطين المسجد الأقصى وبيت المقدس، وإن كانتِ الوقفاتُ والعبرُ في الحديث كثيرة.

الوقفة الأولى: هي أنّ اللهَ -عزَّ وجلَّ- هو الذي ينزعُ الرهبةَ منّا من قلوب أعدائنا الصليبيين واليهود، وهو الذي يلقي في قلوبنا الوهنَ والضعف والخور والتخاذل!، أمّا لماذا يفعل الله -عزَّ وجلَّ- ذلك بنا، ونحن مسلمون (مؤمنون)، وهم المغضوبُ عليهم والملعونون الضالّون الكافرون؟ فذلك لأنّ اللهَ -عزّ وجلّ- يأبى أن يعِزَّ

(1) أبو داود: كتاب الملاحم، باب تداعي الأمم على أهل الإسلام (4297) وقال الألباني: صحيح (8183) صحيح الجامع.

(2) راغب السرجاني: قصّة الحروب الصليبية، ص 146 – 151

(3) المرجع السابق: ص 147

المسلمين إلّا إذا ارتبطوا بالإسلام حقَّ الارتباط، والتزموا بالقرآنِ والسنّة حقّ الالتزام، وأقاموا شريعتَه حقّ الإقامة، لأنّه -عزَّ وجلّ- لو نصرهم وهم يفرطون في الشرعِ لصارت فتنةٌ عظيمةٌ؛ إذ يقول الناس: إنّنا لسنا بحاجةٍ إلى الإسلامِ وشرعِ اللهِ، فقد نُصرنا بغيره من تشريعاتِ أهل الدنيا، لذلك تحدثُ مثلُ هذه المواقف العجيبة ليلتفتَ المسلمون إلى دينهم، ويعودوا إلى اللهِ، وليضعَ المسلمون أيديَهم على مفاتيح النصر الحقيقية، مفاتيحِ النصر الربانية.

الوقفة الثانية: فنختصرها في جملتين قصيرتين: حبُّ الدنيا وكراهيةُ الموت، فمسلمو هذا الزمان... وذاك تعلّقوا بالدنيا تعلّقًا غيرَ مقبول، حتّى صاروا يكرهونَ الموتَ في سبيلِ الله، أمّةً ترهبُ الموت... ترهبُ الاستشهادَ والتضحيةَ لا بدَّ أن تُقهَر، وأمّةٌ تعشقُ الدنيا لا بدّ أن تذلّ.

إنّ هذا السببَ يفسّر لنا التخاذلَ الرهيب الذي رأيناه من جموع المسلمين التي كانت تخرجُ إلى الصليبيين وهي تحملُ الهدايا النفيسة، والأموالَ الطائلة، لكي يتركوهم يعيشون، مجرّدَ حياة، أيًّا كانت هذه الحياةُ، وهذا -والله- هو الهوانُ والذلّ بعينه، وبالطبع هذا ما نرى عليه حالَنا اليوم في ظلّ حكّامٍ ضالّين مضلّين متخاذلين مخذولين عن نصرةِ الله وشرعِه ومقدّساته.

لنترك أحوالَنا في هذا الزمانِ، ونعودُ إلى ذاك الزمانِ، حيث الوقتُ الذي غزا فيه الصليبيون بلادَ المسلمين، وكان وقتًا عصيبًا جدًّا، فإنّهم -عليهم لعنات الله- قام فيهم بطرس الناسك يحرّضهم على غزو أرض المسلمين ويقول: «إن أرضَ المسلمين تقطرُ لبنًا وعسلًا»، وأعلن ما يسمى بالحروب الصليبية المقدسة، حتى اجتمعَ من جيوش الكفرة من النصارى خلقٌ عظيمٌ، غزَوا سواحلَ بلادِ الشام فاحتلوا كثيرًا منها، وأمعنوا في المسلمين قتلًا، وفي بلادِهم وممتلكاتهم نهبًا وسلبًا، وقام

المسلمون من كلِّ مكانٍ من بلاد الشام، يذهبون إلى إخوانهم يستنصروهم فلا معينَ ولا ناصرَ، وكان يحكمُ مصرَ في ذلك الوقتِ الدولةُ الفاطميةُ الباطنيةُ الرافضيةُ الكافرة، التي لما أتى ملوكها مصر قاموا بقتل علماء السنة فيها، وجعلوا المساجدَ والأئمة الخطباء والقضاةَ ممّن هم من أتباعِ المذهب الفاطمي، ينتسبون إلى فاطمةَ -رضي الله عنها-، وفاطمةُ منهم بريئةٌ، وكان هؤلاء من خياناتهم أنهم كانوا يتعاونون مع النصارى، وهكذا الخائنون في كلِّ عصرٍ ومصر يَكيدون لأهل الشريعة الإسلامية الربانية، ويتعاونون حتى مع الشيطان الرجيم في سبيلِ القضاء على ملة الإسلام، وما كانوا يَقِلُّون خطرًا أبدًا عنِ النصارى، بل إنّ شرَّهم مستطيرٌ، وبلاءَهم عظيم، حالُهم كحال شريعة الغاب اليهودية.

في ذاك الزمان وهذا... عانى المسلمون من بعدٍ عنِ الدين، وغيابٍ للحميّةِ الإسلامية، وافتقادٍ للنخوةِ المستندة على عقيدةٍ قويّةٍ صحيحةٍ وإلى شريعةٍ ربّانية حقيقية، عانوا من فُرقةٍ مؤلمة، وتشتتٍ مخزٍ فاضحٍ، حتّى صارت كلُّ مدينةٍ إمارةً مستقلة ودويلةً منفصلة، بل ومتصارعةً مع جيرانها المسلمين، ومتصالحةً مع أعداءِ الله والأمّة الإسلامية من يهودٍ ونصارى وعبّادِ بقرٍ وأصنام.

عانوا في ذاك الزمانِ ونعاني في هذا الزمان من افتقارٍ لزعامةٍ مخلصةٍ متحرّرة، تجمعُ الشتاتَ في دولةِ خلافةٍ إسلامية على منهج النبوة، وترغبُ في رفعةِ هذه الأمّةِ وعزّتها، وفي إعلانِ كلمة الله، دون نظرٍ إلى مصالح الذات ورغبات النفس.

هذا كان حالنا، أمّا حالُ الصليبيين فقدِ اختلفتِ التفسيرات المتعلّقة بطبيعة حروبهم الصليبية من عصر إلى عصر، ومن مؤرّخ إلى آخر، فمفكّرو العصور الوسطى في الغرب الأوروبي اعتبروا الحروب على المشرق الإسلامي حروبًا مقدّسة وحجًّا جماعيًّا مسلّحًا إلى الأماكن المقدّسة، فيما وراء البحار، وذلك لغفران

الخطايا، في حين ذهب مفكّرو عصر النهضة خلال القرن الثامن عشر، إلى تفسير مضادّ لهذه الحروب، عندما وصفوها بأنّها مجرّد انفجارٍ للتعبير عن روحِ التعصّب، التي سادتِ العصورَ الوسطى، ونموذجٌ للحماس والغيرة في تلك الحقبة الزمنية[1]، غير أنّ المؤرّخَ السياسيَّ ينظرُ إلى الحروب الصليبية على أنّها حركةُ هجرةٍ من الغربِ إلى الشرق، وتطلّعًا من أوروبا إلى مستعمراتٍ في الشرقِ أكثرِ ثراءً[2]، وبالتالي فهي فرصةٌ مناسبة للأمراء والفرسان الذين فقدوا نصيبَهم من النظام الإقطاعي المرتبط بالأرض، وفقدوا مكانتَهم السامية في مجتمعاتهم في أوروبا، فجاءتِ الحركةُ الصليبية لتفتحَ البابَ على مصراعيه أمام هؤلاء الأمراء، فلبَّوا نداءَ البابوية لتحقيقِ مجدٍ أكبرَ وجاهٍ أعظمَ في تأسيسِ إماراتٍ لأنفسهم في الشرق تعوّضهم ما فقدوه[3]، أمّا المدرسة الحديثة من المؤرّخين الاقتصاديين فقد اعتقدت أنّ هذه الحروبَ هي مرحلة من مراحل التوسّعِ الأوروبي في المشرق، أي شكلٌ من أشكال الاستعمار في العصور الوسطى، فازديادُ عدد سكّان أوروبا الغربية بشكل عام وفرنسا خاصة، خلال القرنِ الحادي عشر الميلادي، دفع هؤلاء المتحمسين إلى البحث عن مواردَ جديدةٍ للرزق[4].

هذا ويعدّ التطلُّعُ إلى خيراتِ المشرق الإسلامي في الجانب الاقتصادي من أقوى

(1) عزيز سوريال عطية: العلاقات بين الشرق والغرب، ترجمة: فليب جابر، القاهرة 1972 – ص 6 وما بعدها.

(2) عادل زيتون، تاريخ العصور الوسطى الأوروبية، الطبعة الرابعة، مطبعة دار الكتاب، دمشق 1991، ص222

(3) سعيد عبد الفتاح عاشور، أوروبا في العصور الوسطى، ج2، القاهرة 1972، ص 49، فاروق عمر فوزي ومحسن محمد حسين، الوسيط في تاريخ فلسطين في العصر الإسلامي، دار الشروق د.ت، ص 154.

(4) عزيز سوريال عطية: مرجع سابق: ص 6 وما بعدها.

دوافعِ الحروب الصليبية بعد الدوافع الدينية -المصطنعة-، وقد عبّر البابا في خطابه عن أهمية العاملِ الاقتصادي بالنسبة لواقع أوروبا في وقته فقال: «... ذلك أنّ الأرضَ التي تسكنونها الآن، أوروبا والتي تحيطُ بها البحار، ضيّقةٌ على سكّانها الكثيرين، وتكاد تعجز عن كفايتهم من الطعام، ومن أجل هذا يذبحُ بعضكم بعضًا، إنّ أورشليم (القدس) أرضٌ لا نظير لها، بل هي فردوسُ المباهج»[1].

إنّ النظامَ الاجتماعيّ لأيِ مجموعةٍ بشرية تتكوّن من أفراد تربطهم علاقاتٌ اجتماعية متبادلة، أساسُها العدالة والتكافل والنظام الأخلاقي للمجتمع الذي يعيشون فيه بحيث يكون بعيدًا كلَّ البعد عن نظام العبوديّة[2]، في حين ساد المجتمعَ الأوروبيَّ في العصور الوسطى نظامُ العبودية والتمايز الطبقي؛ فبرزت طبقةُ رجال الدين بالدرجة الأولى وطبقةُ المحاربين من النبلاء والفرسان في الطبقة الثانية، وكانت طبقةُ الفلّاحين تمثّلُ الفئةَ المغلوبَ على أمرها، وكان أفرادُها يكدحون ليسدّوا حاجةَ الطبقة الأولى والثانية، وقد كان البابا على درايةٍ بأحوال الفلّاحين الذين يشكّلون الفئةَ الأكبرَ في المجتمع، فوعدَهم بإلغاءِ التزاماتهم تجاه أسيادِهم، وأغراهم بخيراتِ الشرق الإسلامي[3]، ولمّا ظهرتِ الدعوة الصليبية، وجدت هذه الطبقةُ الكادحةُ فرصتَها للخلاص من حياةِ الذلّ والهوان والعبودية في بلادها[4]، وبالتالي يكونُ الدافعُ الاجتماعيُّ المتجسّد في الكسبِ من أسبابِ الحملات الصليبية

---

(1) عبد الله بن عبد الرحمن الربيعي: أثر الشرق الإسلامي في الفكر الأوروبي خلال الحروب الصليبية، الرياض، 1415هـ، ص 138.

(2) معجم علم الاجتماع: ص222.

(3) محمّد حامد الناصر، الجهاد والتجديد، ص 24، مكتبة الكوثر، الرياض، ط 1، 1419هـ/ 1998م.

(4) خاشع المعاضدي وسوادي عبد محمد ودريد عبد القادر نوري، تاريخ الوطن العربي والغزو الصليبي، ص 24، ط 2، 1986م.

على بلادِنا الإسلامية، على بيتِ المقدس، هذا فضلًا عن التغيرات العديدة، منها القديم ومنها الحديث.

والمهم هنا أنّه غدا من المؤكّد بأنّ الحركةَ الصليبية تُعتبر نقطةَ تحوّلٍ بالغةَ الأهمية في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب؛ بل أخطرَ الحركات الاستعمارية التوسعية الاستيطانية التي قام بها الغربيون في العصور الوسطى ضدّ المسلمين في بلاد الشام ومصر تحت ستار الحماسة الدينية لإخفاء طبيعتها الاستعمارية ودوافعها الاقتصادية والسياسيّة[1].

لقد تطوّرت هذه الحركةُ على مدى القرون كحركة إحياءٍ دينيٍّ ظهرت في غرب أوروبا في القرن العاشر الميلادي، والتي بلغتِ الذروة في القرن الحادي عشر، وأدّت إلى تقويةِ مركز البابوية، وإثارة الحماسة الدينية في نفوس المجتمع الغربي، التي عملتِ الكنيسة على تصديرها للعالم الإسلامي في المشرق، وكان ذلك باسم تخليص القدس من أيدي المسلمين[2]، وكان أوربان الثاني قد تبنّى فكرةَ الدعوة إلى الحروب الصليبية وروّجَ لها ضدّ المسلمين، وهو مَن حرّض على إرسال الحملة الصليبية الأولى إلى بلاد الشام، حيث سارعَ إلى عقدِ اجتماعٍ في مدينة كليرمُنت في فرنسا، حضره أكثرُ من ثلاثمئةٍ من رجال الكنيسة[3]، كما حضره أمراءُ أوروبا وممثلون عن إمبراطور بيزنطة، وكذلك مندوبون عن المدنِ الإيطالية، وهكذا أثار أوربان الثاني حماسَ الحاضرين، فسارع السامعون إلى اتّخاذ الصليب شارةً لهم[4].

(1) عادل زيتون، مرجع سابق، ص 223.

(2) سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية، ج1، ص20.

(3) عبد الله الربيعي: أثر الشرق الإسلامي، ص 81.

(4) السيد الباز العريني، الشرق الأدنى في العصور الوسطى، الأيوبيون، ص 13.

ركز البابا في خطابه الديني على ما أسماه بالخطرِ الإسلامي على أوروبا من جهةِ القسطنطينية، وأنّ النصارى في المشرق يعانون من بطشِ المسلمين وظلمِهم، وأنّ الأديرةَ والكنائس أصابها الدمار، فحثّ السامعين على المبادرة بالتحضير للانتقامِ من المسلمين[1].

ومنَ الشعاراتِ المعلنة في تلك الحملة الإعلامية التحريضية أنّ حجّاجَ النصارى يتعرّضون للاضطهاد والقسوة من قِبل المسلمين، وهم في طريقهم إلى بيتِ المقدس لأداء مناسكهم الدينية.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى، نرى في العنفِ الفردي الذي يُدّعى أنّ الصليبيين قد تعرضوا له في المشرقِ الإسلامي، وذلك خلال القرن العاشر الميلادي، لا يصحّ أن يُستندَ إليه كدافعٍ حقيقيّ للحركات الصليبية على بلادنا ومقدّساتنا، لأنّ المسيحيّين تمتّعوا -وما زالوا- بوافرٍ من الحرية الدينية والاجتماعية السلوكية في المشرق الإسلامي والمغرب.

وهكذا أثّرَ خطابُ الكنيسة في غرب أوروبا على الدعوة لهذهِ الحرب، وترتّب على ذلك خروجُ الناس في حملاتٍ صليبيةٍ متتالية إلى المشرق الإسلامي[2]، وكما أسلفنا أنّ البابا أوربان الثاني كان قد دعا إلى شنّ الحربِ الصليبية ضدّ المسلمين في مجمع كليرمونت الفرنسي عام 1095م، فقامت حركةٌ شعبيةٌ ارتبطت باسم بطرسِ الناسك الذي بدأ يتجوّلُ في غربِ أوروبا بثيابِه الرَّثَّةِ، فاستجابت له طبقةُ العامةِ بسببِ الظروف القاسية التي كانوا يعانون منها، حيث ظهرَ زعيمٌ آخرُ من العامّة

(1) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج4، ص16، ترجمة محمّد بدران، طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1957م.

(2) خاشع المعاضيدي وآخرون: تاريخ الوطن العربي والغزو الصليبي، ص 22

اسمه (والتر)، قاد أنصارَه عبرَ هنغاريا ثمّ أرضِ الدولة البيزنطية، وفي الطريقِ إلى بلاد المشرق الإسلامي، اخترقت جموعُ الطبقة العامة الصليبية بلادَ البلقان، حتّى بلغوا القسطنطينية سنة 1096م[1].

بدأتِ الصراعاتُ بين حملةِ العامةِ والسلاجقة عندما قرّر الصليبيّون الزحفَ باتّجاه (نيقية) ووصلوا إلى قلعةِ أكسيريجون السلجوقية واستولَوا عليها، وقد أثار هذا الأمرُ حفيظةَ قلج أرسلان السلجوقي، فضرب جيشُه الحصارَ على القلعة، فقرّر رينالد الصليبي أن يستسلم، ففتحَ أبوابَ القلعةِ للسلاجقة، وهكذا فشلت حملتُهم التي كانت بمثابة التجربةِ الأولى في قتال السلاجقة في المشرق الإسلامي[2].

ما يعنينا هنا أنّ الغربَ الأوروبي والكنيسةَ الكاثوليكية استفادوا كثيرًا من هزيمةِ حملة العامة، وعملوا على تجنّبِ سلبياتِها في حملاتِهم الصليبية اللاحقة، في حين أنّ الطرفَ الإسلاميَّ لم يستفِد من انتصاره في معركةِ حملة العامة.

وقد دفعَ العالمُ الإسلاميُّ ثمنَ ذلك باهظًا في الحملة الصليبية الأولى على المشرق الإسلامي، والتي عُرفت باسمِ «حملة الأمراء» من فرنسا ونورمانديا؛ ومن أبرزهم أمراءُ الفرنسيين: جودفري دي بويون، وشقيقُه بلدوين وريموند، بينما نجدُ بوهيمند، وتانكرد من نورمانديا جنوب إيطاليا[3].

تقدّمتِ الجيوشُ الإقطاعيةُ الفرنجيةُ الصليبيةُ الضخمةُ باتّجاه القسطنطينيةِ في أربعةِ جيوشٍ، وعبرتِ البوسفور، واستولت مع البيزنطيين على نيقيةَ عاصمةِ السلاجقة، وأعادت إلى بيزنطة شواطئَ آسيا الصغرى، ثمّ اخترقتِ الطريقَ إلى قونية

(1) محمّد حامد الناصر: الجهاد والتجديد، مرجع سابق، ص90.

(2) محمد سهيل طقوش: تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى، ص 80 81-، دار النفائس ط 1، 2002م.

(3) علي محافظة وآخرون: القدس عبر العصور، مرجع سابق، ص 138

وأنطاكيّة التين سقطتا بعد حصارٍ مريرٍ ومقاومةٍ بطولية، وبعد أن ارتكبتِ القوّاتُ الصليبيةُ مذبحةً مروّعةً في أنطاكيّة أكملت طريقها ومشوارَها الدامي نفسَه في الرُّها.

زحفتِ القواتُ الصليبية إلى مدينة الرها، التي كانت تُحكم من قبل (توروس الأرمني)، وكان سكّانها من نصارى الأرمنِ الخاضعين لحكم السلاجقة، حيث بادرَ حاكمُها بدعوةِ القائد الصليبي بلدوين لاستلامِ المدينة عام 1098م، وذلك خوفًا من أن يحتلَّها أميرُ الموصلِ التابع للسلاجقة[1]، وهنا نجد أنّ هزيمةَ السلاجقة في نيقية وأنطاكية وخسارتَهم للرها كانت قد سرَّتِ الدولةَ الفاطمية في القاهرة، نظرًا للعداءِ المذهبيِّ والسياسيِّ بين الدولةِ الفاطمية والسلاجقة الذين كانوا يحكمون باسمِ الخلافة العباسية في بغداد.

وهكذا سقطتِ المدنُ الإسلاميةُ تباعًا، لا سيّما معرّة النعمان، ثمّ قرّر الصليبيون التوجّهَ نحو بيت المقدس، حيث أصبحت قوّاتُ الفرنجة على مقرُبةٍ من القدس، وبدأتِ الإحاطة بها وحصارها، اعتبارًا من آخر رجب 492هـ/ 7 حزيران 1099م[2].

كان افتخارُ الدولة آنئذٍ هو الحاكمَ الفاطميَّ المكلّفَ بالدفاع عنِ المدينةِ المقدّسة، التي استعادها الفاطميون قبل ثلاثةِ أعوامٍ من هذه الواقعة، مستغلّينَ انشغالَ الدولةِ السلجوقية بمواجهة طليعةِ الجيوش الصليبية، فاتّخذَ هذا الحاكمُ الاستعداداتِ لمواجهة الغزاة، فسمّمَ الآبارَ، وقطعَ مواردَ الماء، وأخفى المواشي، وأخرجَ جميعَ المسيحيين من القدس، وأبقى على اليهود، فضلًا عن إعادةِ تعزيزِ أسوار المدينة وتحصينها، والاعتمادِ على حاميةٍ كبيرةٍ من المصريّين والسودان[3].

(1) سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية، ج1 القاهرة 1963، ص 241.

(2) علي محافظة وآخرون، مرجع سابق، ص 140،139

(3) سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية، ج1، القاهرة 1963، ص 241

في حين اعتمدَ الصليبيون في المقابلِ على عددٍ كبيرٍ من آلاتِ الحصارِ والهدم، فلم يكونوا قد تعوّدوا حصارَ مدنِ الشرق الصخرية، التي كانت أكبرَ وأكثرَ عظمةً من المدن في أوروبا، كما كانت تنقصُهم الموادُّ اللازمةُ والمهارةُ التقنية في بناءِ أدوات الحصار، إلّا أنّ سُفنًا جنوبيةً وصلت إلى مرفأ يافا أمدّتهم بما يحتاجون إليه من تلك الوسائلِ وموادّ التمويل اللازمة لجيشهم[1]، فتمّ استخدامُ حبالِ السفنِ وخطاطيفِها لبناءِ بُرجَين يمكِنُ نقلُهما إلى الأسوارِ، ووضعوا الأوّلَ في بابِ صهيون، والثاني في بابِ العمود.

تمكن المسلمون من إحراق البرج الأوّل، وقتلوا مَن فيه، أمّا البرج الثاني فقد زحفَ به الصليبيون حتّى ألصقوه بالسور، فكشفوا مَن كان على السور من المسلمين، ثمّ رموا بالمجانيق والسهام رميةَ رجلٍ واحدٍ فتراجعَ المسلمون، وهكذا تمّ اختراقُ أسوارِ المدينة المقدّسة من قِبل الصليبيين المدنّسين من أعلى البرج، فانقضّوا على المدافعين عنِ المدينة، فابتدأ حمّامُ الدم، وأخذ الصليبيون يلاحقون المسلمين ويذبحونهم.

وطبقًا لما رواه مؤلفُ كتاب «أعمالِ الفرنجة» (جِستا فرانكوروم) فقد قتل الصليبيون «كلَّ المسلمين والترك، لقد قتلوا كلَّ شخصٍ؛ ذكرًا وأنثى»، وتم بعد ذلك ذبحُ المسلمين الذين التجؤوا إلى سطحِ المسجد الأقصى، وكما يقول شاهد العيان (ريمون الجويلي): «كان بالإمكانِ رؤيةُ أكوامِ الرؤوس والآيدي والأرجل، فقد ركبَ الرجالُ في معبدِ رواق سليمان والدماءُ تصلُ إلى ركَبهم وألجمة الخيول»[2].

(1) سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية، مرجع سابق، ص 242.

(2) كارين أرمسترونغ، القدس: مدينة واحدة وعقائد ثلاث، ترجمة فاطمة نصر ومحمّد عناني، القاهرة، ص 455.

ويذكرُ شاهدٌ صليبيٌّ أنّه «لم يستطع أن يشقَّ طريقَه وسطَ أشلاء المسلمين إلّا بصعوبةٍ بالغةٍ، وأنّ دماءَ القتلى بلغت ركبتَيه»[1]. وفي وصفٍ تفصيليٍّ لأحدِ شهودِ العيان الصليبيين قال: «في الصباح الباكر، وفي يوم الجمعةِ هاجمنا المدينةَ من كلّ الجهاتِ دون أي نجاح، وكنّا جميعًا في حالة ذهول، وضيقِ نفسٍ رهيب، ولكن مع قربِ الساعة التي قَبِلَ فيها سيدُنا المسيحُ أن يتألمَ من أجلنا ويتحملَ مذراة الصليب، قاتلَ فرساننا بحميةٍ في القصر الموضوع تحت قيادة الدوق عود فروا وأخيه الكونت أوستاش، وبعد ذلك تسلّقَ أحد فرساننا المدعوّ (لينود) جدار المدينة، وبعد قليلٍ من صعوده، هرب كلّ المدافعين عن المدينة بواسطة أسوار المدينة، ولاحقهم جماعتنا وطاردوهم، قاتلين منهم ومجندلين بالسيوف حتّى معبد سليمان، وهنالك كانتِ المذبحةُ التي غاص فيها جماعتنا في الدمِ حتّى العرقوب، وحالما دخلَ حجّاجنا المدينة تابعوا ذبحَ المسلمين حتّى معبدِ سليمان حيث تجمّعوا ودخلوا طيلةَ اليوم في معركةٍ عنيفةٍ مع جماعتنا، وكان ذلك إلى حدٍّ أنّ المعبدَ كان يرشّحُ من دمهم»[2].

الرواية الإسلامية

وصفَ ابنُ الأثير في روايةِ أحداثِ الكارثة التي وقعت على المسلمين يوم دخلَ الصليبيون إلى بيتِ المقدس محتلّين ومدنسين ومقتّلين فكتب: «لمّا وصلوا إليه (بيت المقدس) حصروه نيفًا وأربعين، ونصبوا عليه برجين؛ أحدهما من ناحية

(1) عاشور: المصدر السابق، ص 241-242.

(2) جان كلود جوبيو، على خطى الصليبيين، ترجمة عبد الهادي عباس، دمشق، ص 215

صهيون، وأحرقه المسلمون، وقتلوا كلَّ مَن به، فلما فرغوا من إحراقه أتاهم المستغيثُ بأن المدينة مُلِكَت منَ الجانب الآخر، وملكوها من جهةَ الشمال ضحوةَ نهارِ الجمعة لسبعٍ بقِينَ من شعبان، وركبَ الناسَ السيفُ، ولبث الفرنج في البلدة أسبوعًا يقتلون فيه المسلمين، واحتمى جماعة من المسلمين بمحراب داود، فاعتصموا به، وقاتلوا فيه ثلاثة أيام، فبذل لهم الفرنجُ الأمان، فسلموه إليهم... وقتل الفرنجُ بالمسجد الأقصى ما يزيدُ على سبعين ألفا، منهم جماعةٌ كثيرة من أئمة المسلمين، وعلمائهم، وعبادهم، وزهادهم، ممن فارق الأوطان، وجاورَ بذلك الموضعِ الشريف، وأخذوا من عند الصخرة نيفًا وأربعين قنديلاً من الفضة، وزن كلِّ قنديلٍ ثلاثة آلاف وستمئة درهم، وأخذوا تنورًا من فضةٍ وزنُه أربعون رطلًا بالشامي، وأخذوا من القناديل الصغار مئةً وخمسين قنديلًا نقرة، ومن الذهب نيفًا وعشرين قنديلا، وغنموا منه ما لا يقعُ عليه الإحصاء»[1].

«وبعد أنِ انتهَوا من الأحياء، ولم يبقَ هناك أحدٌ ليُقتلَ، اغتسل الصليبيون، وساروا باتجاه كنيسةِ القيامة، وهم يرتلون التراتيلَ، ودموعُ الفرحِ تنسابُ من أعينِهم، وتسيلُ على وجوههم، وتوقفوا عند كنيسة المسيح، وهم يرتلون قداسَ القيامة، وفي واحدٍ من المدافن في الكنيسة على جدارٍ سيّئ الإناره نقشوا صلبانَهم على الحجر»[2].

لقد هزّ سقوطُ بيتِ المقدس والمسجد الأقصى المبارك أولى القبلتين، وثالث الحرمين، ومرقى المصطفى وخاتم الرسل سيدنا محمّد -صلّى الله عليه وسلّم- إلى سدرة المنتهى، أعماقَ الضميرِ الإسلامي، وقد عبّرَ مجيرُ الدين الحنبليُّ عن ذلك

(1) ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني، الكامل في التاريخ، ج8، ص 189.

(2) جان كلود جوبيو، على خطى الصليبيين، مرجع سابق، ص 218

بالقول: «وانزعجَ المسلمون في سائر الممالك الإسلامية بسبب أخذ بيت المقدسِ غايةَ الانزعاج»[1].

وإذا كانت ردودُ الفعلِ الرسميةُ الإسلامية قد تأخرت بسبب تمزقِ العالمِ الإسلامي، والتناحر ما بين إماراته وسلطناته؛ فإنّ ردودَ الفعلِ الشعبيةَ الإسلاميةَ كانت جليّةً في كلِّ مكانٍ، وإن دلَّ ذلك على أمرٍ إنّما يدلّ على أنّ عوامّ المسلمين ما زالوا متمسكين بشرعِ الله، على عكسِ طغمة حكام ذلك الزمان، المتكالبين على الدنيا، المفرطين بالدين والمقدّسات، وقد تصدّر العامةُ في حلب ودمشق ردودَ الفعل، وارتفعت أصوات العامة في حلب مطالبةً حكّامَها السلجوقيين بتحرير البلاد ورفعِ البلاء عن القدس والمدن الشامية الأخرى، وكان صوتا القاضي ابنِ الخشاب والشيخ الهروي الأكثرَ تعبيرًا عن صوت الأمّة، فاتّجه الكثيرون إلى بغداد يشكون الأميرَ رضوان أميرَ حلب لتقاعسِه ويتّهمونه بالزيغِ والانحراف، ويطالبون الخليفةَ العباسي المستظهرَ بإعلانِ الجهاد ضدّ الصليبيين، فقام ذلك الخليفةُ المتخاذلُ باستيعابِ نقمتِهم فأمرَ السلطان السلجوقي بتجهيزِ جيشٍ لقتالِ الإفرنج، أُسندت قيادته إلى مودود أميرِ الموصل، إلّا أنّ الحلبيين سرعان ما اكتشفوا الخديعة، وأثاروا العامةَ في بغداد ضدّ الخليفة[2].

لقد صوّرَ لنا ابنُ كثير ردّةِ فعلِ العامّة على سقوط القدس والمسجد الأقصى بقوله: «وَرَدَ المستنفرون من الشامِ في رمضان إلى بغداد، بصحبة القاضي أبي سعيد الهروي، فأوردوا في الديوانِ كلامًا أبكى العيونَ وأوجع القلوبَ، وقاموا بالجامع يوم

(1) مجير الدين الحنبلي: الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ج1 – ص 2712.

(2) شوقي شعث: فلسطين أرض الحضارات حلب 1994، ص 163.

الجمعة فاستغاثوا وبكَوا وأبكَوا، وذكروا ما دهمَ المسلمين بذلك الشريف المعظم -بيت المقدس- من قتلِ الرجال وسبي الحريم والأولاد ونهب الأموال..»، فلشدّة ما أصابهم أفطروا في شهر رمضان، فأمر الخليفة أن يسيرَ القاضي أبو محمد الدامغاني، وأبو بكر الشاشي وأبو قاسم الفرنجاني، وأبو الوفاء بن عقيل، وأبو سعد الحلواني، وأبو الحسن بن سماك، فساروا إلى حلوان، فبلغهم مقتلُ مجد الملك البلاساني، فعادوا من غير بلوغِ أربٍ ولا قضاءِ حاجة، واختلفَ السلاطين فتمكّن الفرنجةُ من البلاد»[1].

بقيت أوضاعُ بيت المقدس والمسلمين تراوح مكانَها حتّى انطلقت في سنة 1113م من الموصلِ حركةٌ كبرى لتوحيد الإمارات الإسلامية في العراق وبلاد الشام من أجل عملٍ موحدٍ ضد الصليبيين برابرةِ الغرب القروي المتخلفِ حضاريًّا وإنسانيًّا، ووصلت هذه الحركةُ ذروتَها أيّامَ عماد الدين الزنكي (أتابك عسكر الموصل)، الذي برزَ في فترة (1127م-1146م) واستطاع أن يفرضَ سلطتَه على حكّامِ المقاطعات المجاورةِ له في سوريا والعراق[2].

وقد تصدّر الزنكي طريقَ الوحدة والجهاد، وتمكّنَ من تحريرِ الرّها عام 1144م، التي تتحكّمُ بعُقَدِ خمسِ مواصلات (حلب-الموصل- بغداد)، وقد سمحَ للأرمنِ والرهبان باستعادةِ كنائسهم، في حين دمّرَ تحت تأثيرِ مرارة المواجهة الدامية مع الصليبيين كنائسَ الصليبيين الكاثوليك[3]، وقد ردَّ الصليبيون على سقوطِ الرها بأيدي المسلمين بإرسالِ الحملةِ الصليبية الثانية بقيادةِ لويس الرابع، وكونراد الثالث،

---

(1) ابن الأثير: المصدر السابق، ج8، ص189-190

(2) شوفاني: المصدر السابق، ص 200.

(3) عاشور: المصدر السابق، ج2، ص 607.

والتي هُزمت شرَّ هزيمةٍ على أبواب دمشق.

لقد سرّعت هذه الهزيمةُ في إنجازِ وحدةِ سورية، بضمِّ دمشقَ إليها في عام 1154م في عهد نورِ الدين الزنكي خليفة عماد الدين، هذا ولقد تركزت جهودُ نور الدين على ضمِّ مصرَ إلى الوحدةِ الإسلامية الجديدة لطردِ الصليبيين واسترجاعِ بيت المقدس، بوابةِ السماء.

وقد استفاد نور الدين من تعقّدِ الخلافات في البيروقراطية الفاطمية العليا في مصر، التي وصلت إلى حدِّ أنّ الوزيرَ الفاطميَّ شاور قد طلب مساعدةَ الصليبيين لتعزيزِ موقعه، في حين ردّ الخليفةُ الفاطميُّ على ذلك بطلبِ النجدةِ من نور الدين، الذي أرسلَ شيركوه وابنَ أخيه صلاحَ الدينِ الأيوبيّ الذي سيكملُ عمليةَ توحيدِ الشامِ ومصرَ تمهيدًا لاستعادةِ بيتِ المقدس.

كان نورُ الدين قد حدّدَ إستراتيجيتَه باستعادةِ بيتِ المقدس، وبلغَ إيمانُه التامُّ بذلك أنّه أمرَ بصُنعِ منبرٍ للمسجد الأقصى قبل أن يحرّرَه صلاحُ الدين الأيوبي من الصليبيين بعشرين عامًا.

ويروي ابن واصل قصةَ المنبر بأنّ إرادةَ نور الدين كانت: «متعلّقةً بفتحِ القدس، وأمانيه لم تزل تحدّثُ به، وكان بحلب نجّارٌ يُقال له الأختريني، من ضيعةٍ تُعرفُ بأخترين، لم يكن له نظيرٌ في صناعته، فأمرَ نور الدين بعمل منبر لبيت المقدس، فقال له: اجتهد أن تأتيَ به على أحسنِ نَعتٍ يمكنُ وأحكِمه، فجمعَ الصنّاعَ وبالغَ في إتقانِه وصنعتِه وأتمّه في سنتَين»[1].

(1) جمال الدين محمد بن واصل، مفرج الكروب وأخبار بني أيّوب، ج-2 ص 228، تحقيق جمال الشيّال، القاهرة، 1957م.

هذا وقد انضمّ مسلمو القدسِ والمدن الفلسطينية الأخرى الذين هربوا من مذابحِ الصليبيين واستقبلتهم دمشقُ بترحاب إلى نور الدين الذي آواهم، وقرّبَ علماءَهم؛ وكان من أبرزهم الشيخُ أحمد ابن قدامة المقدسي... وغيره.

ومن واجبي ككاتب أن أؤكّدَ أنّ عمادَ الدين زنكي قامَ بحملةٍ دعائيةٍ قوية جدًّا جدًّا من أجلِ القدس، وأنّ استعادتها مثّلت الهدفَ النهائيَّ لردّة الفعل الإسلامي، «وقدِ اتسعت هذه الحملةُ في زمنِ ابنِه نور الدين زنكي، وكان من نتائجها تعمّقُ الاهتمام بكتُبِ فضائلِ القدس، سواءٌ في دوائرِ الحكام أم في أوساطِ الرأي العام، ومن هنا أضيفت مؤلفاتٌ جديدةٌ إلى كتاباتِ القرن السادسِ الهجري، وقدِ انتشرت هذه المؤلفاتُ في شتى أنحاءِ الشرق الأوسطِ بالارتباطِ مع تحفيزاتِ حركة الجهاد، ويُلاحظ في هذا السياق أنّ فقهاءَ دمشق قاموا بتنميةِ الإحساسِ بقداسةِ القدس، وبإعدادِ الرأي العامِّ الإسلامي للاستعادةِ الوشيكة للمدينة المقدّسة»[1].

إن كانت تلك الحروبُ قد حفّزت حركةَ التأليف تلك، فإنها أيضًا كانت تعكسُ موقعَ القدسِ في قلبِ الضمير الإسلامي، لقدِ اكتسبتِ القدسُ تأكيدًا جديدًا إثرَ الغزو الصليبيّ، تمامًا كما حدث إثرَ الاستعمارِ الصهيونيّ اليهوديّ، إلّا أنّ الفرقَ أنّ ذاك يكمن في أنّ المسلمين هَبُّوا إثرَ الحملةِ الدعائيةِ الزنكيةِ والصحوةِ الدينية التي تمخّضت عنها لنجدةِ بيتِ المقدس وتطهيرِه من دنسِ المحتلين الصليبيين، أمّا اليومَ فلا حياةَ لمن تنادي، والقدسُ تنادي كلَّ يومٍ لتحريرِها من دنس اليهود وحاخاماتهم، حاخاماتِ شريعة الغاب، ولكن لا مجيب، فحسبنا الله ونعم الوكيل.

تابعَ صلاحُ الدين الأيوبي مشروعَ قائدِه الكبيرِ نور الدين في تحريرِ بيتِ المقدس،

(1) محمود إبراهيم، فضائل بيت المقدس في مخطوطات عربية قديمة، ص 45، الكويت 1985م.

حيث خلَفَ عمَّه شيركوه في مصر، وأنهى الخلافةَ الفاطميةَ، واستبدلَ بالدعوةِ لها الدعوةَ للخليفةِ العباسيِّ في بغداد، الذي بات محورَ الشرعيةِ في العالم الإسلامي، وإثرَ وفاةِ نورِ الدين زنكي، ضمَّ صلاحُ الدين الأيوبي مصرَ إلى بلاد الشام، وشكّل ذلك مدخلًا لاستعادةِ القدس وتحريرها من دنسِ عبّاد الصليب، ويشار في هذا الصدد إلى أنّ صلاحَ الدين تلقّى من أسيرٍ مسلم شابٍّ في القدسِ أبياتًا من الشعر، يقول فيها بلسان القدس:

يا أيّها الملكُ الذي لمَعالِمِ الصُّلبان نكّس
جاءت إليك ظلامة تسعى مِن البيت المقدّس
كلّ المساجد طهّرت وأنا على شرفي منجّس[1]

عسكرَ صلاح الدين الأيوبي وسطَ هذه التعبئة الروحية أمامَ المدينة المقدّسة في20 أيلول/ سبتمبر 1187م، وشرعَ في مهاجمة أسوارها، وكان في القدسِ يومئذٍ ستونَ ألفَ مقاتلٍ صليبيّ، على رأسهم باليان بارزان والبطريرك الأعظم.

ويخبرنا صاحبُ «الكامل في التاريخ» أنّ صلاحَ الدين بقيَ خمسةَ أيّامٍ يطوفُ حولَ المدينة ولم يجد موضعَ قتالٍ إلّا من جهةِ الشمال نحو باب العمود، فانتقلَ إلى هذه الناحية يومَ الجمعة 20 رجب 583 هجريّ[2]، فشرع بنصبِ الأبراجِ والمجانيق، وفي الليلةِ نفسِها بدأ بمهاجمةِ الأسوار، وعند باب العامود اشتبكَ الجيشان في قتالٍ شديدٍ، ومات خلقٌ كثيرٌ من الجانبين[3].

وحين استطاعَ صلاحُ الدين ثقبَ سور القدس أذعنتِ المدينةُ وطلبتِ الرحمةَ

(1) الحنبلي: مصدر سابق، ج1، ص 282 ـ 283.

(2) ابن الأثير: مصدر سابق، ج11، ص 547 وما بعدها.

(3) ابن شدّاد، النوادر السلطانية، مرجع سابق، ص 81.

منه، وهذا بالطبع بعدما أيقنتِ القواتُ الصليبية أنّهم أشرفوا على الهزيمة، وهنا تقدَّمَ أحدُ قادتهم المشهورين يُدعى باليان دي أبلين، وطلبَ الأمانَ من صلاح الدين مقابلَ تسليم المدينة.

يحدّثنا ابنُ الأثير أنّ السلطانَ صلاح الدين أصرَّ على أخذ المدينة عنوةً بالسيفِ قائلًا: «لا أفعلُ بكم إلّا كما فعلتم بأهلِه حين ملكتموه سنةَ إحدى وتسعين وأربعمئة من القتلِ والسبيِ؛ وجزاءُ السيّئةِ بمثلها»[1].

ونقلًا عنِ ابن الأثير أجابَ القائدُ الصليبي باليان دي أبلين بالعربية يائسًا: «أيّها السلطان أعرف أنّنا في هذه المدينةِ في خلقٍ كثيرٍ لا يعلمهم إلّا الله -عزَّ وجل-، وإنّما يفتُرون عنِ القتال رجاءَ الأمان ظنًّا منهم أنّك تجيبُهم إليه كما أجبتَ غيرَهم، وهم يكرهون الموتَ ويرغبون في الحياة، فإذا رأينا الموتَ لا بدّ منه، فواللهِ لنقتلنّ أبناءَنا ونساءَنا ونحرقُ أموالنا وأمتعتنا ولا نترككم تغنَمون منها دينارًا ولا درهمًا، ولا تسبُون وتأسَرون رجلًا ولا امرأة، فإذا فرغنا من ذلك أخربنا الصخرةَ والمسجدَ الأقصى وغيرهما من المواضع، ثم نقتلُ مَن عندنا من أسرى المسلمين، وهم خمسةُ آلافِ أسير، ولا نتركُ لنا دابةً ولا حيوانًا إلّا قتلناه، ثمّ خرجنا إليكم كلُّنا نقاتلُكم قتالَ مَن يريد أن يحميَ دمَه ونفسَه، وحينئذٍ لا يقتَلُ الرجلُ حتى يَقتُلَ أمثالَه، ونموتُ أعزّاء... أو نظفر كرامًا»[2].

فلمّا سمع السلطانُ قولَ باليان الصليبيّ جمعَ أمراءَ الحرب ورجالَ الرأي، وتمّ الاتّفاقُ على إعطاء الأمان لهم على أن تُسلَّمَ المدينة صلحًا، ويرحلَ عنها الصليبيون

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ص 548-549.

(2) الكامل في التاريخ: مصدر سابق، ج9، ص 183.

اللاتين غيرُ العرب، وذلك خلالَ أربعين يومًا، ويحملون نفائسَهم وأموالهم معهم في نظيرِ فديةٍ يدفعونها قدرُها عشرةُ دنانيرَ للرجل، وخمسٌ للمرأة، وديناران لكلّ طفل، وتقرَّرَ إعفاءُ الفقراء والشيوخ من دفعِ الفدية[1]».

«وافقَ الصليبيون على ذلك وسلّموا للسلطانِ صلاح الدين الأيوبي، فكان الفتحُ العظيم لبيت المقدس الشريف، فدخلها الجيشُ المظفّر مهلّلًا ومكبّرًا، وراياتُه الصُّفرُ تخفقُ في سماء القدس في يومِ الجمعة 27 رجب سنة 583 هجريّ»[2]، وكان أوّلُ عملٍ قام به السلطان صلاح الدين الأيوبي أن ذهبَ إلى المسجد الأقصى وقبة الصخرة، وأزال ما علقَ بهما من آثارِ الصليبيين من نقوشٍ مرسومةٍ وصُلبانٍ على جدران الصخرةِ الداخلية، وغسلَ الصخرةَ بماء الورد[3].

لقد مثّلَ فتحُ القدس تحقيقًا لرؤيةٍ إسلامية عليا، إذا توافق هذا الفتحُ في السابع والعشرين من رجب مع الذكرى السنويةِ لليلة الإسراء والمعراج، ومن الاتفاقاتِ العجيبة حسبَ (عبد المجيد الحنبلي) أن قاضي دمشقَ أنشدَ صلاحَ الدين الأيوبي حين فتحَ حلب في شهر صفر، وفق التقويم الهجري الإسلامي:

وفتحكم حلبًا بالسيفِ في صفرٍ   مبشّرٌ بفتوح القدس في رجب[4]

ويشير ذلك إلى أنّ المسلمين قد تشوّقوا إلى أن يكونَ فتحُ القدس في يوم ليلة الإسراء والمعراج التي أَدخلتِ القدسَ نهائيًّا إلى قلبِ المنظومة الجغرافية الإسلامية المقدّسة.

(1) الفتح القسي: مصدر سابق، ص 127.

(2) الموافق 2 تشرين أول 1187م، ابن الأثير، مصدر سابق، ج11، ص547.

(3) الفتح القسي: المصدر نفسه، ص 137-142، ابن شدّاد، النوادر السلطانية، مصدر سابق، ص 82.

(4) الباز العربي: الأيوبيون، ص 97، قارن مع شاكر مصطفى، مصدر سابق، ص 293.

ومن هنا بينما كان المسلمون يحتفلون في كلِّ أنحاءِ العالم الإسلاميّ بليلةِ الإسراء والمعراج، وتحضرُ القدسُ في صلواتهم وابتهالاتهم وطقوسهم، دخلت قوّاتُ صلاحِ الدين الأيوبي المدينةَ المقدّسة، قال -عزَّ وجلَّ-: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[1].

فهل من صلاحٍ يحرّرُ الأسرى والمسرى من يدِ شياطين الهيكلِ المزعومِ، أتباعِ شريعة الغاب اليهود، كما حرّره من عبادِ الصليب من قبلُ المرةَ تلوَ المرة؟ فهل من صلاحِ الدين حتى تصلحَ الشريعةُ في قلوبِ المسلمين المجاهدين؟ فبتحرُّرِ المسجد الأقصى وبيتِ المقدس يُعاد للدين مجدُه، وتعلو رايته.

ونختمُ هذا المبحثَ بالإشارة إلى أنّ بيتَ المقدس لقيَ من صلاح الدين وأتباعه كلَّ رعايةٍ واهتمام هو وسكّانُه العربُ المسلمين والمسيحيّين، إذ كان فيها هؤلاء السكانُ أثناء الاحتلال الصليبيِّ يحافظون على مظاهرِ حياتهم العامّة وعاداتهم وتقاليدهم، وحين توطّدَ الأمرُ لصلاح الدين في مدينةِ القدس أبقى هؤلاء السكانَ على ما كانوا عليه من صالحِ الأعمال، وغيّرَ ما في أحوالهم من الفسادِ، ثمّ قام بإعمار الأسوارِ ورمَّمَ المسجدَ الأقصى وقبّةَ الصخرة وبنى المساجدَ والمدارسَ والمشافي، واستمرّتِ المدينةُ المقدّسة تنعمُ بالرخاء والعدل إبّانَ مَن حَكَمَ خلفَ صلاحِ الدين، إلى أن حلَّ عصرُ الدولةِ المملوكيةِ بعد أن قضى المماليكُ على الدولةِ الأيوبيةِ عامَ 648م/ 1250م.

وقد تميّزت فترةُ الحكمِ المملوكيِّ في القدس بالمؤسساتِ والإنشاءاتِ الكثيرة

(1) سورة الإسراء: الآية 1.

التي كان سلاطينُهم يتبارَون في إنشائها داخلَ المدينة، وقد حظيَ المسجد الأقصى بكثيرٍ من إصلاحاتِهم وإضافاتِهم فيه، ويخلّدُ ذلك الكثيرُ من النقوشِ التي تنتشرُ في جنباتِ الحرم، بالإضافةِ إلى ذلك فقد أنشأُوا المدارسَ والمستشفياتِ وقنواتِ المياه، ويحدّثنا بما أنشأَه المماليكُ في القدس، مجيرُ الدين الحنبليّ بأسلوبٍ مفصَّلٍ مسهب[1]، واستمرَّ حالُ المدينةِ في ازدهارٍ ورخاءٍ واستقرارٍ، حتّى أواخرِ القرنِ الخامسِ عشرَ الميلاديّ، حيث تدهورَ الوضعُ السياسيُّ والاقتصاديُّ في القدسِ، شأنها شأن المدنِ الأخرى في سلطنةِ المماليك، بسببِ انهيارِ الحكومةِ المركزيّةِ المملوكيّةِ نتيجةً للمشكلات الاقتصادية التي تعذّرَ التغلّبُ عليها، وغاراتِ البدوِ، والطاعونِ، وانحطاطِ النظامِ المملوكيِّ نفسِه، فخسرَ المماليكُ بيتَ المقدس لصالحِ العثمانيّين في وقتٍ ما بين معركةِ مرج دابق في شمالِ سورية سنة 1561م وسقوطِ القاهرة بيد العثمانيّين في معركةِ الريدانية في سنة 1517م[2].

(1) الحنبلي: الأنس الجليل، ج2، من أكثر من موضع.

(2) دونالد بلالتل: ضم القدس في التاريخ، ص 224.

المبحث الثالث: بيتُ المقدسِ من العثمانيين حتى السقوط

لقد بقيت فلسطينُ، وبيتُ المقدسِ، والمسجدُ الأقصى عربيةً إسلاميةَ الطابعِ والهويةِ طيلةَ عهدِ دولةِ الخلافةِ العثمانية، الذي استمرَّ منذ مطلعِ القرنِ السادسِ عشرَ حتّى انهارتِ الدولةُ العثمانيةُ في مطلع القرن المنصرم.

ولإدراكِ ذلك بشكلٍ جليٍّ علينا العودةُ إلى نهاية القرن الخامس عشر، حيث أخذتِ السلطنة المملوكية بالتدهور، إذ عجَزت عن حمايةِ البلاد الإسلامية وخطوطِها التجارية من التوسعِ الإسبانيّ والبرتغاليّ الذي شكّلَ في كثيرٍ من وجوهِه استمرارًا للحملاتِ الصليبيةِ السابقةِ على الشرقِ العربيِّ الإسلاميّ، كما فقدت قدرتَها على ضبطِ الأوضاعِ الداخليّةِ المتردّيةِ، في وقتٍ أخذت تتنامَى في العالمِ الإسلاميِّ قوتان أساسيتان، هما: القوةُ الصَّفوية في الشرق، والقوةُ العثمانيةُ النامية والمهابة في الشمال.

وقد خضعتِ العلاقةُ العثمانيةُ المملوكيةُ إلى عواملَ متشابكة، اختلطت فيها المصالحُ المتباينةُ والمتنافسةُ على زعامةِ العالمِ الإسلامي، بشرطِ مواجهةِ الخطرِ المشترك الذي يحيطُ بها من غربِ أوروبا من جهةٍ، ومن الدولة الصفوية (الشيعية) في الشرق.

وقد اعتبر العثمانيون في بداية صعودهم في الأناضول أنفسَهم تابعينَ إلى الخليفةِ العباسيِّ المقيمِ في القاهرة وأظهروا اهتمامَهم الدائمَ بالحجّ، وحرَصوا على تأكيدِ

ولائهم بتقديمِ الهدايا والعطيات، وإرسال الوفود إلى سلاطين المماليك وأشرافِ مكّة، بعد كلِّ نصرٍ يحرزونه على الجبهة الأوروبية[1].

وقد احتلَّ العثمانيون إثرَ سقوطِ الإمبراطوريةِ البيزنطيةِ والسيطرةِ على القسطنطينيةِ في عام 1453م مرتبةَ القوةِ العظمى الأولى، ممّا أثار روحَ المنافسة ما بينهم وبين المماليكِ حول زعامةِ دار الإسلام والعالم الإسلامي، ولم يهدِّئ هذه المنافسةَ مؤقّتًا إلّا تمهيدُ البرتغاليّين للطرق البحرية، ممّا سبّبَ قطعَ الشرايين التجارية بين مصرَ والهند، وبين مصرَ والخليج العربي، ووضعَ البرتغاليون موطئَ قدمٍ في الحبشة، فأصبحَ المصريّون مهدّدين بوجودِ أعداءٍ لهم في الجنوب[2]، من هنا أرسلَ العثمانيون إلى المماليكِ ثلاثين سفينة تحملُ ثلاثمئة مدفعٍ وأخشاب، إلا أنّ «فرسانَ رودس الصليبيين استولَوا عليها، وتمكّنَ العثمانيون في عام 1511م من إيصالِ أربعمئةِ قنطارٍ من البارود، كما زوّدوا المماليكَ بالرجال وضباطِ البحرية، وبالخشب والقطِران»[3]. إلاّ أنّ هذا التحالفَ العثماني –المملوكي سرعان ما تعرّضَ للتفكّك، إثر شعور العثمانيين بتواطؤِ المماليك مع خصومِهم الصفويين إبّانَ الحرب العثمانية– الصفوية–، إذ حرّكوا جماعتَهم في إمارة (ذي القدر) ليقطعوا طرقَ إمداداتِ الجيش العثمانيّ، ممّا فوّتَ الفرصةَ على العثمانيّين للإجهازِ نهائيًّا على الدولةِ الصفوية[4]، وعندما وصلت أخبارُ النصرِ العثمانيّ على الصفويين إلى القاهرة،

---

(1) ساطع الحصري: البلاد العربية والدولة العثمانية، ط3، ص28.

(2) بيتولدشيولر: العالم الإسلامي في العصر المغولي، ترجمة خالد أسعد عيسى، دمشق 1982م، ص 140 141.

(3) نقولا إيفانوف: الفتح العثماني للأقطار العربية، ترجمة يوسف عطا الله ص 59.

(4) محمد كرد علي: خطط الشام، ج2، ص 207–208.

لم يستطع حكّامُ مصرَ المماليكُ أن يُخفوا خيبةَ أملهم أمامَ دهشةِ العالم الإسلامي[1]، و حدّدَ العثمانيون خطوتَهم التاليةَ بتصفيةِ الحسابِ مع المماليك، وضمِّ بلادِ الشام ومصرَ إلى دولةِ الخلافةِ العثمانية الصاعدة، في أجواءِ تعلُّقِ الرأيِ العامِّ الشعبيِّ الإسلامي بقوتهم القادرة، إلّا أنّ التواطؤَ المملوكيَّ مع الصفويّين ضد العثمانيين شكّل مجرّد عنصرٍ من العوامل التي دفعتِ العثمانيين لفتح مصر والشام، إذ تحكّمت بهذا الفتحِ عواملُ معقدة أكثر بعدًا، تتعلقُ بمصالحِ العثمانيين كدولةٍ وبصراعِ الهيمنةِ على العالم الإسلامي، كما أدرجَ العثمانيون مسألةَ ضمِّ البلادِ العربيةِ إلى الحاضنةِ الإسلامية في أفقِ إستراتيجتهم الكونيّة الإسلامية والتي ضربتِ القوةَ الضاربةَ لأوروبا الغربيةِ المتمثلةَ بالإمبراطوريةِ الرومانية المقدسة في الغربِ مع مركزِ البابوية في إيطاليا، وإعادة التحكم بالخطوطِ التجاريةِ البحرية العالمية الإسلامية التي هدّدَها البرتغاليون، وبالتالي فرض زعامتهم على العالمِ الإسلاميِّ من خليجِ البنغال حتى جبلِ طارق، بالإضافةِ إلى ما حققوه من سيطرةٍ على تتارِ القرمِ والبحر الأسود وشرق المتوسط، كان لا بدَّ لهم لاستكمالِ خططِهم لدولةِ الخلافةِ من تصفيةِ المماليك الذين شكلوا أضعفَ حلقةٍ في إطارِ صراعِ القوى العالمي، ذلك الضعفُ الذي شكلَ فراغًا في القوى تقدّم العثمانيون لملئِه، ولعلهم أرادوا –وذلك حسبَ زعمِ هاملتون جِب أن يحولوا بين الصفويين واحتلالِهم للبلاد العربية[2].

لقد ترافقَ إعلانُ السلطانِ سليم الأول (1512–1520) الحربَ على المماليكِ بالتهديداتِ ضد السلطانِ المملوكي قانصوة الغوريّ في مصر، أمّا في الشام، كما

(1) تفولا إيفانوف: الفتح العثماني للأقطار العربية، المصدر السابق، ص61.

(2) هاملتون جب: المجتمع الإسلامي والغرب والقاهرة، ص 264.

يحدثنا (نقولا إيفانوف) فكان الوضعُ أشدَّ سوءًا إذ خرجت قرى كثيرة، ومناطقُ بأسرِها عن طاعةِ المماليك، وسرى التذمرُ إلى صفوفِ الجنودِ المماليك أنفسِهم[1]، وهكذا دخلَ سليمُ الأوّلُ مدينةَ حلب في 28 آب/ أغسطس 1516م وسطَ ترحيبِ الأهالي[2]، وأثناءَ خطبةِ الجمعةِ نوديَ به خادمًا للحرمَين الشريفين، فاتخذ لنفسه اللقبَ الذي يحمله حكّامُ مصرَ منذ أيّام صلاح الدين الأيوبي، ثمّ كرّسَ نفسَه زعيمًا روحيًّا للمسلمين[3].

وبغية إضفاءِ شرعيةٍ إسلاميةٍ على حكمه، حصلَ على مبايعةِ المتوكّل آخرِ الخلفاء العباسيين الذي قدمَ له الذخيرةَ المقدسةَ للبيت العباسي، وتضمُّ عباءةً وبضعَ شعراتٍ من لحية النبيّ مع سيفِ عمر بن الخطاب، ثمّ قدّمَ أشرافُ مكّة التهاني وسلّموا مفاتيحَ الكعبة[4].

ومن هنا لم تكن مفارقةً إزاء ذلك أن يستقبلَ بيتُ المقدس في الأول من كانون الأول/ ديسمبر 1516م خادمَ الحرمين الشريفين سليم الأول، إذ خرجَ علماءُ المسجد الأقصى وبيت المقدس عن بكرةِ أبيهم إلى خارج المدينة المقدسة لاستقبال سليم الأول، وأهدَوه مفاتيحَ الأقصى العربي الإسلامي والعثماني ومفاتيحَ قبة الصخرة، فقفزَ سليم الأوّل لفوره من على صهوةِ فرسه أرضًا، ثمّ صاح مبتهجًا: إنّي أمتلكُ حرمَ أولى القبلتين[5] ولعلّ هذا ما يعبرُ عن المكانةِ المسبقةِ العليا للقدسِ

(1) إيفانوف: مصدر سابق، ص 62.

(2) محمد كرد علي: خطط الشام، ج2، ص211.

(3) توماس أرنولد: الخلافة الإسلامية، ترجمة جميل معلى، دمشق، ص88.

(4) فيليب حتى وإدوارد جرجي وجبرائيل حيدر: تاريخ العرب المطول، ج1 بيروت، ص 208

(5) أرمسترونغ: المصدر السابق، ص 532.

في روحِ الفاتحِ العثماني، الذي لم تكن تنقصُه -كمحاربٍ- جسورُ القسوةِ حينَ اللزوم. من هنا أكّدَ السلطانُ سليم الأول تلك المكانةَ المسبقةَ بزيارةِ الأماكنِ المقدّسة وقبورِ الأولياء، ورأى الآثارَ القديمة، قبلَ أن يكملَ طريقَه إلى مصر[1].

وخلال وجودِه في القدسِ قَبِلَ طلبَ سفيرِ إسبانيا «برجاءِ مليكِه تسهيلَ زيارةِ الحجّاجِ المسيحيين إلى القدس، وأتاحَ للصليبيين الأوروبيين الوصولَ إلى بيتِ المقدسِ لقاءَ رسومٍ كانوا يؤدُّونها زمنَ المماليك.

مع أنّ عبءَ مواجهةِ الحملاتِ الصليبيةِ الأوروبية الجديدة كان قد وقعَ عليه، وحين لاحظَ الخليفةُ سليم الأول أنّ أسوارَ القدسِ مهدمةٌ -إذ لم يقمِ المماليكُ بإعادةِ بنائها لابتعادِ الخطرِ الصليبي- فإنّه عزمَ على عمارتها زيادةً في الأمانِ لأهالي القدس، لكن وفاتُه المبكرةُ في عام 1520م منعته من ترجمةِ فكرته[2].

هذا وقد وسعَ سليمُ الأول في القدسِ نظامَ المللِ، حيث أصبحَ بطريرك القسطنطينية الذي غدا يتمتعُ بسلطاتٍ أكبر من تلك التي تمتع بها في ظلِّ الإمبراطور البيزنطي، مسؤولًا عنِ الأرثوذوكس في آسيا الصغرى واليونان وبلاد الشام[3].

وقد قسّمَ العثمانيون منذ مطلعِ حكمهم مع سليم الأوّل فلسطينَ إلى خمسةِ سناجقَ (ألوية) هي: القدس، غزة، نابلس، صفد، اللد، وألحقوها بالشامِ التي كانت مشكّلةً من ثلاثِ ولايات: حلب وطرابلس والشام[4]، فصارتِ القدسُ العربيةُ

---

(1) خليل سركيس: تاريخ أورشليم أي القدس الشريف، ص 190.

(2) العارف: المصدر السابق، ص 103.

(3) محمود عامر: الأوضاع العامة للقدس في ظلّ الإدارة العثمانية، مجلة دراسات تاريخية، العددان 59-60، كانون ثاني، نيسان 1977 ص 97.

(4) عبد الكريم رافق: فلسطين في عهد العثمانيين، الموسوعة الفلسطينية، ج2 ص 852.

الإسلاميةُ العثمانية مركزًا لمنطقةٍ واسعة سميت (سنجق القدس) المؤلف من خمسةِ أقضية؛ قضاء القدس، وقضاء يافا، وقضاء الخليل، وقضاء بئر السبع، وأربعَ عشرةَ ناحيةً وثلاثمئة وتسعٍ وسبعين قرية، وخمسِ قبائل، وعلى رأس كلّ قضاءٍ قائم مقام[1].

وهكذا كان العثمانيون يومَئذٍ مثلًا أعلى للنظامِ والأمنِ والعقلنة حتّى في أوروبا الصليبية نفسها، وفي هذا السياقِ أتَوا معهم بالقانون والنظام مرةً أخرى، إلى المسجد الأقصى، إلى بيت المقدس، إلى فلسطين، فتمتِ السيطرة على البدو، وأصبحَ بالإمكان تحسينُ الزراعة دون خشيةِ الغارات البدوية، كما أدخلوا نظامًا إداريًّا ذا كفاءةٍ عالية يومَئذٍ، فتحسّنَ الاقتصاد، وازدهرتِ التجارة في بيت المقدس[2].

أمّا عن عهدِ السلطان سليمان القانوني فنوردُ ما ذكره شمسُ الدين السيوطي في (إتحاف الأخِصّا بمحاسنِ الأقصى) عمّا قدّمه سليمانُ القانونيُ لبيت المقدس بشكلٍ عامٍّ، وللمسجد الأقصى بشكلٍ خاصٍّ من خِدماتٍ، فيقول: «أولُ ذلك، فِعلُه الجميلُ بإجراء قناةِ السبيل من برك المرجيع، ومسافتُها عن بيتِ المقدس نصفُ بريدٍ (فرسخان)، وأمّا من رأس ينبوع الماء إلى المسجد الأقصى، فهي مقدارُ بريدٍ، وصرفَ عليها من الأموالِ شيئًا جزيلًا، وبعدَه السورُ الذي حولَ المسجدِ الأقصى، وسبكِ ما علاه بالرصاص والخشبِ وغيره، وكذلك تجديدُ الرخامِ حولَ الصخرةِ الشريفة والجامات (إناء الفضة)، كذلك قصارى المسجدِ الأقصى الشريف سنةَ تسعٍ وثلاثين وتسعماية هجريّ».

ثمّ يقول: «ومن غريبِ الاتفاق، أن يسّرَ اللهُ -عزّ وجلّ- عمارةَ المسجد الأقصى

(1) العارف: المصدر السابق، ص 122

(2) محمود عامر: الأوضاع العامة للقدس في ظلّ الإدارة العثمانية، ص 104

الشريف على يد ثلاثةِ ملوك سليمانيات (جمع سليمان)، أولُهم سليمان بن داود -عليه السلام-، والثاني سليمان بن عبد الملك، والثالثُ سليمان بن سليم، وهذه نعمةٌ عظيمة، ومنّةٌ جسيمةٌ، يجبُ الشكرُ عليها»[1].

وهكذا أصبحت مدينة القدس مدينةً محصّنةً لأوّل مرّة، بعد أن هدمَ سورَها الملكُ المعظّم الأيوبي، أي منذ ما يقاربُ الثلاثمئة سنة، واستمرَ سليمانُ مبالغَ طائلةً في نظامِ المياهِ بالمدينةِ المقدّسةِ، كما أعاد بناءَ أوقافِ المسجدِ الأقصى وبعضِ المدارس، وتنازلَ عن حقِّه في رسومِ دخولِ الحجاج لصالحِ تمويلِ تلاوةِ القرآن في قبة الصخرة لمدةِ عامٍ، وأصبحتِ الأوقاف التي أصلحها مصدرَ عملٍ ودخلٍ لأعمال الخير[2].

لقد استمرّ وتواصلَ اهتمامُ السلاطين والولاةِ العثمانيين بالمسجد الأقصى وبيت المقدس، وكان هذا الاهتمامُ يؤخذ وفقَ ما تكرّس في التاريخ الإسلامي، شكل مباراةً في خدمةِ الأقصى؛ بكلامٍ آخرَ غدت خدمةُ مدينة القدس والأقصى تقليدًا إسلاميًّا راسخًا، فبعدَ سليمان القانوني العظيم، قام محمد آغا باشا بإنشاءِ زاويةٍ للصوفية باسمِه، وإنشاءِ جامعِ المولوية في القدس لتعليمِ علوم القرآن، وتقديمِ الطعام مجّانًا في شهر رمضان من كلِّ عام... «وتمّ بفضلِ هذا الاهتمام العثماني المستمر بخدمة القدس، تجديدُ الكثيرِ من الزوايا والتكايا، وترميمُ بعضها الآخر، وإعادةُ الجوامع -التي حُوّلت أيامَ الصليبيين إلى كنائسَ- إلى وظيفتها الإسلامية»[3].

وقد أنشدَ ابنُ حجرٍ العسقلاني في وصفِ بيتِ المقدس في تلك الفترةِ من حكم

---

(1) محمود إبراهيم: فضائل بيت المقدس في مخطوطات عربية قديمة، المصدر السابق، ص 510 – 511.

(2) أرمسترونغ: المصدر السابق، ص 527 – 828.

(3) الحنبلي: المصدر السابق، ج2، ص 446.

الدولة العثمانية:

إلـى بيت المقدس جئت أرجو جنّـاتِ الـخلـد نـزلًا مـن كريم
قطعنا في مســافته عقابًا ومـا بعد العقاب سوى النعيم

إنّ الاهتمامَ الدينيَّ والعمرانيَّ الذي أبداه ولاةُ الأمرِ في دولةِ الخلافةِ العثمانية لبيتِ المقدس والمسجد الأقصى المبارك، واكبَهُ اهتمامٌ جليٌّ في الأمورِ الإداريةِ والمعيشية لأهل القدس، حيث كان نظامُ الحكم العثماني في بيت المقدس -بصفةٍ عامةٍ- نظامًا عادلًا وعمليًّا للغاية، ولم يكن ظالمًا أو عنيفًا قهريًّا.

فالعثمانيون لم يضيفوا على المجتمعات، وتجنبوا إدخالَ تعديلاتٍ جذريةٍ تمسُّ النظامَ القائمَ والنظامَ المتكامل فيها، واحتفظوا بالبناءِ الاجتماعي الذي كان سائدًا قبل فتحهم للمشرق العربي ودحرهم التتارَ والمماليك والصفويين، إلّا فيما كان يتعارضُ مع شرع اللهِ وسيادة دولة الخلافة، حيث قَبِلَ العثمانيون التقسيمَ الذي كان شائعًا في المجتمعات الإسلامية: رجال السيف، رجال العلم، التجار، أصحاب الحرف، أهل الذمة... فكانتِ الفئاتُ -وبالذات المنتجةَ في المجتمع- مقسّمةً حسبَ الحرفةِ والمهنةِ؛ فأصحابُ الحرفة الواحدة كان يجمعُهم تنظيمٌ اجتماعيّ واقتصاديّ وسكنيٌّ، عاداتُه وتقاليده موروثة، وله شيخٌ يتولّى العلاقاتِ بين ذلك التجمّعِ ونظامِ الحكم في بيت المقدس، وهي علاقاتٌ خاصةٌ بالضرائب، وكان على كلِّ شيخٍ في كلّ تجمّع من تلك التجمعات أن يقومَ بحفظِ النظام داخلَ تجمّعه، ورعايةُ مصالحه والفصلُ في الخلافات والخصومات بين أفرادِه، ومتابعةُ حلِّ مشاكله، وأحيانًا إصدارُ الأحكام لمعاقبة المذنبين منهم[1].

(1) عبد الفتاح العويسي، جذور القضية الفلسطينية 1799-1922، ص 52.

هذا النظامُ العثماني العادل لعبَ دورًا مهمًّا في حياةِ أهلِ بيت المقدس، فمِن ناحيةٍ أتاحَ لكلِّ فردٍ وضعًا اجتماعيا معينا، وسمح له بالعمل والنشاط دون تدخّلٍ من جانب الهيئة الحاكمة، وجعله لا يشعرُ بحاجةٍ للاتصال اليومي بالسلطاتِ العثمانية للتعامل، لذلك قيل: «إنّ الفردَ في الأقاليمِ التي دانت للحكمِ العثماني كان يولدُ ويعيش ويموت دون أن يشعرَ في يومٍ ما بالحاجة إلى مقابلةِ أحدٍ من الحكام»[1].

ومن ناحيةٍ أخرى كان هذا النظامُ مرغوبًا فيه من نظرِ الدولة، لأنّه كان يعينُها على حفظ السِّلمِ الأهليِّ، والنظامِ بين الناس، ويساعدها على الاتّصالِ بالجميع بسهولةٍ ويسرٍ، عن طريقِ شيوخهم.

لذلك فقد أقرَّ مؤرخو التاريخِ العثماني المنصفون -ومنهم قلةٌ من المستشرقين- أنّ النظامَ الضرائبيَّ العثمانيَّ لم يكن مرهقًا لرعايا الدولة، فالسلاطين أدركوا أنّ الضرائبَ البسيطة وأساليبَ الإدارة البسيطة ستكون في صالحِ كلٍّ من الحاكم والمحكومين. وبالفعل إذا قورنتِ الضرائبَ التي دفعها الناسُ في مصرَ والشام في عهد المماليك، وفي العراق أيام الحكم (الإيراني) والتي دفعوها في العهدِ العثماني؛ لوجدنا أنّ الضرائبَ في العهد العثماني كانت أخفَّ وطأةً، ويرجع ذلك إلى عدالة آل عثمان، وإلى تمكّنهم من حسمِ الحروب الكبيرة، والتي كانت قد خفّت نسبيًّا في المنطقة، وبذلك لم تعد هناك حاجةٌ ماسةٌ لإرهاقِ الشعوب بالضرائب، ومن الجدير بالذكر أنّ مجتمعاتِ المشرقِ العربي كانت على شفا الانهيار الاقتصادي قبيلَ الفتحِ العثماني، إلّا أنّ الفتحَ العثماني أخّرَ ذلك الانهيارَ عدّةَ مئاتٍ من الأعوام.

فقد سار العثمانيون على نظامٍ ضرائبيٍّ مخفَّفٍ، فأنقذوا الفلاحين والتجار،

(1) العويسي: مرجع سابق، ص 53 وغيرها.

وبَسَطوا حالةً من الأمن والاستقرار تمتّعَ بها المشرقُ العربي بشكلٍ عام، والمسجدُ الأقصى بشكل خاص، حتّى النصفِ الثاني من القرنِ الثامن عشر. وهكذا كانت وبقيت فلسطين عربية إسلامية... وعثمانية.

بيت المقدس ونهاية الخلافة العثمانية:

إنّ دولةَ الخلافةِ الإسلامية العثمانية التي سارت على منهاجِ النبوّةِ والخلفاء الراشدين في تطبيقِ شرعِ اللهِ وإحقاقِ الحقّ، مرّت بأدوارٍ وأطوارٍ متعدّدة ومختلفةٍ، مثلها مثل جميع الدول؛ تبدأُ قويةً ثمّ تشيخُ وتهرمُ وتموت، وهذا ما حدث لدولةِ الخلافةِ العثمانية، حيث مرّت أوّلًا بمرحلة النشأة (الطفولة)، وعندما توفّرت لها مقوماتُ القوةِ وعواملُها بدأت بالصعود والتوسع (الشباب)، حتى كان النضوجُ وقمةُ العطاءِ وصولًا إلى نقطةٍ لم تستطع معها التقدمَ أيةَ خطوةٍ إلى الأمام، فتوقفت وأصيبت بالجمود (نهاية مرحلة الشباب)، وعندما ظهرت عواملُ الضعف والتخلف تنخرُ في جسدها بدأت بالهبوط (الشيخوخة) حتى بلغت نقطةَ الاضمحلال والزوال.

وبناءً على ذلك فمن الظلمِ الفادحِ والعدوان الكاسح أن ندينَ الشخصَ بأخطاءِ المجموعة أو أن نحكمَ على المجموعة بأسوأِ المراحل، وليس من الإنصافِ، ولا من فهمِ التاريخِ في شيءٍ أن يسلكَ أشخاصٌ من أتباعِ مذهبٍ أو نظامٍ معيّنٍ غيرِ سبيلِ الحقّ، ثمّ نحملُ نحن أخطاءَ هؤلاء الأشخاص على المذهب أو النظام ذاته، وإن كانت واجهةُ كلّ مذهب أو نظام تخسر شيئًا ما من بريقها نتيجة تلك الأخطاء.

والدولة العثمانية دولةُ الخلافة الإسلامية مرّت في أواخرِ عهدِها بظروفٍ قاسيةٍ شديدةٍ ظالمةٍ خارجة عن سيطرتها، عانى منها الأتراكُ والعرب والمسلمون، وكان على المسلمين أن يتحمّلوا تلك الظروفَ أكثرَ من غيرهم، فليس الوطنُ وطنًا إذا

كانت ظروفُه وأحواله جيدة، ويتمتع الفرد فيه بمميزات وأمجاد، ثمّ يبطُلُ أن يكون وطنًا إذا انقلبت تلك الأحوال والظروف.

وتمثل الفترةُ ما بين عامي (1882م-1909م) المرحلةَ الواقعة عقبَ دورِ الضعفِ والتخلف والتي سبقت عهدَ الاضمحلال والزوال، وفي تلك المرحلةِ حاولتِ الدولةُ العثمانيةُ -من خلالِ العديدِ من الإصلاحات- أن تنهضَ من كبوتها، على الرغمِ من محاولةِ السلطانِ عبدِ الحميد بعثَ الحياة والشباب في جسمها الهرمِ المريض، فإنّ ذلك لم يُفِد إلّا في تأخيرِ موعدِ الزوالِ فترةٍ من الزمن.

وهنا نقولُ إنّ العصرَ العثمانيَّ في فلسطين وبيت المقدس، والمسجدِ الأقصى لم يكن عصرًا أسودَ، كما يريدُ نفرٌ من الناس أن يلوّنوه، ولا كان السلطانُ عبدُ الحميد الثاني أحمرَ كما يشاءُ يهودُ شريعةِ الغابِ المجرمين أن يصوّروه.

فللعصرِ مظاهرُ مضيئةٌ وأخرى قاتمةٌ، بحسبِ الأحداثِ التي تجري فيها، وعواملُ داخليةٌ وخارجيةٌ خارجةٌ في كثيرٍ من الأحيانِ عن إرادةِ الأمم وقدرتها، فهذا هو العصرُ الذي ستزول فيه دولةُ الخلافةِ الإسلامية العثمانية، وسيعلو نجمُ مسخِ غولِ الخرافة اليهودية.

عبر هذا المبحثِ سنسلطُ الضَّوءَ على العصرِ العثمانيِّ الثاني في فلسطين والمسجد الأقصى، وعلى موقفِ دولةِ الخلافةِ من اليهود والحركةِ الصهيونية وشريعةِ الغاب، ذلك الموقفُ الذي يتصلُ اتصالًا مباشرًا ووثيقًا بتاريخِ السلطانِ عبدِ الحميد رافعِ لواء الشريعة الإسلامية الذي تصدّى لأطماعِ اليهود، وإغراءاتِ الحركة الصهيونية وعروضِها وضغوطِها بكلِّ ما كان يملكُ من إمكاناتٍ محدودة، ممّا أضاف إلى أعبائِه في الحكم، وفي مواجهةِ الزحفِ الصليبيِّ الأوروبيِّ السرطاني الاستعماري على ممتلكاتِ دولةِ الخلافةِ الإسلامية أعباءً ثقالًا جديدة، وبالتالي كان -عليه رحمة الله-

يخوضُ دفاعًا عنِ المسجدِ الأقصى تحديدًا صراعًا عقائديًّا واقتصاديًّا وسياسيًّا مريرًا.

السلطان عبد الحميد الثاني:

قدّرَ اللهُ له أن يكونَ رأسَ حربةٍ للذودِ عن حمى الإسلام، إلّا أنّ هذه الحربةَ كانت من خشبٍ أصابه العثّ، أودى برأسِ الحربة السلطان عبد الحميد الثاني حيث كانت دولةُ الخلافةِ هي العصا التي تكالبَ عليها الأعداءُ من كلّ حدبٍ وصوبٍ، وأودَوا بها إلى مهلكها ومهلك السلطان.

كَتَبَ عنِ السلطانِ كتّابٌ وباحثون وسياسين ومنظِّرون يمجدون به بشكلٍ أسطوريٍّ مبالَغٍ فيه، وعلى الجانبِ الآخر هناك اليهودُ والصليبيون والكماليون يشوّهون صورةَ السلطان بطريقةٍ مباشرةٍ تارةً، وملتويةٍ تارةً أخرى، وبأسلوبٍ تحريضيٍّ يخلو من اللباقةِ الأدبية والموضوعية البحثية. ويرى الكاتبُ أن ما قام به السلطانُ للسلطنة والخلافةِ والمسجد الأقصى والإسلام، عظيمٌ جدًا.

وُلِدَ السلطانُ عبد الحميد الثاني ابنُ السلطان عبد المجيد الأول، في 21 أيلول (سبتمبر) 1842م، فقدَ أمَّه ولم يتجاوز عمرُه سبعَ سنوات، وتعلم اللغتَين العربيةَ والفارسية، ودرسَ علومَ الدينِ وعلومَ اللغة والكتب الأدبية على يدِ أساتذةٍ مختصّين ورجالِ دينٍ مخلصين. ويعدّ السلطانُ الرابع والثلاثين في سلسلة سلاطين آل عثمان، إذ بُويعَ بالخلافة في 31 آب (أغسطس) 1876م وكان عمرُه حينئذٍ أربعًا وثلاثينَ سنة. جاء تولي السلطان عبد الحميد بعد أخيهِ السلطانِ مراد الخامس الذي خُلعَ عنِ الحكم بحجةِ ضعفٍ في قواه العقلية، وعجزٍ عن إدارة دولة الخلافة[1].

(1) عويس: مرجع سابق، ص 61 وغيرها.

وعلى الرغم من أنّ حالةَ الدولة العثمانية يومئذٍ لم تكن تشجّعُ على القيامِ بأيّةِ إصلاحاتٍ لأنّ أيدي الحكّامِ كانت مكبّلةً بالمصاعبِ الداخلية والخارجية، والمؤامراتِ الجليةِ وغيرِ الجلية، فإنّ السلطانَ عبد الحميد قام بأعمالٍ وخدماتٍ جليلة للدولة الإسلامية العثمانية، نذكر منها على سبيل المثال في مجال التعليم: أنشأ الدورَ والمعاهد والكليات التالية -على وجه التحديد-:

1. دار العلوم السياسية
2. المدرسة المالية
3. مدرسة التجارة
4. مدرسة الزراعة العالية
5. مدرسة التجارة البحرية
6. مدرسة الأحراج والمعادن
7. مدرسة اللغات
8. مدرسة المعوقين
9. دار المعلمات
10. مدرسة الفنون النسوية
11. والجامعة بفروعها: العلوم، والحقوق، والآداب، بالإضافة لكلية الهندسة العالية وأكاديمية الفنون الجميلة.
12. ويعدّ السلطانُ عبدُ الحميد مؤسسَ التعليمِ الابتدائي والمتوسط على الطرازِ الغربي، حيث أنشأَ المدارسَ الإعدادية والثانوية في أكثرِ المناطق، وجعلَ تعليمَ اللغة الأجنبية إلزاميًّا في المرحلةِ الإعدادية، وكذلك أنشأ دورًا للمعلمين في عددٍ كبيرٍ من الولاياتِ ومدارسِ الحقوق في بعضِها، وقد افتتحَ

السلطانُ عبد الحميد عددًا من المؤسساتِ الثقافية:

1. متحف الآثار القديمة
2. المتحف العسكري
3. مكتبة بايزيد
4. مكتبة يلدز
5. ومدرسة الطب

واهتمّ كذلك بالصحةِ والتجارة والزراعة والصناعة، وفي عهده جرى مدُّ الخطِ الحديديّ للقطاراتِ من دمشقَ في المدينة المنوّرة، بطول 1327كم، والمسمى بالخطّ الحديدي الحجازي الذي كان له أهميةٌ إستراتيجيةٌ ليس من الناحيةِ السياسية والتحركات العسكرية فقط، بل جاء مد الخطّ الحديدي الحجازي وإنشاء المرافقِ الحيويةِ في مختلف أنحاء الدولة العثمانية، ضمن إطار تدعيم الدعوة إلى الجامعة الإسلامية، ولم يغفلِ السلطانُ المستنيرُ موضوعَ إدخالِ بعض الإصلاحات العسكرية، حيث اهتمَّ بتدريبِ الجيشِ تدريبًا حديثًا، وأرسل عددًا من البعثات العسكرية ولا سيما إلى ألمانيا، وافتتحَ كذلك عددًا من الإعدادياتِ العسكرية، وقام بتجهيز الجيش بأحدثِ الأسلحة في ذلك الوقت.

وأمّا من ناحيةِ الإصلاحات الإدارية والسياسية فقد ابتدأَ السلطانُ عبد الحميد عهدَه بإعلان دستور للبلاد، وإنشاء مجلس نوّاب[1].

(1) لم يكن مستغربًا أن يبدأ السلطان عبد الحميد عهده بإعلان الدستور، ولا سيما إذا ما علمنا أنّ أحمد مدحت باشا (الخائن) هو الذي ساعد السلطان عبد الحميد على ارتقاء العرش، ظنًا منه أنّه قادرٌ على السيطرة على السلطان، وتسييره حسب أهوائه، وأحمد مدحت باشا هذا -عميل الصليبيين والصهيونية- كان يرأس حركة كانت ترمي إلى فصل الدين عن الدولة، والتحرر من الدولة المركزية الإسلامية عبر إقامة دويلات شبه مستقلة، وهو أيضًا واضع الدستور العثماني، لذلك كان يعرف بلقب أبي الدستور، وفي عام

وهنا وجبَ تسليطُ الضوءِ على أهمِّ المصاعب التي أدت إلى النهايةِ التي آلت إليها دولةُ الخلافةِ العثمانية، وذلك بالطبع لفهمِ ما حلَّ بالمسجد الأقصى، وبيتِ المقدس في تلك الفترة.

فالدولة العثمانية عندما تولّى السلطان عبد الحميد الثاني الحكمَ (1876- 1909م) كانت تعاني من مصاعبَ ومشاكلَ خطيرةٍ على الصعيد الداخلي والخارجي منها:

أوّلًا- الديون العمومية:

كانتِ الديونُ العموميةُ من أخطرِ المصاعبِ الداخلية التي كانتِ الدولةُ العثمانية تعاني منها، وهي ديونٌ ناشئةٌ من مصيدةِ القروضِ القديمة الخارجية التي استدانتها الدولةُ العثمانية من الدول الصليبية، وتراكمت تلك الديونُ حتّى بلغت عام 1875 مئتي (200) مليون ليرة استرليني، (5300) مليون فرنك[1]، وقد تعاظمت في عهدِ السلطان عبد العزيز الذي خُلِعَ من أجلِ ذلك في عام 1876م. ومن الجدير بالذكر أنّ القروضَ الماليةَ الخياليةَ كانت مظهرًا من مظاهرِ التنافس بين الدولِ الصليبية الأوروبية على أملاكِ دولةِ الخلافة العثمانية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

لقد أُرغمَ السلطانُ عبد الحميد من قبل الدولِ الصليبية على القَبولِ بإشرافِ لجنةٍ من الدول صاحبة الديون، تتولى جمعَ عددٍ من الضرائب من ولاياتِ الدولةِ

1877م اكتشف السلطان خيانته ومؤامراته فعزله ونفاه، ومن أهمّ أسباب عزله هو سعيه لفصل السلطة الدينية عن السلطة الدنيوية أي الخلافة الإسلامية عن السلطنة العثمانية، ثمّ عفا عن أحمد باشا، وعيّن واليًا على الشام عام 1878م فبقي هناك عامين، بعدئذ اتّهم بقتل السلطان عبد العزيز فقتل عام 1884م. وهنا التنويه يعتبر قليلًا، فسيرة هذا الشخص أكبر بكثير من أن تختصر ببضعة سطور.

(1) بلغت الديون العمومية عندما تولى السلطان عبد الحميد الثاني الحكم 2.528.000.880 ليرة عثمانية، وهنا يجب التنبه إلى القوة الشرائية التي كانت للمال قبل ما يزيد عن مئة عام.

العثمانية، وذلك لضمان سداد الفوائد، ورأس المال لحمله سندات تلك الديون، وهكذا قامت لجنة الديون الصليبية (اليهودية) بإنشاء دائرةٍ في قلب دولة الخلافة الإسلامية العثمانية، عُرفت باسمِ إدارةِ الديون العمومية العثمانية، كان يعملُ فيها ثلاثةُ آلاف صليبيٍّ ويهوديٍّ يقومون بجمع الضرائب من الرعايا العثمانيّين، أو يشرفون على جمع الضرائبِ من الولايات العثمانية، وكانت تلك الأموالُ التي ستُدفعُ إلى حملة سندات الديون العمومية العثمانية لا تدخلُ إلى خزانةِ الدولة العثمانية، بل كانت تدخلُ إلى خزانةِ البنكِ الفرنسي الإنجليزي الذي كان يُعرف بالبنك العثماني.

وقد كانت إدارة الديون أحدَ أهم الأبواب التي دخل منها الاستعمار الاقتصادي الصليبي اليهودي الحقيقي لدولة الخلافة العثمانية الإسلامية، وعلى الرغم من تلك الظروفِ والأوضاع والنفوذ الصليبي القاهر واليهوديّ الخفيّ والقوي، فإنّ السلطانَ عبد الحميد الثاني -وضمن إطارِ تدعيم الدعوة إلى الجامعة الإسلامية التي تزعمها- حاول تقليمَ أظافر الوجود الصليبي ومخالب ثعالب اليهود، وعمل على الحدّ من الامتيازاتِ الأجنبية في الدولة العثمانية، وذلك عبر الخطوات الآتية:

1. قام أولًا بإلغاءِ دستور 1877م، أي بعد عامٍ من صدوره، وذلك لأنّ الدستورَ كان فيه بنودٌ تنصُّ على ضرورة حفظِ الامتيازات الصليبية الأجنبية، وحماية الاستثمارات الأجنبية الاحتكارية.
2. استقدم عددًا من الخبراء الماليين ليقدّموا له تقريرًا حول إمكاناتِ الوفاءِ بتلك الديون، واستطاعَ خفضها إلى (106.437.224) ليرة عثمانية.
3. حتى عام 1885م كانتِ الدولة العثمانية تدفع فوائدَ مركّبةً على رؤوس الأموال الصليبية اليهودية المستدانة، ولكن في عام 1885م طالبَ السلطانُ

بتعديلاتٍ على ذلك النظام، وهكذا تمكّن من تغييرِ آليةِ سدادِ تلك الديون.

4. سعى السلطانُ عبد الحميد الثاني لإعادة بناءِ الاقتصاد، وذلك من خلالِ الاستفادة من المصادرِ المهمة لوارداتِ بعضِ الولايات، وكذلك المصادرُ الطبيعية للموارد في الدولة العثمانية مترامية الأطراف، وسمحَ -في ذلك الإطار- بإنشاءِ الشركات الاستثمارية، واستغلالِ الوضعِ التجاريِّ العامِّ لصالح الدولة، فجلبَ مبالغَ ضخمةً لخزينة الدولة.

ثانيًا- الأحزاب السياسية:

ضمنَ الإطار العام لسياسة الدول الصليبيةِ الأوروبية والصهيونية العالمية الرامية إلى تفتيتِ دولةِ الخلافةِ العثمانية وتقطيعِ أوصالِها، سعت تلك الدولُ ومِن خلفها الصهيونيةُ وبكلِّ ما تملكُ من وسائلَ إلى إثارةِ القلاقلِ والاضطراباتِ والفتنِ داخلَ الدولةِ العثمانية، وتمثّلَ ذلك بالتحريضِ السافر لأكثر ولايات الدولة العثمانية، تحت ستارِ الوطنيةِ والإصلاح لتقومَ بإنشاء أحزابٍ سياسيةٍ علمانيةٍ ذاتِ طابعٍ قومي.

وكان الهدفُ من تلك الأحزاب السياسية قيامَها بثوراتٍ في الولاياتِ المختلفةِ في دولةِ الخلافة، وذلك حتى تكونَ تلك الثوراتُ حُججًا لتدخلِ الدولِ الصليبية الأوروبية الاستعمارية ومطالبتها باستقلالِ تلك الولاياتِ عنِ الدولة العثمانية، لتدخلَ تحت استعمارِ تلك الدول الصليبية الكبرى، أو حكمِها، كما حدث عندما دخلتِ البوسنة والهرسك، في الإمبراطوريّة النمساوية، أو لتكونَ تحت نفوذ تلك الدول، إذ فُرِضَ على اليونان ملكٌ ألمانيٌّ، ودخلت بلغاريا والصربُ والجبل الأسود في فلك روسيا. وقد أكّدَ السلطانُ عبد الحميد الثاني خطورةَ تلك المؤامرات التي تقفُ من ورائها الدولُ الصليبية الأوروبية والصهيونية العالمية، فكتب في مذكراته السياسيةِ ص 96 و177 ما يلي:

«لكن الشيء الذي يقودنا إلى الهاوية أكثرُ من غيره هو مؤامراتُ الدول الكبرى، لقد صرفنا الملايين للقضاءِ على هذه المؤامرات، كان الأجدرُ بها أن تُصرَفَ على مشاريعَ حيويةٍ نستفيدُ منها، كما صرفنا جلَّ أوقاتِنا وطاقاتنا دون جدوى، فقد نُصبت خيامنا على ملتقى الطرق بين الوحوشِ الأوروبية الكاسرة».

1. ويضرب مثالًا على ذلك فيقول: «علينا أن نعترفَ -بكل أسف- بأنّ الإنجليزَ استطاعوا بدعايتهم المسمومة أن يبثوا بذورَ القومية والعصبية في بلادنا، وقد تحرّكَ القوميون في الجزيرةِ العربية وفي ألبانيا، وظهرت في سوريا بوادرُ تحرّكٍ مماثلة».
2. وهنا سنقصر حديثنا في موضوعِ الأحزاب السياسية على جمعيةِ الاتحاد والترقي، المنبثقة من حركة تركيا الفتاة، تلك الحركةُ التي كانت العاملَ الهدّامَ في دولةِ الخلافة العثمانية، والمحرّكَ الأوّلَ لخلع السلطان عبد الحميد الثاني، لأنّه رفضَ -وبشكلٍ قاطعٍ جازمٍ- أن يفرّطَ بحقوقِ المسلمين والعرب في بيت المقدس والمسجد الأقصى.

ففي شبه جزيرة البلقان -وتحديدًا في مدينة سلانيك اليونانية الواقعة في إقليم مقدونيا شمال اليونان والتابعة لدولة الخلافة العثمانية الإسلامية- نشأت من يهودِ الدونمة في السنواتِ الأخيرة من القرن التاسع عشر، حركةُ الأتراك الشبان، التي عُرفت بالعربية باسم جمعيةِ تركيا الفتاة، والتي استطاعتِ الوصولَ إلى الجيش، وظهرت كقوّةٍ مؤثرةٍ في عام 1907م، وذلك بالطبع عبر مساعدةٍ ودعمٍ من يهود الدونمة[1].

(1) يهود الدونمة: هم يهود كانوا يتسمّون بأسماء المسلمين، ويتظاهرون بإقامةِ الشعائر الإسلامية، ولكنهم

لقد انبثقت عن حركةِ تركيا الفتاة العديدُ من الجمعيات، وكانت مصرُ مركزَها في الولايات العربية، ويعود ذلك إلى أنّ بريطانيا الصليبيةَ التي كانت تحتلُّ مصرَ منذ عام 1882م سمحت لأعضاء تلك الحركة المشبوهة بمزاولةِ نشاطاتهم وفعالياتهم بشكلٍ واضحٍ مكشوف، وذلك بالطبع مقابلَ عمالتهم لها بشكلٍ سرّيٍ خفيٍّ، من أجل الإجهازِ على دولةِ الخلافة العثمانية، فأنشأوا -على سبيلِ المثال- في عام 1899م مطبعةً لنشرِ جريدتهم التي كانت تحملُ اسمَ (القانون الأساسي)، وذلك بهدفِ نشرِ الدعوة إلى تلك الحركة، وبثّ أفكارِها المسمومة.

وفي عام 1902م عَقَدَ عددٌ من أعضاءِ تلك الحركة مؤتمرًا عامًّا في باريس، فانقسمَ الأعضاءُ حول الموقفِ من الإصلاحِ المطلوب في طبيعته لمستقبل الحياة السياسية في الدولة العثمانية إلى قسمين:

القسم الأول:

وهم الأعضاءُ الأتراك الذين كانوا منشدّين للاتجاهِ القومي، ومؤكدين ضرورةَ تتريكِ شعوبِ الدولة العثمانية، وصبغِهم بالصبغةِ التركية القومية، وقد أنشأوا تبعًا لذلك جمعيةَ الاتّحاد والترقي.

في حقيقةِ الأمر كانوا يكيدون للإسلام، ولدولةِ الخلافةِ العثمانية، كلما سنحت لهم الظروف، وهم يُشبهون إلى حدٍّ كبيرٍ المنافقين في أيّام رسولِ الله -صلّى الله عليه وسلّم- يُبطنون الكفرَ ويُظهرون الإسلام، وقد وصلَ العديد من يهود الدونمة إلى مراكزَ عليا وحسّاسةٍ في الحكومة والجيش العثماني، بل إنّهم استطاعوا أن ينفُذوا بطريقة من الطرق أو شكل من الأشكال إلى قصر السلطان عبد الحميد الثاني، وقد كشفت الأيام حقيقة كون مصطفى كمال أتاتورك الذي هدم الخلافة الإسلامية عام 1942م، وأصبح فيما بعد أوّلَ رئيسٍ للجمهورية التركية، كان متصلًا بحركة تركيا الفتاة، ومما يؤكد ذلك أنّه من مدينة سلانيك، وأنه أحدُ يهودي الدونمة، هناك العديد العديد من الكتب والأبحاث التي تؤكد ما ذهبنا إليه، وهناك بالطبع من يخالفونا الرأي.

القسم الثاني:

وهم الأعضاء غير الأتراك من العرب وغيرهم، كانوا يريدون البقاءَ في الدولة العثمانية، على أن يكون لكلّ ولايةٍ غيرِ تركية نظامٌ إداريٌّ خاصٌّ فيما يتعلّق بالضرائب، وتكونَ لغةُ كلِّ ولايةٍ هي اللغةَ الرسمية فيها إلى جانبِ اللغة التركية، وسمَّوا أنفسَهم «حزبَ اللامركزية الإدارية العثمانية».

وقد توصّلَ بعضُ أعضاءِ تلك الحركة إلى مؤامرةٍ للإطاحةِ بالسلطان عبد الحميد الثاني، كان على رأسها أنور بك الملحقُ العسكريُّ في برلين، وأحمد نيازي المقدمُ في الجيش، وقد أطلقت تلك المجموعةُ على نفسِها اسمَ (لجنة حزب الاتحاد والترقّي)، وحصلوا على مساعداتٍ مالية من يهود الدونمة في سلانيك، وطالبوا بإعلانِ دستور مدحت باشا، الذي كان السلطانُ عبد الحميد قد أعلنَه عامَ 1876م ثمّ علّقه في العام التالي، مع مناداتهم بإلغاءِ الفوارق الطبقية والدينية والجنسية في الدولة العثمانية؛ لاعتقادهم أنّ ذلك سيستميلُ النصارى إلى حركتهم، وقد توصّل أعضاءُ تلك اللجنة بالدسائسِ والتهويل والتهديد والاغتيال للسيطرة على مناصبَ كثيرة في الدولة[1]، حيث اتبعت جمعية الاتحاد والترقي سياستين تجاه الدولة العثمانية:

1. سياسة إعلامية في الولايات العربية.
2. سياسة طورانية[2] في الولايات العربية.

---

(1) عبد الفتاح العويسي: مصر والقضية الفلسطينية، قبل عام 1936م، القدس 1987 ص 67.

(2) كان هدفهم الأساسي من حركتهم أن يرجعوا بها إلى خصائص أسلافهم الطورانيين (من سكان تركستان في أواسط آسيا) قبل دخول الأتراك في الإسلام، وكانت السياسة الطورانية سياسة قومية تحمل عداءً وحقدًا على الإسلام ولسائر القوميات غير قوميتهم، ويريدون بها تتريك جميع شعوب الدولة العثمانية من خلال فرض اللغة التركية وحدها عليهم وصبغهم بالثقافة الطورانية التركية.

وعندما انكشفت حقيقة تلك الحركة المتطرفة لشعوب الدولة العثمانية، كانت ردّة الفعل العربية كذلك متطرفة في الدعوة إلى القومية العربية بمفهومها الجاهلي[1].

وإذا كان يهود الدونمة قد جمعوا جهودهم في جمعية واحدة ذات فروع على نظام وهدف معروف، فإنّ العرب قاموا بإنشاء العديد من الجمعيات العربية في إستنبول والقاهرة وبيروت ودمشق وبغداد كان بعضها متطرّفًا والبعض الآخر معتدلًا نوعًا ما، ونذكر من تلك الجمعيات:

أ - جمعية الإخاء العربي العثماني والمنتدى الأدبي (1909م).

ب - جمعية الإصلاح (نصرانية أنشئت عام 1909).

ج - وجمعية النهضة اللبنانية (التي كانت تطالب بالاحتلال الفرنسي) وهناك العديد من تلك الجمعيات التي عملت على وأد الخلافة.

ثالثًا- الحروب الصليبية على الدولة العثمانية:

على الرغم من الخلافاتِ والنزاعاتِ والعداواتِ الشديدةِ بين الدولِ الصليبية الأوروبية، فإنّ تلك الدول الاستعمارية قدِ اتّفقت على القضاءِ على دولةِ الخلافة الإسلامية العثمانية، فشنّت عليها سلسلةً من الحروب المتوالية، سواءً بطريقةٍ مباشرة أم من وراء دول البلقان الضعيفة، فكانتِ الدول الصليبية الأوروبية الكبرى عندما تنتصر دولة بلقانية على الدولة العثمانية، وتستولي على بعض أراضي الدولة العثمانية

(1) كان بعض العرب المسلمين اسمًا يريدون الرجوع إلى الوثنية الجاهلية، لأنّ الدونمة (يهود الأتراك) أرادوا في ذلك الوقت أن يردوا المسلمين الأتراك إلى الوثنية. وقد تناسى ذلك النفر ما قاله رسول الله: «يا أيها الناس إنّ الربّ واحد والأب أب واحد، وإنّ الدين واحد، وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم فإنّما هي اللسان، فمن تكلّم العربية فهو عربي».

تقول: «هذا قانون الحرب»، أمّا إذا انهزمت دولة بلقانية أمام الدولة العثمانية فقد كانت تلك الدول الصليبية تتوسط وتأخذ بعضَ المغانم (أرضًا أو مالًا أو امتيازًا سياسيًا أو اقتصاديًّا) من الدولةِ العثمانية لصالح دول البلقان، على سبيل التسوية والترضية وحل مشكلة دولية.

ومن تلك الحروب التي عمدتِ الدولُ الصليبية الأوروبية الكبرى إلى إثارتها بطريقةٍ مباشرة أو غير مباشرة على دولة الخلافة الإسلامية العثمانية في القرن التاسع عشر:

1. حملة نابليون بونابرت على مصر والشام (1798 1801-).
2. حرب الصرب (1804 - 1817).
3. حرب مع روسيا (1806 - 1812).
4. ثورة اليونان (1821- 1829).
5. معركة نفارين البحرية عند سواحل اليونان، واشتركت فيها بريطانيا وفرنسا وروسيا ضد دولة الخلافة عام (1827م).
6. حملة إبراهيم باشا على الشام بتشجيعٍ ودعم من فرنسا بصفة خاصة (1821 - 1840).

وعلى الرغم من مرور عشرين عامـًا (1830-1850) دونَ وقوعِ حربٍ دوليةٍ على دولة الخلافة الإسلامية، فإنّ الدول الصليبية الكبرى شغلت دولةَ الخلافة بالمفاوضات وفي عقد المعاهدات للحصول على مكاسبَ، سواء بالضغط السياسي والعسكري والاقتصادي، أو بإثارة الاضطرابات الداخلية بين الحجاز واليمن ومصر والشام، وبين الأرمن بشرقي آسيا الصغرى.

كما أنّ الدولَ الصليبيةَ الكبرى أرادت خلال تلك الأعوام أن تتفرغ لحلِّ

المنازعات الداخلية في دولِ البلقان الجديدة، قبل أن تفسحَ تلك المنازعاتُ المجالَ للدولة العثمانية لاستعادة سلطانها على البلقان، ثمّ ما لبث وأن استأنف الصليبيون حروبَهم من جديد، فكانت:

1. حرب القرم (1852-1856).
2. حرب الجبل الأسود (1862).
3. حرب الصرب (1867)
4. الحرب التركية الروسية أو حرب المسكوب (1877 - 1878)1.
5. فرنسا تحتل تونس عام (1882)
6. بريطانيا تحتل مصر عام (1882)
7. إيطاليا تحتل ليبيا عام (1911)
8. حرب البلقان (1912)
9. استطاع السلطان عبد الحميد الثاني خلال مدة حكمه أن يحاور الدول الصليبية الأوروبية باللين أحيانًا، وبتهديدها بإعلان الجهاد في أحيان أخرى، ونتيجة لخشية بريطانيا من استجابة مسلمي الهند، وفرنسا من استجابة المسلمين في شمال إفريقيا لدعوة السلطان عبد الحميد للجهاد، كانت الدول الصليبية وعلى رأسها بريطانيا وفرنسا تلين لتهديدات السلطان فتخفّف من اعتدائها وهجماتها على أرض الخلافة الإسلامية[1].

(1) وكانت نتيجة تلك الحروب التي حدثت في عهد السلطان عبد الحميد فادحة للدولة العثمانية، حيث فقدت الدولة مساحات شاسعة من أرضها، بل إنّ القوات الروسية وصلت إلى أسوار إستنبول، وأجبرت الدولة العثمانية على الخضوع لشروط قاسية لدفع تعويضات وإعطاء امتيازات للأجانب، وذلك في معاهد (أياستغانوس).

ذلك كان بعض قليل مما كُشف عنه بخصوص ما حلّ بدولة الخلافة العثمانية في الفترة التي سبقت نهاية عصر الخلافة العثمانية.

ديون عمومية... أحزاب سياسية متآمرة... وحروب صليبية متوالية... كلّ ذلك نقطة في بحر ما حدث لاحقًا... من قبل يهود شريعة الغاب الصهاينة، ومن والاهم من صليبيين ومتأسلمين وأعراب.

المبحث الثالث: السلطان والحركة الصهيونية

لقد سعى يهودُ شريعة الغاب، ومِن خلفهم الحركةُ الصهيونيةُ العالمية بكلِّ ما آتاهم الشيطان من خبثٍ ومكر ودهاء، وعبر ما كان لديهم من إمكاناتٍ مالية ومادية ووسائلَ مختلفة، لجعل دولةِ الخلافة العثمانية تصادقُ على إنشاءِ وطنٍ قومي لليهود كيانِ الخرافة في فلسطين، وذلك لأنّ دولةَ الخلافة الإسلامية هي صاحبةُ السيادة في ذلك الوقت على بيت المقدس والمسجد الأقصى.

لذلك كان السلطانُ عبد الحميد الثاني يواجه منذ أن تولى سدةَ الحكم مؤامراتِ اليهود والحركةِ الصهيونية، التي كانت تسعى إلى تهويدِ بيت المقدس، وهنا توجّبِ على الخليفة خوضُ صراعٍ دينيٍّ وسياسيٍّ مريرٍ ومُضنٍ ضدّ اليهودِ والدولِ الصليبية الكبرى، والأحزابِ السياسية في الدولة العثمانية المناصرةِ لليهود والمدعومةِ منهم ومن عبّاد الصليب.

وهنا يمكن أن نقسمَ موقفَ السلطان عبد الحميد الثاني منذ توليهِ الحكم من الأطماعِ اليهودية في بيتِ المقدس ومسجد المسلمين الأقصى، ومن الإغراءاتِ والعروض التي قُدمت من اليهود من أجل أن يُنشئوا كيانَهم الغاصبَ في بيت المقدس ويهدموا الأقصى إلى ثلاثِ مراحل:

المرحلة الأولى: ما قبل هرتزل (1876 – 1896):

وهي المرحلةُ الواقعة ما بين تولي السلطان عبد الحميد الثاني سدّةَ الحكم في عام (1876م) إلى بروزِ شخصيةِ هرتزل كشخصيةٍ مؤثرة على مسرح الأحداث عام

(1896م)، ومن أهمّ أحداثِ تلك المرحلة ما يأتي:

1. في (1876) وهو العام الذي تولى فيه السلطانُ عبد الحميد الحكم، اقترحَ (حاييم غوديلا) ابنُ أخ (مونتفيوري) في مفاوضاته مع الحكومة التي أجراها – شراءَ بعض الأراضي في فلسطين، ولكن السلطانَ رفض ذلك من منطلقٍ دينيٍّ بحت.
2. في أعقابِ مشاركةِ اليهودِ القيصرَ الروسي إسكندر الثاني عام (1881م) وما تبعها من هجرةٍ يهوديةٍ من روسيا، ورغبةِ أعدادٍ كبيرة منهم بالهجرة إلى فلسطين صدرَ في نهاية إبريل 1882 أولُ قرارٍ عثمانيٍّ في عهدِ السلطان عبد الحميد ضد تلك الهجرةِ معلنًا بدءَ اتّخاذ سلسلةٍ من الإجراءات والتدابيرِ ضد الهجرةِ اليهودية إلى فلسطين وتملكهم للأراضي.
3. حاولَ اليهودُ بكلِّ ما كانوا يملكونه من وسائلِ الضغطِ على السلطانِ عبد الحميد لتسهيلِ هجرةِ اليهود وإقامتهم في فلسطين، ومن ذلك:

« وسّط اليهود في ذلك الأمرِ الوزيرُ الأمريكيُّ المفوّض في إستنبول اليهودي، نعم اليهودي استراوس.

« أفهمَ السلطانُ المبعوث اليهودي (لورنس أوليفانت) أنّ اليهودَ بإمكانهم العيشُ بسلامٍ في أيةِ جهةٍ من الدولةِ العثمانيةِ باستثناءِ بيتِ المقدس، وأنّ الدولةَ العثمانيةَ ترحبُ بالمضطهدين، ولكنها لا ترحبُ بإقامةِ مملكةٍ لليهود في فلسطين.

4. وكإجراءٍ عمليٍّ ضد تلك الهجرة اليهودية في فلسطين:

« أرسل البابُ العالي في 92 حزيران (يونيو) (2881) إلى متصرفِ القدسِ رسالةً طالبه فيها بمنعِ اليهود الذين يحملونَ الجنسياتِ الروسيةِ والرومانيةِ

والبلغاريةِ من دخول فلسطين.

- كانت قوانينُ (1882) لا تسمحُ لليهودِ بدخول فلسطين إلّا في حالةٍ واحدة فقط هي: الحجُّ أو الزيارةُ الدينية، ولمدةٍ محدودةٍ هي: شهر واحد فقط، وبشرطِ أن يُحجَزَ جوازُ سفرِ اليهوديِّ الزائر، ويُحفَظَ في مركزِ البوليس العثماني، حيث كان يُعطَى الزائرُ اليهوديُّ جوازَ سفرٍ مؤقتٍ لتسهيلِ مراقبتهم وإبعادهم عن بيتِ المقدس، إذا ما تجاوزوا المدةَ المحددة لهم.
- نتيجةً للضغوطِ التي قامت بها الدولُ الصليبيةُ الأوروبيةُ على الباب العالي في أعقابِ مؤتمرِ كاتوويتز الذي عُقِدَ في نوفمبر (1884) والذي طالبَ بالهجرةِ اليهودية إلى فلسطينَ وإنشاءِ المستعمراتِ اليهودية فيها، قرّرَ الباب العالي في عام (1887) إطالةَ مدة زيارةِ اليهود المسموح بها إلى بيت المقدس إلى ثلاثةِ أشهرٍ بدلًا من شهر واحد.
- اتخذت دولةُ الخلافة العثمانية عام (1887) قرارًا مهمًّا ومكملًا للقرار السابق، يتضمَّنُ تغييرًا جذريًّا للوضعِ الإداريِّ لبيتِ المقدس، فجعلها السلطانُ عبد الحميد الثاني متصرفيةً خاصةً تتبع للبابِ العالي في إستنبول مباشرةً، وذلك بهدفِ إحكامِ رقابةِ الدوائرِ العثمانية العليا في إستنبول، والحدّ من الهجرة اليهودية إلى فلسطين.
- أصدر السلطان عبد الحميد الثاني قرارًا بتعيين محمد شريف رؤوف باشا متصرّفًا على بيت المقدس، وذلك لما عُرف عنه من حزمٍ ونزاهة، فكان يسارعُ بطردِ اليهودِ بعد انقضاءِ مدةِ زيارتهم، ومنعَ كذلك بيعَ الأراضي الفلسطينية لليهود.
- نتيجةً لموقفِ الدولة الإسلامية العثمانية المشارِ إليه، نَشِطَ اليهودُ بالاتصال

بكبار الشخصيات اليهوديةِ أو المؤثرة للتباحثِ في موقفِ الدولة العثمانية منهم، فعرضَ على سبيل المثال في عام (1891) اللورد البريطاني اليهودي غوشن على الحكومةِ العثمانية استيطانَ اليهودِ في شرق الأردن تحت إشرافِ الباب العالي، على أن يكون الكيانُ اليهوديُّ فيها مستقلًّا، وتعودُ إدارتُه لليهود فقط مقابلَ مبلغٍ كبيرٍ من المال، فما كان من الدولةِ العثمانية التي لم تلبِّ دعوة غوشن إلّا أن اتّخذت إجراءاتٍ عمليةً إضافيةً تأكيديةً ضدّ الهجرة والاستيطان اليهودي في بيت المقدس كان منها:

- قوانين (1981م) التي نصّت على منعِ الهجرةِ اليهودية إلى فلسطين وتؤكد على مدة الزيارة المحدّدة.
- نتيجةً لتأكيدِ السلطان عبد الحميد الثاني على مدةِ الزيارةِ المحددة أُرسلت أوامرُ مشددةٌ إلى متصرفِ القدس في شهر آب (أغسطس) 1893م تؤكدُ ضرورةَ إخراج الزوارِ الذين تنتهي زيارتُهم لبيت المقدس.
- أفشلتِ السلطاتُ العثمانيةُ في عام (1893م) مشروعَ بول فريدمان للاستيطانِ اليهوديِّ في منطقة (مدين) وعزمِه على إقامةِ مملكةٍ يهوديةٍ إسرائيلية في الأرض المقدسة.

وهكذا نلاحظ أنّ تلك المرحلةَ تميّزت بمطالبةِ اليهود بفتحِ بابِ الهجرة اليهودية إلى فلسطين بدلًا من توجههم إلى أوروبا، و العملِ على إنشاءِ حكومةٍ يهودية تابعة للدولةِ العثمانية في فلسطين.

المرحلة الثانية: الهرتزلية (1896 - 1904):

ببروزِ شخصيةِ اليهوديِّ المجريِّ بنجامين زئيف هرتزل (1860 – 1904) على مسرح الأحداث، بدأت مرحلة جدية في قيادة العمل اليهودي الصهيوني من أجلِ أرضِ الخلاص، وإنشاءِ الدولةِ اليهودية التي تصوَّرها هرتزل في كتابِه «الدولة اليهودية» الذي أصدرَه عامَ (1896)، وقد تناولنا شخصيةَ هرتزل وكتابَه المذكور في الفصلِ السابع من هذه الدراسةِ، والذي كان تحتَ عنوان (الصهيونية سفر كهنة السياسة).

هذا وقد انقسمَ نشاطُ هرتزل في محاولاتِه الحثيثةِ لإقناعِ السلطانِ عبدِ الحميد الثاني والحكومةِ العثمانيةِ بتخفيفِ قيودِها ضد اليهودِ والحركةِ الصهيونية في بيت المقدس، وذلك بالطبع من أجلِ الانتقال إلى المرحلةِ التالية من ذلك المخططِ الرامي لهدمِ المسجد الأقصى، وإقامةِ الهيكل اليهودي المزعومِ مكانَه، وذلك حسب شريعة الغاب إلى قسمين هما:

القسم الأول– ما قبل انعقاد مؤتمر بال:

1. يتّضحُ لنا من دراسةِ كتابِ هرتزل «الدولة اليهودية»، أنّه تمنّى أن يقبلَ السلطانُ عبد الحميد بإقامةِ وطنٍ قوميٍّ لليهود (كيان الخرافة) في فلسطين، مقابلَ حلِّ المشكلةِ الماليةِ للدولة العثمانية؛ حيث يقول هرتزل، في كتابه[1]: «إن منحَنا جلالةُ السلطانِ فلسطينَ نستطيعُ الالتزامَ مقابلَ ذلك أن نسويَ المشكلةَ الماليةَ لتركيا تسويةً شاملة».

2. انتهزَ هرتزل وقوعَ المذابح والاضطرابات الدامية التي قامَ بها الأرمنُ في

---

(1) ص24.

الدولةِ العثمانية، وعرضَ في مايو (1896) مساعيه لتسويةِ مشكلة الأرمن، ولكنّ السلطانَ عبدَ الحميد كان ذكياً فلم يسمحْ لهم بتحقيقِ أحلامهم من أجلِ استغلالِهم لمذابحِ الأرمن للوصول إلى مآربهم.

3. بعد أن رأى هرتزل عقمَ الأساليبِ التي اتبعَها قرّرَ القيامَ بزيارته الأولى لإستنبول التي استمرت عشرةَ أيامٍ، ما بين 18 حزيران (يونيو) إلى 28 منه عام (1896)، وذلك بهدف مقابلةِ السلطانِ عبد الحميد الثاني لإقناعِه بشراءِ أراضي فلسطينَ مقابلَ سدادِ الديونِ العمومية للدولةِ العثمانية، فأخبرَه جاويد إبراهيم ابنُ الصدر الأعظم أنّ السلطانَ عبد الحميد الثاني لن يقبلَ ذلك، وفشلت محاولاتُ هرتزل للاجتماعِ بالسلطان على الرغمِ من اتصالاته بمعظمِ مراكزِ القوى المؤثرة في إستنبول.

4. لقد تأكّد هرتزل من موقفِ السلطانِ عبد الحميد الثاني ومعارضتِه الشديدة للاستيطان اليهودي في فلسطين، من خلال ما نقله إليه صديقُه (نيولينسكي)، وقد دوّن هرتزل ذلك الموقفَ للسلطان عبد الحميد في يومياته (19 يونيو 1896)، وبالذات ما قالَه السلطان: «لا أقدرُ أن أبيعَ ولو قدمًا واحدةً من البلادِ؛ لأنها ليست لي، بل لشعبي، لقد حصلَ شعبي على هذه الإمبراطوريةِ بإراقةِ دمائهم، وقد غذّوها فيما بعدُ بدمائهم، وسوف نغذيها بدمائنا قبلَ أن نسمحَ لأحدٍ باغتصابها منا، لقد حاربت كتيبتان من جيشِنا في سوريا وفي فلسطين، وقُتل رجالُنا الواحد بعد الآخر في بلفنة[1]؛ لأن أحدًا منهم لم يرضَ بالتسليمِ، وفضّلوا أن يموتوا في ساحةِ المعركة، لا

(1) بلفنة: مدينة إستراتيجية مهمة تقع على ملتقى الطرق الرئيسة بين مضائق جبال البلقان وبلغاريا الغربية والطونة، وقعت فيها معركة بين العثمانيين والروس عام (1877) أبلى فيها العثمانيون بلاء حسنًا.

أستطيعُ أبدًا أن أعطيَ أحدًا أيَّ جزءٍ منها، ليحتفظِ اليهودُ ببلايينهم، فإذا قسّمت الإمبراطورية؛ فقد يحصلُ اليهودُ على فلسطين دون مقابل، إنما لن تقسّمَ إلا على جثثنا، ولن أقبلَ بتشريحِنا لأيّ غرضٍ كان».

5. بعد مرورِ شهرين على زيارةِ هرتزل الأولى إلى إستنبول، حاولَ من جديدٍ الاتصالُ بالدولة العثمانية لعرضِ مشروعٍ جديدٍ، يتضمنُ مغرياتٍ ماليةً مضاعفة، على شكلِ قرضٍ غيرِ مستردٍّ مقابلَ ما يأتي:

- الهجرةِ اليهوديةِ غيرِ المحدودة إلى فلسطين والمدعومةِ من قِبل الحكومةِ العثمانية بكلِّ وسيلةٍ ممكنة.
- الاستقلالِ الذاتي لليهودِ في فلسطين، كدولةٍ شبهِ مستقلةٍ تحتَ حمايةِ السلطان.
- إصدارِ السلطانِ دعوةً لليهود للعودة إلى أرضِ آبائهم؛ لكنّ هرتزل لم يتلقَّ أيَّ ردٍّ من السلطانِ حول عرضه.

6. وفي محاولة أخرى اجتمع هرتزل في آذار (مارس) (1897) مع محمود نديم السفير العثماني في فينا وأكّد له على عرض اليهود تسديد الديون العمومية للدولة العثمانية.

القسم الثاني: ما بعد انعقاد مؤتمر بال:

لقد كان على السلطان عبد الحميد الذي كان تابعًا لمؤتمر بال وقراراته أن يواجهَ خلالَ ثلاثَ عشرة سنة التي بقيت له في الحكم (1897-1909) المؤتمرَ الصهيونيَّ هذا وغيرَه من المؤتمراتِ والمنظماتِ والأحزاب التي ستعمل على تهويدِ بيتِ المقدس، وبصفةٍ خاصةٍ هرتزل الذي استطاعَ بعد انعقادِ مؤتمرِ بال بسويسرا والذي

دعا إليه بتاريخ (29–31 أغسطس 1897م) أن يصبحَ رئيسَ المنظمةِ الصهيونيةِ العالمية، وأن يحصلَ على الضَّوءِ الأخضرِ للتحركِ العملي والفعالِ لإقامةِ الدولةِ اليهودية في فلسطين التي يضمنُها القانون العام، وذلك من خلالِ اتّخاذِ الخطواتِ التمهيديةِ للحصولِ على الموافقةِ الحكومية الضرورية من الدولِ صاحبةِ السيادة على فلسطين، وكان ذلك يعني في تلك الأيامِ ضرورةَ حصولِ الحركةِ الصهيونية على موافقةِ الخلافة الإسلامية العثمانية وتصديقِ السلطان عبد الحميد الثاني على المشروعِ الصهيوني، وقد كان من أهمِّ حوادثِ تلك المرحلةِ –بحسب الدكتور عبد الفتاح العويسي في كتابِه «جذور القضية الفلسطينية»[1] ما يلي:

1. في مواجهتِه لقراراتِ مؤتمرِ بال وميثاقِه وللحدِّ من الأطماعِ اليهوديةِ في فلسطين أرسلَ السلطانُ عبد الحميد الثاني بعضَ أعضاءِ أمانةِ السر الخاص به في قصرِ يلدز لتولي حكمَ متصرفية القدس، وكان أولَ من وصلَ منهم إلى فلسطين توفيق بك الذي كان أمينًا وصارمًا في تطبيقِ القانون.
2. في حزيران (1898) أصدرَ السلطانُ عبد الحميد قوانينَ جديدةً تتضمن الآتي:
   - لا يُسمح لليهودي الأجنبي بزيارةِ الأراضي المقدسة إلّا للزيارةِ الدينية.
   - يتوجَّبُ عليهِ دفعتُ تأمينٍ أثناءَ دخوله البلاد المقدّسة.
   - يتعهّدُ بمغادرةِ فلسطين خلالَ ثلاثين يومًا.
3. حاول هرتزل الذي تميزَ بأنه كان إذا سُدَّ في وجهه طريقٌ سلكَ طريقًا آخرَ، أن يستغلَّ علاقةَ بعضِ الدول الصليبية مع دولةِ الخلافة العثمانية ويوسّطها لإقناعِ

(1) عبد الفتاح محمد العويسي: جذور القضية الفلسطينية، (1799 – 1922) ص 77 وغيرها.

السلطانِ عبد الحميد الثاني بالمشروع الصهيوني، كان منهم على سبيل المثال الإمبراطور الألماني عام (8981). ومارس هرتزل ضغوطًا مختلفةً وقام بزيارتِه الثانية لإستنبول عام (8981) من أجل ذلك، ولكن الإمبراطور الألمانيَّ فضّلَ في نهايةِ المطاف علاقاتِه مع الدولةِ العثمانية على الحركة الصهيونية، كما حاولَ هرتزل في العامِ نفسِه الاتصالَ ببريطانيا لتوطينِ اليهود في العريش، ولكن بريطانيا تخلت عنِ المشروع عام (3091) لأسبابٍ عديدةٍ، كان منها موقفُ السلطان عبد الحميد ضدّ المشروع.

4. وفي 13 أغسطس (1899)، وقبلَ انعقادِ المؤتمرِ الصهيونيِّ بيومين، أرسلَ هرتزل رسالةً إلى السلطانِ عبد الحميد الثاني، جاء فيها: «إن الصهيونيّين المجتمعين في مؤتمرِ بال يعتبرون أن واجبَهم الأولَ هو أن يرفعوا تعهُّدهم بإخلاصِهم وتقديرهم للطفِ جلالتِه نحو رعاياه اليهود، إلى أعتابِ عرشِ جلالةِ السلطان، وإن الصهيونيين يرغبون في إغاثةِ إخوانهم التعساءِ في دولِ أوروبا المختلفة، وفي الإسهامِ في عظمةِ الإمبراطورية العثمانية وازدهارِها، وإنّهم ليأملون بإخلاصٍ أن يحظى ولاءُ هذه الرغبات بتقديرِ وتشجيع حكمة الخليفة العظيمة»[1].

لقد أرسل هرتزل تلك الرسالةَ معتبرًا أنّه يمكنُ إيجاد الدولة اليهودية في فلسطين من خلال:

- موافقة السلطان العثماني

(1) حسان علي الحلاق: موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية، (1897 - 1909) دار الهدى، القدس 1990، ص88 ، ص 119.

- الأموال اليهودية
- تأييد الدول الصليبية الكبرى

ولكن السلطانَ عبد الحميد الثاني الذي كان قد اتخذَ قرارَه في ذلك الشأن لم يردّ على رسالة هرتزل.

5. وعلى الرغم من أنّ القوانين التي أصدرتها الدولةُ العثمانيةُ في تشرين الثاني (نوفمبر) (1900م) والمتعلقةِ بالزوارِ اليهود للأراضي المقدسة، كانت تأكيدًا لسريانِ قرار (1887م) فقد ثارت ثائرةُ اليهود، واحتجت تبعًا لذلك بعضُ الدول الصليبية الأوروبية كبريطانيا وإيطاليا، بالإضافة إلى أمريكا.
6. واصلَ هرتزل جهودَه الحثيثة لمقابلةِ السلطان عبد الحميد الثاني، وقَبِلَ السلطانُ الاجتماعَ بهرتزل بصفته صحفيـًا يهوديا بارزًا، وليس بصفتِه رئيسًا للمنظمة الصهيونية العالمية، وتم ذلك في 8 أيار (مايو) (1901) وطلبَ منه السماحَ بإنشاءِ وطنٍ قوميٍّ لليهود (ملجأ لليهود)[1] في فلسطين، وعرضَ عليه مقابلَ ذلك عدةَ عروضٍ كانت تتركزُ حول النقاط الآتية:

- إنشاء دولةٍ يهوديةٍ في فلسطين سيساعدُ في القضاء على الحركاتِ والأحزاب السياسية، وبالذات القوميةَ منها، وعرض على سبيل المثال وساطتَه لإيقافِ حملات صحفِ تركيا الفتاة في الدولِ الصليبية الأوروبية.
- استعداد اليهودِ لتقديمِ خِدماتٍ ماليةٍ لإصلاحِ الاقتصادِ العثماني وتسديدِ الديون العمومية.

(1) كان هرتزل يتلاعب بالألفاظ، ويكتفي أحيانًا بألفاظ غامضة، وذلك ليخفي حقيقة أغراضه فكان يتكلّم مرة عن الدولة اليهودية في فلسطين، ومرة أخرى عن وطن قومي لليهود في فلسطين، وثالثة عن الكيان الصهيوني في فلسطين وما إلى ذلك.

- هبة شخصية للسلطانِ مقدارُها مئةٌ وخمسون مليون ليرة عثمانية ذهبًا... نعم، ذهبًا.

وعلى الرغم من تلك المغريات، فإنّ السلطانَ عبدَ الحميد الثاني رفضَ المشروعَ، وقال لهرتزل في ذلك الاجتماع: «إنّ بلادَنا التي حصلنا على كلّ شبرٍ منها ببذل دماء الأجداد، لا يمكن أن نفرّطَ بشبرٍ منها دون أن نبذلَ أكثرَ ممّا بذلناه من دماء في سبيلها، إنّي أحبّ تطبيقَ العدالة والمساواة على جميعِ المواطنين، ولكن إقامةُ دولةٍ يهوديةٍ في فلسطين التي فتحناها بدماءِ أجدادِنا العظام، فلا...»[1].

7. وفي محاولةٍ أخرى سافرَ هرتزل للمرة الرابعة إلى إستنبول في 12 شباط (فبراير) (1902) ولكنّه لم يستطع مقابلةَ السلطانِ عبد الحميد الثاني، ولم يحصل على شيءٍ يدعمُ مشروعَه، ولقناعة هرتزل بأنّ الضربَ على وترِ المادة (المال) قد يكونُ العاملَ الوحيدَ المؤثرَ في دولةٍ مترديةِ الأوضاع من الناحية الاقتصادية، كتبَ إلى السلطانِ عبد الحميد لإغرائِه بعروضٍ مالية جديدة، فقرّرَ السلطانُ رفضَ تلك العروضِ المالية الجديدة، وقطعَ أيَّ اتّصالٍ بهرتزل نهائيًّا[2].

8. وفي 2 مايو (1902) أرسلَ هرتزل مذكرةٍ إلى السلطانِ عبد الحميد الثاني يعرِضُ فيها إنشاءَ جامعةٍ عبريةٍ في القدس، وأحاط العرضَ بالعديد من الإغراءات، ولكنّ السلطانَ رفضَ المشروع جملةً وتفصيلًا، لاعتقاده أنّ فيه تمكينًا للحركةِ الصهيونيةِ في فلسطين، ولم يردّ على هرتزل[3].

9. وعلى الرغم من ذلك الموقفِ العثمانيِّ الواضح، فإنّ هرتزل استمرَّ في توسيطِ

(1) عبد العزيز الشناوي: الدولة العثمانية، دولة إسلامية مفترى عليها، ج1 ص 184، 193.

(2) الشناوي: المصدر السابق، ص 184 وغيرها.

(3) الشناوي: المصدر السابق، ص 186.

العديد من الشخصياتِ كالإيطاليين على سبيلِ المثال؛ لإقناعِ السلطانِ بالعدول عن موقفه، ولكن السلطانَ ظلَّ على موقفِه المعارضِ للحركةِ الصهيونية، والرافضِ تحقيقَ مشروعِها في فلسطين، وأفهمَ وسطاءَ هرتزل أن يبلغوه: «انصحوا الدكتور هرتزل بألا يتخذَ خطواتٍ جديدةً في هذا الموضوع، فإني لا أستطيعُ أن أتخلّى عن شبرٍ واحدٍ من أرضِ فلسطين، فهي ليست ملكَ يميني، بل ملكُ شعبي، ولقد قاتلَ شعبي في سبيلِ هذه الأرض ورواها بدمه، فليحتفظِ اليهودُ بملايينهم، وإذا مُزقت إمبراطوريتي فلعلهم يستطيعون آنذاك أن يأخذوا فلسطينَ بلا ثمنٍ، ولكن يجبُ أن يبدأ ذلك التمزيقُ أولًا في جثتنا. إني لا أستطيعُ الموافقةَ على تشريحِ أجسادِنا ونحن على قيد الحياة»[1].

المرحلة الثالثة: ما بعد هرتزل (1904-1909):

وهي المرحلةُ الواقعةُ ما بين موتِ هرتزل في 16 أيار (مايو) (1904) إلى خلعِ السلطانِ عبد الحميد الثاني عن الحكم عام 1909؛ ففي تلك المرحلةِ حدثت مساعٍ حثيثةٌ لإغراءِ السلطان عبد الحميد الثاني بالمال، وكانت جميعُها تضربُ على وترِ المادة، ولكن السلطان أفشلَ جميعَ تلك المساعي والمؤامرات، وشدّدَ على ضرورةِ الرقابة على اليهودِ في فلسطين، وأصدرَ قراراتٍ متتاليةً وفراماناتٍ أكثرَ فعالية، وطلبَ كذلك الاهتمامَ بالنواحي الدينية والاجتماعية والاقتصادية ببيت المقدس.

(1) لم نكرّر ما سبق إيراده، فهذا الرد للسلطان عبد الجميد الثاني في عام 1904 يشبه حتى في كلماته رد عام (1896) الذي سبق وأن أوردناه، وهذا يدل على الموقف الثابت والمبدئي للسلطان عبد الحميد الثاني –رحمه الله– تجاه الأطماع اليهودية الصهيونية في بيت المقدس.

وعلى الرغم من أنّ دولةَ الخلافةِ الإسلامية العثمانية لم يكن بإمكانِها أن تخوضَ ذلك الصراعَ الاقتصاديَّ والسياسيَّ ضدّ الحركةِ الصهيونية والدول الصليبية، في وقتٍ لم تعدِ الدولة ذاتَ وزنٍ سياسيٍّ وديني وثقلٍ عسكري كالذي كانت عليه في عهدِ سلاطين الفترةِ الأولى، كالسلطانِ سليم الأول ومَن تلاه، فدولةُ الخلافةِ أصيبت بالتدهور في مواجهةِ الزحف الصليبي الأوروبي على ممتلكاتها، على الرغمِ من كلّ ذلك، فقدِ استطاعتِ الدولةُ العثمانيةُ أن تعملَ، وفي حدود إمكاناتِها ضمن إطارين:

- ❖ الرفضُ التامُّ والمطلق لتلك العروض والإغراءات.
- ❖ إصدارُ فراماناتٍ وقوانينَ متلاحقةٍ ومتعددة، وذلك بهدف عدم تمكين اليهود من إيجاد الشروط الواجب توفرها في كيانهم الذي يسعون لإقامته، وذلك من خلال: الحدِّ من هجرةِ اليهودِ لفلسطين، ومنعِ دخولِ اليهودِ الأجانبِ إلى فلسطين إلّا للزيارةِ الدينية، ومنعِ اليهودِ من شراءِ الأراضي في فلسطين.

انتصار الخرافة على الخلافة:

لقد سلطنا الضوءَ قدرَ المتاحِ في المبحثِ السابق على السياسةِ المعارضة التي انتهجَها السلطانُ عبدُ الحميد الثاني للذودِ عنِ المسجدِ الأقصى وبيتِ المقدس ضدّ الصهيونية العالمية العلمانيةِ واليهوديةِ الدينيةِ الدنيئةِ اللتَين كانتا تسعيان إلى إقامةِ كيانِ الخرافةِ في بيتِ المقدس، وذلك لهدمِ المسجدِ الأقصى وإقامةِ الهيكلِ المزعومِ، لكن سياسةَ الخليفةِ ودولة الخلافةِ تعرضت إلى جملةِ عواملَ أسهمت في الحدِّ من فاعليتها، ممّا أدّى في نهايةِ المطاف إلى انتصار الخرافةِ اليهودية على دولةِ الخلافة الإسلامية، فضاعَ بيتُ المقدس، واقترب موعدُ هدم الأقصى.

حدثَ ذلك عندما أدركَ زعماءُ اليهودِ والحركة الصهيونية ضرورةَ التخلصِ من الخليفةِ عبد الحميد الثاني، ذلك لأنّ وجودَه على رأسِ دولةِ الخلافةِ هو العقبةُ الرئيسةُ التي تحولُ دون تحقيقِ أهدافِهم في بيتِ المقدس، وقد عبّرَ هرتزل عن ذلك بقوله: «إنّي أعقدُ الأملَ في تحقيقِ أماني اليهودِ في فلسطين، وأنّ اليهودَ لن يستطيعوا دخولَ الأرضِ الموعودةِ ما دام السلطانُ عبدُ الحميد قائمًا في الحكمِ مستمرًّا فيه»[1].

وهكذا بدأتِ الحركةُ الصهيونيةُ تعدُّ العدةَ للتخلصِ من السلطان، واستبدال حكمه بحكمِ ولاةِ الشيطان، وقد استندوا بذلك إلى أطرافٍ ثلاثةٍ تلاقت مصالحُها مع مصالحِ الحركةِ الصهيونية في هدفٍ واحد، ولكن لكلٍّ منها أسبابٌ تختلفُ عن أسبابِ الآخر، وهم: يهودُ الدولةِ العثمانية ولا سيما الدونمة[2]، والجماعاتُ المعارضة لحكم السلطان عبد الحميد، والدولُ الصليبية الطامعة في أراضي دولة الخلافة الإسلامية.

وهكذا بدأتِ الحركةُ الصهيونية بالتعاون مع يهود الدونمة بالتخطيطِ للإطاحةِ بحكمِ الخليفة عبد الحميد الثاني، مستفيدةً من الحركاتِ والجمعياتِ المناوئة لحكمه، التي بدأت تنمو وتنتظمُ خارجَ حدودِ دولة الخلافة العثمانية وداخلَها، ولا سيما جمعية الاتحاد والترقي - اللجنة التنفيذية- لتنظيمٍ أوسعَ يسمى تركيا الفتاة أو الشبان الأتراك[3].

كما بدأت بالتعاونِ مع الدولِ الصليبيةِ الاستعمارية التي ساءتها سياسةُ الخليفةِ

(1) محمد حرب عبد الحميد: مذكرات السلطان عبد الحميد، ص12.

(2) أتينا على تعريفهم والحديث عنهم في سياق الفصل السابق.

(3) للتفصيل بشأن جمعية الاتحاد والترقي، وتركيا الفتاة انظر:

Feroz Ahmad: The Young Turks: The Committee of Union and Progress in Turkish polities, 1908–14-1914. xiii, 205 pp. Oxford: Clarendon Press, 1969. 50s 1.

الداخليةُ والخارجية، مثل تبنيهِ شعارَ الجامعة الإسلامية، وتقاربُه مع ألمانيا وموقفُه من الدستوريين وسياستُه تجاه الأرمن، وكانت بريطانيا أقربَ المرشحين الصليبيين لأن تتشرّفَ بخلعِ الخليفة، إذ إنّها تملك حقدًا صليبيًّا دفينًا ضد الإسلامِ والمسلمين في الهند، وفي مصرَ، وغيرها من دويلاتِ الخلافةِ الإسلامية العثمانية التي استولت عليها بريطانيا الصليبيةُ من دولة الخلافة، وتسعى في الوقتِ ذاتِه للاستيلاءِ على ما أمكنَها من أراضٍ وأملاكٍ لدولة الخلافة.

وقد رافق هذا النشاطَ حملةٌ دعائيةٌ صهيونيةٌ واسعةٌ ضد الخليفة، هدفُها تهيئةُ الأذهانِ للقيامِ بالثورةِ من جانبٍ، واستمالةُ ضباطِ الجيشِ العثمانيِّ للانخراطِ في صفوفِ المحافلِ الماسونية، التي تديرُها وتشرفُ عليها الأجهزةُ الصهيونية من جانبٍ آخر، وكانت هذه الحملةُ تنطقُ بعباراتٍ، مثل: «لا حريةَ في الدولة العثمانية»، «الاستبدادُ يخيم عليها»، «السلطان يفتك بالعناصر المثقفة ويرميهم من نوافذِ قصره إلى البوسفور»[1]. وهنا وجبَ التطرقُ للماسونية وعلاقتها بالحركةِ الصهيونية، حيث أدّتِ المحافلُ الماسونية[2] الدورَ الأكبرَ في التخطيط للانقلابِ الذي أطاحَ بالخليفةِ لِما عُرف عنها من سريةٍ وكتمانٍ، وحسنِ تنظيم.

كانت مدينةُ سلانيك عقدَ الصلة بين هذه الأطرافِ ومعقلَ حركةِ المعارضة ضد السلطانِ عبد الحميد الثاني، وتمّ اختيارُها لأسبابٍ عدّة منها: أنّ سيطرةَ الخليفة فيها

---

(1) جواد رفعت أتيلخان: أسرار الماسونية، ترجمة نور الدين الواعظ وسليمان محمد أمين القابلي، بغداد (بلا) 1376 هجري، 1957م، ص 231.

(2) الماسونية: حركة سرية يختلف المؤرخون في تحديد طبيعتها وأهدافها وتاريخ ظهورها، تبنت شعار (حرية، إخاء، مساواة) فضمت الكثير في عضويتها، إلّا أنها في المدة التي نحن في صددها أخذت تعلن أهدافًا وشعارات لا تمت إلى الشعارات التي ترفعها بصلة، والمقصود بذلك تبنيها للمطامع الصهيونية القائلة بإحياء آمال اليهود الخرافية في بيت المقدس والمسجد الأقصى.

كانت أضعفَ من سيطرتِه في العاصمة، وفاعليةَ رقابتِه على المطبوعاتِ فيها أقلُّ بسببِ الحمايةِ الأجنبية التي كانت تتمتّعُ بها، والاتصالَ بالأفكارِ الأوروبية الصليبية واليهودية أسهلُ فيها مِن غيرها، وبسببِ تمركزِ وحداتِ الجيش الثالث الذي انخرطَ الكثيرُ من ضباطِه وجنودِه بحركةِ المعارضة فيها، وفوق هذا وذاك لانتشارِ المحافلِ الماسونية، ووجودِ طائفةٍ يهودية كبيرة فيها[1].

وعندما فَتحت جمعيةُ الاتحاد والترقي فرعًا لها فيها في عام 1906م حصلت على دعمٍ كبير من يهود الدونمة، بواسطةِ محافل المدينة، لا سيما محفلَ (مقدونيا ريزورتا) إذ حصلَ اليهوديُّ الماسوني عمانوئيل قرة صو[2] على ترخيصٍ لعقدِ اجتماعاتِ الجمعية في محفله، فأصبحَ أعضاءُ هذه الجمعية من الماسون بينما كان قرة صو منهمكًا في تكوينِ اللجانِ الداخلية للجمعية[3]. وتأتي أهميةُ الإشارة إلى المحافلِ الماسونية من علاقتِها الوثيقةِ باليهود والحركةِ الصهيونية من ناحيةِ التركيب الداخلي، ومن ناحيةِ الأهداف السياسية أيضًا، لا سيما في الحقبةِ التي نحن بصددها، إذ تؤكدُ معظمُ المصادرِ التي تناولت تأريخَ الجمعياتِ السرية أنّ الماسونيةَ تمثلُ الفكرَ الصهيوني، وأنّها تحملُ الصبغةَ النفسية ليهودِ شريعة الغاب في جميعِ أهدافها وحركاتها، ولو أردنا بيانَ الرابطة الوثقى بين الماسونيةِ واليهودية فيكفي أن نشيرَ إلى أنّ كثيرًا من الرتبِ والطقوس الماسونية تنبعثُ رائحتها من اليهودية، ومعظمُها يشير إلى عاداتٍ يهودية وأخبارٍ يهودية وألفاظٍ يهودية وغاياتٍ يهودية، وأنّ معظمَ زعماء

---

(1) كان عدد اليهود في سلانيك عام 1908 نحو 80 ألف يهودي من مجموع سكّان المدينة البالغ 173 ألفا، انظر: German-Turkish-Zionism.p.147friedman.

(2) عمانويل قرة صو (1862-1934) محام يهودي وهو واحد من الثلاثة الذين أبلغوا السلطان عبد الحميد نبأ عزله عن الخلافة، وانتصار الخرافة.

(3) رامزور: تركيا الفتاة، ص200-201.

الماسونية -ولا سيما الخفيون منهم- من اليهود، وأنّ الأمورَ التي تسعى إلى تحقيقِها الدولُ المنقادة إلى الماسون هي أمورق طالما دافعَ عنها اليهود... أتباعُ شريعة الغاب.

لقد كان السلطانُ عبد الحميد الثاني مدركًا لحقيقةِ العلاقةِ بين الماسونيةِ والصهيونية والدولِ الصليبية، وجاء في مذكراته: «لقد انتظمَ يهودُ العالم وسعَوا عبر المحافلِ الماسونية للحصول على الأرضِ الموعودة، وجاؤوا إليّ بعد مدّةٍ وطلبوا مني أرضًا لتوطينِ اليهود في فلسطين، مقابلَ أموالٍ طائلة، ورفضتُ مطلبَهم بالطبع»(1).

وفي مناسبةٍ أخرى وصفَ الماسونية بأنّها: «منظمةٌ سرية تهدفُ لإفسادِ العالم وتدميره وتنشيطِ رؤوسِ الأموال اليهودية، والأشدُّ من هذا أنّها تخدمُ اليهودية، وتتسترُ خلف الشعاراتِ البرّاقة، مثل الأخوّة والإنسانية والحرية، وهي تعملُ بتخطيطٍ من اليهود لإفسادِ العقائد والأخلاق، وهدفُها نزعُ الإيمانِ من القلوب، ونزعُ محبّةِ الله والرسول من النفوس، هذه هي الماسونية، أخبثُ أنواعِ الجماعاتِ وألعنُها، وهناك نقطةٌ مهمةٌ يجب ملاحظتُها، هي أنّ هذه المنظمةَ مسيطرةٌ على العالمِ بشكلٍ علنيٍّ أو بشكلٍ سرّي في الخفاء، خلفَ الكواليس، وقد تتحرّكُ ضدّنا بخبث»(2). على هذا الأساس قرّرَ السلطانُ عبد الحميد الثاني -رحمه الله- في عام 1894 إغلاقَ جميعِ المحافل الماسونية في دولةِ الخلافة العثمانية، لكنه لم يتمكنُ من إغلاقِ محافلِ مدينة سلانيك لارتباطاتها الدوليةِ مع محافلِ أوروبا الصليبية، لا سيما بريطانيا وفرنسا وإيطاليا(3).

---

(1) محمد حرب عبد الحميد: مذكرات السلطان عبد الحميد، ص 65.

(2) قيصة كورك: السلطان عبد الحميد خان الثاني واليهود، ص 14 - 20.

(3) حسان الحلاق: دور اليهود والقوى الدولية في خلع السلطان عبد الحميد الثاني عن العرش (1908 - 1909) ص 40.

وكان السلطانُ عبد الحميد عارفًا بدور يهودِ الدونمة في المؤامراتِ التي تُحاك ضد دولةِ الخلافة، وقيل إنّ السلطانَ كان حذرًا ومتردّدًا وغيرَ قادر على القيامِ بعملٍ ضدّهم، فقد ذكرَ أحدُ المقربين من السلطانِ آنذاك أنّ: «السلطانَ عبد الحميد كان يعلمُ بحقيقة أنّ يهودِ الدونمة كانوا أعضاءَ نشيطين في الحركةِ ضده، ولكنه كان متردّدًا في اتّخاذِ قرارٍ ضدّهم بسببِ تاريخهم القريب الذي سبّبَ له خوفًا وهميًّا منهم»[1].

رغم كلّ تلك المعرفةِ وعمقِ الإدراكِ إلّا أنّ الخرافةَ انتصرت على الخلافةِ، ففي حوالي منتصف عام 1908 وعندما توفرت للصهاينةِ وأعوانهم القوةُ، بدؤوا تنفيذَ مخطّطهم لإضعافِ دولةِ الخلافة العثمانية، فأعلنوا في تموز 1908 الدستورَ من جانبهم في مدينةِ سلانيك اليهودية، الماسونية، الصهيونية، معقلَ يهود الدونمة، ثمّ كتبوا للسلطانِ عبدِ الحميد الثاني يطالبونه بإقرارِهم على ذلك، وبإعلانِ عودةِ الدستور، وهددوه بالزحفِ إلى عاصمة الخلافة الإسلامية إذا لم يفعل ذلك، وقد أوعزَ الاتحاديون في الوقتِ نفسه إلى عددٍ من الطوائف في عدد منَ المدن، مثل أسكوب ومناستين[2]، أن يطالبوا السلطانَ بمثلِ ذلك، وبأن يهدّدوه، فما كان من السلطانِ إلّا أن رضخَ، فأعلن الدستورَ ودعا إلى انتخاباتٍ نيابيةٍ في جميعِ ولاياتِ دولةِ الخلافة العثمانية بتاريخ 24 تموز 1908م.

وعلى الرغم ممّا قام به السلطانُ إلّا أنّهم عندما استوتِ القوة في أيديهم كشفوا عن حقيقتِهم وأهدافهم؛ ففي إبريل (1909) تحركت قواتُهم العسكرية من معقلِ

(1) رامزور: تركيا الفتاة، ص 194 – 195.

(2) هذه المدن جزء من يوغسلافيا حاليا واسمها سكوبلياوبيتوليي.

اليهودِ في مدينة سلانيك بقيادةِ حسين حسني ومعه مصطفى كمال رئيسًا لأركانِ الحرب، وهكذا استطاعَ محمد شوكت باشا أن يحتلَّ العاصمةَ بعد مناوشةٍ يسيرة، وحوادثَ مفتعلةٍ مدبرة، وما إن استتبَّ لهمُ الأمنُ في العاصمة المحتلة، دعا الاتحاديون إلى اجتماعِ مجلس النواب والشيوخِ وقرّروا خلعَ الخليفة عبد الحميد الثاني عن عرشِ الخلافة، بعد أن تمَّ استصدارُ فتوى ممّن خان اللهَ ورسوله وخليفةَ المسلمين (شيخ الإسلام) -والإسلامُ منه براء- محمّد ضياء الدين تجيز ذلك(1)، واختيرَ الصدرُ الأعظم أحمد توفيق باشا لإبلاغِ السلطان بقرارِ المجلس، لكنه اعتذرَ فانتَخب الاتحاديون وفدًا برئاسة عارف حكمت باشا، وعضويةِ كلٍّ من أسعد باشا صوبتاني وغالب باشا(2)، وآرام أفندي، ومن زعماءِ الصهاينة عمانوئيل قرة صرة(3).

دخلَ الوفدُ مع الأميرِ غالب باشا إلى الخليفةِ الذي كان واقفًا، فبادرَه أسعد بالقول: «لقد أتينا من مجلسِ المبعوثان، وهناك فتوى شرعيةٌ شريفة، لقد عزلَتك الأمة، ولكنّ حياتَك في أمان»(4).

فأجاب الخليفة عبد الحميد الثاني: «ذلك تقديرُ العزيزِ العليم»، وأضاف: «لقد أمسكتُ إدارةَ البلادِ بخيطٍ أرفعَ من خيطِ القطن مدّة ثلاثٍ وثلاثين سنة، دون أن ينفصمَ قدرَ الإمكان، أتمنى لكم النجاحَ أكثرَ مني، واعلموا أنّ المسؤوليةَ التي

(1) إلاّ أنّنا وجدنا أنّ آرنست رامزور يعتبر شيخ الإسلام، نفسه مشتركًا في المؤامرة، لا سيما وأنّ كثيرًا من علماء الدين الخونة كانوا أعضاء في جمعية الاتحاد والترقي، انظر: تركيا الفتاة، ص 175.

(2) لم نقف على ترجمة دقيقة له، وربما يكون المقصود والي دمشق خلال (1911-1912).

(3) يقول جون هاسفي عن الوفد: «ومن أصل الرجال الأربعة الذين انتدبوا لإبلاغ السلطان قرار خلعه، لم يكن هناك واحد من أصل تركي صرف، لقد كانوا خليطًا من اليهود واليونان والأرمن «انظر السلطان الأحمر، ص 329، وبالطبع كلهم من الحاقدين على الإسلام والمسلمين حتى يومنا هذا».

(4) Me cullagh The Fall Of Abdul-Hamid. P.269

تحملتموها ثقيلةٌ جدًّا»[1].

ثمّ ألقى الخليفة نظرةَ ازدراءٍ واحتقارٍ إلى الماسونيِّ الصهيوني اليهودي، خادمِ شريعة الغاب (قرة صو)، وخاطب الوفدَ بإيجازٍ وحدّةٍ عبَرت عن المرارة التي شعرَ بها السلطانُ عبد الحميد، قائلاً: «ما هو عملُ هذا اليهوديِّ في مقام الخلافة؟ ما هو عمل هذا اليهودي في مقام الخلافة؟ بأي قصدٍ جئتم بهذا الرجل أمامي؟ كيف تتركون هذا اليهوديَّ يمثّل الأمةَ الإسلامية؟ ألا يوجد بين المسلمين من يقولُ لخليفة المسلمين لقد عزلتك الأمة؟ أأنتم تعملون الانقلابَ أمِ اليهود... أم اليهود؟»[2].

وتهدّجَ صوته وهو يوجّه آخرَ كلماتِه إلى ابن اليهودية قرة صو: «عندما جئتَ تطلبُ مني أن أعطيَكم فلسطين وطنًا لليهودِ وطردتك، قلت لك أنك تنظرُ إليّ كمَن سيحاسبني في يومٍ من الأيام... لقد هيأوا لك ذلك اليومَ، أعرف هذا جيدًا، إنه ردّ على طلبِ شبرِ أرضٍ لم أُعطه لكم... لن أترككم تحلمون بأن تجعلوا كلَّ الوطنِ الإسلامي أرضًا يهودية»[3].

يعلّق أحد الباحثين على ما أسماه موقفَ الشماتة فيقول: «وإنّه لمنظرٌ مليءٌ بالشماتة والحقد أن يخلعَ سلطانُ الدولةِ العثمانية وخليفة المسلمين، وأن يحملَ

---

(1) أتيلخان: الخطر المحيط بالإسلام، ص 143.

(2) قيصة كورك: السلطان عبد الحميد خان الثاني واليهود، ص 66، 67.

(3) لقد كان وجود هذا اليهودي في وفد خلع السلطان أمرًا يحزّ في نفس السلطان وقلبه، لذلك وبعد مرور خمسة أعوام على الحادثة، وهو في عزلته الإجبارية، استدعى أنور باشا، الذي كان نائب القائد العام ليحادثه ولينصحه حيث قال السلطان له: «إن ما آلمني وحزّ في نفسي قيامكم بإرسال شخص سبق أن طردته من حضوري ضمن الوفد الذي أبلغني قرار خلعي من السلطنة، هذا الشخص هو عمانوئيل قرة صو، فلماذا واجهتموني بذلك اليهودي؟ لقد كان إرسال ذلك اليهودي تحقيرًا منكم لمقام الخلافة ولمقام السلطنة، إنّ ركنا من أركان الخلافة العثمانية التي انتقلت من عهد الرسول -صلّى الله عليه وسلّم- بكل احترام قد تضعضع بقيام مثل هذا اليهودي -الذي كان أستاذًا أعظم للمحفل الماسوني في سلانيك- بمثل هذا التبليغ». مقتبس من: أورجان محمد علي، السلطان عبد الحميد الثاني، ص 343-344.

بلاغَ العزل أحدُ أبناء اليهود الذين حَرَّمَ عليهم فلسطين»[1]. في حين يعدُّ باحثٌ آخرُ مجيءَ قرة صو -ضمنَ الوفد الذي أبلغَ السلطانَ قرارَ الخلع- أكبرَ دليلٍ على اليدِ الطولى لليهود في خلع السلطان[2].

وهكذا عُزل السلطانُ عبد الحميد الثاني عن عرشِ الخلافة في يوم الثلاثاء 27 نيسان (أبريل) (1909) وتقرّرَ نفيُه إلى مدينة سلانيك، معقلِ يهود الدونمة ومركزِ الماسونية الرئيسِ في دولة الخلافة، وليست مصادفة أن تُختار لإقامته الجبرية فيلا ألاتيني، وهي دارٌ لأحدِ المرابين اليهود، ويعيَّن أحد اليهود الماسون حارسًا على خليفة المسلمين، في هذا المكانِ قضى عبدُ الحميد نحو ثلاثة أعوام (1909-1902) معزولًا عن العالم، لا يتصل بأحد، ولا يتصلُ به أحد، ثم نقل إلى قصر بيلربي.

وأثناء وجودِه فيه اندلعتِ الحربُ العالمية الأولى، قضى الخليفةُ عبد الحميد بقيةَ أيامه في هذا القصر، أي نحوَ خمسة أعوام، وثلاثةِ أشهر، وخلالَ وجودِه في سلانيك وبيلربي دوّنَ الخليفة مذكراتِه ورسائله، ومن بين أهمّ تلك الوثائق التي عُثِرَ عليها رسالتُه إلى شيخه في الطريقة الشاذلية محمود أبي الشامات اليشرطي، التي ذكرَ فيها الأسبابَ التي دفعت جمعيةَ الاتحاد والترقي إلى خلعِه، وفي مقدمتها موقفُه الصلب لحماية المسجد الأقصى وبيتِ المقدس من خطر اليهود، والصهيونية[3]،

---

(1) عبد العزيز الشناوي: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، ج2، ط2، ص 1023 ، 1024.

(2) عيسى محمد الماضي: كيف ضاعت فلسطين... دراسة للمؤثرات الاقتصادية والثقافية والسياسية في ضياع فلسطين، الكويت، مكتبة المعلا، 1988م - ص 106.

(3) (هذه الرسالة موجودة لدى أسرة أبي الشامات في دمشق، وكان الخليفة عبد الحميد الثاني قد أرسلها في عام 1329 هجري، 1912م، إلى شيخه محمود أبي الشامات شيخ الطريقة الشاذلية اليشرطية في دمشق، وهو أوّل خليفة لصاحب الطريقة الشيخ علي اليشرطي الحيني المتوفي عام 1899، الذي كان يقيم في مدينة

وهذا هو نصُّ رسالةِ السلطان عبد الحميد الثاني إلى شيخه في الطريقة الشاذلية محمود أبي الشامات: بسم الله الرحمن الرحيم، وبه نستعين. الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتمُّ التسليم على سيدِنا محمد رسول رب العالمين وعلى آله وصحبه أجمعين والتابعين إلى يوم الدين. أرفعُ عريضَتي هذه إلى شيخِ الطريقة العلية الشاذلية، إلى مفيضِ الروح والحياة، وإلى شيخِ أهل عصرِه الشيخ محمود أفندي أبي الشامات، وأقبلُ يديه المباركتين راجيًا دعواتِه الصالحة، بعد تقديم احترامي أعرِضُ أنني تلقيتُ كتابَكم المؤرخ في 22 مارس من السنة الحالية، وحمدتُ المولى وشكرته أنكم بصحة وسلامة دائمتين.

سيدي، إنني بتوفيقِ الله -عزَّ وجل- مداومٌ على قراءةِ الأوراد الشاذلية ليلًا ونهارًا، وأعرفُ أنني مازلت محتاجا لدعواتكم القلبية بصورة دائمة.

بعد هذه المقدمة أعرض لرشادتكم وإلى أمثالكم أصحابِ السماحة والعقول السليمة المسألةَ المهمة الآتية كأمانةٍ في ذمةِ التاريخ:

عكّا ببيت المقدس، وقد وصلت هذه الرسالة إلى الشيخ محمود أبي الشامات عن طريق أحد المقربين من السلطان من مريدي الطريقة، وظلت هذه الوثيقة المهمة لتبيان ما نذهب إليه في بحثنا هذا محفوظة لدى ورثة الشيخ أبي الشامات إلى أن ترجمها إلى العربية مدير عام الأوقاف السوري الأسبق الشيخ أحمد القاسمي، الذي كان يتقن التركية والعربية.

وفيما يتصل بصحة الوثيقة يقول الدكتور حسان علي حلاق، بأنّ صحة الوثيقة قد تحققت لديه بالمقارنة مع الأحداث المعاصرة والتقارير الأجنبية التي أسهمت في التحدث عن علاقة السلطان بالاتحاديين، والأهم من ذلك كله أنّه ثبت لديه ذلك بعد الاستعانة بخبير خط (إذ كانت هذه الرسالة مكتوبة بخط يده، أو في الأقل بخط كاتبه) بعد مقارنتها بمجموعة من كتاباته وفي مقدمتها مذكراته الموجود قسم منها بخط يده، وهي في حوزته (أي حلاق) يقول حلّاق: «وبالفعل فقد تأكّد لي بما لا يدع مجالًا للشك بأنّ السلطان كان من المنتسبين إلى الطريقة الشاذلية بواسطة الشيخ محمود أبي الشامات الذي سبق له أن سافر إلى العاصمة العثمانية، وهناك اجتمع بعلي رضا باشا وعرفه على الطريقة، وبواسطته انتسب إليها السلطان مع كبار وزرائه وموظفيه، وهذا ما تؤكّده السيدة فاطمة اليشرطية الحسينية، ابنة صاحب الطريقة علي اليشرطي في كتابها مواهب الحق ص13، وفي مقابلة خاصة أجريتها معها شخصيًّا في بيروت، بتاريخ 4 مارس (مايو) 1975؛ حلاق: دور اليهود والقوى الدولية ص 78 -79.

إنني لـم أتخلَّ عنِ الخلافةِ الإسلامية لسبب ما، سوى أنني بسببِ المضايقةِ من رؤساءِ جمعيةِ الاتحاد المعروفة باسم (جون تورك) وتهديدِهم اضطُررت وأُجبرتُ على ترك الخلافة... إن هؤلاء الاتحاديين قد أصرّوا وأصروا عليّ بأن أصادقَ على تأسيسِ وطنٍ قومي لليهود في الأرض المقدسة (فلسطين)، ورغم إصرارِهم لم أقبل بصورةٍ قطعية هذا التكليفَ، وأخيرًا وعدوا بتقديمِ 150 مئة وخمسين مليون ليرةً إنجليزية ذهبـًا، فرفضتُ هذا التكليفَ بصورةٍ قطعية أيضا، وأجبتُهم بهذا الجوابِ القطعي الآتي: «إنكم لو دفعتم ملءَ الأرض ذهبـًا -فضلاً عن 150 مليون ليرة إنجليزية ذهبًا فلن أقبلَ بتكليفِكم هذا بوجهٍ قطعيٍّ، لقد خدمتُ الملةَ الإسلامية والأمةَ المحمدية ما يزيدُ عن ثلاثين سنة، فلم أسوّد صحائفَ المسلمين آبائي وأجدادي من السلاطين والخلفاءِ العثمانيين، لهذا لن أقبلَ تكليفَكم بوجه قطعي أيضا. وبعد جوابي القطعيِّ اتفقوا على خلعي، وأبلغوني أنهم سيبُعِدونني إلى (سلانيك) فقبلتُ بهذا التكليف الأخير... هذا وحمدتُ المولى وأحمدُه أنني لم أقبل بأن ألطخَ الدولةَ العثمانية والعالمَ الإسلامي بهذا العارِ الأبديِّ الناشئِ عن تكليفهم بإقامةِ دولةٍ يهوديةٍ في الأراضي المقدسة (فلسطين)... وقد كان بعد ذلك ما كان، ولذا فإنني أكررُ الحمدَ والثناء على اللهِ المتعالي، وأعتقدُ أن ما عرضته كافٍ في هذا الموضوعِ المهم، وبه أختمُ رسالتي هذه. ألثمُ يديكم المباركتين، وأرجو واسترحِمُ أن تتفضلوا بقبولِ احترامي بسلامي على جميع الإخوان والأصدقاء.

يا أستاذي المعظم، لقد أطلتُ عليكم التحية، ولكن دفعني لهذه الإطالةِ أن نحيطَ سماحتَكم علمـًا، ونحيطُ جماعتكم بذلك علمًا أيضًا. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

في 22 أيلول 1329 / خادم المسلمين / عبد الحميد بن عبد المجيد

وقد سلّطَ الدكتور أنيس عبد الخالق محمود الضَّوءَ على رسالةِ السلطان عبد الحميد الثاني لشيخه، في دراستِه المتميزة والتي حملت عنوانَ «السلطان عبد الحميد الثاني والأطماع الصهيونية (1876-1909)»، حيث كتب معلّقًا: «يبدو أنّ هدفَ السلطانِ من توجيه مثلِ هذه الرسالةِ إلى شيخه كان لغرضِ إثارةِ رجال الدين (نظرًا لما لهذه الفئةِ الدينيةِ من تأثيرٍ كبيرٍ في نفوسِ الشعب يومَذاك) بشأنِ نقطةٍ حساسةٍ جدًا عند الناس، وهي متعلقةٌ بقدسية فلسطين، فتموتَ فكرةُ الوطن اليهودي في مهدِها بعد تنبهِ الجماهير لها. وربما كان هدفُه توعيةَ الجيش، الذي ساقه الاتحاديون وأوهموه بأنهم إنما يحاربون (الاستبداد الحميدي) بحقيقةِ الاتحاديين، فيثور ويتمردُ عليهم. ولكن الشيخَ أبو الشامات وجماعته لم يكونوا من الوعيِ والشعور وبُعد النظرِ مثلما كان السلطان، فأبقى رسالتَه محفوظة سرًا لديه، ولم يطلِعها إلا للثقاةِ من أصحابه، وربما كان للاستبدادِ والإرهاب الذي أقامَه الاتحاديون في هذه المرحلةِ أثرٌ في عدم كشف الرسالة»[1].

بهذه الكلمات نطوي هذا المبحثَ، وصفحةَ الخلافة الإسلامية والخليفة عبد الحميد الثاني، لنفتحَ صفحةَ انتصار الخرافة، عبرَ الفصلِ القادم ومباحثه، لعلنا نتمكنُ من إثباتِ كونِ صراعنا مع اليهود هو صراعُ وجودٍ لا صراعَ حدود، هو صراعٌ ديني، ذلك أنّ أرضَ بيتِ المقدس التي يعلو تاجَها المسجدُ الأقصى، حيث بوابةُ السماء، أرضُ صراعِ حقٍّ ربانيٍّ إسلاميٍّ ضد باطلٍ شيطاني يهودي، صراعِ الشريعة الإسلامية ضد شريعةِ الغاب اليهودية، لذلك فهو صراعٌ ممتدٌّ إلى يوم الدين، وكلُّ مَن يسعى

(1) أنيس محمود: السلطان عبد الحميد الثاني والأطماع الصهيونية في فلسطين (1876 – 1909) ص 338 وغيرها.

من حكّام إلى فصلِ الدين عن هذا الصراع، إلى فصلِ الدينِ عن السياسة، فهو يسعى إلى تأييدِ الاحتلالِ اليهودي الصهيوني لبيتِ المقدس والمسجدِ الأقصى، حيث غدا بفعلِه الآثم هذا (غرقديًا)[1] لا همَّ له إلاّ حمايةُ أسيادِه يهودِ شريعة الغاب، تمامًا كما شجرُ الغرقد؛ قال رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم-: «لا تقومُ الساعةُ حتى يقاتلَ المسلمون اليهودَ، فيقتلُهم المسلمون، حتى يختبيءَ اليهوديُّ من وراءِ الحجرِ والشجرِ، فيقولُ الحجرُ أو الشجرُ: يا مسلمُ يا عبدَ اللهِ هذا يهوديٌّ خلفي، فتعالَ فاقْتلْه. إلا الغَرْقَدَ فإنه من شجرِ اليهودِ»[2]، هذا الحديثُ الشريفُ المتّفق عليه سيتحقّقُ بإذن الله -سبحانه وتعالى- لتعودَ فلسطين وبيتُ المقدس حرةً إسلامية، أقولها ونحن بأشدِّ حالاتِ الضعف، أقولها جازمًا كما كنا نجزمُ أنّ القسطنطينيةّ سيفتحها المسلمون العثمانيون، فغدت عاصمةَ دارِ الخلافةِ لأعوامٍ طويلةٍ وآمادٍ طويلة، كما أخبرَنا بذلك الصادق المعصومُ -عليه الصلاة والسلام-.

---

(1) لفهم القصود بغرقدي يرجى النظر في كتاب عقيدة الغراقدة للكاتب عبد الله البرغوثي، فالكاتب يؤمن أنّ هناك غرقدًا شجرًا، وغرقدًا بشرًا.

(2) الحديث أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير، باب فناء اليهود، انظر فتح الباري 6 / 121 أخرجه مسلم في كتاب الفتن.

٦

الفصلُ السادس

أرضُ الخرافةِ وشريعةِ الغاب

المبحث الأول: أرض الخرافة... وخرافة الوعد

الإسلام واليهودية والنصرانية كلّها كانت شرائعَ توحيدٍ ربانيةً في البدء، إلّا أنّ سنةَ الله -عزَّ وجل- في خلقه قد جرت بقانونٍ كان ولا يزال عاملًا وفاعلًا في تطورِ الأمم والحضارات والأفكار والعقائد، وهذا التطور قد لا يكون عبرَ التقدم إلى الأمامِ حيث الارتقاءُ والسمو الفكري العقائدي الصحيح، فنحن نجد أنّ هذا التطورَ على صعيد العقيدة والاعتقاد والتوحيد عند اليهود والنصارى كان بمثابة الردةِ إلى الجاهلية، حيث الكفرُ البواح، فحوّلوا الشريعةَ الربانية إلى شرائعَ كهنوتيةٍ بشرية شيطانية كفرية.

فمع مرورِ الأعوام والقرون والأحقاب ما فتئَ اليهودُ والنصارى أن يضيفوا إلى دينِ اللهِ الحقّ وشريعته المنزلة والمنزهة من البدعِ والزياداتِ والخرافاتِ الكفرية؛ ما قطعَ كلَّ الصلة بين اليهودية والنصرانية وبين جوهرهما وتصوّرهما للذاتِ الإلهية. صحيحٌ أنّ اليهودَ في شريعة غابهم الخرافية لا يعترفون ولا يؤمنون بالتثليث الذي حوّلَ الشريعة الربانية التي دعا إليها عيسى بن مريم -نبي الله- إلى شريعةِ الشرك باللهِ، حيث الخرّفُ والخرافةُ، عبر ما ذهبوا إليه من التجسيدِ والاتحادِ والحلول، إلّا أنّ يهودَ شريعة الغاب وكعادتهم قد تفوقوا على النصارى بذلك التعصبِ الذي ميزَ اليهودَ وكهنتهم وحاخاماتِهم وأحبارهم على مرِّ التاريخ المظلم والمضلل الذي أفسدَ شريعتهم وتصوراتهم الدينية، فانسلخوا بذلك عن عقيدةِ التوحيد وشرع الله، فتعصُّبُ اليهودِ الأعمى واستعلاؤُهم المقيتُ وكراهيتهم للآخرين جعلتهم لا

يبشرون ولا يدعون أحدًا لشريعة الغاب اليهودية خاصتهم، ذلك أنّهم يكرهون الآخرين، ويضِنُّون عليهم بما يحسبونه امتيازًا خصهم به الله -عزَّ وجلّ-، حيث يعتقدون واهمين خاسرين أنّهم شعبُ الله المختار. وبالرغم من أنّ القرآنَ الكريم ناسخٌ للكتب السماوية ومردي شرائعِ التراثِ الخرافيةِ قد تحدّث عنِ الأمّة المحمدية أمةِ الشريعة الإسلامية بأنّها خيرُ أمة أخرجت للناس، إلّا أنّ اليهودَ، وعبرَ شريعة الغاب والخرافة تجاوزوا كلَّ الحدود وساروا على درب الاستعلاء المتعصب، فلم يقنعوا باحتكار وصفِ شعب الله المختار فقط، بل حاولوا احتكارَ الله -سبحانه وتعالى عما يشركون-، فوجدنا اللهَ في شريعة الغاب هو إلهَ بني يعقوب (بني إسرائيل)، أمّا الشعوبُ الأخرى فلها آلهتُها، فقد أرادوا بذلك احتكارَ الله لهم وحدهم، فجعلوا له في شريعة غابِهم الآثمةَ أوصافًا ميزته وابتعدت بصورته عن صفاته الحسنى، التي وصف بها ذاتَه العليةَ في الشرائع والديانات.

إنّ الدين عند الله واحد من لدن آدم إلى محمد -عليهم السلام- وجوهرُ هذا الدين هو التوحيد في الألوهية، والطاعة لله، أي: إسلامُ الوجهِ له، ولذلك كان وسيبقى الدينُ عند الله -عزَّ وجل- هو الإسلام.

وقبل ختامِ النبوة بالشريعة الإسلامية التي صدحَ بها محمد -صلى الله عليه وسلم- كانت شرائعُ الرسلِ السابقين وعقائدُهم تهتمُّ بالتفاصيلِ والجزئياتِ، وتجعلُ النصوصَ والمأثوراتِ والخوارقَ الطبيعية والمشاهدةَ المرجع والأساس في بناءِ الهيكل الاعتقادي لتلك الشرائع والرسالات، وقد ارتبطت تلك الخواصُّ بما اقتضَته المرحلةُ التي كان يمرُّ بها الإنسان على دربِ تطوره في تلك الأزمان.

فقد كانتِ الإنسانية في دورِ طفولتها، أو لم تبلغ بعدُ الرشدَ والنضوج، أمّا في الشريعة الإسلامية التي جاءت ختامًا لشرائع السماءِ الإلهية، تهدي الإنسانَ الذي بلغ

سنَّ الرشد ومرحلة النضوج، وتأخذُ بيده إلى الصوابِ حتى يومِ الدين، وهذا ما بيّناه وركزنا عليه الضَّوءَ في الفصلِ الأول من هذه الدراسة، حيث أكّدنا أنّ الشريعةَ الإسلامية الربانية اعتمدت على الهَدي الإلهي في كتابٍ ربّاني، لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه؛ تنزيلٌ من حكيمٍ حميد، وآيات الله في الكون، بمعنى آخر: «كتاب الكون الزاخر بآيات الله»[1].

لذلك فإنّ العقلَ الإنسانيَّ الراشد هو دليلُ الإنسان وسبيلُه للاهتداءِ إلى الشريعةِ الحقة، تلك الشريعةُ الإسلامية التي تجلت معجزةُ القرآنِ الكريم فيها، حيث جاء وثيقَ الصلةِ بالعقل الراشد والرشيد، فهو بالنظرِ فيها يميّزُ المحكمَ من المتشابه، ويردُّ المتشابهَ إلى المحكم، يستنبطُ ويؤوّلُ، ويستخرج الفروعَ من الأصول، فبهذا العقل الراشد وبالشريعة الإسلامية الربانية سندحضُ الخرافةَ، خرافةَ ما خطّه كهنةُ اليهود وحاخاماتُهم في شريعة الغاب، لذلك كان لا بدّ لنا من العودة إلى البدايةِ، حيث الشريعةُ الإسلامية الناسخة والداحضةُ لشرائعِ التراث اليهودية التي تحاولُ تحويلَ الخرافة إلى حقيقة، والحقيقةِ إلى واقعٍ عبر قوةِ الباطل، بعد ما ضَعُفَ المسلمون، فهانت عليهم شريعةُ الله، فهانوا على أعداء الله.

فنصوصُ الخرافة الآثمة التي خطّها لصوصُ الدين والتاريخ والسياسة من كهنة اليهود وأحبارهم عبر شرائع تراثهم اليهودي المصطنع والتي تتجلى بشريعة الخرافة والغاب، شريعة التوراة والتلمود وصهيون، التي لا تنفك تذكر أرض كنعان، أرض بيت المقدس المدنسة التي كان سكّانُها أهلَ رجاساتٍ ومعاصٍ، وعبّادَ أوثانٍ، مؤكدةً توعُّدَ اللهِ اليهودَ بتمليكِ أرضِهم لهم، إن هم غلَبوا أهلَ الكفر ودعوهم إلى الإيمان،

(1) محمد عمارة، التراث والمستقبل، 156 وغيرها.

وحذرهم من أن يعملوا مثلَ عملِ أهلِ كنعان وبيت المقدس من الكفرِ والمعصية، «فتحفظون جميعَ فرائضي، لكي لا تقدمكم الأرض التي أنا آتٍ بكم إليها لتسكنوا فيها، ولا تسلكوا في رسومِ الشعوب الذين أنا طاردُهم من أمامكم، لأنّهم قد فعلوا كلّ هذا، فكرهتُهم، وقلت لكم: ترثون أنتم أرضَهم، وأنا أعطيكم إيّاها لترِثوها أرضًا تفيضُ لبنًا وعسلًا»[1]. «ومثل عمل أرض كنعان التي أنا آت بكم إليها لا تعملوا»[2].

يُفهمُ من نصوصِ شريعة الغاب العديدة، بأنّ الأرضَ الفلسطينية أرضَ كنعان قد دنّسها أهلُها بأفعالهم التي أغضبتِ الرب، وأنّ شعبَ الله المختار هو وحدَه الوصيُّ والمكلّف من قِبل الربِّ إلى يوم الدين بأن يطهّرَ تلك الأرضَ ويقيمَ مملكتَه فيها، حيث نجدُ أنّ كهنةَ اليهود وأحبارَهم قد صدّعوا آذانَ اليهود، بل وآذانَ البشر جميعًا بتلك الفريةِ والأكذوبةِ المتمثلةِ بالوعد الإلهيِّ المزعوم الذي يبدأُ من عند سيّدنا إبراهيم -عليه السلام- وصولًا إلى نسلِ يعقوب حصرًا، فنصوصُ أسفار شريعة الغاب تقضي مدّعيةً زورًا وبهتانًا ظهورَ الربّ لإبراهيم[3]، ثمّ ظهورَه لإسحاق[4]، وصولًا إلى ظهورِه ليعقوب[5]، وذلك ليكلمُهم في شأنِ أرض كنعان، أرضِ بيت المقدس المدنسة، وكأنّ الربَّ لم يجد من الخلقِ من يعمرُ بهم تلك الأرضَ، ممّا دفعَ الربَّ للتوددِ إلى بني يعقوب -عليه السلام- ليعرضَ عليهم أرضَ الميعاد، والوعد.

---

(1) سفر اللاويين إصحاح: 20 (22 – 24).

(2) سفر اللاويين إصحاح: 18 (3).

(3) سفر التكوين إصحاح: 12 (7).

(4) سفر التكوين إصحاح: 26 (2).

(5) سفر التكوين إصحاح: 35 (9).

تلك الأرض التي لا نعلم لها حدًّا أو حدودًا، حيث قال الربّ كما يزعمون: «ارفع عينيك وانظر من الموضع الذي أنت فيه شمالًا وجنوبًا وشرقًا وغربًا لأنّ جميعَ الأرض التي تُرى لك أعطيك، لك أعطيها ولنسلك إلى الأبد»[1]، أمّا في العهد الموسوي فقد اتسعت رقعةُ حدودِ تلك الأرض، وذلك بالطبع بحسب شريعةِ الغاب المختلفة لتضمَّ الأرضَ التي رآها إبراهيمُ أراضي شعوب أخرى كالحيثيين، والأموريين، والفرزيين، والحوبيين، واليبوسيين، كما يصدحُ بهذا سفر الخروج[2]، وقد جاء في ذلك أيضًا: «اجعل تخومَك من بحرِ سوف (البحر الأحمر) إلى بحر فلسطين، ومن البرية إلى النهر»[3]. هذه هي نفسُ الحدود التي ذكرَها سفر العدد في الإصحاح الرابع والثلاثين بإسهابٍ وإطناب[4].

وفي العصر الحديث، عصرِ أسفارِ كهنة السياسة، فقد تقدمتِ الحركةُ الصهيونية إلى مؤتمر السلام في باريس بعام 1919م بخريطةٍ اعتبرت فيها أرضَ اليهود التاريخيةَ شاملةً فلسطين بأكملها بالإضافة إلى شرق الأردن والجولانِ السوري والجنوب اللبناني، ويزدادُ الأمرُ تعقيدًا بتدخل أحبارِ شريعة الغاب اليهودية وكهنتِهم في معتركِ المناقشات حول حدودِ أرض الوعد الرباني، وعدِ التوراة والتلمود، حيث يرى بعضُ أحبارهم أنّ هذه الحدودَ تمتد حتى نهر الفراتِ وجنوب تركيا وشرق الأردن ودلتا النيل المصري، ويرى آخرون من كهنةِ شريعة الغاب أنّ أرضَ الوعد الإلهي تشملُ لبنان حتى طرابلس، وأجزاءً من سوريا والعراق، كما تشملُ شبه جزيرة سيناء

(1) سفر التكوين إصحاح: 13 (14-15).

(2) سفر التكوين إصحاح: 3 (7-8).

(3) سفر التكوين إصحاح: 23 (31).

(4) سفر العدد، الإصحاح: 34 (1 - 2).

المصرية[1]. وهكذا تتجلّى أطماعُ يهود الغاب وتطلّعاتُهم التوسعيةُ الاستعمارية، في الحدود التي زعم كهنتهم كاذبين أنّ الربَّ أعطاها لإبراهيم -عليه السلام- على مرمى بصره، فمهما بلغت حدود أرضِها لا تتجاوزُ بضعةَ كيلو مترات، فإذ بها تتوسعُ لتلتهمَ هذه الأرجاءَ الفسيحة من الأراضي، فما فائدةُ قول الرب لهم كما يزعمون: «لك أعطيها ولنسلك إلى الأبد». أليست الأبدية تعني أن تكون بنفس الحدود أم لا؟!، بل إنّ حلفَ يهود خرافة الغاب وغرورَهم وأطماعهم جعلتهم لا يقفون عند حدٍّ من الحدود، فجشعُ اليهود لا يشبِعه قليلٌ ولا كثير، وتعطّشُهم للدماءِ لا يرويه نيلُ مصر ولا فراتُ العراق ودجلته، ولا نهرُ الأردنّ ولا بحره الميت، كيف لا وقد جاء في سفرِ يشوع نصٌّ إلهيٌّ مزعومٌ يقول فيه الربّ مخاطبًا شعبه المختار: «كلُّ موضعٍ تدوسُه بطونُ أقدامِكم لكم أعطيتُه»[2].

لذلك فمَن يدري وفقَ هذا التلاعبِ والعبث من قِبل كهنةِ التوراة والتلمود والصهيونية والماسونية أن تمتدَّ أطماعُ اليهود الاستعماريةُ التوسعية لتشملَ مكّة المكرمة والمدينة المنورة، بل لتشملَ كلّ العالم.

وقبل العودة لما حلَّ ببيت المقدسِ بعدما هُدمت الخلافةُ وانتصرتِ الخرافةُ بعزلِ الخليفة عبد الحميد الثاني، يجدر بنا أن نعودَ إلى حيث البداية وإلى الحكاية.

فمن الثابت تاريخيًّا أنّ بني يعقوبَ (بني إسرائيل) رفضوا دخولَ أرضِ كنعان في عهد موسى -عليه السلام- برغم كلِّ ما رغّبهم به فيها، إلّا أنّهم تقاعسوا عنِ الدخول وجبُنوا وخافوا سكّان تلك الأرض ولم يدخلوها إلّا في عهدِ يشوع بن نون، ويحكي

---

(1) طاهر شاش: التطرّف الإسرائيلي، ص (73 - 75).

(2) سفر يشوع إصحاح: 1 (3).

سفر يشوع المجازرَ التي أقامها بنو يعقوب لشعوبِ تلك الأرض حتّى إنّهم إذا دخلوا مدينةً استأصلوا شأفَةَ أهلها، وقتلوا حتّى البهائم[1].

ومن خاف القتالَ من أهل تلك الأرض وأراد أن يقيمَ صلحًا مع بني يعقوب (بني إسرائيل) كان لا بدّ أن يقبلَ وصفَه بأنّه مستوطنٌ أو غريب، أو ساكن وسط (إسرائيل) ولذلك يقول يشوع[2] لسكان مدينة جبعون[3] الذين طلبوا منه أن يصالحهم: «لعلك ساكنٌ في وسطي فكيف أقيمُ لك عهدًا»[4]، وبعد تذلّلٍ مفرطٍ من الجبعونيين -استمرّ ثلاثة أيام- أقروا فيه بأنّهم عبيدٌ لإسرائيل قطعَ لهم يشوع عهدًا، وأنّهم ساكنون في وسط إسرائيل[5].

وبرغم تلك الانتصاراتِ التي حقّقها يشوع في دخولِه أرضَ كنعان حسب الحكاية، إلّا أنه لم يستولِ عليها جميعها، حتى إنّ سفرَه يحكي أنّه لمّا شاخَ ناداه ربّ إسرائيل وجعل يذكره بأنّهم لم يمتلكوا كلّ الأرض: «قد شختَ، تقدمتَ في الأيام، وقد بقيت أرضٌ كثيرة جدًّا للامتلاك»[6]، وهنا نجد في خطابِ يشوع لبني إسرائيل -بعد أن عاتبه ربُّ إسرائيلَ على التفريط في امتلاك أرض كنعان- ما يؤكّدُ أنّهم لم يستولوا على كلّ الأرض، فيقول يشوع في الإصحاح الثامن عشر: «حتّى متى أنتم

---

(1) سفر يشوع إصحاح: 6 (20 – 21)، وهنا يجب المقارنة بين مجازر يهود ذاك الزمان ويهود هذا الزمان في صبرا وشاتيلا ودير ياسين وبحر البقر وغزة وغيرها.

(2) يشوع: هو يشوع بن نون من سبط أفرايم خادم موسى وهو الذي دخل بالعبرانيين أرض كنعان، وقاد جيشهم في محاربة العماليق، انظر المنجد 2/ 750.

(3) جبعون: مدينة قديمة في فلسطين شمالي القدس، يرجح أنّ موقعها في قرية الجبّ، انتصر يشوع ابن نون لسكانها على الكنعانيين، انظر المنجد 2 / 208.

(4) سفر يشوع إصحاح: 9 (7).

(5) سفر يشوع إصحاح: 9 (16).

(6) سفر يشوع إصحاح: 13 (1).

متراخون عنِ الدخول لامتلاكِ الأرض التي أعطاكم إيّاها الربُّ إله آبائكم»[1].

ونكملُ الحكايةَ حيث عرفنا كيف استوطنَ اليهودُ قديمًا أرضَ كنعان، ولنا أن نسائل يهودَ شريعة الغاب المعاصرين: على أيِّ أساسٍ رسمتم حدودَ دولتكم المزعومة من النيل إلى الفرات؟!، فإن قلتم: على أساسِ الحقّ التاريخيِّ الذي تثبته التوراةُ لنا في هذه الأرض، قلنا إنّ توراةَ شريعةِ الغاب التي تحتجّون بها تنفي أن يكونَ آباؤكم قد ملكوا هذه الحدودَ التي تزعمونها وتثبتُ أنّهم كانوا في تلك الأرضِ من أزهد الزاهدين.

وهنا نقول إنّ كلَّ نصوصِ التوراة التي تحدثت عن الوعدِ أو الميثاق بخصوصِ أرض كنعان تنصُّ على أنّ نفاذَ الوعد والميثاق مشروطٌ بطاعةِ اليهود للرب، ومن ذلك ما جاء في سفر اللاويين: «فتحفظون جميعَ فرائضي، وجميعَ أحكامي، وتعلمونها لكي لا تقذفكم إلي أنا آتٍ بكم إليها»[2]، وفيه يعد جملةً من المعاصي، ثمّ يقول لبني إسرائيل: «بِكُلِّ هذِهِ لاَ تَتَنَجَّسُوا، لأَنَّهُ بِكُلِّ هذِهِ قَدْ تَنَجَّسَ الشُّعُوبُ الَّذِينَ أَنَا طَارِدُهُمْ مِنْ أَمَامِكُمْ... لكِنْ تَحْفَظُونَ أَنْتُمْ فَرَائِضِي وَأَحْكَامِي، وَلاَ تَعْمَلُونَ شَيْئًا مِنْ جَمِيعِ هذِهِ الرَّجَسَاتِ... فلا تقذفكم الأرض بتنجيسكم إيّاها كما قذفت الشعوبَ التي قبلكم»[3].

لقد كرهت أرضُ بيت المقدس اليهودَ المدنسين لأنّهم لم يصونوا ويحفظوا شرعةَ الله التي أنزلها على موسى -عليه السلام- ولا أحكامَه وفرائضه، ولم يحفظوا أو يصونوا شريعةَ الغاب المفتراة التي خطّها كهنتُهم بأيديهم الآثمة، بل عملوا مثلَ

(1) سفر يشوع إصحاح: 18 (3).

(2) سفر اللاويين إصحاح 20 (22).

(3) سفر اللاويين إصحاح: 8 (24 - 28).

رجساتِ الوثنيين وأكثر، وبذلك لا يكون الوفاءُ بالوعد المذكور ملزمًا... هذا إن كان الوعدُ حقيقةً في أصله.

وقد جمعَ الأستاذ زكي شنودة أكثرَ نصوص التوراة التي ذكرت وعودَ الله لليهود ثمّ علّق عليها قائلًا: «ويبدو من هذه النصوصِ كلّها -ومن غيرها مما جاء بمعناها في التوراة- أنّ وعودَ الله لليهود كانت دائمًا معلقةً على شرطٍ واضحٍ وصريح لا يمكن أن تنفذ هذه الوعود إلّا باستيفائه، وهو أن يطيعوا اللهَ ويعملوا بأحكامِه ووصاياه، ويدينوا له بالولاء الدائم، فلا يعبدون سواه، وإلّا انقلبَ وعدُه إلى وعيدٍ، وتحوّلت نعمته إلى نقمة»[1].

وقد تحدّث في ذلك الأستاذ وليم بيكر -أستاذُ العلوم التوراتية والآثار القديمة بالجامعة العبرية بالقدس المحتلة[2] في الثمانينات- فقال: «الميثاقُ المتعلقُ بالأرض والذي وعد الله به بني إبراهيم وبالتالي جميعَ بني إسرائيل مثله كمثل جميع المواثيق التي تنشأ بين فريقين كان مشروطًا، وبالتالي فإنّه يتحقّقُ فقط في حالِ التزمَ كلا الطرفين بالشروط المحددة في الميثاق، وقد حافظ الله -عزّ وجل- بصورةٍ دائمةٍ على ما قطعه من التزامات، غير أنّ بني إسرائيل كما هو معروف تاريخيًا أخفقوا في تلبيةِ الشروط التي وضعها اللهُ في الميثاق، وفيما يتعلّق بميثاق الأرض: فقد وعد الله بوطنٍ لبني إسرائيل، يبقى قائمًا ما بقيَ بنو إسرائيل يطيعون شريعةَ موسى، وعلى العكس من ذلك فقد وعدَ الله أيضًا أنّهم سوف يخسرون الميثاقَ الذي تضمّن الوعدَ بالأرض

(1) زكي شنودة: المجتمع اليهودي: ص 547.

(2) الجامعة العبرية بالقدس المحتلة: ننوه إلى أنّ الباحث عبد الله البرغوثي كان طالبًا للعلوم السياسية فيها إلّا أنّ إدارة الجامعة قامت بطرده وذلك بعد توصية من الأجهزة الأمنية الصهيونية توصي بذلك تحت ادّعاء أنّه أرهابي، فدرس عندها الباحث في جامعة الأقصى، وتخرج من قسم التاريخ، ثمّ درس في جامعة الأمة وتخرج من قسم العلوم السياسية والأحكام.

إذا عَصَوُا اللهَ ولم يلتزموا بشريعته كما نقلها موسى إليهم»[1].

ثمّ يقول: «إنّني أحضُّكم على قراءةِ الفصل الثامن والعشرين من سفر التثنية بكامله، هناك أربعَ عشرةَ آيةً تَرِدُ فيها وعودُ الله، غير أنّ الآياتِ الأربعَ والخمسين الباقيةَ تركز على اللعنات القاسية، والآثارِ المأساوية التي تلازم اليهودُ إذا لم ينفذوا الجزءَ المتعلق بهم من الاتّفاق، ولا بدّ للمرء أن يسأل: هل حافظَ اليهود على شريعة الله وأوامره؟ الجواب جاء لكلّ الأجيالش القادمة ضمن نفسِ السياق التاريخي، والذي يتحدّث عن الوعودِ الحارة والثواب الذي ينتظرُ الشعبَ الضائع، وتبيّنُ التوراةُ بوضوحٍ ارتدادَ هؤلاء وعبادتَهم لآلهة زائفة، ثمّ الضلالَ المطلق لأمّة إسرائيل بكاملها، ومع ذلك يبدو أنّ كثيرًا من الذين يؤيدون مسألةَ النبوءةِ في احتلالِ إسرائيل لفلسطين، لم يقرؤوا ذلك»[2].

لقد رأينا كيف استوطن يهود الغاب أرض كنعان، ومن العجيب أنّه عند دخولهم تلك الأرضَ كانوا غزاةً، وليسوا من سكّانِ البلد الأصليين، ومعروف أنّ الغريبَ إذا نزلَ أرضَ قومٍ يُسمى غريبًا أو مستوطنًا، لأنه ليس من أبناءِ هذا الوطن، ولكن كهنة سفر اللاويين -وهو أحد أسفار شريعة الغاب المصطنعة- قد عمدوا إلى هذا المفهومِ فقلبوه رأسًا على عقبٍ كعادتهم، فجعلوا بني يعقوب (بني إسرائيل) هم أصحابَ أرضِ كنعان الأصليين، وسكّانَها الأصليين بمثابة مستوطنين، ولهذا نلاحظُ لهجةَ سفرِ الغاب هذا كالآتي: «فاعضده غريبًا أو مستوطنًا يعيش معك»[3].

(1) وليم بيكر: سرقة أمة، ص 108 – 109

(2) سرقة أمة: ص 110 ، 111.

(3) سفر اللاويين، إصحاح: 25 (35).

«لمستوطنيك النازلين عندك»[1]. «وأيضًا من أبناء المستوطنين النازلين عندكم منهم تقنون عبيدًا»[2].

لذلك نجد أنّ خرافةَ شريعةِ الغاب جعلتِ اليهود يعتقدون لصَلفهم وغرورهم أنّ دخولَهم إلى أرضِ كنعان عودةٌ طبيعية إلى أرضهم، وليس غزوًا واستيطانًا، هذا برغم جدالِهم لموسى -عليه السلام- وإبائهم دخولَها في أثناء حياته بينهم، وهنا تتجلّى لنا حقيقةُ الاستعمار اليهودي المعاصر لأرض بيت المقدس، حيث نجد أنّ هذا الاستعمارَ كثيرُ الشبه بنظيره في الماضي، فهو يقوم على نفسِ الجذور القديمة، جذورِ أرض شريعة الغاب والخرافة، أي إنّهم مواطنون يعودون إلى بلادهم، بلادِ شعب الله المختار، وهم بذلك لا يفتؤون يذكرون أنّ الاستيطانَ اليهوديّ في أرض فلسطين واجبٌ مقدّسٌ، لذلك نجدُ أحدَ حاخاماتِ خرافة شريعة الغاب اليهودية (مائير كاهانا)[3] يقول في كتابه (شوكة في عيونكم): «لا يمكن أن يكون هناك آخرون يعيشون بحريّةٍ إلى جانب الشعب الإسرائيلي في أرضِه المختارة له، وأن يشاركوه في السيادة والملكية لهذه الأرض، إنّ عربَ إسرائيل يشكّلون المعصية، إذ إنّ عدمَ تسليم العرب بالسيادة اليهودية على أرضِ إسرائيل، يعتبر رفضًا لسيادةِ الله ربّ إسرائيل وملكوته، لذا فإنّ طردَهم من البلاد هو عملٌ أكثرُ من كونه قضيةً سياسية، إنّه

---

(1) سفر اللاويين، إصحاح: 25 (6).

(2) سفر اللاويين إصحاح: 25 (45).

(3) مائير كاهانا: ولد عام 1932م بالولايات المتحدة الأمريكية، وهاجر إلى فلسطين المحتلة عام 1963م، ووصل إلى درجة حاخام، وتزعم إحدى المنظمات اليهودية اليمينية المتطرفة، وهي حركة كاخ، وله أعمال إجرامية كثيرة ضدّ الفلسطينيين، وننوه هنا إلى أنّ سلطات الاحتلال الصهيونية وأجهزتها الأمنية توجه تهمة اغتيال رئيس حركة كاخ (كاهانا) في الضفة الغربية إلى الباحث عبد الله البرغوثي. هذا وسبق لأحد المجاهدين المصريين الأحرار وان اغتال المؤسس لحركة كاخ (مائير كاهانا) أثناء زيارته له لأمريكا.

موضوعٌ ديني، واجبٌ ديني، أمر بإزالة المعصية»[1]، أمّا حاخام الخرافة المعاصر (يهودا كوك)[2] فيقول: «إنّ الله أمرَنا بأن نستولي على الأرض ونستوطنها، ومعنى الاستيلاء هو الغزو، فأداؤنا لفريضة الغزو هو الذي يمكّننا من أداء فريضة الاستيطان»[3].

وممّا يظهرُ وجهَ الشبه بين الاستيطانِ القديم والحديث أنّ اليهودَ المعاصرين قد كرّروا ما فعله يشوع بن نون عند دخولِه المزعوم أرضَ كنعان في المذابحِ التي أقاموها، وما زالوا منذ احتلالهم لفلسطين بعدما تمكنوا من هدمِ الخلافة الإسلامية، بفعلِ خرافتهم اليهودية المزعومة، تلك الخرافةُ الهدامة التي يدّعي أصحابها الكهنةُ العبيد أنّ اليهودَ شعبُ الله المختار، أنّهم أسياد العالم والدين، وأنّهم أصحاب البطولات والملاحم الواهمة والتي لا أساسَ لها من الصحة، فهم مجردُ كِذبةٍ لا تمتُّ للحقيقة بصلة، حيث عمدَ كهنةُ شريعة الغاب والخرافة اليهودية إلى اختلاق ماضٍ وتاريخ ودين، وصولًا للخرافة الكبرى، تلك الخرافةِ التي خلقوا لها المروياتِ التراثيةَ التوراتية فالتلمودية فالصهيونية والماسونية، فكانت قصةَ الوعد بأرض الخرافة، والشعب الذي اختاره الله ليكون هو الله، والاحتلال الأول لفلسطين، والمملكة الموحّدة لليهود في فلسطين، وما إلى ذلك، إنّها الخرافة والوهم.

فلا دورَ تاريخيّـًا لليهودِ في هذا الوجود، سوى أنّهم قتلةُ أنبياء ورسل ومرابون قوّادون، إنّهم العبيدُ ولا شيء إلّا العبيد، عبيدُ مالٍ، وعبيدُ متعة، أو عبيدُ سلطةٍ وتسلّط، إنّهم خونةُ الوعود ونكثة العهود، إنّهم الخرافة التي لا دورَ لها في فلسطين

(1) عبد العال الباقوري، العرب وإسرائيل وفلسطين ص34.

(2) يهودا كوك: هو أحد الحاخامات اليهود المعاصرين.

(3) ظاهر شاش: التطرف الإسرائيلي ص 75.

سوى أنّها الخرافة، فالدورُ التاريخي والحضاري والإنساني في فلسطين، كان لفراعنة مصر وآرام وآشور وبابل، وللحكم الفارسي ثمّ للحكم الذي أقامه الإسكندرُ الأكبر، ومن بعده السلوقيون، ثمّ حكم الرومان والبيزنطيين، وصولًا إلى الفتح والتحريرِ الإسلامي العربي حيث أُعيد بيتُ المقدس إلى حاضنته العربية والإسلامية، حنيفيةِ سيدنا إبراهيم -عليه السلام- فلا تاريخَ لليهود ولا لشريعة غابهم لا فوق الأرض ولا تحت الأرض.

صحيحٌ أنهم الوهمُ والخرافة التي انتصرت على الخلافة، إلّا أنّنا الحقيقةُ والوعد الرباني الحقّ بعودةِ الخلافة على منهج النبوّة.

وبالعودة إلى الوهم والخرافة نجد أنّ باحثين يهوديين، الأوّل هو (إسرائيل فينكيلشتاين) والذي كان يشغل منصبَ مدير معهد (الأركيولوجيا) في جامعة تل أبيب ويقومُ بحفرياتٍ أثرية، والثاني هو (نيل الدار سيلبيرمان) قد قاما معًا بإصدار كتاب تحت عنوان (التوراة مستخرجة من التربة) يبحث في تاريخية المرويات التوراتية بما يتعلق بولادة (إسرائيل) أي أنّهما يبحثان في شرائعِ التراث اليهودية المصطنعة، وفي ولادةِ أرضِ الخرافة، وخرافة الوعد، ومن التساؤلاتِ التي ساقها المؤلفان يمكن تعدادُ الآتي:

هل الخروج من مصر الفرعونية تمّ كما وصف في التوراة؟

1. هل تمّ حقيقة احتلال أرض كنعان؟
2. هل حكم داود وسليمان حقًّا أرضًا موحّدة في كنعان وأقاما إمبراطورية هناك؟
3. وعلى هذا الأساس أرادا الرجوع إلى الحفريات التي أنجزت في فلسطين، وذلك باستعراض قديمها وحديثها، وبما أنّ مبحثَنا هذا يتناول موضوعَ

خرافة الوعد وأرض الخرافة فإنّ ما توصّل إليه الباحثان يهمّنا حقًّا.

حيث يعتبر المؤلفان -وتدعم ذلك آراءٌ عديدة- بأنّه حتى في نهايةِ القرن السابع قبل الميلاد، لم يكن معبدًا خاصًّا لليهود في فلسطين، فمعبدُ أورشليم لم يكن عازلًا لباقي العبادات بل مشتركًا بين جميع المعتقدات، حالُه كبقية المعابد في الشرق الأوسط القديم، وأنّ الحركة الإصلاحية لملك (يهودا) في الجنوب الفلسطيني جوزيان (636-609 ق.م) حاولتِ التوصلَ إلى تخصيصِه وإبعادِ كلّ معتقدٍ آخرَ عنه، وفي الوقت نفسه كانتِ المنطقة الشمالية في فلسطين -وعاصمتُها السامرة- تحت الحكم الأشوري[1]، والمعبدُ الرئيسُ في الشمال كان في بيت إيل.

وهنا يمكنُ القول -كما استنتج المؤلفان اليهوديان- أنّ الأصوليةَ اليهودية التعصبية وُلدت على زمنِ الملك جوزيان، الذي دعا إلى هدم جميعِ المعابد المحلية الأخرى، وحتى المعابد السامرية اليهودية، وذلك لعدم منافسةِ معبد أورشليم، الذي أريدَ له أنّ يكونَ المرجعَ الديني الوحيد، وذلك للتخلصِ من أهمية السامرة، حيث كانت متقدمةً في حضارتها وغناها وتجارتها على المنطقة الجنوبية التي لم يكن قد مضى غيرُ زمن قصير على تعلمها الكتابة واستعمالها في دواوين الحكم، ولم تكن حتّى ذلك الحين تتمتّعُ بمستلزماتِ إقامةِ دولةٍ وشروطها.

ومن المهمّ ذكرُ ما كتبه المؤلفان المشارِ إليهما عن قوةِ إقناع التوراة، إذ إنّها تمكّنت بابتداعِ أسطورةِ المملكة الموحدة لداود وسليمان من إقناعِ العالمِ كلِّه بأنّه منذ ذلك الزمن أدّتِ القدسُ (مدينة داود) دورًا أساسيًّا في تجرِبةِ إسرائيل القديمة[2].

(1) إسرائيل فيكيلشتاين ونيل ألدر سيلبيرمان: التوراة مستخرجة من التربة، ص12

(2) التوراة مستخرجة من التربة، مرجع سابق ص 13

مع أنّ المدينة في نهاية القرنِ السابع، يوم ابتُدعت أسسُ الأساطير الأيديولوجية، لم تكن مساحتُها أكثرَ من حوالي ستين هكتاراً (أي حوالي نصف القدس الشرقية الحالية)، ولم يكن عددُ سكّانها يتعدّى (15000) نسمة[1]، مضيفين أنّ التنقيباتِ الأثرية أحدثت ثورةً في دراسة إسرائيل القديمة، وزرعتِ الشكّ في جميعِ الأسس التاريخية للمرويات التوراتية الأكثرِ أهميةً وشهرة، مثل: الخروج من مصر، والتيه في سيناء، واحتلال كنعان، والإمبراطورية المزعومة التي حكمها كلّ من داود وسليمان[2].

لقد أراد المؤلفان اليهوديان تقديمَ دراسةٍ موضوعيةٍ تروي تاريخَ إسرائيل القديمة من منظورٍ جديد، تقدّمه إليهما المكتشفاتُ الأثرية والفصل بين ما هو خرافة وُلِدَت من رحِمِ الأسطورة المروية عبر شرائع التراث اليهودية، وما ينتمي إلى الحقيقةِ التاريخية؛ كما أنّهما أرادا عرضَ الفتراتِ التي عرفت كتابة شريعة الغاب اليهودية (التوراة) والأسباب التي سوّغت تأليفَها[3]، مضيفين أنّه من المؤكد اليومَ، أنّ عددًا من الأحداثِ التوراتية لم يقَع كما رُوي، وأكثر من ذلك فعديدها لم يحدث قطعًا[4]، فالكتبُ الخمسةُ الأولى لشريعة الغاب التوراتية، وهي التي تروي تاريخَ الأيامِ الأولى لليهود القدماء، تمّ تبنّي أسسٍ معظمُها في موضعٍ وتاريخٍ أصبحا اليومَ معروفَين، وهما القدسُ في القرن السابع قبل الميلاد وبعد السبي والاستعباد البابلي لليهود.

---

(1) العدد يشمل جميع السكان والمعتقدات

(2) التوراة مستخرجة من التربة، مرجع سابق: ص 13، وانظر التوراة جاءت من جزيرة العرب، للدكتور كمال الصليبي.

(3) التوراة مستخرجة من التربة، مرجع سابق، ص 14.

(4) المرجع السابق، ص 17.

أمّا الأنبياءُ الأُول يوشع بن نون والقضاة وصموئيل (1و2) والملوك الأول والثاني، وقصة شعب إسرائيل منذ اجتيازه الأردن والاحتلال، وتأسيس الملكية، ثمّ الانكسار والسبي على يد الأشوريين والبابليين، وخصوصًا قصصَ آخر الأنبياء الذين يعبرون عن آمالهم المسيانية، كلها كتبت ما بين منتصف القرن الثامن ونهاية القرن الخامس ق.م[1]، أمّا ما تبقّى من المراثي والابتهالات والأمثال والمزامير، فقد تمّ تأليفها على ما يظهرُ ما بين القرنَين الخامس والثانيق.م خلال الفترتين الفارسية والهلنستية[2].

ومع ذلك يدّعي المروجون لقدم قصصِ التوراة أنّ تثنيةَ الاشتراعِ ألفها موسى -عليه السلام- قبل موته على جبلِ نيبو، وأنّ كتبَ كلٍّ من يشوع بن نون والقضاة وصموئيل، كانت عبارة عن وثائقَ مخطوطاتٍ مقدّسة احتضنها معبد سيلو، وأنّ كتبَ الملوكِ هي بريشة النبي أرميا، ومن ضمن الأسطورة والخرافة ذاتها يقال إنّ داود هو الذي ألّف المزامير وسليمان هو صاحب نشيد الأناشيد[3]، كلّ ذلك لم يعد مقبولًا اليوم، «ونشير بهذا الصدد إلى أنّنا حتى اليوم ما زلنا نسمع في كنائس العالم بمناسبة التلاوة المقدسة للمزامير، إعلان (مزمار الملك داود) وهنا تكمن قوة إيحاء التوراة، حيث نجحت بربطٍ لا سندَ له بين اليهودية والمسيحية[4].

ونجد أنّ الباحثين (فينكيلشتاين وسيلبيرمان) يواصلان عرضَ التناقضات

(1) المرجع السابق، ص 17.

(2) المرجع السابق ص 29.

(3) المرجع السابق، ص 23.

(4) قاسم الشواف: فلسطين التاريخ القديم الحقيقي منذ ما قبل التاريخ حتى الخلافة العباسية، ص 20 وغيرها.

والمدارس المختلفة التي ساهمت في تأليفِ التوراة (شريعة الغاب اليهودية) مشيرين إلى ازدواجيةِ التسمية الإلهية، فهناك التيارِ اليهوي والتيار الإيلوهيمي الذي تبنى اسمَ الإلهِ إيل الكنعاني المنتشرة عبادته في المناطق الشمالية، وبعد ذلك تمّ تبنّي إلهٍ رباعيِّ الأحرف (ءهـ وه) يهوه إله إسرائيل.

كما يمكن للباحثين -ضمن دراسة نصوص شريعة الغاب التوراتية- التعرفُ على مصادرها المختلفة الموزعة بين التيارين المشارِ إليهما أعلاه، مع إضافةٍ تيارٍ ابتدعه الكهنةُ ويفيد الطقوس، وإضافة أخرى نسبة إلى تثنية الاشتراع الذي يظهر وكأنه نصٌّ مستقلٌّ، وأخيرًا هناك إضافاتٌ أخرى للربط بين الأجزاء المجمّعة من مختلفِ التيارات والمدارس لكي يظهر نص شريعة الغاب التوراتية كوحدة متكاملة.

وطبعًا فإنّ القارئَ العادي لا يستطيعُ التفريقَ بين التيارات، حيث إنّ هناك خلطًا بين إيل ويهوة على الرغمِ من عدمِ المعاصرة، وكأنهما مترادفان، وقد نجدُ التسميتَين في مقطعٍ واحد من شريعة الغاب المصطنعة، وقد تابعَ الباحثان اليهوديان عرضَهما معترفان أنّه كلما كانت الحفريات الأثرية في الأرض الفلسطينية تتقدم في المواقع والمدن التي أشارت إليها المرويات، كانت التساؤلات تفرض نفسَها حول حقيقة الوجود الحقيقي للآباء الأول وقضيةِ الخروج وأهمية ذلك الخروج وحقيقته، وكذلك احتلالُ أرض كنعان، وهنا اعترف الباحثان وأقرّا أنّ معظمَ ما يعتبره اليهودُ بصورة عامّة كواقع تاريخي وديني شاملًا قصص الأنبياء والآباء الأول لليهود والخروج واحتلال بلاد كنعان وملحمة الفترة المجيدة لحكم داود وسليمان، هي عبارة عن حماسةٍ خلاقة، أي إنّها وهمٌ وخرافة تمّ ابتداعها لدعم حركةٍ إصلاحية دينية قامت في مملكة يهودا المزعومة إبّان حكم جوزياس (639 - 609) ق.م.

وهكذا بُنيت سرديةُ شريعة الغاب التوراتية بقصدِ تحقيقِ المطامع اليهودية

الاستعمارية في الأزمنة الغابرة... وفي عصرِ الخرافة القديمة التي اجترَّها اليهود المعاصرون للقضاء على الخلافة الإسلامية عبر الخرافةِ اليهودية.

لقد عمد الباحثان في ما بعدُ إلى متابعة الحفريات الأثرية التي تمت في فلسطينَ بقصد إثبات الوجود اليهودي على أرضها كما روته توراةُ شريعة الغاب، إلّا أنّهما لم يجدا ما يثبتُ تلك الخرافاتِ فاعترفا من جهتهما أنّ التنقيباتِ الأثريةَ لم تثبِت أيًّا من تلك الترهات الخرافية.

أمّا من جهةِ الحقيقة -لا الخرافة- فيجبُ التذكيرُ ببعضِ الخرافات التي اختلقها كهنةُ شريعةِ الغاب التوراتية، وذلك لمحاربة أعدائهم، حيث كانت جميعُها بعيدةً كلّ البعد عن الحقيقة، ولم تكن تنقصُها غرابةُ الخرافة في الوقت نفسه: فتوراة شريعة الغاب تنظر إلى مملكتي عمون ومؤاب بازدراء حين اختلقت أنّهما تأسستا نتيجة زنا المحارم، حيث ضاجع نبي الله لوط ابنتيه وهو ثمل!، أمّا يعقوب وأخوه عيسو وهو إيدوم، فقد تنبأت مرويات الخرافة التلمودية منذ أن حملت بهما والدتهما، بأنّ أمتين سوف تخرجان من صلبهما هما إسرائيل وإيدوم، وأن الأخَ الأصغر (أي يعقوب إسرائيل) هو الذي يسيطر على البكر (عيسو)، ولا ننسى أنّ إسماعيل طُرد مع أمّه هاجر إلى الصحراء، لأنّه جدُّ العرب، وأنّ الوعدَ الخرافة سوف يرثه إسحاق وليس إسماعيل، كلّ تلك الخرافات الأسطورية التي ابتدعها الكهنة لملكهم الطامع بأرض فلسطين، الذي تحالف مع كهنته لخلقِ حقوقٍ إلهية لهما ولأتباعهما على أرضِ فلسطين، لذلك كان لا بدّ لهما منَ الانتقالِ من اسمِ يعقوب بن إسحاق إلى اسم إسرائيل، ولهذه الغايةِ الدنيئة ابتدعت قصة مصارعة في ظلمة غابة من غابات شريعة الغاب التوراتية، مع مَن لا يعرفُ يعقوب من هو مصارعه، وبنتيجة هذا الحدث يعلمنا نصُّ شريعةِ الغاب التوراتية أنّ الذي أراد اختبارَ قوّة يعقوب كان ملاكُ الربِّ

وقال له هذا الأخير ما معناه: أنت قويٌّ مثل إيل، لذلك سيكون اسمك عوضًا عن يعقوب...

تلك هي القصة الخرافية التي ابتدعتها مخيلةُ كهنة التوراة، كهنة شرائع التراث اليهودي المصطنع، لخلق واصطناع علاقةٍ بين أحدِ الكنعانيين من سكانِ فلسطين الأصليين، وهذا الجدُّ يعقوب الذي تلت ولادتُه ولادةَ أخيه عيسو، وهو الذي أبعدَ عن وراثةِ بركةِ أبيه إسحاق بواسطة خرافةٍ توراتيةٍ استثمرت في عمليةٍ غش، ضعف نظر إسحاق وهو على فراش الموت، وعيسو هو إيدوم، وهو في العرف التوراتي من المغضوبِ عليهم، لأنّه يمثلُ -حسبَ الخرافةِ- وشريعتِها جدّ الإيدوميين الأعداء.

إذا عُدنا إلى العقل والمنطق نجد أنّ التاريخَ القديمَ يبيّنُ لنا من خلالِ قراءة النصوص (المقدسة) لمنطقةِ الشرق الأوسط أنّ الشعوبَ كلّها تلقت هي كذلك من آلهتها وعودًا بأرض ما (أرض الخرافة وخرافة الوعد) بدءًا ببلاد ما بين النهرين إلى مصرَ ومرورًا بالحيثيين في سوريا.

فعلى مسلّةِ الكرنك التي نصبَها تحوتمس الثالث تمجيدًا لانتصاراته المتتابعة في غزة ومجدو وقادش حتى قرقميش على الفرات... تقرأ قولَ الإله: «بإرادتي أختصُّك بالأرض طولًا وعرضًا... جئتُ لأهبَك القوةَ على سحق الأعداء».

وفي الطرف الآخر من أرضِ الهلال الخصيب -أي فيما بين النهرين- نقرأُ على اللوح السادس في قصيدةِ الخلق البابلية إرادةَ الإله مردوخ بتحديد نصيب من الأرض لكل شعب، ثمّ ينهي الإله عهدَه فيأمر ببناء بابل ومعبده فيها.

وفيما بين المصريين الفراعنة والبابليين نستمعُ إلى الحثيين ينشدون لآلهةِ الشمس (أرينا) قائلين: «أنت تسهرين على حفظِ ٱلسَّماوَاتِ والأرض وتقيمين حدودًا للبلاد».

إذن فإنّ كهنةَ شريعة الغاب التوراتيةَ إذا لم يقولوا أنّهم تلقَّوا (وعدًا) إلهيًّا بأرضٍ خصَّها بهم وخصَّهم بها الإلهُ مثل غيرهم فوضعهم سيكون شاذًا ومستنكرًا إلّا أنّ المستنكرَ والشاذَّ هو مواصلتُهم مزاعمَهم بهذه الخرافة والوعد حتّى يومنا هذا، أي بعدَ ما يزيد عن ثلاثةِ آلاف عام على بدايةِ وعد الخرافة.

وهنا يجب أن نتخيّلَ أهلَ العراق اليوم وهم يزعمون حقَّهم في الأراضي التي وعد بها الإله مردوخ أهلَ بابل، بابل التي سبَتِ اليهودَ واستعبدتهم، وإنّ أهلَ سوريا اليوم يطالبون بحدود الأرضِ التي حددتها الآلهة (أرينا) لأجدادِهم الحيثيين.

بل تخيّل لو أنّ فراعنةَ مصر القديمة، وقد نهضوا من جوفِ مدافنِ أهراماتِ الجيزة، لكي يطالبوا بحقّ مصريّي اليوم بالأرض التي وعدَ بها أجدادُهم آمون وتحوتمس، إلّا أنّ كلَّ ذلك سيكون مدعاةً حقيقيةً إلى السخريةِ المضحكة، لكنّ الضحكاتِ لم تكن تصيبُ الفلسطينيين اليوم، فبعد أن نجحتِ الخرافة بهدم الخلافة، واصلتِ الخرافةُ طريقَها نحو بيت المقدس حيث أرضُ الوعد، ووعدُ الخرافة، وعندها تمكّنَ يهودُ الغابِ من احتلالِ فلسطينَ الأرض، فغدا بذلك عبيدُ خرافة الأمس البعيد أسيادَ الأمر الواقع، وغدتِ الخرافةُ واقعًا ملموسًا محسوسًا فوق الأرض، أرض العودة والميعاد.

إنّ الخرافةَ الدينية أحقرُ ما خلقه الفكرُ المريض لأنّه يدفع بالعامة والخاصة إلى الوهم المُعمي الذي يؤدي إلى قلبِ الباطل حقًّا، والحقّ باطلًا، وتحويلِ العبد إلى سيّدٍ والسيّد إلى عبد، ولا سبيلَ لنا للخلاصِ من خرافة اليهود الدينية سوى بالعودةِ إلى الله حيث نكون عبادًا له وخلفاءَ له على الأرض والعباد، فبإسلامِنا وشريعتنا نبدّدُ وهمَ الخرافة، ونعيدُ تفعيلَ ميزانِ العدل لإحقاقِ الحقّ، بذلك فقط تعودُ أرضُ بيت المقدس عربيةً إسلامية طاهرة مطهّرة من دنس يهود شريعة الغاب والخرافة.

المبحث الثاني: كهنة أرض شريعة الغاب

إنّ الشريعةَ الإسلاميةَ شريعةٌ واقعية تنيرُ العقول لأنّها تجسّد الدينَ الإسلامي الرباني الواضحَ والبسيط، ذلك الدينُ الحقّ الذي يرفضُ الخرافة والكهانة، ويجعلُ لكلّ تابعٍ من أتباع الشريعة الإسلامية حظًّا موفورًا من العزةِ والكرامة والسموّ، فبقدر ما يُكثِرُ المسلمُ الغرفَ من نبعِ الإسلامِ الطاهر العذب، يكثرُ الخيرُ ويعمّ الرخاء وترتقي الإنسانية جمعاء.

وبقدر ما يغترفُ اليهود من نواضحِ كهنةِ شريعة الغاب الآسنة، فإنّهم ينحطُّون فوق انحطاطهم، لذلك نجدُ الإسلامَ في علاجه لقضية الكهانةِ والتكهن عند اليهودِ -كعادته- يرفق ويشتدّ بحسب ما تقتضيهِ المواقف، فالإسلام لم ينسَ ما للكهنة والأحبارِ من مكانةٍ عند اليهود، فتارة يتوجّهُ للأحبار يستحثهم على قيادةِ قومهم إلى الخير، فيقول الله: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾[1]؛ وفي هذا التخصيصِ للربانيين والأحبار تذكيرٌ لهم بمهمتهم وما لهم من الرياسةِ على القوم، وما تقتضيه تلك الرياسةُ من الأمر بالمعروف والنهي على المنكر، وهو أسلوبٌ لطيف في الإشعار بمكانة هؤلاء الكهنة والأحبار لو كانوا يفقهون.

كما يتحدّث القرآنُ الكريم عن الكهنة والأحبار فيصفُهم بأنّهم أوعيةٌ لحفظ كلام

(1) سورة المائدة: الآية 63.

الله -عزّ وجلّ- وينهاهم عن أن يكتموا شيئًا من كلامِ الله خوفَ الناس، أو مجاملةً لذوي السلطان، فيقول -عزّ وجل-: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾[1]، وسببُ نزول هذه الآية: أنّه مُرّ على النبي -صلّى الله عليه وسلّم- بيهوديٍّ محمَّمٍ مجلود، فدعاهم فقال: أهكذا تجدون حدَّ الزاني في كتابكم؟ قالوا: نعم! فدعا رجلًا من علمائِهم فقال له النبيّ -صلّى الله عليه وسلّم-: أُنشِدُك بالذي أنزل التوراة على موسى، أهكذا تجدون حدّ الزاني في كتابكم؟ قال: لا، ولولا أنك أنشَدتني بهذا لم أخبِرك، نجد حدَّه في كتابنا الرجم، ولكنه كثُرَ في أشرافنا، فكُنا إذا أخذنا الشّريفَ تركناه، وإذا أخذنا الضعيفَ أقمنا عليه الحدّ، فقلنا: تعالَوا حتى نجعلَ شيئًا نقيمُه على الشريف والوضيع، فاجتمعنا على التحميمِ والجلد. فقال النبي -صلّى الله عليه وسلّم-: اللهم إنّي أولُ من أحيي أمرَك إذْ أماتوه!»[2] فنزلتِ الآيات. وقد اشتدّ القرآنَ الكريم في توبيخِ الكهنة والأحبار اليهود لِما يرى من كفرهم وصدّهم مَن وراءَهم عن أنّ يبصروا الحقّ، فيقول اللهُ -عزّ وجلّ- في محكم التنزيل: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ۚ بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[3]، وفي ذلك قال ابنُ كثيرٍ في تفسيره: «كمثل الحمار لا يدري ما فيها فهو يحملُها حملًا حسيسًا ولا يدري ما عليه، وكذلك

(1) سورة المائدة: الآية 44.

(2) مسند الإمام أحمد 4 / 286 والحديث عن البراء بن عازب، وهو صحيح أخرجه مسلم في كتاب الحدود عن يحيى عن أبي معاوية بلفظ قريب.

(3) سورة الجمعة: الآية 5.

هؤلاء في حملهِمُ الكتاَب الذي أوتوه حفظوه لفظًا ولم يتفهّموه ولا عملوا بمقتضاه، بل أوّلوه وحرّفوه وبدّلوه، فهم أسوأُ حالًا من الحمير، لأنّ الحمارَ لا فهمَ له، وهؤلاء لهم فهومٌ لم يستعملوها»[1].

لقد واصلتِ الآياتُ الربانية فضحَ ألاعيب الكهنة أو الأحبار، وحتى الرهبان في أكلهم أموالَ الناس بالباطل فقال -عزّ وجلّ-: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۗ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[2]، وذلك أنّ كهنةَ شريعة الغاب التوراتية والإنجيلية يأكلون الدنيا بالدين، وبمناصبهم ورياستهم في الناس، يأكلون أموالهم بذلك كما كان لأحبار اليهود وكهنتهم على أهل الجاهلية شرف، ولهم عندهم خرجٌ وهدايا وعطايا وضرائبُ تجيء إليهم، فلمّا بعث الله رسوله محمّد -صلّى الله عليه وسلّم- استمرّوا على ضلالهم وكفرهم وعنادهم طمعًا منهم في أن تبقى لهم تلك الرياساتُ، فأطفأها اللهُ بنور النبوّة وسلبهم إيّاها، وعرّضهم للذل والصَّغار، وباؤوا بغضب من الله.[3]

وما زال الكهنةُ والأحبار والرهبان إلى اليوم يأكلون أموالَ الناسِ بالباطل، ويجمعون مئاتِ الملايين للصدّ عن سبيل الله، ولاستباحةِ أراضينا الإسلامية المقدّسة، حيث نجدُهم ينفقون أموالَ الباطلِ في الباطلِ عبرَ دعمِ الحركاتِ الهدّامة، والإعلام الخليع، وغير ذلك من وسائل الصدّ عن سبيل الله -عزَّ وجل- وهم بذلك فاسدون مفسدون، ولكن لينفقوا فستكون عليهم حسرةً ثمّ يغلبون، وإلى جهنم

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم 8/ 57

(2) سورة التوبة: الآية 34

(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم 4 / 24.

سيُحشرون، فبئس المصير والمستقرّ.

وممّا ذكره القرآنُ الكريم من ألاعيبِ كهنة شريعة الغاب في أكلِ أموال الناس بالباطل، أنّهم كانوا يحرفون ويبدلون في التوراةِ التي أنزلها اللهُ على نبيه موسى -عليه السلام- وذلك ليضمنوا معاشَهم الذي يتقاضَونه من اليهود، ثمّ يقولون هذا من عند الله، فتوعدَهم اللهُ بالويل على هذا الكذب البواح، فقال الله في محكم التنزيل: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾[1].

ثمّ نعى القرآنُ الكريم على اليهود والنصارى أنّهم صدّقوا كذبَ الأحبار والرهبان، وأطاعوهم طاعةً عمياءَ دون أن يسألوا دليلًا أو برهانًا على ما يؤمَرون به من الشرائعِ التي تقاطعت فغدت شريعةَ غاب، إذ قال الله: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لا إِلَهَ إِلا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[2]، وعبادةُ هؤلاء المغضوبِ عليهم والضالين للكهنة والأحبارِ والرهبان لم تكن إلّا هذه الطاعةَ العمياءَ دون تحريكِ النظر وتفعيل العقل، ولذلك لما قَدِمَ عَدِيُّ بنُ حاتم على رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- وكان قد تنصّرَ في الجاهلية، سمع رسول الله -عليه الصلاةُ والسلام- يقرأ: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ﴾، فقال عدي: «إنّهم لم يعبدوهم. فقال رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم-: «بلى، إِنَّهُم حَرَّمُوا عَلَيْهِم الحَلالَ، وَأَحَلّوا لَهُم الحَرَامَ فاتَّبَعُوهُمْ، فَتِلْكَ عِبادَتُهُم إِيَّاهُمْ»[3].

---

(1) سورة البقرة: الآية 79.

(2) سورة براءة: الآية 31

(3) الترمذي: الجامع الصحيح 3095 ك، تفسير القرآن، سورة التوبة.

وإذا كنّا قد رأينا التسليمَ والطاعة لأقوال الكهنة والأحبار، حتّى ولو قالوا ما يمجُّه العقلُ ويأباه الفكرُ السليم، فإنّ الإسلامَ قد ألغى كلّ هذا، وفتحَ بصائرَ الناسِ ليطالبوا هؤلاء الحمقى بالدليل على صِدق ما يقولون، ولذلك لما حاولَ كهنةُ اليهود ورهبان النصارى إفهامَ أتباعهم أنّهم المستأثرون بالجنة دون سواهم طالبهم الإسلامُ بالدليل على هذا، قال الله: ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾(1).

وكان مثلُ هذا المسلك هزةً عنيفة لعروش الكهنة، الذين طالما ألزموا أتباعَهم بأن يعترفوا لهم بخطاياهم، وأن يقفوا أذلّاءَ مهانين يسألونهم الصفحَ والمغفرة، ومنهم من جعلَ الجنةَ قراريطَ يهَبُ منها مَن يشاء، ويمنعها عن مَن يشاء، وغالبا لا يهبُ الجنةَ الكهنةُ إلّا لذوي الأيادي السخية، والمراتب الدنيوية العالية (الدنية).

وإذا كان هذا حالَ جنةِ اللهِ وفردوسِه الأعلى المستباح من قِبل الكهنةِ، فما بالُنا بحال الأرض، أرضِ بيت المقدس المقدسةِ، حيث بوابةُ السماء ومسرى المصطفى -صلّى الله عليه وسلّم- ومعراجُه الذي غدا بفِعلِ تشريعاتِ كهنة خرافة شريعة الغاب، أرضَ غابٍ وخرافة، أرض كهنوت مستباحة، أرضًا يقدسُ يهودُها الغاصبون المحتلون والمستعمرون كهنتَهم وأحبارهم لدرجة الألوهية، بل تجاوزوا ذلك إلى جعلِ مكانةِ أحبارهم وكهنتهم أعلى وأسمى من مكانة الربّ. وقال الله: ﴿طه* مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ* إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ* تنزيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ الْعُلَى* الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ* لَهُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ

(1) سورة البقرة: الآية 111.

وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ﴾[1].

هذا ما قاله اللهُ الرحمنُ في الفرقان، أمّا ما قاله كهنةُ شريعةِ الغاب عن مكانتهم التي تخوّلهم فعلَ ما يحلو لهم وترفعهم إلى مكانٍ ومكانةٍ أعلى وأكبرَ من مكانة الله -عزَّ وجل-، وهم في حقيقة الأمر أدنى وأخسُّ، حيث كتبوا في تلمود شريعة غابهم: «اعلم أن أقوالَ الحاخامات أفضلُ من أقوال الأنبياء. وزيادة على ذلك يلزمك اعتبار أقوال الحاخامات مثل الشريعة لأن أقوالهم هي قول الله الحي فإذا قال لك الحاخام إن يدَك اليمنى هي اليسرى وبالعكس فصدق قوله ولا تجادله فما بالك إذا قال لك إن اليمنى هي اليمنى واليسرى هي اليسرى»[2]، ثمّ واصلوا غيَّهم وكفرهم حيث كتبوا في تلمود غابهم: «إنّ تعاليمَ الحاخامات لا يمكن نقضُها ولا تغييرها ولو بأمر الله، وقد وقعَ يومًا الاختلافُ بين الباري -عزَّ وجل- وبين علماء اليهود في مسألة، فبعد أن طال الجدالُ تقرّرَ إحالةُ فصلِ الخلافِ إلى أحدِ الحاخاماتِ الرابيين، واضطرّ اللهُ أن يعترفَ بغلطِه! واضطر الله أن يعترفَ بغلطه بعد حكمِ الحاخام المذكور!»[3]، وواصلوا خرفهم فقالوا: «إنّ أقوالَ الحاخامات المتناقضةَ منزلةٌ من السماء، ومن يحتقرُها فمثواه جهنم وبئس المصير»[4].

وأنا أحتقرُ تلك الأقوالَ وأصحابَ تلك الأقوال الكفرية وأزيد على ذلك مقسمًا بمَن رفعَ السماءَ وبسطَ الأرضَ باللهِ الواحدِ الأحد، القهّار الصمد، أنّ مثوى كهنة وحاخامات وأتباع شريعة الغاب التوراتية والتلمودية والصهيونية والماسونية

---

(1) سورة طه الآيات: 1-6.

(2) داروهلج: الكنز المرصود في قواعد التلمود ص 52 - ترجمة.

(3) الكنز المرصود في قواعد التلمود، مرجع سابق، ص 52

(4) المرجع السابق، ص 53.

ومستقرَّهم هو جهنّم وبئس المستقرّ والمصير.

لقد تجاوز كهنةُ شريعةِ الغاب وأتباعُهم كفرَ فرعون الإله، وقارون المال، وهامان الرجال، فهل يعقل عاقلُ كلَّ هذا الجنونِ والهذيان الكهنوتي باسم الشريعة التي اختلقوها لأنفسِهم بأنفسهم؟ أيُعقل أنّ اللهَ -عزّ وجل- يعترفُ بغلطه؟ بل هل يعقلُ أنّ اللهَ خالقَ هذا الكون العظيم ومسيّرَ شؤونِه قد أخطأ وأقرَّ بعصمة الكهنة والحاخامات عن الخطأ والخطيئة؟!، وأنّ الله إذا قال شيئًا فمن حقِّ الحاخامات والكهنة اليهودِ أن يعارضوا قولَ الله وأوامرَه، أمّا هم إذا ما قالوا أمرًا ما فليس من حقّ أحدٍ -حتّى لو كان الله- أن يعترضَ ويعارض.

إنّ النتيجةَ الحتمية للطاعة العمياء من قِبل شرذمة اليهود البشرية حيوانيةِ الطباع لكهنتهم أن يواصلَ كهنةُ شريعة الغاب التحريفَ والتبديل والزيادة والنقصان ما دام الاعتقادُ السائدُ هو أنّ جميعَ أقوال الكهنة هي من عند الله، وأنّ الله قد يزلُّ ويخطئ، أمّا هم فلا زللَ ولا خطأ ولا خطيئة.

وهكذا خلقَ الكهنةُ اليهود أرضَ شريعة الغاب المستباحة المدنسة بأقوالهم وأفعالهم، وهكذا انتصرَ اليهودُ على المسلمين، انتصروا عندما نجحوا بخلقِ شريعة الغاب التي اصطنعوها بعون عقولِهم الماكرة الخبيئة الشيطانية، فاتبعتها شرذمةٌ بشرية يهودية حيوانيةُ الطبع والطباع، شرذمة مؤمنة ومصدّقة وعاملةٌ بكلّ ما احتوته شريعةُ الغاب التوراتية والتلمودية والصهيونية والماسونية، وهكذا تمكّنَ يهودُ شريعة الغاب من الانتصارِ على المسلمين الذين تخلّوا عن شريعتهم الإسلامية الربانية، فكان الانتصارُ لشريعة الغاب الخرافية.

لذلك فلا انتصارَ للمسلمين إلّا عبرَ العودة إلى الشريعة الإسلامية حيثُ القرآن الكريم هو الدستورُ المشرع الذي على شرعه وشريعته نحن يجبُ أن نسيرَ، وعندها

يسود الإسلامُ المجتمع حقًّا، فيتعلم فيه كلّ جاهل ويعمل فيه كلّ عاطل، ويطعَمُ فيه كلّ جائع، ويؤمّن فيه كلّ خائف، وينصَفُ فيه كلّ مظلوم. إنّ تطبيقَ الشريعة الإسلامية بحذافيرها وأخذَها كلًّا لا يتجزّأ ضرورةٌ لازمة لا يحلّ التفريطُ أو التساهل فيها، ونعني هنا بالشريعة الإسلامية الإسلامَ كلّه: عقائدَه وتصوّراتِه وشعائره وعباداته وأفكاره ومشاعره وأخلاقه وقيمه وآدابه وتقاليده وقوانينه وتشريعاته؛ تلك التشريعاتُ التي يجب أن يسندها تغييرٌ فكري ونفسي يجعل أبناءَ الأمة الإسلامية في مستوى تشريعاته الرفيعة، وفي هذا يقولُ القرآن الكريم: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾[1].

ولكي ينجحَ التشريعُ الإسلامي في تغيير حالنا وإعادة حقوقنا علينا أن نهيّئَ له المسلمَ الذي يؤمن بعدالة هذا التشريع الرباني، ويحتكم إليه راضيًا مسلمًا به، والقاضي المسلم الذي يؤمن بقدسية التشريع الإسلامي ولا يتلاعبُ بنصوصه، طمعًا في الدنيا أو اتّباعًا للهوى.

لقد طمعَ كهنة اليهود بالدنيا ومفاتنها وببيتِ المقدس فاتبعوا أهواءَهم خالقين شريعة غاب، فتبعهمُ الأتباع اليهود، وبذلك تمكّنوا من استعمارِ بيت المقدس والانتصار على الأغيار، فهل سنسمحُ لمَن سوَّغت غايتُهم الدنيئةُ وسيلتَهم الأدنى من مواصلةِ فرضِ شرائعهم التراثية علينا نحن المسلمين اسمًا، أم سنعود إلى الإسلام الحقّ لنحقّ الحقّ ونقيم شريعة الله؟ ونتحرّر من قيد اليهود وشريعة غابهم الحيوانية.

(1) سورة الرعد: الآية 11

وعن ذلك قال الدكتور يوسف القرضاوي: « إني على يقينٍ أنّ إسرائيل لن تزول، وفلسطين لن تتحرّرَ إلّا على أيدي المؤمنين الصادقين، الراكعين الساجدين، الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، والحافظين لحدودِ الله الذين يخوضون المعاركَ أطهارًا متوضئين، قد تطهّرت قلوبهم، قبل أن تتوضّأ أعضاؤهم، أولئك الذين لا يقفُ في وجههم أحد، ولا تصمُد أمامهم قوة إذا نادى فيهم المنادي:

«هبّي يا ريح الجنّة

يا نصر الله اقترب

يا رجالَ القرآن زيّنوا القرآنَ بالفعال...»[1].

(1) د. يوسف القرضاوي، النكبة الثانية، ص 89.

المبحث الثالث: طباع يهود شريعة الغاب والخرافة

لقد ابتليتِ البشريةُ جمعاءَ بشرذمة بشرية الخلقة، شيطانيةِ الأخلاق والصفات، شريعتُها شريعةُ الغاب، وحقيقتُها وهمٌ وخرافة، شرذمةٌ من اليهود الفاسدين المفسدين الماكرين الخبيثين، الذين أتعبوا أهلَ الدنيا بأفعالهم الشيطانية الدنيئة. فعلى مدارِ التاريخ لم تطغَ شرذمةٌ بشرية في الأرض وتفسدُ فيها، وتوقع الفتنةَ بين أممها مثلما فعلَ يهودُ شريعة الغاب والخرافة.

وها هو القرآنُ الكريم أعظمُ وثيقةٍ تاريخيةٍ على الإطلاق، يسردُ لنا حقيقةَ طباعِ يهود الغاب، حيث المكرُ والفساد والمعاملة السيئة والمشينة لرسولِ الله محمد -صلّى الله عليه وسلّم- ومن قبله الرسلُ الذين عاصروا اليهود، ونحن في هذا المبحثِ سنسلّط الضوءَ على مكر اليهود وخداعهم قبل الإسلام وبعده بالإضافةِ إلى ما تعرّض له القرآن الكريمُ من قِبل يهود الغاب والخرافة.

فساد يهود الغاب ومكرهم وطباعُهم قبل الإسلام:

يقول المولى -عزَّ وجل- في محكم التنزيل: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾[1]، لقد أعلم الله بني إسرائيل أنّهم سيفسدون في الأرض مرّتين، ويفرّطون في الظلم والعدوان والاستكبار، ويقول

(1) سورة الإسراء: الآية 4.

الله -عزَّ وجل-: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ﴾[1].

أخبر الله -عزّ وجلّ- أنّ بني إسرائيل اتّخذوا العجل من دون الله حينما غاب موسى -عليه السلام- عنهم أربعين ليلة. ويقول: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَآؤُوْاْ بِغَضَبٍ مِّنَ اللهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾[2]، وأخبر الله -عزّ وجلّ- أنّ الذلة والمسكنة ضربت عليهم، وغضب الله نزل بهم لكفرهم الأثيم، واعتدائهم الظالم، وقتلهم الأنبياء بغير الحقّ.

ويقول -سبحانه- في سورة النساء: ﴿وبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلى مَرْيَمَ بُهْتانًا عَظِيمًا۞ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللهِ وَما قَتَلُوهُ وَما صَلَبُوهُ وَلكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾[3]، أخبر الله -جلّ جلاله- أنّهم كفروا، وقالوا عن السيدةِ مريم أنّها زانية، وأنّ المسيحَ -عليه السلام- قد صُلب وقتل، إلى غير ذلك من هذه الافتراءاتِ والأضاليل.

ويقول المولى في سورة المائدة: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾[4]، وأخبر الله -سبحانه- أنّهم لم يمتثلوا لأمرِ موسى -عليه السلام- حيث أمرَهم بأن يقاتلوا قومًا جبّارين، فكان

(1) سورة البقرة: الآية 51.

(2) سورة البقرة: الآية 61.

(3) سورة النساء: الآيات: 156، 157.

(4) سورة المائدة: الآية 24.

جوابُهم: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾[1].

ويقول المولى في سورة المائدة: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾[2]، بذلك أخبر اللهُ أنّ يهودَ شريعةِ الغابِ شرٌّ مكانًا، لكفرهم وظلمِهم وتعنّتهم وعبادتهم العجل، من أجلِ هذا لعنهم اللهُ وغضب عليهم، وجعل منهم القردة والخنازير، يقول -جلّ جلاله- في سورة المائدة أيضًا: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۚ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَاللهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾[3].

وأخبر -جلّ جلاله- أنّ اليهودَ قالوا عنِ الله أنّ يدَه مقبوضة عنِ العطاء، وأخبر أيضًا أنّهم أصحابُ فتنةٍ وفناء، وعداوةٍ وبغضاء، قاتلهم الله، كلّما أوقدوا نارًا للحربِ أطفأها الله -جلّ جلاله- وفي قول المولى في سورة المائدة: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ۞ كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾[4]، أخبر الله -سبحانه- أنّ اليهودَ ملعونون مذمومون على ألسنةِ الرسل -عليهم السلام- ذلك بما عصَوا وكانوا يعتدون، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون.

هذا غيضٌ من فيض ممّا ذكره القرآنُ الكريم عن حقيقة مكرِ يهودِ شريعة الغاب

(1) سورة المائدة: الآية 60.

(2) سورة المائدة: الآية 60.

(3) سورة المائدة: الآية 64.

(4) سورة المائدة: الآيات 78 – 79.

وفسادهم، ومعاملتهم السيئة لأنبيائهم واستكبارهم في الأرض وبغيِهم بغير الحقّ، وقولهم على اللهِ ما لا يليقُ به -عزّ وجل-، وبالرجوعِ إلى سورة البقرة والمائدة والأعراف، نجدُ الكثيرَ من أعمال يهود الغاب القبيحة، وأخلاقهم الخسيسة، ومكرهم السافر.

لقد أثبتَ التاريخُ أنّ العبيدَ اليهود من كهنة شريعة الغاب وأتباعِهم هم منِ ابتدعوا فكرةَ النفاق من أجلِ الارتقاء منذ وجودهم على الأرض.

ومن الأمور المجمعِ عليها لدى الباحثين في علم الأجناسِ والأديان والأمم، أنّ كهنةَ اليهود وحاخاماتِهم وكبارَ رجال دينهم، أوعزوا لشدّة مكرهم وخسّتهم إلى الكثيرِ من أشياعهم من أتباع شريعة الغاب في مختلفِ أصقاع الأرض -وعلى مراحلَ متفاوتة من العصور- أن يذوبوا في المجتمعاتِ التي يعيشون فيها أقليّةً مستصغرة، وأن يتظاهروا بالدخولِ في أديانهم أو معتقداتهم ومذاهبهم، بقصد الإساءةِ إليها وتحريفها وتغيير خطِّ سيرها، بحيث تخدمُ مصالحَهم وتحقّق أهدافهم، في الوقت الذي يأمنون فيه على أنفسِهم من مضايقة خصومهم، ويكونون فيه في مركزٍ يوفّر لهم الأمنَ وأسبابَ الفتنة، وتسديدَ الضربة من داخل عدوّهم دون أن يتنبّه أحد لأمرهم، فهكذا تُهدم القلاع من داخلها ومن جوف أسوارها، ومن المجتمعات التي ذابوا فيها، ونفّذوا فيها مخطّطهم، وخدموا في أرجائها مصالحهم (مجتمع الفرس) حيث انتحلَ كثيرٌ من يهود شريعة الغاب التوراتية دينَ المجوسية، حتى صاروا من كبار كهنتها، وتمكّنوا أن يحرّضوا ملوكَ فارس على ملوكِ الأرض، وأن يؤلّبوا المجوسيةَ على المسيحية، وهكذا يفعلون[1]، ومن تلك المجتمعات أيضًا المجتمعاتُ الوثنية

(1) د. عبد الله ناصح علوان: الإسلام والقضية الفلسطينية، ص 27.

في أوروبا، حيث ذاب فيها كثيرٌ من اليهود حتّى صاروا أعظمَ حماسًا للوثنيةِ من الوثنيين أنفسهم، وتوصّلوا إلى أعلى المراتبِ في الحكومات المتعاقبة، ممّا أتاح لهم أن يكونوا ملوكًا مثل (نيرون)، وسهّلَ عليهم أن يحرّضوا الشعوب الوثنية على حرب المسيحية[1].

لقد نجحَ يهود الغاب في اختراقِ المجتمعات المسيحية في أوروبا وغيرِ أوروبا وذلك حين اعتنقَ الإمبراطور قسطنطين المسيحية، فانخرطوا في المسيحية، وذابوا في مجتمعاتهم حتّى تمكّنوا من الحصولِ على أعلى مراتب الكهنوت، فتمكّنوا بذلك من خلقِ المذاهب الصليبية المتناحرة، والفرقِ الكثيرة المتشاجرة، بعد أن تمكّنوا قبل ذلك من تحريفِ الإنجيل المحرّف نفسه، وتلاعبوا بتفسيرِه بشكلٍ يخدمُ أهواءَ يهود شريعة الغاب ومصالحهم، ويتمشى مع مخططهم السرّي في سحقِ المسيحية والقضاء عليها؛ فكان من نتيجة ذلك أن اشتعلت نيرانُ الحروبِ بين الطوائفِ المسيحية الصليبية، والتهمت هذه النيرانُ من أبنائها ما لا يُحصى عددُه دون أن يتأثّرَ يهوديٌّ منافق واحد.

وممّا يؤكده كثيرٌ من الباحثين والمتتبعين للأحداث والتاريخ، أن المنافقين من يهود الغاب عبيد الأمس واليوم والغد، قد اعتلَوا منصبَ البابا (البابوية) أكثرَ من مرّة، وجعلوا الآخرين الذين تحت إمرتهم دمىً يحركونهم كما الدوابّ ويسوقونهم لخدمةِ المسيحية الصليبية في الظاهر، ولخدمة المصالحِ اليهودية في حقيقة الأمر وواقع الحال[2].

---

(1) الإسلام والقضية الفلسطينية، مرجع سابق، ص 27.

(2) د. عبد الله ناصح علوان: الإسلام والقضية الفلسطينية، ص 27، انظر اليسوعية والفاتيكان والنظام العالمي الجديد، حيث يرى مؤلفه فيصل بن علي الكاملي أنّ كلّ المخططات التآمرية ضدّ العالم بما في

فساد يهودِ الغابِ ومكرُهم بعد الإسلام:

لقد وصلَ مكرُ اليهود وفسادهم أوجه، وبلغَ أشدّه بعد أن صدحَ المصطفى -صلّى الله عليه وسلّم- برسالة الإسلام، فما إن علمَ اليهود أنّ النبوّةَ أضحت في العرب، وأنّ الإسلامَ نسخَ الدياناتِ السابقةَ برسالةٍ عالمية شاملة متكاملة، وتشريعٍ ربّاني خالد ومحفوظ من قِبل الله -عزَّ وجل-، حتّى دقّ عندهم ناقوسُ الخطر وشرّعوا الأبواب للمؤامرات ولتدبير المكائد، لإبطالِ نبوة محمّد -صلّى الله عليه وسلّم- وطمسِ معالم الإسلام، وتشويه شرعة الله ونقضِ العقيدة، ولقد تعدّدت أساليبُ يهود الغاب اللئيمة، ومؤامراتُهم الغادرة في عصر النبي -صلّى الله عليه وسلّم- بشكل خاص، وفي العصورِ التي تلته بشكلٍ عام، وهذه بعض أهمّ تلك المؤامرات والأساليب:

1. كتمُهم الحقّ وهم يعلمون، قال الله: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾.(1)

2. تحريفُ الكلِم عن مواضعه؛ ليقولوا على اللهِ الكذبَ، قال -جلّ جلاله-: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ.﴾(2)

ذلك ضدّ اليهود والتي تقودها الماسونية تصدر من الفاتيكان، الذي يعدّ العدة لمجيء المسيح في آخر الزمان ليقود جيشه في معركته الأخيرة.

(1) سورة البقرة، الآية 101.

(2) سورة آل عمران: الآية 78.

3. ردُّ مَن آمنَ من المؤمنين إلى الكفر، وقد قال عن ذلك المولى -عزَّ وجل-: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾[1].

4. إبطالُهم نبوّةَ رسولِ الله -صلّى الله عليه وسلّم-، كقولهم: إنّ الله أخذَ علينا العهدَ في التوراة ألّا نؤمنَ لرسول إلّا إذا جاءنا بقربانٍ تتنزّل عليه النار من السماء فتأكله، قال الله: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[2].

5. إيقاعُ الفتنةِ بين المسلمين، ومن أهمِّ الأمثلةِ على ذلك أن يهودَ الغاب رأَوُا الأوسَ والخزرجَ بعد الإسلام متآخين متحابّين، فأرسلوا من يندسُّ بينهم ليذكرهم شيئًا من مفاخرِ الحرب (يوم بعاث)، فاستطاع أن يحميَ أنفَ الفريقين، ويثيرَهما بعضَهما على بعضٍ، فقاموا وتنادَوا إلى السلاح، وكادت أن تقعَ بينهما فتنة؛ فبلغ ذلك النبيَّ -صلّى الله عليه وسلّم- فأسرع إليهم، ووعظهم بكلامٍ مؤثّر، وكشف لهم عن مُرادِ اليهودي الدسّاس، فندموا وتعانقوا وتصافحوا، فأنزل الله هذه الآياتِ من سورة آل عمران: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾[3].

6. التشكيكُ في العقيدة الإسلامية، وذلك أنّهم كانوا يبعثون فريقًا من أتباعِهم فيؤمنون برسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- فيفرحُ بهم المسلمون، ويَشيعُ خبرُ

---

(1) سورة البقرة: الآية 101.

(2) سورة آل عمران: الآية 183.

(3) سورة آل عمران: الآية 100.

إيمانهم في المدينة ولكنهم لم يلبثوا حتّى يعودوا إلى الكفرِ بحجّة أنّهم درسوا حالَ الرسول –صلّى الله عليه وسلّم– من قربٍ، ودرسوا طبيعةَ دينه عن تدبّرٍ، فلم يجدوه الرسولَ الذي بشّرت به التوراة، ولم يجدوا قرآنه المنزلَ من السماء، وبعد تمثيلِ هذا الدور الخسيس يعلنون للملأ أنّهم مضطرون إلى أن يعودوا إلى اليهودية، ما دام النبيُّ المنتظر لم يُبعث بعد، وبهذا الأسلوبِ التآمري اللئيم يصدّون عن سبيل الله مَن آمن، ويزرعون الشكَّ والحيرة في أنفسِ ضعفاء الإيمان من المسلمين، وقد قال –جلّ جلاله– في دورهم هذا في سورة آل عمران: ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[1]

7. اللجوءُ إلى الاستهزاء والسخرية، كاستهزاء اليهود بالآذان وتغييرِ القبلة ونحوها من شعائر الإسلام الدينية، وعن ذلك قال المولى: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا﴾[2]، وقول الله: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾[3]

8. تآمرُ يهودِ الغاب على المسلمين في غزوة الأحزاب، وذلك أنّ نفرًا من اليهودِ في غزوة الأحزاب وعلى رأسهم سلام بن أبي الحقيق، وحيي ابن أخطب... وغيرهما من يهود الغاب، خرجوا حتّى قدِموا على قريش، فدعَوهم وحرّضوهم على حربِ رسول الله –صلّى الله عليه وسلّم– وقالوا: إنّا معكم حتّى نستأصلَه، فقالت قريش: يا معشر يهود: إنّكم أهلِ الكتاب الأوّل والعلم بما أصبحنا

(1) سورة آل عمران: الآية 72

(2) سورة المائدة: الآية 58

(3) سورة البقرة: الآية 142

نختلف في نحن، أديننا خير أم دينه؟»، قالت اليهود: بل دينكم خيرٌ من دينه، وأنتم أولى بالحقّ منه، وسُرّت قريش بما سمعت، وزادها إصرارًا على العدوان، فوعدتِ اليهود أن تكون معهم في الزحف على المدينة؛ وترك اليهودُ قريشًا إلى أعرابِ غطفان فعقدوا معهم حلفًا مشابهًا لما تمّ مع قريش، ودخلَ في هذا الحلفِ عددٌ من القبائل الناقمة على الدين الجديد؛ وبذلك نجحَ ساسةُ اليهود وكهنتهم في مؤامراتهم السرية، واستطاعوا أن يؤلّبوا أحزابَ الكفرِ على النبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- ودعوته، ولكنّ الله مزّقهم شرَّ ممزّق، وجعلهم عبرةً لمن يريد أن يعتبر.

وهناك العديد، العديد من المؤامراتِ اليهودية الماكرة ضدّ الإسلام والمسلمين وصولًا إلى محاولةِ قتل المصطفى -عليه الصلاة والسلام-، تلك المحاولةُ التي أفشلها اللهُ -عزَّ وجل- وحمى رسولَه محمّداً -صلّى الله عليه وسلّم-منها.

هذا وقد أجلى المصطفى -صلّى الله عليه وسلّم- يهودَ بني النضير ويهودَ بني قينقاع عن المدينة لغدرهم، حيث رأى المصطفى -عليه الصلاة والسلام- أنّ وجودَ اليهود في المدينة يؤدّي إلى بعثِ الفتنة والتآمر على الإسلام والمسلمين.

وقال الله -عزَّ وجل- في سورة الحشر: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا ۖ وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللهِ فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ * وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ * ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللهَ وَرَسُولَهُ ۖ

وَمَن يُشَاقِّ اللهَ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[1]

أمّا يهودُ بين قريظة فقد قُتلوا جميعًا واحدًا بعد واحد، وذلك لغدرهم الذي كاد أن يؤدّيَ إلى هلاكِ المسلمين في غزوة الخندق، وقد ذكر القرآنُ الكريم قصّتَهم في سورة الأحزاب التي تتحدّث عن غزوة الخندق حين قال: ﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا* وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا ۚ وَكَانَ اللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾[2] وهكذا كانت عقوبةُ الإسلام عادلةً ورائعة في حقّ كلّ ماكرٍ من اليهود، خائنٍ للعهد، خافرٍ للذمة، لأنّ اللينَ مع الماكرين الحاقدين اللؤماء لا ينفعُ، والتسامحَ مع الخبثاء لا يجدي.

وهذا مجردُ غيضٍ من فيض، ممّا كان يفعله اليهود بالمسلمين وبرسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- أمّا ما فعلَه يهودُ الغاب بعد عصر النبوة، فأعظمُ من ذلك بكثيرٍ، وقد عرّجنا على بعضِه في المباحثِ السابقة والفصول، إلّا أنّنا لم نعرِض ما تعرّض له القرآن الكريم من تدليس وحذف وتحريف وتلاعب على يد عبيد شريعة الغاب والخرافة، وهو ما يجب على المسلمين في المشارق والمغارب أن يعرفوه ليحذروه ولكي يتصدّوا له، وذلك لاقتلاع جرثومةِ المكر والفساد اليهوديّ من الأرض.

وهذا سرد مقتضبٌ لبعض ما تعرّض له القرآن الكريم من قبل يهود شريعة الغاب والخرافة:

(1) سورة الحشر: الآيات (2-4).

(2) سورة الأحزاب، الآيات (26 – 27).

أوّلًا- التدليس: والتدليس هو ضمُّ زياداتٍ وإضافات ليست في النصِّ أو الموضوع أو المبحث الأصلي، مغالطةً وتضليلًا، ومن أمثلة هذا الأصلِ من أصول المغالطات، طائفةٌ من صنوف التبديل التي غيّر بها يهودُ شريعة الغاب شريعةَ موسى وتوراته، وما قام به عبدةُ الصليب لشريعة عيسى -عليه السلام- والتي غدت بفعلهم الآثم شريعةَ آثام وخطايا.، وقد لا تزيد الإضافة على كلمة صغيرة، كحرف من حروف الجرّ، أو النفي، وقد لا تزيد الإضافة على حرفٍ في كلمة، ولكنّ الحرف يغيّرُ معنى الكلمة، وقد يقلبه إلى ضدّه فيقلب بذلك الحقّ باطلًا، والباطل حقًّا، فالمغالطُ الشيطاني قد يحاول أن يقلب معنى قول الله في القرآن الكريم: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ﴾ بإضافة كلمة (غير) قبل كلمة الإسلام.

هذا حيث يقوم يهود شريعة الغاب والخرافة بين الحين والآخر بطبعِ نسخٍ من القرآن الكريم، فيها بعض هذا التغيير والتدليس، لتوزيعها في شعوب مسلمة بعيدةٍ عن عواصم العالم الإسلامي ومدنه التي ليس فيها علماء وحفّاظ للقرآن الكريم، كعمقِ إفريقيا وجزر ماليزيا وأندونيسيا المعزولة، ولكنّ الله -جلّ جلاله- يقيّض لكتابه من يسارعُ إلى اكتشاف الزيادة، أو التغيير، فيهبّ علماء العالم الإسلامي لإتلاف هذه النسخ المزيدةِ تحريفًا، ويستبدلون بها كتبًا جديدة من القرآن الكريم، وهكذا يظلُّ كتاب الله (القرآن) محفوظًا بحفظِ الله له، تحقيقًا لقوله -عزَّ وجل-: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.

وقد كثر التدليسُ أيضًا فيما روي عن سيدنا محمّد -صلّى الله عليه وسلّم- من أقوالٍ وأحاديثَ نبويّة، ولكنّ الله -عزَّ وجل- سخّرَ لها علماء الحديث، فكشفوا المدلّس منها، وأبعدوا عنها المفترى.

هذا ويطلق علماء الحديث «الإسرائيليات» على الأحاديث الموضوعة المنقولة

من التوراة والإنجيل. وذلك نسبة ليهود شريعة الغاب والخرافة.

ثانيًا- الحذف: وهو حذفُ ما يغيّرُ حذفُه المعنى المرادَ، ومنه الاقتصارُ على ذِكرِ بعضِ النصوص، وقد يكتفي اليهوديُّ المحتالُ بحذفِ كلمةٍ أو جملة، أو حرفٍ من كلمة، إذا كان ذلك يفسدُ دلالةَ النصّ أو يغيّرها، أو حذفِ شرطٍ أو قيد في الموضوع.

وحدثَ أن بلغتِ الخسّةُ في يهود الغاب أن قاموا قبل عدّةِ أعوامٍ بطباعة آلاف من المصاحف، داخلَ أرض الخرافة التي استعمروها (بيت المقدس) وقاموا بتوزيعِها في دولة جنوبِ إفريقيا ودولٍ إفريقية أخرى، وصولًا لعددٍ من جزر الفلبين التي يقطنُها المسلمون، وقد حذفَ يهود الغاب من تلك المصاحف كلمةَ (غير) من قول الله -عزَّ وجل-: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾، ولكن اكتشفَ هذه اللعبةَ الخبيثة بعضُ المسلمين، فهبَّ أهل الحقّ، أهل الشريعة الإسلامية الربّانية وجمعوا نسخَ هذه الطبعة وأحرقوها متتبعين ما تناثرَ من النسخِ هنا وهناك بوسائلَ شتّى.

أمّا الاقتصار على ذِكرِ بعضِ النصِّ الذي هو من الحذف في الحقيقة، لأنّه قد يفسدُ المعنى ويغيّرُه إلى النقيض، فمن الحيلِ التي يستخدمها اليهود والمستشرقون والمبشّرون، وحتّى الملحدون لدى كتابتهم في المسائل الإسلامية، بغرض إيقاع القارئ في مفاهيم فاسدة عن الإسلام، فيأخذون مقطعًا من النص، مع أنّه مرتبط بسوابقه، أو بلواحقه أو بهما معًا، ارتباط الشرط بالجزاء، أو ارتباط المطلق بقيوده، ونحو ذلك.

ومن الأمثلة المشهورة التي يستشهد بها الناسُ لمثل هذا الاقتصار والاقتطاع المفسد للمعنى، الاستشهاد بقول الله -جلّ وعلا-: ﴿فويلٌ للمصلّين﴾ دون ذكر القيدِ المتّصل به في السورة، وهو قول الله -عزّ وجل-: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ* الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ* وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾.

ومن الأمثلةِ على ما فعله وما زال يفعله اليهود المتهجمون على الإسلام والقرآن والسنة، أن يقتطعوا من كلام الرسول -صلّى الله عليه وسلّم- جملة: «لا تفكروا في ذاتِ الله فتهلكوا» وأخذوا يتهمونه بأنّه -عليه الصلاة والسلام- يحجرُ على الأفكار ويقيّدها ويحجزُ حريّتها، مع أنّ صدرَ الحديث الشريف فيه قوله -صلّى الله عليه وسلّم-: «تفكّروا في خلقِ الله» أو «تفكّروا في آلاء الله»، ومن الحقائق أنّ التفكّرَ في ذات الله مهلكة.

ثالثًا- التحريف: التحريف والتصحيف في النصّ، إذ كان ذلك يغيّر المعنى ويخدم غرض يهودِ شريعة الغاب المحتالين، والتحريف يكون بتغيير الكلمةِ في النص، ووضعِ كلمةٍ أخرى مكانها، يختلفُ رسمُها عن رسمِ الكلمة الأصلية ولكنّها قد تشبهها، والتصحيفُ يكون بالتلاعبِ بنقطِ الحروفِ المعجمة في الكلمة، أو بالتلاعب بحركات الحروف، أمّا رسم الكلمة فلا يتغيّر مثل كلمة {مجترون} تصحّف إلى (مخيرون)، ومثل: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ تصحّف إلى: ﴿إنّما يخشى اللهُ من عباده العلماءَ﴾.

ويستخدم المغالطون اليهودُ ومن لفّ لفيفَهم حيلتَي التحريفِ والتصحيف في النصوص للتضليل، وإيقاعِ من يقصدون تضليلَه بالغلط في فهمِ النصّ الذي يثق به، ويؤمن بدلالاته.

ويحاول أعداء الإسلام المغالطةَ بتحريف النصوص الإسلامية وتصحيفها، لتضليل المسلمين، لا سيّما الأجيال التي لا علمَ لها بهذه النصوص، وليس لديها الكتبُ الإسلامية التي هي مراجعها، ولا تدري مكان النصِّ من المرجع لو وضع المرجع الإسلامي بين أيديها.

والتحريف والتصحيف في النصوص أكثرُ مكرًا من الزيادة والحذف، لأنّه يوهم

ببراءةِ القصد، نظرًا إلى التشابه أو التقاربِ بين الأصل والمحرّف أو المصحّف، ونظرًا إلى أنّ كلًّا منها قد يقع به بعضُ النسّاخِ للكتب الإسلامية، وربّما وقع به بعض العلماء الموثوق بهم على سبيل الغفلة أو الخطأ.

رابعًا: التلاعب: التلاعب في معاني النصوص، لإبطالِ حقّ أو إحقاق باطل، وهذا الأصل له ميادينُ فسيحة لليهود المضلّين، نظرًا إلى طبيعة اختلاف آراء الناس في فهم النصوص، ولو صدقوا في ابتغاء الحقّ وفي إرادة الوصول إلى المراد حقيقةً من النصّ، لا سيّما النصوص ذات الاحتمالات المتعدّدة والنصوص المطلقة، والمشتملة على صيغ العموم.

ولليهود وقرنائهم الباطنيين مكرٌ كبير في هذا المضمار، إذ زعموا أنّ لكل نصٍّ ديني ظاهرًا وباطنًا: أمّا الظاهر فما يفهمه علماء الظاهر الذين يتقيّدون بالدلالات اللغوية للألفاظ، ويزعم الباطنيون أنّ هذا الظاهر هو بمثابة القشورِ وهو للعامة، وأمّا الباطن فهو ما يبينه أئمّةُ الباطنيين، وهنا يتلاعب الباطنيون بالمعاني الباطنية، كما توحي لهم شياطينهم ضلالًا وفسقًا وشركًا وانسلاخًا من الدين كلّه، ويزعم الباطنيون أنّ هذا الباطنَ هو بمثابة اللبِّ الذي توجد فيه الحقيقة، وهو للخاصةِ الواصلين إلى الحقيقة، القادرين على تفهّمها وقبولها، ولو كانت تأليهًا للبشر، واستباحة لكلّ موبقةٍ، ولكلّ ظلم وفجور، وقتل وسلب ونهب وكفور.

واليهودُ هم معلمو هذه الحيلة الشيطانية الباطنية، ومكروا عن طريقها بدينِ الله مكرًا كبّارًا، ضلّلوا به فرقًا كثيرة، وبمكرهم ظهرتِ الفرقُ الباطنية منشقّة عن الإسلام والمسلمين.

لقد سعى وما زال يهوُد شريعة الغاب والخرافة إلى نشر فسادهم في الأرض وفي الدين وفي البشر، بل إنّهم تمادَوا في غيّهم وطغيانهم عندما وجّهوا جلَّ مكرهم

وخبثهم نحو القرآن الكريم، نحو رسل الله ورسالاته الربانية السماوية إلّا أنّ الله -عزّ وجلّ- كان ولا يزال يقف لهم بالمرصاد ليحقّ الحقّ ويزهقَ الباطل؛ قال الله -جلّ جلاله- في محكم التنزيل: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ* هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾[1]، وقال الله في أواخرِ العهد المدني في سورة التوبة: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ* هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾[2]

النصُّ الربانيُّ الأوّل يشير إلى إعداد الكافرين الوسائلَ التمهيدية ابتغاءَ إطفاء نور الله بأفواههم، والنصّ الثاني يشير إلى إرادةِ الكافرين اليهود المرجفين إطفاءَ نور الله بأفواههم بعد أن استكملوا إعدادَ الوسائل بحسب تصوّرهم، لذلك كان النصّ الأوّل مشتملًا على قوله -عزّ وجل-: ﴿وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ﴾ بهدوءِ المتمكّن الواثق من قوّةِ نفسه وعجز عدوّه، وكان النصّ الثاني مشتملًا على قوله -عزّ وجل-: ﴿وَيَأْبَى اللهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ﴾، تعبيرٌ فيه حركةُ الناهض بكلّ قوته لقمع عدوّه وإحباط وسائله، ودحض باطله، باطلِ كهنة يهود شريعة الغاب والخرافة.

(1) سورة الصف: الآيات (8-9).

(2) سورة التوبة: الآيات (32 - 33).

المبحث الرابع: الأمريكيون الشعب المختار وسندان اليهود

لقد قدّر المولى -عزَّ وجل- أن يُبتلى المسلمون والعرب والفلسطينيون على مرّ الأزمنة والعصور بغدرِ مطرقةِ المغضوب عليهم اللاإنسانية، مطرقةِ اليهود نقضة العهود والوعود، وقتلةِ الأنبياء والمرسلين، اليهود المتسلّحين بشريعةِ الغاب التوراتية والتلمودية والصهيونية وحتّى الماسونية، شريعة الغاب التي اختلقتها العقولُ الجهنمية الدموية لكهنة شرائعِ التراث اليهودية الخرافية، إلّا أنّ مطرقة اليهود المغضوب عليهم ما كان لها أن تنجحَ أو أن تنجز مهمّتها وتصلَ إلى هدفها ومرماها المتمثل باستعمارِ بوّابة السماء، حيث بيتُ المقدس في قلب أرض كنعان العربية، وأرض إبراهيم أبينا الإسلامية، لولا سندانُ الضّالّين المضلّلين من صليبيّي البروتستانت الدمويّين المنقادين كما الذبائح والقرابين نحو هاوية الجحيم، من قبل يهود شريعة الغاب.

لقد نجحَ يهودُ شريعة الغاب -وباقتدار- بمشاركةِ الفاتيكان لقيادةِ الحرب الضروس ضدّ الفلسطينيين، فالفاتيكان هو رأس التآمر وهو المدبّر والداعم والمغذي الاقتصادي والفكري للحركة الصهيونية وكيانها الغاصب في أرض فلسطين الطاهرة(1).

وما إن ظهرَ المذهب البروتستانتي على يد عبد اليهود وتابعهم ومتبع شريعة غابهم الخرافية مارتن لوثر، في القرنِ السادس عشر، حيث قلبَ هذه الأمور رأسًا

(1) جريس هالسل: النبوءة والسياسة، ترجمة محمد السماك، طبعة دار الشروق الثانية، 2003م.

على عقب، من خلال التغييرات اللاهوتية التي جاء بها، والتي روّجت لفكرةِ أنّ اليهودَ أمّة مفضّلة، وأكّدت ضرورةَ عودتهم إلى فلسطين، كمقدّمةٍ لعودة المسيح المنتظر، وبزوغِ فجر العصر الألفي السعيد، وكان من أهمّ الأسباب التي أدّت إلى حدوثِ هذه التغييرات هو ما دعا إليه لوثر من وجوبِ إقامة الحقيقة الدينية على أساسِ الفهم الشخصي، دون الخضوع لفهمِ رجال الدين لها، «فأصبحَ كلُّ بروتستانتي حرّاً في دراسةِ الكتاب المقدّس وتفسيره واستنتاجِ معنى النصوص بشكل فرديّ، مع عدم الاعتراف بأنّ فهمَه وقفٌ على رجال الكنيسة وحدهم»[1].

وهذا الوضع أدّى إلى تعدّدِ الفرق البروتستانتية نفسِها، حتّى وصل عددُها الآن إلى أكثرَ من 200 فرقةً في مذهبٍ لم يتعدَّ وجودُه أكثرَ من أربعة قرون»[2].

كما أنّه في ظلّ هذا المذهب ازدادَ الاهتمامُ بالعهد القديم، تحت شعارِ العودةِ إلى الكتاب المقدّس باعتباره مصدرَ العقيدة النقية، مع عدم الاعترافِ بالإلهامات والتعاليم غيرِ المكتوبة التي يتناقلها البابواتُ الواحد تلو الآخر، والتي تعتبر مصدرًا مهمًّا من مصادرِ العقيدة المسيحية، وقد أولى لوثر الإنجيلَ اهتمامًا خاصًّا[3]، ففي معرِض ردِّه على بعض أنصار البابوية الذين ذهبوا إلى أنّ الكنيسةَ تسمو على الكتاب المقدّس، قال: «لتتركْ روما ليَ الإنجيل، وسأتمسّكُ به مقابلَ كلّ شيء»[4].

وهكذا أصبحت شريعة الغاب التوراتيةُ (العهد القديم) تشكّل جزءًا مهمًّا من

(1) إليكس جورافسكي: الإسلام والمسيحية من التنافس والتصادم إلى الحوار والتفاهم، ص 134، ط 2، 2000م، ترجمة خلف الجراد، دار الفكر المعاصر، بيروت، وانظر: فيصل بن علي الكاملي، اليسوعية والفاتيكان والنظام العالمي الجديد.

(2) سليمان مظهر: قصّة الديانات ص 231، دار الوطن العربي، القاهرة 1984.

(3) قصة الديانات، المصدر السابق، ص 231.

(4) عبد الرضا الطعان: تاريخ الفكر السياسي الحديث، ص 235، وزارة التعليم العالي، جامعة بغداد.

مصادرِ العقيدة البروتستانتية، وأصبح هو المرجعَ الأعلى للسلوك والاعتقاد، ومصدرًا للمعلومات التاريخية أيضًا، أي أنّ شرائعَ التراث اليهودية التاريخية الخرافية غدت مصدرًا ومرجعًا مهمًّا لعقيدة صليبيّي البروتستانتية (اليهودية).

ولمّا كان العهدُ القديم (شريعة الغاب) قد تكّون من تسعةٍ وثلاثين سفرًا عبارة عن سجل لتاريخ بني إسرائيل في فلسطين، بحسب ما جاءت به نواضح عقول كهنة وحاخامات شرائع التراث اليهودية على فترات متفاوتة من الحقب الزمنية.

وهكذا وفي ظلّ هذا الوضع الجديد غدا الضالون البروتستانت أتباعًا للمغضوب عليهم اليهود، وأصبح العهدُ القديم (شريعة الغاب) مصدرًا أوحد للمعلومات التاريخيةِ عند عامة البروتستانت، حيث اقتصرَ تاريخُ فلسطين على القصص الخرافيةِ المتعلقة بالوجود اليهودي فيها دون غيرهم، وأصبحت شريعةُ الغاب التوراتيةُ المصدرَ الأساس الذي يرجع إليه الباحثون في تدوين تاريخ فلسطين القديم ودور اليهود فيه[1].

وبالتالي أصبح البروتستانت مهيئين للاعتقاد بأنّه لم يكن في فلسطين إلّا الأساطيرُ والقصص التاريخية الخرافية الواردةُ في شريعة الغاب اليهودية، وكان يبدو وكأنّه لا وجودَ للشعوب الأخرى التي عاشت في فلسطين، وهكذا رسخت في أذهان البروتستانت فكرة الرابطة الأبدية بين اليهود وفلسطين باعتبارها وطنهم القومي الذي أخرجوا منه، والذي يجب أن يعودوا إليه طبقًا للنبوءات الواردة في شريعة الغاب.

إنّ الجمعَ بين العهد القديم والعهد الجديد في مجلّدٍ واحد هو من التحولات

(1) أحمد سوسة: العرب واليهود في التاريخ، حقائق تاريخية تظهرها المكتشفات الأثرية، ص 68، إصدارات وزارة الإعلام العراقية، بغداد، (1972م).

البارزة والانعطافات الخطيرة في عالم الأفكار والأديان، حيث إنّه منذ عصر النهضةِ وحركة الإصلاح الديني (التضليل الديني) أخذتِ التفسيرات الحرفية والشخصية لشريعة الغاب اليهودية تنتشرُ وتسود، وذهب أتباعُ هذه الحركة إلى الاقتناع بأنّ ما وردَ في العهد القديم هو نبوءةٌ حرفية عن المستقبل.

وخرجت من بطنِ هذه الحركة وتفسيراتها عقائدُ عبّرت عن المدى الذي وصلت إليه عملية تهويد المسيحية، من بينها العقيدةُ الألفية «وهي عقيدة تعود في جذورها إلى اليهودية، لكن البروتستانتية أحيتها وجعلتها فكرةً مركزية في عقيدتها، وتدور حول عودة المسيح المخلص الذي سيحكم العالمَ لمدة ألفِ عام، حيث يسودُ خلالها السلامُ والعدل في مجتمع الإنسان والحيوان.

وعلى الرغم من أنّ العهد القديم لم يذكر نصًا حول هذه العقيدةِ التي تتحدّثُ عن نهاية الأزمنة، فإنّ عناصرَ يهوديةً روّجت لها، تعبيرًا عن تطلّعٍ يهوديٍّ لفكرة الملك المقدّس، والذي يأتي على هيئةِ (ماشيح عبراني) في حين رأتِ المسيحيةُ التقليدية في هذه العقيدة نوعًا من الهرطقة والكفر، واعتبرت الكنيسة الكاثوليكية هي مملكة المسيح»[1].

كما أنّ حركةَ الإصلاح الديني أعطت وزنًا كبيرًا للغة العبرية باعتبارها اللغة الأصلية للكتاب المقدّس (المدنّس) فلكي يفهم المؤمنون كلمة الله بشكل صحيح، لا بدّ لهم من معرفة اللغة الأصلية التي كتبت بها، وبالتالي أصبح العلماء والمصلحون وحتى العامة منكبّين على دراسة اللغة العبرية وتعلّمها[2].

---

(1) باسل حسين: معركة آخر الزمان ونبوءة المسيح منقذ إسرائيل، ص 9، دار الأمين، مصر، (1993م)، انظر النبوءة والسياسة، مرجع سابق.

(2) محمد السماك: الصهيونية المسيحية ص 35، ط 3، دار النفائس، بيروت 2000.

أمّا الطامّة الكبرى فكانت في عام 1523م عندما صقل سندان الضالين عبر كتاب مارتن لوثر والذي جاء تحت عنوان (المسيح ولد يهوديًا) حيث قدّم فيه رؤية تأصيلية للعلاقات اليهودية المسيحية، من منظور مغاير تمامًا لما اعتاده المسيحيون من قبل، فكان ممّا قاله لوثر في كتابه: «إنّ الروح القدس شاءت أن تنزل كلّ أسفار الكتاب المقدّس عن طريق اليهود وحدهم، إنّ اليهود هم أبناء الرب، ونحن الضيوف الغرباء، وعلينا أن نرضى بأن نكون كالكلاب... كالكلاب التي تأكل من مائدة فتات أسيادها»[1].

وهكذا يمكننا تقدير الخدمات التي قدّمها السندان للمطرقة، أي البروتستانتية اللوثرية لليهودية الخرافية، حيث أعاد مارتن لوثر بعث يهود شريعة الغاب من جديد مؤكّدًا على وجوب عودتهم إلى أرض فلسطين، كمقدّمة لعودة المسيح المنتظر، ولهذا فإنّ الكنيسة الكاثوليكية كانت تصفه بأنّه «يهودي أو نصف يهوديّ-متهوّد» وكان الكاثوليك يقولون: «أنّ لوثر من أصحاب البدع والأضاليل، وإنّه وأمثاله زاغوا عن طريق الإيمان»[2].

وتعود أهمية الأفكار التي جاءت بها حركة الإصلاح الديني، إلى أنّها مهّدت الطريق أمام نفس الأفكار التي نادت بها الحركة الصهيونية في القرن التاسع عشر، من خلال تأكيدها على وجود الأمة اليهودية وضرورة بعث هذه الأمة من جديد، وكون فلسطين وطنًا لليهود، وأنّ عودتهم إليها ضرورة لاهوتية كمقدمة لعودة المسيح، وبزوغ العصر الألفي السعيد، فهذه الأفكار لا تختلف عن الصهيونية كفكرة، «والتي

(1) رضا هلال: المسيحي اليهودي ونهاية العالم، ط 2، ص 63، مكتبة الشروق، القاهرة، 2001.
(2) أحمد شلبي: المسيحية، ص 262، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1979م.

تنطوي في جوهرها على دعوة اليهود للعودة إلى صهيون، أي مناشدة اليهود في العالم للعودة إلى أرض إسرائيل، بحدودها التي ورد ذكرها في الكتب المقدسة لدى اليهود»[1].

وقد أدّى انتشار الأفكار المتعلقة ببعث الأمة اليهودية بين معتنقي المذهب البروتستانتي، إلى سعي الكثيرين منهم لتحقيقها طبقًا للنبوءات الواردة في شريعة الغاب التوراتية الخرافية، وهكذا تحوّلت فلسطين في الضمير البروتستانتي من الأرض المقدّسة للمسيحيين، إلى أرض شعب اليهود المختار شعب الله، فآمن البروتستانت أنّ اليهود لا بدّ عائدون إلى الأرض المقدّسة كما جاء في النبوءات اليهودية التوراتية، وآمن بعض البروتستانت بضرورة اعتناق اليهودية للمسيحية تمهيدًا لقدوم المسيح، وآمن بعضهم بإمكان تحوّلهم هذا بعد قدومه.

وقد ظهرت لديهم نزعة التخلي عن المبادئ الخلقية المسيحية، واستعاضوا عنها بالعادات والأخلاق اليهودية، بل إنّ إحدى مجموعاتهم البروتستانتية دعت الحكومة البريطانية لإعلان التوراة دستورًا للدولة، وذهب بعضهم إلى أبعد من ذلك فاعتنقوا اليهودية، أمّا الذين بقوا على مسيحيتهم فقد أخذوا ينظرون بعطف متزايد إلى أولئك الذين أطلقوا عليهم اسم شعب الله القديم (اليهود) وتحديدًا يهود شريعة الغاب.

وهنا وما إن وصلت حركة الإصلاح الديني إلى ذروتها في إنجلترا في القرن السابع عشر، في عهد الثورة (البيوريتانية) عندما تولّى أولفرت كرومويل السلطة وأعلن الجمهورية، حتى شهدت نهاية الحرب الأهلية ظهور محاولة البيوريتانيين الاستفادة

(1) مؤسسة الدراسات الفلسطينية، القضية الفلسطينية والخطر الصهيوني، ص 51، بيروت 1973م.

من التسوية الثورية لغرض استكمال الإصلاح الديني، وإقامة مؤسسة دينية جديدة تستند إلى البروتستانتية الربانية الحقّة، تعم كلمتها المملكة وتستعيد (الكثلكة) مرة وإلى الأبد من الجسم السياسي البريطاني.

وقد تأثر المذهب البيوريتاني كما بينّا في بداية هذا المبحث تأثرًا عميقًا بروح شريعة الغاب التوراتية أكثر بكثير ممًا تأثّر بروح المسيح ابن مريم -عليه السلام-، وبروح القتال الدموي المقدّس أكثر منه بروح الحبّ والسلام عند السيد المسيح -عليه السلام-.

وهكذا تمّت الإطاحة بالملك جيمس الثاني الكاثوليكي المذهب، وهرب من البلاد، وتمّ وضع لائحة الحقوق عام 1688م ووضع الإطار الديني الذي توّج في فترة لاحقة بأن أصبح العهد القديم كتابهم الوحيد الذي يستمد منه البيوريتانيون فلسفتهم وأفكارهم ومعتقداتهم وطريقة سلوكهم.

أمّا كيف غدا الأمريكيون شعب الله المختار؟ وهو سؤال المبحث فنقول: أنّه عندما بدأ الاستيطان الأوروبي لأمريكا (أرض الهنود الحمر) فإنّ معظم المهاجرين الجدد كانوا من البروتستانت الدمويين بطبعهم وبعقيدتهم التوراتية المستمدة من شريعة الغاب اليهودية، وهكذا كان هؤلاء المستوطنون الجدد يحملون معهم تراثهم الديني المستمدّ من شرائع التراث اليهوديّ، والذي أخذ يلعب دورًا رئيسًا في تشكيل الفكر الأمريكي الاستعماري الدموي القائم على استباحة الآخر، أرضًا وجسدًا ودينًا وفكرًا، منذ ذلك الوقت. وممّا قوّى هذا الدور الدمويّ هو ربط هؤلاء المستوطنين بين تجاربهم التي مرّوا بها منذ رحيلهم من أوروبا وإنجلترا بالذات، وبين التجارب التي مرّ بها اليهود القدماء عندما فروا من ظلم فرعون إلى فلسطين؛ حيث جعل البروتستانت أرض الهنود الحمر بمثابة أرض كنعان، وشبّهوا أنفسهم

بشعب الله المختار، الذي فرّ من ظلم فرعون (الملك جيمس الأوّل) وهربوا من أرض مصر (إنجلترا) بحثًا عن أرض الميعاد والخرافة. حيث آمنوا أنّ تجربتهم الخاصّة المتمثلة بالهروب إلى البراري لاستعمارها وقتل أهلها، مساويًا لما قام به اليهود الذين قادهم موسى من مصر إلى التيه ثمّ إلى أرض كنعان كما يزعمون.

وقد آمنوا أنّ ما قاموا به لم يكن في الحقيقة إلّا تجسيدًا حيًّا لتجربة الخروج، وقد فسّروا تجربتهم على أنّها تكرار للتاريخ الذي شكّله شعب الله القديم، فهم كبروتستانت مثلهم مثل اليهود فروا من الظلم بحثًا عن الأرض الموعودة التي تدرّ لبنًا وعسلًا، وجابهوا الصعاب في رحلتهم عبر المحيط، كما حدث لليهود في صحراء سيناء عند خروجهم من مصر، كما أنّهم جوبهوا بمقاومة السكان الأصليين (الهنود الحمر) كما جوبه اليهود بمقاومة أهل فلسطين، وعندما كانوا يعلنون الحرب على أصحاب البلاد الأصليين كانوا يستحضرون شريعة الغاب التوراتية اليهودية الدموية، حيث ثمة تشابه بين تجاربهم في حربهم مع الهنود الحمر، وتجربة يهود الغاب في حربهم ضدّ الفلسطينيين في الماضي والحاضر.

لقد كان هؤلاء المستوطنون يعلمون أنّ الأرض التي استولوا عليها من سكّانها الأصليين ليست أرضهم، كما أنّهم يعلمون أنّ ما يقومون به من عمليات إبادة وقتل واضطهاد وتشريد للهنود الحمر يتنافى مع أبسط المبادئ الأخلاقية الدينية الربانية التي أنزلها الله -عزّ وجل- على موسى وعيسى -عليهما السلام- لذلك كان هؤلاء البروتستانت المجرمون بحاجة إلى شيء يبرر لهم أفعالهم اللا إنسانية هذه، ويضفي عليها نوعًا من الشرعية التشريعية الدينية والأخلاقية ولو مزيّفة ومكذوبة وخرافية.

فلم يجد الأمريكيون شعب الله المختار هذا التبرير إلّا في شريعة الغاب التوراتية، فكما أنّ يهود شريعة الغاب الدموية برّروا احتلالهم لفلسطين بالادّعاء بأنّها الأرض

الموعودة التي وهبها الله لشعبه المختار، فإنّ المستوطنين الجدد فعلوا نفس الشيء بالادّعاء بأنّ الله اختار العنصر (الأنجلوسكسوني البروتستانتي الأبيض) لقيادة العالم.

ومن المضحك المبكي في آن واحد أنّ بعضهم حاول أن يجد رابطة بينهم وبين اليهود الذين يدّعون أنّهم شعب الله المختار، حيث يقول (ريتشارد بروترز) في كتابه (المعرفة المنزلة للنبوءات والأزمنة)[1]: «إنّ الإنجليز السكسون هم من أصل يهودي، وأنّهم ينحدرون من سلالة الأسباط الذين ادّعى اليهود أنّ أفرادها فقدوا بعد اجتياح الآشوريين لمملكة إسرائيل عام 721ق.م».

لقد أعطى الأمريكيون البيض معركتهم مع الهنود الحمر الطابع الديني وكأنّهم يخوضونها بالنيابة عن الله والمسيح، ليبرّروا اضطهادهم سكّان البلاد الأصليين، وسرقة أرضهم؛ «وعندما زحف (أبناء الرب) من جزيرة روانوك باتّجاه الغرب لم تكن حرب الإبادة والتطهير العرقي، وحرق المحاصيل، ومصادرة الأراضي، وإطعام الأطفال الهنود الحمر للكلاب إلّا مظاهر إرادة الله (يهوه) في العهد القديم»[2]، عهد شريعة الغاب الحيوانية.

وهذه العقلية المريضة المتعالية، التي لم ترَ في الآخرين (الهنود الحمر) سوى وثنيين مجرّدين من إنسانيّتهم ومن حقوقهم ولا يستحقّون الحياة، ليست بعيدة عن فكرة شعب الله المختار، وهي رؤيا كانت كافية لاستعباد الهنود، والدعوة إلى استحالة دمجهم في الأمّة، حيث استند (التطهيريون) الإنجليز لتبرير مطاردتهم للهنود الحمر وسرقة أراضيهم إلى سفر يشوع، ومنطق الإبادة المقدّسة في العهد القديم،

---

(1) محمد ربيع: أزمة الفكر الصهيوني، ص 46، المؤسسة العربية للدراسات، عمان 1995م.

(2) منير العكش: حق التضحية بالآخر (أمريكا والإبادات الجماعية)، ص152، رياض الريّس للكتب والنشر، بيروت 2002.

وكتب أحدهم يقول: « بديهيّ أن الرب يدعو المستوطنين إلى الحرب، فالهنود اعتمدوا على عددهم وأسلحتهم كما فعلت قبائل أرض كنعان العمالقة والفلسطينيون الذين تحالفوا مع غيرهم ضدّ شعب إسرائيل، وفي ظلّ هذه الذهنية مورست الإبادة الجماعية ضدّ الهنود وكأنّهم هم الذين غزوا أرض المستوطنين، فيما كان المهاجرون ينهبون أرضهم ويدمّرون حياتهم ويسلبون أرواحهم»[1].

لقد كان هؤلاء الغزاة الأوائل الذين يسمّون بالحجاج أو القدّيسين، يعتبرون هذا العالم الجديد (أرض الهنود الحمر) بديلًا عن (أورشليم) والأراضي المقدّسة، ولهذا فقد سمّوه بكلّ الأسماء التي أطلقها اليهود عبر شرائعهم التراثية الخرافية على أرض كنعان، ولا يزال التاريخ الأمريكي إلى الآن يضفي على هؤلاء الحجاج السفاحين قداسة طوباوية، ويعتبرهم أوّل نموذج للاستثناء الأمريكي الذي فضّله الله على العالمين، وأورثه ما أورث بني إسرائيل من قبل، وجعل العهد الذي عقدوه مع الله على متن سفينتهم الأسطورية (مايفلاور) من اللحظات النادرة الخالدة في التاريخ الإنساني، كما يقول الرئيس الأمريكي (جون آدمس): «فعهدهم مع الله جبّ عهد الإسرائيليين القدامى، وتأسيس مستعمرتهم على صخرة بليموث ضاهى تأسيس الكنيسة على صخرة بطرس. قضيّة هؤلاء الحجاج هي الأصل الأسطوري لكلّ التاريخ الأمريكي، ولا يزال كلّ بيت أمريكي يحتفل سنويًّا بعيد الشكر بتلك النهاية السعيدة التي ختمت قصّة نجاتهم من ظلم فرعون البريطاني، وخروجهم من أرضه وتيههم في البحر، وعهدهم الذي أبرموه على ظهر سفينتهم مع يهوه، ووصولهم في

(1) عبد الغني عماد: صناعة الإرهاب، ص (74 – 75)، دار النفائس، بيروت، 2003م.

النهاية إلى أرض الميعاد»[1].

ويعتبر هذا العيد الطقسي من أكثر أعياد أمريكا قدسية، ففي هذا العشاء الطقسي الذي يذبحون فيه سنويًّا بين عشرين وثلاثين مليون ذبيحة قربانًا لله الذي وقف منذ اللحظات الأولى لاستعمار أمريكا إلى جانب الشعب الإنجليزي البروتستانتيّ المختار.

هذا وتعزو أمريكا وبشكل جزئي هويتها الوطنية إلى انتشار كثير من الأساطير القوية التي انبثقت في أوائل تاريخها، حيث يرتبط كثير منها بالآباء المؤسسين وقد تكون أقوى هذه الأساطير الخرافية أسطورة بيان المصير كما يسمّيه علماء التاريخ، وهو الاعتقاد بأنّ الاستيطان في تلك الأراضي الشاسعة غير المسكونة وترويضها من قبل المستوطنين الأوروبيين، كان حدثًا تمّ بموجب مقاصد إلهية، فالله اصطفى الأمّة الأمريكية من بين الأمم والشعوب وفضّلها عليهم، وجعلها شعبه المختار وذلك من أجل قيادة العالم وتخليصه من الشرور[2].

وقصّة هذا الاصطفاء يمكن روايتها كالآتي: هرب اناس رياديون شجعان من الاضطهاد الديني والسياسي، الذي لاقوه في أوروبا، وواجهوا عقبات كبيرة في تحقيق أحلامهم بوجود دولة حرة لمواطنين أحرار في تلك البقاع غير المروّضة، ومن بين هذه العقبات، وجود سكان أصليين (متوحّشين) استخدموا وسائل إرهابية لإحباط مقاصد الرياديين، ولكن، بمعونة الله، استطاع هؤلاء المستوطنون الشجعان أن يهزموا

(1) منصور عبد الحكيم: الإمبراطورية الأمريكية، البداية والنهاية، ص 37، دار الكتاب العربي، سوريا 2005م.

(2) منير العكش: حقّ التضحية بالآخر (أمريكا والإبادات الجماعية) ص 149، رياض الريّس للكتب والنشر، بيروت 2002م.

(المتوحشين)، ويطردوهم خارج تلك الأراضي، وهكذا مهّدوا الطريق أمام الذين كانوا قادرين بشكل أفضل على استغلال المصادر التي وهبهم إياها الله في تلك الأراضي بشكل أفضل.

غير أنّ بعض عناصر هذه القصّة والمتعلقة بالأسطورة غير المحبوكة فضحتها العلوم والمعارف الحديثة، عندما ركّزت على وحشية هذا التطهير العرقي، وعواقبه السلبية، لكنّها لا تزال تشكّل الهوية الذاتية الأمريكية، ويبدو هذا واضحًا في الطريقة الوقحة التي يستطيع بها السياسيون ومن بينهم الرئيس الأمريكي السابق دونالد ترامب، ومن قبله جورج بوش الأب والابن أن يبحثوا عن الدعم لمغامرات سياساتهم الخارجية، باقتباسهم عناصر رئيسية من هذه الأسطورة والخرافة، أي إنّ أي هجوم على أمريكا هو هجوم على الحرية»[1].

يقول منير العكش في كتابه (حقّ التضحية بالآخر): «لقد كانت قصص اجتياح كنعان في العهد القديم تمدّهم بالأسس الأخلاقية اللازمة لتماسك هذه السيكولوجية الاستعلائية، ولتبرير عنصريّتها وعنفها المميت، ولم يكونوا واثقين إلّا من شيء واحد: أنّ الله فضّلهم واصطفاهم على العالمين، وأعطاهم الأرض وحق تقرير الحياة، والموت والرزق لكلّ من يعيش فوق هذه الأرض، هكذا حمل شعب الله سيف الجلّاد المقدّس، ولم يساوره شكّ في أنّ الإبادات لم تكن إلّا تدبيرًا إلهيًّا مباركًا، ورسالة عهدها الله إليهم»[2].

وبناء على هذا الموقف العنصري المتعالي، المغلّف بالمعاني الدينية التوراتية

---

(1) جون هيوبرز: مقال تحت عنوان (عندما تختلط الأساطير المسيحية باليهودية، جريدة الخليج الإماراتية، (15/ 2/ 2003م).

(2) منير العكش: حق التضحية بالآخر، ص 59، مرجع سابق.

الدنيئة والبروتستانتية الأدنى والأحقر، لم يجد المؤسسون الأوائل لأمريكا أي حرج في إبادة الهنود الحمر واستعباد الزنوج ما داموا أجناسًا أقلّ مرتبة ومتوحّشين، وهو نفس الموقف الذي استخدمه يهود شرائع التراث اليهودية الخرافية، والتي خلفت بكهنتها شريعة الغاب الحيوانية قديمًا، وحديثًا مع الفلسطينيين، أهل أرض كنعان وسكّانها الأصليين، وهكذا برّرت مطرقة المغضوب عليهم اليهود، ما قام به ويقوم سندان الضالين من البروتستانت، وهكذا دواليك.

لقد غدت هذه الأخلاق الحيوانية الإبادية بنفاقها وبسماتها الكهنوتية البروتستانتية الإنجليزية المسمومة عقيدة وأيديولوجيا، بل صارت النواة الصلبة للقومية الأمريكية التي لا تزال تخصّب السياسة والأدب والثقافة والفن والسينما الهوليودية اليهودية البروتستانتية، وصناعة الجريمة والموت والدمار، وتعطي أوضح صورة لمفهوم الأمريكي عن نفسه وعن العالم، هذه الأخلاق الحيوانية اللا أخلاقية التي ضربت جذورها عميقًا، في فكرة أنّ الأمريكيين هم شعب الله المختار، وأنّ اليهود هم شعب الله المختار، وأنّ الإله (يهوه) هو إلههم وحدهم، وأنّ الموت والعبودية والدمار للأغيار، لأهل أرض كنعان الفلسطينيين وللعرب والمسلمين، وحتّى البوذيين الصينيين والآسيويين، أمّا اليهود والبروتستانت فلهم الحقّ كلّ الحقّ في استباحة الأغيار، واحتلال أراضيهم وإقامة شريعة الغاب فيهم.

لذلك فإنّه من السذاجة والغباء بمكان لنا نحن المسلمين، أهل الشريعة الإسلامية الربانية الحقّة أن نعتقد ولو لوهلة أنّ الحضارة الغربية حضارة لا دينية، وذلك قياسًا على الإفرازات الأخلاقية والفكرية المضللة لهذه الحضارة، والتي تدّعي فصل الدين عن الدولة والسياسة، وهذا الاعتقاد خاطئ لا محال، وقد يصدق ولو جزئيًا على بعض الدول الغربية، ولكنه لا يصدق عليها كلّها، فهو يصدق على تلك الدول

الكاثوليكية والتي سبق وأن عانينا منها في حملاتها الصليبية السياسية الدينية على بيت المقدس، وعلى العديد من الأراضي الإسلامية، ومازلنا نعاني منها حتى يومنا، ولكنه لا يصدّق ولن يصدّق بحال من الأحوال على الدول البروتستانتية مثل بريطانيا والولايات المفكّكة الأمريكية بالذات.

ومن البدهيّ أنّ العلاقة بين الدولة والكنيسة الأنجليكانية لا تزال علاقة مشاركة بحيث يمكننا وصف بريطانيا بأنّها دولة الكنيسة، كما يمكننا وصف كنيستها الرسمية بأنّها كنيسة الدولة، فالملك لا يجب فقط أن يكون بروتستانتيًّا، بل وأن يتبع الكنيسة الأنجليكانية الرسمية، وبمجرّد تتويجه ملكًا فقد أضحى رئيس الكنيسة والمسؤول عن تعيين الأساقفة، ورئيس أساقفة كانتربري هو الذي يضع التاج على رأس الملك، والبرلمان هو الذي يشرف على تنظيم العبادة، ويفرض سيطرته على الشؤون الدينية بشكل يحول دون تمتّع الكنيسة الرسمية بأيّ استقلال في إدارة شؤونها.

وبالعودة إلى الأمريكيين شعب الله المختار، نجد أنّ نظرة شاملة لطرق تفاعل الدين والسياسة في أرض الهنود الحمر (أمريكا) منذ التاريخ المبكّر للهجرة إلى تلك الأرض، وبناء المستعمرات، وحتّى يومنا هذا، ستجعلنا نتبيّن أنه لا يمكن فهم التاريخ الأمريكي المعاصر، دون فهم جدلية العلاقة بين الدين والسياسة، التي تعد المنظور الكامل للتاريخ الأمريكي، حيث أنّ جذور الأحداث التي تعرفها أمريكا المعاصرة تضرب في أعماق التاريخ والثقافة الأمريكية.

وتعدّ العلاقة بين الدين والسياسة، أحد أهمّ المؤثرات فيها والمحرّكة لها، فالهنود الحمر مثلًا كانوا أشباه بشر، وأبالسة من أعماق الجحيم، وأعداء المسيح، ولذا فإنّ إبادتهم كانت عملًا خيّرًا من أجل المسيح، وضدّ الشيطان إبليس –عليه لعنة الله– ودائمًا بشكل لحوح وقح ومتواصل نجد أنّ كلّ من استهدفه الأمريكان

(شعب الله المختار) على مرّ العصور والأزمنة شيطانًا وإبليس أو من زبانية النار، وبالتالي كان قتال شعب الله المختار له عملًا مقدّسًا في أعمال الله على الأرض.

هنا وفي ختام المبحث نجد ما قاله الحاخام اليهودي (لي ليفنجر) إجمالًا وتبيانًا لما رمينا له: « إنّ مؤسسي أمريكا كانوا أكثر يهودية من اليهود أنفسهم، وهم على حسب ما يزعمون يهود الروح الذين عهد الله إليهم كما عهد إلى يهود اللحم والدم قبل أن يفسدوا ويتخلّوا عن أحلام المملكة الموعودة، ويضيف مخاطبًا المهاجرين الأوائل قائلًا: إنّ يهوديتكم أيها المهاجرون إلى العالم الجديد هي التي أرست الثوابت الخمسة التي رافقت التاريخ الأمريكي في كل محطاته:

1. المعنى الإسرائيلي لأمريكا.
2. عقيدة الاختيار والتفضيل الإلهي والتفوق العرقي والثقافي والفكري.
3. الدور الخلاصي للعالم.
4. قدرية التوسع اللامحدود.
5. حق التضحية بمن سواهم وإبادتهم واعتبارهم، كما تقول التوراة والتلمود جنسًا محتقرًا لا لزوم له ما دام ليس يهوديًا»[1].

وهكذا فقد اقتدى الأمريكيون بالمبادئ الخمسة، بكهنة وحاخامات شريعة الغاب اليهودية وبحرفية كل ما جاء فيها.

(1) أحمد السقا: عودة المسيح المنتظر لحرب العراق بين النبوءة والسياسة، ص 10، ط2، دار الكتاب العربي، دمشق، القاهرة، 2003م.

الأمريكيون سندان اليهود وعبيدهم:

إنّ بيت المقدس الذي جعله الله ساحة للسجال بيننا نحن أهل الشريعة الإسلامية وبين يهود شريعة الغاب وعبدة الصليب سيبقى كذلك إلى يوم الدين، لذلك يجب علينا نحن المسلمين أن نعي أنّ عداء اليهود المغضوب عليهم والنصارى الضالين للإسلام وأهله قديم، وقد حذّرنا القرآن الكريم منهم في قوله -عزَّ وجل- في سورة المائدة: ﴿لتجدنَّ أشدَّ النَّاسِ عداوةً للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا﴾[1]، وقد حذرنا سيّد الجهاد وخاتم المرسلين من نوايا القوم وخبثهم وتآمرهم وقد كان عاقد العزم على إخراجهم من جزيرة العرب، وقال -صلّى الله عليه وسلّم- في حديث مسلم «لأُخْرِجَنَّ اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع إلا مسلمًا»[2].

إن اليهود شرذمة بشرية الخلقة حيوانية الأخلاق، شرذمة مغضوب عليها من الله، والنصارى شرذمة ضالة، غدا حالها ومنذ زمن طويل كحال يهود شريعة الغاب وأردى، إنّهم قتلة الأنبياء والمرسلين وأعداء دين الإسلام والمؤمنين، بأن قالوا أنّ الله واحد أحد صمد لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد، قال -عزّ وجل-: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾[3].

نعم، وربّ الكعبة وبيت المقدس، لن ترضى عنك اليهود ولا النصارى بحال من الأحوال، حتّى تتبّع ملّتهم الفاسدة المفسدة، ملتهم ملة شريعة الغاب التي أفسد بها اليهود العالم، ودمّروا أخلاقه بمختلف الوسائل والطرق، وخير تلك الطرق أن

---

(1) سورة المائدة: الآية 82.

(2) أخرجه مسلم في صحيحه في الجهاد، باب إخراج اليهود والنصارى من جزيرة العرب، انظر النووي على مسلم 12/ 312 ط دار المعارف.

(3) سورة البقرة: الآية 120.

يتقمّص يهود شريعة الغاب دور المصلح الفكري! فهذا اليهودي كارل ماركس كان وراء الشيوعية الملحدة التي أفسدت الحياة وفطرة الإنسان ودينه، وذاك اليهوديّ دور كايم الذي سعى لهدم الدين والأخلاق من جذورهما، فأقام أوّلًا فلسفة العقل الجمعي، وادّعى أنّ الاجتماع هو مبدأ التديّن وغايته، وأنّ الجماعة إنّما تعبد نفسها من حيث لا تشعر، أمّا اليهوديّ سارتر الذي كان أحد أعمدة قافلة اليهود، يهود شريعة الغاب المستترة الذين حملوا رسالة تضليل الناس وإغوائهم على منهج إبليس، لتحقيق أهداف اليهود الفاسدة المفسدة التي رسمتها شريعة غابهم، التي مردت على كلّ إثم وشرّ وتضليل ارتبط اسمه بالفلسفة الوجودية الإلحادية المعاصرة، زاعمًا أنّ الإنسان هو الذي يخلق الخير والشر بنفسه، وذلك بحسب أفكاره الخاصة، وأنّه ليس لأحد أن يوجّه إليه النصح، وهو بذلك غدا من المؤمنين بالجبرية الخرافية والمنظرين لها، إذ فرّ من قضية الإيمان بالخالق وحكمته، وخلقه الإنسان حرًّا مكلّفًا، ليكون مسؤولًا عن أعماله تجاهه، ولو أنّ ابن اليهودية هذا آمن بالله -عزَّ وجل- لأدرك أنّ الإنسان خلق مختارًا، ليمتحن في حدود اختياره، ثمّ ليحاسب ويجازى يوم القيامة، إلّا أنّه من أتباع شريعة الغاب الذين امتهنوا تضليل الناس، لقد زاد سارتر على ذلك في أنّه من يقف خلف الوجودية الإباحية، والتي سعى من خلالها إلى قطع الروابط الاجتماعية كلّها، وإلى أن ينمّي في الناس الفردية إلى أضيق حدودها، حتّى تكون سببًا في تفتيت المجتمعات الإنسانية، تفتيتًا لا يبقى منها كتلة مترابطة متماسكة.

أمّا يهوديّو الماسونية وأعوانهم فهم الذين حبكوا مؤامرةً إعلاميةً وتعليميةً حبكًا دقيقًا خبيثًا ماكرًا، فشوّهوا لنا المناهج الدراسية، وشوّهوا مفهوم العقيدة الإسلامية، ومفهوم لا إله إلا الله، وشوّهوا شريعتنا الإسلامية وتشريعاتها الربّانية، وتاريخنا

الإسلامي، ومجّدوا المناهج الجاهلية الأرضية اليهودية والنصرانية تحت ستار الحداثة والتقدّم والمدنية، فمجّدوا الباطل وحقّروا الحقّ، وتطاولوا على سيدنا محمد -صلّى الله عليه وسلّم- ومن قبله على الله -عزَّ وجل- وعلى دينه الحقّ.

وها نحن نجد أكبر فلاسفة الكاثوليكية القدّيس الخسيس توما الأكويني (1225- 1274) يتحدّث عن رسول الإسلام وخاتم المرسلين فيصوّره للثقافة اللاهوتية بقوله: «لقد أغوى محمد الشعوب من خلال وعوده لها بالمتع الشهوانية، وحرّف جميع الأدلّة الواردة في التوراة والأناجيل من خلال الأوهام والخرافات التي كان يتلوها على أصحابه، ولم يؤمن برسالته إلّا المتوحشون من البشر الذين كانوا يعيشون في البادية»[1].

أمّا مارتن لوثر رأس الأفعى البروتستانتية وسندان مطرقة شريعة الغاب اليهودية، فهو القائل عن القرآن الكريم: « أيّ كتاب بغيض وفظيع وملعون هذا القرآن، المليء بالأكاذيب والخرافات والفظائع»، وهو الذي يصف رسولنا الكريم محمّد -صلّى الله عليه وسلّم- بأنّه: «خادم العاهرات وصائد المومسات»[2].

لقد كان لمارتن لوثر رأس الأفعى البروتستانتية والسائر على منوال كهنة شرائع التراث اليهودية الخرافية، أثرًا واضحًا وجليًّا في الحياة الأمريكية التي غدت تستمد عقيدتها وشريعتها من شريعة الغاب اليهودية والتوراتية والصهيونية والماسونية.

فقادة الولايات المتحدة الأمريكية وشعبها وكتابها أسموا دولتهم وقت إنشائها بأورسليم الجديدة، وأسموا مدنهم ومستوطناتهم التي أقاموها فوق جثث وجماجم

---

(1) هوبرتهيركومر، جيرنوتروتر: صورة الإسلام في التراث الغربي، ص (32-33)، ترجمة ثابت عبد، طبعة نهضة مصر، القاهرة، 1999م.

(2) صورة الإسلام في التراث الغربي، مرجع سابق، ص 21

الهنود الحمر سكّان تلك الأرض الأصليين بأسماء توراتية مستمدة من شرائع التراث اليهودي، شرائع الخرافة والوهم، ومن تلك الأسماء التوراتية واليهودية: صهيون، وأورشليم، وحبرون، وسالم، وعدن. وأسموا أولادهم بأسماء آباء العهد القديم، عهد شريعة الغاب وأبطاله الخرافيين، بدل أسماء القديسين وتلامذة المسيح -عليه السلام-.

« ومع نهاية القرن الثامن عشر، أصبح الاعتقاد بالبعث اليهودي يشكل جانبًا مهمًا من الفكر الأمريكي، وكان من شأن الحماسة الأمريكية لإعادة اليهود إلى إسرائيل بعد استثارتها، أن يثبت أنّه أقوى من النزعة الإعدادية الإنجليزية، لأنّه أكثر حيويةً ومستندًا إلى قاعدة أوسع، فالطبعة الأمريكية تضيف إلى الاقتناع الإنجليزي مسؤولية خاصة عن إنقاذ اليهود المشتتين، والإيمان بأن أمريكا نفسها صُبت في ذلك القالب منذ بداياتها الأولى، وبأنّ مصير إسرائيل يعانق مصيرها»(1).

منذ ظهور الولايات المفكّكة الأمريكية على أرض الهنود الحمر، دخل في تشكيل بنيتها العقائدية والفكرية وفي صنع روحها المدنّسة مؤثرات يهودية عبرية بالغة الفعالية: «فقد غزت اللغة العبرانية العالم الجديد قبل أن ينادي هرتزل بإنشاء الدولة اليهودية بأكثر من قرنين ونصف القرن، وكانت لغة التعليم الأساسية في جامعة هارفرد عند تأسيسها عام (1636م) هي العبرية.

وشريعة موسى المفتراة شريعة الغاب اليهودية، هي القانون الذي أراد جون كوتون تبنّيه إلى جانب العبرية التي أرادها لغة رسمية لأبناء مستعمرات الدم الأزرق

(1) بول مركلي: الصهيونية المسيحية، 1891-1948م، ص 107، ترجمة فاضل جتكر، قدمس للنشر والتوزيع، دمشق، وانظر: جريس هالسل، النبوءة والسياسة، ترجمة محمد السماك، طبعة دار الشروق.

الثلاث عشرة على الأطلنطي[1].

وهكذا يمكن لنا أن نجزم بأنّ بين اليهود والأمريكان، بين اليهود والبروتستانتية قضية مشتركة من حيث المبدأ، وإنّ ذلك التوافق شكّل علاقتهما منذ التقائهما، فالأمريكيون ينظرون إلى إسرائيل على أنّها شديدة الشبه بأمريكا، أمّة مهاجرة، ودولة مهاجرين، وملاذ مضطهدين ومظلومين، ومجتمع رواد استيطان، بلد قوي وشجاع عازم على النضال في صفّ الحقّ، ونظام ديمقراطي تضلله سيادة القانون (الوحيد في الشرق الأوسط) وواحة ثقافة استهلاكية غربية في صحراء قاحلة تحيط بها من كلّ جانب، فالروابط بالغة المتانة، إلى أنّ درجة إسرائيل ليست بنظر عدد قليل من الأمريكيين، سوى ولاية حادية وخمسين»[2].

فكلًّا من المطرقة والسندان من اليهود والأمريكان يضمّهما عناق حميم في سياق علاقة شاذة خاصة غريبة، سواء كان اليهود وكيانهم الغاصب بالنسبة لأمريكا أصلًا إستراتيجيًّا أم مشكلة إستراتيجية، فإنّها قبل كلّ شيء تجسّد مثلًا أعلى مغروسًا بعمق في الفكر الأمريكي منذ السنوات الأولى لظهور ذلك الكائن الأمريكي الطفيلي المتوحّش فوق أرض الهنود الحمر وجماجهم، وما تلاه من زراعة لكيان يهودي طفيلي دمويّ، فوق أرض الفلسطينيين العرب المسلمين.

ولفهم هذه العلاقة الشاذة والتكاملية بين المطرقة اليهودية والسندان البروتستانتي الأمريكي، يجدر بنا يجدر بنا تتبع سيرة الرؤساء الأمريكيين، كاشفين عن إيمانهم

(1) منير العكش: حق التضحية بالآخر، أمريكا والإبادات الجماعية، ص 152، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت.

(2) كلايدبرستوفتز: الدولة المارقة، الدفع الأحادي في السياسة الخارجية الأمريكية، ص 252، تعريب فاضل جتكر، شركة الحوار الثقافي بيروت.

الدفين والعلني في آن واحد بشريعة الغاب اليهودية، ودورهم الجليّ والواضح والوضيع في زراعة الكيان اليهودي الصهيوني في بيت المقدس، وأنّ دورهم لم يكن دور المعاون أو المساند، أمريكا البروتستانتية هي المالك الحقيقي للمشروع اليهودي الصهيوني، وهي المتصرّف بأمره كذلك، حيث نجد أنّ دور السندان يغدو في بعض الأحيان كما دور المطرقة، وأنّ إيمان بروتستانتيي أمريكا باليهودية أكثر تجذّرًا من إيمان اليهود أنفسهم بشريعة الغاب، شريعة الخرافة والوهم.

فنجد أنّ سندان الأمريكان مدموغ بالرموز التوراتية، وقد كان ذلك واضحًا على الرؤساء الأمريكيين الأوائل؛ جورج واشنطن، وجون آدمز، وجفرسون، حيث أخذت تلك الرموز تهيمن على كلّ صغيرة وكبيرة في الحياة الأمريكية: عملتها، شعارها، خاتمها، أسماء مدنها، والأهمّ تفكيرها وطبيعة مؤسسيها.

فخاتم الدولة هو شعارها الرسمي، وهو بلا شكّ شعار يتمّ اختياره بعناية للتعبير عن هويتها وانتمائها، وقد اختار المؤسسون الأوائل للولايات المفككة الأمريكية نجمة داود السداسية شعارًا لهم وضعوه على رأس النسر الأمريكي (النسر رمز توراتي)، ويشير جوزيف كامبل في كتابه قوّة الأسطورة إلى أنّ النجوم المستخدمة في الخاتم الأمريكي تشكّل 13 نقطة هي عينها النقاط الثلاث عشرة الموجودة في النجمة اليهودية، بحيث أدمجت في خاتم الدولة الأمريكي»[1].

ولو تأملنا ورقة العملة النقدية الأمريكية، فئة دولار واحد، فسنجد رسمًا مثيرًا لهرم مصري وقد اعتلته قمة ذهبية عليها عين وحيدة، ويخرج من القمة الذهبية خيوط إشعاع، وقد كتب فوق الهرم باللاتينية (المصري الوحيد)، وتحته (إنه يرانا)،

---

(1) شفيق مقار: المسيحية والتوراة، ص 117، رياض الريس للكتب والنشر، لندن، قبرص.

أو يراقبنا أو يرعانا[1].

وليست مصادفة أن نفس هذا الرسم بتفاصيله يستخدم كرمز أساسي من رموز الماسونية وهي واحدة من أقدم الحركات اليهودية التي تستهدف السيطرة على العالم، وفروعها وجمعياتها حاليًّا كثيرة ومنتشرة كالسرطان.

ولذا لن نندهش إذا ما علمنا أنّ جورج واشنطن (1789- 1797) وهو أوّل رئيس للولايات المتحدة الأمريكية، وقد انتخب على فترتين متتاليتين، وكان من أوائل الأمريكيين الذين انتسبوا إلى المحافل الماسونية اليهودية، محافل شريعة الغاب التوراتية والتلمودية، «حيث انتسب إليها في عام 1755م وترقى في الدرجات إلى أعلاها، وقام بتأسيس محفلًا ماسونيًّا في ولاية فرجينيا، دعاه محفل إسكندرية نمر 23 وانتخب رئيسًا له، وبعد وفاته أجمع أعضاء المحفل على تسميته محفل واشنطن الإسكندري، وذلك رغبة في أن يبقى ذكر رئيسهم المجيد في الأفواه، وأن تكون آثاره الماسونية غرضًا تصوّب إليها الأفكار للاقتداء به»[2]، وانتساب جورج واشنطن أول رئيس لأمريكا لهذا المحفل يعكس بجلاء خلفياته الدينية التوراتية، حيث كان رجلًا شديد التدين، وظلّ حتى آخر أيامه عظيم التقديس للطقوس والشرائع والتاريخ اليهودي الذي نتجت عنه شريعة الغاب.

لقد وجّه واشنطن رسالتين إلى اثنين من قادة اليهود أعرب عن أمله في: «أن يظلّ الربّ صانع المعجزات الذي خلّص العبرانيين في الأزمنة القديمة من بغي مضطهديهم المصريين ووزّعهم في أرض الميعاد- يسقيهم من السماء، وأن ينعم الربّ القدير

(1) كلايدبروستوفتز: الدولة المارقة، الدفع الأحادي في السياسة الخارجية الأمريكية، ص 32، تعريب فاضل جتكر، شركة الحوار الثقافي، لبنان.

(2) شاهين بك مكاريوس: أربع كتب في الماسونية، ص 118، مكتبة مدبولي، القاهرة 1994م.

يهوه على كلّ فرد في الولايات المتحدة الأمريكية التي تأسست بقدرته، بالبركات الدنيوية والروحية التي أنعم بها على شعبه»[1].

هذا ولم يختلف جون آدمز (1797-1801) الرئيس الثاني لأمريكا عن واشنطن، حيث بعث برسالة إلى الصحفي اليهودي مردخاي نوح عبّر فيها عن أمنيته في أن يعود اليهود إلى جوديا يهودا، لتصبح أمّةً مستقلّةً: «لأنّني أعتقد أنّه بعد أن يغدوا إلى مكانة مستقلة لن يكونوا مطاردين بعدها سيزول من على أنفسهم التصلب والغرابة في طباعهم»[2].

أمّا الأكثر سفورًا وصلفًا في اتّباعه لشريعة الغاب اليهودية فهو توماس جيفرسون (1801-1809) الرئيس الثالث لأمريكا وواضع وثيقة استقلالها، حيث اقترح وبكلّ وقاحة: « أن يمثل رمز الولايات المتحدة الأمريكية على شكل أبناء إسرائيل تقودهم في النهار غيمة وفي الليل عمود من النار بدلًا من الرمز المعمول به حاليًا»، وواضح من هذا الشكل المقترح رمزًا للولايات المفكّكة الأمريكية أنه يتفق مع النص التوراتي الوارد في سفر الخروج 13:21 الذي يقول: «كان الرب يسير أمامهم نهارًا في عمود سحاب يهديهم في الطريق وليلًا في عمود نور يضيء لهم»[3].

كما أنّ جيفرسون كان من أبلغ من تحدّث عن المعنى الإسرائيلي لأمريكا، بل إنّه ختم خطابه التدشيني لفترة الرئاسة الثانية بتعبير يشبه الصورة التي اقترحها لخاتم الجمهورية حيث قال: «إنّني بحاجة إلى فضل ذلك الذي هدى آباءنا في البحر، كما

---

(1) شفيق مقار: المسيحية والتوراة، مرجع سابق، 163.

(2) بنيامين نتنياهو: مكان تحت الشمس، ص 75، ترجمة محمود عودة الدويري، دار الجليل للنشر، عمان.

(3) يوسف الحسن: مقال تحت عنوان الأصولية المسيحية أصولها ونشأتها ودورها في صنع القرار الأمريكي، جريدة الخليج الإماراتية، عدد رقم 8674 لعام 2003 (3-10).

هدى بني إسرائيل وأخذ بيدهم من أرضهم الأمّ ليزرعهم في بلد يفيض بكلّ لوازم الحياة، ورفاه العيش»[1].

وعلى نفس الدرب سار بنيامين فرانكلين، حيث اقترح: «أن يكون الشعار صورة موسى وهو يشقّ البحر الأحمر بعصاه»[2]، وهنا مرّة أخرى يتأكّد لنا مدى تغلغل شريعة الغاب التوراتية التلمودية الصهيونية حتّى النخاع، وأثرها الجلي على صهيونية الرموز الأمريكية، وهي صهيونية سبقت إعلان وظهور الصهيونية العالمية بأكثر من قرن كامل «هذا وقد أفردنا فصلًا كاملًا للحديث عن الصهيونية عبر عدة مباحث ومطالب»[3].

ومن المجدي لنا تسليط الضوء على ما كتبه شفيق مقار في هذا الشأن حيث يضعنا أمام رموز أخرى قائلًا: «ومن تلك المعطيات أيضًا أنّ الرسم الأول الذي اقترح لعلم الولايات المتحدة الأمريكية كان رسمًا لصورة موسى خارجًا من مصر على رأس بني إسرائيل، لكنه -وقد أثار جدلًا- استعيض عنه برمز النسر، والمسألة مجرد استبدال رمز توراتي، برمز توراتي آخر»[4].

أمّا الرئيس الأمريكي الرابع لأمريكا جيمس ماديسون (1809 - 1817) فقد كان: «رجلًا شديد التدين اتّجه طموحه إلى سلك الكنيسة، ولذا امتاز عن غيره من الرؤساء الأمريكيين المؤمنين بإجادته اللغة العبرية، ومن الجدير ذكره أنّ غالبية اليهود لم يكونوا في تلك الفترة يتحدثون اللغة العبرية، حيث تمّ إحياء هذه اللغة شبه

(1) منير العكش: حقّ التضحية بالآخر، أمريكا والإبادات الجماعية، ص 13، مرجع سابق.

(2) محمد الزين: المسيحية والإسلام والاستشراق، ص 275، دار الفكر المعاصر- بيروت 2002م.

(3) انظر الفصل السابع من هذه الدراسة: الصهيونية، سفر كهنة السياسة، ومختلف مباحثه ومطالبه.

(4) شفيق مقار: المسيحية والتوراة، ص 118، مرجع سابق.

الميتة حديثًا، وتبحروا في آدابها، أي العهد القديم (شريعة الغاب) وكتابات الكهنة والأحبار اليهود كتابات شرائع التراث اليهودية الخرافية»[1].

لذا وبسبب تأثير شريعة الغاب اليهودية البالغ على هذا الرئيس، كان فعل العامل الديني في حالته قويًّا للغاية، حيث يذكر كلّ من الباحثين: «محمد السماك، ورأفت الشيخ، ومحمد عناية، وشفيق مقار، ويوسف الطويل في مؤلفاتهم: الصهيونية والمسيحية، وأمريكا والعالم في التاريخ الحديث، وأمريكا وأزمة ضمير، والمسيحية والتوراة، والبعد الديني لعلاقة أمريكا باليهود وإسرائيل وأثره على القضية الفلسطينية أنّه: «قام بتعيين الداعية اليهودي الشهير موردخاي نوح قنصلًا فخريًّا لأمريكا في تونس سنة 1813م، وقد تبع هذا التعيين المشؤوم أن قامت أمريكا عام 1815م، بإعلان الحرب على الجزائر بحجة الدفاع عن المصالح الأمريكية في المنطقة، ومن الجزائر انتقل إلى تونس عام 1816م».

ولمّا عاد موردخاي إلى أمريكا حاول إقامة مشروع (أرارات) تبرّكًا باسم الجبل الذي تقول التوراة أنّ سفينة نوح -عليه السلام- رست عليه، ليكون وطنًا قوميًّا لليهود على جزيرة بنهر نياجرا، ولما فشلت المحاولة اتّجه موردخاي بمشروعه إلى سوريا، وصرّح: «إنّ عدد اليهود قد بلغ سبعة ملايين، وإنّهم يتحكمون بثروات طائلة، وإعادة احتلال اليهود لسوريا ليست مستحيلة، خاصّة وأنّ دولتهم التي وصفها بأنّها حكومة عادلة ليبرالية ومتصفة بالتسامح، ستكون عونًا كبيرًا لمصالح فرنسا وإنجلترا»[2].

---

(1) المرجع السابق، ص 167.

(2) المسيحية والتوراة: مرجع سابق، ص 174.

وفي عام 1844م عدّل نوح خطّته، عازمًا على إقامة وطن قومي لليهود في صهيون (بيت المقدس)، وألقى محاضرة ضمنها مشروعه الجديد، واقترح أن يتمّ السعي لدى سلطان تركيا للحصول على موافقته على شراء الأرض اللازمة لإنشاء الوطن اليهودي، بأموال اليهود وامتلاكها، ويبدو أنّ دعوة موردخاي، كانت صدى لموعظة المبشر ليفي برسوتس عام 1821م قال فيها: «في قلب كلّ يهودي تتأجّج رغبة لا يمكن إخمادها، لاستيطان الأرض التي أعطيت لأجدادهم، إذا دمرت الإمبراطورية العثمانية، فإنّ معجزة يمكن أن تمنع عودة اليهود الفورية إلى أرضهم من كافة أقطار العالم»[1].

والمهمّ هنا لهذه الدراسة المقارنة ما بين الشريعة الإسلامية الربانية، وشرائع التراث اليهودية، وأثر ذلك على فلسطين الأرض والدين والإنسان، أنّ محاضرة موردخاي نوح تلك لم تلفت نظر اليهود إليها، لكن المسيحيين الصهاينة أولوها اهتمامًا كبيرًا جدًّا جدًّا، وقد كتب إسحاق ليسر يقول: «أثارت محاضرة موردخاي نوح قدرًا كبيرًا من الاهتمام بين مواطنينا المسيحيين، فاق بكثير ما أثارته من اهتمام بيننا نحن اليهود»[2].

وعلى نفس الدرب سار المنصّر والمبشّر جون كوينسي آدمز (1825 – 1829) الرئيس السادس لأمريكا وكان وزيرًا لخارجيتها، وهو أيضًا ابن الرئيس الأمريكي جون آدمز، حيث اشتهر هذا الرئيس بدوره كمنصر ومبشر بروتستانتي، انصبّ جهده على اختصار الطريق إلى تحقيق مخطّط الله (يهوه)، عن طريق محاولة إقناع اليهود

---

(1) مكان تحت الشمس، ص 77، مرجع سابق.

(2) المسيحية والتوراة، ص 178، مرجع سابق.

بتغيير رأيهم فيما يتعلق بمسألة المجيء، حيث كان الاعتقاد السائد لدى المسيحيين الصهاينة في ذلك الوقت، أنّه لا بدّ من أن يشرق عصر ذهبي يضع حدًّا للظلم والشر المستشري في العالم: «الطموح إلى تحويل اليهود إلى المسيحية (البروتستانتية الصهيونية) اكتسب قوة جعلت منه شبه حملة صليبية اجتماعية في مستهل حياة الجمهورية الأمريكية، وتولدت عنه حركة شاعت بين النخبة الأمريكية، كان من أوائل مؤيديها جون آدمز، حيث تحول الرمز اللاهوتي إلى مخطط سياسي هو المشروع الصهيوني الذي اضطلعت الولايات المتحدة (المفككة) الأمريكية بدورالقائد في تنفيذه»[1].

وكمنصر مبشّر بروتستانتي من المتمسكين بأهداب شريعة الغاب اليهودية، وكعالم بشرائع التراث الخرافية اليهودية، عمل آدمز من موقعه كرئيس أمريكا لتحقيق الحلم والخرافة اليهودية في أرض بيت المقدس الفلسطينية العربية الإسلامية العثمانية! حيث بذل الرئيس آدمز جهودًا جبارة وكبيرة أثمرت عن عقد اتفاقية مع الإمبراطورية العثمانية في عام 1830م، استغلتها الكنيسة البروتستانتية -شرّ استخدام- في إطلاق العنان للبعثات التبشيرية في المنطقة، التي انتشرت ستون بعثة منها، من اليونان حتى إيران، ومن إسطنبول إلى بيت المقدس (القدس). وهذه البعثات هي التي مهدت الطريق أمام مشاريع الاستيطان اليهودي في فلسطين، عملًا بتعاليم الصهيونية المسيحية -شريعة الغاب- التي تؤمن بها الكنيسة البروتستانتية الأمريكية «[2].

---

(1) المسيحية والتوراة، ص 182، مرجع سابق.

(2) محمد السماك: الصهيونية والمسيحية، ص 89، دار النفائس، بيروت، 2000م.

لقد لعبت هذه البعثات دورًا تخريبيًا في المنطقة العربية الإسلامية باعتبارها أداة وركيزة للاستعمار الصهيوني الصليبي، ومعول هدم وتدمير لكل ما يمت للإسلام بصلة»، «فالتبشير كان وما زال دعامة من دعامات الاستعمار، وأداة من أدوات الفكر الغربي، فقد قدم الاستعمار ولا يزال يقدم العون المادي والمعنوي للمبشرين، ويقوم بحمايتهم وإزالة الصعاب من أمامهم»[1]، وارتباط التنصير بالاستعمار يكاد يكون عضويًا، حيث مهّدت السلطات الاستعمارية لنشاط التنصير، ووفّرت له الحماية والأمن، وكان كثيرًا من مبشري القرن التاسع عشر يتحرّكون بعقلية صليبية، وكانوا استعماريين يقومون بدور مزدوج بالتبشير وخدمة مخططات دولهم الاستعمارية، لقد كان المبشّرون هم الروّاد الأوائل للاستعمار الثقافي الغربي، في عالمنا الإسلامي وبلادنا العربية»[2].

ومن الناحية العسكرية العملية لا التبشيرية والاستيطانية لقد عمل الرئيس الأمريكي الحادي عشر جيمس بولك (1845– 1849) إلى تشكيل فيلق الحرس اليهودي الأول في بلتيمور عام 1846م، وهو اوّل فيلق في الجيش الأمريكي يكون كلّ جنوده وضباطه من اليهود، وبهذا سبقت أمريكا تشكيل الفيلق اليهودي البريطاني بـ 98 عامًا، ومعروف دور الفيلق اليهودي البريطاني في اغتصاب فلسطين، وإضافة إلى هذا الفعل العسكري، أعاد الرئيس بولك تجربة تعيين قناصل يهود لأمريكا في مختلف بلدان العالم.

أمّا الرئيس الثامن عشر لأمريكا يوليس جرانت (1869– 1877) والذي كان

(1) مصطفى خالدي: عمر فروخ، التبشير والاستعمار في البلاد الإسلامية، ص 34، ط3، بيروت 1964م.
(2) سعيد محارب: منطقة الخليج العربي أمام التحدي العقدي، ص 70، مكتبة الأمة، دبي، 1985م.

يقدس شريعة الغاب التوراتية وتعاليمها[1]، وخلال رئاسته قام بتعيين أحد مساعديه اليهودي سيمون وولف قنصلًا لأمريكا في مصر، والذي قال متفاخرًا: «إنّ بوسعه أن يقرّر بمنتهى الوضوح أن الرئيس يولسيس جرانت فعل من أجل اليهود طوال مدّتي رئاسته من (1869- 1877) أكثر ممّا فعل أي رئيس أمريكي دخل البيت الأبيض قبله»[2].

وقد خلفه روثر فورد هايز (1877-1881) حيث كان عدد الموظفين اليهود في الإدارة الأمريكية قد زاد إلى الحدّ الذي جعل صوتهم يرتفع مطالبًا بمنحهم يوم السبت إجازة اتّساقًا مع تحريم التوراة للعمل في ذلك اليوم، وعندما تباطأت إدارة هايز في الاستجابة لذلك الطلب أوعزت القيادات اليهودية إلى مرشّح لشغل منصب دبلوماسي أن يعلن أنّه -عندما يباشر مهام منصبه- لن يكون بوسعه أن يعمل في يوم السبت، وأعطت المسألة تغطية إعلامية جعلتها قضيةً عالميةً، ولما وصلت الرسالة واضحةً إلى هايز سارع بالتصريح للصحفيين: « بأنّ أي مواطن يكون على استعداد لأن يضحي بفرصة كهذه على مذبح معتقداته الدينية، لا بدّ أن يكون مواطنًا صالحًا، ومن الظلم لدافعي الضرائب الأمريكيين أن نخسره، وأعلن عن موافقته على المطلب اليهودي»[3].

إنّ أثر وتأثير شريعة الغاب اليهودية الذي كان جليًّا على قادة أمريكا ومؤسسيها الأوائل، لم يخفت أو يقلّ، بل زاد مع الزمان وأضحى أكثر وضوحًا ووقاحة في هذا العصر والزمان.

---

(1) رأفت الشيخ: أمريكا والعالم في التاريخ الحديث والمعاصر، ص 313، عين للدراسات- القاهرة.

(2) شفيق مقار: المسيحية والتوراة، ص 202، رياض الريس للكتب والنشر، لندن، قبرص، 1992.

(3) المسيحية والتوراة، ص 203، المرجع السابق.

حيث نجد أنّه مع سقوط الاتحاد السوفييتي وانهياره في نهاية عقد الثمانينات، أصبح النظام العالمي الذي ساد إبان الحرب الباردة طي النسيان، ومجرد تاريخ فقط، وحلّ محله النظام العالمي الجديد، الذي كانت أولى أولوياته تحقيق خرافة شريعة الغاب اليهودية في السيطرة على العالم من خلال السيطرة على مصادر الطاقة والنفط في المنطقة العربية. وإذا كانت السيطرة على مصادر النفط العالمي أولوية معلنة للأمريكان، -وإن تم تجميلها بالمزاعم المتمثلة بالحرب على الإرهاب الإسلامي، ونشر الديمقراطية وحقوق الإنسان والعدالة الاجتماعية- فإن الهدف المتعلق بالخرافة اليهودية الصهيونية، ظل غائبًا عن المشهد لأهداف تكتيكية. وهكذا احتلت المنطقة العربية والإسلامية مركز الثقل بالنسبة للمسيحية الصهيونية المتطرفة، وكانت على رأس أولويات أجندة النظام العالمي الجديد الذي صاغ إستراتيجيته الكونية على هذا الأساس.

فكانت لعبة حرب الخليج الأولى للنظام العالمي الجديد، وكان العراق إلي جانب دول الخليج المنتجة للنفط أولى الضحايا التي قدّمت لهذا النظام الجديد... بالإضافة إلى ربع مليون فلسطيني كانوا مقيمين في الكويت، والآلاف غيرهم في مختلف دول الخليج، التي قامت بطردهم منها، وذلك لوقوفهم إلى الجانب العراقي في ذلك الصراع[1].

ومن الجدير ذكره أنّ هؤلاء الفلسطينيين كانوا الداعم المالي الأوّل للفلسطينيين في الأراضي الفلسطينية المحتلّة، وكان طردهم من دول الخليج نكبة ونكسة بحق أهل بيت المقدس، وهكذا تمّ خنق الانتفاضة الفلسطينية الأولى، وسيق الفلسطينيون

(1) لقد تمّ طرد عائلة الباحث عبد الله البرغوثي، من دولة الكويت على أثر تلك الحرب.

والعرب والمسلمون كما الخراف إلى مذبح مدريد، ومؤتمرها ومتآمريها.

وبالعودة إلى الأسابيع الثلاثة التي تلت اجتياح العراق للكويت أي بتاريخ 23 آب أغسطس 1990م، نجد أنّ سكاوكروفت مستشار الأمن القومي في عهد الرئيس الأمريكي بوش الأب، استخدم مصطلح النظام العالمي الجديد للمرة الأولى حيث خاطب الصحفيين قائلًا: «إنّنا نؤمن بأنّنا سنقيم أركان النظام العالمي الجديد على أنقاض العداء الأمريكي السوفييتي الذي كان قائمًا».

أمّا رئيسه بوش الأب فقد خاطب الكونغرس الأمريكي بعد ذلك بعدة أسابيع قائلًا: « لقد ابتدأت شراكة جديدة بين الدول... إنّ الأزمة القائمة في الخليج (الفارسي)، على خطورتها ودمويّتها تمنحنا فرصة نادرة... من خضم هذه الأوقات العصيبة... قد يولد نظام عالمي جديد»[1]، وهنا يبدو الرئيس بوش الأب يعيد تكرار أمنية سابقة تمنّاها الزعيم الصهيوني (إسرائيل زانغويل) في خطاب له بتاريخ 2 كانون ثانٍ ديسمبر 1917، أي بعد صدور وعد بلفور المشؤوم بشهر واحد، وصف فيه المحاولات البريطانية والأمريكية الصليبية البروتستانتية الرامية إلى إعادة اليهود إلى أرض فلسطين بقوله: «سبع حملات صليبية إلى الأرض المقدّسة عادت على اليهود بالمذابح فهل ستؤدي الحملة الصليبية الثامنة إلى استرجاع اليهود لفلسطين، وإذا كانت صليبيةً حقّةً فإنّ تلك الحقيقة بالذات تأتي بمثابة البرهان على النظام الجديد لعالم تسوده المحبّة والعدالة»[2].

(1) أسعد رزوق: إسرائيل الكبرى، دراسة في الفكر التوسعي الصهيوني، ص 407، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1973م.

(2) عبد الحي زلوم:، إمبراطورية الشر الجديد، الإرهاب الدولي ضدّ الإسلام، ص 44، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 2003م.

ولـم يغفـل إسـرائيل زانغويـل في خطابـه هـذا أن يكمـل صـورة النظـام الجديـد الـذي توقّـع ميلاده في ظلّ الحملـة الصليبية الثامنة، حيث أشـار إلى ضرورة طرد الفلسـطينيين مـن أرضهـم الفلسـطينية ليتسـنى إحلال اليهـود مكانهم، لإقامة الوطـن القومي اليهودي، كمـا تمنّـى في هـذا الخطـاب أن يكتمـل هـذا العمـل عـن طريـق جعـل مدينة القـدس مقرًّا لعصبـة الأمـم، بـدلًا مـن مدينـة لاهـاي المفلسـة، ليتسـنى جمـع الحلمـين العبرانيـين، ودمجهما في حلم واحد، ولتصبح العاصمة مركزًا ورمزًا للعصر الجديد بالحال[1].

إلّا أنّ هـذا النظـام العالمـي الجديـد الـذي تمنـى ولادتـه كل مـن زانغويـل وبـوش الأب لـم يبـق أمامـه إلّا العـدوّ الجديـد القديـم، محمّـد وأتباعه -صلّـى الله عليه وسـلّم-، الإسـلام والمسـلمون وشـريعتهم الربانيـة، لذلـك كان لا بـدّ مـن صناعـة صـورة العـدو الإسـلامي الإرهابي، لخـوض حـرب صليبيـة مقدسـة بيـن الخيـر والشـر، بيـن أتبـاع شـريعة الغـاب الطيبيـن الخيريـن، وبيـن أتبـاع الشـريعة الإسـلامية الظالمين، الشـريرين، على أن تكـون هـذه الحـرب بقيادة بـوش الأب، تمهيـدًا لبـزوغ العصـر الألفي السـعيد، وعـود المسـيح ليحكـم العالـم مـن مقـره في القـدس، وذلـك بالطبـع بحسـب خرافـات شرائع التراث اليهودية، وأخواتها البروتستانتية.

وهكـذا مـا إن هـزم العـراق في حـرب الكويـت (حـرب عاصفـة الصحـراء) علـى يـد جـورج بـوش الأب، وتحالفـه الصليبـي اليهـودي العربـي، ومـا آل إليـه انهيـار الاتحـاد السـوفييتي حتّـى تشـكّلت فرصة ثمينة عظيمة لزيـادة التفرد والأحاديـة الصليبية اليهودية الأمريكيـة، ممـا تـرك انعكاسـات وتداعيـات علـى الأزمـات الإقليميـة، ونقـاط التوتر في العالـم بمـا فيهـا مسـرح بيـت المقـدس، مسـرح أرض كنعـان العربيـة الإسـلامية التـي

(1) إسرائيل الكبرى، المرجع السابق، ص 407.

سقطت بيد أتباع شريعة الغاب، بعدما تخاذل العرب والمتأسلمين عن نصرة بيت المقدس.

وقد استغلّ صليبيو أمريكا ويهودها هذا الخلل في موازين القوة الدولية والإقليمية لإحداث تغييرات هيكلية على مسار الصراع بين مسلمي فلسطين واليهود المستعمرين، حيث ساقت أمريكا في ظلال الهزيمة العربية الدول العربية قيادة منظمة (التدجين) الفلسطينية إلى مؤتمر مدريد، وسعت إلى استثمار حالة التمزق والتشرذم العربي والإسلامي التي أعقبت حرب الخليج، فدعا الرئيس الأمريكي جورج بوش الأب، بعد بضعة أيام من إجبار العراق على الانسحاب من الكويت، إلى عقد مؤتمر دولي لتسوية الصراع (العربي -الإسرائيلي)، فكان بذلك بوش الأب أفضل رئيس بالنسبة للصهيونية المسيحية في أمريكا، وللصهاينة اليهود في كلّ دول العالم، فيكفي الرئيس بوش أنّه قدّم أكبر وأعظم خدمة لليهود محتلّي فلسطين من خلال تدمير القوة العسكرية والأمنية والصناعية العراقية، وعقد مؤتمر مدريد وما تمخّض عنه من اتفاقيات سلام الاستسلام، والتطبيع مع اليهود المحتلين، واعتبار السلام الواهم هذا خيارًا إستراتيجيًّا، يضاف إلى ذلك أنّ بوش نفسه كان على رأس الوفد الرسمي الأمريكي إلى السودان في عام 1985م، الذي وقّع الاتفاق الأمريكي السوداني، القاضي بترحيل يهود أثيوبيا (الفلاشا) إلى فلسطين المحتلة.

عمل جورج بوش بكل قوة في مسار خدمة شريعة الغاب اليهودية، وقام عمليًّا بما لم يقم به رئيس قبله، فقدّم المساعدات المالية السخية للمحتلين اليهود، وقال عن ذلك مفاخرًا: «إنّ بلاده قدّمت مساعدات مالية وعسكرية بلغت 4.4 مليار

دولار، وبذل 10 مليارات دولار لتوطين اليهود السوفييت في فلسطين»[1].

وبالطبع لم يختلف جورج بوش الابن عن بوش الأب، فهذا المسخ من ذلك الممسوخ، بل إنّ بوش الابن تفوّق على والده، حيث نجد أنّ الصحافة الأمريكية -على سبيل المثال- كثيرًا ما لجأت لتوثيق أحاديث الرئيس الأمريكي الأسبق جورج بوش الابن، وتصريحاته في أبواب العقيدة، في إشارة ذات مغزى للطابع الديني الذي طبع شخصيته، ولمكانته الدينية على الخارطة الدينية الأمريكية، فبوش المسخ كان يتحدّث كمبشر وواعظ، ولم تكن السياسة تستهويه، إلّا بقدر ما تخدم رؤاه وتوجهاته الدينية الدنيئة الصليبية البروتستانتية اليهودية.

من هنا سنجد أنّ شريعة الغاب التوراتية التلمودية اليهودية لعبت دورًا رئيسًا بتشكيل موقفه من إسرائيل، ومن اليهود شعب الله المختار، فخلال فترة حكمه الدموية الإرهابية برهن على ذلك بأفعاله التي جعلته يشنّ حربًا صليبيةً شعواءَ داميةً على العالم الإسلامي، وعلى التعاليم الإسلامية، وعلى المسلمين أينما تواجدوا بكل ما تحمله الكلمة من معنى في أفغانستان وباكستان والعراق ولبنان وفلسطين، والحرب على ما يسمّى الإرهاب الإسلامي في أمريكا نفسها، وفي مختلف الدول الأوروبية والغربية، حيث صبت نتائجها بكلّ جلاء لمصلحة يهود شريعة الغاب المنتشرين كما السرطان في مختلف أصقاع الأرض، وفي الكيان الاستعماري الذي أقاموه في فلسطين، حرب مدنسة لا مقدسة انعكست سلبًا على فلسطين الأرض والدين والإنسان، خالقة حالة عربية إسلامية ضعيفة متخاذلة ومشتتة.

إنّ تولي جورج بوش الابن السلطة وما تبع ذلك من جرائم كبرى كغزو العراق

(1) فيصل أبو خضرا: تاريخ النفوذ اليهودي في أمريكا، ص 31.

واحتلاله، وممارسة بوش الابن لسياسة عدائية واضحة تجاه المسلمين والمنطقة العربية، أو بحسب تعبيره، قيامه بشنّ حملة صليبية على العالم الإسلامي، حيث غدا جليًّا في هذا العصر تنامي الدور الذي يلعبه الدين في الحياة الأمريكية بصورة مخيفة، بسبب تنامي قوة تأثير الحركات الأصولية المتطرفة التي تمكنت من الوصول إلى سدة الحكم، ممثلة بالرئيس المؤمن جورج دبليو بوش، الذي يعكس بصورة دقيقة تمامًا طبيعة بلده الذي يحكمه عبر شريعة الغاب اليهودية المستترة والظاهرة.

«فعلى الرغم من كثرة الرؤساء الأمريكيين الذين أكدوا تعلقهم بجذورهم الدينية فاستشهدوا في خطاباتهم باقتباس من الكتب المقدسة (شريعة الغاب البروتستانتية اليهودية) إلّا أن الدين لم يفرض يومًا وجوده في الحياة السياسية الأمريكية بهذه الدرجة، قبل أن يطأ بوش الابن عتبة البيت الأبيض»[1]؛ لهذا كثرت الكتابة في الصحافة الأمريكية والعالمية عن الخلفية الدينية المؤطّرة لتفكير الرئيس بوش، حيث أعدت مجلة نيوزويك الأمريكية ملفًّا في عددها بتاريخ (10/ 3/ 2003)[2]، عن الاعتقادات الدينية التي تدفع جورج بوش الابن إلى سلوكه السياسي والعسكري، وكيف ركب بوش موجة الأصولية البروتستانتية اليهودية الصاعدة، وهو أحد أبنائها، ليقود أمريكا في مغامرات يطغى فيها حماس شريعة الغاب الدينية على البصيرة السياسية والأخلاقية الإنسانية؟ وبحسب ما كتبه محمد الشنقيطي: « يتألف الملف

(1) إريك لوران: عالم بوش السري (الديانة والمعتقدات والأعمال والشبكات الخفية)، ص 6، ترجمة سوزان قازان، دار الخيال، بيروت 2003.

(2) قبل هذا التاريخ بخمسة أيام تم اعتقال الباحث والمقاوم عبد الله البرغوثي، والذي زجّ به بعد ستة أشهر من التحقيق بزنازين العزل الخاص لمدة عشرة أعوام متواصلة، قبل أن ينقل بعدها إلى السجن العسكري العادي، حيث مازال معتقلًا حتى يومنا هذا بعد أن حكمت عليه محكمة الاحتلال الصهيونية بـ 67 مؤبد، و5200 عام.

من ثلاث مقالات: أحدها بعنوان (بوش والرب) بقلم هاواردفاينمان أحد كتاب المجلة، والثاني بعنوان (خطيئة التكبر) بقلم البروفيسور مارتن مارتي وهو قسيس وأستاذ بجامعة شيكاغو، ترأّس الجمعية التاريخية الكاثوليكية في أمريكا سابقًا، أمّا المقال الثالث فهو بعنوان (إنجيل على نهر البوتوماك) بقلم كينيث وودواد من كتاب نيوزويك، كما نشرت صحيفة الواشنطن بوست عن نفس الموضوع من قبل مقالًا بعنوان (بالنسبة لبوش.. إنه الإحساس بالتاريخ والمصير) يوم (9/ 3/ 2003)، وآخر بعنوان (عن الرب والإنسان في المكتب البيضاوي) بقلم القسيس فريتس ريتش بتاريخ (2/ 3/ 2003) وهو مقال تحليلي عميق تناول المنطق الداخلي لفلسفة بوش الدينية، وآثارها السلبية على أميركا بلدًا، وعلى المسيحية دينًا»[1].

يقول مات بروكس اليهودي الجمهوري: « إنّ جورج بوش وبسبب إيمانه الديني العميق، يعتقد أنّ إسرائيل هي وطنه الروحي، بقدر ما هي وطن روحي لي أنا اليهودي».

لقد تربّى هذا الصليبي البروتستانتي مع مجموعة يهودية من الأصدقاء، فغدا شخصًا يقدّر عاليًا التوراة والتلمود، وكل ما احتوته شريعة الغاب اليهودية، حيث صرّح بوش أكثر من مرة، بأنّ اليهود هم شعب الله المختار على وجه الأرض، لذلك فإنّ هذا الأصولي البروتستانتي الصليبي يؤمن أنّ غزة والضفة الغربية والقدس حالها كحال كافة الأراضي الفلسطينية هي منحة ربانية لليهود وحدهم، ولا يجوز التنازل عن هذه الأرض بحال من الأحوال، لأنّ التنازل عن أي قطعة منها هو مناقضة لإرادة الربّ.

(1) محمد الشنقيطي: بوش طغيان الحماس الديني على البصيرة السياسية.

وفي مقابل هذه النظرة العنصرية السقيمة المؤيدة والمنحازة ليهود شريعة الغاب بالكامل، يجب ألّا تدهشنا نظرة هؤلاء البروتستانت الأنجلوسكسون لنا نحن الفلسطينيين والعرب والمسلمين، فطبقًا لتشرشل فالعرب ليسوا أكثر من قوم متخلفين يأكلون روث الجمال، بينما طالب (لورانس أوليفانت) (1829- 1888) «بطرد العرب مثل الهنود الحمر، لأنّهم غير جديرين بأي معاملة إنسانية»[1].

«هناك خوف من العرب وكراهية لهم، إلى درجة أنّ هذا الخوف والكراهية يعتبران من المكونات الدائمة للسياسة الأمريكية تجاه العرب وقضاياهم المختلفة، منذ الحرب العالمية الثانية، وأنّ أي شيء مرتبط مع العرب والمنطقة العربية والإسلامية ينظر له في أمريكا على أنّه تهديد لإسرائيل»[2].

ونختم هذا المبحث بالآية الكريمة التي بدأناه بها حيث قال -عزَّ وجل- في محكم التنزيل: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾[3].

إنّ اليهود ومن والاهم من المشركين هم أكثر الناس طعنًا في الإسلام، وجرحًا لمشاعر المسلمين، بل نحن نجد أنّ الضالين الأصوليين الصليبيين غدوا ومنذ زمن بعيد أكثر طعنًا وكرهًا لنا نحن المسلمين والعرب والفلسطينيين، لا لشيء إلّا لأنّنا نرفض أن تسلب منّا أرضنا المقدسة دون أن نقاوم ونجاهد، ولأنّنا نرفض المذلة والمهانة والاستكانة والخضوع ليهود الغاب وشريعتهم الضالة المضلّلة، ولأنّنا ما زلنا نجاهد قولًا وفعلًا.

---

(1) باسل حسين: معركة آخر الزمان ونبوءة المسيح منقذ إسرائيل، ص 53، دار الأمين، القاهرة (1993).

(2) محمد شديد: الولايات المتحدة والفلسطينيون بين الاستيعاب والتصفية، ص (70 - 71) ترجمة كوكب الريس، القدس، جمعية الدراسات العربية.

(3) سورة المائدة، الآية 82.

والله لـن نخضع بحال من الأحوال لهذه الشرذمة اليهودية بشرية الخلقة، حيوانية الأخلاق، هـذه الشرذمة المغضوب عليها من الله -عزَّ وجل- ولن نسلم ولا نستسلم للصليبيين بروتستانت أو كاثوليكيين أو حتى أرثوذوكس، لن نسلم للنصارى مهما كانت مسميات كنائسهم ومذاهبهم، ذلك أنهم الضالون المضلون الذين غدوا كما يهود شريعة الغاب وأردى. فالله واحد أحد، وأحد صمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد، إذ قال -عزّ وجل-: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾[1].

نعم، لن ترضى عني اليهود ولا النصارى، لن يرضى عني المغضوب عليهم ولا الضالون، حتى نتبع ملتهم وهذا أمر لن يحدث بحال من الأحوال، فنحن أتباع الشريعة الإسلامية الربانية الحقّة، فكيف لنا أن نتبع درب الضلال والإضلال، درب المغضوب عليهم، ونحن من نحن وهم من هم، نحن الحق الرباني، وهم الباطل الشيطاني، نحن الحقيقة وهم الخرافة، نحن عباد الله وعبيده وعابدوه، وهم الآلهة التي تريد أن تُعبد ولا تعبد، نحن أتباع محمّد -صلى الله عليه وسلم- والمؤمنون بعيسى وموسى -عليهما السلام- وهم قتلة عيسى ومدنسو شرعة موسى، ومكذبو محمد.

(1) سورة البقرة، الآية 120.

شريعة الغاب والخرافة

النتائج والتـوصيات

النتائج

1. تؤكّد الدراسة على أنّ شريعة الله ودينه التي نسخت ما قبلها من شرائع دينية ونصرانية، هي غذاء للأرواح، وأرواح للقلوب، وصلاح للفرد والمجتمع، وصلاح لدنيا البشر، وطريق لجنة ربّ البشر، فليس في الشريعة الربانية شوب من باطل، ولا تتناقض أحكامها، ولا تتضارب أقوالها، ولا تضيق عن الحياة والأحياء.
2. تمتاز شريعتنا الإسلامية بحفظ الله لأصلها المتمثل بالقرآن الكريم، فلا يستطيع المغضوب عليهم ولا الضالون تغييرها ولا تبديلها، إلّا أنّ ذلك لا يعني أنّ مفهوم الشريعة قد اختلّ عند بعض المسلمين، حيث أطلقوا اسم الشرع والشريعة على الأحكام التي تضمنتها أقوال الفقهاء، والأحكام التي حكم بها القضاة والمفتون، وقد يطلقها آخرون على الأحكام المكذوبة المفتراة المعتمدة على الأحاديث الموضوعة، والأحكام المؤوّلة تأويلًا متعسّفًا فيه.
3. إنّ عالمية الشريعة الإسلامية تفرض على المسلمين دحض شرائع التراث اليهودية المفتراة على سيدنا موسى –عليه السلام– وذلك من أجل إحقاق الحقّ، وإخراج العباد من عبادة العباد لعبادة ربّ العباد، وتخليصهم من شريعة الغاب التي خلقتها العقول المريضة لكهنة اليهود.
4. إنّ شريعة الغاب اليهودية التي شكّلتها شرائع التراث اليهودية لا تعترف بأي قداسة أو عصمة أو احترام أو توقير لرسول أو نبي، ولا للملائكة، ولا حتّى لله

الواحد الأحد الذي لم يلد ولم يولد، بل على العكس من ذلك فشرائع التراث اليهودية تقدّم صورةً بائسةً ومزريةً وخسيسةً ووضيعةً تأنف منها فطرة الأسوياء من البشر، فالأنبياء عند أهل شريعة الغاب من يهود ونصارى ما هم إلّا فسقة وفجرة، وزناة وأبناء زناة، والأنبياء والرسل عندهم كذّابون متآمرون وقتلة ومجرمون، ومتخلقون بأخلاق الدياثة بحثًا عن سحت الدنيا.

5. إنّ الإسلام الذي نزل بصورته الأولى في البدايات على آدم -عليه السلام-، ونزل على محمد -صلّى الله عليه وسلّم- بصورته الأخيرة التي أوحى بها الله -سبحانه وتعالى- إلى خاتم أنبيائه، هو الرسالة الإلهية الخاتمة والشريعة الربانية، التي نسخت الديانات الإلهية السماوية السابقة، وما تضمّنته كتبها من تعاليم محرّفة بالكتاب الخالد، الذي تعهّد الله بحفظه دون غيره، وهو القرآن الفرقان الموحى به إلى خاتم المرسلين.

6. نؤكد على أنّ الوحي الإلهي ضرورة من ضرورات شتى اقتضتها حقيقة وجود الإنسان على هذه الأرض، يكابد فيها حياة طويلة فرضت عليه، وقدرت له، ولا يُنتهى منها إلّا بانتهاء هذا الكون وانقراضه، حيث ينقل إلى ملكوت آخر، فهو في هذه الرحلة الطويلة من حياته لا بدّ من تعاليم من ربّه تنظم حياته، ولا بدّ له من هدي يعيش عليه، وكيف يتم له ذلك بغير الوحي، فالوحي إذن ضرورة من الضرورات التي لا غنى عنها بحال من الأحوال.

7. نؤكد على أنّ الإيمان بالرسل والأنبياء أصل من أصول الإيمان، قال الله: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾.

8. نؤكد على أنّ القرآن الكريم هو معجزة الإسلام الراسخة، التي لا يزيدها التقدم العلمي إلّا رسوخًا في الإعجاز، وقد ثبت بالأدلة العقلية القاطعة أنّ هذا القرآن من عند الله -سبحانه وتعالى - وأنّه باقٍ إلى قيام الساعة، حاله كحال أمّة محمد، خاتمة الأمم.

9. بينت الدراسات أنّ القرآن الكريم هو الدستور الذي يحوي الأصول والقواعد الأساسية للإسلام، كعقائده وعباداته وأخلاقه ومعاملاته وآدابه، وأنّ السنة النبوية المطهرة هي البيان النظري والتطبيق العملي للقرآن في ذلك كلّه.

10. نؤكد على أنّ المقصود بشرائع التراث اليهودية هي تلك النظم والقوانين والتعليمات في العقيدة والأحكام والسلوك التي سنّها كهنة اليهود وحاخاماتهم، بحيث أصبحت عند اليهود، ومن والاهم بمثابة الدين الذي لا يخالف.

11. نجزم أنّ كهنة اليهود وحاخاماتهم خلقوا شريعة غاب يهودية دموية عنصرية لا أخلاق فيها ولا شرف ولا عهود ولا مواثيق، فكلّ شيء فيها مباح ومستباح، فانقلبوا بذلك على شريعة موسى -عليه السلام-.

12. أكّد القرآن الكريم عبر آيات ربّانية عديدة حقيقة ثابتة مفادها: أنّ ما بين أيدينا من شرائع تراثية يهودية عارية عن الصحة، شريعة محرفة، يلوي كهنتها أعناق نصوصها كلّما كانوا بحاجة إلى أكاذيب جديدة تبرّر وتشرعن ما يقومون به من انتهاك لحرمات الله ومن تقتيل للأنبياء وأكل لأموال الناس بالباطل.

13. نؤكد على أنّ عقول كهنة اليهود وحاخاماتهم جُبلت على الحقد المبصر، الحقد الذي لا يرى أصحابه إلّا اليهود ومصالحهم ومغانمهم، أمّا الأغيار فليس لهم -حسب شريعة الغاب- إلّا الموت والدمار.

14. نؤكّد على أنّ للأحكام الشرعية الإسلامية جانبين، جانبًا اعتقاديًا، وجانبًا

تطبيقيًا؛ أمّا الجانب الاعتقادي فما كان منها ثابتًا بيقين، فجحوده واعتقاد أنّ غيره خير منه كفر وخروج عن الملة الإسلامية، أمّا الجانب التطبيقي فمخالفتها فيه -مع الإيمان بها- معصية لله وفسق وخروج عن حدود الله.

15. نؤكد على أن الشريعة الإسلامية الربانية هي جذوة الصحوة في هذه الأمة الإسلامية، وهذه الجذوة الربانية هي التي تُنمّى خلاياها لإيقاظ بركان المسلمين من سباته، ليثور محرّرًا بيت المقدس، وبوّابة السماء من دنس يهود شريعة الغاب وخزعبلاتهم الخرافية.

16. نؤكد على أنّ تحكيم الشريعة الإسلامية يعني حتمًا الإطاحة بشريعة الغاب اليهودية، وبالمحتلين اليهود، وفي المقابل فإنّ بقاء يهود شريعة الغاب في بيت المقدس يعني مواصلة حربهم الدموية والمفتوحة على مصراعيها ضدّ الإسلام والمسلمين عبر كافة الوسائل والطرق، سعيًا منهم ومن أوليائهم الصليبيين، لسحق الإسلام والقضاء على شريعته الربانية.

17. نؤكد على أنّ الشريعة الإسلامية الربانية شرعت لنا الجهاد في سبيل، وذلك لتسود شريعة الله –سبحانه وتعالى – فالإسلام دين وجهاد باقٍ إلى أن تقوم الساعة.

18. نجزم بأنّ الصراع القائم بيننا نحن المسلمين من جهة واليهود والنصارى من جهة، هو صراع في صلبه وجوهره وأصله صراع ديني عقائدي تشريعي بامتياز، ولا حلّ لهذا الصراع إلّا عبر إعادته لأصله، لا لما يدّعيه القوميون والعلمانيون واللادينيون وغيرهم ممّن نصّبوا أنفسهم زعماء علينا بعدما استعانوا بمطرقة اليهود المغضوب عليهم وسندان الصليبيين الضالين.

19. نؤكد على مسألة خلص إليها علماؤنا الأجلاء وغفل عنها جُلّ العامة

والسطحيين من دعاة العلم مع أنّها حقيقة ربانية جلية، ذلك أنّ الله -تعالى وتبارك- ذكر في سورة المائدة: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾[1] أكمل الله دينه عقيدة وشريعة، وارتضاه لنا قبل أن يفتح بيت المقدس والمسجد الأقصى، وقبل أن يكون ضمن ديار المسلمين، ومعنى ذلك أنّ كمال الدين ليس بالضرورة بأن يكون المسجد الأقصى فيه! ولكن إذا نحن أقمنا أنفسنا على منهج الإسلام وشريعته الربانية، رجع إلينا ما اغتصب من ديارنا ومقدساتها في بيت المقدس وغيرها من ديار المسلمين المسلوبة، التي احتلّها اليهود أو النصارى أو اللادينيون، أو حتى المتأسلمون المرجفون من عبيد شريعة الغاب اليهودية والماسونية والصهيونية.

20. نؤكد على عصمة الأنبياء والمرسلين عن كلّ ما ينفر أو يشين، ذلك أنّ هذه العصمة عندنا من صلب العقيدة الإسلامية والدين، وأساس من أساسات الإيمان، فهم صفوة الله من خيار خلقه، وصنيعته على عينه، فغدوا بذلك عندنا أشرف خلق الخالق نسبًا وخُلقًا وخَلقًا.

21. نؤكد على أنّ كفر اليهود بالله -سبحانه وتعالى- ووصفهم له عبر شرائعهم التراثية الخرافية، وشريعة غابهم الحيوانية بأوصاف كفرية بشرية ما أنزل الله بها من سلطان، فالله أعلى أجلّ ممّا يكذّبون ويسطرون، ونؤكد على اجترائهم الفجّ على كلّ ما يتعلّق بأنبياء الله ورسله، وصولًا لتقتيلهم بعدما كذّبوهم وافتروا عليهم.

22. أوضحنا مدى طغيان كهنة شرائع التراث اليهودية وفساد أحوالهم، واستعمالهم

(1) سورة المائدة:الآية 23

للسلطة الدينية التي جعلت منهم ذوي مرتبة أعلى من مرتبة الرسل والأنبياء، بل ومرتبة أعلى من مرتبة الله، وذلك لتحقيق أهدافهم وأهوائهم وأوهامهم وإرضاء لشهواتهم، تحت قناع القداسة التي يضفونها على أنفسهم، ويهيمنون بها على أتباعهم، والتي مكّنتهم من اضطهاد كلّ من يخالف أوامرهم وتعاليمهم الضالة والمضللة والمتمثلة بشريعة الغاب التوراتية والتلمودية المبتدعة في الدين، من قبل الكهنة والحاخامات الكفرة المجرمين.

23. لقد بيّنّا في هذه الدراسة كيف عملت شرائع التراث اليهودية عملها في تحريف العقيدة النصرانية الرسمية المؤيدة من الكنائس الغربية والشرقية التي استقرّت على فكرة التثليث، التي دسّها يهود شريعة الغاب وكهنتهم منذ القرن الأوّل الميلادي، وأدخلوها في صلب النصرانية التي استقرّت على تحريفات أخرى دخلت في أحكامها وتطبيقاتها بعوامل شتى، منها ما كان مكرًا مقصودًا من أعداء السيد المسيح ابن مريم -عليه السلام- والذين دخلوا في المسيحية نفاقًا أمثال (بولس) ليفسدوها من الداخل، ومنها ما كان من المسيحيين أنفسهم ومن رجال الكهنوت فيهم، وذلك استجابة لأهوائهم وشهواتهم ومنافعهم ومصالحهم الدنيوية الخالصة، أو استجابة لضغوط ذوي السلطان والجاه من ملوكهم وزعمائهم وأعيانهم وقادتهم العسكريين، حيث ارتأت هذه الطغمة الضالة أنّ معاداة الإسلام والمسلمين هي أصل من أصول عقيدة التثليث الصليبية.

24. نؤكد على أنّ اختلاق ناموس موسى الشفهي المسمّى التلمود من قبل كهنة اليهود وحاخاماتهم كان ثمرة عجز التوراة وقصورها عن الوفاء بحاجاتهم وحاجات أتباعهم اليهود وغيرهم، حيث زعموا أنّ موسى -عليه السلام- لم يترك شريعة مكتوبة فقط وهي التوراة بأسفارها الخمسة، بل ترك شريعة شفوية

بقداسة بمكان يعلو على التوراة.

25. نؤكد على أنّنا لا نعمل بالشرائع والنواميس السماوية السابقة لأنّها منسوخة بالشريعة الإسلامية الربانية، والعمل إنّما يكون بالناسخ أي بالقرآن، لا بالمنسوخ أي التوراة والإنجيل، اللذين أنزلهما الله – سبحانه وتعالى- على عيسى وموسى -عليهما السلام- إلّا أنّ الله – سبحانه وتعالى-أوجب علينا الإيمان القاطع بتلك الشرائع (قبل أن تحرّف) وبالرسل المنزلة عليهم، فالإيمان بها تصديق بخبر الله ورسوله محمد -صلّى الله عليه وسلّم-.

26. إنّ الصهيونية في حقيقتها سفر وشريعة خلقها كهنة السياسة اليهود غير المؤمنين باليهودية كدين، وبموسى كرسول، وذلك عكس ما يظنه الكثير من أنّ الصهيونية حركة دينية قديمة قدم التاريخ، وأنّها مرتبطة بما ورد من الوعود لإبراهيم الخليل -عليه السلام- والواقع أنّها ليست بالجماعة الدينية، وليست بالحركة القديمة في اليهودية، ولكنّهم صنعوها ليقيموا بها دولة.

27. نؤكد على أنّ كهنة السياسة الصهاينة، وأرباب وأحبار شرائع التراث اليهودية ما هم في حقيقة الأمر إلّا مجرد وجهين لعملة عديدة الأوجه، عملة تمرّس صاكّوها على فنون السيطرة والتحكّم والتلاعب بالشعوب وحكّام الشعوب، وذلك عبر استعمال شرائع التراث اليهودية تارة، وتشريعات دهاليز السياسة تارة أخرى.

28. نؤكد أنّ الخليفة العثماني عبد الحميد الثاني -رحمه الله- واجه منذ أن تولّى سدّة الحكم مؤامرات اليهود والحركة الصهيونية التي كانت تسعى إلى الاستيلاء على فلسطين وتهويد القدس، وهنا توجب عليه خوض صراع ديني وسياسي واقتصادي مرير ومضنٍ ضدّ اليهود والدول الصليبية الكبرى، والأحزاب السياسية في الدولة العثمانية، تلك الأحزاب المناصرة لليهود

والمدعومة منهم ومن عباد الصليب، تلك الأحزاب المحاربة لله ورسوله، وخليفته ومقدّساته.

29. نؤكّد على أنّه لا دور تاريخي لليهود في هذا الوجود سوى أنّهم قتلة أنبياء ورسل، ومرابون لصوص وقوّاوين، إنّهم العبيد ولا شيء إلّا العبيد، عبيد المال والذهب والجوهر، عبيد الجنس والمتعة المحرّمة، وعبيد السلطة والتسلّط، إنّهم خونة الوعود ونكثة العهود، إنّهم الوهم والخرافة، التي لا دور لها في فلسطين سوى أنّها الخرافة، فالدور التاريخي والحضاري والإنساني في فلسطين كان لفراعنة مصر، وآرام وآشور وبابل العراق، وللحكم الفارسي ثمّ للإسكندر الأكبر، والسلوقيين والرومان والبيزنطيين، وصولًا للفتح والتحرير الإسلامي العربي حيث عادت فلسطين بيت المقدس، فلسطين بوابة السماء لحاضنتها العربية الإسلامية، إسلامية سيدنا إبراهيم -عليه السلام- فلا تاريخ لليهود ولا لشريعة غابهم والخرافة، لا فوق الأرض ولا تحتها.

30. نؤكد على أنّ شريعة الغاب اليهودية سوّغت استحلال الحرام بأدنى حيل وأبخس ثمن، فمغالاة اليهود في تقديس كهنتهم وأحبارهم هي ما مهّد لهؤلاء المغضوب عليهم ومضلّلي الضالين أن يتجرؤوا على الله – سبحانه وتعالى- وأن يتطاولوا على رسله وأنبيائه، ليحرّفوا الوحي الربّانيّ، وهم مطمئنّون إلى أنّ أتباعهم اليهود بشريي الخلقة حيوانيي الأخلاق سوف يسيرون خلفهم كما الدواب السائرة خلف شهواتهم الحيوانية الكفرية اللاإنسانية.

31. نؤكّد على أنّ المولى – سبحانه وتعالى- كتب أنّ بلاد الشام وبيت المقدس حلبة جهاد متواصلة ليوم الدين، حلبة منوط بالمسلمين التوجّه لها، وذلك للمشاركة في صراع الحقّ، صراع الشريعة الإسلامية ضدّ أهل الشرك والباطل،

أهل شريعة الغاب والخرافة اليهودية ومن والاهم من صليبيين متصهينين متهوّرين.

32. نؤكد وقلوبنا تعتصر ألمًا أنّ مسلمي هذا الزمان تعلقوا بالدنيا وزخرفها الزائف، تعلّقًا مرضيًّا غير مقبول، حتى صاروا يكرهون الموت في سبيل الله، ويرهبون التضحية، وذلك لبعدهم عن الشريعة الإسلامية الربانية، فغدوا بذلك أخوة متخاصمين فيما بينهم ومتصارعين، أخوة يعادي بعضهم البعض، ويصالحون أعداء الله والأمة الإسلامية، من يهود ونصارى وعبّاد بقر وحجر وصنم.

33. أبرزت الدراسة الدور المركزي الذي لعبه الدين، وبالذات أفكار حركة الإصلاح الديني لمارتن لوثر، في تشكيل العقيدة الفكرية والدينية والأخلاقية والتشريعية للمهاجرين المؤسسين لأمريكا، الذين اتّخذوا من شرائع التراث اليهودية الخرافية دستورًا مدنيًّا وشريعة دينية غير مكتوبة إلّا أنّها محسوسة الأثر والتأثير، ملموسة النتائج والعواقب، شريعة دينية متجذرة في صلب النواة الصلبة والعميقة للدولة الأمريكية ورجالاتها.

34. بينت الدراسة أنّ العقيدة البروتستانتية الصليبية وشرائعها المستمدة من شرائع التراث اليهودية الخرافية، كان لها الدور الأبرز والأساس في تبني الماسونية وما احتوته، ممّا أدّى إلى التعاطف والتكاتف مع شعب الله المختار، ومع مطالبه للعودة إلى أرضه! وذلك حدث قبل أن تؤسس الحركة الصهيونية العالمية بزمن بعيد، وقبل أن تعقد الصهيونية مؤتمرها الأول في بازل في سويسرا.

35. أبرزت الدراسة تكامل دور الجماعات الدينية المسيحية المتصهينة على اختلاف مسميّاتها، بتوحّدها على العداء السافر للمسلمين والعرب والفلسطينيين على وجه الخصوص، ودعمها اللامحدود لليهود قديمًا وحديثًا، وكيف وصل

تأثير هذه الجماعات إلى أعلى مستويات التنسيق والتكامل مع أهداف وتوجهات شريعة الغاب التوراتية والتلمودية والماسونية والصهيونية في نهاية القرن العشرين، وبداية القرن الواحد والعشرين وصولًا ليومنا هذا.

36. أكّدت الدراسة على الأثر الجليّ والواضح لدور الخلفيات الدينية للرؤساء الأمريكيين المؤسسين واللاحقين، ومن جورج واشنطن إلى دونالد ترامب، في تبنّيهم لكافة الخرافات اليهودية، والعمل على تذليل الصعاب أمام تحقيقها، بدءًا من الضغط على الدولة العثمانية ومرورًا بإقامة كيان اليهود الغاصب فوق الأرض الفلسطينية، والمساهمة بتوفير كافّة مقوّمات الحياة له، كالاحتياجات الأمنية والعسكرية والمالية الائتمانية والاقتصادية، وصولًا لدعم سياسي عقائدي ديني لا محدود، وحماية من المحاسبة والمحاكمة أمام المحاكم الدولية، وفي محافل الأمم المتحدة وذلك عبر الفيتو الأمريكي البروتستانتي التلقائي، الذي غدا أداة تحت تصرف يهود الغاب.

37. أوضحت الدراسة أنّه لا يمكن بحال من الأحوال الحديث عن العلمانية في أمريكا بنفس المعنى السائد الذي يعني عدم وجود دور للدين في الحياة الأمريكية، ذلك أنّه على الرغم من الفصل بين الدين والدولة في أمريكا، والذي يدفع البعض الواهم والساذج للقول بعلمانية أمريكا، إلّا أنّ هذا الفصل جاء كمطلب ديني نتيجة لأفكار حركة الإصلاح الديني لمارتن لوثر- والذي تبنّى كلّ ما جاء في العهد القديم...عهد شرائع التراث اليهودية- وليس نتيجة للتنكر للدين، كما حدث في الدول الكاثوليكية، أو حتى الإسلامية التي تنكرت للدستور الرباني المستمد من القرآن الكريم.

38. أكدت الدراسة على أن العودة إلى التاريخ والتعمق في الخلفية الدينية المؤطرة

للعلاقات البروتستانتية اليهودية والأمريكية الإسرائيلية، هو وحده الذي يقدم تفسيرًا مقنعًا لتلك العلاقة وخفاياها، والخطيئة المهلكة أنّ من يقرؤون التحيّز الأمريكي لليهود وكيانهم الغاصب بعيون سياسية وإستراتيجية واقتصادية وجيوسياسية، يغفلون حقيقة تاريخية على قدر كبير من الأهمية والخطورة وهي أنّ الصهيونية المسيحية الأمريكية البروتستانتية سبقت الصهيونية اليهودية الإسرائيلية في الزمان والمكان وفي التكتيك والهدف والإستراتيجية، وحتى في الرؤيا الدينية الخرافية.

39. نؤكد على أنّه لا سبيل لنا للخلاص من خرافة اليهود الدينية سوى بالعودة إلى الله وشريعته، فنحن المسلمون عباده وخلفاؤه على هذه الأرض، فبإسلامنا وشريعته الحقّة نبدّد وهم الخرافة، ونعيد تفعيل ميزان العدل، لإحقاق الحقّ وإعادة تحرير أرض بيت المقدس من دنس يهود شريعة الغاب والخرافة.

40. نؤكّد على الأخذ بما جاء بفتوى للأزهر بما يخصّ الصلح مع إسرائيل، عندما كان الأزهر أزهرًا مزهرًا حاميًا للشريعة الإسلامية الربانية، تقول لجنة الفتوى في الأزهر: « إنّ الصلح مع إسرائيل لا يجوز شرعًا، لما فيه من إقرار الغاصب على الاستمرار في غصبه مغتصبه وتمكينه، والاعتراف بأحقية يده على ما اغتصبه، وتمكين المعتدي من البقاء على دعواه، فلا يجوز للمسلمين أن يصالحوا هؤلاء اليهود الذين اغتصبوا أرض فلسطين واعتدوا فيها على أهلها وعلى أموالهم، بل يجب على المسلمين جميعًا أن يتعاونوا على اختلاف ألسنتهم وألوانهم وأجناسهم لردّ هذه البلاد إلى أهلها، ومن قصّر في ذلك أو فرّط فيه، أو خذّل المسلمين عن الجهاد أو دعا إلى ما من شأنه تفريق الكلمة وتشتيت الشمل، والتمكين لدول الاستعمار، من تنفيذ مخطّطهم، ضد العرب والإسلام

وضدّ فلسطين، فهو في حكم الإسلام مفارق جماعة المسلمين، ومقترف أعظم الآثام»، ونؤكد على عدم الأخذ من الأزهر في هذا الزمان، حيث غدا مطية للحاكم والسلطان.

التوصيات

1. نوصي بإيلاء الدراسات الدينية المقارنة الاهتمام الجاد والصادق، وذلك لتبيان الحقائق والوقوف عليها، وإدراك أنّ غربال غربان الباطل لن يحجب بحال من الأحوال نور شمس الحقّ، ذلك أنّ الباحث الجادّ سيرى ويري عباد الله أنّ الشريعة الإسلامية الربّانية هي الحقّ كلّ الحقّ، وأنّ الشرائع التراثية اليهودية ليست سوى الباطل الذي ما كان لنا أنّ نعرفه حقّ المعرفة ما لم نقارنه بنقيضه وداحضه ومفنّده.
2. نوصي المسلمين والعرب أن يعلموا علم اليقين أنّهم من المتربّص بهم، وأنّهم من المتربصين! قال الله –عز وجلّ – في محكم التنزيل: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾ إنّنا لا نخشى تربّصهم بنا إحدى الحسنيين، فمرحبًا بالشهادة في سبيل اللهِ –سبحانه وتعالى– ومرحبًا بالنصر الإلهي المؤزر، أمّا المغضوب عليهم والضالون فنحن نتربّص بهم عذابًا يصيبهم من عند الله – سبحانه وتعالى – أو عذابًا ربّانيًّا يكتبه الله لهم على أيدينا، فتربّصوا إنّا معكم متربّصون.
3. نوصي المسلمين أن يدركوا أنّه حين يتاح لهم أن يدخلوا المعركة ضدّ يهود شريعة الغاب الخرافية، أن يكون هذا الدخول تحت راية الشريعة الإسلامية الربّانية ناسخة الشرائع وخاتمتها، وأنّه يجب عليهم أن تكون حربهم هذه حرب

استئصال وإبادة وإفناء لتلك الشرذمة الضالة مسلوبة الإرادة، ففي ذلك اليوم سيحقّ الحقّ ويزهق الباطل، ويختبئ اليهود خلف الحجر والشجر، فيصيح الحجر والشجر بملء صوته يا مسلم يا عبد الله، خلفي يهودي، تعال فاقتله.

4. نوصي بأن تكون الشريعة الإسلامية الربانية المصدر الأوّل لتشريعاتنا ولكلّ ما تأخذ به الأمّة الإسلامية من قوانين، ذلك أنّ الوحي الإلهي هو أساس تلك الشريعة، ففي القرآن والسنة من الممهدات ما يقنع المخاطب والمكلّف بهذا القانون الإلهي، وأنّ في الالتزام به والنزول على أحكامه رضا الله ورسوله، وثواب المسلم نفسه في الدنيا والآخرة.

5. نوصي المسلمين بالأخذ بعين الاعتبار أنّ الشريعة الإسلامية تقوم على مصادر وأصول لا بدّ من اعتمادها، وعلى رأسها القرآن الكريم وسنّة سيّدنا محمّد -صلّى الله عليه وسلّم- وأنّه لا بدّ من هذه السنّة النبويّة بجانب القرآن، وذلك لتبيّن مجمله، وتوضح ما يحتاج إلى تبيان وإيضاح، فلولا السنة النبوية ما عرفنا تمام أحكام الصلاة والصوم والزكاة والحج... وغيرها؛ لذلك فالحذر كلّ الحذر من الدعوة إلى الاكتفاء بالقرآن، فهي دعوة تخفي كامن الإلحاد في صدور الذين يدعون إليها وينتصرون لها.

6. نوصي بالاطّلاع على حقيقة خرافات شرائع التراث اليهودية، وذلك لتفنيد خرافة أسفار التوراة والتلمود، وتفنيد خرافة شعب الله المختار، وخرافة الأرض الموعودة، الأرض التي قُتل أهلها وهُجّروا بدعم من حقّ العودة الخرافي، الذي اختلقه كهنة شريعة الغاب اليهودية، لكي يبرّروا أفعالهم الإجرامية الدموية بحقّ الفلسطينيين والعرب والمسلمين، فالمشروع الاستعماري الصهيوني ما كان له أن ينجح لولا تلك الخرافات والخزعبلات التي امتلأت بها عقول اليهود ومن

والاهم من نصارى وغيرهم.

7. نوصي بفهم ماهية شريعة الغاب اليهودية ووظيفتها المتمثلة بحماية الهوية القومية للشعب اليهودي المختلق والمجتزأ من قوميات إثنية متعدّدة الأعراق، فشريعة الغاب الخرافية والمختلقة تجسّد بوتقة الصهر والاندماج لمعادن البشر الخسيسة، التي ما زادها صهرها إلّا انحطاطًا في خلقتها البشرية، وأخلاقها الحيوانية اللاإنسانية.

8. نوصي الباحثين بشرائع التراث اليهودية بالتمعن جيدًا في الانشقاقات المذهبية التي تميّز الطوائف الدينية اليهودية على اختلافها، والتي تدَّعي أنّ التنطّع والتشدّد بتطبيق شريعة الغاب والخرافة؛ دليل على الطهارة والصفاء والإخلاص، فدائمًا يجب أن يكون هناك يهوديّ متشدّد ليثبت أنّه الأكثر التزامًا وإيمانًا بالشرائع والأوامر والنواهي، التي نضحت بها التوراة والتلمود المختلفان والمنسوبان زورًا وبهتانًا لسيّدنا موسى -عليه السلام-.

9. نوصي عامّة المسلمين وخاصّتهم عند العمل على إدانة اليهود بأن تكون هذه الإدانة ممّا قالته ألسنتهم الكاذبة، وخطّته أيديهم الآثمة؛ فعلى سبيل المثال لا الحصر، وبحسب ما كتب جهارًا نهارًا بالتلمود، فالمسيح أُعدم بحكم من محكمة حاخامية، بتهمة عبادته للأصنام، واحتقار السلطة الحاخامية، فالشرائع التراثية اليهودية الخرافية التي تذكر إعدام اليهود للسيد المسيح، سعيدة تمامًا بتحمّل مسؤولية ذلك، حتّى إنّ الرواية التلمودية لم تأتِ بتاتًا على ذكر الرومان.

10. نوصي بالمجاهرة بحقيقة شريعة الغاب اليهودية، والتي تمثّل انحطاطًا أخلاقيًّا ما بعده انحطاط، وأنّ لهذا الانحطاط تبعاتٍ اجتماعية وإنسانية وسياسية، شديدة الأثر والتأثير على الشريعة جمعاء، إذ ينبغي ألّا ننسى أنّ خرافات شرائع

التراث اليهوديّة هي التي تستحوذ على عقول اليهود ومَن والاهم من الصليبيين.

11. لمّا كانت شريعة الغاب اليهودية، وشرائع التراث اليهودية الخرافية والنبوءات الواردة فيها اختلاقًا، تلعب الدور الرئيس في تشكيل العقيدة والعقلية الأمريكية، وعقلية النخب وصنّاع القرار، ورجالات الدولة الدينية العميقة في أمريكا، فإنه لا بدّ لنا- نحن الفلسطينيين والعرب والمسلمين- من عملِ دراساتٍ وأبحاثٍ معمّقة للتوراة والتلمود والإنجيل، بل للإنجيل والتوراة والتلمود على اختلافها، وذلك لفهم حقيقة التوجهات المستقبلية التي يمكن أن تفضي إليها مثل تلك الكتب الخرافية ونبوءاتها، ذلك لأنّ الخبرة التاريخية التي تجلّت لنا في هذه الدراسة وما سبقها من دراسات وأبحاث لأساتذة أفاضل، تشير إلى أنّ النبوءات التوراتية وخرافات شريعة الغاب اليهودية هي من صاغت وجهة النظر الأمريكية تجاه قضايانا الإسلامية والعربية والفلسطينية.

12. يوصي الكاتب صنّاع القرار الغيورين على الشريعة الإسلامية الربانية بأن يأخذوا بالحسبان عند التعاطي أو التعامل مع الغرب (الصليبي، الكاثوليكي، والأرثوذوكسي، والبروتستانتي) الدور الديني الذي يلعبه الدين في حياة صنّاع القرار الأوروبيين والأمريكيين وانعكاساته على قضايانا الإسلامية والعربية، وبالذات ما يخصّ القضية الفلسطينية، فقد آن الأوان لفهم الحقيقة الجلية المرة التي يحاول مرجفو ومنافقو الأمة الإسلامية طمسها... تلك الحقيقة المتمثلة في أنّهم يدّعون العلمانية واللادينية لتلك الدول الصليبية وقادتها، إلّا أنّ للدين الأثر الأكبر والأعظم على قراراتهم المتعلقة بنا نحن أهل الشريعة الإسلامية، حيث نرى نحن أنّ الكيان اليهوديّ الغاصب لبيت المقدس هو رأس حربة دينية مسمومة غُرس في قلب الإسلام والمسلمين، أمّا الغرب الصليبي والأمريكي

فهو يعتبر أنّ هذا الكيان الغاصب مشروع إلهي ربّاني قدري لا يقبل الإزالة، فهل ندرك مدلول ذلك في الوقت الذي يترسّخ فيه أثر سندان الصليبيين الضالّين يومًا بعد يوم، ومدى تكامل عمل ودور هذا السندان مع مطرقة اليهود المغضوب عليهم؟.

13. لأنّها في حقيقتها حرب دينية عقائدية شرائعية فنحن نوصي بضرورة وحتمية الأخذ بالاعتبار أهمية العامل الديني عند التعامل مع أي طرف دولي، ذلك أنّ جل السفراء والوسطاء والخبراء ورؤساء لجان التحقيق وتقصّي الحقائق، ورؤساء وأعضاء لجان المنظمات الدولية والأممية هم من اليهود أو البروتستانت أو الأصوليين الصليبيين أو المسيحيين المتصهينين، الذين يتم الدفع بهم إلى المنطقة الإسلامية والعربية والفلسطينية حيث تكون المهام الموكلة إليهم موجّهة في الأصل والأساس لخدمة المشروع اليهودي الصليبي الصهيوني، وهم يقومون بتلك المهام انطلاقًا من دوافع وقناعات دينية خرافية توراتية تلمودية، ماسونية صهيونية.

14. نوصي الساعين إلى الشهادة في سبيل الله أن يدركوا حقيقة مرّة صادمة، حيث أفادت التجربة العملية الواقعية أنّ الشهادة في سبيل الله عند إخلاص النية تكون أسهل ما تكون، أمّا الحياة في سبيل الله فإنّها الأصعب والأقسى، فكلّما خلصت النية عند من ابتغى الحياة في سبيل الله فإنّ المشوار يطول وطريقه تزداد وعورة، لذلك فإنّ الباحثين عن نصرة الله والإسلام والشريعة يكابدون ويعانون في سبيل الحياة لله أشدّ ما يعانون، ولعونهم فإنّ على واحدنا أن يكون للكلّ، وكلّنا يكون للواحد ما دام واحدنا وكلّنا لله، وفي سبيل الله سيعيش ويستشهد.

15. يوصي الكاتب المسلمين والعرب والفلسطينيين بحتمية إعادة صياغة

إستراتيجياتهم ومنطلقاتهم الفكرية، واضعين نصب أعينهم مركزية العامل الديني لفهم السياسة الأمريكية العلنية والتي تخفي في جوفها الدولة الدينية العميقة والمتجذّرة، حيث أنّ فهم المسار التاريخي الذي أدّى إلى تهوّد المسيحية البروتستانتية وتحوّلها لمجرّد خادم مخلص لشريعة الغاب اليهودية، هو المدخل الأوحد والصحيح لفهم السياسة الأمريكية تجاه الفلسطينيين والعرب والمسلمين.

16. لسنا عديمي التمييز، لذلك نوصي بضرورة التمييز بين الطوائف المسيحية الصليبية المختلفة، الكاثوليكية والأرثوذوكسية والبروتستانتية، فالبروتستانتية المنتشرة في بريطانيا وهولندا والدول الإسكندنافية وأستراليا وأمريكا وكأقلّيات مختلفة في دول أخرى، هي التي تدعم اليهود وكيانهم الصهيوني الغاصب من منطلقات عقائدية دينية.

17. نوصي حكّام بلادنا العربية والإسلامية بإدراك حقيقة أهمّيّتهم وقدرهم عند يهود شريعة الغاب الخرافية، فبحسب ما نضح به التلمود: «فالأمميون هم الحمير الذين خلقهم الله ليركبهم شعب الله المختار، وكلّما نفق حمار، ركبنا حمارًا آخرًا». كلّما نفق حاكم حمار ركب اليهود على ظهر حمار حاكم آخر... وهكذا دواليك.

18. نوصي شعبي مصر والعراق بألّا ينسوا أو يتناسوا أنّ الدور عليهم قادم لا محال، إذا ما بقوا على ما هم عليه من سبات، فبحسب شريعة الغاب التوراتية فإنّ حدود الأرض التي منحها الربّ لشعبه المختار هي ما بين نهر مصر وفرات العراق؛ «لنسلك أعطي هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات».

19. نوصي أنصار الشريعة الإسلامية بفهم مشروطية استخلاف بني يعقوب في

الأرض المقدّسة، فهذا الاستخلاف مشروط بإقامة منهج الله وشريعته في الأرض، أمّا وقد كفروا بالله وخاتم رسله محمّد -صلّى الله عليه وسلّم- وناصبوه العداء، وألّبوا عليه قوى الكفر والطغيان، وحسدوه وأبغضوه على نبوّته وسعوا بكلّ ما آتاهم الشيطان من مكر وخبث لقتله والتخلّص منه، فإنّهم بذلك فقدوا استحقاقهم لاختيار الله واصطفائه، ونقل هذا الاصطفاء والاختيار إلى الأمّة الإسلامية التي تعبد الله وحده وتقيم دينه وشريعته، لذلك كلّما تمسّكنا بشريعة الله تمسّكت بنا العزّة والكرامة والاصطفاء، فعزّة الدنيا في الإسلام، ورفعة الإنسان في عبوديته لربّه، وذلك بالتزام منهج الشريعة الإسلامية.

20. نوصي كلّ ساعٍ إلى تحرير بيت المقدس إلى السير على طريق الإيمان والتقوى والعمل الصالح، ورأس ذلك هو الشريعة الإسلامية الربانية، فبالجباه الساجدة والأيدي المتوضّئة والأنفس الزكية والأجساد المتطهّرة والألسنة المحفوظة يقع النصر والتحرير والتمكين، قال -تعالى وتبارك-: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾.

21. أوصينا أحياء الأجساد أموات الأرواح، وآن لنا أن نوصي أموات الأجساد أحياء الأرواح، فنقول لخالد بن الوليد وللفاروق عمر ولصلاح الدين الأيوبي إيّاكم أن تعودوا إلى دنيانا الدنيئة هذه، وذلك حتّى لا تعتقلكم أنظمتنا العربية الإسلامية القمعية البوليسية، التي تحكم بشرائع دنيوية بحسب أهواء حكّامها وسلاطينها، شرائع أقرب ما تكون من شريعة الغاب اليهودية، لا تعد يا خالد، لا تعد يا عمر، لا تعد يا صلاح الدين، وذلك حتّى لا تتّهمكم تلك الأنظمة المستبدّة بالإرهاب والتعصّب والغلوّ في الدين، والخروج على الأنظمة والقوانين، قوانين شريعة الغاب والخرافة، لا تعودوا حتّى نعود نحن إلى الله

وإلى تطبيق الشريعة الإسلامية الربّانية، وعندها مرحبًا بكم بين إخوانكم عباد الرحمن، لتقودونا ونقودكم نحو النصر والتحرير.

وأخيرًا وليس آخرًا فإنّنا ندعوه –عز وجلّ - بأسمائه الحسنى وبصفاته العلا أن يردّنا إلى الشريعة الإسلامية وأن يردّ بيت المقدس إلينا، اللهمّ فكّ قيد القدس والمسجد الأقصى، اللهمّ فكّ قيد أسرانا واجعلنا من جنودك الذين يفتحون مسجدك يا ربّ العالمين، اللهمّ خذ من دمائنا ما تشاء حتّى ترضى، اللهمّ اجعل موتنا في سبيلك، اللهمّ إنّ نسألك عيش السعداء، وميتة الشهداء، ومرافقة الأنبياء، اللهمّ نبرأ إليك بما فعل السفهاء منّا، اللهمّ إنّا نبرأ إليك من تخاذل حكّامنا يا ربّ العالمين، اللهم يسّر لهذه الأمّة أمر رشدٍ تعزّ فيه أهل الشريعة الإسلامية، وتذلّ فيه أهل معصيتك من المغضوب عليهم والضالين، أمرًا يُؤمر فيه بالمعروف ويُنهى به عن المنكر، اللهم أعزّ الإسلام والمسلمين، وأذلّ الشرك والمشركين، وأعلِ اللهمّ بفضلك كلمة الحقّ والدين، أقول قولي هذا وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

بقلم الباحث الدكتور عبدالله غالب البرغوثي

المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم

1. إبراهيم محمد إبراهيم، اليهودية في أسفارها المقدّسة.

2. ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق.

3. ابن بكر جابر الجزائري، عقيدة المؤمن.

4. ابن تيمية، مقدّمة ابن تيمية في أصول التفسير.

5. ابن جرير، تفسير ابن جرير.

6. ابن حبان، صحيح ابن حبان.

7. ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، تحقيق عبد الرحمن عميرة، طبعة دار الجيل، لبنان، بيروت 1985م.

8. ابن سعد، الطبقات.

9. ابن عساكر، تاريخ دمشق، الجزء الأول، تحقيق سكينة الشهابي، طبعة المجلس العلمي، سوريا، دمشق، 1984م.

10. ابن كثير، البداية والنهاية، طبعة مكتبة المعارف، لبنان، بيروت، 1974م.

11. ابن كثير، تفسير ابن كثير، طبعة دار الأندلس للطباعة، لبنان، بيروت، 1966م.

12. ابن هاشم أبو عبد الله بن عبد الملك: السيرة النبوية، الجزء الرابع.

13. أبو الحسن الندوي، السيرة النبوية.

14. أبو العباس البلاذري، فتوح البلدان.

15. أبو الفرج ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير.

16. أبو جعفر بن جرير الطبري، تاريخ الرسل والملوك، الجزء الثالث.

17. أبو داود، كتاب الملاحم.

18. أحمد السقا، عودة المسيح المنتظر لحرب العراق بين النبوءة والسياسة، طبعة دار الكتاب العربي، سوريا، دمشق، 2003م.

19. أحمد بن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، الجزء الأوّل.

20. أحمد سوسة، العرب واليهود في التاريخ.

21. أحمد سوسة، العرب واليهود في التاريخ، حقائق تاريخية تظهرها المكتشفات الأثرية، طبعة إصدارات وزارة الإعلام العراقية، بغداد، 1972م.

22. أحمد شلبي، المسيحية، طبعة مكتبة النهضة المصرية، مصر، القاهرة، 1979م.

23. أحمد محمد باشميل، حروب الإسلام في الشام، طبعة دار الفكر، 1980م.

24. أرمسترونغ كارين، القدس مدينة واحدة وعقائد ثلاث.

25. إريك لوران، عالم بوش السرّي (الديانة والمعتقدات والأعمال والشبكات الخفية) - ترجمة سوزان قازان، طبعة دار الخيّال، لبنان، بيروت، 2003م.

26. إسرائيل فيكيلشتاين ونيل ألدر سيليبرمان، التوراة مستخرجة من التربة.

27. أسعد رزوق، إسرائيل الكبرى (دراسة في الفكر التوسعي الصهيوني) طبعة المؤسسة العربية للدراسات والنشر، لبنان، بيروت، 1973م.

28. أسعد رزوق، التلمود والصهيونية.

29. أسل حسين، معركة آخر الزمان ونبوءة المسيح منقذ إسرائيل، طبعة دار

الأمين، مصر، القاهرة، 1993.

30. ياسين سويد، حروب القدس في التاريخ الإسلامي والعربي، طبعة دار الملتقى، 1997م.

31. أكرم العمري، السيرة النبوية الصحيحة، الجزء الثاني، طبعة مكتبة العلوم والحكم، السعودية، المدينة المنورة.

32. إلياس الشوفاني، الموجز في تاريخ فلسطين السياسي.

33. إليكس جورافسكي، الإسلام والمسيحية من التنافس والتصادم إلى الحوار والتفاهم، ترجمة خلف الجراد، طبعة دار الفكر المعاصر، لبنان، بيروت، 2000م.

34. الإمام أحمد، مسند الإمام أحمد.

35. الإمام الطحاوي، العقيدة الطحاوية.

36. أنيس محمود، السلطان عبد الحميد الثاني والأطماع الصهيونية في فلسطين، 1876 – 1909

37. الباز العريني، الأيوبيون.

38. البخاري، صحيح البخاري.

39. البخاري، كتاب المغازي، الجزء الخامس.

40. بدران محمد بدران، التوراة العقل والعلم والتاريخ، طبعة مطبعة القدس، مصر، القاهرة، 1979م.

41. بطرس البستاني، دائرة المعارف، طبعة دار المعرفة، لبنان، بيروت، 1882م.

42. بنيامين نتنياهو، مكان تحت الشمس، ترجمة محمود عودة الدويري، طبعة دار الجليل للنشر، الأردن، عمان.

43. بول مركلي، الصهيونية المسيحية (1891–1948) ترجمة فاضل جتكر، طبعة قدمس للنشر والتوزيع، سوريا، دمشق.
44. بيتولد ثيولر، العالم الإسلامي في العصر المغولي، ترجمة خالد أسعد عيسى.
45. الترمذي، جامع الترمذي.
46. توماس أرنولد، الخلافة الإسلامية، ترجمة جميل معلا.
47. جان كلود جوبيو، على خطا الصليبيين، ترجمة عبد الهادي عبّاس.
48. جريس هالسل، النبوءة والسياسة، ترجمة محمد السماك، طبعة دار الشروق، 2003م.
49. جواد رفعت أتيلخان، أسرار الماسونية، ترجمة نور الدين الواعظ وسليمان القابلي.
50. جواد رفعت أتيلخان، الخطر المحيط بالإسلام.
51. جون هيوبرر، مقال: عندما تختلط الأساطير المسيحية اليهودية، جريدة الخليج الإماراتية، 10 – 2 – 2003م.
52. جوني منصور، معجم المصطلحات الصهيونية والإسرائيلية واليهودية.
53. جيل فريول، ترجمة أنسام محمد الأسعد، معجم علم الاجتماع.
54. حافظ بن أحمد الحكمي، معارج القبول بشرح سلّم الوصول إلى علم الأصول.
55. حسّان علي الحلّاق، موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية، (1897–1909)، طبعة دار الهدى، فلسطين، القدس، 1990م.
56. حسن شراب، بيت المقدس والمسجد الأقصى.

57. حسن ظاظا، الفكر اليهودي، طبعة دار القلم، سوريا، دمشق.
58. خاشع المعاضدي وسوادي عبد محمّد ودريد عبد القادر نوري، تاريخ الوطن العربي والغزو الصليبي.
59. خالد العكّ، تاريخ القدس العربي القديم.
60. خليل سركيس، تاريخ أورشليم أي القدس الشريف.
61. دونالد ب لتل، ضمن القدس في التاريخ.
62. راغب السرجاني، قصّة الحروب الصليبية.
63. رأفت الشيخ، أمريكا والعالم في التاريخ الحديث المعاصر، طبعة عين للدراسات، مصر، القاهرة.
64. رحمت الله الهندي، إظهار الحق، تحقيق خليل ملكاوي، طبعة دار الحديث، مصر، القاهرة، 1992م.
65. رضا هلال، المسيح اليهودي ونهاية العالم، طبعة مكتبة الشروق، مصر، القاهرة، 2001م.
66. روجيه غارودي، فلسطين أرض الرسالات السماوية.
67. روهلج، الكنز المرصود في قواعد التلمود، ترجمة يوسف نصر، طبعة مطبعة المعارف، مصر، القاهرة، 1899م.
68. زكي شنودة، المجتمع اليهودي.
69. زكي شنودة، المجتمع اليهودي، طبعة مكتبة الخانجي، مصر القاهرة.
70. زلمان شازر، تاريخ نقد العهد القديم من أقدم العصور حتّى العصر الحديث، طبعة المجلس الأعلى للثقافة، مصر، القاهرة، 2000م.
71. زهدي يكن، القانون الروماني والشريعة الإسلامية، طبعة دار يكن للنشر،

لبنان، بيروت، 1975.

72. ساطع الحصري، البلاد العربية والدولة العثمانية.

73. سعد أبو عزيز، قصص الأنبياء دروس وعبر.

74. سعيد حارب، منطقة الخليج العربي أمام التحدّي العقدي، طبعة مكتبة الأمّة، الإمارات العربية، دبي، 1985.

75. سليمان مظهر، قصّة الديانات، طبعة دار الوطن العربي، مصر، القاهرة، 1984م.

76. السيد الباز العريني، الشرق الأدنى في العصور الوسطى والأيوبيون، طبعة دار النهضة العربية.

77. سيد قطب، في ظلال القرآن الكريم، طبعة دار الشروق، مصر، القاهرة.

78. الشاطبي، الاعتصام، طبعة المكتبة التجارية الكبرى، مصر، القاهرة.

79. شاكر مصطفى، فلسطين بين العهدين الفاطمي والأيوبي، الجزء الثاني، طبعة الموسوعة الفلسطينية، لبنان، بيروت.

80. شاهين بك مكاريوس، أربع كتب في الماسونية، طبعة مكتبة مدبولي، مصر، القاهرة، 1994م.

81. شمس الدين السيوطي، إتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى، تحقيق أحمد رمضان أحمد.

82. شهاب الدين مقدسي، مثير الغرام في زيارة القدس والشام.

83. شوقي شعث، فلسطين أرض الحضارات.

84. جمال الدين محمد بن واصل، مفرج الكروب وأخبار ابن أيوب، الجزء الثاني، تحقيق جمال الشيال.

85. صابر طعيمة، الأسفار المقدّسة قبل الإسلام، طبعة عالم الكتب، لبنان، بيروت، 1985.
86. صالح ذياب هندي، دراسات في الثقافة الإسلامية.
87. صلاح الصاوي، تحكيم الشريعة وصلته بأصل الدين، طبعة دار الإعلام الدولية، مصر، القاهرة.
88. طاهر شاش، التطرّف الإسرائيلي.
89. الطبري، تاريخ الطبري، الجزء الثالث، طبعة دار سويدان، لبنان، بيروت، 1964م.
90. ظفر الإسلام خان، التلمود تاريخه وتعاليمه.
91. عادل زيتون، تاريخ العصور الوسطى الأوروبية، طبعة دار الكتاب، سوريا، دمشق، 1991م.
92. عارف العارف، المفصل في تاريخ القدس.
93. عباس العقّاد، الصهيونية العالمية، طبعة دار المعارف، مصر، القاهرة.
94. عبد الحيّ زلّوم، إمبراطورية الشر الجديد (الإرهاب الدولي ضدّ الإسلام) طبعة المؤسسة العربية للدراسات والنشر، لبنان، بيروت، 2003.
95. عبد الرازق قنديل، الأثر الإسلامي في الفكر الديني اليهودي.
96. عبد الرحمن آل الشيخ، فتح المجيد، شرح كتاب التوحيد.
97. عبد الرحمن زاده، الفارق بين المخلوق والخالق، طبعة شركة الأمل للطباعة، مصر، القاهرة، 1987م.
98. عبد الرضا الطعّان، تاريخ الفكر السياسي الحديث، طبعة وزارة التعليم العالي، جامعة بغداد، العراق.

99. عبد العال الباقوري، العرب وإسرائيل وفلسطين.

100. عبد العزيز الدوري، فكرة القدس في الإسلام.

101. عبد العزيز الشناوي، الدولة العثمانية دولة مفترى عليها، الجزء الأوّل.

102. عبد الغني عبود، اليهود واليهودية والإسلام.

103. عبد الغني عماد، صناعة الإرهاب، طبعة دار النفائس، لبنان، بيروت، 2003م.

104. عبد الفتاح العويسي، جذور القضية الفلسطينية، (1799– 1922م).

105. عبد الفتاح العويسي، مصر والقضية الفلسطينية قبل عام 1936م.

106. عبد الكريم رافق، فلسطين في عهد العثمانيين، الجزء الثاني، طبعة الموسوعة الفلسطينية، لبنان، بيروت.

107. عبد الله البرغوثي، العقيدة القسامية (قرآن وبندقية وسنة نبوية) طبعة دار الفرسان، الأردن، عمان، 2016م.

108. عبد الله الربيعي، أثر الشرق الإسلامي.

109. عبد الله بن عبد الرحمن الربيعي، أثر الشرق الإسلامي في الفكر الأوروبي خلال الحروب الصليبية.

110. عبد الله غالب البرغوثي (عملاء التنسيق الأمني المقدس) طبعة دار الفرسان، الأردن، عمان، 2016م.

111. عبد المنعم الحفني، الموسوعة النقدية للفلسفة اليهودية، طبعة دار المسيرة، لبنان، بيروت، 1980.

112. عبد الوهاب المسيري، موسوعة اليهود واليهودية.

113. عزمي أبو عليان، القدس بين الاحتلال والتحرير عبر العصور القديمة

والوسطى والحديثة، طبعة مؤسسة باكير للدراسات الثقافية، الأردن، عمان، 1993م.

114. عزيز سوريال عطية، العلاقات بين الشرق والغرب، ترجمة فيليب صابر.

115. علي بن محمد الجرجاني، التعريفات، طبعة دار الكتاب العلمية، لبنان، بيروت.

116. علي محافظة وزيدان كفافي، القدس عبر العصور.

117. علي وافي، الأسفار المقدّسة في الأديان السابقة للإسلام، طبعة دار النهضة، مصر، القاهرة، 1996م.

118. عماد علي حسين، الإسلام واليهودية، طبعة دار الكتاب العلمية، لبنان، بيروت.

119. عمر سليمان الأشقر، الرسل والرسالات، طبعة مكتبة الفلاح، الكويت، الكويت 1986م.

120. عمر سليمان الأشقر، خصائص الشريعة الإسلامية، طبعة دار النفائس، عمان.

121. العهد الجديد.

122. العهد القديم.

123. عيسى بن محمّد الماضي، كيف ضاعت فلسطين، طبعة مكتبة المعلّا، الكويت، الكويت، 1988م.

124. فتحي عثمان، من فلسفة التشريع الإسلامي.

125. فؤاد حسنين، التوراة الهيروغليفية، طبعة دار الكتاب العربي، مصر، القاهرة.

126. الفيروز آبادي، القاموس المحيط، طبعة مؤسسة الرسالة، لبنان، بيروت،

.1986

127. فيصل أبو خضرا، تاريخ النفوذ اليهوديّ في أمريكا.

128. فيصل بن علي الكاملي، اليسوعية والفاتيكان والنظام العالمي الجديد، الطبعة الأولى، 2010م.

129. فيليب حتى وإدوارد جرجي وجبران حيدر، تاريخ العرب المطول، الجزء الأول.

130. قاسم الشواف، فلسطين التاريخ القديم الحقيقي منذ ما قبل التاريخ حتّى الخلافة العباسية.

131. قاموس الكتاب المقدّس، طبعة دار الثقافة، 1995م.

132. القرطبي، تفسير القرطبي.

133. القرطبي، تفسير القرطبي، طبعة دار الكتاب العربي، مصر، القاهرة، 1963.

134. قيصة كورك، السلطان عبد الحميد الثاني واليهود.

135. الكتاب المقدّس، طبعة دار الكتاب المقدّس في الشرق الأوسط.

136. كلايد برستوفتز، الدولة المارقة، الدفع الأحادي في السياسة الخارجية الأمريكية، تعريب فاضل جتكر، طبعة شركة الحوار الثقافي، لبنان، بيروت.

137. كمال الدين عمر بن العديم، زبدة الحلب في تاريخ حلب.

138. كمال الصليبي، التوراة جاءت من جزيرة العرب، ترجمة عفيف الرزاز، طبعة مؤسسة الأبحاث العربية، الطبعة العربية السادسة 1997.

139. لبنى شاكر، اخترت الإسلام، طبعة مكتبة النافذة، مصر، القاهرة.

140. مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز.

141. مجموعة من العلماء بإشراف صفي الدين المباركفوري، المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير.

142. مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، الجزء الأول، (الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل).

143. محمد الخضري، محاضرات في تاريخ الأمة الإسلامية.

144. محمد الزين، المسيحية والإسلام والاستشراق، طبعة دار الفكر المعاصر، لبنان، بيروت، 2002م.

145. محمد السماك، الصهيونية المسيحية، طبعة دار النفائس، لبنان، بيروت، 2000م.

146. محمد الشنقيطي، بوش طغيان الحماس الديني على البصيرة السياسية.

147. محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، مختار الصحاح، طبعة دار المعارف، مصر، القاهرة.

148. محمد بن أحمد السفاريني الحنبلي، لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية.

149. محمد بن سعد الزهري، طبقات ابن سعد الكبرى، الجزء الثاني، طبعة دار بيروت للطباعة والنشر، لبنان، بيروت، 1957.

150. محمد بن علي بن طباطبا بن الطقطقي، الفخر في الأدب السلطاني والدولة الإسلامية.

151. محمد بن عمر الواقدي، فتوح الشام، طبعة دار ابن خلدون.

152. محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي، لسان العرب.

153. محمد بيطار، العقيدة والأخلاق.

154. محمد جلاء إدريس، فلسفة الحرب في الفكر الديني الإسرائيلي.

155. محمد جمال الدين سرور، مصر في عصر الدولة الفاطمية.

156. محمد حامد الناصر، الجهاد والتجديد، طبعة مكتبة الكوثر، السعودية، الرياض، 1998م.

157. محمد حرب عبد الحميد، مذكرات السلطان عبد الحميد.

158. محمد ربيع، أزمة الفكر الصهيوني، طبعة المؤسسة العربية للدراسات، الأردن، عمان، 1995م.

159. محمد سهيل طقوش، تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى، طبعة دار النفائس، 2002م.

160. محمّد شديد، الولايات المتحدة والفلسطينيون بين الاستيعاب والتصفية، ترجمة كوكب الريّس، طبعة جمعية الدراسات العربية، فلسطين، القدس.

161. محمد صفوت نور الدين، المسجد الأقصى ودعوة الرسل.

162. محمد عبد الباقي الزرقاني، شرح المواهب اللدنية للفسطاني، الجزء الثاني، طبعة دار المعارف، بيروت، لبنان.

163. محمّد عبده، الأعمال الكاملة، الأجزاء الثلاثة، طبعة دار الشروق، 2006م، تحقيق محمّد عمارة.

164. محمد علي الباز، المسيح المنتظر وتعاليم التلمود.

165. محمّد عمارة، الأنبياء في القرآن الكريم والكتاب المقدّس.

166. محمد عمارة، التراث والمستقبل.

167. محمد كرد علي، الإدارة الإسلامية في عزّ العرب.

168. محمد كرد علي، خطط الشام، الجزء الثاني.

169. محمد يوسف موسى، الإسلام وحاجة الإنسانية إليه.

170. محمود إبراهيم، فضائل بيت المقدس.

171. محمود عامر، مقال: الأوضاع العامة للقدس في ظل الإدارة العثمانية، مجلة، مجلة دراسات تاريخية.

172. المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر.

173. مسلم، صحيح مسلم، طبعة دار إحياء التراث العربي، لبنان، بيروت، 1972م.

174. مصطفى خالدي وعمر فروخ، التبشير والاستعمار في البلاد الإسلامية.

175. مصطفى محمود، التوراة، طبعة دار أخبار اليوم، مصر، القاهرة، 2005م.

176. منّاع القطّان، مباحث في علوم القرآن.

177. منصور عبد الحكيم، الإمبراطورية الأمريكية... البداية والنهاية، طبعة دار الكتاب العربي، سوريا، دمشق، 2005م.

178. منى بنهام، مفاتيح كنوز الأسفار الإلهية.

179. منير العكش، حق التضحية بالآخر (أمريكا والإبادات الجماعية) طبعة رياض الريّس للكتب والنشر، لبنان، بيروت، 2002م.

180. مورس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، طبعة المكتبة الإسلامية، لبنان، بيروت، 1990م.

181. موريس بوكاي، دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، طبعة مكتبة مدبولي، مصر، القاهرة، 1996م.

182. نبيه العاقل، فلسطين من الفتح العربي الإسلامي إلى أواسط القرن الرابع

الهجري، الجزء الثاني، طبعة الموسوعة الفلسطينية، لبنان، بيروت.

183. نجيب جرجس، تفسير سفر اللاويين.

184. نزار الحديثي وخالد جاسم الجناس، أبو بكر الصديق، طبعة دار الشؤون الثقافية العامة، العراق، بغداد، 1989م.

185. نسيم شحدة ياسين، شرح أصول العقيدة الإسلامية.

186. نقولا إيفانوف، الفتح العثماني للأقطار العربية، ترجمة يوسف عطا الله.

187. نهاد عبّاس، العمليات التعرضية والدفاعية عند المسلمين، طبعة دار الحرية، العراق، بغداد.

188. النووي، الأسماء واللغات، طبعة دار الكتب العلمية، لبنان، بيروت.

189. النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، الجزء التاسع عشر، طبعة الهيئة العامة للكتاب، مصر، القاهرة، 1975م.

190. هاملتون جب، المجتمع الإسلامي والعرب والقاهرة.

191. هايل خليفة الدهيسات، القدس تاريخ وحضارة، طبعة دار كنوز المعرفة العلمية للنشر والتوزيع، الأردن، عمّان.

192. هوبرت هيركومر وجيرنوت روتر، صورة الإسلام في التراث الغربي، ترجمة ثابت عيد، طبعة نهضة مصر، مصر القاهرة، 1999م.

193. ولديورانت، قصة الحضارة، ترجمة محمّد بدران، طبعة جامعة الدول العربية، مصر، القاهرة، 1967م.

194. وليم بيكر، سرقة أمّة.

195. وهيب جورجي، مقدّمات العهد القديم، طبعة دار يوسف كمال للطباعة، 1996.

196. ياسين سويد، معارك خالد بن الوليد، طبعة المؤسسة العربية للدراسة والنشر، 1989م.

197. ياقوت الحموي، معجم البلدان.

198. يوسف الحسن، مقال: الأصولية المسيحية أصولها ونشأتها ودورها في صنع القرار الأمريكي، جريدة: الخليج الإماراتية، 10 - 3 - 2003م.

199. يوسف القرضاوي، المدخل لدراسة السنة النبوية.

200. يوسف القرضاوي، المرجعية العليا في الإسلام للقرآن والسنة، ضوابط ومحاذير في الضبط والتفسير.

201. يوسف القرضاوي، النكبة الثانية.

صـــدر للكـــاتب

#	الإصدار
1	مجموعة أقلام البندقية (الحمساوي) الجزء الأول
2	مجموعة أقلام البندقية (الجزء الثاني)
3	مجموعة أقلام البندقية (العقيدة القسامية) الجزء الثالث
4	مجموعة أفلام البندقية (الغراقدة) الجزء الرابع
5	مهندس على الطريق 1 (أمير الظل)
6	مهندس على الطريق 2 (الشهيد الحي)
7	المـــــاجدة... ذكريـات بلا حبر وورق
8	المهندسة ملاك الرحمة
9	معتوه في دائرة العقلاء
10	الميزان.. جهاد الدعوة ودعوة المجاهدين
11	بوصلة المقاومة
12	المقصلة وجواسيس الشاباك الصهيوني
13	ورود برائحة الدم
14	فلسطين العاشقة والمعشوقة
15	المقدسي وشياطين الهيكل المزعوم

تـحـت الطبـــع للكاتب

#	الإصدار
1	كش ملك.. بيادق السياسة وبنادق العسكر
2	الأمثال مقدمة الحكمة
3	الموت يذبح ويموت
4	منارات أرشدتني للطريق
5	بيان أحكام الإسلام